

تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسى والحضارى

دكتور
سيد أحمد على الناصرى
استاذ التاريخ القديم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية منقحة ومزودة

١٩٩١

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق زوت
القاهرة



تاريخ الامبراطورية الرومانية السياسي والحضاري

د.
مستيد محمد علي الناصري
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

١٩٩١

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الحالق زوت
القاهرة

Cras amet, qui nunquam amavit ; quique amavit, cras amet

غدا قد يعشق من لم يعشق

حتى الذى عشق، غدا قد يعشق!

شاعر مجهول عاش فى عصر ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

وأخيرا تحققت الأمنية الدفينة في نفسى الا وهى كتابة تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ قيام نظامها عام ٢٧ ق.م ، حتى سقوطها في الغرب عام ٤٧٦ ميلادية . ولقد حرصت على ان اقدم هذا العمل كاملا لايمانى بأن التاريخ وحدة غير قابلة للتجزئة ، فضلا على ان الفائدة من دراسات تجارب الشعوب السياسية هى الدروس المستفادة من التاريخ سواء كانت اخلاقية ام سياسية . وكيف يمكن استخراج هذه الدروس ما لم ندرس الموضوع من بدايته الى نهايته مهما اثقل ذلك على الباحث والقارئ ؟

ان تاريخ الامبراطورية الرومانية تجربة رائدة وفريدة في تاريخ الحضارة الانسانية وهى لا تهتم الباحث لتاريخ أوروبا في العصور الوسطى والعصور الحديثة فحسب ، بل لكل من يريد ان يبحث في اصول التراث الحديث للانسانية ، ومن الجدير بالذكر ان الامبراطورية الرومانية شملت في طياتها كل ما يعرف الآن بعالمنا العربى من حدود ايران شرقا حتى موريتانيا غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا حتى أسوان جنوبا . ووجدت بين شعوب هذه المنطقة العريقة من ناحية ثم ربطت بينها وبين النصف الجنوبى من القارة الأوروبية برباط سياسى وحضارى متين استمر ما يقرب من سبعة قرون من الزمان ، وعلى هذا فان دراسة تاريخ الامبراطورية امر مطلوب لدراسة تاريخنا القومى خلال فترة ليست بالقصيرة ، بل ومهمة لتبيان جذور الصراع الأبدى بين الشرق بتراثه الفكرى والانسانى ، وبين الغرب بفكرة المادى ورغبته فى السيطرة والتوسع .

وجدير بالذكر ايضا ان تراث الامبراطورية الرومانية لم يكن من خلق الشعب الرومانى وحده ولا من خلق الفكر والتراث الهلينستى فحسب ، بل هو مساهمه بين التراث الاغريقى الرومى وتراث الشرق الاوسط القديم بدولة ذات التجارب العريقة والرائدة فى مجال السياسة والفكر

الحضارى . وان روما فى عصر الامبراطورية استوعبت كل هذه التجارب واستفادت منها لتفرض السلام الرومانى العالمى . فمثلا كان امراء الامبراطورية الرومانية تجربة مصر التى اوجدت اول وحدة سياسية فى وادى النيل عرفها التاريخ وذلك حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م . كما وجدت امامها تجربة هذا البلد فى انشاء الامبراطورية التى اكتملت وتدهورت ابان الالف الثانى قبل الميلاد ، ومن حضارات بلاد ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور) تعلمت روما كيف تقام الامبراطوريات بين القوميات والأجناس واللغات المختلفة دون تدخل فى الوجود البشرى او القومى او الدينى لهذه القوميات . ولا يمكن أن نتصور ان الفكر القانونى الرومانى لم يأخذ من فكر الشرق الاوسط الشرقي اى اقل من موسوعة حمورابى القانونية والتى هى اول موسوعة تشريعية نظمت شئون الادارة والمالية فى بابل القديمة (١٧٦٢ ق.م - ١٧٥٠ ق.م) واول موسوعة تشريع عرفتھا الانسانية جمعاء . كما ان البابليين قدموا للامبراطورية الرومانية نموذجا يحتذى به فى كيفية نفاذ الدولة داخليا عن طريق تنظيم فرض السلطة على كافة اجزائها . ومن الواضح ان روما استفادت ايضا من التجربة الاثورية فى التنظيم العسكرى للامبراطورية ، وجدير بالذكر كان الاشوريون اول من قسم الامبراطورية الخاصة بهم الى ولايات قومية صغيرة مستقلة ذاتيا لكن ترتبط بالسلطة المركزية عن طريق شبكة ضخمة من الطرق العسكرية . كما قدم الفرس تجربتهم فى كيفية وضع التشريع العادل والانسانى من اجل اسعاد شعوب الامبراطورية خاصة ابان عهده قورش الاكبر ودارا .

وخلاصة القول استطاعت روما فى عصر الامبراطورية ان تستوعب كل تجارب شعوب الشرق الاوسط السياسية والحضارية ثم مزجتها بنراثھا الاغريقى الرومانى . وازافت اليه كل ما استطاعت ان تصل اليه عن طريق ابتكاراتها الخاصة ليخرج فى النهاية من هذا كله التجربة الرومانية للامبراطورية العالمية النزعة فكرا وتطبيقا ، شكلا واثرا ، فلسفة وحضارة .

اننا لن نغالى لو قلنا انه لا يوجد تجربة انسانية شغلت بال مفكرى العالم الحديث بقدر ما شغلتهم قيام الامبراطورية الرومانية وانوالها . وتصارعت فى ذلك الآراء الفلسفية والايديولوجية ، كل تحاول تفسير هذه الظاهرة من خلال وجهة نظرها . ولم يغب ذلك على بال المفكرين القدماء الذين نقل آراءهم اصحاب حركة احياء التراث الكلاسيكى (Humanists) ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وعن هؤلاء الاخيرين نقل مفكرو القرن الثامن عشر النظرية القائلة بأن تدهور وسقوط الامبراطورية

الرومانية هو تدهور سياسي في المتام الاول ادى الى تحلل حضارى للتراث الفكرى وليس نتيجة لغزرات الجرمان على الامبراطورية . وكان جيبون اول من قاد هذا الاتجاه في كتابه الخالد تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » والذي صدر عام ١٧٧٦ وقد عالجننا نفس جيبون ورد المعارضين على نظريته في الفصل الاخير من هذا الكتاب .

وبقدوم القرن التاسع عشر ، ازدادت حدة الجدل وتشعبت الآراء والنظريات وتحاربت الايديولوجيات نتيجة لتقدم مناهج التفكير السياسى والتاريخى والاجتماعى : ونتيجة لتراكم المعرفة عن التفصيلات الدقيقة عن الامبراطورية الرومانية بعد ازدياد الوعي الأثرى والنشاط الملحوظ فى مجال التنقيب والبحث عن الآثار والتراث : وجمع ذلك ودراسته وتحليله . وانحصر الصراع الفكرى بين المحللين حول ثلاثة قضايا هى : هل كان تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية نتيجة للتدهور السياسى والتحلل الحضارى وزوال التراث الوثنى بسبب اجتياح المسيحية لولايات الامبراطورية بل لاطاليا ذاتها ؟ ام انها سقطت بفعل عدوان القبائل الجرمانية البربرية وقبائل الهون القادمة من مناطق الثلوج والظلام وتآمر الشعوب الغير لائنية وتعاونهم مع العدو الخارجى ضد الامبراطورية ؟ ام هل سقطت الامبراطورية نتيجة للصراع الطبقي الاقتصادى والاجتماعى الذى عصفت بالامبراطورية خاصة خلال القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخها وادى الى انهيار مركز المدينة الحضارى والفنى وطغيان الفكر الريفى الساذج نتيجة لسيادة نظام الاقطاع والذي عبر بالامبراطورية من التاريخ التديم الى ظلام العصور الوسطى ؟

وكما قلت سابقا ، لقد ادلى كل فريق بدور من وجهة نظره ، فاصحاب نظرية المادية التاريخية القائلة بان تنظيم وسائل الانتاج هو القوة الحتمية المحركة للتاريخ ، فسروا سقوط الامبراطورية بأنه انتقال من مجتمع الرق الى مجتمع الاقطاع ، مما ادى الى انتقال الحضارة من عصر الى آخر : من القديم الى الوسيط . ويقول المؤرخون الماركسيون ان تحول الامبراطورية من عصر المجتمع القديم الى عصر المجتمع الوسيط جاء نتيجة للصراع الطبقي Conflict of Classes الذى ساد الامبراطورية فى طورها الاخير ، ويبررون نظريتهم بأن مجتمعا الرق الذى هو مصدر الطاقة الانتاجية ، وبداية عصر الامبراطورية تدهور خلال القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخها . ولم يحاول الرومان ملئ ذلك الفراغ بقوى علملة من بينهم . لأن الرومانى كان يحتقر الامال اليدوية والحرف الانتاجية ، ثم تدهورت الصناعة وتحجرت الرسائل الانتاجية حتى فى مجال الزراعة تدهور الانتاج وبالتالي افلس الاقتصاد .

وكما يلاحظ المفكر جوزيف فوجت Joseph Vogt (١) ان المؤرخين السوفيت الذين تناولوا تاريخ الامبراطورية الرومانية يحاولون اتحام ثورات العبيد كعامل من عوامل الاضمحلال والانهيار بالرغم من انهم يدركون ضالة حجم هذه الثورات التي لم تكن بالقدر الكافي لاسقاط الامبراطورية وذاك لتبرير الفكر الماركسي ، ثم عادوا فعدلوا من آرائهم قائلاً ان سقوط الامبراطورية هو نتيجة لتحالف العبيد والمستعبدين من حين (Coloni) في جبهة واحدة مع الفزاة الأجانب ضد نظام الامبراطورية . وهذا الرأي يقترب من آراء وولبانك Walbank والتي عرضناها في الفصل الأخير من الكتاب وفحواها ان سقوط الامبراطورية سببه الشلل التكنولوجي technological paralysis الذي سببه تدهور مؤسسة الرق وهي القوة الديناميكية الانتاجية في مجالات الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وسائر وسائل الانتاج الأخرى . لقد بنت الامبراطورية الرومانية اقتصادها - منذ وقت مبكر يرجع الى ما قبل العصر الامبراطوري - على هذه المؤسسة ذات الرخص ثمن الأيدي العاملة فيها . فالعبيد كانوا يساقون بالآلاف ، بـ ١٠٠٠٠٠ روما التوسعية ليعملوا بأثمان بخسة في اسواتها ليقوموا بدور القوة العاملة الانتاجية كالآلات في المصانع والمزارع في عصرنا الحديث . وبسرور الزمن أصبح العبيد هم خلاصة التكنولوجيا الانتاجية والتي بتدهورهم تدهورت ، والخطأ الجسيم الذي ارتكبه الامبراطورية هو انها لم تحاول تربية طبقة بديلة للعبيد تحل محلهم في الانتاج ووسائله . او على الأقل لم تحاول الاستعاضة عن ذلك بوسائل تكنولوجية تعوضهم عن الأيدي العاملة البشرية لانهم لم يكونوا يتوقعون نضب مصادر الرقيق بعد توقف الحروب وتطور الفكر التشريعي نحو النزعة الانسانية .

وعلى الجانب الآخر نجد مدارس مختلفة في الغرب حاولت تفسير سقوط الامبراطورية بمفاهيم اثروبولوجية ، مثل أزمة القوى البشرية ، او تدهور العنصر الروماني المبدع والخلاق نتيجة لطغيان العنصر الشرقي بفكرة ودياناته ، او اختفاء القيادة الحكيمة المتمثلة في مؤسسة السناتو التي استئصلت ابان الحروب الاهلية وابان الصراع بينها وبين الاباطرة ، واستيلاء قيادات دون المستوى من الرجال ذوي كفاءة ضئيلة او معدومة وتسيطر عليهم عقلية العبيد والعقلاء ، هؤلاء الرجال هم الذين ورثوا قيادة الامبراطورية فساروا بها الى الزوال . او كما يقول المؤرخ سيك Seek ان تطور المجتمع الروماني كما يسير نحو مبدأ استئصال الافضل Extermination of the best بعكس ما يقول دارون ان البقاء كان للاصلح .

(١) Joseph Vogt, The Decline of Rome, (English edition) Weidenfeld and Nicolson, 1965, p. 11 ff.

(٢) O. Seek : Geschichte des untergangs der antiker welt, (Berlin 1920). P. 220 - 225.

ومن الملاحظ أن معظم الذين تناولوا سقوط الامبراطورية بالتحليل كانوا من المفكرين الألمان ، ومن ثم وقفوا يدافعون بشراسة عن الاتهام القائل بأن سقوط الامبراطورية كان نتيجة لعدوان الشعوب الجرمانية عليها ، ويتزعم هذا الرأي المؤرخ النمساوي دوبسيش Dopsech الذي يرى أن الغزوات الجرمانية لم تكن أبدا سببا في انهيار الامبراطورية وأن ما حدث لا يعدو أن يكون سوى عملية إعادة توزيع للأراضي الرومانية على نطاق أوسع من العنصر الروماني ، وأن ذلك التوزيع لم يؤد أبدا إلى عودة الاقتصاد الروماني إلى البدائية أو عودة التجارة إلى التأسور ، ثم راح يعدد محاسن الجرمان وما قدموه من خدمات عسكرية للامبراطورية مستشهدا بمديح المؤرخ الروماني تاكيتوس للجرمان (١) .

ومن بين المفكرين الأوروبيين الغربيين من يرون أن سقوط الامبراطورية هو نتيجة منطقية تنماشى مع القانون الأزلي الطبيعي الذي يحكم كل شيء . وان المجتمع مثله مثل النبات والحيوان والانسان لابد أن يخضع لهذا القانون الذي يسير به من الطفولة إلى الشباب ثم الشيخوخة والسن ، ويمثل هذا الرأي أوزوالد شبنجلر وآرنولد توينبي بالرغم من أن الأخير أعاد صياغة هذه النظرية بشكل جديد . وقد تعرضنا لذلك أيضا في نهاية الكتاب .

وأخيرا نجد فريقا من المفكرين تركوا الجدل وركزوا على البحث عن الجسور الحضارية التي تربط بين الامبراطورية الرومانية وحضارة العصر الحديث عبر العصور الوسطى لاثبات أن الامبراطورية لم تمت ، ولكن تقسمت خلقا جديدا متمثلا في دويلات أوروبا . وعلى رأس هؤلاء يجيء المؤرخ فوستيل دي كولانج Fustel de Coulanges مؤلف الكتاب الخالد المدينة العتيقة La Cité Antique ، وقد انتهى الأستاذ دي كولانج من بحثه إلى أن دولة الفرنجة ورثت عن الامبراطورية الرومانية نظام الملكية المطلقة والمقدسة ، ونظام الاقطاع .

كل هذه الآراء المتصارعة عرضاها للقارئ بأمانة ودقة ، مبينين

(١) A. Dopsech : Wirtschaftliche und Soziale Grundlagen der europäischen Kulturentwicklung Von Caesar bis auf Karl der Grosse. (Wien 1918). A. Momigliano : The Conflict between paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford 1936) p. 5 f.

(٢) Fustel de Coulanges : La Cité Antique, Etude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome, Paris 1875.

وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذان عباس بيومي بك وعبد الحميد الدراخلى - إدارة الترجمة لوزارة المعارف عام ١٩٥٠ .

مناطق الضعف والقوة لكل منها مما ينمي عقلية الطالب وفكرة التاريخي ويعرفه بالأيديولوجيات التي تتصارع في عالمه المعاصر ، حتى يكون رأيا سليما ناضجا ، يتفهم من خلاله الأحداث العالمية . لكن هناك سؤال قد يطرح نفسه لماذا اخترت الجانب السياسي والحضاري لتاريخ الامبراطورية ؟

ما من شك في أن الجانب السياسي هو الهيكل الاساسي لتاريخ الامبراطورية ، كما أن الدروس المستفادة هي سياسية في المقام الأول . وهناك كثير من المفكرين الذين يرون أن السياسة هي التي تشكل الى حد كبير جوهر رافتنا ومشاكلنا الاجتماعية والاخلاقية، بل واقتصادنا ، وليس الصراع الطبقي الاجنسابي ؛ لان الطبقات المتصارعة في مجتمع ما ننسى خدائنا وتتحاذ في جبهة واحدة اذا ما تعرضت الدولة لخطر خارجي أو أزمة فورية . كما أن العامل السياسي يفوق في تأثيره حتى العامل الاقتصادي ، فعلى حد قول برتراند رسل Bertrand Russel فيلسوف العصر «أن قوة الاقتصاد تقوم على قوة الوضع السياسي في الدولة وليس العكس» ، حتى القوة العسكرية تخضع لعامل السياسة أكثر منه لعامل الاقتصاد . ولو ضربنا مثلا على ذلك لاخترنا نموذجين من التاريخ القديم أولهما الاسكندر الأكبر وانتصاره على الفرس ، وثانيهما روما نفسها وانتصارها على هانيبال . ولا نحتاج الى أدلة كثيرة لنثبت أن مقدونيا وروما كانتا أضعف اقتصاديا بكثير من بلاد الفرس الفنية وقرطاجة سيدة التجارة في البحر المتوسط ، أي أن العامل العسكري الحاسم في المعارك يضع للقوة السياسية أو على الأقل يسير معها جنبا الى جنب ، فالقوة السياسية للاسكندر وروما غطت على الضعف الاقتصادي لبلادهم ، بل وجعلتهما يتغلبان على عدوهما ذي الاقتصاد القوي . كما أن الحروب التي شكلت جزءا كبيرا من تاريخ العالم القديم لم تكن صراعا بين طبقات المجتمع بل كانت صراعا بين قوى سياسية متنافسة مثل الصراع الذي نشب في العصور الوسطى بين البابوات والاباطرة . وما السياسة الا علم التاريخ الحديث وما التاريخ سوى علم السياسة في الماضي .

اما عن الجانب الحضاري الذي يشمل التراث الفكري والفني والادبي والمهني ، فهو المعيار الحقيقي لما وصلت اليه حضارة الامبراطورية . وهو تجسيد للمناخ الذي كان يشكل عقليات وتفكير القادة والمواطنين في تلك الفترة ، بل أن الأحداث السياسية كثيرا ما نبعت من مسببات غير سياسية . ولهذا فان منهج تدريس التاريخ في العصر الحديث لم يعد وفقا على الأحداث السياسية كالحروب والعلاقات والمعاهدات ، بل أصبح يشمل الجانب الفني والادبي والتكنولوجي لانه لا يمكن فصل الأفكار السياسية عن المناخ الفكري العام الذي نبعت منه .

وأخيرا أرجو أن أكون قد وفقت في تقديم عمل راق من الناحية الأكاديمية ومبسط من ناحية العرض ، فالباحث الذى يريد أن يتعمق سوف يجد كل المراجع التى استطلعت أن أجسبها . ومن توضيحى لمصادر كل فترة ؛ كما بينت من أن آخر الموضوعات الجانبية التى مازالت تحتاج الى توضيح وتصلح لأن تكون موضوعات بحث ودراسات جديدة ؛ أما القارئ الذى يريد المعرفة المباشرة وسوف يجد سردا مبسطا وبعيدا عن التعقيد .

وفى نهاية المطاف أود أن أقدم شكري وامتناني لكل الذين ساعدوني فى إعداد هذا البحث من أساتذة أفاضل علمونا وندين لهم بجميل أبدى ، ومن زملاء أفاضل خاصة زملائي أعضاء هيئة التدريس بشرع الخرائط بقسم الجغرافيا الذين ساعدوني فى إعداد الكثير من الخرائط التوضيحية التى تضمنها هذا الكتاب ؛ ولا يفوتنى أن أقدم شكري لزوجتى العزيزة التى وفرت لى الراحة والهدوء اللازمين لإنجاز هذا العمل . وفى الخاتمة أشكر أسرة مكتبة دار النهضة العربية وحسن تعاونهم وأسرة مطبعة جامعة القاهرة الذين تحملوا كثرة المراجعة والتصحيح ولولاهم لما خرج هذا العمل بهذا الشكل الى الوجود .

وفوق كل ذى علم عليهم

المؤلف

ليلة القدر من شهر رمضان المعظم عام ١٣٩٤ هجرية
الموافق الثانى عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٧٤ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ثلاث سنوات مضت منذ ان صدرت الطبعة الاولى ، وبالحال من سنوات حافلة بالتجربة العلمية والتعرف على الجديد والتحاور مع العلماء والمختصين من مصريين واجانب ، بل ومع الطلاب ، كلها افادت في تطوير هذا الكتاب في صورة جديدة عرفت فيها ما هو جدير بالتعمق وما هو واجب حذفه وتبسيطه ، لان الهدف - كما قلت في تقديم الطبعة الاولى - هو ان يكون هذا العمل في خدمة القارئ والباحث على السواء .

ولقد كان سرورى عظيما ان الكتاب قد ملاً بالفعل فراغا كبيرا في المكتبة العربية ، ووفر على المتحدثين بلغة الضاد البحث عن المؤلفات والمقالات والابحاث التى كتبت بلفات عديدة في اماكن متفرقة من العالم ، بل ساهمت بالجديد الذى وصلنا اليه خلال تنقيبي في مصر اغنى ولايات الامبراطورية بالوثائق والاثار .

ولقد سعدت ايضا ان رفاق البحث العلمى اثنوا عليه خاصة زملاء المتخصصون في الدولة البيزنطية وتاريخ اوروبا في العصور الوسطى واذكر منهم زميلى ورفيقى طريقى الوعر الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع والاستاذ الدكتور على الفمراوى .

اما الذين نقلوا عن كتابى دون ان يشيروا اليه في مؤلفاتهم فيكفينى انهم تأثروا به واستفادوا منه ، وهو غاية المرام ، لان هذا الكتاب لم يعد ملكا لى بل ملكا لكل باحث ، والله وحده هو الذى يكافىء « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

والله اسأل الهداية والرشاد

المؤلف

الفصل الأول

المصادر الأدبية والتاريخية

قد يدهش الباحث عندما يعرف أن أهم عصور الإمبراطورية الرومانية ازدهارا وهي الفترة ما بين عام ٢٧ ق م و ٢٣٥ ميلادية أقلها مصادر بالنسبة للتراث التاريخي الضخم الذي خلفه الرومان وراءهم .

فمثلا يجيء على رأس المصادر الخاصة بقيام الإمبراطورية الرومانية مؤلف كاسيوس ديون (١) عن « التاريخ » ولكن أهمية هذا المؤلف تتلاشى عندما نجد أن الأجزاء الخاصة بالموضوع ناقصة أو موجزة مثل الجزء الخاص بالفترة ما بين ٩ ق م و ٤٦ بعد الميلاد ، الكتب ٥٥ - ٦٠) ويزداد اسفنا عندما نجد الأجزاء التي تتناول الفترات التالية لذلك عديمة الجدوى تماما لأنها عبارة عن شذرات من هذا وهناك حاول المؤرخون جمعها ولكنها لا تزال الفجوات تملؤها ويسودها التناقض والغموض .

كذلك تلعب الحوليات (Annales) للمؤرخ الروماني تاسيتوس

(١) وأحيانا يعرف باسم ديوكاسيوس كوكيانوس Dio Cassius Cocceianus وهو اغريقي من آسيا الصغرى ولد بمدينة نيقية (Nicaea) بمقاطعة بيشنيا بآسيا الصغرى عام ١٥٥ بعد الميلاد . ثم هاجر الى روما بصحبة والده الذي كان أحد حكام ولايات آسيا الصغرى وهناك تلقى تعليمه ودرس القانون ثم دخل مجلس السناتو عام ١٨٠ ميلادية واصبح برايتورا قضائيا عام ١٩٣ ميلادية في عدد من الولايات الإمبراطورية في آسيا الصغرى . ولما كان متشددا في تطبيق القانون والعدالة فقد حقد عليه القضاة الآخرون لدرجة انهم طالبوا برأسه . ولما تولى الإمبراطور الكسندر سيثروس اختاره شريكا معه في القنصلية عام ٢٢٩ ميلادية . ولكن « كاسيوس ديون » أقر أن يتقاعد ويعود الى موطنه الأصلي ليعكف على كتابة موسوعة التاريخ الروماني باللغة اليونانية مدعيا أن هاتفا أمره بذلك في نومه وبعد عشرين عاما من العمل الشاق خرج عمله الضخم الذي يتناول تاريخ الإمبراطورية منذ أسطورة اينياس الطروادى حتى عام ٢٢٩ ميلادية . وجاء ذلك في ثمانين مجلد مقسمة حسب عصور الإمبراطورية المختلفة معطيا الأهمية لعصر الإمبراطورية وخاصة الفترة التي عاصرها . ويرى البعض انه حدى حذر بوليبيوس Polybius الاغريقي وتيتوس ليفيوس الروماني سواء في المادة أو المنهج .

ويعاب على كاسيوس ديون ايمانه بالخزعبلات والخرافات وتملقه لحكام عصره ومحاباته للعصر الإمبراطورى وحقده على أبطال العصر الجمهورى من أمثال شيشرون وبروتوس وكاسيوس . ولكن كل هذا النقد لا يقلل أبدا من حيوية وصفه ووضوح هدفه ودقة عباراته .

Tacitus دورا هاما في تغطية أحداث هذه الفترة خاصة ما بين ١٤ و ٦٦ ميلادية برغم الفجوات التي تتخللها ، ولحسن الحظ ترك لنا نفس المؤلف مؤلفا آخر اسماه بالتواريخ Historiae وهو يغطي أحداث عام ١٩ ميلادية وجزءا كبيرا من أحداث عام ٧٠ ميلادية (١) .

ويدعم هذه المصادر مؤلف سويتونيوس Suetonius (٦٩ - ١٤٠ ميلادية) عن سير الإباطرة (De Vita Caesarum) ابتداء من قيصر أغسطس حتى دوميتيانوس وهو مرآة تعكس نفسية وأسرار الإباطرة وطباعهم (٢) .

هذا بالإضافة الى العديد من المؤلفات التاريخية وكتب السيرة المتنوعة خاصة كتاب فيلايوس باتركولوس (٣) Velleius Patereulus (١٩ ق.م - ٣١ ميلادية) الذي ينظر اليه المؤرخون على أنه من عمل رجل هاو متزلف ومتملق عديم الدراية بالفكر والمنهج التاريخي ولكنه بالرغم من هذا صورة بيضاء لحياة تiberius التي جعلها أغلب المؤرخين سوداء قائمة .

(١) لقد اعتمدت طبعات متعددة لمؤلفيه الحوليات والتاريخ وعن حياته وأسلوبه التاريخي أشير على التعمق بالاطلاع على المراجع التالية :

G. Boissier, Tacite (English edition 1906) ; M.L.W. Laistner The Greater Historians. Tacitus, 1947 ; B. Walker, The Annales of Tacitus, a study in the writing of History, (1952) ; C.W. Mendell Tacitus, The Man and his work, (1958).

ويجىء على رأس هذه المراجع المؤلف الهام :

وعن تاكيتوس انظر ص ٢٢٥ . R. Syme : Tacitus, 2 vols (1958).

(٢) هو جايوس سويتونيوس ترانكويللوس Gaius Suetonius Tranquillus ولد حوالي عام ٧٥ ميلادية وعمل معلما للفنانين والخطابة في عصر الامبراطور تراجان وكان صديقا حميما للكاتب بلينيوس الأصغر . وقد اختاره الامبراطور هادريان كاتبا لأسراره . ولكنه اعتزل في عام ١٢١ وكرس نفسه للبحث والتاريخ وربما مات قرب منتصف القرن الثاني الميلادي ، الجدير بالذكر أن ماكسيموس في عصر الكسندر سيفيروس أكمل مؤلف سويتونيوس وذلك ابتداء من سيرة الامبراطور نيرفا حتى الامبراطور ايلجابالوس . ومن مؤلفات سويتونيوس الأخرى كتابه « من مشاهير الرجال De Viris illustribus من شعراء وأدباء وخطباء ونحويين ومؤرخين حتى عصر دوميتيانوس .

(٣) ولد ماركوس فيلايوس باتركولوس حوالي عام ١٩ ق.م وخدم في الجيش وتدرج في سلك المناصب حيث تولى البرايتورية القضائية في عصر أغسطس وتيبريوس وفي عام ٢٩ - ٣٠ م انتهى من كتاب موجز التاريخ الروماني في جزئين Historiae Romanae libri duo

ولكنه مؤلفه جاء على عجل لأنه جندي محترف ومؤرخ هاو ولهذا فهو ينقصه التعمق والتحليل . فضلا عن تولفه لتيبريوس ولال البيت الامبراطوري وللارستقراطيين ، لكنه بالرغم من ذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن الأحداث التي وقعت ما بين ١٦٨ ق.م و ٣٠ ميلادية .

ولا يفوتنا ابدا مؤلف الجغرافى الاغريقى سترابون Strabon لانه وصف بعض الولايات الرومانية وصف شاهد عيان . ومن المحتمل ان يكون سترابون قد كتب مؤلفه هذا فى الفترة ما بين ١٧ — ١٨ ميلادية (١) .

المصادر الأثرية والوثائقية : —

ولو تركنا مؤلفات المؤرخين وكتاب السير الى الوثائق المباشرة عن الامبراطورية والاباطرة خاصة اكداس النقوش اللاتينية والاغريقية التى جمعها العلماء والاثريون من كافة انحاء الامبراطورية ويجىء على رأسها تلك الوثيقة التاريخية الهامة «سجل منجزات المؤله أغسطس» Res Gestae Divi Augusti التى وسنها سيخ مؤرخى التايزخ الرومانى مومسن Mommsen بأنها ملكة النقوش اللاتينية Queen of Latin Inscriptions واثارته من مناقشات حادة سواء عند تحقيقها أو تفسيرها والتى تعرف باسم اثره انقرة Monumntum Ancyranum وهذه الوثيقة تسرد انتصارات المؤله أغسطس التى اخضع بها العالم وتبين اصلاحاته الادارية والاموال التى انفقها على الشعب الرومانى (٢) .

(١) ويكتب باللاتينية سترابو Strabo ولد لأسرة ميسورة الحال فى بلدة أماسابا Amasacia فى ينطوس على البحر الأسود عام ٦٢ ق.م . وهناك درس الفلسفة ثم تخصص فى كتابة التاريخ على نسوة الجغرافيا ومن أجل ذلك قام برحلات الى آسيا الصغرى ومصر التى تعمق فى جنوبها حتى حدود النوبة ، كما زار بلاد اليونان وإيطاليا وتردد على مدينة روما . ومن أشهر مؤلفات سترابون كتابه الجغرافيا Geographica الذى وصل لدينا منه سبعة عشر كتابا والذى انتهى منه حوالى عام ٢٣ ميلادية وهو أول مؤلف من الجغرافيا السليمية لأوروبا وأفريقيا وآسيا يصل الى أيدينا .

(٢) من المعروف أن الامبراطور قيصر أغسطس كان قد أودع عند راهبات الربة العلدراء ثستا وثائق الدولة ومن بينها سجل أعماله الذى أوصى بنشره على الشعب الرومانى بعد مماته وذلك بنقشه على عمودين من النحاس يقاما أمام ضريحه كما ذكر المؤرخ سويتونيوس (Suetonius, Augustus, 4) ، وقد عثر على نسخة كاملة من هذا السجل منقوشة على حائط معبد « روما وأغسطس » فى مدينة انقره Anchyra بمقاطعة جلاتيا بآسيا الصغرى ومن ثم عرف باسم اثر انقرة . ومن الجدير بالذكر أن النقش اللاتينى جاء مشفوعا بترجمة اغريقية . كما عثر على أجزاء من هذا الخطاب فى كل من أبولونيا وانطاكية فى مقاطعة بيسيديا Pisidia بآسيا الصغرى . ويتضح من لهجة أغسطس أنه أراد أن يوجه حديثه الى الشعب الرومانى فى المقام الاول ويتلخص الخطاب فى ثلاثة نقاط هى : الوظائف الرسمية والألقاب الشرفية التى تمتع بها أغسطس أثناء حكمه ، والنفقات التى أنفقها على الدولة سواء من حسابها أو من حسابها الخاص ، وأخيرا أعماله فى السلم والحرب . ولحسن حظ الدارسين أن أستاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على قد قام بترجمة هذه الوثيقة الى العربية وعلق عليها بدقة تدعو للاعجاب والدعنة وللمزيد عن هذا النفس وأهميته أنظر

Monmsen : Res Gestae Divi Augusti p. 149 - 151 ; Nephtali Lewis and Meyer Feinhold, Roman Civilization vol. 2. The Empire, (New York Columbia University Press 1955) pp. 9 - 19.

وبالإضافة الى هذه الوثيقة جمع المؤرخون اعمال اغسطس وكل ما كتب عنه وعن أعماله (١) . الى جانب المصادر الاثرية كالمسكوكات (٢) . وكما اضاءت مصر العالم الهلينستى بفضل رمالها التى حفظت الآلاف من الوثائق البردية سواء الرسمية او الشخصية ، فانها أمدت الدارس بوثائق سياسية وإدارية لاغنى عنها ، تضع بين يدي الباحث مرآة صادقة للناس وللحياة ومشاكلها فى احدى ولايات الامبراطورية كما تكشف الحفائر الاثرية خاصة فى اقليم الفيوم سواء فى كرانيس أو باخياس . ان هذه الوثائق والآثار لا تلقى الضوء على مصر فحسب بل ان بعضها يلقي الضوء على الامبراطورية بكل عصورها وفتراتها (٣) .

وبفضل المصادر القديمة امكن للمؤرخين الاوربيين من عمل الكثير من الدراسات التاريخية والحضارية عن الامبراطورية الرومانية . وهذه المؤلفات كثيرة ومتعددة خاصة المقالات التى تتناولها الحوليات

(١) من أشهر هذه الاعمال :

H. Malcovati, *Caesaris Augusti Operum Fragmenta* (3rd edition 1948) ;
V. Ehrenberg and A.H.M. Jones, *Documents illustrating the reigns of Augustus and Tiberius* (2nd edition 1955).

(٢) من أهم مصادر المسكوكات عن الامبراطورية :

H. Mattingly : *British Museum Catalogue of the Coins of The Roman Empire*, vol. I, II ; H. Mattingly and Others : *The Roman Imperial Coinage*, I (1923) ; also of *Roman Coinage, Essays Presented to H. Mattingly*, (Oxford 1956).

بالإضافة الى :

C.H.V. Sutherland, *Coinage in Roman Imperial Policy* (1951).

(٣) انظر :

M.I. Rostovtzeff, *Economic and Social History of the Roman Empire* (Oxford 1926).

بالإضافة الى كتاب :

J.G. Winter : *Life and Letter in the Papyri* (University of Michigan Press 1933), part I, pp. 7 - 45.

وتد اعطيته أهمية خاصة لانه لمس الناس والحياة بطريقة حولت التاريخ الى واقع حى . كذلك فان كتاب استاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على عن « مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية » يعتبر وثيقة أساسية لدراسة ما تلقىه المصادر المصرية من اصواء على الامبراطورية الرومانية وعلاقتها بمصر .

والدوريات (١) المخصصة لدراسة التاريخ الرومانى . ولكن هناك بعض المؤلفات الحديثة التى وصلت الى درجة عالية من المادة التاريخية مما يميزها عن غيرها وارتقى بها الى درجة المصادر الاصلية ذاتها (٢) .

(١) وانصح الباحث بالاطلاع على سلسلة المقالات المختلفة التى تناولها مجلة Journal of Roman Studies (Issued by Society for the Promotion of Roman Studies, London).

وكذلك الاطلاع على ما يجىء فى مجلة Latomus, Brussels). لأنها أكثر المجلات تخصصاً فى دراسة الامبراطورية الرومانية خاصة الولايات الغربية . فضلاً عما ينشر من وثائق من آن لآخر فى مجلة Journal of Egyptian Archaeology. (Egyptian Exploration Fund, London).

وله علاقة بالامبراطورية الرومانية ومظاهر حكمها فى مصر (٢) من أشهر المؤلفات الحديثة عن الامبراطورية الرومانية : J.B. Bury ; A History of Roman Empire From its Foundation to the Death of Marcus Aurelius 27 B.C. — 180 A.D. (London, 1900). M. Grant, From Imperium to Auctoritas (1946) ; T. Rice Holmes The Architect of the Roman Empire, vol. II, (1931) ; R. Syme, The Roman Revolution, (1934) ; J. Buchan, Augustus Caesar (1937) ; H.H. Scullard, From the Gracchi to Nero (1963) ; A. Boak & W. Sinnigen. A History of the Romans To 565 (1965) ; F.C. Bourne : A History of the Romans, (1966). Fritz M. Heichelheim & Cedric Yeo, History of the Roman People, 1962.

كما اننى اذكر بشدة مجموعة المقالات التى تضمنها كتاب Fergus Miller and Others : The Roman Empire and its Neighbours Weiderfield & Nicolson, English edition (1967).

فضلاً من المصادر الاخرى التى اشترت اليها فى حواشى الكتاب فى اماكن متفرقة . (م ٢ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

الفصل الثاني

قيصر اكتافىوس يقيم دعائم النظام الامبراطورى
(٢٧ ق م - ١٤ م)

اكتيوم وفترة التحول العظيم (من ٣١ ق م - ١٣ يناير عام ٢٧ ق م)

لقد صدق السير جون هامرتون عندما وصف معركة اکتيوم بأنها احدى المعارك الفاصلة في تاريخ العالم (١) . وبالرغم من أن تفاصيل المعركة لا تزال غامضة حيث لا نعرف شيئاً عن أطوارها ولا طبيعتها ولا عن الوقت الذى استغرقته - الا انها بالقطع لم تكن بالحجم القتالى المروع - كما زعم الشعراء الرومان (٢) وأجهزة دعاية اغسطس المنتصر ، بل لم تعد أن تكون اشتباكا بحريا هزيلا بين سفن انطونيوس تسانده كليوباترا من ناحية ، وبين سفن اوكتافىوس من ناحية أخرى ، وذلك بالقرب من شواطئ بلاد اليونان القريبة عند اکتيوم . وتقول معركة بحرية لأن الجيوش البرية للجنرالين المتقاتلين لم تشتبك على الإطلاق ، وعلى أى حال فقد انهار انطونيوس على الفور قبل أن تنتهى المعركة .

لقد كان وضع انطونيوس هزيلا ، وكانت قواته منهارة معنويا بسبب ظهور كليوباترا وسطهم وتدخلها في رسم الخطط العسكرية وخنوع قائدهم لها مما اذهب عنه سحر القيادة ، فضلا عن التفكك في قيادته العليا . كما أن دعاية اکتافىوس - الموجهة الى جنود انطونيوس - كانت قوية ومؤثرة - بانهم يرفعون السلاح من أجل ملكة شرقية مكروهة بين الرومان لصلفها . فضلا عن اعلانه الصفح عن الجنود الذين يعودون الى صوابهم ويتركون معسكر انطونيوس ليعودوا الى معسكره . هذه الدعاية كانت السبب في هروب عدد كبير من جنود انطونيوس الى معسكر اکتافىوس .

واغلب الظن أن قيسانيوس اجريبا Vepsanius Agrippa وفیق اکتافىوس وساعده الأيمن كان يعلم جيدا الأحوال في معسكر انطونيوس

(١) السير جون هامرتون - موسوعة تاريخ العالم - الجزء الثالث ص ١٥ ٥٥ .

(٢) عبد اللطيف أحمد على - مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية -

دار النهضة العربية (١٩٧٢) ص ٢٠ - ٤٠ .

وكليوناترة ، من ثم اشار على سيده ضرب الحصار البرى حول انطونيوس وقطع المؤن والامدادات عنه لان هذا كاف باسقاطه ، وبالفعل كان الحصار مدمرا اذ ادى الى النقص فى الطعام وانتشار الوباء وانهيار الروح المعنوية .

ولعل من اكبر الأخطاء العسكرية التى ارتكبها انطونيوس هو انه قام بكل مستقبله فى تلك المعركة البحرية ربما اعتمادا على قوة اسطول الاسكندرية واعتقادا منه بضعف منافسه فى القتال البحرى ، ولكن اكتافىوس كان قد تعلم كثيرا من معاركه البحرية ضد سكستوس بومبى فى صقلية واصبح لديه قوة وخبرة لا بأس بها فى القتال البحرى ، وعلى اى حال فقد كان لانطونيوس فرص احسن فى القتال البرى خاصة ان كان له ماضى مجيد فى العسكرية الرومانية . كذلك فات انطونيوس ان الجنود اذا طال انتظارها فى الخنادق هبطت معنويتها ولياقتها القتالية وهذا ما حدث لقواته البرية التى تركها فريسة للسام والانتظار الممل تحت ظروف صعبة ومن ثم راحوا يهجرونه ذرافات ووحدانا .

بدأ الالتحام البحرى فى صيف عام ٢١ ق.م عند اكتيوم قرب الشاطئ الغربى لبلاد اليونان وخلال اعنف مراحل القتال تسلمت كليوباترة يتبعها الاسطول المصرى عائدة الى الاسكندرية ولا يزال الباحثون يتحرون السبب وراء هذا الانسحاب المفاجيء . فقد قال الشعراء الرومان ان الملكة المصرية ولت هاربة مذعورة (١) من هول بأس اكتافىوس وقال آخرون ان الملكة تخلت عن غريمها فجأة عندما ثبت عدم جدواه ، ولكن اغلب الظن ان مستشاريها نصحوها بعدم الاقدام على دخول هذه المفامرة الخاسرة .

وارتكب انطونيوس خطأ افدح عندما ترك المعركة برمتها وانسحب فى اثر مليكته تاركا قواته بلا قائد فقدم النصر هدية الى اكتافىوس ، وكان نصرا كاملا بأدنى خسارة . ولأول مرة فى تاريخ المعارك الحربية تقرر معركة بحرية مصير بلد بعيد يقبع وراء البحار على بعد آلاف الأميال أعنى مصر وممتلكاتها والاسرة الحاكمة عليها الا وهى اسرة البطالسة الذين حكموا مصر زهاء ثلاثة قرون من الزمان .

لقد أدرك اغسطس بعد اكتوبر ان مصر قد سقطت فى حجرة وان النصر على مرمى البصر ولهذا فلم يتعجل دخولها بل اثر أن يستجم ويريح

(١) Vergilius, Aen. VIII, 707—710 ; Propertius III, 11, 52—54.

انظر عبد اللطيف أحمد على - المرجع السابق ص ٢٢ ، ص ٣٦ .

جنوده بينما يعود هو الى روما ليعالج بعض المشاكل التى سببها بعض الجنود المسرحين أثناء غيابه وللأطمئنان على سلامة إيطاليا .

وفى الفاتح من اغسطس عام ٢٠ ق . م دخلت قوات أكتافىوس الاسكندرية واستولى عليها دون مقاومة ، واحتراما للمدينة وتاريخها أمر جنوده بعدم التعرض للناس ولالأموالهم (١) والتقى خطابا بالافريقية الركيكة أبدى فيه احتراماً وتقديراً وزار قبر الاسكندر المؤسس وخلع عليه تاجه ووفاه ما يستحق من التبجيل ولما عرض عليه زيارة قبور ملوك البطالمة رفض (٢) وربما كان ذلك بمثابة اعلان انهاء عصر البطالمة وعدم الاعتراف بهم ملوكا وبأنه ورث الاسكندرية مباشرة عن الاسكندر الأكبر .

وفى أثناء الاحتفال بانتصاره جاءته الأنباء بأن أنطونيوس قد انتحر . وكان على كليوباترة ان تختار بين أمرين اما الموت الكريم واما ان تساق أمام عربة أكتافىوس « وتدخل روما فى ثياب الذل والعار ويحدجها جمهور شامت متهمكم من على اليمين واليسار سوف يطالب براسها نظير ما سببت لروما . واختارت الملكة المصرية الموت الذى يليق بملكة تنحدر من سلالة كلها ملوك ، وبطريقة تتناسب مع مظهرها كوريثة لعرش الفراعنة وتظهرها كقديسة أمام المصريين ، وربما رمزا للمقاومة ضد الرومان (٣) ، اختارت الملكة المصرية حية الكوبرا رمز التاج المصرى لتموت بها كرسالة وداع للمصريين بأنها عاشت وماتت مصرية . وبموت الملكة آلت الاسكندرية ومصر الى حوزة روما وأعلن أكتافىوس للشعب الرومانى على ظهر عملة تذكارية خاصة سكها احتفالاً بهذه المناسبة « أن مصر قد سقطت » (Aegypto Capta)

هكذا لم تكن اكتوبر بالمعركة ذات الأهمية الخاصة من الناحية العسكرية الا أن نتائجها السياسية كانت خطيرة للغاية . فقد قلبت النظام الجمهورى القديم رأسا على عقب . فقد أصبح أكتافىوس وحيدا لا ينافس وانتهى قرن من الحروب الأهلية بدأ منذ عام ١٣٣ ق.م وبدأ عصر من السلام . وبضم مصر الى حوزة الولايات الرومانية نجحت روما فى ضم جميع اقطار البحر الأبيض المتوسط - الذى أضحي بحيرة رومانية (Mare Romanum) - فى بناء سياسى وحضارى واحد دام فترة تزيد عن خمسة قرون من الزمان هى التى نسميها الامبراطورية الرومانية .

Dio Cassius LI, 16, 3-5.

(١)

Suetonius, Divus Augustus, XVIII, 1.

(٢)

(٣) عبد اللطيف أحمد طلى - المرجع السابق ص ٢٩ .



اغسطس مؤسس الامبراطورية الرومانية (هدية من متحف الفاتيكان)

هكذا كان ضم مصر نقطة التحول من عصر الجمهورية الرومانية الى عصر الامبراطورية الجديد .

أكتافيانوس يرسي دعائم الحكم الامبراطورى :

هكذا شاء القدر لهذا الشاب النحيل البنية ، الفولاذى الإرادة ان يكون المخطط والمنفذ لعالم روما الجديد وحاكمها وسيدما لمدة اربع واربعين عاما . لقد شكك الناس فى قدرته على ذلك اول الامر لاعتلال صحته وضعف بنيته ، ولكن التصميم والعزم الذى لايشنى ، واللذان اتصف بهما منذ اول عهده بالسياسة والحرب - غيرا نظرتهم اليه .

فعن طريق التبني كان أكتافيانوس يتمتع بلقب «قيصر» السحري وبحقه فى المطالبة بأنه وريث ذلك الراحل العظيم ، والى جانب ذلك احاط أكتافيانوس نفسه بفريق من الاصدقاء المخلصين الذين آمنوا به ايمانا مطلقا وكانوا على استعداد للتضحية من اجله .

كما ذكر أكتافيانوس نفسه عن طريق المصاهرة والنسب فأصبح بعد زواجه من ليفيا ممثلا لاسرتين من أعرق أسر الرومان هما : آل ليفيوس Livii وآل كلاوديوس Claudii ، بالإضافة الى ذلك فقد تفاخر بأنه ابن الشعب وعلى وجه التحديد ابن مقاطعة Velitrae (١) الإيطالية . ولذا استطاع ان يفهم عقلية ابن الريف ويكسبه الى جانبه . وبذلك نجح فيما فشل فيه قيصر . كما اتاح له ذلك القدرة على تفهم مشاكل الولايات لأنه كان ايطالى النظرة والتفكير ، يفهم الأمور جيدا من كل جوانبها .

وبالنسبة لمشكلة الحكم أدرك هذا الثورى العنيف صاحب أجهزة الدعاية القوية الجبارة ان أمامه بعد اكتيوم - طريق واحد لا سواه - وهو طريق التجربة والخطأ . لقد كشفت له الخبرات الطويلة والمريرة أن وجه الدكتاتورية قبيح ولذا رفضها عندما عرضها عليه السناتو والشعب الرومانى ثلاثة مرات لأنها على حد تعبير ديوكاسيوس « تتنافى مع سنة السلف » ، كما علمته أحداث القرن السابق عليه انه من باب المفامرة والجنون أن يعيد حكم البلاد الى حظيرة السناتو والطبقة الأوليجارخية المتزمتة او الى حكم دهماء المدينة وترابنة العامة الديماجوجيين .

وابان الصراع مع غريمة كان أكتافيانوس كان اغفى نفسه من عضوية

(١) وهى مدينة تقع فى مقاطعة فولوسيك ومكانها الآن فيليتري Veletri على

الطريق المؤدى الى نابلى .

الائتلاف الثلاثي الثاني الذي كان قد أقيم دستوريا بالاشتراك مع أنطونيوس ولبيدوس بحجة انقاذ الجمهورية ، لأننا نجده يحكم البلاد في العام التالي لموقعة اكتيوم كقنصل منتخب من الشعب يشاركه زميل موال له ، كما أننا نجد مركزه مدعما بنتيجة الاستفتاء الشعبي *Consensus Italiae* الذي أجرى بين الإيطاليين عام ٣١ ق.م قبل بدئه رحلة « النصر أو الموت » ضد أنطونيوس وكليوباترة . وكان السناتو قد كال له الكثير من المناصب والسلطات الدستورية والشرفية تعيد الى الأذهان ما كاله السناتو من قبل ليوليوس قيصر وادى الى تحوله الى دكتاتور مطلق ولهذا رفض أن يستجيب للفوغاء ويصبح دكتاتورا لأنه كان اذكى من أن يقبل ذلك .

أكتافيوس يتنازل عن سلطاته الاستثنائية : ١٣ يناير ٢٧ ق.م

لم يغب عن بال أكتافيانوس أن جشع السلطة هو الذي أودى بحياة قيصر ولذا أعلن في خطبه درامية القاها أمام السناتو في ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م أنه متنازل عن كافة السلطات الاستثنائية وغير الاستثنائية التي وضعها السناتو بين يديه إبان الحرب ضد ملكة مصر . وأعلن أنه يضع الدولة وممتلكاتها بين يدي السناتو والشعب الروماني . ولكن لم يكن ذلك يعني عودة النظام الجمهوري القديم بوسائله وأجهزته أو تنازل أكتافيانوس ورغبته في ترك كرسي الحكم لأنه كان يعلم أنه لو فعل ذلك فإن المآسى والفوضى التي أعقبت تنازل سوللا المفاجيء عن حكم البلاد - سوف تتكرر وأنه وحده سوف يكون المسئول عن الدماء التي سوف تراق .

وعلى أي حال فقد أدرك أكتافيانوس أن عقلية المواطن الروماني تميل الى التمسك بالتقاليد السياسية والأخلاقية (١) . ولذا لم يتردد في تطبيق النظام الجمهوري القديم بقدر ما هو مفيد وعملي ونافع .

ولذا جاءت إصلاحاته اعلانا من نهاية عصر الحكم بقوة السلاح وبداية عصر جديد *Novus Status* يكون الحكم فيه عن طريق السلطات الدستورية التي يمنحها السناتو والشعب أو بمعنى آخر حكم دستوري شكلا وانفرادي فعلا على حد تعبير كاسيوس ديون .

Ronald Syme, The Roman Revolution, Oxford Clarendon Press (1939), p. 324 ; cf also F.B. March, The Founding of The Roman Empire, London (1931) ; also M. Hammond ; The Augustan Principate (1933). (١)

Suetonius, Divus Augustus, XXVIII, 2 ; cf Ronald Syme, op. cit., p. 320 and 324. (٢)

وقد وصف لنا ديو كاسيوس (١) احساس أعضاء السناتو ازاء هذه الخطبة بين مصدق وغير مصدق . فهؤلاء الذين صدقوه وصفقوا طويلا له كانوا يعرفون نواياه الكامنة في قاع نفسه ، أو هؤلاء الذين خدعهم بكأؤه على الجمهورية المنهارة وقلقه على أحيائها ، ومن الذين سرهم ما فعل أولئك الذين كانوا قد يؤسوا مما جرت به ديموقراطية الجمهوريين على البلاد من حروب وبلاء وفقدتهم الثقة في أى جدوى منها وهناك فريق صفقوا له خوفا ورعبا منه ، حتى الذين لم يصدقوه ما كانوا ليَجْرُوا على معارضته بل أغلقوا فواهيم والشكوك والأسى تعصف بأفئدتهم .

من الجدير بالذكر ظهر فريق من أعضاء السناتو ممن كانوا يطالبون بحكومة « الرجل القوى » حتى ولو كانت ملكية وهؤلاء كانوا من الحالمين بأيام يوليوس قيصر . ووجدوا في بطل اكتيوم قيصرا جديدا ومن ثم طالبوا بمضاعفة أجر جنود الحرس الخاص به حتى يشددوا الحراسة عليه لأنه الزعيم الذى يمكن ان تتحقق فيه افكارهم .

وبهذا الاعلان اجبر اكتاثيوس السناتو والشعب الرومانى على اعادة النظر في النظام الجمهورى القديم من اساسه . ولكى يظهر امامهم ديموقراطيا زاهدا في السلطة أعلن انه يضع الجمهورية وممتلكاتها بين يدي الشعب والسناتو ، وانه يضع نفسه أيضا تحت تصرفهم بصفته خيرا في ادارة شئون البلاد ، وخاصة بعض الولايات الرومانية التى يتوجب أن تكون تحت ادارته نظرا لوضعها الحرج سواء من الناحية العسكرية أو من ناحية الاستقرار الحضارى والاندماج فى الامبراطورية . ومن ثم قسم ولايات الامبراطورية بينه وبين السناتو ، فأعطى السناتو حق الاشراف على حكم الولايات المستكنة التى يكون فى استطاعة السناتو ان يجنى ثمارها بدون خوف من التمرد أو الثورة خاصة وانه لم يعد يملك زمام الجيوش .

وبهذا المنطق منح السناتو والشعب الرومانى حق الاشراف على ولاية افريقيا ، ونوميديا (الجزائر) ، وولاية آسيا ، وبلاد اليونان ، بالإضافة الى أبيروس الملحق بها وكذلك دالماتيا ، ومقدونيا ، وصقلية ، وكريت ، وبرقة (قورنى) . والأراضي الليبية الواقعة حولها ، وبنطوس ، وأراضى بينيا ، Bithynia الواقعة حولها وسردينيا ، وبايتيكا (Baetica) فى جنوب اسبانيا .

اما اكتافوس فقد احتفظ لنفسه بما تبقى من اجزاء الامبراطورية ويشمل ما يتبقى من اسبانيا ، وكل بلاد الغال وما حولها ، وبلجيكا ، والمانيا حتى حدود الراين ، وفي الشرق احتفظ قيصر اغسطس لنفسه بولاية سوريا الكبرى ، (سوريا لبنان وفلسطين الحالية) وفينيقيا (ساحل لبنان) وكيليكيا بآسيا الصغرى ، وقبرص ، بالرغم من انه اعاد قبرص وجزءا من بلاد الغال التربونية فيما بعد الى سلطة السناتو مقابل دلماتيا) ، بالاضافة بالطبع الى مصر التي جعلها ملكا خاصا بالامبراطور لوضعها الفريد .

لقد تحكم اكتافوس في هذه الولايات تحكما كاملا لانه كان يملك القيادة العسكرية العليا فيها والخزانة الخاصة بها ايضا لانه فصل بين الخزانة العامة للدولة والخزانة الخاصة بولاياته . اذا كان نصف ملك من الناحية الفعلية .

ولنتساءل الآن ما هي السلطات التي حكم اكتافوس بمقتضاها بعد ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م .

١ - الامبريوم العسكري Imperium :

لقد كان رد الفعل لتنازل اكتافيانوس عن كافة سلطاته الاستثنائية حادا وعنيفا ، فقد أدرك نبلاء المجتمع الروماني Nobiles ان لا فائدة من مقاومة هذا البرجوازي الجديد homo novus . اذ عرف اكتافيانوس على الفور مناطق الضعف في جهاز الدولة وهو الجيوش الخاصة التي كان يجندھا الجنرالات لحسابهم ويملون بواسطتها ارادتهم على الدولة منتهزين ضعف السناتو وعدم قدرته على فرض سلطته عليهم . عندئذ قرر بصفته حاميا للسلام وللدستور ان السلطة العسكرية يجب ان تكون في يده وحده فقط .

كان ذلك في الثالث عشر من يناير عام سبع وعشرين قبل الميلاد عندما أصدر السناتو والجمعية العامة قرارهما بمنحه سلطة الامبريوم العسكرية لادارة الولايات التي كان السلام لا يزال صعب تحقيقه فيها مثل اسبانيا وبلاد الغال وسوريا . كافة المناطق التي سيطر عليها كراسوس وبومبي وقبصر من قبل : انصف الى ذلك منبر التي اصبحت بعد الفتح الروماني عام ٣٠ ق.م ولاية رومانية Provincia Romana ذات وضع فريد وكانت المدة التي ماتت لسيارت هذا الامبريوم عشر سنين فاقلة للتجديد .

ولكننا لا نستطيع الجسم عما اذا كان اكتافيانوس قد تمتع بسلطة
الامبريوم البروقنصلى Imperium Proconsulare حكم هذه الولايات أم حكمها
بالامبريوم الذى كان يتمتع به القنصل imperium Consulare (١) .

(١) اهتم مؤرخون القرن التاسع عشر وعلى الاخص مومسن Mommsen بالبحث عن
الحيثيات والأسس القانونية التى حكم أغسطس بمقتضاها مما أدى الى افراق أنفسهم
فى القوانين (excessive legalism) والخلافات القانونية ، يرى مومسن أن الهيكل
القانونى لنظام الحكم الذى أقامه أغسطس كان حكما ثنائيا (dyarchy) يقوم عليه
وعلى السناتور الذى شاركه السلطات . أما الأستاذ بيورى Bury فيرى أن سلطات أغسطس
العليا تكمن فى حصوله على الامبريوم البروقنصلى الذى منح له عام ٢٧ ق.م لمدة عشر سنوات
ثم راح يحدده الى أن مات ويقول الأستاذ بيورى أن هذا الامبريوم البروقنصلى كان هو عينه
الذى منح الى بومبى بمقتضى قانون جابينوس Lex Gabinia وأنه لايسرى الا خارج ايطاليا
extra urbem ولما كان أغسطس يريد أن يحكم داخل ايطاليا intra urbem وخارجها
فقد لجأ الى بدعة هى مزج الامبريوم القنصلى الذى لا يسرى الا داخل الدولة
بالامبريوم البروقنصلى الذى لا يسرى الا خارج الدولة ولهذا السبب يقول بيورى أنه
حرص على تولى القنصلية منذ عام ٢٧ ق . م ولمدة أربع سنوات متتالية . ثم تنازل عن
القنصلية حتى لا يعطى الفرصة لاعدائه باتهامه باحتكار الحكم مستمضا من سلطاتها
بالامبريوم الاعلى Imprium maius من ناحية ، والسلطة التريبونية
tribunica potestas التى حصل عليها عام ٢٣ ق . م من ناحية أخرى ، ولهذا
يعتبر بيورى أن هذا هو التاريخ الفعلى لقيام النظام الامبراطورى . وبالرغم من هذا
لم يترك أغسطس القنصلية بل شغلها من آن لآخر مثلما حدث عام ٥ ق . م كذلك سلح
نفسه ببعض حقوق وسلطات القنصلية مثل حق دعوة السناتور الى الاجتماع ius primae
relationis وحق الجلوس بين القنصلين وحق السير مسبونا ومتبوعا بحملة شار
الامبريوم Fasces ويضيف بيورى الى ذلك احتمال حق اصدار القرارات العليا
ius edicendi انظر :

Death of Marcus Aurelius 27 B.C. — 180 A.D. (London 1900) pp. 12-15.

J.B. Bury, A History of the Roman Empire from its Foundation to the

أما مؤرخو القرن العشرين فقد انتقدوا سابقهم بالاغراق فى التساهلات القانونية
Excessive legalism بالرغم من أنهم استفادوا من هذا التراث القانونى وبجاء على
راس هؤلاء جونز (Jones) الذى يرى أن جماهير أغسطس التى اعتمد عليها فى ثورته
كانت الطبقة المتوسطة ذات العواطف والمشاعر الجمهورية القديمة ولهذا سلح نفسه بالسلطة
التريبونية tribunicia من أجل حماية ورعاية الطبقة الوسطى ad tuendam pleben
ومن أجل انذار الارستقراطية بأنه سوف يستخدم هذه السلطات اذا ما حاولوا الخروج عن
طائفة . ويقول جونز أن أغسطس لكى بحصل على هذه السلطة عام ٢٣ قام بتمثيلية كبرى
عندما تظاهر بالانسحاب من الحكم فى وقت عصيب وهو يعلم مدى حاجة السناتور اليه وأنه قام
بهذه التمثيلية السياسية لسببين الأول هو أن يتخلص من الاتهام بأنه يهدف الى السيطرة
الكاملة على السلطة مما قد يؤدى الى تدبير المؤامرات لتتخلص منه مثلما فعلوا مع أبيه
بالتبني بوليوس قيصر ، وثانيهما لكى يعود وهو فى مركز أقوى يستطيع منه انتزاع المزيد من =

بهذا الاجراء اقسام اكتافيانوس الولايات الرومانية بينه وبين السناتو، ومن الناحية النظرية لم يكن لديه حق استخدام الامبريوم فوق الولايات التابعة للسناتو ، لكنه من الناحية العملية والواقعية كان يتدخل في شئون ادارتها عن طريق السلطة المدنية Auctoritas (١) وهكذا قضى اكتافيانوس الى الجيوش الخاصة بتركيز السلطة العسكرية بين يديه مستخدما سلطات استثنائية ما امكن حاذيا حدود الذين فعلوا ذلك امثال الجنرال الرومانى لوكوللوس Lucullus وبومبى وقيصر . ولكن اكتافيانوس دعم من سلطاته العسكرية حتى اضحى القائد الاعلى والاوحد لجيوش الامبراطورية .

= السلطات . وهذا ما تم بالفعل . ويقول جونز أن الحكم الداخلى هو الذى كان مشكلة أغسطس وليس حكم الولايات البعيدة والتى كان يتحكم فيها بمقتضى حق الامبريوم الاعلى . انظر :

A.H.M. Jones, The Imperium of Augustus, Journal of Roman Studies, 41 (1951), pp. 112-119.

اما سالون فانه يعتقد ان السلطات القانونية التى تمتع بها أغسطس حصل عليها منذ وقت طويل وواحدة تلو الأخرى وعن طريق الصفقات مع السناتو والتعب في وقت الازمات لانه كان انتهازيا بطبعه ولديه مخطط طويل المدى للاستيلاء الهادى والتدريجى على الدولة . ويختلف سالون مع جونز في أهمية السلطة الربيونية في حكم أغسطس لانه وصف هذه السلطة بأنها سلطة سلبية (يقصد دفاعية) ولا يرى فيها بديلا عن سلطة القنصلية ذات السلطات الايجابية ومنذ تنازل أغسطس عن القنصلية وهو يستعيز تدريجيا عنها ويسلح نفسه تدريجيا بسلطانها وأنه بدأ هذه السياسة منذ عام ٢٣ ق . م وفي عام ١٩ ق . م حصل على المزيد من سلطات القنصل بعد رفض « القنصلية الابدية » بل أنه تولى القنصلية بنفسه من أن لآخر مثلما حدث عام ٥ وعام ٢ ق . م ليس فقط من أجل اعلانه تزكية حفيديه للحكم بل لاعادة الوفاق والهيبة الى القنصلية بعد أن سلبها مجدها القديم حيث لم يعد يتولى القنصلان الحكم لمدة عام بل ستة أشهر تبدأ من الاول من يناير وينتهى في آخر يونيو بصفتها Consules Ordinarii بينما يتولى قنصلان اخران Consules Suffecti من اول يوليو وحتى الانتخابات الجديدة وأن أحر سلطة حصل عليها أغسطس هي أبو الوطن عام ٢ ق . م وهي وإن كانت شرفية إلا أنها توجت سلطاته وأصبح في المركز الممتاز Optimus Status الذى لا يقل عن مركز الملك ، انظر :

E.T. Salmon, The Evolution of Augustus' Principate, Historia, VI (1956), pp. 456-459 ; 470-478.

وقد لخص لنا دونالد كل هذه المناقشات انظر :

Donald Kagan, Problems in Ancient History, Volume Two, The Roman World. Macmillan Company, London, New York, 1966, pp. 311-330.

ومن المزيد من المناقشات حول نوعية الامبريوم الذى حكم به أغسطس انظر : Scullard op. cit., p. 425 note 5.

(١) لشرح معنى وحقوق هذه الكلمة انظر مقالة :

G.E.F., Chilver, Historia, (1950), p. 420. ff.

٢ - لقب أغسطس (المهيّب) :

وفي ١٦ يناير عام ٢٧ ق.م انعم السناتو على اكتاثيانوس بلقب أغسطس Augustus وهو لفظ اشتق من الفعل اللاتيني Augeo (١) وبمعنى المهيّب وترجمته باليونانية سيباستوس Sebastos كما يعنى الاسم أيضا « المختار بحسن الطالع » (٢) .

وكان هذا اللقب يضاف على اكتاثيانوس هبة خاصة لأنه كان يطلق أساسا على الآلهة . وقد قدم له هذا اللقب عندما أهدى إليه « اكيل من القار ودرع تعبيرا واعترافا بشجاعته واقدامه وعدله وتقواه Pietas ومن أجل عفو عن أعدائه » (Ob cives servatos) .

لقد بلغت الولايات التي كان يحكمها أغسطس من الاتساع ما جعله غير قادر على حكمها بمفرده . ولذا اناب عنه ممثلين شخصيين Legati لحكمها ولم يكن هذا يحدث لأول مرة لأنه سبق للسناتو أن منح بومبي حق حكم أسبانيا من ٥٤ - ٤٩ ق.م . وهو مقيم في روما عن طريق مندوبيه .

لقد ترك أغسطس (٢) الولايات القديمة للسناتو بالرغم من أن بعض الولايات السناتوروية كان حديث العهد بالنظام والثقافة الرومانية مثل مقدونيا وأفريقيا مما تطلب وجود قوات رومانية على استعداد لقمع الثورات ، إلا أن معظم الجيش الروماني كان يعسكر في الولايات التابعة لأغسطس لتصبح تحت سيطرته وتصرفه .

وهكذا تحكم أغسطس في الفرق الرومانية legiones والتي كان يترأسها شباط حرص أغسطس أن يختارهم من بين الأسر الصغيرة والمتوسطة التي كان يحظى بتأييدها .

٣ - لقب الامبراطور Imperator :

كتب أغسطس في أعماله مفاخره « لقد نودي بي قائدا اعلا Imperator

(١) على أساس ازدياد المهابة (auctus) . مثل avium gustus

(٢) كان أغسطس يتحرق شوقا في أن يلقب باسم (رومولوس Romulus) المؤسس الأسطوري لمدينة روما وكان من أجل ذلك قد بنى قصر « البلاتيوم » Palatium فوق تل البلاتين في المكان الذي ذكرت الاساطير أن رومولوس قضى ليلته ينتظر القال لبناء مدينته ولكن أغسطس عاد وغير من راية حتى لا يعطى الفرصة لأعدائه بأنه يهدف أن يكون ملكا لأن رومولوس كان ملكا على روما . ومن ثم قبل لقب أغسطس عندما اقترحه موناتيوس بلاتكوس Munatius Plancus بعد الموافقة على طلبات أغسطس انظر :

Chenard, op. cit., p 210.

(٣) واحتفاء به بعد انتشار اكنتيوم أطلقوا هذا اللقب على الشهر الناس من السنة الرومانية وهو تاريخ سقوط مصر ولا يزال هذا الشهر في السنة الانرنية وهو شهر أغسطس .

واحدًا وعشرين مرة *Appellatus Sum Viciens Imperator* ، وكانت من عادة الجنود - منذ أيام الجمهورية - أن يهللوا لقائدهم إذا ما أحرز لهم انتصارًا رائعًا ويهتفون به امبراطورًا - أي قائدًا مظفرًا وكانت أول مرة لقب فيها أغسطس بالامبراطور بعد انتصاره في معركة موتينا *Mutina* في غاله القريبة في ١٦ إبريل سنة ٤٣ ق.م وعلى طريقة يوليوس قيصر حول أغسطس هذا اللقب إلى صفة دائمة ، بل اتخذ كاسمه الأول *Praenomen* في عام ٣٨ ق.م .

وبعد عام ٢٧ ق.م . استخدم هذا اللقب بطريقتين أي كاسمه الأول وكلقب شرفي يدل على عدد الانتصارات التي أحرزها أو بنفسه أو أحرزها له ضباطه نيابة عنه وأصبح لقب امبراطور حقًا مكتسبًا له بصفته قائدًا أعلى لجيوش الامبراطورية وصاحب الأمر والنهي في ولايات الامبراطورية . وقد وضع الاغريق معنى لقب امبراطور عندما ترجموه في لغتهم إلى - اوتوقراطور *autokrator* - أي الحاكم بأمره . وعلى أي حال سار الخلف على نهج السلف وأصبح كل حاكم روماني يعرف نفسه بالامبراطور .

٤ - السلطة التريبونية *Tribunicia potestas* :

إلى جانب الانفراد بالسلطة العسكرية في ولايات الامبراطورية كان أغسطس يتمتع بالقنصلية ويجدد انتخابه لها تبعيًا كل عام منذ ٢٧ ق.م . حتى عام ٢٣ ق.م وقد حدث في ذلك العام أن غادر أغسطس إيطاليا في حملة تآديبية ضد بعض القبائل الأسبانية التي اعتادت إثارة الشغب والقلق في الشرق والجنوب من هذه البلاد ولكن وطأة المرض اشتدت عليه وهو في ميدان القتال فرجع إلى روما . وكان القدر قد ناداه ليكتشف خيوط مؤامرة حاكمها بعض النبلاء الذين حقدوا عليه لاستئساره الدائم بالقنصلية التي كانوا يعتبرونها وظيفة من حق رجال السنسنة فقط كما كانت في الأيام الخوالي . وما أن علم أغسطس بأسماء المتآمرين حتى نسي الرحمة والعفو وعمل فيهم فتكًا وقتلًا وقد آله كثيرًا أن يجد بين المتآمرين صديقه الحميم وحليفه القديم وشريكه في القنصلية فارو مورينا *Varro Maurena* (١) وكان ذلك في عام ٢٣ ق.م هو عام الأزمة بالنسبة لحكم أغسطس إذ أطلق عليه المرض الشديد والمؤمرة الكبرى والانشقاق الحزبي حول تعيين خليفة له . فأدرك أنه لا بد من اتخاذ خطوة جريئة يهز بها النظام لاسقاط العناصر الرجعية ، فاستقال من منصب القنصلية لأنه كان يعتقد

(١) عن هذه المؤامرة مقاله .

أن شغله الدائم لهذا المنصب مغاير للتقاليد الرومانية ويحجب الفرصة من بعض العناصر المخلصة من رجال السناتو لتولى هذا المنصب الكبير ، فضلا على أن ذلك قد يظهره بمظهر المتكالب على السلطة وقد يؤدي إلى تدبير المؤامرات لازاحته كما حدث مع يوليوس قيصر .

وتعويضاً عن ذلك منح أغسطس في صيف عام ٢٣ ق.م حقوق تربيون العامة من السناتو والشعب وهي سلطة عملية بالنسبة للحاكم . وكان أغسطس قد بدأ في تسليح نفسه تدريجياً بسلطات التربيون منذ وقت سابق وحرص على الاحتفاظ بها مدى الحياة .

فمثلاً منذ عام ٣٦ ق.م كان قادراً على حق القداسة والمناعة ضد أى عقوبة أو اعتداء جسماني أو معنوي (ius sacrosancititas) ، وفي عام ٢٠ ق.م كان قد أصبح يتمتع بحق تقديم المساعدة auxilium لمن يطلبها منه والحماية لمن يلوذ به .

وأكثر من هذا وذاك فقد تمتدح سن الاعتراض Intercessio وحق دعوى الجمعية القبلية إلى الانعقاد الفوري (Ius agendi cum plebe) للتشاور معها ثم حصل على حق سن القرارات rogatio وحق دعوة السناتو للانعقاد ius senatus consulendi (١) .

وباختصار كان أغسطس يتمتع بسلطات التربيون دون أن يكون تربيوناً ، وبالطبع لم يكن أغسطس مؤهلاً لهذه السلطة الشعبية لأنه كان ينحدر بحق التبني من سلالة أسرة يوليوس وينتمي بحق المصاهرة إلى أسرة كلاوديوس الأرستقراطية . وبالرغم من هذا فقد أعطى حق التمتع بخصائص تربيون العامة منذ الأول من شهر يوليو عام ٢٢ ق.م وصار يجددها إلى أن مات .

وبخلاصة القول أصبح أغسطس يتمتع بحقوق وسلطات لا حد لها مثل دعوة الجمعية الشعبية والسناتو إلى الاجتماع وترأس جلساتها ، وحق سن القوانين ، وحق الاعتراض على أى مشروع أو قانون . والتمتع بالقداسة السياسية الممنوحة لشخص التربيون أو نقيب العامة . وأصبح

(١) وقد أصبح تقليداً متبعاً لخلفائه من بعده أن يتسلحوا بسلطتين أساسيتين هما الامبريوم الأعلى Imperium maius والسلطة التربيونية ويقول جوتز أنه فلما احتاج إلى استخدام هذه السلطة لأنه كان ينفذ كل شيء عن طريق سلطة النفوذ المدني auctoritas وهي سلطة شرعية فقط لكن تأثيرها كبير . انظر :

في أعين الطبقات الرومانية الكادحة حاميتها وناصرها (Defendor Plebis) من جور الارستقراطية القديمة .

وبذلك تخلص اغسطس من حرج الاتهام باغتصاب هذا المنصب والاحتفاظ به ومن حرج قبول قنصل آخر يشاركه في النفوذ . وقد شغل منصبى القنصلين اللذان خليا باختفاء فارو مورينا بعد المؤمرة وبعد تنازل اغسطس عن هذا المنصب اثنان من المؤيدين له . وظل تقليدا عاما أن يشغل رجال الامبراطور المخلصين هذا المنصب حتى تدهور هذا المنصب واختفائه .

٥ - سلطة الامبريوم الأعلى Imperium Maius :

يتنازل اغسطس عن سلطات القنصلية أصبح مجردا من سلطة الامبريوم القنصلى داخل اسوار العاصمة Intra Pomerium ولكى يستعاض عن فقدان هذا الامبريوم فقد منح حق الامبريوم البروقنصلى الذى كان يمنح لحكام الولايات الذين كانوا قناصلة سابقين Imperium Proconsulare مع حق دخول العاصمة دون التجرد من هذا الامبريوم وكان وكان ذلك في عام ٢٢ ق.م .

ولتمييز هذا الامبريوم الخاص عن الامبريوم التقليدى الذى كان يتمتع به القناصل وحكام الأقاليم سمي بالامبريوم (١) الأعلى maius أى انه أعلى من أى امبريوم آخر كما يعنى وضع حكام الولايات الأخرى تحت أوامره وتصرفه .

وقد حرص اغسطس على الا يسلم هذه السلطة على الإطلاق فعندما كادت مدة سريانها ان تنفذ في عام ١٨ ق.م جددتها لمدة خمس سنين أخرى وكرر ذلك مرة أخرى في عام ١٣ ق.م ثم أصبح يجدد منتهى كل عشر سنوات الى أن مات .

(١) cf. J.G.C. Anderson, Journal of Roman Studies, 1927, p. 33 ff. i

وتؤكد خمسة نقوش عشر عليها في ولاية برقة Cyrene في ليبيا ان اغسطس حصل على مثل هذه السلطة :
F. de Vischer, les édits d'Auguste decouverts à Cyrene, Paris 1940.

وكذلك انظر مقالة الامتياز لاست :
Journal of Roman Studies, 1945, p. 93 f.

وتلك انظر :
Ehrenberg, and Jones, op. cit., (document no. 311).

٦ - وظائف شرفية أخرى :

كذلك دعم أغسطس نفسه في ذلك الوقت بعدد من الامتيازات، نظرا لقيمتها السلطوية اذ حصل على حق اولوية التحدث في اجتماعات السناتو *Ius Primae Sententiae* وحق اعلان الحرب وعقد معاهدات السلام وربما حق اصدار القرارات العليا *Ius edicendi* .

وفي عام ١٩ ق.م . منح حق حمل الشعار القنصلي *Insignia* الذي كان يحمله اثنتا عشرة ياورا (*lictors*) يسرون امامه وخلفه . كما كان يتمتع منذ عام ٤٣ ق.م بالأولوية عند الاقتراع على المشروعات أو كما يقول هو نفسه في وثيقة اثر انقرة :

Consulatem Iocum Sententiae Dicendae Tribuens et Imperium mihi dedit.

« ومنحني (أي السناتو) مرتبة القنصلية عند الاقتراع وأعطاني سلطة الامبريوم » ، وكان أغسطس قد رفض منصب الدكتاتور عندما عرض عليه هذا المنصب عام ٢٢ ق.م . وكذلك منصب القنصل الدائم وكان قد صدر قرارا بهما تحت الحاح دهماء المدينة بالرغم من أنه مارس سلطات الرقيب على السناتو عند اختيار الأعضاء الجدد ابان السنوات ٢٩ ، ١٩ ، ١٢ ق.م .

٧ - سلطة الرئيس *Princeps* :

هكذا بتجميع السلطات السابقة وإحدة تلو الأخرى وضحت الشخصية السياسية لأغسطس وكما يتضح فقد كانت هذه السلطات انعاما من مجلس السناتو ومن الشعب الروماني *Sentatus Populusque* وتختلف عن أي من السلطات التي منحت للزعماء الذين سبقوه . لأنها كانت شاملة وسارية المفعول ما دام صاحبها حيا يحكم .

وقد حرص أغسطس على أن يحصل على كل سلطة منفردة عن الأخرى ويوجد لها سنداً دستوريا أو سابقة عرفية ترتكز عليه . أضف الى ذلك أن أغسطس تمتع بمزايا عرفية لا حد لها نابعة من سلطة الهيبة والوقار *Auctoritas* الذي كان يتمتع به أعضاء مجلس الشيوخ العاديين فما بالك ببطل اكتيوم ومنقذ الجمهورية ومحقق السلام (١) .

وباختصار فإن سلطات أغسطس لم تكن محدودة بل فاقت كافة السلطات التي تمتع بها من سبتود ومن عاصروه (١) ولما كان لا يوجد منصب معين يتسع لكل هذه السلطات فلم يكن أمام أغسطس إلا أن يصوغ اسما ومنصبا جديدا - لا يعلى عليه لهذا الغرض - ومن ثم فقد قاده فكره إلى أن يتلق على نفسه اسم مواطن الرومان الأول *Princeps Civium Romanorum* أو رئيس المواطنين الرومان .

وفي الحقيقة لم يكن لفظ *Princeps* جديدا على الرومان فقد تردد أيام الجمهورية ، إذ لقب الناس بعض البارزين من الشخصيات السياسية وعلى رأسهم بومبي (٢) العظيم باسم *Princeps* ومن هذا الاسم اشتق في العصور الحديثة لقب *Prince* أي أمير ولفظ *Principate* أي إمارة لكن لفظ *Princeps* الذي تمتع به أغسطس لم يكن مماثلا في وزنه السياسي للفظ الذي حمله بعض القادة من قبل .

لذلك - لم يتمتع بمزاياه أحد ممن سبقوه بل كان جديدا في معانيه أعم شمولاً في سلطاته وأكثر ثقلاً في وزنه السياسي حتى أن المؤرخين اتفقوا على أن يكون لقب *Princeps* مميذا لأغسطس دون غيره بصرف النظر عن الذين تمتعوا به من قبل .

ولقد كان آخر منصب توج به أغسطس منصب أبو الوطن *Pater Patriae* وكان ذلك في العام الثاني قبل الميلاد ، وهو أعلى منصب شرفي يمكن الانعام به على شخصية سياسية (٣) ، ومن المعروف أن نيبثيون منح هذا اللقب تنبأ احباطه مؤامرة كاتيلينا . وقد قدم هذا

(١) وند عبر تاجيتوس عن ذلك بقوله :

«legiones, classes, provincias inter se conexas»

«الفرق والأساطيل والولايات كلها ثابتة فيما بينها في شخص أغسطس» انظر :

Ronald Syme, op cit., pp. 520-524.

(٢) في رأى الأستاذ سكالارد Scullard أنه برغم أن هذا اللقب له جذور منذ عصر الجمهورية إلا أنه ليس هناك ما يثبت أن اكتانيوس استعاره من كتابات شيشرون السياسية ، بينما يرى ما ير أن شيشرون اقترح مثل هذا اللقب والمصعب على بومبي وذلك في كتابه عن الجمهورية *De Republica* الذي رد فيه تخيلاته للنظام الجديد للجمهورية وأن كل ما فعله أغسطس هو أنه نفذ هذا المخطط بخلافه لم أضاف عليه ما يتناسب وبذلك وضع أساس النظام الإمبراطوري انظر :

Scullard, op. cit., p. 218. 425 also cf. Edward Meyer : *Caesars Monarchie und das principat des Pompeius*, 6rd edition (Munchen 1923).

(٣) يرى سالون أنه بهذا المنصب وصل إلى قمة المنصب وأصبح من الناحية الفعلية

يشتمع سلطات الملك انظر :

E.T. Salmon, loc. cit., p. 475.

م ٣ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية (

الافتراح باسم أنصار بروتوس من الجمهوريين والذين حاربوا ضده في
موقعة فيليبى Philippi

ولهذا القرار أهميته السياسية اذ يعنى استسلام آخر حصن من
حصون الارستقراطية القديمة وتحقيق المصالحة الوطنية الشاملة ونهاية
عصر دامى تطاحت فيه طبقات المجتمع الرومانى ودفعت فيه الأمة ثمنها
غاليا .

اصلاحات اغسطس وجهوده لبناء المجتمع العظيم :

أولا - اصلاحاته في مجال الجهاز السياسى :

ورثت الامبراطورية عن الجمهورية نظامها الطبقي الدقيق وارتباط
التوظيفة السياسية بالطبقة الاجتماعية ، وكان لكل طبقة اجتماعية معينة
حدود في الآمال والطموح السياسى لاتتعداه كما جرت التقاليد الرومانية .
خاتمة حالة من الوفاق بين الطبقات (Concordia Ordinum) .

ولما كان اغسطس يسعى جل جهده الى احياء الجمهورية وليس الى
هدمها فقد التزم بهذا الهرم الاجتماعى ولم يحاول هدمه . وبهذا وضع
حكم المواطن الاول Principatus حدود الوظائف السياسية لكل طبقة
اجتماعية فلرجل السناتو مزايا التمتع بحق الترشيح وشغل الوظائف
انتصالية وحكم الولايات الرومانية وكذلك شغل الوظائف الادارية
والعسكرية العليا magistratus .

أما رجال طبقة الفرسان Equites فقد تمتعوا بوظائف جديدة في
مجال الادارة والشئون العسكرية خاصة فيما يخدم المواطن الاول مباشرة ،
وكان هؤلاء يكونون فريقين فريق الفرسان العسكريين الذين يخدمون في الجيش
وفريق الفرسان التجار ورجال الأعمال ، ونظرا لان اغسطس كان عسكريا
ثوريا فقد اعتمد على الفريق الاول (١) .

أما الطبقات الدنيا للمجتمع الرومانى فقد فتح امامها المجال للعمل
كجنود Milites في جيوش الامبراطورية وضباط في سلك الجيوش .

لقد ظهرت عبقرية التغير السحرى في عهد اغسطس بسماحه للناخبين

(١) انظر :

من الطبقات الدنيا بتخلى الحدود السياسية لطبقاتهم الاجتماعية والارتقاء الى وظائف أعلى ؛ ومن الشخصيات النابغة من كان في الأصل عبدا وحرر لأن أغسطس وضع الكفاءة قبل الأصول الاجتماعية في نفس الوقت الذي حافظ فيه على الهندسة الطبقية لتولى الوظائف .

(أ) أغسطس وطبقة رجال السناتو :

كانت طبقة رجال السناتو تعنى أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وأسرهم ، وكانوا يتميزون بعباءة فضفاضة يزينها خط أرجواني عريض وتعرف باسم *Tunica laticlavata* . وكان أولاد أعضاء مجلس الشيوخ يتمتعون بحق ارتداء هذا الزي بينما لا يستطيع رجال الفرسان ارتداء هذا الرداء الا بقرار من المواطن الأول *Princeps* ، وكان الأعضاء الذين لا يستوفون شروط مجلس الشيوخ يصبحون تلقائيا أعضاء في طبقة الفرسان . وقد اشترط ألا تقل ملكية المرشح لمجلس الشيوخ عن مليون ستركيس روماني (أى ما يوازي خمسين ألف دولار أمريكي) . وكان المرشح لعضوية السناتو يبدأ حياته عادة في الجيش الروماني كمفوض عسكري أو نقيب للفرق الرومانية *Tribunus Militum* أو كقائد *Praefectus* لتشكل من فرسان القوات المساعدة *Auxillarii* وعندما ينتهى المرشح من ذلك يتقدم لشغل وظيفة مدنية صغيرة وعادة تكون عضوية مجلس العشرين (*Vigintiviratus*) ويصبح بذلك عضوا في مجلس العشرين *Vigintiviri* ، وعندما يصل المرشح الى الخامسة والعشرين يتقدم لشغل وظيفة الكوايستور *Quaestor* وهى من كبريات الوظائف الرومانية ، ومهمة الكوايستور هى الاشراف على الأموال العامة (*Publica Pecunia*) ومراقبة انفاقها ، كما كان الكوايستور يشترك في المحاكمات المالية كممثل لصالح الجمهور ، وكانت هذه الوظيفة هى المجاز الأول للوظائف العليا، وينخرط بعد ذلك عضو مجلس الشيوخ في سلك العديد من الوظائف الكبرى مثل الايديلية وهى وظيفة خاصة بالاشراف على الأشغال، والمرافق العامة والتموين مثل بناء المعابد والمحاريب والحمامات وقنوات المياه والطرق الكبرى وتحديد اسعار المواد التموينية في الأسواق واعتماد الموازين والمعايير والاشراف على قطاع الأمن والنظام وخفر المدينة . وكذلك المبرجانات والتجهيزات الجنائزية الرسمية .

وبعد تولى الايديلية يصبح من حق المرشح ان يتقدم لشغل البرايتورية *Praetura* ليصبح برايتورا *Praetor* أو الرئيس القضائي الذي يساعد القنصل .

ويتوج عضو مجلس الشيوخ تاريخه الوظيفي بالقنصلية . وكان الفاصل بعد انتهاء خدمته يجتاز وظائف أخرى في انتظارهم فمثلا كانوا يعملون حكاما للولايات بدرجة بروقنصل أى قنصل سابق ، أو مفوضا

Legatus لقيادة جيش أو إدارة امبراطورية أو أمين Curator للجنة لتتقن حقائق أو لدراسة مشكلة داخل روما أو إيطاليا .

نقاد كان السناتو هو مركز الإدارة أيام الجمهورية وأراد له أغسطس أن يكون كذلك إبان عصر الإمبراطورية . إذ أن معظم الرجال المحنكين سياسيا خرجوا من مدرسة السناتو الذين عن طريقهم أمكن ملء كافة الوظائف التي هي دولا ب العمل الحكومي .

' أدرك أغسطس هذه الحقيقة كما أدرك أن السناتو هو روما ماضيها ومستقبلها ولذا اكتفى بتطهيره من الشوائب ومن العناصر المندسة فيه والتي تسلت الى تلك المؤسسة السياسية الكبرى اثناء الحروب الأهلية . ولذا أصدر أغسطس عام ٢٨ ق.م قائمة جديدة لأعضاء مجلس السناتو حذف منها مائتين ممن ارتأى أن مستواهم لا يليق بمجلس الشيوخ في الإمبراطورية . كما جاء في أعلى القائمة اسم أغسطس كرئيس للسناتو Princeps Senatus ، وتلى ذلك اعلانه قائمة ثانية طهرت بعض أعضاء مجلس الشيوخ صدرت في عام ١٨ ق.م وثالثة صدرت في عام ١٢ ق.م

وكان من نتيجة هذه القوائم أن انحصر عدد الشيوخ من ألف الى ستمائة . وكان السناتو يضم اليه كل عام العشرين برايتورا الذين انقضت مدة خدمتهم ليصبحوا أعضاء فيه تلقائيا (Ipso Facto) .

ولكى يسيطر على السناتو (١) . أمسك أغسطس بالوظائف المؤدية الى عضوبته وحرص على أن يرشح لها المخلصين من رجاله دون غيرهم . كما لجأ الى حيلة ماهرة وهي ترشيع ومساعدة رجال من أصول غير ارسقراطية ومدهم بالأموال اللازمة اذا اقتضى الأمر أى من الطبقات الوسطى والدنيا في المجتمع الروماني لكي يشغلوا الوظائف القيادية المؤدية الى عضوية مجلس الشيوخ مثل البرايتورية وغيرها .

وبهذه الطريقة دخل الفرسان لأول مرة مجلس الشيوخ وأصبحوا أعضاء فيه وبذلك لم يعد السناتو منفصلا على نفسه كما كان في الأيام الخوالي

(١) بالرغم من هذا كان أغسطس يبدي سعة صدر ازاء النقد الذي كان يوجه اليه من بعض الأعضاء مثلا ذات مرة صاح أحدهم في وجهه قائلا : « أنا لم أفهمك ! » (non intellexi) وقال له رجل آخر « سوف اعترض عليك لو قدر لي أن أسفل منك ! » (contra dicere tibi, si locum haberem)

ويذكر سريونوريوس أن أغسطس قال يقول دائما « لكل واحد وجهة نظره . »
(non intellexi) : cf. Suetonius, Divus Augustus, 54.

هذا من ناحية ، أما من الناحية الأخرى فقد عمل أغسطس على زيادة أهمية السناتو بالقاء الكثير من المسؤوليات عليه ، فقد أعطى السناتو سلطة لكي يتحول الى محكمة دستورية عليا يترأس اجتماعاتها القنصلان لمحاكمة اعضاءه ممن يقتربون أو يرتكبون المخالفات القانونية الهامة مثل الخيانة العظمى Proditio Patriae

كما بدأ السناتو في سلب السلطات الدستورية والتشريعية من المجالس الشعبية ليصبح في النهاية هيئة تشريعية بعد أن سلبه الامبراطور سلطاته السياسية والتي كان يسير بها دفة الدولة وعلاقاتها الخارجية (١) .

كما حرص أغسطس على أن يجعل المجلس منهما في أعمال داخلية حتى لا يجد الفرصة للتمرد عليه . كما كان الامبراطور يرجع الى اسشارة السناتو ومشاركته وليس الى اتباع أوامره فيما يختص بالقضايا الهامة .

فقد أنشأ أغسطس ما بين أعوام ٢٧ و ١٨ ق.م لجنة سيناتورية استشارية (Consilium) (٢) مكونة من كبار المسؤولين ومن القنصلين مضافا اليهم خمس عشرة سيناتورا يختارون بالقرعة .

وكانت هذه اللجان الاستشارية تتكون عادة من أصدقاء المواطن الأول amici principis وتجتمع به بانتظام في أوقات محددة للنظر في الشؤون التشريعية وكانت هذه اللجان هي في الحقيقة همزة الوصل بين المواطن الأول ومجلس السناتو ؛ كما كان المواطن الأول يحرص على تغيير أعضائها حتى يتعامل مع أكبر قدر من الشيوخ ويتعرف على معظم وجهات نظرهم ، كما كانت هذه اللجنة تشرف على الشؤون الخاصة بالسناتو وتعديل جدول أعمال جلسات السناتو ، وفي عام ١٣ ميلادية حل محل هذه اللجنة القانونية والبرلمانية لجنة الوصاية والتي كانت مهمتها تنحصر تماما في عملية تسهيل نقل السلطة من أغسطس الى تiberius الذي كان قد أصبح وقتئذ شيخا كهلا .

J.A. Crook, Consilium Principis, (1955).

(١) مناقشة هذا انظر :

A.H.M. Jones, Historia, 1955, p. 464.

وكذلك :

(٢) وقد نشر الأستاذ اريك تيرنر جزءا وثيقة بردية وجدت في البهنا أو كيرينخوس القديمة . قرب بني سويف . نتحدث عن انتقال وفد من هذه اللجنة السيناتورية الاستشارية فأدما من الإسكندرية لزيارة هذه العاصمة الإقليمية في عام ١٣ ميلادية ضمن برنامج زيارته لمصر .

E.G. Turner, Oxyrhynchus Papyri, Tome. XXV. no. 2435.

والى جانب حاتين اللجنتين الدائمتين كانت هناك العديد من اللجان الغير رسمية حيث يلتقى الامبراطور برجاله أو أصدقائه السياسيين للتشاور في أمور متعددة سواء تشريعية أو ادارية أو سياسية .

كما حرص اغسطس على أن يضع الحروف (EX.S.C.) أى Ex-Senatus consulto «بناء على نصيحة السناتو» في نهاية أى قرار يتخذه وعلى المباني العامة وحتى على النقود التى سكّت في عهده توكيدا لحقوق السناتو ومسئوليته في هذه الأمور ، كما أخذ السناتو لأول مرة يصدر القرارات التنظيمية الخاصة بالشئون الادارية والتشريعية .

هكذا نجح اغسطس فيما فشل فيه قيصر وهو جعل السناتو يرضخ راجبا لحكم الفرد ، بل ويوفق بين النظامين المتناقضين تماما . لقد نجح اغسطس لانه كيف نفسه مع الامر الواقع وهو أن رجال السناتو هم ثمرة الخبرات الطويلة للسياسة الرومانية وأن لا شئ عنهم ، وادرك أن كل ما يبغيه هؤلاء الشيوخ وهو أن يحفظ عليهم وقارهم Dignitas ويعيد اليهم مناصبهم الشرفية والعليا دون أى مساس .

وقد فعل اغسطس ذلك حتى يكسب السناتو الى جانبه (١) . ومن الواضح أن اغسطس كان حذرا للغاية مع تعامله مع الأسر النبيلة اذ انه كان يشجع الرجال الجدد ويدفعهم الى الامام لمنافسة هذه الأسر خاصة في وظيفة القنصلية ، ولكننا نجد فيما بعد - أى في اواخر حكمه (ما بين ١٨ ق.م و ٤ ميلادية) يشجع بعض العناصر الارستقراطية وأبناء الأسر النبيلة لكي يشغلوا هذه الوظيفة وهذا دليل على تغير كبير طرأ على افكاره وعلى تصالجه مع الارستقراطية وحصوله على تأييدها .

ومهما يقال فقد بدا السناتو مقلم الأظافر أمام سلطات اغسطس اما في أعين رجاله الذين ملأوا مقاعد تلك البيئة المحافظة فقد كان اغسطس هو الزعيم الصالح والمدافع عن كرامة السناتو ، كما بدا اغسطس لأعين

(١) كان اغسطس يحرص على كسب رضا السناتو رغم حذره الشديد منهم . فعندما أصدر السناتو قراره في العام الثاني ق . م بمنحه لقب ابو الوطن Pater Patriae تقدم اغسطس الى المنصة وعيناه مغروفتان بالدموع (lacrimans) وخاطب الاعضاء قائلا : «Compos Pactus Aolorum meorum, patres et conscripti, quid habeo aliud deos immortales precari, quam ut hunc consensum vestrum ad ultimum finem, vita mihi preferre liceat ? (Suetonius, ibid, 58, 2).

وترجمتها ، والآن أيها الأباء المخاضين وقد حققتم ماذا في استطاعتى سوف أسـ أرجو الآلهة الخالدة أن تهني قلوبكم لى لآخر رمق في سـمري ؟

الشيوخ خيرا من القادة الذين سبفوه اذا ما قارنوا سلوكه بسنوكه الآخرين من أمثال الأخوين جراكوس والجنرال ماريوس والحكومات الثلاثية المتعددة ودكتاتورية يوليوس قيصر .

(ب) أغسطس وطبقة رجال الفرسان : Ordo Equester

وجد أغسطس نفسه في حاجة ماسة الى مساعدين للاشراف على مصالحه الخاصة ومصالح الدولة العامة (١) . فقد كان أغسطس في حاجة ماسة الى مفوضين عسكريين بسلطات خاصة لقيادة فرقة المعسكرة في الولايات الامبراطورية المختلفة . ووجد أنه من غير المناسب أن يتجه الى شيوخ السناتو لهذا الغرض ولكنه أثر أن يتعد عن ذلك حفاظا على هيئة السناتو من ناحية وتجنباً لشرورهم من ناحية أخرى . واذا كان أغسطس قد خاف أن يستخدم رجال السناتو للاشراف على مصالحه الخاصة فقد عاف كذلك استخدام رجال الطبقات الدنيا سواء من الاحرار او المحررين او الذين كانوا لا يزاولون عبيدا كنواب عنه لادارة شؤون ولاياته الخاصة . ومن ثم لم يجد أغسطس امامه سوى طبقة الفرسان ليجنّد منها رجاله ويأتى منها بالرجال الأكفاء لشغل الوظائف المدنية المختلفة (٢) .

لقد أدرك أغسطس أن هذه الطبقة من المجتمع الروماني عريقة الدراية بالمال وأنهم كانوا يقومون بأعمال الوكلاء الماليين للدولة منذ قديم الزمن فاستغل حيرتهم واعتمد عليهم في ادارة أجهزة الدولة المختلفة . وكان ذلك بحق هو قلب الثورة الاوغسطية التي هدفت الى تطوير مرافق الدولة وتطهيرها عن طريق عناصر ديناميكية وقادرة .

وفي الحقيقة أفاد الفرسان الامبراطورية كثيرا بخبرتهم وسرعة تحركهم وبتهم في الامور بما هو في صالح الامبراطور والامبراطورية .

نعلى العكس من طبقة السناتو كانت طبقة الفرسان مفتوحة امام أي فرد من افراد الشعب الروماني للانضمام اليها بشرط أن يكون قد بلغ الثامنة عشر من عمره ، وأن يكون حر المولد ذا شخصية قوية واضحة وان يكون منتميا برأس مال صغير يبلغ في المتوسط ٤٠٠.٠٠٠ ستركيس روماني أي ما يعادل عشرين الف دولار امريكي .

(١) P. A. Burnt, Journal of Roman Studies (1961), p. 71 f.

(٢) عن علانة أغسطس بالفرسان ووضع هذه الفئة في مخططه السياسي أنظر مثاله :
cf. R. Syme op. cit., p. 364, and p. 372.

وكان الإمبراطور هو الذى يوافق على انضمام الأعضاء الى هذه الطبقة عندئذ يرتدى الفارس وشاحاً أرجوانياً رفيعاً فوق عباءته tunica ويتسلم جواداً من الدولة رمزا لأحقّيته وتأهيله لوظائف الدولة المدنية والعسكرية (وربما لا يزال هذا التراث قائماً فى بعض الدول الأوروبية الحديثة عندما تنعير الدولة على البارزين من رجالها بنوط الفرسان) .

كما أحيا أغسطس مهرجان استعراض الفرسان بجيادهم سنوياً حيث يقوم هو بنفسه بتفقدتهم . وكان أكبر المهرجانات التى أدخلت التباهجة والسرور على قلوب سكان العاصمة والتى أهملت لمدة طويلة أبان الصراعات الاجتماعية التى تصفت بالأمة الرومانية .

وإذا كان أغسطس لم ينحاز لطبقة السناتو إلا أنه نفخ فى صورة طبقة الفرسان فوضع لها سلكاً ووظائفها Cursus honorum يعمل فيه الفارس تماماً كالسناتور سواء فى الجيش أو الإدارة . ولكنه اتخذ حيطته من البارزين منهم (١) .

ففى الجيش كان الفارس يتنقل فى الوظائف مثل وظيفة النقيب العسكرية tribunus militaris فى قوات الحلفاء سواء الراجلة « المشاة » أو الراكبة « الفرسان » أو تربيونية فرسان المدينة (Cohortes) الذين كانوا يقومون بأعمال حفظ الأمن والنظام داخل العاصمة .

وكذلك تولى الفرسان تربيونية الفرق الرومانية . أما فى الوظائف المدنية فقد كان الفارس مؤهلاً لوظيفة أمين الخزانة Procurator وهى كما يتضح من الاسم خاصة بالشئون المالية فى الولايات الرومانية ، وبعد أن يتنقل الفارس من ولاية لأخرى فى خدمة شئونها المالية كان يتوج بأحدى الوظائف الكبرى مثل البرافكتيه Praefectura سواء لحرس المدينة أو فى الحرس الجمهورى أو الخاصة بحيازة القمح وتوزيعه وجمعه من الولايات Praefectus annonae ، أو والياً على ولاية مصر Praefectus Aegypti ويجوز للإمبراطور ترقية أى فارس الى مرتبة سيناتور مكافأة له عند اعتزاله العمل .

وبالرغم من أن سلك وظائف الفرسان كان أقل مرتبة من سلك وظائف أعضاء السناتو لأنهم رجال جدد ليس وراءهم التراث والمهابة والدم النبيل الذى كان يجرى فى عروق رجال السناتو، إلا أنهم كانوا عمليين مجددين

(١) مثلاً حرم دخول مصر على أعضاء السناتو والبارزين من طبقة الفرسان فى نفس الوقت . ولما تضاخت شخصية والى مصر كورنيليوس جالوس (من ٣١ - ٢٤ ن ٢٠ م) بعد انتصاراته هناك - وكان من طبقة الفرسان - استدعاء أغسطس وجرده من سلطاته ومصادر أمواله ثم نفيه ولم يتصل والى المسكين المصدمة فانتحر .

مؤالين للامبراطور وأمناء على رفاهية الامبراطورية وسعادتها وعلى أكتافهم قام نظام أغسطس . فقد انتشروا في كافة أنحاء ولايات الامبراطورية يشرفون على جمع الضرائب بطريقة انسانية عادلة ويقتلمون المستغلين من جدورهم ويستمعون الى أقوال المتظلمين ويعاقبون الظالمين وكانهم جنود الحق والعدالة اللذان يتمثلان في شخص الامبراطور وفي العهد الجديد .

كما حرص الامبراطور على حمايتهم وتشجيعهم والدفع برجال منتقين من الطبقات الدنيا لتجديد شباب هذه الطبقة . وهكذا كان أغسطس يبحث عن الكفاءة حتى ولو استدعى الأمر الى تحرير عبد وتشجيعه ليصل الى المركز الذي اهلته له قدرته العقلية والنفسية . وتلك هي عظمة أغسطس (١) .

(ج) أغسطس والتنظيمات الشعبية :

لقد بدل أغسطس عبثا جل جهده لتوعية الطبقات الدنيا من الشعب الروماني ، وكان يتمنى ان يصل بهم يوما بالوعي الفكري والتشريعي الى حد مناقشة تشريعاته ذاتها التي كان يتقدم بها اليهم طالبا موافقة مجالسهم عليها . كما كان يتمنى ان يجعلهم يحسون بخطورة المسؤولية الملقاة على عاتقهم عند انتخاب الفناصل وكبار الموظفين ، بالرغم من هذا حرص أغسطس على املاء مرشحيه عليهم وصاية منه على الشعب لأنه رفض ان يقامر بوضع « طاقات الأمة » ومركز أعصابها رهنا للفوضى الانانية ذات المزاج المتقلب والغير مدركة لمصالحها الحقيقية (١) . ولكي يضمن أغسطس للكفاءات المختلفة شق طريقها الوعر عبر أمزجة الجماهير قام بوضع العراقيل أمام انتهازيي الطبقة الدنيا حتى يعوقهم عن منافسة الكفاءات التي تحتاجها الامبراطورية في عصرها الجديد . فمثلا حدد عدد وظائف الدولة الصغيرة والتي تأتي أسفل درج الوظائف العامة فبعد ان كانت ست وعشرين وظيفة أصبحت عشرين ، وبذلك بدأ في تسمية الموظفين والمرشحين لوظائف أعلى مما شجع على التنافس واظهار القدرات . ولكي يضرب للجماهير الأهمية السياسية الكبرى التي تقبع في عملية الانتخابات فقد تعود أن ينزل بنفسه الى ساحة مارس Campus Martius ويدعو لرجاله ويشارك في حفلات انتخابية من أجل نصرتهم . وبلغ بأغسطس الحرص على اتاحة الفرص أمام الكفاءات ، والأخذ بيدها حتى لا تفرق وسط بحر الجماهير المجنونة أن عين لجنة من الشيوخ لاختيار هذه العناصر

(١) كان أغسطس يتبع تركيزه للعناصر الصالحة بما في ذلك المرشحين لخلافته بمباراة

« Si merebuntur ! » ذلك من ذلك A.H.M. Jones, JRS. 1949, p. 38 ff.

انظر هناك :

الطبية ورعايتها ، هكذا لم يحاول اغسطس أن يلغى أو يحل التفضيلات الشعبية ولكنها لم تعد تمثل أمزجة وعواطف الجماهير الرومانية ، لقد احتفظت هذه المجالس بحقوقها التشريعية وسلطاتها في ترشيح المتقدمين لشغل الوظائف العامة ولكن الامبراطور حدد من دائرة عملها وأصبح من يزكيه الامبراطور هو الذى ينتخب فقط ، كما تحكم الامبراطور بمقتضى سلطته التربوية في القوانين قبل عرضها على المجالس الشعبية للموافقة عليها ، أى ان هذه المجالس أصبحت شكلية فقط .

وفي العام الخامس الميلادى أجرى اغسطس تعديلات طفيفة على الجمعية المئوية *Comitia Centuriata* عندما عهد الامبراطور الى عشرة لجان كل منها يتكون من مائة سيناتور وفارس يختارون من المحاكم واللجان القضائية لاختيار المرشحين لوظائف القنصلية والبريتورية ، وقد شكلت هذه اللجان المئوية العشر بمناسبة ذكرى وتكريم حفيدى الامبراطور الراحلين « أولاد ابنته جوليا وهما جايوس قيصر ولوسيوس قيصر » ولقد فضل اغسطس الفرسان على النبلاء ، لأن الفرسان كانوا يأتون من كافة الطبقات في ايطاليا كلها وليس من روما وحدها مثل السناتو ، وبذلك حطم اغسطس احتكار مدينة روما وعائلاتها لشئون ايطاليا كلها لأول مرة ، وكانت هذه اللجان تعد القوائم للعناصر الطبية مدعمة بتاريخ حياتها ثم تتقدم بها للامبراطور حيث يترك له وحده حق اختيار من يراه ، وأكثر من هذا سمح اغسطس لأعضاء المجالس البلدية في المقاطعات الرومانية بالإدلاء بأصواتهم في شئون الامبراطورية عن طريق صناديق مغلقة ترسل الى روما لفرزها .

ومما بذل اغسطس لأرضاء الطبقات الدنيا من الشعب الرومانى فقد ثبت أن نقطة الضعف في أعمال الامبراطور هي الطبقات الدنيا التي تعودت على التكاسل وتسلم القمع من الدولة بأثمان رمزية ، والتسلى بالألعاب والمهرجانات والعروض المسرحية والرياضية بالمجان رافضين تحمل المسؤولية السياسية التي أرادها لهم اغسطس ، وفي كثير من الأحيان علت صيحات الفوجاء مطالبة اغسطس بأن يصرح لهم علانية بما يريد . ففي عام ٢٢ ق.م اندلعت حوادث الشعب أثناء الاقتراع على الانتخابات ورفض الامبراطور ان يتدخل لقضيتها وتكرر ذلك عام ١٩ ق.م وبلغ من شدة ضراوة هذا الشعب ان كسر الامبراطور عزله وتدخل بنفسه وعين قنصلا كما تدخل الامبراطور لوقف الصراعات السياسية والقبلية بين الجماهير عامى ٧ - ٨ ميلادية . لقد كان الرومانى العادى أسوأ مواطن بالنسبة لغيره اذ أنه عاف ان يلتزم بمطالبات المواقف السياسية . مما تسبب عنه بغرة في بناء

أغسطس السياسى وتحطم حلمه فى إقامة تعاون دائم بين الشعب والحكومة ، وبالرغم من هذا رفض أن يعترف بفشله فى هذا المجال نازكا المشكلة برمتها لخليفته تيبيريوس Tiberius واتجه الى المقاطعات الإيطالية يجند منها قوادا لفصائله . وخاصة قواد المئة Centurion لقد كان هؤلاء القواد هم المسئولون عن سيادة الأمن والنظام فى الداخل والخارج وهم الذين كثيرا ما كوفثوا بترقيتهم الى « طبقة الفرسان » بأمر الامبراطور .

ثانيا - الإصلاح العسكرى :

عندما عاد الامبراطور من فتوحاته فى الشرق عام ٢٩ قبل الميلاد

(١) اهتم المؤرخون الالمان والانجليز بدراسة الجيش الرومانى وبالذات فى عصر الامبراطورية ومن أهم هذه الكتب كتاب تيزمان الذى برغم قدمه لا يزال المرجع الأول انظر :

G.L. Cheesman, The Auxila of the Roman Imperial Army (1914).

وبلى ذلك كتاب باركر :

H.M.D. Praker : The Roman Legions (first published in 1928 New Corrected edition 1958).

ومن الملاحظ أن الكتابين السابقين يركزان اهتماما كبيرا على حياة الجندى الرومانى خاصة الكوادر الدنيا والتي هى بحكم العدد أغلبية كما أنها كانت تقضى جزءا كبيرا من حياتها فى ثكنات الجيش وقد اهتم المؤلفان السابقان بالنواحي التدريبية مثل عملية التجنيد والتدريب واللياقة ثم المناورات والتكتيك ولم يهتما بالنواحي التنظيمية واعداد الضباط والكوادر العليا بما لم يهتما بمعالجة المشاكل التى كان يعانيها الجندى مثل الترقية والترقية فى الرواتب والجزاء والمكافأة ، فضلا عن المشاكل المعنوية الأخرى مثل المعائد الدينية داخل المعسكرات ومشكلة الزواج اثناء الخدمة والتوطين بعد التسريح من الخدمة وكلها موضوعات لا يمكن فصلها عن الجيش الرومانى . ومن الكتب الجيدة عن الجيش الرومانى كتاب ماكملان :

Ramsay MacMullen : Soldier and Civilian in the Later Roman Empire, (Cambridge 1968).

وهو كتاب جيد يركز على العلاقات المدنية للجيش الرومانى فى زمن السلام أو دور الجنود فى الحياة المدنية . ومن الكتب الحديثة فى هذا الموضوع :

(G.R. Watson, The Roman Soldier, (Thomas and Hudson 1969).

وهو يمانح حياة الجنود ولكن بطريقة أكثر شمولا من سبقوه اذ يتناوله كما يقول المؤلف نفسه من ساحة التجنيد حتى لحظة التسريح (p. 11) مركزا على الجيش الرومانى منذ عهد أغسطس حتى عصر دقلديانوس ، وبالرغم من أنه حدى حذو سابقيه فى استهلال مؤلفه بدراسة الكوادر الدنيا من الجنود إلا أنه غطى المشاكل التى أصابت فى المؤلفات التى سبقته فعالج مثلا التدريب واللياقة ، كما أنه لم يحدد بحثه بالترقى والمناورات المساعدة بل شمل الحرس الامبراطورى ورجال الحفر والاطفاء كما عالج جنود الأسطول . كما درس الأسلحة واستراتيجية توزيع القوات على الحدود . وما يعنى هذا الكتاب أنه « المصادر التى استقى منها معلوماته سواء الأسماء منها من المؤلف فيجيبيوس Velleius المعروف باسم «

وجد تحت يده جيتا يكاد يبلغ في تعدادده نصف مليون جندي . وأدرك
الإمبراطور أن العالم قد استسلم تحت قدميه ، وليس هناك حاجة الى
هذه الجحافل وكان عليه ان يسرح هذا الحشد العسكرى ويحل مشاكله
قبل ان يبدأ اصلاحات عهد السلام والرفاهية على أن يحتفظ تحت يده
بقوة رادعة لحماية سلطان روما على الولايات .

ولذا نجد عدد الفرق الرومانية يتناقص الى أن أصبح ثمان
وعشرين فرقة بعد أن كان ستين فرقة. اذ إنه استطاع تسريح ٣٠٠٠٠
جندي وتوطينهم في مستعمرات أو ارجاعهم بعد مكافأتهم الى مواطنهم
التي جندوا منها ، وتفاخر أغسطس بأنه وطن جنوده المسرحين في أرض
مستراه من ماله الخاص وليست مصادرة بقوة السلاح ، وليس من المستبعد
أن يكون قد صادر فعلا بعضا من الأراضي التي تولى عنها أصحابها الذين
كانوا قد فروا الى معسكر انطونيوس ، ولكنه من المؤكد أنه فعلا قد اشترى
مساحات شاسعة من الأراضي سواء في إيطاليا أو خارج إيطاليا لتوطين
الجنود . كما تخلص الإمبراطور من نسبة كبيرة من الجند باقامة المحميات
في المناطق الاستراتيجية على طول الإمبراطورية وانشاء قاعدتين للأسطول
الروماني في كل من Misenum و Revenna كما انشا

= نشون العسكرية *De re militari* ، كما استخدم في دراسته التشريعات العسكرية
(codes) بالاناسة الى العديد من النقوش والوثائق البردية التي أمده بفيض من
المعلومات الهامة خاصة رسائل الجنود الى ذويهم . ومن الكتب الجيدة أيضا التي صدرت
حديثا :

S. Daris, Documenti per la storia dell, esercito romano in Egitto (Milano
Chester 1969).

ولم يسمدنا الحظ بقراءته وربما لم يخرج كثيرا عن كتابه الأول في نفس الموضوع
وهو The Roman Army (Chester) 1956

ومن الملاحظ أن المصادر المصرية في العصر الروماني تلعب دورا أساسيا في دراسة
الجيش الروماني في عصر الإمبراطورية . واودن اشير مثلا الى النقش الذي نشره استاذنا
الدكتور عبد اللطيف أحمد على واحد من جدلا كبيرا بين العلماء أنظر .

A.A. Ali, A latin Inscription from Alexandria about the Roman Army
Annales, Faculty of Ein Shams, 1952, pp.

وتد جمع داريس هذه الوثائق في مؤلفه :

S-Daris, Documenti per la storia dell, esercito romano in Egitto (Milano
1964).

وقد عرضه دافيز Davis في مجلة الدراسات الرومانية
Journal of Roman Studies (1966) p. 242 f.

وهناك كتب أخرى عالجت بعض فروع الجيش أشيرت اليها آنفا في مذيلات الموضوع .

اغسطس خدمة بريدية Cursus Publicus على طول الطرق الكبرى وعلى
المرات المائية الهامة لنقل الرسائل ولتحريك القوات بسهولة ولضمان
توصيل المؤن والعتاد اليها .

وجدير بالذكر أن مستوطنات أغسطس العسكرية كانت عسكرية
خالصة وقفا على الجنود فقط بعكس مستوطنات قيصر التي كانت خليطا
من العسكريين والمدنيين ، ولدينا أدلة مادية كافية عن وجود ثمان وعشرين
مستوطنة في إيطاليا وخمس في صقلية وواحدة في سردينيا وأربع عشرة
في أسبانيا وثمان في بلاد الغال وأربع عشرة في منطقة البلقان واحد عشرة
في آسيا والشرق الأوسط وسبع عشرة في أفريقيا . وكتب أغسطس متفخرا
بأنه أنفق ثمانمائة وستين مليون سستركيس روماني من أمواله الخاصة
لتعشيد إقامة هذه المستوطنات العسكرية وأنه ضمن بذلك ولاء جنوده
في المناطق الاستراتيجية الهامة عبر أجزاء الامبراطورية .

كما أقام أغسطس بعضا من المستوطنات بقصد حراسة الموانئ والطرق
التجارية الهامة أو حماية مستوطنات جديدة من خطر السكان الوطنيين ،
كما أراد أغسطس لهذه المستوطنات أن تكون منارات إشعاع للثقافة والفكر
الروماني ولطبع حوض البحر الأبيض المتوسط بطابع الحضارة الرومانية .
وبهذا يعيد إلى أدهاننا أحلام يوليوس قيصر .

لقد بدأ أغسطس سياسة التسكين العسكري (١) وذلك لأن قرنا من
الحروب الأهلية العابثة ترك في الدولة الواحدة عديدا من الجيوش . ووجد
أغسطس أنه من المحتمل أن يسرح هذه الجيوش المخالفة ليقبى جيشا واحدا
نظاميا هو جيش الامبراطور . وأبقى على نظام « التلوع » في التجنيد
بالرغم أنه اضطر إلى إلزام الناس على الانخراط في الجيش في بعض
الحيان .

كما غير أغسطس من طريقة اختيار الضباط فقد كانت هذه الوظيفة
تملك بمناصر شرسة ذات أصل وضع تنبعث من قلب الطبقات الدنيا في
الفرق الرومانية وتعيث في الجيش فسادا وانتهازية ، فألقى أغسطس هذه
الطريقة واستبدلها بطريقة أعداد الضباط المحترفين المدربين والمختارين
من عناصر قادرة وسليحة اجتماعية . فرفع بذلك مستوى الضباط

(١) انظر أ. س. كورنمان (Kornemann) العلوم عن أغسطس لتلك السياسة وذكر

بأنها كانت سببا في انهيار الامبراطورية الرومانية فيما بعد .

Kornemann, Das Problem des untergegangenen römischen Reiches, Leipzig 1922
und Göttingen 1923, pp. 199-200 & pp. 211-212.

كما أحسن اختيار تقبلاء الفرق من الفرسان والمتواضعين من طبقة الشيوخ . كما حرص أغسطس على الفصل بين الجيش والسياسة وحرص على أن يكون الجيش للعسكرية والمدنيين للسياسة . مما أدى إلى ارتفاع القدرة القتالية للقوات الرومانية وتأمين البلاد من شر بعض العناصر العسكرية ، كما أبقي أغسطس على تكوين الجيش من جزئيه التقليديين وهما الفرق الرومانية *Legiones* والقوات المساعدة *Auxilia* .

الفرق الرومانية والقوات المساعدة :

كانت الفرق الرومانية تشمل الجنود الرومان سواء من داخل إيطاليا أو من المقيمين في ولايات الإمبراطورية أو من المناطق التي يمنح سكانها انجسية الرومانية *Civitas Romana* ، وكانت كل فرقة تتكون من ستة آلاف جندي منهم مائة وعشرين راكبا والباقي من المشاة وأحيانا كانت الفرق غير كاملة العدد بسبب ازدياد خسائرها والتباطؤ في تجنيد غيرهم . وكما قلنا أصبح عدد الفرق الرومانية عام ١٣ ق.م ثمان وعشرين فرقة تقف على استعداد لأي أمر يصدر من الإمبراطور . وبعد ذلك فقد الجيش الروماني ثلاث فرق كاملة أبيدت في ألمانيا ولم يحاول أغسطس استبدالها (١) . وبذلك أصبح عدد الفرق خمس وعشرين فرقة أي ما يعادل مائة وخمسين ألفا من الجنود (٢) .

أما القوات المساعدة *auxiliares* فقد كانت تجند من الشعوب والقبائل الغير رومانية التي تقع في حوزة الإمبراطورية الرومانية وكان تعدادهم يوازي تعداد الفرق الرومانية تقريبا ، وبدأ أغسطس في تطبيق النظم العسكرية الحديثة عليهم فتقسمهم إلى آليات مشاة (٣) . مفردتها (*ala*) وجمعها (*alae*) ، وإلى وحدات من الخيالة *cohortes* يتراوح عدد كل منها ما بين ٩٦٠ و ٤٨٠ رجلا ، كما حدد أغسطس مدة الخدمة في هذه القوات ، وحرص على أن يكون ضباطهم من الجيش الروماني ، ولكن هذا النظام لم يطبق تطبيقا شاملا إلا بعد انقضاء وقت طويل لأن الكثير من القوات المساعدة كانت تجند محليا وتحت إشراف زعماء القبائل في أوطانهم الأصلية ، كما كانت مدة خدمتهم تختلف باختلاف الظروف وعند تسريح الجنود المساعدين كانوا يمنحون الجنسية الرومانية لهم ولأسرهم مكافأة لخدمتهم .

G.R. Watson, op. cit., p. 23.

(١)

Ibid., p. 23.

(٢)

(٣) يشرح وانسون معنى الالاي *alae* التي تعني « جناح » في اللغة اللاتينية - في الجيش الروماني بأنها القوات التي توضع على جانبي القوات الأصلية حماية لها وذلك يجعلها تبدو كالإبجحة *alae* وهي ما نعبه الكلمة : انظر

Watson, op. cit. p. 24, and p. 16.

قوات الحرس البرائتورى : Praetoriani

يجيء الحرس الامبراطورى بعد القوات النظامية أو الفرق الرومانية Legiones وبعد القوات المساعدة من حيث العدد والكفاءة القتالية ، ولكنها لعبت دورا كبيرا وهاما في مجرى الأحداث السياسية التي شهدتها الامبراطورية فقد كانت هذه القوات في الأصل قوات تساعد الامبراطور بصفته القائد العام لقوات الجيوش الامبراطورية . وكانت مشابهة في تنظيماتها لقوات الحراسة في القيادات العليا المختلفة للجيش الرومانى . ولما كانت هذه القوات لا تخرج من ايطاليا او على وجه التحديد من العاصمة فقد كان تأثيرها في السياسة اقوى من القوات النظامية المربطة في مختلف الولايات البعيدة (١) .

قسم أغسطس قوات الحرس البرائتورى الى تسع (٢) وحدات من الخيالة Cohortes يتكون كل منها من ألف راكب ، وكان يقود قوات الحرس تقيبان من طبقة الفرسان Praefecti Praetorio ، وكان جنود الحرس البرائتورى يختارون خصيصا من الايطاليين ، ويتقاضون رواتب عالية ويقضون مدة خدمتهم أقصر من زملائهم من الجنود الآخرين .

كما كان الامبراطور يشرف على قوات الأمن وفرق اطفاء النيران والحرائق وكانت تخضع للجيش في نظامها وتدريباتها وتخضع لقيادة أغسطس العليا .

كانت سياسة أغسطس أن يضمن ولاء الجيش له ولآل بيته ، وحرص دائما على ارضاء الجند اتقاء لشهرهم ، فأدخل عام ١٣ ق.م نظام المكافأة المالية بدلا من منح الجندى المسرح قطعة أرض معينة . كما حدد في العام الخامس الميلادى مدة الخدمة بست عشرة عاما لجنود الحرس البرائتورى وعشرين عاما لجنود القوات النظامية ، وخمس وعشرين عاما لجنود الفرق المساعدة auxilia ، وكان جندى الحرس البرائتورى يتسلم عند تسريحه من الخدمة مكافأة قدرها خمسة آلاف دينار رومانى denarii (أى ما يعادل ألف دولار امريكى ، أما جندى الفرقة فكان يتسلم ثلاثة آلاف دينار (أى ما يعادل ٦٠٠ دولار امريكى) الى جانب قطع من الأرض الزراعية . وكانت الجنود المرححة Veterani توطن في المستوطنات المنتشرة في الولايات التابعة للامبراطورية . وفي عام ٦ ميلادية انشأ أغسطس الحزبه العسكرية aerarium militare (٣) لى تتولى دفع

Waston, op. cit., p. ١٧.

(١)

M. Durré, Les Cohortes pretorienne Paris (1938).

(٢)

cf. Starr op. cit., p. 114 . cf. Suetonius, ibid, 23.

(٣)

الرواتب والمكافآت للجنود وكانت تستمد ميزانيتها مما يتبرع به الامبراطور من امواله الخاصة ، ومن دخل ضربتين فرضتا على المواطنين هما ضريبة الارث *vicesima hereditatium* ومقدارها ٥ ٪ من كل تركة وتفرض على المواطنين الرومان بلا استثناء ، والاخرى وهى ضريبة البيع *centesime rerum venalium* ومقدارها واحد في المائة من قيمة الاشياء المباعة ، وقد قصد أغسطس من انشاء هذه الخزانة احساس الجندي الروماني بأن ينظر الى الدولة وليس الى قائده من أجل المكافأة ، ولكي يحارب للدولة وليس لجنراله الذي كان يمدد في الماضي بالمكافأة اذا ما انتصر ويستخدمه في افراضه السياسية وانشاءاته العسكرية .

البحرية والأسطول الروماني :

ادرك أغسطس أهمية تأمين وحراسة الشواطئ لاطاليا وتأمين البحار من خطر القراصنة فأنشأ قوة بحرية دائمة ، وجعل قيادتها في مدينة رافنا وميسينوم *Misenum* (١) ، ولكن سر قوة الجيش الروماني كانت تكمن في قواته المسلحة البرية وليس البحرية ، ولذا سمح أغسطس بأن يجند جنود الأسطول من سكان ولايات الامبراطورية المختلفة بالرغم من أن جنود الأسطول شملوا في بعض الأحيان مواطنين من روما . وفي حالة الحملات العسكرية كان يحدث تنسيق بين القوات البرية والقوات البحرية خاصة عند نقل الجنود الى الاجزاء البعيدة عن الامبراطورية ، وكانت قطع الأسطول الروماني *Classis* تتكون من القطع الحربية *naves longae* ذات الثلاث طوابق من المجذفين (ثلاثة جماعات من المجدفين ، واحدة في مقدمة السفينة والثانية في الوسط والثالثة في المؤخرة حيث يحرك كل ملاح مجدافا واحدا مسطحا ومضنوعا من البرونز الثقيل يصل وزنه احيانا الى مائة وستين رطلا) ، ويجيء المجدفون *remiges* في اسفل الدرج العسكري ، وكانوا عادة يجندون من العبيد والمستعبدين من الشعوب ، يليهم البحارة *nautae* الذين كانوا يجندون من الطبقات الدنيا من الشعب الروماني أو من ابناء المستعمرات الرومانية الواقعة قرب الموانئ

(١) قدر « ستار » عدد قوات اسطول رافنا بـ خمسة آلاف رجل بينما قدر عدد قوات

ميسينوم بخمسة هذا العدد انظر :

cf. C.G. Starr, The Roman Imperial Navy (2nd edition 1960), p. 142.

الى جانب ذلك كانت هناك وحدات حراسة بحرية تحولت الى قواعد بحرية في

مخارج مختلفة من العالم مثل الأسطول السكندري

Classis Augusta Alexandrina

op. cit., 147 ; also cf. Suetonius, Divus Augustus, 23.

والبحار والجزر أو من الحلفاء ويطلق عليهم الحلفاء البحريون socii navales ، وقد سمح أغسطس للأجانب الذين يرغبون في الحصول على الجنسية الرومانية بالخدمة ست وعشرين سنة للعمل كمجندين في الأسطول من أجل الحصول على الجنسية الرومانية . وبالرغم من أهمية الأسطول الروماني الى أنه اعتبر أخط أنواع الخدمة العسكرية من ناحية المعاملة والنظرة العامة وكذلك الرواتب . كما كانت فرص الترقية قليلة أمام ضباطه لأن القوات البرية كانت تستأثر بالنصيب الأكبر منها . كما سمح في بعض الأحيان باستخدام جنود الأسطول في شق الطرق وتنظيف القنوات داخل إيطاليا وفي العاصمة الرومانية .

أن نظرة شاملة على تنظيمات الجيش الروماني في البر والبحر تبين مدى اهتمام أغسطس في الاحتفاظ بقوة إيطاليا والإيطاليين على شعوب الإمبراطورية المتعددة ، فالضباط والقوات النظامية كانوا يجندون من أبناء الرومان أو الولايات التي ضبغت تماما بالعنصر والثقافة والحضارة الرومانية . فكما حفظت الوظائف المدنية لرجال السناتو والفرسان حفظت المناصب العسكرية العليا لهم أيضا . وهكذا وضع أغسطس خطأ يميز الرومان عن غير الرومان . ولكن أغسطس توسع في نفس الوقت في منح الجنسية الرومانية لسكان العديد من المناطق بعد تسكينها بالجنود وعلى الأجانب وأبناء الولايات اذا ما خدموا في الجيش المدة المقررة .

ثالثا - اصلاح الادارة والأمن في العاصمة وفي الولايات :

(١) العاصمة :

قبل ان يدرك أغسطس أهمية ضمان الأمن والسلام في الولايات التابعة للإمبراطورية ، وضمد الجراح التي لحقت بها بسبب الحروب الأهلية المتعاقبة وبسبب استهتار الجيوش الرومانية ومبشرا ، أدرك أن العاصمة هي الأخرى مهددة بأخطار جسيمة بسبب سوء الإدارة والنقص في الخدمات العامة وخاصة الأمن الذي هو أساس الحياة المدنية . ومن الطبيعي أن يبدأ أغسطس بالعاصمة روما ، وكان حريصا في كل خطوة يخطوها لأنه كان يدرك أن العاصمة هي مملكة السناتو ومنطقة نفوذه وتحت مسؤوليته بالرغم من أن السناتو أهملها . أدرك أغسطس أن هناك حاجة ماسة لتوطيد الأمن داخل العاصمة . كما استفاد أغسطس من تجربة « الايديل » اجناتايوس روفوس Egnatius Rufus الذي كان ايدىلا عام ٢٦ ق.م واستطاع أن يظهر شوارع روما من اللصوص وعصابات المجرمين مستخدما اتباعه من العبيد فأمن المدينة تماما . ونتيجة لذلك اكتسب شعبية عارمة بين الجماهير ضايقت حكومة أغسطس وأخرجتها (م ٤ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية)

وجعلتها تخاف من ازدياد نفوذ اجناتوس روفوس ، فقررت التخلص منه بتنفيذ حكم الاعدام فيه بتهمة الاشتراك في مؤامرة لقلب نظام الحكم . وكان ذلك عام ١٩ ق.م لقد ايقظ نجاح روفوس افكار اغسطس بخصوص اعداد قوة لاطفاء الحرائق داخل العاصمة وكان روفوس قد استخدم قوة من عبيده الخاصة يقدر عددهم بنحو ٦٠٠ عبد ليستخدموا كرجال لمكافحة الحرائق التي تنشب في احياء العاصمة عام ٢١ ق.م (١) .

لقد ادرك اغسطس عام ٧ ق.م ضرورة اعادة تنظيم الحكومة المحلية في روما بحيث تضمن الطمأنينة والامن للسواطن ولكن يسود النظام فيها . فتقسم العاصمة الى اربع عشرة قسما ووضع كل قسم تحت اشراف مسئول اما ترييونا (عسكري) او ايدिला او برايتورا بشرط ان يختار بالقرعة . ثم قسم كل قسم بدوره الى ٢٦٥ حيا سكنيا ينتخب كل حي ممثلا عنهم هو شيخ الحي Vicomagister يكون مسئولا عن تسجيل المواطنين في قيود السجلات والابلاغ عن الحرائق واتخاذ اللازم بشأن اطفائها ومنع نشوب أى حريق . وقد قصد اغسطس بذلك القضاء على الازمالة التي سادت بين الناس وتجنب حدوث انفصام بين الشعب والحكومة ، واشغال نار الفيرة على المصلحة العامة . كما دفع نشوب عدد من الحرائق الكبرى اغسطس الى انشاء هيئة للحراسة ومكافحة النيران والحرائق وعهد بها الى نائب Praefectus urbi من طبقة الفرسان (٢) . وكانت هذه القوة تتكون من سبعة فرق من الفرسان Cohortes بلغ تعدادها الفا تقوم ايضا بحراسة المدينة اثناء الليل .

وفي عام ٢٢ ق.م احس اغسطس بقلق ازاء مشكلة تموين الفلال cura annonae الى العاصمة . فعهد بذلك الى مسئول آخر بدرجة نقيب Praefectus ، واستصدر قانونا يعاقب بشدة كل من يتعرض لقوافل الفلال وهي في طريقها الى العاصمة . وفي نفس العام عين « سيناتورين » يختاران من بين « البرايتوريين » السابقين ليشرفا على توزيع الفلال بالمجان على

(١) تم ذلك في خلال اصلاحاته العسكرية عام ٦ ميلادية عندما جندت قوة من المحاربين دربت على النظام العسكري بالرغم انها لم تعتبر من الناحية الرسمية قوة عسكرية وبدليل ان المؤرخ تاكيتوس اسقطها من عرضه لجيوش الامبراطورية عام ٢٣ م (Ann. IV, 5) وتسمت هذه القوة الى سبعة وحدات (Cohortes) يبلغ عدد كل منها الف رجل واصبحت كل وحدة تحرس حين من احياء روما الاربعة عشر

Watson, op. cit., p. 19.

(٢) انظر البحث التيم عن هذا المنصب :

G. Vitelli, *Ricerche Sulla Praefectura Urbi in Imperiole* (Roma 1960).

فقراء وبروليتاريا المدينة . ولما كانت مهمة توزيع الفلال إحدى مسئوليات السناتو فقد تلقى هذان المسئولان راتبهما من الخزانة العامة . ولما أدرك أغسطس أن قوائم المتمتعين بأحقية شراء القمح المسعر قد زادت عن الحد الذى أراده يوليوس قيصر لها اضطر الى مراجعة القوائم مرة أخرى وتحديد عدد هؤلاء المتمتعين الى مائتين ألف فقط واشترط على كل مستفيد أن يقدم اثباتا بأن أصله Origo من بروليتاريا المدينة وليس نازحا من الريف . وقد أدى انخفاض معدل المواليد فى العاصمة الى تجميد هذا العدد .

ومن بين الاصلاحات العامة فى مرافق العاصمة مشروع الجنرال اجريبا بإنشاء مساقى وقنوات لمسد العاصمة بالمياه ، كما اهتم بترميم مجارى المياه فوق القناطر aqueducts ، وكان عددها ثلاثة اضاف اليهم اثنتين . كما أشرف على تعيين فريق لإدارة شبكة المياه ، وعندما مات اجريبا عام ١٢ ق.م. عهد أغسطس بإدارة مرفق المياه الى لجنة سيناتورية يشرف عليها ثلاثة أمناء aediles يخضعون لأشراف السيناتور . كما أضيف الى هذه اللجنة مهمة الاشراف على المعابد والمرافق العامة الأخرى وترميم ما يؤول للسقوط منها . كذلك أبدى أغسطس اهتماما كبيرا باصلاح وتعبيد الطرق ، ويروى ديو كاسيوس انه عندما وجد حالة الطرق خارج العاصمة قد ساءت أمر أعضاء السناتو باصلاحها على نفقتهم الخاصة واختار هو طريق فلامينيوس لينفق عليه من ماله الخاص .

وفى السنوات الأخيرة من حكمه أنشأ أغسطس قوة من ثلاثة فرق من الفرسان urbanae cohortes يبلغ تعدادها ثلاثة آلاف راكب يقودها نائب الخفراء Praefectus vigilum (٢) يختار من رجال السناتو أو القناصل السابقين . وقد اعتبرت هذه القوة جزءا من الجيش الرومانى تخضع له فى الإدارة والتمويل . كما ساعد الحرس البرايتورى فى تطبيق الأمن خارج العاصمة وفى اجزاء ايطاليا المختلفة .

cf. Dio Cassius LIII, 16-32.

(١)

كان طريق فلامينيوس أحد الطرق الرئيسية الثلاث التى تقطع ايطاليا وكان يربط بين طريق ابيا الذى يبدأ من طرف الحذاء الذى يربى الشرقى حتى جنوب كابرى Caere حيث يبدأ طريق فلامينيوس صوب الشمال . يلتقى بطريق ايلويس الذى يتجه نحو الشمال الغربى من ايطاليا وقد سمي هذا الطريق على اسم حابوس فلامينيوس الرقيب الذى أنشاه عام ٢٢٠ ق.م .

(٢) انظر :

P.K. Ballie-Reynolds, The Vigiles of Imperial Rome (1926).

ب - الولايات :

ادرك أغسطس أن السلام ليس معناه تأمين العاصمة واصلاح المرافق فيها فحسب ، بل هو اصلاح وتأمين ولايات الامبراطورية التى تدر كل عام الضرائب والأمراال والغلال لكى يستمتع بها المجتمع الرومانى العظيم ، ولذا رأى أنه يجب أن تؤمن من كل تهديد أو خطر . لقد وضع قادة العصر الجمهورى حدود روما العظمى وارتضى أغسطس بهذا الحدود ، ولكنه ادرك أن أى حدود لا يجب أن تضم الا اذا كانت مناطق استراتيجية يسهل بواسطتها حماية الاراضى الرومانية بأقل التكاليف العادية والمجهودات الحربية ولحماية المستوطنين الرومان من ثورات الوطنيين فى هذه المناطق وحماية سكان بعض الولايات من سكان بعض الولايات ، لأنه كان ضد سياسة التوسع لذات التوسع .

وعلى العموم فان أغسطس لم يحد التوسع فى جبهتى آسيا والشرق الاوسط وفضل أن يحقق أغراضه فى هذه المناطق عن طريق « الدبلوماسية الوقعة » وسياسة التهديد والارهاب باستخدام القوة مثلما فعل مع البارثيين ، كما اعتمد على انشاء دويلات عميلة تقوم بعمل كلاب الحراسة *buffer states* وكنقاط متقدمة للجيش الرومانى وهو نظام عرفه السياسة الرومانية منذ عصر الجمهورية والتى سارت على مبدأ « قسم وأحكم » *Divide et impera*

وبالرغم من أن أغسطس - كما سبق أن ذكرنا - كان قد قسم بمقتضى اتفاق عام ٢٧ ق.م الامبراطورية الى ولايات تابعة له شخصيا وولايات تابعة للسنااتو ، إلا أنه لم يراع هذا الفارق فيما يختص بالامن القومى . وذلك لأن أغسطس احتفظ لنفسه بسلطة الامبريوم الاعلى *Imperium maius* وهى تفوق سلطة الامبريوم التى كان يتمتع به حكام الولايات من القناصل السابقين *Pro-consules* الذين كان السنااتو يعينهم حكاما على الولايات التابعة له ، كما كان أغسطس يسيطر على السنااتو ، وكان هذا الاخير لا يقدر على بهادة الثمن الذى قد يدفعه اذا ما فكر فى مخالفة الامبراطور . وهذا واضح من سلوك أغسطس عندما تدخل لاصلاح الظلم الاجتماعى الذى تسبب عن حكم الجمهوريين لولايتى كريت وقورينة عام ٧ ق.م واللذان كانتا ولايتين تابعتين للسنااتو . ثم أصدر فى عام ٤ ق.م قرارا نشر فى ولاية قورينة بليبيا أوعزه بنفسه للسنااتو يؤيد فيه اصلاحاته للظلم الذى وقع على ولاية قورينة معلنا تسهيل اجراءات مقاضاة الناس ضد أى مسئول رومانى يحاول ابتزاز اموالهم ظلما وعممه على كل الولايات الرومانية ، وخصص لجنة برلمانية من السنااتو للتحقق فى مثل هذه القضايا وتقضى الحقائق بخصوص حوادث الابتزاز من جانب الولاة وعاملى الخراج الرومان ، وأعلن أغسطس قراره لكى يعام سكان الولايات جميعا مدى المعوقات التى يتبعها السنااتو والامبراطور حتى لا يدفع أحد من رعايا الامبراطورية ضحية لظلم أو

أبتزاز . هذه الكلمات التي صدرت من فم الامبراطور نفسه تعبر عن جوهر الحكم الجديد وعن سياسته ازاء الولايات ، لقد كانت الفكرة في رأس أغسطس هو أن يجعل الاستعمار الروماني استعمارا مستنيرا ينمى ولا يخرب يجز ولكن لا يسلب . وبناء على ذلك فقد أعاد أغسطس النظر في كافة انواع الضرائب ، ولكي يكون عادلا في تقدير الضرائب فقد أمر باجراء احصاء كل أربعة عشر عاما لاعداد المواطنين وممتلكاتهم على ضوءه تفرض الضرائب بطريقة نسبية ، وعهد الى صديقه وجنراله أجريبا للإشراف على تلك الهيئة ووضع جدولا ضريبيا يراعى عند فرض الضرائب .

الولايات والامبراطورية والولايات السيناتورية :

سبق ان اشرنا الى ان الولايات الامبراطورية - أى التابعة للامبراطور هي الولايات التي كان يعسكر فيها القوات الرومانية ، والولايات السيناتورية

(١) بفضل ثراء المصادر الاثرية - خاصة المكتوبة منها - والتي اكتشفت في بعض ولايات الامبراطورية الرومانية أمكن للعالم الكبير ميخائيل روستوفتوف أن يؤلف عمله الضخم الذي أصدره في عام ١٩٢٦ وهو

Social and Economic History of the Roman Empire.

والذي صدرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٥٧ . وبالرغم من أن هذا العمل لا يزال المصدر الأول للباحث من الأحوال السياسية والاجتماعية في الامبراطورية الرومانية إلا أن الاكتشافات الاثرية بفضل مجهودات علماء الآثار خاصة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي غطت تقريبا معظم المناطق التي كانت ولايات الامبراطورية الرومانية « فيما عدا أسبانيا » غيرت المفهوم الأكاديمي للباحثين إذ بدأ الاتجاه نحو دراسة العلاقة بين الحضارة الاغريقية الرومانية وبين حضارات الشعوب المحلية في هذه الولايات وكان هذا واضح في أعمال المؤتمن الثامن لعلماء الآثار الاغريقية الرومانية المنعقد في باريس عام ١٩٦٣ . انظر :

Huitième congrès international d'achréologie classique (Paris 1963) : Le rayonnement des civilisation grecque et romaine sur les cultures périphériques, Paris 1965.

ومن الدراسات الحديثة التي سارت في هذا الخط مجموعة الأبحاث التي تضمنها الكتاب الثاني .

Fergus Millar (with D. Berciu, R. Frye, G. Kossack and Tamara Tablot Rice), The Roman Empire and its Neighbours, Weidenfield & Nicolson Universal Library (English edition 1967).

هذا بالإضافة الى المراجع القديمة التي لا تزال مفيدة مثل :

Theodore Mommsen. The Provinces of the Roman Empire (1909) ; V. Chapot : The Roman World (1928) ; H.M. Jones, Cities of the Eastern Roman Empire (1937).

أما الكتب الأخرى التي عالجت بمقدار ولايات الامبراطورية بالتفصيل فقد اشرت اليها عندما تعرضت لهذه الولايات .

حتى الولايات النم لم تحتاج الى قوات عسكرية لتأمينها ، ولكن في بعض الظروف كان أغسطس يجبرك جيوشه الى ولايات السناتو لاتمام عمليات عسكرية مثلما فعل في ولايات مقدونيا واليريكوم وافريقيا ، كما سلم أغسطس الولايات التي هدأت تماما وتشربت بروح الثقافة الرومانية الى السناتو مثلما فعل بولاية الغال القريبة Gallia Narbonensis التي حزلتها عمليات الاستيطان المنضارد الى شبه بجزء من ايطاليا وليس ولاية رومانية ، وكذلك فعل باقليم باثيكا Baetica الأسباني ، كما فصل اقليم البيلوبونيسوس في جنوب بلاد اليونان وجعله ولاية مستقلة تابعة للسناتو وسماه ولاية اخيا Achaia الذي كان قسما تابعا لمقدونيا ، كما استولى أغسطس على ولايات كانت تابعة للسناتو بسبب الطوارئ والظروف فمثلا انتزع من السناتو في عام ١١ ق.م ولاية الليريكوم التي كان يحلم قديما باكمال فتحها قبل نشوب الحرب ضد أنطونيوس وكليوباترة . وكانت هذه المنطقة البوغوسلافية تشتهر برجال قبائلها المقاتلين والذين كانوا يقومون بأعمال المقاومة المستمرة ضد المحتلين الرومان (١) . كما استولى أغسطس على ولاية كيليكيا ثم استولى في عام ٦ ميلادية على جزيرة سردينيا . كما كان أغسطس يحتفظ لنفسه بالمقاطعات التي يفتحها رجاله وجنوده . وهكذا كان السناتو شريكا اسما وليس من الناحية الفعلية — للامبراطور في حكم الولايات .

وبين الحين والآخر سمح أغسطس لبعض المقاطعات بالاستقلال المحلي في اطار الامبراطورية (٢) . فمثلا كانت هذه المقاطعات او المدن حرة في تسيير شئونها الداخلية وغير ملزمة بدفع ضرائب لروما ولكن من ناحية الدفاع والسياسة الخارجية فقد كانت تتبع الامبراطورية وكانت هذه الامارات ملزمة بالمساهمة في الحملات العسكرية اذا اقتضى الامر ، وكثيرا ما كانت حكومات هذه الامارات « عميلة » لا يقيها في الحكم شيء سوى قوة السلطة الرومانية ، وكان استغلالها سوريا ويندابق ذلك على موريتانيا Mauretania وتراقيا Thracia . ومقاطعة يهوذا في فلسطين Judaea ، وكذلك جالاتيا Galatea ، وكبادوكيا Cappadocia ، وارمينيا الصغرى ، واخيرا ارتاى أغسطس تحويل مقاطعة يهوذا ومقاطعة جالاتيا الى ولايات رومانية دعما للسلام الروماني .

(١) من هذه الولاية قدر لسلسلة من رجالها ابتداء من كلوديوس القوطى حتى دقلديانوس وتسططين ان يتولوا عرش الامبراطورية وينقذوها من التصدع وذلك ابان القرن الثالث الميلادى وعرفوا باسم الابطرة الالبيين .

(٢) يتطبق ذلك على ولايات الشرق الافريقية الحضارة والتي كانت في الأصل ممالك تقودها مدن هلينستية وكان زمام الحكم في هذه المدن يقع في ايدى طبقة مثقفة برجوازية تربطها صلات قوية بالطبقات الحاكمة في روما

انظر :

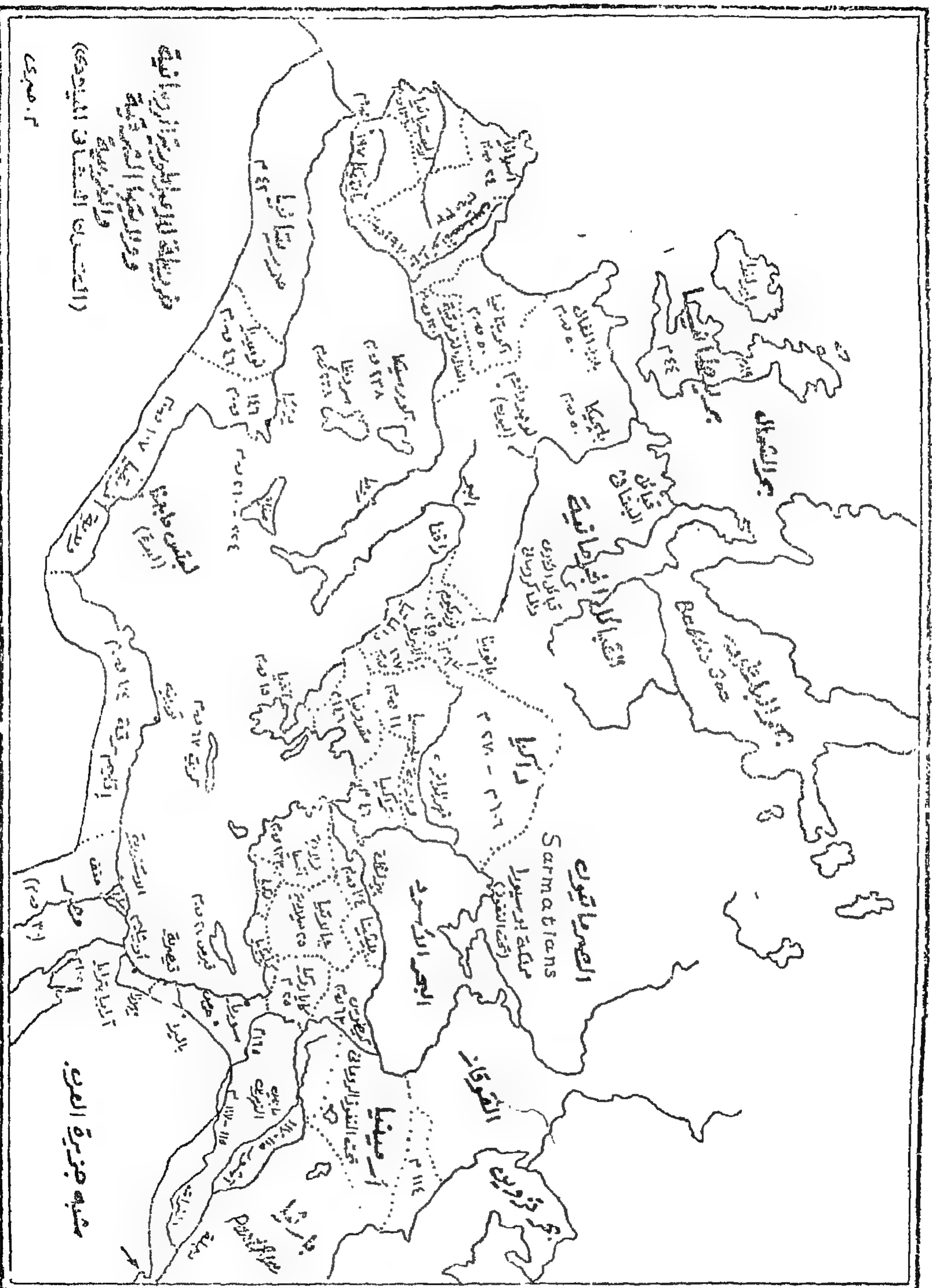
G. W. Bowers - "Augustus and the Greek World, (Oxford 1962), p. 122.

اصلاح حكم الولايات :

ظلت السلطة الرومانية تفرض نفسها على الولايات في العصر الامبراطوري بنفس الصورة التي كانت عليه ابان العصر الجمهوري . فقد كان حكام الولايات يختارون بالقرعة من بين المرشحين لهذا المنصب من القناصل والبريتوريين السابقين ، وكان يشترط أن يكون قد مضى على القنصل عشر سنوات منذ تركه للوظيفة وعلى البرايتور خمس سنوات حتى يصبحان مؤهلين لشغل هذا المنصب ، وكان حاكم الولاية يسمى برو قنصل Pro-consul سواء سبق له تولى القنصلية فعلا ام لا ، بالرغم من انه كان يشترط على حكام ولايتي اسيا وافريقيا أن يكونا بالفعل قنصلين سابقين . وكانت مدة سريان المنصب عام واحد ، وكان يساعد البروقنصل هيئة يوافق على اختيارها الامبراطور وتتكون من الكوايستور (المفتش المالي) وثلاثة مندوبين قضائيين بروبرايتوريين) . اما في الولايات التابعة للامبراطور فقد كان قائد قواته فيها يعتبر مندوبا Legatus عنه في حكم الولاية والتزم بذلك اسما ووظيفة . اما اذا كانت الولاية هامة وتقتضى عناية خاصة عندئذ كان الامبراطور يعين نوابا عنه بدرجة بروبرايتور Legati Aūgusti Propraetoriani يختارون من رجال السناتو الذين سبق لهم التمتع بسلطة القنصلية او البرايتورية دون النظر الى شرط انقضاء فترة معينة ما بين تركهم هذه السلطة وترشيحهم للوظيفة الجديدة . واستثنى من ذلك نوابه لحكم مصر لأنهم كانوا يختارون من طبقة الفرسان ويتمتعون بلقب والى مصر Praefectus Aegypti وكان تحت تصرف والى مصر ثلاث فرق رومانية . اما باقى الولايات الصفرى التابعة للامبراطور فكان يحرسها حاميات من القوات المساعدة ويحكمها والى أيضا ولكن غير اسمه فيما بعد فأصبح « الامين » Procurator في الولايات الكبرى كانت تصغر الفرق الرومانية يتود كل منها آمر فرقة legatus legionis (١) وكان آمر الفرقة خاضعا لنائب الامبراطور تماما كما كان يخضع للامناء Procurators ، وكان كل من الولاة والامناء يعينون شخصا بقرار من الامبراطور ولا يخضعون لاي سلطة غير سلطته الشخصية . كما كان نواب الامبراطور وامناؤه لا يخضعون للمدة المحددة التي تحددها الوظائف الاخرى ، بل كانوا يمارسون عملهم ما دام الامبراطور راضيا عنهم وما لم يحتاج اليهم في مهمات تقتضى مفادرتهم الولاية . ولما كان الامبراطور هو الذى يعينهم كان الامبراطور هو الذى يتقيلهم . وهو الذى يصرف الرواتب لحكام الولايات سواء الامبراطورية او السيناتورية وبذلك قضى على دوافع النهب والاستغلال

(١) فضلت أن أترجم لفظ legatus legionis بأمر الفرقة وهي أسبق ترجمة

في نظري وحتى نفرق بين هذه الرتبة وبين الوظيفة السياسية لنفس الكلمة وهي مندوب الامبراطور لحكم ولاياته .



التي عانت من جرائمها شعوب الامبراطورية الويل والعذاب (١) واصبح حاكم الولاية عرضة للحساب العسير امام الامبراطور .

وقبل ان نهيى الحديث عن ولايات الامبراطورية يجب ان نضيف ان أغسطس لم يكن عبقرية عسكرية بقدر ما كان عبقرية تنظيمية ، وبالرغم من أنه كان مستنيرا ومتحكما في أطماعه إلا أنه لم يقاوم اغراء التوسع الذي تقتضيه العظمة الرومانية Gloria وخاصة وأنه كان يعتقد بأنه أعظم من حكم روما وهو محق في ذلك فلا نعرف حاكما أضاف الى الامبراطورية بلادا جديدة مثلما أضاف أغسطس . واذا كان أغسطس يدعى في كل غزوة يقوم بها بأنه يقوم بعمل مشروع Bellum iustum لأنه دفاعي ، كما ان شعراء البلاط الاوغسطي هللوا وكبروا بالتوسع واعتبروه عظمة روما فكشفوا نواياه الحقيقية . ونستطيع ان نصف سياسة أغسطس بأنها سياسة استعمارية توسعية ولكنها سياسة ذكية تعرف حدودها التي لا يجب ان تتعداها . وعلى ذلك نستطيع ان نوجز « العمليات الدفاعية » في الولايات الرومانية كما يلي :

١ - مصر :

كانت مصر اخنى ولايات الامبراطورية الرومانية وأهمها استراتيجيا وتجاريا ، فقد كانت هي و ولاية افريقية تمد الامبراطورية بحوالى خمسة ملايين مكىال روماني من القمح وهو ما يعادل ثلث الكمية التي يستهلكها الشعب الروماني سنويا .

وكان امل روما في الاعتماد على القمح المصرى كبيرا ، فقد ذكر اوريليوس فكتور Aurelius Victor المؤرخ الذى كان يشغل وظيفة حاكم بانونيا عام ٣٦٠ ميلادية والذي كتب تاريخ الامبراطورية من أغسطس حتى قسطنطين الثانى - أن روما كانت تحصل من مصر في بداية عصر أغسطس على ما يعادل مليون اردب قمح بالمعيار المصرى سنويا ، بل ان اعتماد روما على القمح المصرى بدأ منذ أيام البطالمة ، وقد أدى تدفق القمح المصرى الجيد والرخيص الى كساد زراعة القمح في ايطاليا حيث لجأ الفلاحون الايطاليون الى استبدال مزارع القمح بمزارع الكروم ، ولهذا كتب المؤرخ تاكيتوس بأسلوب ساخر عن انتهاء عصر اعتماد ايطاليا على ما

cf. H.D. Meyer, Die Ausserpolitik des Augustus and die (1)
Augusteische Dichtung, München (1958), pp. 130 off.

وقد ذكر سورتوريوس أن ان كان ذلك رذالا في ولايات الامبراطورية فيما عدا
سرديشيا وولاية افريقية ، لأنه لم يجد الفرصة لزيارتها .
Suetonius, Divus Augustus, 25.

also. cf. : J. B. Bury and L.K. Geweke. Augustus and the Re-
construction of the Roman Government and Society, Madison 1934.

تنتجه من القمح وبداية الاعتماد على القمح المصري وقال بالحرف الواحد «ان ايطاليا لم يصبها الجذب ، لكننا نفضل استغلال افريقيا ومصر ، لقد اصبحت حياة الشعب الرومانى رهنا بالسفن » (١)

وبالنسبة لغيرها من الولايات كانت مصر ولاية هادئة ، لم يحدث فيها ما يعكر صفو السلام الرومانى اللهم الا بعض الثورات الصغيرة التى قامت فى الجنوب وبعض القتال قرب الحدود الاثيوبية ، اذ تعرضت مصر لبعض الغزوات من جانب الاثيوبيين خلال عام ٢٩ ، ٢٥ ، ٢٢ ق.م ، وقد قام كورنيليوس جالوس ، اول وال عينه اكتافيوس اغسطس على مصر وهو من المع رجال الفرسان وكان شاعرا وصديقا لفرجيل امير الشعراء الرومان - بحملة تأديبية ضد النوبيين فى عام ٢٩ ق.م الذين حرقوا مدينة طيبة على الثورة ، وبعد سحق الثورة فى طيبة قرر الالى ان يؤمن حدود مصر وحدود الامبراطورية فى افريقيا ، فسار حتى اسوان ثم الى جزيرة فيلة (قصر انس الوجود) وقبل عقد اتفاق مع ملكة النوبة بجعل منطقة عازلة ما بين مصر والنوبة ويبلغ مساحتها تقريبا ٣٣٣ كيلو مترا وتقع ما بين الشلال الاول والثانى ، واشترط ان تكون هذه المنطقة العازلة تحت النفوذ والحماية الرومانية . وقد ترك كورنيليوس جالوس اخبار اعماله فى طيبة والنوبة منقوشة على حجر من الجرانيت عثرنا عليه فى جزيرة فيلة مكتوب باللغات المصرية واللاتينية واليونانية ومؤرخ فى ٢٠ من برمودة الموافق الخامس عشر من ابريل عام ٢٩ ق.م وهو العام الاول لحكم الرومان ، وتفاخر بأنه اول والى رومانى يعين على مصر بعد فتحها ، وتباهى بأنه قمع الثورة فى طيبة التى كانت مصدر ازعاج للملوك السابقين (٢) وركب الفرور الالى فنسى نفسه ونسى حدوده فسمح بأن تقام له التماثيل وأن تنقش اعماله على واجهة المباني العامة بل وعلى الأهرامات ، وبالرغم من أن لهجته لا تحمل أى مساس بالامبراطور او توحى بالتمرد عليه ، الا أن اوكتافيوس اغسطس كان يعرف مدى الخطورة لو ترك الالى يسلك هذا السلوك ، اذ كان يخشى على مصر من الانفصال عن الامبراطورية وهى الصومعة التى يعيش عليها الرومان ، ومن ثم استدعى كورنيليوس جالوس الى روما وأوعز للسناو ان يكيل له الاتهامات ، فعزل من منصبه وصودرت ممتلكاته ثم نفى من البلاد ، ولم يتحمل الالى هذه الصدمة فأخذ حياة بيده فى عام ٢٧ ق.م حيث رثاه فرجيل صديقه الحميم .

وكان الالى الثانى يدعى ايليوس جالوس وهو لا يمت بأى صلة قرابة الى الالى الاول ، وقد شغل نفسه بمشروع فتح اليمن وفى أثناء غيابه هناك استغل النوبيون خلو مصر من الفرق العسكرية وعادوا الهجوم على حدود مصر الجنوبية ناقضين بذلك الاتفاق الاول ، وهزموا الكتائب الثلاث التى كانت تقوم بحراسة الحدود الجنوبية ، واستولوا على بيلة واسوان والفنتين ونهبوا اموال وممتلكات الناس وسرقوا تماثيل اغسطس وحملوها معهم . عندئذ اصدر اغسطس اوامره الى أحد قواده من الفرسان

(1) Tacitus, Amale, XII, 43.

انظر مصطفى العبادى : مصر الاسكندر الى الفتح العربى الانجلو المصرية ١٩٦٦ س ١٤٣ .

(٢) انظر عبد اللطيف احمد على : المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

واسمه جايوس بترونيوس بالتعامل مع النوبيين نظرا لانشغال الوالى فى حرب ابيمن ، وقاد بترنيوس حملتين الاولى قام بها فى عام ٢٧ ق.م والثانية عام ٢٢ ق.م طارد فيها النوبيين جنوبا حتى السودان واستولى على نباتاء احسة النوبيين (جبل البرقل) ودمرها ، وهنا طلبت الملكة النوبية - او انكنداكه - عقد السلام مع الرومان ، وأوفدت رسولا قابل الامبراطور اغسطس فى جزيرة ساموس فى شتاء عام ٢١ - ٢٠ ق.م وأبدى الامبراطور استعدادا لحل المشكلة النوبية وقبل سحب قواته من جنوب النوبة والاكتفاء باحتلال المنطقة الواقعة ما بين أسوان ومدينة الحرقة (هيرا سيكا مينوس) وجعلها منطقة عازلة ، واصبح بذلك حدود الامبراطورية هو الشلال الاول . وبقيت حدود مصر آمنة لما يقرب من ثلاثة قرون من بعده ، حيث اقام الامبراطور حامية رومانية وبنى تحصينات دفاعية حفظت السلام فى الجنوب .

وقد بلغ الخوف بأغسطس ان ترك فى مصر ثلاثة فرق رومانية واحدة فى الاسكندرية والثانية فى منف والثالثة فى طيبة ، فضلا عن عدد من فصائل الخيالة التى تركها لحماية حدود مصر الشرقية والغربية وعند مدخل الفيوم وفى مدينة الأشمونين ولحراسة الطرق المؤدية الى موانى البحر الاحمر . وقد بلغ حجم القوات الرومانية فى مصر حوالى ٢٢ر٨٠٠ جندي وهو يفوق بكثير متطلبات الموقف ويعكس القلق السياسى الذى كان يسيطر على الامبراطور خوفا من ان تستغل مصر او يستقل بها احد ولايتها ومن ثم حرم على رجال السناتو ومشاهير رجال طبقة الفرسان تولى الوظائف فيها او حتى دخولها الا باذن خاص منه . وسرى هذا الحظر حتى على آل البيت الامبراطورى ذاته ، وظل سارى المفعول يطبق كما اراده اغسطس حتى القرن الثالث الميلادى عندما بدأ خير مصر يقتل ولم تعد الصومعة التى يمش منها الرومان ، وعندما بدأت شمال افريقيا تحل محلها كمصدر بديل للقمح .

ولم يشأ الامبراطور اغسطس ان يدمج مصر ادماجا كاملا فى الامبراطورية الرومانية نظرا لمشاكلها الكثيرة وللتركيب الفريب لمجتمعها السكانى والمنصرى ، بل ايضا خوفا من ان تصبح مطمعا لجباة الضرائب من رجال الفرسان الذين يتحرقون شوقا منذ ايام يوليوس قيصر واواخر عصور البطالة الى نهبها لما سمعوه عن خيراتها وتراثها وقمحتها ، ومن ثم اراد اغسطس ان يكون النهب من جانب واحد يشرف هو بنفسه عليه بحيث يكون النهب منظما وعاقلا تماما مثل نظرة صاحب الضيعة الى ضيعته ، وبالرغم من ان مصر كانت ولاية Provincia حسب التعريف القانونى الرومانى او ابيارخيا Eparchia وهو اللفظ المقابل فى اللغة الاغريقية التى كانت لغة الدواوين وانه الشعب فى مصر منذ فتح الاسكندر حتى الفتح العربى ، وكان يبا قوات عسكرية ويستغل خيرها لصالح الشعب الرومانى ، ولكن بعكس سائر الولايات جعلت روما من طبقة الفرسان المولية الامبراطور رائفى ليس من حتميا تولى الامور الادارية العليا ، ومن ثم منح الامبراطور الامانات مؤقتة تؤول بزوال السبب ليحكم مصر نيابة عن الامبراطور ، بل كانت مصر هى الولاية الوحيدة التى منحت حق سك

تقودها التي لا تدعى الا فيها فقط منعاً لاستنزاف اقتصادها ، ربي أنس الوقت عادل العملة السكندرية من فئة الأربعة دراخمت بالدينار الروماني تسهيلاً لتقدير الضرائب وللتجارة المتبادلة ، وظل هذا الحق سارياً حتى الفاء ديوقلديانوس عام ٢٩٥ ميلادية عندما أدمج مصر ادماجاً كاملاً وشاملاً في الامبراطورية .

وقد صاحب عملية تأمين مصر القضاء على الثورات فيها وتكبيها بثلاثة فرق كاملة وعدداً من فصائل الفرسان وهو يفوق الحاجة ، ثم تقسيم مصر الى ثلاثة اقسام ادارية كبرى هي الدلتا ومصر الوسطى واقليم طيبة وجعل على راس كل منها نائباً للوالي لحكمها واشترط ان يكون هذا النائب رومانياً او حاصلاً على الجنسية الرومانية تماماً مثل الوالي وقاضى القضاء وامين الخزانة وامين الحسابات الطارئة والذين كانوا جميعاً يقيمون في الاسكندرية ولا يغادرونها الا في دورات تفتيشية ، وكان هدف الامبراطور من هذا التقسيم الادارى القضاء على حركات الانفصال في الوادى والتي سادت طوال تاريخ مصر الفرعونية والبطلمية ، ومن أجل هذا قلم أظافر المعابد واشرف على ميزانياتها وزراعة أو تأجير اقطاعياتها وسلب منها حق منح الحماية لمن يلوذ فراراً من دين أو عقاب .

ولما كانت الزراعة قد أهملت في اواخر عصر البطالمة حيث ردمت المصارف والترع والرياحات وجارت الصحراء على الأرض الخضراء مما أدى إلى ضعف الانتاج الزراعى ، فقد بدا أغسطس ثورة زراعية وأمر جنوده بالعمل في مشروعات الري والصرف والاصلاح كصاحب الضيعة التي ورثها مهمة ويريد اصلاحها ليستغلها بأقصى درجة ممكنة .

كذلك أراد أغسطس أن يستغل وضع مصر الاستراتيجى لخدمة التجارة بين الشرق والغرب والتي تعود بالنفع على أهل الاسكندرية التي كان يعمل أغلبهم بالتجارة ، ومن ثم أنشأ أسطولاً يعمل بانتظام بين الاسكندرية وايطاليا ، وفى نفس الوقت ربط بين التجارة القادمة من الهند وسيلان عبر المحيط الهندى ثم الى البحر الأحمر ثم تنقل التجارة برا عن طريق القوافل سواء فى وادى الحمامات الى الموانئ النيلية عند « قفل » لتتنقل بالراكب الشراعية الضخمة حتى الاسكندرية وهكذا لأول مرة فى تاريخها سيطرت مصر على التجارة بين الشرق والغرب وقد ساعد تقدم العلوم البحرية والمناخية على تشجيع الملاحة فى البحر الأحمر الذى تحول الى بحيرة نشطة بعد أن كان بئراً مهجوراً وبدأ التجار ينقلون منتجات الهند وافريقيا مثل البهارات والعطور والعاج وريش النعام والذهب النيرة الى ايطاليا عن طريق الاسكندرية ، وأصبحت هذه المدينة مقراً لكبار التجار وحيث تجرى فيها صفقات التسديد والاستيراد بل تكونت شركات دولية فى بعض الأحيان لهذا الغرض . وقد عاد هذا النشاط التجارى بالرخاء على الاسكندرية .

ولم يحاول أغسطس أن ينشر اللغة اللاتينية أو يقيم فيها مدنا على النظام الإيطالي مثلما فعل في شمال أفريقيا أو بلدان الشرق لأنه أدرك قوة المقاومة الحضارية سواء الفرعونية الخالصة أو المصرية الإغريقية ، واكتفى بأن تكون العلاقة بين مصر وروما علاقة استغلالية كعلاقة الفلاح بالبقرة لا يهتم لونها أو جمالها بقدر ما يهتم كمية اللبن التي تدرها ، ولهذا فرضت الضرائب بكل أنواعها فكان منها ضرائب مباشرة مثل ضريبة حيازة الأرض ومقدارها خمس المحصول تقريبا ، وضريبة الرأس أو الجزية التي فرضت بالكامل على الفلاحين المصريين وخففت الى النصف بالنسبة لأنصاف الإغريق الفاطنين في عواصم الاقاليم بينما أعفى منها أهل الاسكندرية تماما ، ودفعها اليهود المصريين مخفضة ، وضريبة المهن والحرف ، ثم سخرة تطهير القنوات وتقوية السدود وكانت مدتها خمسة أيام من العمل أو اجر هذه الأيام ، أما الضرائب الغير مباشرة فهي ضريبة البيع والجمارك والمكوس فرضت على التجار وكان ألبهم من الإغريق وكانت تتراوح ما بين ١٠ ٪ من قيمة البضاعة المستوردة أو المصدرة ، محلية الصناعة أو مستوردة وكانت ضريبة الملح والنظرون nitrike من أهم هذه الضرائب ، ثم الضرائب على البضاعة المنقولة عبر النيل ، وكذلك رسوم القضايا وتسجيل العقود والقرارات .

كما فتح أغسطس الطريق للحصول على الجنسية الرومانية للعاملين على حفرق المواطنين في مدينة الاسكندرية أو للمتطوعين في القوات المسلحة الرومانية خاصة في الأسطول بعد قضاء ما يقرب من خمس وعشرين عاما وهو ثمن باهظ مات قبل أن يحققه الكثيرون وكان للجنسية الرومانية مزايا مادية مثل الاعفاء من ضريبة الرأس والسخرة والتمتع بحماية القانون والوضع الممتاز والتسامي النفسي ، هكذا بقيت مصر في وضع معزول وبقيت الاسكندرية - التي اعتبرها الرومان مجاورة لمصر وليست مصرية - عاصمة للولاية كما أراد لها الاسكندر الأكبر وخلفاؤه من ملوك البطالمة ، بل أصبحت أيضا المركز العلمي والحضاري والثقافي وما جرت اليها الحضارة من بلاد اليونان بعد أن تدهور حالها هناك ، بل قامت الاسكندرية بدور الوسيط بين الحضارة المصرية ذات الأسرار المظوية وبين الحضارة العالمية الإغريقية رومانية ، وبفضل الاسكندرية تعرف العالم الروماني على أسرار المصريين وانتشرت بينهم ديانتهم مثل عبادة اوزير وسيرايس وهاربوقراطيس ، فضلا عن السحر وتفسير الاحلام .

أما الوادي أو «الخورا» وهو النربط الضيق الطويل من الأرض المربعة يسمى تيمنا من خارج الاسكندرية حتى أسوان جنوبا ، فقد كان يسكنه الملاحيون المصريون باستثناء عواصم المدن المصرية أو المدن الإغريقية - حيث يسكن طبقة ثرية من الإغريق المستوطنين تملك الأرض والمال لكنهم كانوا مختلطين بالمصريين سواء من ناحية زوجاتهم أو أمهاتهم ولهذا اعتبرهم الرومان أنصاف إغريق دفعوا نصف ضريبة الرأس ، أما المدن التي ذهبوا للاستش في الريف المصري بعيدا عن المدن فقد ذهبوا

تماما مع الفلاحين المصريين مكونين حلقة تجمع بين خصائص الشميين الفكرية واللغوية والسلوكية .

لقد كانت « الخورا » هي مصر الحقيقية ، حيث الحضارة الفرعونية العريقة والتي تمتد عبر ثلاثة آلاف سنة قبل مجيء الاغريق ، لم يؤثر فيها الغزو الحضاري الاغريقي كثيرا ، بل على العكس دعم من كبريائها ومسئوليتها ، بل دخلت معهم في دور التحدى من أجل البقاء .

ولهذا نرى التناقض واضحاً بين آثار مدينة الاسكندرية وبين الآثار التي نثر عليها في الأجزاء الأخرى من الوادي ، صحيح أن الحضارة المصرية طعمت في بعض الجوانب بالحضارة الاغريقية لكنها بقيت مصرية خالصة روحاً وجوهراً ، حتى في المدن والتجمعات الاغريقية في الوادي نجد الطابع والتأثير المصري يثلب عليها ويصبح الفن الاغريقي صورة باهتة تبعد تدريجياً عن الروح الاغريقية الخالصة ، بل وصل تيار التمصير الى بعض أحياء الاسكندرية ذاتها .

لكن بقيت الاسكندرية ينبوعاً للحضارة والثقافة الاغريقية الراقية ، التي امتدت حتى الى الكتابات الدينية التي كتبها اليهود وآباء الكنيسة المرقسية ، فقد كتب فيلون باللغة الاغريقية الراقية موضوعات يهودية بحتة وذلك في النصف الأول من القرن الأول الميلادي ، فقد ترجم فيلون التوراة (العهد القديم) بلغة اغريقية مبسطة ، لكن نشوبها الروح الفلسفية الأفلاطونية الأصلية لكي يخاطب بها قومه اليهود الذين كانوا لا يتكلمون العبرية ، بل ايضاً لكي يخاطب السكندريين أنفسهم .

ومنذ أواخر القرن الثاني بدأت الاسكندرية تبرز كمركز للدراسات اللاهوتية الكنسية ممثلة في كتابات القديس كليمنت St. Clement ، والقديس اوريجينيس Origenes ، ورسائل ديونيسيوس أسقف الكنيسة السكندرية (٢٤٧ - ٢٦٤ م) وهي التي بنى عليها يوسيبوس Eusebius مؤلفه الكبير « التاريخ الكنسي historia Ecclesiastica » .

فضلاً عن هذا فقد ساهمت مصر في الكشف عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية بالآلاف من الوثائق البردية . التي نثر عليها في أكوام النفايات خارج القرى المصرية القديمة أو في المنازل والمقابر ، أو نجدها في موميات التماسيح المقدسة وأحياناً في موميات البشر ونرفع هذه الوثائق وتفرد وتعالج كيمائياً ثم نقرأ ، وتعكس هذه الثروة الوثائقية صورة رائعة لمجتمع مصر تحت حكم الرومان بل وتضيء جوانب عديدة من تاريخ الإمبراطورية ذاتها ، انها وثائق كثيرة ومتنوعة وحية ، تغطي كل جوانب الحياة ، ابتداء من روائع الأعمال الأدبية الكلاسيكية والتي يجيء على رأسها الإلهة هوميروس وتراجيديات المسرح الاغريقي وبعض الكوميديات وأعمال بعض الفلاسفة والخطباء والمؤرخين والتي كان يقرأها النخلة المنقذة من الارستقراطيين سواء من الاغريق المصريين أو المصريين المتأخرين ، كما

ننشر أيضا على بعض الأعمال الأدبية المكتوبة باللاتينية ولكنها لا يمكن أن تفارن أبدا بحجم التراث الاغريقي .

أما الوثائق غير الأدبية فهي كثيرة ومتنوعة منها التمارين والواجبات التي يقوم بها التلاميذ الصغار والموضوعات الانشائية التي يكتبها الكبار ، والمراسلات والخطابات التي يرسلها الناس لأصدقائهم حيث كان المسافرون يقومون بدور سعاة البريد للآخرين ، وهذه المراسلات طريقة تكشف عن أسرار الناس ومشاكلهم وهمومهم ومشاكلهم ، كما تشمل الوثائق عقود الزواج والطلاق ، والشكاوى أو البلاغات التي يتقدمون بها ضد بعضهم البعض ، وبراءات دفع الضرائب ، وعقود العمل وعقود البيع والرهن والإيجارات ، وقوائم السخرة وملفات الضرائب ، والقرارات الرسمية واللوائح القانونية ، وشهادات الميلاد ودعاوى المشاء والأفراح ، كلها تعطينا صورة مباشرة وحية للناس وللادارة الرومانية ، وللواقع الاجتماعي والنفسى الذى عاشته الآلاف من الكادحين الذين عرّفوا وكذبوا لكي يستمتع الرومان بنتائج أعمالهم وماتوا وهم يجدفون فى أساطيلهم وفى ثكنات جيوشهم للدفاع عن امبراطوريتهم ، انها وثائق عفوية وبسيطة وصادقة وبعيدة عن حذقة المؤرخين والمتفلسفين والمزورين للتاريخ ، انها وثائق تعكس دراما الحياة بحلولها ومرها فى شعب مقهور وفى لحظات مظلمة من تاريخه المجيد .

هذه الوثائق المكتوبة باللغة الاغريقية الممصرة هى ائمن ما قدمت مصر للمهتمين بتاريخ الامبراطورية الرومانية ، وهناك عدد محدود من الوثائق مكتوبة باللغة اللاتينية خاصة ما يتعلق بالجيش الروماني فى مصر او القانون والنشريات ، وقليل منها أعمال أدبية لاتينية التى كان يقرؤها أبناء الجالية الرومانية . او جاءت مع الجنود الرومان او التجار أثناء تحركاتهم بين ولايات الامبراطورية المختلفة .

والى جانب ذلك فهناك الآلاف من قطع العملة التى تروى التاريخ الاقتصادى لمصر وتكشف عن الأحداث الهامة والشخصية فى حياة الأباطرة الرومان والأمانى الدفينة فى نفوس المشرفين على سك هذه العملة ، وبعضها قطعاً نادرة لأباطرة لا يعرف عنهم المؤرخون الكثير .

وهناك أيضا شواهد القبور التى نثر عليها فى الدلتا والسعيد وخاصة فى مقبرة الطرانة (مركز كوم حمادة محافظة البحيرة) والتى كانت مدينة هامة مصدرة للنظرون وللأحجار ، وشواهد القبور تعكس الوضع الاجتماعى والثقافى لحياة السكان ومتوسط العمر الذى يعيشه الفرد والمهن والمستوى الاجتماعى لهذه المهن حسب نوعية القبر وعندما ننتهى من دراستها سوف نقدم معلومات جديدة تكون فى خدمة الباحثين (١)

هناك أيضا النقوش التى كشفت عن سلوك الرومان ازاء سيرة البطالة ، وعرفت المنابر والآلية التى أقيمت من أجلها وهناك أيضا آلاف الشقاقات المكتوبة التى كانت تستخدم كبراءات لتسديد الضرائب ، وفى

(1) S.A. El-Nassery, C. Wagner, New Statues from Kom Hamada, Bulletin, BIFA O, 1977. (under print)

كل اليوم يكشف الستار عن المزيد من هذه الأدلة ولن تتوقف المصادر المصرية أبدا عن العطاء (١)

والى جانب الوثائق المكتوبة باليونانية الدارجة ، هناك الوثائق المكتوبة باللغة المصرية سواء بالخط الهيروغليفي المصور على جدران المعابد التى بناها البطالمة واكملها الرومان او بنوها لأنفسهم ، والوثائق المصرية من العصر الرومانى كثيرة وتعكس العلاقة الوثيقة بين الكهنوت المصرى والسلطات الحاكمة ، وآخر نقش هيروغليفي يرجع الى عام ٢٩٦ ميلادية فى عصر ديوقلديانوس ، والى جانب النقوش الهيروغليفيه هناك الوثائق المكتوبة بالخط الهيراطيقى الذى استخدم لكتابة النصوص الدينية على اوراق البردى ، وكذلك الخط الديموطيقى الذى استخدم بكثرة خاصة على الشقافات المتعلقة بدفع الضرائب وعقود الزواج وغيرها من المعاملات والعقود التى تمت بين السواد الأعظم من المصريين المتمسكين بلغة الأجداد ، بل ظهرت اعمالا أدبية بالخط الديموطيقى مثل تفسير الاحلام والنبوءات والأساطير القومية .

ومنذ نهاية القرن الأول الميلادى تظهر أولى المحاولات التى قام بها المصريون المتأغرقون أو أبناء الجيل المهجن لكتابة اللغة المصرية بالحروف الأبجدية الاغريقية ، خاصة تعاويد السحرة التى تحتاج الى نطق دقيق وصوتيات معينة لا تقدر الأبجدية المصرية تحقيقها لأنها تخلو من الحروف المتحركة . وفى مطلع القرن الثالث الميلادى عندما بدأت المسيحية تنتشر بين المصريين نجد نصوصا من العهد القديم مكتوبة بالاغريقية لكن مذيلة بشروح مكتوبة باللغة المصرية لكن بالحروف الاغريقية ، وتدرججا بد المصريون يجدون طريقة أيسر للكتابة وهى استخدام الحروف الاغريقية بعد ان اضافوا اليها سبعة حروف غير متواجدة فى الأبجدية الاغريقية وهى الشين والحاء والعين والجيم والفاء والحاء والكاف والذال والطاء . وبعضا من الكلمات الاغريقية التى ليس لها مثيلات فى اللغة المصرية لتولد اللغة والكتابة القبطية ، وكلمة قبطى تعنى « مصرى » وهى تحريف للفظ الاغريقى Aegyptikos وقد نبتت هذه المحاولة الناجحة تلقائيا وتدرججا من الريف المصرى وليس من الاسكندرية . وسرعان ما تبنت كنيسة الاسكندرية الاغريقية الثقافة هذه اللغة والكتابة الجديدة لتسجيل صلواتها وشعائرها خاصة عندما بدأت تنفصل وتأخذ لنفسها طابعا قوميا وكهنوتيا مستقلا يقوم على المونوفيسية أى الطبيعة الواحدة للمسيح ، وبذلك وصلت الكنيسة الى قلوب جماهير الفلاحين ، علما بأن هناك وثائق قبطية وثنية غير مسيحية توجد جنبا الى جنب مع الوثائق القبطية المسيحية . وبذلك أصبح لدينا نوع جديد من الوثائق التاريخية تضاف الى التراث الكبير .

وقد صاحب عملية ميلاد اللغة والكتابة القبطية عملية تطور فن مصرى ممزوج بالروح الاغريقية خاصة فى النحت على الحجر أو الخشب وفى صناعة النسيج والأواني الفخارية وفى عمارة الكنائس حيث اطلق على هذه

(1) G. Wagner, S. EL-Nassery, «Une nouvelle dedicace au grand dieu Soxis, ZPE, 1975, Band 19, Heft, 2, 139-142.

النهضة الحضارية اسم حضارة مصر في العصر القبطي وهي التي سادت منذ القرن الثالث وحتى الفتح الاسلامي بل اثرت في الفن الاسلامي المصري خاصة في الرسوم والزخرفة التي نجدها على الأواني وفي فن النسيج وغيرها .

ومن أهم الوثائق التي عثرنا عليها من هذه الفترة وثائق نجع حمادى التي عثر عليها عام ١٩٤٦ وهي تحوى ٤٨ نصا يبلغ مجموعها ألف صفحة ، يرجع انها كتبت ما بين اعوام ٢٥٠ - ٣٥٠ م ، وقد عثر الفلاحون على هذه الوثائق محفوظة في جرة كبيرة مدفونة في احدى الجبانات ، وعن طريق دراستها تبين انها أبحاث لمدرسة دينية مسيحية اطلقت على نفسها اسم « العارفون بالله » ، ويؤمنون بأن الخلاص لا يتأتى الا بالمعرفة ، وان المعرفة هي الايمان وان الايمان القائم على غير معرفة باطل ، وان هذه الطائفة هي التي اختصها الله بالكشف عن المعرفة . ويعتقد البعض ان هذه النصوص ترجمت لأعمال فلسفية منقولة عن الاغريقية ، ومن بين وثائق نجع حمادى كتاب بعنوان انجيل توما احتوى على ١١٤ موعظة للسيد المسيح سبق العثور على مثيلات لها في مدينة أوكسيرينخوس (البهنسا) في مطلع القرن العشرين ، وبعض هذه الأقوال معروفة من الاناجيل الأربعة ، وبعضها صيغ محرفة لهذه الأقوال ونوع ثالث لم يأت ذكره في الاناجيل الرسمية وان جاء ذكره في المصادر اللاهوتية الأخرى ، ونوع رابع وهو يحوى عظات جديدة تماما عددها أربعون موعظة كلها تحمل « الروح العارفية » وهي أغلب الظن من وضع شيوخ هذه الطريقة ، وبعضها عظات تقلد أقوال السيد المسيح تماما حتى تبدو كما لو كان قد قالها فعلا والفت لدعم الفكرة العارفية .

وخلاصة القول أن الامبراطور اغسطس أبقي على النظم الادارية والاقتصادية والحضارية التي كانت قائمة في عصور البطالمة مع تعديل بسيط يهدف الى استغلال مصر وتحصيل أكبر دخل لروما سواء عينا أو نقدا ، ومن أجل ذلك وضع تعدادا سكانيا واحصاء للثروة يجرى كل أربعة عشر عاما لتقدير الضرائب ، ومن الناحية الطبقيّة اعتبر الرومان انفسهم حماة للحضارة الاغريقية من تيار التمصر ولهذا اعفوا الاغريق السكندريين من ضريبة الراس ، وخفضوها الى النصف بالنسبة لاغريق مدن الأقاليم ، وخفضوها بالنسبة الى اليهود ، بينما فرضوها كاملة على المصريين الخالصين الذين كانوا اجراء وفلاحين فقراء ، وبالطبع كانت الجالية الرومانية تجيء على رأس هذا الهرم الاجتماعى .

(م ٥ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

كان الصبر والجلد هما سلاح الفلاح المصرى ، فكان يصبر حتى يعجزا
الصبر عن صبره عندئذ يهرب من قريته سواء بمفرده أو فى جماعة
وهذه ظاهرة متكررة نسميها بالهروب الجماعى anachoresis أى هربا من
الضرائب والديون ، وكان يلجأ الى قرى بعيدة لا يعرفه فيها أحد ، أو الى
المدن الكبيرة أو الى الصحراء والاحراش ، وهذا الهروب نفسه هو الذى
ادى الى ظهور فكرة الرهبنة والديرية فى العصر القبطى ، كذلك اتخذت
المقاومة ضد الرومان سلاحا اخر هو الانتقام من اليهود عملاء الحكم الرومانى
ولمذا عرفت مصر فى عصر الرومان حروبا طائفية دموية بدأت منذ عام ٣٨
ميلادية ولم تتوقف الا فى القرن الثانى الميلادى بعد استخدام الامبراطورية
للعنف من أجل القضاء على هذه الظاهرة .

واخيرا اتخذت المقاومة المصرية شكلا جديدا وهو قبول المسيحية
كدين مناقض للوثنية الرومانية ، ولم جاء فيها من الدعوة الى « الخلاص »
ومعاداتها لفكرة عبادة الامبراطور الرومانى ، وصمد المصريون المسيحيون
بشجاعة للاضطهاد الرومانى البشع الذى بلغ مداه فى اواخر عصر
ديوقلديانوس الذى كانت كراهيته للمسيحية شديدة وانتقامه مروعا
لدرجة ان الكنيسة المرقسية المصرية جعلت بداية تقويمها هو تاريخ تولى
ديوقلديانوس العرش عام ٢٨٤م بالرغم من أن حركة الاضطهاد لم تبدأ الا
فى عام ٢٩٩ ميلادية أى فى السنوات الأخيرة من حكم ذلك الامبراطور .

واخيرا أصبحت المسيحية امرا واقعا واضطر الامبراطور قسطنطين
الكبير ان يكسب ود القوى المسيحية الى جانبه اثناء صراعه مع خصومه
الذين كان يؤيدهم الوثنيون ، فأعلن حرية العبادة بالنسبة للمسيحيين
والوثنيين جنبا الى جنب ، وفى عصر ثيودوسيوس أعلنت المسيحية كديانة
رسمية للامبراطورية الرومانية كلها ، وهنا تمردت الكنيسة المصرية على
الكنيسة الرومانية البيزنطية واتخذت طريقا مخالفا فى الفكر المسيحى ،
وعاد الاضطهاد بشكل جديد ، فقد كان الأقباط يعاقبه مؤمنون بالطبيعة
الواحدة للمسيح بينما كان الرومان ملكيين يؤمنون بالطبيعتين للمسيح ،
وكان اضطهاد الملكيين لليعاقبة المصريين بشعا ودمويا ، بل ويفوق فى
بشاعته الاضطهاد الوثنى للمسيحيين ، وهرب الأقباط واباء الكنيسة الى
الكهوف والجبال والصحارى والأماكن النائية ، وهنا بدأت فكرة الاديرة
والرهبنة تتبلور وتأخذ طابعا منظما ونابتا ، وظلت الكنيسة المصرية تقاوم
باصرار منمسة بآرائها حتى مهدت لدخول العرب الذين كانت تربطهم بهم

صلة مصاهرات ومعاملات قديمة ، واعتبروهم محررين لهم من ظلم الرومان وذلك في عام ٦٤١ ميلادية .

٢ - شمال افريقيا :

لعبت ولاية شمال افريقيا دورا خلاقا في الامبراطورية الرومانية (١) سواء في الفكر او في الحضارة او في تقديم القيادات والزعامات فمنها خرج أبولايوس Apuleius ابن مدينة ماداوروس بالجزائر واحد اعمدة الأدب اللاتيني وأحد عباد الرب المصيرية ايزيس ، ومنها خرج الفيلسوف الشهير كورنيليوس فرونتو معلم الامبراطور ماركوس أوريليوس ، وفي العصر المسيحي أخرجت ولاية شمال افريقيا اعلاما في اللاهوت الكنسي مثل ترتوليانوس والقديس قبريانوس أسقف قرطاجة ، كما أخرجت القديس أغسطس أسقف هيبو (عنابة بالجزائر) ، وهو مؤلف الكتاب الخالد مدينة الله . ومن القيادات السياسية أخرجت شمال افريقيا الامبراطور سبتيميوس سيفيروس ابن مدينة لبده (لبتس ماجنا) بليبيا ، وعددا كبيرا من زعماء السنار حتى قيل في القرن الثالث الميلادي ان من بين كل ثمانية من أعضاء السناتو لابد وان يوجد واحد منهم مولود في ولاية افريقيا ، كذلك لعبت افريقيا دورا اقتصاديا هاما في الامبراطورية الرومانية ، اذ كانت تمدون روما بالقمح وازدادت هذه الأهمية منذ القرن الثالث الميلادي عندما بدأ المحصول المصري ينحصر وتقل أهمية الاعتماد على القمح المصري .

وبعكس الحال في مصر حرص الرومان على صيغ ولاية افريقيا بالروح والثقافة الرومانية ونشروا العمران والحواضر ذات الطابع الروماني ، واقاموا المستوطنات للجنود الرومان ، وفي كل يوم تكشف الحفائر الأثرية عن هذه المدن والمستوطنات سواء في السهول أو على الساحل الممتد من طرابلس حتى موريتانيا ، فضلا عن الطرق العسكرية التي اخترقت جبال الأوراس ، بل كشفت الحفائر عن مدن اقامها الرومان في الداخل ايضا مثل مدينة تاموجادي Thamugadi (تمغاد الحالية) التي كانت إيطالية روحا وعمرانا ونظاما وتخطيطا وقد بنيت هذه المدينة في عصر تراجانوس عام

١ - عن ولاية افريقيا انظر و

E. Albertini, Roman Africa, (Algiers 1932) ;

Bouchier, life and letters in Roman Africa, Oxford University Press (1913) ; T.S.R. Broughton, The Romanization of Africa Proconsularis, Baltimore 1929,

١٠٠ ميلادية لتكون مستوطنة للجنود المسرحين من الرومان ، وقد قام بتنفيذها جنود الفرقة الرومانية الثالثة التي كانت تعسكر في شمال افريقيا ، لكن عموما كانت المدن تقل كلما اتجهنا غربا نحو موريتانيا نظرا لوعورة التضاريس ووجود جبال اطلس ، لكن هناك بقايا الالاف من القرى الجبلية الجميلة التي كان يعمل سكانها بعصر الزيتون والنبذ وهما مصدر الثراء في الولاية ابان القرن الثالث الميلادي .

والحق يقال لم يكن الرومان هم اول من نشروا العمران في شمال افريقيا ، فقد سبقهم الفينيقيون الذين انتشروا على طول الساحل الافريقى منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وكانت اقريطاجه التي يعتقد العلماء انها اسست في القرن السابع قبل الميلاد ، هي الفئار الاول لاشعاع الحضارة في شمال افريقيا ، والام الكبرى لعدد كبير من المستوطنات الفينيقية في غرب البحر المتوسط ، وظلت تلعب هذا الدور حتى دمرها الرومان عام ١٤٦ ق.م بعد حروب مريرة ، ولكن بالرغم من تدمير قرطاجه فان الحضارة الفينيقية لم تختف ، بل استمرت في المدن الأخرى التي لم يدمرها الرومان خاصة التي كانت تقع في الداخل بعيدا عن الساحل وفوق الهضاب والجبال ، فمثلا كشفت الحفائر ان المعبد الفينيقى الموجود في حضرمنتوم Hadrumentum على الساحل التونسي ظل يقوم بدوره الدينى حتى القرن الثانى الميلادى .

وبعد تدمير قرطاجه بدا الرومان في استيطان الساحل بعد ان ضموا المنطقة كلها اليهم وسموها ولاية افريقيا وكان الحزب الشعبى هو الذى يشرف على عملية استيطان المعدمين من الرومان، فقد قام جايوس جراكوس بنفسه بانشاء مستوطنة يونونيا بالقرب من قرطاجه ، ولهذا كانت شمال افريقيا من اشد انصار الحزب الشعبى والمهجر للثوار من اعضاء هذا الحزب فقد فر اليها ماريوس بعضا من الوقت ، وفي شمال افريقيا تمكن قيصر من سحق اعدائه الجمهوريين حيث استقبل استقبالا حافلا وانعم بحقوق المواطنة على بعض المستوطنات والمدن التي اصبحت رومانية قلبا وقالبا . ثم اراد قيصر ان يوسع حدود ولاية افريقيا فضم اليها اقليم نوميديا (الجزائر) ، كما انه احتفالا بمرور مائة عام على تدمير قرطاجه اعلن عن بناء المدينة من جديد عام ٤٦ ق.م لكنها كانت مدينة رومانية خالصة ، سرعان ما كبرت واصبحت عاصمة للولايات فيما بعد ومقر الحاكم البروقنصلى الرومانى .

وفي عصر الامبراطور اغسطس اصبحت ولاية شمال افريقيا ولاية

قابعة للسناو ولذا سميت ولاية افريقيا البروقنصلية Provincia Africa Proconsularis ، وكان يحكمها عضو من السناو بدرجة قنصل سابق اوفى مقامة ، ويقود فرقة كاملة من الجيش الرومانى هى الفرقة الاوغسطية الثالثة Legio tertia Augusta ، ونظرا لقيام القلاقل فى اقليم قورينه بين سكانها الاغريق والقبائل الليبية البربرية التى كانت تغير على المدينة من الصحراء ، فقد اضطر اغسطس الى استخدام اكثر من فرقة للقضاء على هذه القلاقل ويشهد بذلك اقواس النصر العديد التى اقيمت لحاكم افريقيا فى أعوام ٢١ ، ١٩ ق.م. بعد نجاحه فى تأمين الولاية والقضاء على خطر الثورات ، ولقد أدرك اغسطس أيضا ان الولاية اكبر مما يجب ولهذا فصل الجزء الغربى عنها ومنح بعض اجزاء منه للملك الصديق جوبا الثانى Juba, II ، الذى عينه ملكا على موريتانيا (بعض اجزاء من الجزائر ومراكش الحالية) بعد ان زوجه من ابنة كليوباترا من انطونيوس وكانت تعرف باسم كليوباترا القمر . وقنع جوبا الثانى بالمملكة وكان رومانى الثقافة والتعليم يتحدث ويكتب باللاتينية وعاشقا للفنون الاغريقية ، فبدأ فى نشر الحضارة والعمران فى موريتانيا بل فى غرب افريقيا ، اذ اصلىح الميناء الفينيقي القديم يول Iol وجعله العاصمة الجديد لمملكته التى لم تكن تقل عن أى حاضرة رومانية او هلينستية ثم اعاد تسميتها لتصبح قيصرية Caesarea (مكانها الآن شرقل) تكريما لوالد اغسطس بالنبنى - يوليوس قيصر ، كما زادت اهميتها كميناء تجارى يربط بين افريقيا واسبانيا وشرق البحر المتوسط ، حتى أصبحت ثالث مدينة فى افريقيا ، لدرجة ان الامبراطور كلاوديوس رفعها الى درجة المستوطنة الرومانية وانعم عليها بحقوق المواطنة وجعلها مقرا لحاكم ولاية موريتانيا القنصلية .

هكذا سار اغسطس فى نفس الطريق الذى سار فيه جايوس جراكوس وماريوس ويوليوس قيصر وهو تشجيع حركة العمران والاستيطان الرومانى ، حيث عهد الى حاكم بايتيكا Baetica فى جنوب اسبانيا بالاشراف على هذا المشروع ونجح هذا الحاكم فى انشاء اثنتا عشرة مستوطنة ومدينة . لعب بعضها دورا حضاريا هاما .

وبعد موت اغسطس أدرك خلفاؤه أهمية الولاية وخطورة ترك حاكمها يتحكم فى الفرقة الاوغسطية الثالثة فسحوا منه فى عام ٣٧ م سلطة قيادتها وعينوا أمرا لها Legatus يأخذ أوامره من الامبراطور مباشرة وليكون رقيباً على الوالى . وكانت الفرقة وأمرها يعسكران فى الجزء الغربى من الولاية

في نوميديا ، وفي عام ٢٠٠ ميلادية فصل هذا الجزء واصبح ولاية مستقلة يحكمها أمر الفرقة .

لقد حقق الجيش الروماني السلام والوثام في شمال افريقيا ، فقد أقام حزاما واقيا يضمن للحضارة التقدم والاضطراد من خطر البربر والسكان الاصليين الذين دفعوا نحو الداخل ، كما أنشأ شبكة من الطرق العسكرية التي سهلت عملية تحرك الجيوش من ناحية والاتصال بين المدن تجاريا وحضاريا من ناحية أخرى . وأهمها الطريق الذي يبدأ من قرطاجة مخترقا جبال الأوراس ، والطريق الذي يربط تاسكابي Tascap بطرابلس ، كما قام الجنود والمستوطنون الرومان بمشروعات عمرانية مختلفة بهدف توطين السكان الرحل في مجتمعات عمرانية وتعويدهم على حياة المدن ، كل هذا أدى في النهاية الى الاستقرار والرخاء والازدهار الحضاري ، ونشر الحضارة الرومانية تدريجيا وانحسار الحضارة الفينيقية ، حيث بدأ السكان الفينيقيون في استعارة الأسماء الرومانية وتعلم اللغة اللاتينية ، ولقد وضع الرومان جائزة لكل مدينة تحقق لنفسها الطابع الروماني وهو رفعها الى درجة المستوطنة الرومانية والأنعام على مواطنيها بحقوق المواطنة الرومانية الكاملة لأن الرومان قسموا المدن الرومانية الى ثلاث درجات ، المدن الفينيقية واعتبروها مدنا تعاهدية Civitates تتمتع بالاستقلال الذاتي في إطار التحالف الروماني ، والبلديات الإيطالية municipia ويتمتع سكانها بالحقوق اللاتينية القديمة أو الجنسية الناقصة ، ثم المستوطنات الرومانية Coloniae التي يتمتع سكانها بالجنسية الرومانية الكاملة ، أما بقية السكان الوطنيين فقد نظموا في شكل قبائل وقرى لحصرها والتحكم فيها ، لأنها غالبينها كانت قبائل رحل تبحث عن المرعى والكلا .

والى جانب الآثار واطلال المدن ذات الطابع الروماني الخالص يوجد عدد من النقوش المكتوبة باللغة البونيقية ، وهي لغة سامية ممتزجة باللغة التي يتحدث بها البربر ، وهي اللغة التي كانت سائدة في قرطاجة وانتشرت في شمال افريقيا كلها ، ويرجع أغلب هذه النقوش الى القرن الأول الميلادي ، لكنها تنحصر بعد ذلك تدريجيا أمام النقوش اللاتينية لكنها ظلت متواجدة حتى القرن الخامس الميلادي . وإلى جانب النقوش البونيقية واللاتينية توجد النقوش المكتوبة باللغة الليبية القديمة فهناك ما يقرب من ألف نقش بهذه اللغة جمع معظمها من تونس وشرق الجزائر وتغطي عصورا مختلفة وهي تشبه الى حد كبير لغة البربر (١) الحاليين المعروفة باسم التاروج Taureg

(١) كان البربر يطلقون على أنفسهم اسم « الامازيج » أي الأحرار ، ويعتقد الدارسون انهم قبائل سامية جاءت من جنوب شرق الجزيرة العربية ودخلت عن طريق القرن الإفريقي لكن الرومان أطلقوا عليهم اسم البربر لرفضهم قبول الحضارة الرومانية .

كما توجد النقوش الاغريقية في شرق الولاية وحول قورينة ، وبعضها لغة بونيقية مكتوبة بالحروف اليونانية .

اما عن هوية سكان افريقيا فكانوا يتكونون من القبائل الليبية والبربر وهم السكان الاصليون ، ثم المهاجرون الفينيقيون الذين اسسوا المستوطنات القديمة مثل قرطاجة واويا ولبتس ماجنا وسبراطا وايول ، وقد اختلط هؤلاء المهاجرون الفينيقيون بالسكان الليبيين والبربر مكونين عنصرا مختلطا اطلق عليه الرومان اسم البونيقيين وكانوا يتحدثون البونيقية وحضارتهم مختلطة جمعت ما بين حضارة العنصرين بالاضافة الى التأثير المصرى خاصة في الديانة وبعض جوانب الفن ، كذلك كان يوجد عنصر الاغريق الذين هاجروا الى شمال افريقيا ابان حركة الاستيطان الاغريقى الكبير في القرنين الثامن والسابع ق.م . واسسوا قورينة ، واخيرا يأتى عنصر المستوطنين الرومان وغالبيتهم من الجنود والتجار الايطاليين ، لكن العمران المستمر أحدث في النهاية تغيرا شاملا في هوية السكان فبدأوا يتقبلون اللغة والحضارة الرومانية ، فانتشرت الضياع الشاسعة ومزارع الكروم والزيتون التى يشهد عليها العثور على آلاف من المعاصر فى المدن والقرى ، وكان لروما نفسها اقطاعيات شاسعة لزراعة القمح وكان لها ادارة خاصة للإشراف عليها فى مدينة قرطاجه مقر الحاكم ، وانتشرت الفيلات الريفية ذات الحدائق الغناء والراقده فى خمول بين احضان الطبيعة ، وفى المدن نجد المنازل الرحبة والحمامات وجسور المياه والمسارح وملاعب الرياضة والشوارع ذات البواكى والعماد ، بل ان الأسر الرومانية العريقة أصبحت تتفاخر بأقاربها وأصهارها الموجودين فى شمال افريقيا ، كما يتفاخر الانجليز بأقاربهم الذين هاجروا الى الولايات المتحدة .

٣ - الشرق الأوسط :

(١) سوريا وشبه الجزيرة العربية :

فى الأصل كانت سوريا جزءا من الامبراطورية الفارسية اسنولى عليه الاسكندر الاكبر عام ٣٣٢ ق.م . ، وورثها من بعده ملوك الاسرة السلوقية الذين اخضعوا المقاطعات والمدن الفينيقية التى كانت تحكم الساحل السورى ، وحاولوا نشر الثقافة والحضارة الهلينستية عن طريق انشاء الحواضر والمدن خاصة على طول الساحل السورى بلغ عددها ثمانية مدن بالاضافة الى ثست مستوطنات للجنود . اما المنطقة الداخلية فقد كانت موطن السكان السوريين الاصليين الذين كانوا ينحدرون من العنصر السامى

ويتحدثون بالآرامية . وقد حكمهم السليوقيون حكما بيروقراطيا مثل حكم البطالمة للمصريين .

ولما تدهور حكم السليوقيين في القرنين الثانى والأول قبل الميلاد استغلت المدن الفينيقية وقامت دويلات مستقلة في بعض اقاليم سوريا مثل دولة الأيتورايين Ituraeans جنوب دمشق وشمال لبنان ، وهم ينتمون الى العنصر العربى ومملكة العرب الأنباط Nabataeans شرق الاردن والبحر الميت ، ومملكة يهوذا غرب البحر الميت ، ودويلة كوماجينى Comagene فى أقصى شمال سوريا ، وازاء ذلك تقلصت مملكة السيوكيين الى دمشق وانطاكية وما حولهما .

وقد تعرضت سوريا لغزو ملك أرمينيا تجرانيس الذى كان معاديا للرومان ، وذلك فى عام ٨٣ ق.م. ، وظل يحتلها حتى طرده منها بومبى الكبير عام ٦٤ - ٦٢ ق.م. محولا سوريا الى ولاية رومانية ، مقيما صداقات وتحالفات مع الدويلات السورية السابقة الذكر ومعينا عليها حكما موالين له ولروما .

ومن الجدير بالذكر ان قوات أغسطس دخلت مصر عن طريق سوريا عام ٢٠ ق.م. ولهذا جعلها الجبهة الشرقية للامبراطورية الرومانية وقاعدة للجيش الرومانية فى الشرق ولم يقل عدد الفرق فيها أبدا عن اربع فرق يقودها آمر Legatus ويحكم الولاية بروقنصل ، كما جعل الرومان سوريا مخزنا وترسانة لصناعة الاسلحة وبقيت كذلك حتى عصر ديوقليانوس . كذلك أقام الرومان علاقات طيبة مع مملكة العرب الأنباط التى جعلت لها عاصمة هى البتراء Petraea (١) أى الصخرة لأنها تقع فى أحضان الجبل عبر ممر جبلى وعمر ، والتى كشفت الحفائر عن تأثيرها الشديد بنخطيط المدن والعمران الرومانى مثل الحمامات والمسارح والملاعب ، الى جانب مقابرها الجميلة المنحوتة فى الصخر والنى تظهر أسلوبا يعكس هوية هذا الشعب الحضارية ، اذ تعرف العلماء على نماذج هندسية فرعونية واشورية واغريقية من العصور الكلاسيكية ، بالإضافة الى التيارات الهلينية الراقية القادمة من مدينة الاسكندرية مثل فن الباروك .

وعندما فتح بومبى سوريا عام ٦٢ ق.م. كانت مملكة العرب الأنباط قد مدت نفوذها شمالا الى دمشق وجنوبا الى سيناء والى الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى ميناء ابجرا جنوبا ، لكن الرومان لم يسمحوا لها بالتوسع وحددوا نفوذها وحولوها الى مملكة عميلة يرتبط ملوكها بصداقة وولاء

(١) يفضل البعض اطلاق اسم البطاء عليها ولكن اسمك بالاسم الأسلى لتونسج معنى اشتقاقه اللفظى من اللغة الأغريقية .

تلحكام الرومان ويعيشون في حمايتهم . ومن ثم كانوا يساهمون في الحملات العسكرية التي تقوم بها روما في الشرق مثل حملة أيلیوس جالوس على اليمن في عصر الامبراطور اغسطس .

لقد كانت مملكة العرب الأنباط مملكة آرامية الفكر والحضارة وقد نعمت في ظل السلام الروماني فازدهرت فيها الحضارة والفكر الذي يجمع بين روح الشرق وتراثه ومظاهر الحضارة الاغريقية والرومانية، وظلت كذلك حتى ادمجها الرومان في الامبراطورية بعد سحق ثورة اليهود في فلسطين عام ٧٣ ميلادية ، وقد قام الرومان بالعديد من المشروعات العمرانية فيها ، مثل بناء سد للري وبناء طريق رئيسي في قلب العاصمة ، زينت جوانبه بالبواكي ذات العماد ، وفي عصر الرومان بنى المعبد الشهير الآن باسم « قصر البنت » .

وفي عصر تراجانوس ضم الرومان مملكة الأنباط رسميا الى الامبراطورية عام ١٠٥ ميلادية حيث أعاد الامبراطور بناء احدى المدن التجارية القديمة التي كانت تقع في شمال المملكة وهي مدينة بوسترا Bostra (١) وجعلها عاصمة لولاية بلاد العرب الصحراوية Arabia Petraea التي تمتد من شرق الاردن حتى شمال سيناء وتضاءلت أهمية البتراء السياسية لكنها ظلت مركزا دينيا وثقافيا للولاية الجديدة .

اما بالنسبة لمنطقة الساحل السوري الفينيقي فقد حرص الامبراطور اغسطس على تأسيس المستوطنات العسكرية لتوطين جنوده المسرحين وزرع حواضر لنشر الثقافة وطريقة الحياة الرومانية ، ومن الجدير بالذكر ان هذه المنطقة كانت قد تعرضت لتيار الحضارة الاغريقية منذ فتح الاسكندر لها والمتمثل في بناء المدن والحواضر الهلينستية ، لكن بقيت المناطق الداخلية البعيدة عن البحر موطنًا للثقافة الارامية التي انتشرت من اليمن جنوبا الى الشام شمالا وحتى دجلة شرقا ، والى جانب ذلك كانت هناك مناطق تتحدث السورانية والآشورية والبهلوية (لغة الفرس القديمة) وفي فلسطين كان اليهود يتكلمون العبرية ، وقد اطلق الرومان على صحراء البادية اسم بلاد العرب الصحراوية Arabia deserta وهي منطقة ابتعد عنها اغسطس ولم يفامر بالحرب فيها لانه كان يعرف الصحراء ويتجنبها خاصة انه لم ينس هزيمة كراسوس في كرهاي ، ولكنه اعتبرها منسوبة لثورة بين روما والبارثيين وغيرهم من الشعوب المعادية للامبراطورية .

ومن أهم المستوطنات التي أقامها أغسطس على الساحل السوري:

(١) ويعرف أحيانا في المصادر العربية باسم بومري .

مستوطنة بيريوس Berytus (بيروت الحالية) ؛ وقد سكنها الجنود الرومان المسرحون من الجيش بهدف نشر اللغة والثقافة اللاتينية ، بل جعل فيها مدرسة للقانون الروماني لكن اللغة اللاتينية لم تنتشر الا ببطء وبير الطبقة الأرستقراطية الفينيقية والسورية والتي كان الرومان ينعمون عليها بالجنسية الرومانية ، اما اللغة الإغريقية العامة في العصر الهلنستي (Koine) فقد ظلت لغة الثقافة الراقية في هذه المنطقة طوال عصر الإمبراطورية والتي يقابلها اللغة الآرامية وفروعها عند السكان الأصليين في المناطق الداخلية ، وفي النهاية تبنت الإمبراطورية الرومانية الشرقية الثقافة الهلنستية واللغة اليونانية العامة لتبنى عليها حضارتها الخاصة التي خضع لها الشرق كله ، والتي نسميها الحضارة البيزنطية المسيحية والتي ظلت قائمة حتى قيام وانتشار الاسلام والثقافة العربية .

اما منطقة الساحل الجنوبي والجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب فقد سماها الرومان ببلاد العرب السعيدة Arabia felix لأنها منطقة غنية بالسبول الزراعية والتجارة البحرية وذلك لأنها تقع في الطريق الى بلاد الهند والصين ، وكان أهلها يجنون دخولا طائلة من التجارة ويعملون كوسطاء لها ، ومن ثم قامت فيها حضارات راقية مثل حضارة معين (١٣٠٠ ق.م. — ٦٥٠ ق.م.) التي قامت نتيجة للتغيرات السياسية في الشرق الأوسط مثل تدهور الإمبراطورية المصرية والإمبراطورية الآشورية ، وامتدت هذه الحضارة على طول ساحل اليمن في نجران وقتبان وحضرموت وربطت ما بين ساحل الخليج وشمالا حتى ساحل البحر المتوسط. ميطرة على البحر الأحمر ، وورد ذكرهم في التوراة (سفر اخبار الأيام الثاني الأصحاح السادس والعشرين آية ٧) ، كما قامت هناك حضارة القطبانين التي كانت أكثر تقدما من حضارة معين والتي استمرت من القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى عام ١١٥ ق.م . وكذلك حضارة العرب السبائيين الذين كونوا أول إمبراطورية عربية في الجنوب تقوم على الوحدة الثقافية والدينية ، وتم الحميريون الذين ازدهرت دولتهم منذ ١١٥ ق.م وحتى القرن السادس الميلادي .

لقد تفادى أغسطس الصحراء ، ولهذا بقيت الأجزاء الوسطى — قلب شبه جزيرة العرب — أرض الفئوض والأسرار وتابعة للجزء الذي أطلق عليه الرومان اسم بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta ، لكن طريق الملاحة حولها من الخليج الفارسي العربي حتى خليج السويس ، ومن السويس حتى باب المندب جنوبا ، كان معروفا منذ أن نجح أسطول الاسكندر الأكبر في الدوران حوله بهدف استطلاع الطريق الملاحى بين الهند

والبحر الأحمر . كما قام ملوك الاسرة السليوقية المكدونية بزرع المستوطنات في المنطقة ما بين الفرات وجرها *Gerrha* (الواقعة على طول الساحل الغربى للخليج (الكويت ودولة الامارات الحالية) والتي تبادلوا معها تجارة العطور والمر والتوابل والأحجار الكريمة ، بل أن ملوك مصر البطلمية دخلوا في منافسة تجارية مع مملكة العرب الأنباط التي كانت تحتكر طريق التوابل القديم الذى كان يربط ما بين الخليج الفارسى وساحل البحر المتوسط ، ومن أجل ذلك أقام البطالمة علاقات مع الغرب اللحيانيين على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وكذلك مع سبأ وحميز فى الجنوب اليمنى ، وكانت امارات سبأ وحميز امارات غنية ، فهى كما بينا مناطق زراعية غنية بالسهول ، فضلا عن احتكارها للتجارة بين اليمن والخليج وبين اليمن والشام ومن أجل ذلك دخلوا في منافسة عنيفة وعدائية مع مملكة العرب الأنباط التي مدت نفوذها الى الساحل الشرقى الشمالى للبحر الأحمر .

على أى حال أدرك أغسطس أهمية التجارة بين الهند وساحل البحر المتوسط ، كما أنه سمع عن الثراء الذى حققه شيوخ الامارات العربية ، فضلا على أنه كان يحلم بتحقيق احلام الاسكندر الأكبر فى هذا الأمر بربط التجارة بالسلام والرخاء ، وجعل مصر هى همزة الوصل لنقل التجارة عن طريق البحر الأحمر ثم طرق القوافل الى النيل حتى الاسكندرية ومن الاسكندرية تنقل الى ايطاليا ، لان هذا سوف يدعم من مركز الاسكندرية التجارى والاقتصادى ويعود ذلك على الامبراطورية بدخل كبير خاصة لأن الرومان كانوا يحصلون على ضرائب عالية من المكوس والتجارة. تتراوح ما بين ٥ و ١٠ فى المائة . ووجد أغسطس ان التجارة بين الهند والبحر الأحمر يتنافس عليها الأنباط - الذين توسعوا حتى السواحل الشرقية للبحر الأحمر - والدويلات العربية التي قامت على السواحل الجنوبية والجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية ، مثل سبأ وحميز وقطبان والتي كانت تعرف ببلاد اليمن السعيد *Arabia felix* ولهذا قرر أغسطس ان يكسر هذا الاحتكار العربى لصالح الامبراطورية بنقل الموانى التجارية من شرق البحر الأحمر الى غربه لتكون فى حوزة ولاية مصر الرومانية وتنقل بعد ذلك عن طريق النيل الى الاسكندرية وهى نفس المحاولة التى قام بها بطليموس الثانى ، ولمفقت اقصاها فى عيد بطليموس السابع (١٤٦ - ١١٦ ق.م ، أما بالنسبة لولاية بلاد العرب المنجورة أو الخالية *Arabia deserta* (صحراء النادية) فقد تنب أغسطس غزوها ، لأنه كان يعرف الصحراء ويخشها ، ولم يغامر بترك الرمال القاحلة ، بل

اكتفى بفزو المناطق الساحلية حيث سمع عن ثراء شيوخ العرب الفاحش من احتكار تجارة الذهب والعاج والبخور والعطور والتوابل واللبن والمر والأحجار الكريمة وغيرها من المنتجات التي تستخدم في الطقوس والشعائر الدينية في المعابد .

ومن ثم أصدر أغسطس أوامره الى والى مصر ايليوس جالوس Aelius Gallus في اواخر عام ٢٥ ومطلع عام ٢٤ ق . م ليقوم بحملة الى البحر الأحمر لاحتلال امارة سبأ في جنوب الجزيرة العربية ، وربما كان المحرضون لهذه الحملة هم ملوك الأنباط والملك عبادة الثالث obadas لأنه اشترك ببعض قواته التي قادها سيلايوس Syllaeus وزيره ، ومن الواضح أن فكرة حماية حدود الامبراطورية ليس لها علاقة بهذه الحملة ، إذ لا يوجد ما يبررها سوى السيطرة على طرق التجارة بين الهند وأوربا عن طريق مصر والتحكم البحري في البحر الأحمر خاصة باب المندب وبلاد الصومال المواجهة له حتى يتمكن تجار الاسكندرية من كسر احتكار تجار سبأ واليمن السعيد (١) للتجارة مع الهند وشرق افريقيا ، من أجل أن يعود ذلك بدخل كبير على الامبراطورية وينعش اقتصادها (٢) . وفي عام ٢٥ ق . م جمع الجنرال ايليوس جالوس Aelius Gallus قائد القوات الرومانية في مصر جيشا كبيرا معتمدا على تأييد الملوك الأنباط ومملكة يهوذا ونقل القوات عبر البحر الأحمر حتى شواطئ الجزيرة العربية ، ثم سار في العيالم التالي جنوبا عبر رمال الصحراء محرزاً بعض الانتصارات ، ولكن حرارة الجو ووعورة تضاريس البلاد والنقص الشديد في الماء والطعام ، فضلا عن مقاومة القبائل الشرسة ، جعلته يولى ظهره لمشروعه ويعود منكس الرأس الى مصر ، واذا كانت الطبيعة قد هزمت الجيش الروماني فإن كرم العرب واعجابهم بقوة الروم حقق بالسلام ما فشلت السياسة الرومانية تحقيقه بالحرب (٣) ، فسرعان ما وقع العرب في حب الروم ، وقامت صداقة حارة بين مشايخهم خاصة امراء حمير وسبأ ، وقبلوا طائعين التخلي عن سيطرتهم على المضائق البحرية في البحر الأحمر للرومان .

(١) انظر كتاب عالم الانار والمليونير الذي تحول الى صاحب شركة للتنقيب عن البترول في جنوب شبه الجزيرة العربية لأنه درس جيدا آثار وتاريخ هذه المناطق انظر : W. Philips : Qataban and Sheba, (1955).

(٢) كان ذلك هو منطق الرومان في حروبهم الأخرى وكان منطق أغسطس وحلفائه هو التوسع تحت شعار حماية حدود الامبراطورية .

(٣) عبد اللطيف احمد على - المرجع السابق ص ٦٦ .

وبذلك قضى أغسطس على فاعلية «طريق التوابل» القديم وقلل من أهميته التجارية ، كما أن هذه الحملة مهدت لحملات أخرى كانت ناجحة فيما بعد فقد استولى الرومان على ميناء عدن وعلى جزيرة سقطمطراى ، وتحول البحر الأحمر الى بحيرة تعج بالنشاط التجارى وازدهرت موارد مصر فى عصر الرومان خاصة تجار مدينة الاسكندرية سواء من السكندريين أو الايطاليين فقد ذكر استرابون الجغرافى (١) الذى زار مصر فى عصر أغسطس أن ما يقرب من ١٢٥ سفينة كانت تقلع سنويا من ميناء ميوس هورموس Meos Hormos (أبو شعر القبلى) أحد موانئ مصر على البحر الأحمر ، بعضها كان يتجه نحو شرق أفريقيا لنقل تجارة العاج والذهب وريش النعام ، والبعض الآخر كان يتجه الى الهند لنقل البخور والتوابل ، بل أن بعضها وصل الى جزيرة سرنديب (سيلان أو سريلانكا الحالية) ، وبلغ بعضها خليج البنغال وحدود الهند الصينية ، فقد كشف الحفائر الحديثة فى ساحل الهند (٢) الشرقى عن نقود وادوات رومانية مما يؤكد وصول التجارة الى هذه المناطق النائية ، وبذلك تكون الامبراطورية الرومانية قد سبقت شركة الهند الشرقية البريطانية فى الوصول الى هذه المناطق ويؤكد ذلك تجربة ارتباط الامبراطوريات القديمة والحديثة باحتكار طرق التجارة بين الشرق والغرب .

مملكة يهودية : Judaea فى فلسطين

كانت يهودية جزءا من فلسطين ، وهى منطقة ذات تاريخ معقد غير ثابت لأنها كانت معبرا لشعوب عديدة فى العالم القديم . ففى الألف الثالث قبل الميلاد كان يسكنها العموريون Amorites احدى الشعوب السامية القديمة ، ثم بدأ توافد الكنعانيين على فلسطين فى الربع الأخير من الألف الثانى ق.م ، واصبحت فلسطين مقسمة بين الأراميين ويسكنون الشمال والفلسطينيين ويسكنون فى الجنوب الغربى .

أما العبرانيون فقد كانوا ايضا ينتمون الى القبائل السامية المتجولة والتى تركت موطنها الاصلى فى اور جنوب بابل متجهة غربا صوب فلسطين ، واستغرقت هجرتهم اليها فى شكل جماعات استغرقت اجيالا طويلة ، فقد ذكرت الوثائق المصرية أن شعبا ساميا أطلق على نفسه اسم « عابرو » أو « خابرى » كانوا يغزون ارض الكنعانيين قادمين من الشرق وهذه الوثائق

(1) Strabo XVI. 4-22 ; J.G. Milne, op. cit, p. 7 f.

(2) Heichelhein and Cedric Yeo, History of the Roman People, p. 281.

ومن تفاصيل الحسنة انظر : عبد اللطيف أحمد المريم السابق من ٦٣ - ٦٧ وكذلك

. ترجع الى عصر اخناتون (١٣٧٠ ق.م تقريبا)، واتجهت جماعة من العبرانيين جنوبا الى مصر بحثا عن الغذاء والاستقرار ، لكنهم اعتبروا فئة اقل في الوضع الاجتماعي من المصريين لأنهم غرباء ، وتقول التوراة انهم كانوا يقومون بأدنى الأعمال واحقرها خاصة صناعة الطوب ، ثم قادهم موسى - أومو - الى مصر وعبر بهم سيناء وبعد سنين من انتيه في الصحارى وصلوا الى الأردن ، وبعد موته اكمل خليفته يوشع غزو فلسطين التي ادعوا انها ارض الميعاد ، وتفرقوا بعد ذلك الى اثنتى عشرة سبطا او قبيلة ، وسكنت كل قبيلة منطقة يرأس كل قبيلة قاضيان (شوفيتيم Shophetes) على غرار النظام الفينيقي وبدا العبرانيون يختلطون بالكنعانيين ويمتزجون بهم حضاريا وعنصريا .

اما الفلسطينيون في الجنوب فقد كانوا من أعداء العبرانيين وقاوموهم بشدة واضطرت القبائل اليهودية الاثني عشرة الى الاتحاد من اجل تأسيس مملكة وقيادة تتولى الحرب ضد الفلسطينيين واختير شاؤل من سبط بنيامين ملكا وذلك قرب نهاية القرن الحادى عشر ق.م. وسقط شاؤل قتيلافى حروبه مع الفلسطينيين، وتلى ذلك اختيار داوود (دافيد) زعيم قبيلة يهوذا منكا ونجح داوود فى هزيمة الفلسطينيين وانتزع منهم اراض كثيرة وتوسع فى حركات غزو حتى سيطر على المنطقة الممتدة من دمشق حتى صحراء الحجاز، ومن شرق الأردن حتى ساحل البحر المتوسط وكانت الأربعين سنة التى حكمها (من ١٠٠٠ ق.م حتى ٩٦٠ ق.م) أعظم أيام العبرانيين وبعد موته تولى سليمان (سولومون) الذى قام بمشروعات عمرانية وتجارية وانشأ العديد من المباني من بينها الهيكل الكبير فى اورشليم والذى نسب اليه ، وعاش سليمان فى ترف خرافى وتزوج من اميرة مصرية ، وصاهر العديد من حكام المدن والولايات المجاورة ، ولكنه كان قاسيا مع قومه مستغلا لهم مما أدى انتشار السخط فى آخر عهده . ومات سليمان عام ٩٣٥ ق.م وتولى ابنه رحبعام الذى ثارت عليه عشرة قبائل معلنة تأسيس دولة منفصلة سميت اسرائيل واختاروا يربعام ملكا عليها، وجعلوا عاصمتها ساماريا، اما القبيلتان الأخريتان فظلتا تابعتين لمملكة يهودية Judaea فى الجنوب والتي ظلت عاصمتها اورشليم ، وفى عام ٧٢٢ ق.م استولى الاشوريون على السامرة ، واسروا القبائل العشرة وحملوهم معهم وفرقوهم على كافة اجزاء الامبراطورية الاشورية ، اما يهودية فى الجنوب ظلت قائمة حتى اقتحمها نبوخذ نصر عام ٥٨٧ ق.م ودمر اورشليم واسر الاف من اليهود فيما يعرف بالاسر البابلى .

ولما قامت الامبراطورية الفارسية واستولى ملكها قورش الكبير على بابل عام ٥٣٩ ق.م حاول ان يرضى اليهود الاسرى فى بابل فاعطاهم حق العودة الى فلسطين ، فعادوا ، واعيد بناء هيكل سليمان مرة اخرى عام ٥١٦ ق.م .

ولما استولى الاسكندر الاكبر على الامبراطورية الفارسية ودخل الشرق احسن معاملة لليهود ، واستمرت هذه المعاملة خلال حكم الورثة سواء بطالة مصر والملوك السليوقيين في سوريا، ففي مصر أصبحت الجالية اليهودية في مدينة الاسكندرية تحتل حيا كاملا هو الحي الرابع (حي الدلتا) وأصبحت اكبر جالية يهودية تعيش خارج يهوديا وبدأ اليهود يتأثرون خاصة الطبقات الثرية المثقفة التي كانت موالية للحكام، وبينما قبل ذلك تيار من الرفض من الطبقة الوسطى المتطرفة والذين اطلقوا على انفسهم اسم الفريسيين وكانوا يميلون الى الارهاب والعنف ويعارضون تيار التأفرق والتبعية الذي تسير فيه الجماعة الارستقراطية الحاكمة والمسالمة مع ملوك مصر والشرق، والذين كانوا يعرفون باسم الصدوقيين، وازاء الفوضى في فلسطين اسر بطليموس الاول مائة ألف من الثوار وحدث شتات لليهود أصبح بعضهم يعيش في مصر خاصة في الاسكندرية وبعضهم في قورينة التابعة لمصر ، وفي عام ٢٠٠ ق.م انتزع الملك انطيوخوس الثالث سوريا وفلسطين من البطالمة ، وبدأ في سياسة اغرقه اليهود رسميا لادماجهم مع الشعوب الأخرى التي يحكومتها وقد سار على هذه السياسة خلفاؤه، لكن اليهود الفريسيين قاوموا خاصة الكهنة منهم، فمثلا قاد الكاهن متى ثورة ضد ذلك عام ١٦٧ ق.م ، واستمرت ثورة الكاهن متى بعد موته وتزعّمها يهوذا المكابي وتحولت الى حرب عصابات ضد الدولة السليوقية التي بدأت تضعف ، وبعد موت انطيوخوس السادس عام ١٦٣ ق.م كان الثوار يزعماء يهوذا المكابي اقد دعموا ممتلكاتهم وأصبحوا الحكام المسيطرين فعلا على حجم منطقة تعادل حجم مملكة داوود القديمة ، كما أسسوا السنهدريم المجلس الأعلى عام ١٤٥ ق.م وأصبح هذا يعرف بدولة المكابيين، لكن الماداة للمكابيين عادت مرة أخرى في شكل ثورة الفريسيين أعداء الحكام ، وعندما كان القائد الروماني بومبي يحارب في الشرق دعاة الفريسيون لمساندتهم ضد الصدوقيين والأسرة المكابية، وبالفعل استولى بومبي على سوريا وفلسطين عام ٦٣ ق.م، وعين هركانوس حبرا أعظم على المناطق التي يسكنها عليها اليهود في الجليل والسامرة وربع يهوديا ، ولما عين جابينيوس القائد الروماني واليا على ولاية سوريا الرومانية أدرك خطورة اتحاد هذه المناطق اليهودية سياسيا فقسّمها الى خمس مناطق وجعل هركانوس زعيما روحيا دينيا عليها .

ولما حصر يوليوس قيصر في الاسكندرية عام ٤٨ ق.م ارسل هركانوس وزيره انتيباتريدس بقوة كبيرة لاقاذا الدكتاتور الروماني من الموت والهزيمة ، وتعبيرا عن شكره وامتنانه أعاد فيهر كل السلطات السياسية السابقة الى هركانوس والتي سلبها منه الوالي الروماني ، رعى هركانوس يحكم حتى هزى الفريسيين سوريا رايا طين والقوا القبض عليه ، وقتلوا وزيره الذي

انتيباتروس الذى ترك ولدان قتل احدهما فى الحرب اما الثانى فكان يدعى
هيرودس Herodes والذي هرب الى روما ليحتمى بها ويطلب النجدة
من انطونيوس الذى تولى الحكم بعد مقتل قيصر عام ٤٤ ق.م .

ولما قسمت الامبراطورية الرومانية بين انطونيوس واوكتافىوس اختار
الاول الشرق وسافر اليه لاعادة تنظيمه وفتحه ، واعاد هيرودس اللاجئ بل
عينه ملكا على ممتلكات حركانوس واصبح هيرودس الذى لقب بالكبير ملكا
على مملكة مستقلة لكن عميلة للرومان فى عام ٣٧ ق.م . ، لكن الملكة المصرية
أكليوباترة السابعة التى أصبحت زوجة لانطونيوس ، كانت تكره وتمقت
هيرودس ومن ثم حرضت زوجها الرومانى على خلعه لأنها كانت تطمح فى
فلسطين التى كانت جزءا من مصر فى مطلع حكم أجدادها ، لكن هيرودس
حافظ على صداقة انطونيوس الذى قاوم اغراء ومطالب زوجته ، ولما قامت
الحرب بين انطونيوس وزوجته كليوباترا من ناحية ، واوكتافىوس من ناحية
اخرى قدم اليهود مساعدات للآخر ، ولهذا ابقى اوكتافىوس على هيرودس
بل كافاه بتوسيع مملكته عام ٢٤ ق.م . وجعلها مملكة عميلة وركيزة لحماية
الحكم الرومانى فى هذه المنطقة . وقد ظل هيرودس يحكم حتى عام ٤ ق.م .
معتمدا على ثقة الامبراطور اكتافىوس اغسطس فيه ، حيث بدا يستأصل
العناصر المعارضة لحكمه وبدا يقيم مشروعات حضارية لأغرة الدولة
اليهودية يعاونه الصدوقيون الأثرياء ، حيث أعاد بناء هيكل سليمان القديم ،
لكن الفريسيين من اليهود عاودا الثورة والمقاومة ورد هيرودس عليهم
بالعنف الدموى مما ضايق الامبراطور اكتافىوس اغسطس (١) وأدرك خطورة
فكرة خلق الدولة اليهودية .

وبعد موت هيرودس الكبير عام ٤ ق.م . اقتسم ابناؤه الثلاثة فيليب ،
وهيرودس انتيباس Herodes Antipas ، وأرخيلاءوس Archelaos
المملكة فيما بينهم ، لكن أرخيلاءوس جار على أخويه بهدف السيطرة على
المملكة وحده ، لكنه كان مكروها من الشعب اليهودى وغير اليهود فى
فلسطين وطلب اليهود والسامريون Samaritan من الامبراطور اغسطس
التدخل فاستجاب بسرعة وأمر بنفى أرخيلاءوس خارج البلاد عام ٦
ميلادية ، ورفض تعيين أى من أخويه ملكا ولا حتى إعادة فكرة المملكة
اليهودية لأنها فكرة خاطئة مكلفة ، إنما حول المملكة الى إدارة رومانية.
يديرها مدير مالى رومانى بدرجة بروكوراتور Procurator جعل مقره
مدينة قيصرية Caesarea على ساحل فلسطين وليس فى اورشليم التى

كانت العاصمة للملكة اليهودية ، وكان يعاون البروكوراتور الرومانى
الأرستقراطيون اليهود والكهنة ، ولقد اتسم أغسطس والحكم الرومانى
بالدبلوماسية الحذرة مع اليهود لأن أغسطس أدرك حساسية الديانة
اليهودية ، وحرص على ألا يتدخل فى أمورها ، لأن كل ما يهم الرومان هو
الخضوع السياسى والاقتصادى دون التدخل فى النظم والعقائد الداخلية
والخاصة برعاياهم .

لقد ازدهرت الديانة اليهودية وازدهرت معها اللغة العبرية تحت
سياج السلام الرومانى ، كما ازدهرت فى فلسطين أيضا اللغة الآرامية
والسوريانية المتفرعة منها ، ومن أهم الوثائق الأدبية عن الإمبراطورية
الرومانية فى الشرق الأوسط الأناجيل وأعمال الرسل ، لأنها تعكس بدقة
وصدق حياة الناس فى أقرى ونجوع الجليل ، والسيد المسيح عندما يقول
« المجد لله فى الأعالي وفى الأرض السلام وفى الناس المسرة » إنما يتحدث
عن السلام الرومانى والأمر الذى تركه فى نفوس الناس .

لكن سرعان ما عادت فلسطين الى القلاقل والصراع من كل ناحية بين
السكان اليهود والسامريين والفلسطينيين التدماء ، وبين اليهود أنفسهم
فقد انقسم اليهود الى معسكرين متحاربين معسكر الصدوقيين وهم اليهود
المحررون الأرستقراطيون وهم أحباء الحضارة الهلينستية والرومانية
فى الشرق ويحيطون بالحبر الأكبر المتعامل مع روما ، والمعسكر الثانى
الطبقة العامة من اليهود الساخطين على الصدوقيين لتحررهم والداعين الى
التطرف فى التمسك بالسنة الموسوية ، وعدم الخضوع للدول الوثنية ،
وتحول الخلاف الى مواجهة دموية وأعمال لصوصية فدائية ، ومن أشهر
هؤلاء اللصوص الفدائيين الإرهابيين باراباص Barabab الذى أطلق
سراحه الحاكم الرومانى يلاطس بدلا من السيد المسيح بمناسبة عيد جلوس
الإمبراطور تيبيريوس وذلك بناء على طلب اليهود ، وقد عرف هؤلاء اليهود
الإرهابيون باسم السيكاين Sicarii ، ومنهم ظهر زعماء الفوضى
والثورة والتمرد ، فقد قاد أحدهم أربعمائة من أتباعه متجها الى نهر الأردن
مدعيا أنه سوف يثبى النهر الى قسمين مثلما فعل موسى ، وآخر كان
يهوديا مصريا جمع أتباعه فوق جبل الزيتون معلنا أن أسوار أورشليم سوف
تنهار فوق رءوس اليهود ! وكان الهدف هو إثارة الدعر وافساد السلام ،
ومع هؤلاء تعاملت الإمبراطورية الرومانية بعنف رقسوة ، فتصيدتهم
وقتلهم ، وكانت حذرة ، عيونها مفتوحة ليلسور أى زعيم فوضوى ،
ويعكس ذلك الحذر ما جاء فى أعمال الرسل عندما قبض الرومان على بولوس
(م ٦ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية)

الرسول في اورشليم وسأله القاضى بالاغريقية « هل انت المصرى الذى قاد أربعة آلاف من السيكاين الى الصحراء » ؟

ورغم هذه المعوقات استمرت الامبراطورية في نشر البناء والعمران ويصور ذلك ما ورد في التلمود من حوار جاء على لسان ثلاثة من احبار اليهود اذ يقول احدهم « ما اجمل اعمال ذلك الشعب ! لقد بنوا الطرق والجسور وانشأوا الحمامات ! ويصمت الثانى موافقا ، بينما يقول الثالث محتدا « كل الذى فعلوه انما فعلوه من اجل انفسهم ! فالأسواق بنوها لكي يعرضوا فيها العاهرات والحمامات من اجل تجديد شبابهم ، اما الجسور فمن اجل ان يجبوا منها الاتاوات والضرائب !

(ج) بلاد الرافدين وآسيا الصغرى :

حرص أغسطس على زرع المنطقة ما بين آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين بالممالك العميلة لهم مثل مملكة الجلايين Galatia ومملكة بنطوس Pontus الساحلية في جنوب شرق البحر الأسود ، وكابادوكيا Cappodocia وارمينيا الصغرى وبافلاجونيا Paphlagonia (في الشرق من مملكة بنطوس) ومملكة كوماجينى Comagene (في الشمال الشرقى من سوريا على الضفة الغربية من نهر الفرات) ويموت امونتاس Amyntas ملك جالاتيا عام ٢٥ ق.م. حول أغسطس المملكة الى ولاية رومانية ، وترك باقى الممالك ليحكمها ملوك تابعون وعملاء للامبراطورية ، لكن جوهر السياسة الرومانية في المشرق (٢) ظل يتركز حول عقدة الخوف من خطر البارثيين ، والحق لم يكن هناك ما يبرر خوف الرومان من خطر التوسع البارثى لأن هذه الدولة كان يفصلها عن مملكة ما بين النهرين (التابعة لروما) نهر الفرات Euphrates ، ولكن الرومان لم ينسوا دماء رجالهم التى اريقت على الرمال ابان حملة كراسوس Crassus وحملة انطونيوس حيث هزم الجيش الرومانى في كلتا المرتين ورد على أعقابهم خاسرا . كما ابت كبرياء الرومان عليهم ان ينسوا شرفهم العسكرى عندما انتزع البارثيون ييارق الجيش الرومانى insignia واحتفظوا بعدد كبير من الاسرى الرومان . ولذا حرص الرومان على محاصرة البارثيين استراتيجيا وكانت مملكة ارمينيا هى انسب الأماكن لفرض هذا الحصار (١) .

(١) للمزيد عن سياسة الامبراطورية ازاء الولايات في الشرق انظر :

A.H.M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces (Oxford 1937, edition 1971), also D Magie, Roman Rule in Asia Minor Princeton University Press (1950).

cf. Frega Stark : Rome on the Euphrates, John Murray (1)

(London 1966), pp. 121-127 ; p. 173.

ولهذا السبب تدخل أغسطس في الصراعات حول العرش في مملكة أرمينيا وحرص على منع أى شخصية معادية لسياسة روما من الوصول الى العرش كما حرص على جعل أرمينيا شوكة في عنق البارثيين بالرغم من أن أرمينيا كانت دولة بارثية العنصر والثقافة وقد ساعده الحظ في ذلك لأن بارثيا كانت منهوكة القوى بسبب الصراعات التي مرت بها ، كما أثرت دعاية أغسطس بالتهديد باستخدام القوة والعنف والضرب بيد لا ترحم فيهم كثيرا ، اذ فقد زعماء البارثيين الثقة في انفسهم (١) . وفي أثناء تواجد أغسطس في سوريا ما بين ٢٢ - ١٩ ق.م. ارسل تيبيريوس ابن زوجته ليفيا Livia وخليفته من بعده في مهمة دبلوماسية الى أرمينيا حيث نجح في تعيين ملك موال للرومان ، ولما سمع ملك البارثيين فارناثيس Pharnates بتواجد تيبيريوس نائب أغسطس في أرمينيا سافر اليه ولاقاه وتفاوض الطرفان ونجح تيبيريوس في اقناع الملك البارثي بارجاع البيارق والشعارات العسكرية insignia التي كانوا اقد استولوا عليها من جيش كراسوس بعد هزيمته في معركة كرهاى في يونيو عام ٥٢ ق.م. ، كما استطاع اقناع الملك بالافراج عن من كان لا يزال حيا من اسرى الجيش الرومانى . وكان هذا الانتصار على مائدة مفاوضات لا يقل نجاحا عن انتصار ميادين القتال ان لم يفوقه ، لأنه وفر على روما دماء غزيرة وتكاليف باهظة . وقد هلت لهذا الانتصار العناصر الوطنية المتطرفة في روما ، كما استفل أغسطس هذا الانتصار جيدا في دعايته التي عم بها العالم الرومانى بأكمله . وقد اعجب الجنود الرومان بهذا الانتصار فهتفوا به قائدا مظفرا Imperator كما قرر السناتو اقامة موكب نصر تكريما لهذه المناسبة ولكن أغسطس اعتذر عن ذلك بتواضع لأنه احس ان الذى حققه هو انتصار هادىء ، كما انه كان يحلم في قرارة نفسه باليوم الذى تحين فيه الفرصة ويعبر الفرات ويضم آخر معقل معاد « لوحدة الحضارة » لامبراطوريته وهى ولاية بارثيا . ولكن احداث التاريخ لم تعطه هذه الفرصة ليحقق مثل هذا الحلم . كما اعفت الاحداث التاريخية البارثيين من مغبة مواجهة حاسمة وعلمية مع أغسطس ، ولكن سرعان ما بدأت التلاقل في أرمينيا تظهر اذ تمكنت العناصر الوطنية في عام ٦ ق.م. من أن تستولى على القيادة والحكم ثم انتشرت حركة تمرد عبر حدودها الى دولة الباربيين . ولما سمع أغسطس بذلك ادرك ان الموقف لا يحتمل الارضاء فأرسل حفيده من ابنته جوليا جايوس قيصر Gaius Craesa في حملة عسكرية الى الشرق

(١) عن الصراع السياسى في بارثيا انظر .

(١ - ٤ ميلادية) والذي نجح في اعادة الحكومة الموالية لسياسة الرومان الى العرش ولكنه فشل في جعل حاكم عميل للرومان يصل الى العرش ودفع جايوس حياته تمنا لهذا النصر . وظلت ارمينيا في حالة من الفوضى نتيجة لذلك حتى موت أغسطس في العام الرابع عشر الميلادي . ولكن يحتوى خطر البارثيين قام الجنرال أجريبا بضم مملكة البوسفور Bosphor في حوزة الممالك العملية للرومان (مكانها الآن منطقة كرميا على البحر الأسود في الاتحاد السوفيتي) وبذلك ضمن أجريبا مصدرا غنيا بالقمح الجيد ليسد حاجة الجيوش الرومانية في الشرق ويوفر عليها مشكلة نقل الغذاء الى القوات هناك ، وفي نفس الوقت هيا هذا العمل العسكري العظيم لروما دور « رجل البوليس » في البحر الأسود .

٤ - أوروبا الغربية :

(١) أسبانيا :

فرضت ظروف أسبانيا على أغسطس ضرورة اتخاذ خطوات عسكرية من نوع خاص ، فقد كان يسكن أسبانيا شعوب وقبائل مسالمة آثرت أن تسير في حياتها اليومية دون أن تعبا بالسلطات الرومانية أو تقيم لها وزنا (١) . كذلك كان الحال في المنطقة الواقعة في الشمال الشرقي لشبه جزيرة ايبيريا Iberia حيث كانت تقطن قبائل الكانتابري Cantabri والأستوريس Astures والجالايكي Gallaeci ، وظل الهدوء يسود أسبانيا الى أن قامت الحرب الأهلية وعمت الفوضى السياسية في روما والتي سادت قبل مجيء اكنافيانوس ، عندئذ طمعت هذه القبائل وأعلنت التمرد والثورة وبدأت تهاجم المستوطنين الرومان في المناطق التي قبلت الحضارة والمدنية الرومانية وشملت فيهم قتلا ونهباً وتغريبا في ممتلكاتهم . ومن الطبيعي أن يتجه أغسطس الى اخضاع هذه القبائل الشرسة لكي يسود السلام ربوع أسبانيا فسار على رأس حملة عسكرية عام ٢٦ ق.م. ثم لحق به قائدان من قواده هما أنتستيروس Antistius وكاريسيوس Carisius اللذان

(١) نظرا لظروف أسبانيا السياسية بعد حربها الأهلية ونظامها السياسي بعد الحرب العالمية الثانية ينعدم وجود الحفائر الأثرية بعكس الحال في معظم ولايات الامبراطورية ولهذا فان مصادرها عنها لا تزال نفس المصادر القديمة التي ترجع الى ما قبل الحرب العالمية الثانية ولا يكاد يوجد منها سوى .

C.H.V. Sutherland, The Romans in Spain, London (1939).

بالإضافة الى الكتاب القديم

E.S. Bouchier : Spain under the Roman Empire, New York, Oxford University Press (1920).

قادا عملية مطاردة هذه القبائل عبر الجبال حتى استسلمت تماما ، ثم حصروهم في مناطق السهول لكي يمكن السيطرة عليهم . وتوكيدا للسلام أقام هذان القائدان عددا من المستوطنات والقرى العسكرية الرومانية فوق الجبال وفي المناطق الاستراتيجية الأخرى .

ومن الجدير بالذكر أن المرض كان قد أثقل على أغسطس أثناء هذه الحملة ، ولما سمع بكارثة الفيضانات في روما اضطر إلى التوجه تاركا مهمة إخضاع أسبانيا وتأمينها ليهدين القائدين اللذان استمرا في عملية التطهير حتى عام ١٦ ق.م ، وعندما أدرك القائد كاريسيوس بأن القبائل الأسبانية لا تفهم المسالمة استخدم سياسة الارهاب العسكري ففتك بأعداد كبيرة من هذه القبائل وأسر أعدادا أخرى باعها في أسواق الرقيق . وربما كان هذا القائد ينفذ نصائح بل أوامر الجنرال الأول أجريبا . وعلى أى حال فقد ساد السلام في أعقاب هذه السياسة القاسية .

ومن أشهر المستوطنات أو القرى العسكرية الرومانية مستوطنة اميريتا Emerita (مكانها الآن مدينة ميريدا Merida) وقنطرة أغسطس Caesara Augusta (ساراجوسا الحالية Saragossa) .

وعندما استتب السلام في أسبانيا سلم أغسطس ولاية بايتيكا Baetica (١) إلى السناتو ثم استقطع جزءا آخر من الغرب وجعله ولاية امبراطورية وهي ولاية اينسيتانيا Insitannia .

ب - مناطق الالب والبلقان :

وكما حدث في أسبانيا واجه أغسطس موقفا مشابها في منطقة جبال الالب المتاخمة لحدود إيطاليا الشمالية . لقد سكن هذه المناطق قبائل مشاكسة تعودت مهاجمة الاراضي الإيطالية ونهبها من أن لآخر . كما احتلت الممرات الجبلية الغربية معرضة وسيلة الاتصال البرية الوحيدة بين إيطاليا وولاية الغال البعيدة للخطر .

وفي عام ٢٦ ق.م « بلغ السيل الزبى » عندما اندلعت حركة تمرد علنية بين قبائل السالاسي Sallassei لأول مرة منذ ثمان سنوات منذ أن أخضعهم الرومان ، وفي الحال استطاع الجيش الروماني أن يقضى عليها كما فتك بأعداد كبيرة وبيع ما تبقى من السكان في أسواق الرقيق . بعد ذلك أصدر أغسطس أوامره ببناء طريق يربط بين إيطاليا وممرات جبال الالب

R. Thouvenot, Essai sur la province romaine de Betique.
(Paris 1940).

وأن تقام مستوطنة عسكرية هي أو غسطا برايتوريا Augusta Praetoria (أوستا الحالية Osta) لكي تشرف على حراسته وتأمينه .

كما تمكن القائد الروماني بوبليوس سيليوس نرفا Publius Sillius Nerva من احتلال منطقة نوريكوم Noricum (التيرول Tyrol وسالزبرج Salzburg) بعد معارك طاحنة كرد على تمرد قبائل هذه المنطقة في عام ١٢ ق.م ، وفي عام ١٥ ق.م أرسل أغسطس ولدى زوجته ليفيا وهما دروسوس وتيبريوس لاختضاع مناطق الالب فسار الاول شمالا مخترقا ممر برنر الشهير Brenner مارا بغابات فورالبرج Vorarlberg ثم الى بحيرة كونستانس حيث التقى بأخيه الذي كان قد اتجه شرقا الى بلاد الغال وتكاتف الأخوان معا فهزما قبائل الفندليكي Venedlici ومن ثم أصبح نهر الدانوب هو حدود الامبراطورية الرومانية شمالا واصبح الطريق ممهدا للمرحلة الكبرى القادمة وهو التوسع عبر الدانوب الى قلب المانيا . وعلى ايه حال فقد تم اخضاع شعوب الالب تماما عام ٨ ق.م وضمت ادارة بعض المناطق الى المستوطنات الرومانية الجديدة .

كما شمل مشروع أغسطس العسكري تأمين منطقة البلقان حيث كان الخطر يهدد مقدونيا وتراقيا ومنطقة ساحل دالماتيا Dalmatia وكان هذا الساحل منطقة وعرة تسكنها قبائل ميالة الى العدوان ومحبة للقتال . ولكن أغسطس عهد الى القائد ماركوس فينيكيوس بتسكين هذه المناطق فسار اليها عام ١٣ ق.م حيث اخضع قبائل البوسنة وبانونيا Pannonia وقد اكمل اجرييا ومن بعده تيبريوس نفسه هذا المشروع الى أن خضع سكان هذه المنطقة تماما للحكم الروماني عام ٨ ق.م .

ج - بلاد الغال و المانيا :

كان يوليوس قيصر قد ترك بلاد الغال منهوكة القوى لا حول لها ولا قوة ولكنه لم يحاول تنظيمهما والعمل على ضمها للامبراطورية الرومانية ، ومن ثم فقد وقع العبء الأكبر في ذلك على اكتاف أغسطس (١) وقد فعل ذلك ما بين اعوام ٢٧ و ١٣ ق.م ، ولضمان ذلك منح أغسطس السناتو حق الاشراف

(١) م اشهر المراجع التي عالجت تاريخ بلاد الغال وانتشار الثقافة الرومانية فيها
N.J. De Witt : Urbanization and the Franchise in Roman Gaul (1940)
also. J.J. Hatt : Histoire de la Gaule romaine (1959) also. G.E.F.
Chilver, Cialpine Gaul : Social and Economic History From 49 B.C. to
the Death of Trajan, New York : Oxford University Press. 1941.

على ولاية الغال القريبة Gallia Narbonensis ، اما ولاية الغال البعيدة فقد قسمها الى ثلاث مناطق ادارية هي اكويتانيا Aquitania ولوجدونيس Lugdunensis وبلجيكا Belgica ، وجعل على راس كل منطقة نائبا عن الامبراطورية Legatus ، وفي نفس الوقت جعل مدينة لوجدونم Iugdunum (عاصمة الاقليم الثانى وهى ليون) هى مركز السلطة والقيادة للمنطقة كلها وعين حاكما للاشراف المركزى عليها جميعا . ومن الملاحظ ان الامبراطور لم يحاول نشر الثقافة او توطين العنصر الرومانى فى هذه المناطق بل اكتفى بتقسيم بلاد الغال الى اربع وستين مقاطعة Civitates ثم جعل النبلاء من مواطنيها يحكمونها نظرا لولائهم الشديد للرومان .

وفى عام ٢٧ ق.م اجرى اغسطس احصاءا تعداديا لكافة سكان بلاد الغال اقر على ضوئه قيمة الضريبة المفروضة . وكان اغسطس يهتم بشدة ببلاد الغال لانها كانت مصدرا غنيا وبقرة حلوبا للامبراطورية الرومانية ، كما كان العسكريون يهتمون ببلاد الغال لكونها منجما للرجال الاشداء الذين اعتاد الرومان تجنيد القوات المساعدة منهم كما كانت بلاد الغال قاعدة عسكرية كبرى تخرج منها الحملات الكبرى .

لقد قصد اغسطس بعملياته فى بلاد الغال السيطرة على هذه البلاد ومنع حركات التمرد والتسلل والانتشار من الحدود الألمانية حيث كانت هذه القبائل تزعج السكان الآمنين وترهبهم . وذلك لان اهل الغال لم يكونوا هدف الرومان بل كان الالمان هم المقصودين بكل هذه الاجراءات ولقد استعد اغسطس لسنتين طويلة لكى يقوم بعمل عسكري حاسم ضدهم وظل مشروع غزو المانيا هو شغله الشاغل حتى آخر ايامه .

لقد بدأ هجوم الجيش الرومانى على المانيا عام ١٢ ق.م تحت قيادة دروسوس Drusus شقيق تيبيريوس Tiberius الأصغر . وكان الهدف الاول لهذا الهجوم هو القيام بضربة مانعة ضد القبائل الجرمانية التى كانت تتأهب للهجوم على بلاد الغال وللانتقام من شر هذه القبائل ، ايضا كان هدف هذه الحملة احتلال المنطقة الواقعة ما بين نهر البى Elbe ونهر الراين وجعل نهر البى هو المانع الطبيعى لحدود الامبراطورية . اما تيبيريوس فقد أدرك ان خط نهر البى والدنواب سوف يوفران على الجيوش الرومانية الكثير من المتاعب ويجعلها قادرة على التحرك بسهولة ما بين بحر الشمال والبحر الاسود وهو طريق اسهل بكثير من خط الراين - الدنواب . ولقد تمكن دروسوس من تحقيق عدة انتصارات بسهولة على الجرمان ما بين اعوام ١٢ و ٩ ق.م وذلك لأن الجرمان بالرغم من شراستهم فى القتال وشجاعتهم واقدامهم - كانوا

مفكرين سياسيا ومتقاتلين داخليا مما جعلهم ضعفاء أمام الجيوش الرومانية المنظمة والعاتية . ولكي يؤمن دروسوس فتوحاته انشاء على ضفاف الراين خطا من القلاع التحصينية يبدأ من فندونيسا Vindonissa (بالقرب من بازل Basil) وينتهى عند كاسترانيترا Castra Vetera (١) كما استخدم الأسطول الروماني في نقل الجنود والعتاد . وقد شق لهذا الغرض قناة من الراين الى زويدر زى Zuider Zee وبذلك جعل الطريق المائي الى نهر البى Elbe قصيرا وآمنا . كما ساعد الأسطول على اخضاع القبائل الجرمانية التي كانت تسكن المناطق الساحلية ومن أهمها قبائل البتافي Bataavi التي أصبحت فيما بعد من أصدق حلفاء الرومان .

ولم يمهل القدر دروسوس لكي يكمل مثيرعاته العسكرية في ألمانيا اذ سقط من فوق صهوة جواده وهو في طريقه من غزو البى عام ٩ ق.م مما تسبب عنه وفاته ، وعلى أثر ذلك تولى خوه الأكبر Tiberius القيادة ، ويقال ان تيبيريوس عاد الى روما مصطحبا جثمان أخيه حيث ووري جثمانه في العاصمة ، وسواء رجح تيبيريوس لاتمام العمليات العسكرية ام انه يؤس من جدوى الحرب ضد الجرمان وبقي في روما ، فقد ادعى الرومان بأنهم هزموا الجرمان ومنح تيبيريوس لقب قاهر الجرمان Germanicus ولكن الحقيقة غير ذلك . لأن الجرمان لم يهزموا فهم شعب صعب المراس ، شرس الطباع ، ميال للقتال ، معتز بنفسه يرفض الانصياع لغيره من الشعوب .

الشداد الثورات في الثيريا وألمانيا :

وبعد موت دروسوس توقفت الحملات العسكرية تماما حتى العام الرابع الميلادي . وعندما عين أغسطس ابن زوجته تيبيريوس قائدا عاما للقوات الرومانية في منطقة الراين ، قام الأخير بتفقد المناطق التي سبق ان فتحها عند منطقة نهر البى حيث اطمأن لولاء القبائل الجرمانية القاطنة بها ثم بنى عددا من الاستحكامات والقلاع . وبعد ان فعل ذلك استعد لفتح بوهيميا الواقعة بين الالب والدانوب . وكانت خطة تيبيريوس ان يتحرك شمالا من الدانوب وفي نفس الوقت يتحرك مساعد له هو الجنرال جايوس ساتورنيوس شرقا من منطقة الراين ثم سقفا في « كماشة » على القبائل الجرمانية (١) .

(١) انظر الخريطة ٢ ، مجلد الراين والدانوب ١ .

وفي عام ٦ ميلادية وقبل اعطاء امر التحرك لحيرت الى تيبيريوس انباء اندلاع ثورة الليريكوم Illyricium فأرجأ مشروعه العسكري بهدأه أن عقد معاهدة سلام مع ملك بوهيميا . وفي هذا الوقت كانت الثورة قد انتشرت وانضم اليها سكان بونونيا ودالماتيا . ويقال أن سبب اندلاع الثورة في هذه المنطقة فشل روما في التوصل جيدا فيها واحتلالها احتلالا مطلقا وصارما كما أن شعوبها أثرت الثورة ضد الرومان لبهاظة الضرائب وبسبب العبء الذي كان يقع على عاتقهم من جانب قوات الاحتلال الروماني وخاصة تموين الجيوش ومدتها بالمواد الغذائية وتسخيرها للعمال .

وقد بلغت ثورة الليريا حدا أزعج الرومان وأرهب الحكومة والشعب الروماني ، لقد ذبح الجنود ، الضباط ومثل برجال الأعمال الرومان أبشع تمثيل وأهينت الشعارات الرومانية وأضحت ايطاليا نفسها مهددة بالغزو عبر البحر الادرياتيكي ، وسارع المسؤولون الرومان باتخاذ اجراءات عسكرية سريعة فجندت كتيبة على عجل لدرجة أن العبيد المعتقين قبلوا جنودا فيها . ولما طلب تيبيريوس النجدة تحركت القوات الرومانية من سائر ولايات الامبراطورية لنجدته يبدو أن روما لم تتوقع في يوم من الايام اندلاع ثورة بمثل هذا العنف ، خاصة بعد أن اعتقدت أن السلام الروماني قد تحقق ، وكادت روما أن تقع في ورطة بسبب العجز الذي كان موجودا في الخزانة العسكرية وبسبب انتشار موجة امتناع الشباب الروماني عن الانخراط في سلك الجندية وخاصة شباب الايطاليين عصب الجيوش الرومانية . وانهمك تيبيريوس في العمل الشاق ثلاث سنوات حتى اخمد هذه الثورة وسحق الثوار وقضى على مقاومتهم ، وعلى انقراض الدمار أعاد تيبيريوس تقسيم البلاد اداريا فجعل منطقة بانونيا وحدها ولاية مستقلة وكذلك فعل بمنطقة ميسيا Moesia وكان ذلك في العام التاسع الميلادي .

وظلت القبائل الجرمانية مسالمة للحكم الروماني الى ان اخمدت الثورة الاليرية والى ان استشارها قائد روماني عنيد هو بوبليوس كونتليوس فاروس Varrus أراد اذلالها والامعان في تقييد حريتها . وعندئذ بدأت القبائل الجرمانية تتناسى خلافاتها وتتحد تحت لواء الثورة ضد الرومان .

وقد تزعم النضال ضد الرومان أحد زعماء القبائل الخيروسكية cherusci وكان اسمه أرمنيوس . وكان الأخير قد اكتسب خبرة في الحروب أثناء خدمته في القوات المساعدة الرومانية حيث كوفئ بسببها بمنحه الجنسية الرومانية وتقييد اسمه في قائمة الفرسان . بدأت الثورة

اعلانها بكمين دموى عنيف أعدب للقوات الرومانية . فبينما كان الجنرال فاروس يسير فى مقدمة كتائبه الثلاث عبر غابات تويتبرج Teuteberg هجمت عليه القبائل الجرمانية وابيدت الفرق الرومانية الثلاث عن آخرها ولما وصلت هذه الأنباء الى العاصمة ساد الذعر والقلق وقيل أن الامبراطور اغسطس - الذى كان قد تقدمت به السنون وأصبح مسنأ - صرخ فى وجه مساعديه « أريد منك يا فاروس أن تعيد الى فرقى Quintili Vare : !! legiones redde ، يستطيع الدارس أن يحس بمدى المرارة التى شعر بها الامبراطور وهو يهذى بهذا الرجاء المستحيل ، بل أنه أطلق شعره مهدلا لعدة اشهر حزنا وحدادا وكان ينتابه حالة من الهستيريا بين الفينة والفينة فيضرب رأسه بالحائط مكررا نفس العبارة (١) فقد كان من انحال أن يجند بديلا لها لأن مصدر التجنيد قد نضب ولم يعد الشباب الرومانى فى ذلك العهد يطبق الخدمة فى الجيوش .

وهرع تيبيريوس لينقذ الشرق الرومانى وليفصل عار فارو (٢) . وعبر الراين حيث قام بهجومين متتاليين اشبه بحملات الردع والتأديب ولكنه لم يحاول استرداد الاراضى التى استولت عليها القبائل الجرمانية . اذ هجرت روما مشروعاتها فى فتح وسط اوربا وقنعت بجعل الراين هو حدودها لأن الجيش الرومانى كان مرهقا لم يفق بعد من مشقة القضاء على الثورة الليرية فضلا عن أزمة التجنيد .

لقد اساء الرومان تقدير مهارة الجرمان القتالية ، وتخلوها قبائل سهلة المراس ، تخيفها الحربة والسوط شأنها شأن قبائل الغال أو سكان آسيا الصغرى وللأسف لم يكن هذا لأول مرة .

وبصرف النظر عن الهزائم والنكسات العسكرية فقد تمكن اغسطس من أن يحقق لشعوب البحر المتوسط امنا وسلاما لم يشهد مثله من قبل ، وتحقيق السلام فى العالم عمل شاق لا تتحملة طاقة رجل واحد ولذا اعتمد الامبراطور على اقاربه واصدقائه ومعارفه وحاشيته وفوق كل هذا وذاك على الفرسان الذين سبق الحديث عنهم وذلك لحراسة السلام وبناء الجهاز الادارى السليم .

(1) Suetonius, Divus Augustus, 23,2

(2) Tacitus, Annales, I, 74.

رابعاً - اصلاحات أغسطس في المجال الاجتماعي والأخلاقي والديني :
(١) حركة البعث القومي والاحياء الديني :

ان نظرة عامة على شخصية أغسطس تجعلنا ندرك كم كانت شخصيته معقدة ومتعددة الجوانب . لقد كان خليطاً من التيارات والأفكار المتناقضة فهو بطل الحرب ونبي السلام في آن واحد ، وهو المصلح الصالح ومدير المؤامرات الدامية ، وهو الرحيم بالناس وصاحب فكرة الاستئصال الكلي لأعدائه ، وهو الثوري العنيف والسياسي والدبلوماسي المهذب وهو صاحب الدعاية الفاضحة المشهورة بالناس ، والشيخ الوقور والكاهن الأعظم حامى حمى الأخلاق والتقاليد والعرف الروماني .

لم يكن أغسطس أقل تحملاً ونشاطاً في الميدان الديني عنه في الميدان السياسي ، بل ان اصلاحاته في المجال الديني كانت عملاً متناسقاً مع مشيئته الكبرى الذي قصد به الإصلاح العام للأمة ، ولقد تساءل المؤرخون حول فلسفة أغسطس الثورية هل كان مصلحاً أم ثوريا يريد هدم الصرح القديم واقامة صرح جديد مكانه ؟

يرى رستوفتزف ان أغسطس لم يكن هذا (١) ولا ذال ، بل كان موقفاً بين الجديد والقديم ، متفهماً للمشاكل الاجتماعية في بلده ولسيكولوجية الجماهير فيها ، ولذا فقد نشئ بين كنوز التراث الديني القديم ليختار ما يتناسب وظروف المجتمع الروماني الجديد الذي مزقته ثمانون عاماً من الحروب الطبقية والاجتماعية الدامية والتي تركت بصماتها واضحة على حياة الناس .

لقد كان المجتمع الروماني قبل مجيء أغسطس مجتمعاً محطماً خلقياً واجتماعياً ، لم يعد يبال أو يمارس الشعائر الدينية التي خلفها له الأولون . حقيقة ان آلهة الرومان القديمة لم تكن قد ماتت تماماً ولكن الظروف الجديدة ساعدت على مولد آلهة جديدة بالرغم من ان الديانة القديمة بقيت محل احترام وتقدير من جانب الدولة ولكن على الصعيد الرسمي .

لقد شهدت هذه الفترة مولد « عبادة الدولة » في شخص الربة Roma وجوبتر الكابيتولي Juppiter Capitolinus ولم يكن هذا الاتجاه

(١) لقد اعتمدت اعتماداً يكاد أن يكون كاملاً على مقالة رستوفتزف الشاملة والرائعة وهي :

M.I. Psolovtzeff : Augustus (University of Wisconsin Studies in Language and Literature - 15).

السياسى الدينى جديدا على الرومان الذين كانت ديانتهم دائما وابدا تعبيرا عن القومية والوطنية ورمزا للقوة والسيطرة والتربيع على عرش العالم المتحضر ، أضف الى ذلك سيكلوجية الجماهير فى أوقات الأزمات والمصاعب ، حيث ينظر الناس الى الماضى العتيق نظرة شوق وحنين ممزوج « برومىتيكية » حاملة الى درجة القداسة . أى أن حركات البعث والتجديد تجد فى مثل هذه الاحوال المناخ المناسب للنمو والظهور . ولما كان الدين من أهم دعائم المجتمع الرومانى فان اصلاحه أصبح ملحا واحياء شعائره أضحت حينا ، خاصة بعد ما ناله على ايدي الفلاسفة الملحدون والمثقفين والتشككين نتيجة للأحداث الدامية التى عشت بروما طيلة قرن من الزمان (١٣٣ ق.م - ٣٠ ق.م) .

وقبل ان نسترسال فى هذا الموضوع يجب ان نذكر القارىء بأن حركة البعث القومى والاحياء الدينى لم تكن بمثابة انتصار للدين على الدنيا او هزيمة للروح امام المادة لأن الرومان لم يتطرفوا فى اى منها طيلة تاريخهم بل مالوا دائما الى مزج الدين بالدنيا .

وقد نجد مثلا على ذلك فى الشاعر الرومانى هوراتيوس صاحب الترانيم الدينية الصوفية وهو الذى اشتهر فى نفس الوقت كشاعر للخمريات الماجنة والأغاني الدنيوية الصاخبة .

كذلك نجد فرجيل أمير الشعراء ينظر الى الديانة الرومانية القديمة من زاوية رومانتيكية فى كل الموضوعات التى تناولتها اشعاره . وبالرغم من « عصرية » الموضوعات والأفكار التى تناولها فلاسفة الرومان الرواقيون المتأخرون من أمثال مدرسة بوسيدونيوس Posidonius (١) إلا أن الاتجاه العام مال الى تبني النظرة التقليدية المحافظة ، وعندما نشير الى ذلك فائنا

(١) اخريتى سورى ولد حوالى عام ١٢٥ ق . م فى مدينة أباميا على نهر العاصى . وبعد ان اتم تعليمه هناك انتقل الى مدينة أثينا ليدرس الفلسفة على يد الروانى الشهير باناييتوس . وعاد فاستوطن رودس حيث أسس المدرسة الرواقية هناك بل وانتخب رئيسا ممثلا لادخل الجزيرة فى روما فى عهد سوللا . وهناك أقام صلات وثيقة مع قادة الفكر والسياسة من أمثال بومبى وشيرون . وقام بوسيدونيوس برحلات لدراسة الجغرافيا والتاريخ وبحثا على الفكر البشرى من أجل إثبات ودعم نظريته فى اثبات وحدة الحضارة الإنسانية . وقد دعمها لنظريته عن مدينة الله الفائلة . وكان بوسيدونيوس مؤمنا بوجود صفة قوية بين الآلهة وعالم البشر وان الخير والشر هو هذه الصلة . وقد ترك عددا من المؤلفات العلمية فى الرياضة والفلك وفى التاريخ والجغرافيا والبيئة . وكان لافكاره تأثير عظيم على المفكرين الرومان أمثال لوكرتيوس وشكس . دن وتاكيوس وسينيكا وبليني الأكبر ومن بعدهم ٥٠ ق . م - ٨٨ م .

نضع في الحسبان الشعراء المتخصصين في فقه الدين الروماني والذين كان هوميروس وشعراء المسرح التراجيدي الاثيني روادهم الاول لانها مدرسة Varro (١) .

لقد تعرضت الآلهة الرومانية القديمة لتيارات معادية ومنافسة قادمة من الشرق ذلك المنجم الفنى بالتراث الدينى والروحي - اذ تسلمت آلهة غريبة وجديدة سرعان ما فرضت نفسها على المجتمع الروماني اتريفى ، كما ان الناس بدأوا في تقبلها وذلك لانها كانت تشبع متطلباتهم من الغذاء الروحي الصوفي . وكما هو معروف في تجارب الفكر عند الشعوب يلجأ الناس في اوقات الازمات العصبية الى الانغماس في الدين هروبا من الواقع المر وبغرض اشباع نوازعهم النفسية والوجدانية في عالم اللاموجود عندئذ تتخذ الديانة الشكل الصوفي الفامض (mystical) تهد حدث هذا في روما في نفس الوقت الذي مالت الطبقة المثقفة والمستنيرة الى الالحاد والمادية الفكرية .

لقد هرب الفقراء والمعوزون رجالا ونساء من عالم الآلام الدنيوية الى عالم الهدوء ومملكة الروح حيث لا هم ولا قلق ، وراحوا يعززون أنفسهم ان هناك عالما غير هذا العالم يلتقى فيه الانسان بالآلهة الخالدة ، وبكافيء فيه المؤمن الورع بجنان وارقة الظلال ، ولهذا لم يعد الفقراء يخافون « الموت » بل تلهفوا عليه ورحبوا به على انه « الخلاص » من قيود الحياة والبلسم الشافي من اسقامها ، بل اكثر من هذا فان بعض التيارات الفلسفية والثقافية تثبت ان الاتجاه الصوفي الذي يتمثل في الزهد والخلاص قد استولى على وجدان الطبقات المستنيرة وغير المستنيرة على السواء .

(٢) هو ماركوس تيرنتيوس فارو (١١٦ - ٢٧ ق م) . اعظم الادباء والممارفين الرومان جميعا والتلميذ الروماني الاول للثقافة الافريقية . ولد في مدينة ريباتي السابينية ثم درس وتعلم في روما ثم سافر الى اثينا لدراسة الفلسفة وعاد ليتقلب في سلك الوظائف الرومانية - وبالرغم من وقوفه مع بومبي الا ان قيصر اختاره ليشرف على مشروع تأسيس المكتبة الكبرى في روما ، وبعد اثنيال قيصر طالب انطونيوس بدمه فهرب . وبعد انتهاء الحرب الاهلية كرس نفسه للبحث من أجل السلام ويقال ما ان جاء عامه الثامن والاربعون حتى كان قد انتهى من تأليف ٨٠ كتابا . للأسف فقد سقطها الا اجزاء من مؤلفه الكبيرين وهما « عن اللغة اللاتينية » De lingua Latina والكتب الثلاث عن شئون الزراعة rerum rusticarum Libri iii

ولم تجد المذاهب والطوائف الدينية وقتا أنسب للازدهار (١) من مثل هذا العصر ، فظهرت البيشاجورية الجديدة Neo-Pythagorianism والأورفية Orphism (٢) وأصحاب نظرية قدوم المخلص المنتظر .

لقد بلغت هذه التيارات الدينية الفلسفية أقصى رواجها في أعقاب الحروب الأهلية كما أن فرجيل شاعر الامبراطورية يكشف عن مثل هذا الاحساس في الاكلوج الرابع Eclogue وفي الكتاب السادس من الانبياء . ولقد عثر الاثريون على بقايا أماكن منعزلة أغلب الظن أنها استخدمت لممارسة الشعائر الصوفية الغامضة والسرية . وهناك من يقارن بين هذا التيار الصوفي الانتظاري الذي ساد في روما وبين الموجة الدينية التي أحدثها أنبياء بنى اسرائيل ابتداء من حزقيال واشعيا الى يوحنا المعمدان حيث نودى في الناس ان المسيح المنتظر سوف يجرى ويضع نهاية لهذا الظلم الجائر ويبدأ على يديه عهد مبارك جديد يتحقق فيه للناس المسرة والأرض السلام ، وربما جاءت هذه الدعوة من الشرق الأوسط وسادت في روما لأننا نجد كبريات العقليات السياسية التي تتعلق بالمنطق والعقلانية تفسح مكانا في قلوبها للروحانية والغيبيات الدينية بما في ذلك السحر والتنجيم ، ويتمثل ذلك واضحا في تعاليم الفيلسوف بوسيدونيوس Poseidonius واتباع المدرسة الرواقية المتأخرة حيث لعب السحر والتنجيم والفلك دورا هاما وامتزجا معا كالروح والجسد بالرغم من أن الأول كان غيبيا والآخر عقلانيا .

ومن أهم المؤثرات التي تثبت امتزاج الدين بالدنيا ظهور نوع جديد من الشعائر والعبادات التي تهدف الى غرض مادي دنيوى . فقد ازدهرت في هذا الوقت ربة جديدة هى ربة الحظ السعيد Fortuna بل وغطت على باقى الآلهة الرومانية الأخرى ابان عصر الثورة .

(١) هم اتباع الفيلسوف الرياضى بيتا جوارس (بيتا غورس ؟) الذى عاش في القرن الخامس قبل الميلاد في مستوطنة كروتون بجنوب إيطاليا . وقد ظهر أصحاب هذه المدرسة الجديدة في روما والاسكندرية ابان القرن الاول قبل الميلاد ، ولم يكن لهم نظرية محددة بل خليطا من افكار افلاطون وارسطو والرواقية ولكنهم اهتموا باللاهوت وعلم الارقسام والوحدات الرقمية . الذى في نظرهم هو اساس كل شئ وقد أثرت هذه المدرسة على الفكر اليهودى والمسيحى في الاسكندرية وعلى فلسفة افلوطين بالذات .

(٢) أى اتباع ايرفيوس الشاعر والمغنى الساحر والاسطورى الذى قتلته نساء تراكيا والتين بأعضاء جسمه في البحر فطفت رأسه تبنى حتى جزيرة نسبوس حيث دفنت هناك . وقد ظهرت له مدرسة عند القرن السادس ق . م تؤمن بدروحية الروح وتبحث عن مصير الروح بعد الموت ورسوئى الى تطهير النفس عن طريق الموسيقى والأشهاد الدينية وتعبد اوريونيس كنسما لها .

وكذلك ازدهرت عبادة مركوريوس (هرميس الإغريقي) وب الرخاء والخير المفاجيء، والالاريس Iares ربات وراعيات الأسرة والبيناتيس حاميات الديار والحياة المنزلية وكانت هذه الآلهة تتقدم في ثبات كلما عصفت الثورة وعلا هدير الثوار ودارت رحى القتال وظهرت بصمات الحضارة وآثارها الاقتصادية القاسية على المجتمع واشتد القلق النفساني وظهر واضحا في تفكير الناس ، وانتشرت موجة من البوهيمية والميل الى الانغماس في الغيبات والخرافات والشعوذة والسحر . لقد كانت هذه الآلهة تجسيما حالما لأمانى الناس ورغباتهم المادية والمعنوية .

لقد قدفت أمواج الحروب الأليمة العاتية بشخصيات شهيرة الى مراكز السلطة، ورفعت رياح الثورة بعضها الى قمة الحكم ، فظهرت عبادة الفرد Cult of Personality نتيجة لتعلق أمانى المواطنين واعتماد وجودها على احد من هذه الشخصيات الكبرى أو الاسماء الالامعة التي أحاطتها بسياج من الحب والأمل . وكانت على استعداد من أن تموت من أجلهم عليهم يخلصون البلاد من حالة الفوضى ويتحقق على أيديهم السلام والرخاء . نقد بزغ في سماء روما نجوم لامعة مثل سوللا وقيصر وأنطونيوس وأوكتافيوس . وسرعان ما ربطت الجماهير بين هؤلاء القادة كأبطال للحق ورسل للسلام والرخاء ، وبين رسالة الآلهة وأبطال الأساطير القديمة من امثال هرقل Hercules ومركوريوس وأبوللون Apollo وأصبحت الجماهير تؤمن بأن هؤلاء القادة والزعماء انما يحملون على عواتقهم رسالة الآلهة بل يقومون بدورها عندما هبطت الى الأرض - للمرة الأولى والأخيرة - في فجر الإنسانية ، وسرعان ما مزجوا بين فكرة « المسيح المنتظر » او « المخلص المختار » وبين هؤلاء القادة ، بل ان الناس كانوا على استعداد لعبادتهم اذا ما حققوا السلام والرخاء .

لقد كان أغسطس صبيا عندما كانت تجتاح المجتمع الروماني مثل هذه التيارات ، ولعله شاهدها وتأملها وجادل نفسه فيما ينبغي وما لا ينبغي قبوله منها ، لعله أيضا هام يحلم بأن يكون على رأس الدولة - ثم فكر في كيفية استغلال هذه التيارات بعد مسح شامل لسيكولوجية الجماهير من أجل تحقيق أمانيه وطموحه السياسي خاصة وأنه كان ذا نظر ثاقب ، قوى الملاحظة ، ومن الصعب على الدارس لحياة أغسطس ألا يستقد أن « هذا المحتل الخصب قد تاه عن فكره وهو الذي كان يحسب لكل شيء حسابا . كما أن التنظيم لاصلاحياته ليذكر أنه كان يتمتع بعقلية الشيخ الوقور الحافظ والفيور على التراث القديم منذ صباه ولذا لم يكن من الغريب أن لا يأتي بأمور وبدع جديدة بل اتجه الى ميدان البعث والاحياء من التراث القديم .

وكانت الخطوة الأولى هي ترميم المعابد والأماكن المقدسة وإصلاح ما امتدت إليه يد الدهر وعبث الحروب . ويخبرنا أغسطس أنه رمم اثنين وثمانين معبد بالإضافة إلى المعابد الكبرى مثل معبد جوبيتر الكابيتولي وهو مركز عبادة الدولة الرسمية ، ومعبد الرب كويرينوس Quirinus وهو رومولوس بعد تأليهه ، ومعبد الأم الكبرى Manga mater .

وفي عصر أغسطس نسمع عن قائد شهير اسمه موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus قام بترميم معبد الرب ساتورنينوس Saturninus في قلب ساحة السوق العامة Forum في روما . كذلك أعاد أغسطس إلى البعث ربة الفلاحين والزراع القديمة Dea Dia من أجل خدمة الريف والنهوض به ، كما بعث الحياة من جديد في عبادة الرب الروماني يانوس Janus كمحقق للسلام . وهكذا أحيا الإمبراطور الشعائر القديمة إرضاء واستجابة لحنين الناس إلى عبادة الأمس فحسب ، بل لكي يستغل ذلك لتحقيق شعبية واسعة بين الجماهير .

كذلك لم يأل أغسطس جهداً في كسب عشاق التيارات الدينية الجديدة وعبادة الآلهة الوافدة من الشرق أو المجسمة لأحلام الناس فأقام العديد من المعابد والمحاريب لربات الخير والبركة مثل فورتونا ربة الحظ وباكس (١) Pax ربة السلام ومركوريوس رب الخير الوفير .

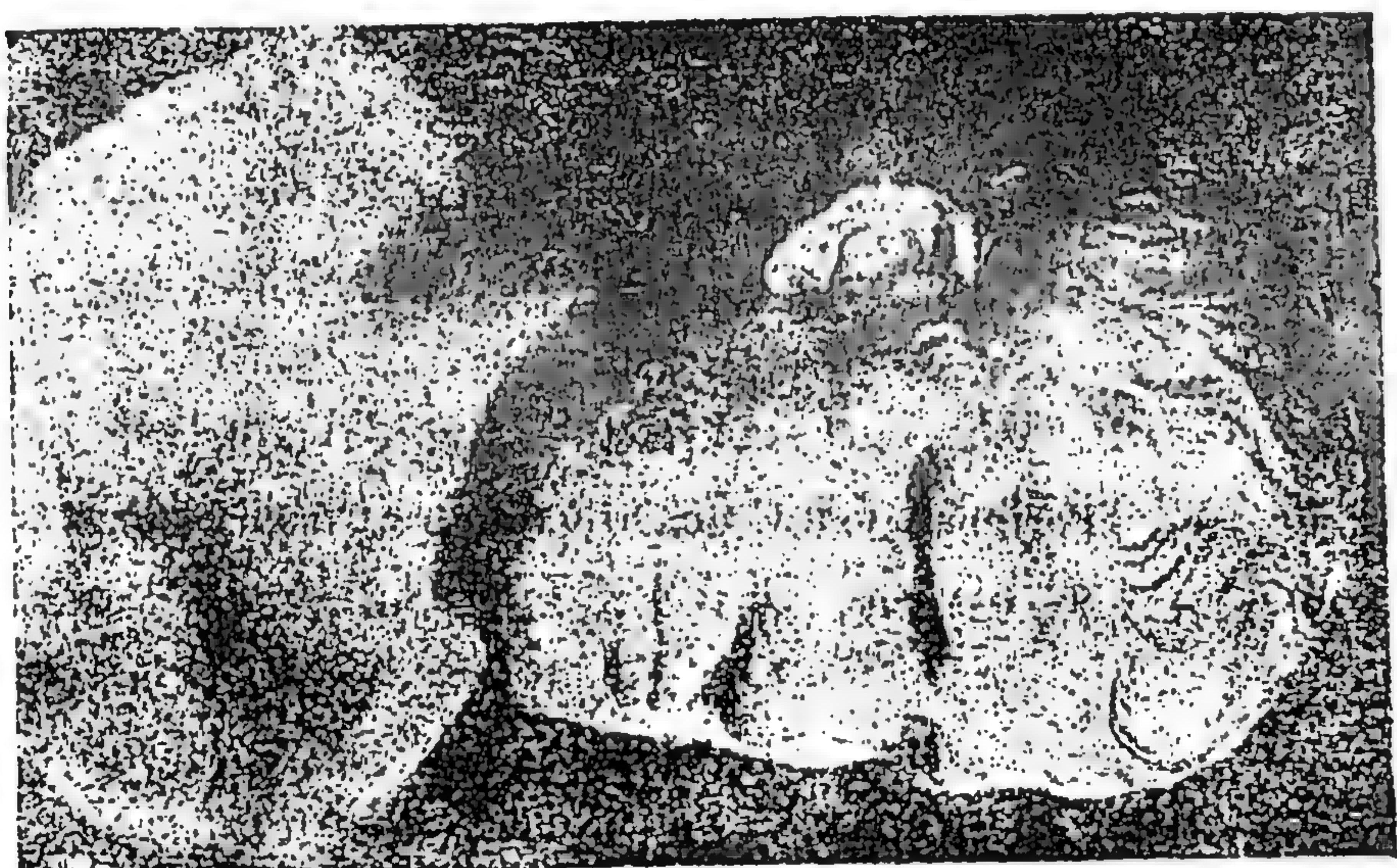
كذلك حاول الإمبراطور أن يلصق اسمه بعد اسم كل من هذه الربات فنسمع عن عبادة الربة فورتونا أو غسطا Fortuna Augusta ، وباكس أوغسطا ، ومركوريوس أغسطس وغير ذلك محاولاً إقناع الرومان بطريقة

(١) عن آثار محراب السلام الاوغسطي انظر :

city and its Monuments. (Pheidon Press 1967), p. 193 ff.



انسطس في ثوب الكاهن الاغليم



الجنرال اجريبا

غير مباشرة بأن كلمة أوغسطس كلمة مباركة ومقدسة وبديلا للخير والرفاهية (١) .

ويكاد الدارس أن يجد وجها كبيرا للشبه بين أغسطس وبين الربة روما . لقد كانت روما ربة قديمة تتميز بشراستها وحبها للقتال ولكنها في العهد الجديد ارتدت رداء السلام وأصبحت ربة الرخاء تعمل من أجل البشر جميعا وبالتالي انتقاها أغسطس والصق اسمه بها وأصبحت تعرف باسم *Roma Augusta* ، وكذلك *Vesta* ربة الوقود وقد انتقلت من معبدها القديم في قلب المدينة الى قصر أغسطس فوق تلال البلاتين ، كما تجمعت اللاريس حول أغسطس الذي أصبح تجسيدا للشعب الروماني والذي صورته التيارات الجديدة في شكل رب اسمه *Populus Romanus* أي الشعب الروماني .

هكذا دفع أغسطس التيارات الدينية من قصره لتتفرع الى كافة أجهزة الدولة ، تمتزج بتفكير الناس او بعبارة أخرى كانت كل الجماعات والقنوات الدينية المتفرعة تصب في مصب واحد الا وهو أغسطس . وهذا يذكرنا بقصر الملك في كريت الذي كان معبد الدولة وبيت الملك في نفس الوقت ، او بمركز الفرعون المصري وملوك بابل واشور .

كذلك يمكن القول بأن أغسطس لم يترك تيارا دينيا واحدا الا وجنده لتدعيم مركزه ، وفرض صورته المقدسة على المجتمع الروماني نقول ذلك لأن يد أغسطس تناولت فكرة « الهادي المنتظر » او « المسيح المخلص » التي بشر بها انبياء اسرائيل والتي كانت سائدة في هذا العصر ليس في روما فقط بل في الشرق الاوسط كله ، فاوحى لمن راحوا يلمزون للناس بأن هذا المهدي المنتظر قد جاء فعلا وهو موجود في قصره فوق تل البلاتين وانه بدأ عصره جديدا .

ومن يقرأ مناجاة الشاعر هوراثيوس للرب مركوريوس يكاد يحس بأن الشاعر يناجي أغسطس في شخص هذا الرب . صحيح أننا لا نجد شاعرا واحدا يتحدث علانية عن تقمص أغسطس لشخص المسيح المنتظر ولكنهم تحدثوا عن « المخلص » الذي حرر روما من أغلالها وضمدها جراحها ثم قادها بعيدا عن الهاوية ، تحدثوا عن مبعوث الآلهة الذي جاء بالهدي

(١) وكان ذلك بداية لعبادة الإباطرة انظر :

L. Cerfaux et J. Tondriau, *Les Cultes des Souverains* (1956) ; L.R. Taylor, *The Divinity of the Roman Empire* (1931). also cf. John Ferguson, *The Religions of the Roman Empire [Aspects of Greek and Roman life]* (Thames and Hudson 1970) Chapter VI, pp. 88-97.

والسلام وبالرخاء والوئام . تحدثوا عن ذلك وهم يلمحون الى اغسطس و « كل ليبب بالإشارة يفهم » .

ومن يبحث عن دليل يثبت به تأييد اغسطس في نشر فكرة انه المخلص والمنقذ ليجد ضالته المنشودة في اهتمامه وعنايته بالآله أبوللو Apollo (أو أبوللون باليونانية) والذي عرف عند اليونان والرومان على السواء بأنه الرب المنقذ ، لهذا السبب اهتم به اغسطس وبعبادته وبخصص مساحة كبيرة بجوار قصره المسمى باسم بيت ليفيا Casa Liviae فوق تل البلاتين (١) لكي تقام له الألعاب الدينية المعروفة باسم Epiphanes Apollo كما اشيع أن أبوللو هو الجد الأكبر لعائلة يوليوس التي ينتسب اليها اغسطس Gens Julia بل أكثر من هذا حيكت الأقاصيص المصطنعة عن أبوللون الذي تسلل ليلا في صورة ثعبان كبير الى فراش آتيا والدة اغسطس وضاجعها فحملت وأنجبت وليدها العظيم .

كما أن اغسطس لم يكف ابدا عن التسبيح بحمد أبوللو والثناء عليه لأنه آزره ونصره على أعدائه . فهو الذي وقف الى جواره يوم اكتوبر ونصره وناصره ، وبعد انتهاء الحروب فاذا به يقيم بجوار معبده ويعمل معه من اجل اصلاح المجتمع الروماني .

كما ساد الاعتقاد بأن أبوللو قد ظهر في جسد اغسطس وبأن الامبراطور ما هو الا أبوللو في صورة البشر . وسرعان ما تلقف عشاق المذاهب الصوفية الغامضة هذه الفكرة وهللوا لها ، بل صاغوها في الشكل الكهنوتي الذي يريدونه . وكان الاغريق اكثر المهللين لهذه الفكرة لانهم كانوا صناع الآلهة والعبادات وخاصة في العصر الهلينستي .

ولما كان أبوللو في الاصل ربا اغريقيا قبل ان يكون رومانيا فقد اعتبر الاغريق ذلك انتصارا للهلية أي ان ثقافتهم نجحت فيما فشلت جيوشهم في تحقيقه وهو الانتصار على الرومان .

(١) اطلق هذا الاسم بعد اكتشاف بقايا ما يعتقد انه كان بيت الامبراطور اغسطس وذلك في عام ١٨٦٦ وهو عبارة عن ثلاثة مقصورات واسعة مزينة برسومات دينية ومصرية قديمة . وفي عام ١٩٦١ تم اكتشاف منزل مجاور يرجح انه هو بيت اغسطس وليس الاكتشاف القديم . ومن الجدير بالذكر أن فرجيل ذكر في الانبياء ان المهاجر الاركادي الاول ايفاندرس اقام بيته الاول في نفس المكان الذي أسس فيه اغسطس بيته وهو نفس المكان الذي قضى فيه اسيس ليلته الاولى انظر :

لقد مهد أغسطس لعبادته بأن جمع كل الاتجاهات الدينية والعقلانية في عبادة الإله يوليوس Divus Julius (أي يوليوس قيصر) وغذاها بالروايات والأساطير حتى نمت وترعرعت مستفلا العواطف والأمانى الوطنية للشعب الرومانى عندما ذكرهم بأن اينياس Aeneas جد الرومان الأكبر لم يكن سوى ابن ربة الجمال فينوس Venus التى ينحدر منها أبوه يوليوس قيصر والذي أشيع أنه ظهر في شكل نجم في سماء الكون . كما أن أغسطس شيد لقيصر معبدا Aedes Divi Iulii في ساحة المدينة Forum تماما كما فعل لجده الكبرى فينوس . -

ولم ينس أن يبنى محرابا للإله مارس المنتقم Mars Ultor في ساحة أغسطس أيضا Forum Augusti (١) لأن هذا الإله هو الذى انتقم لمقتل يوليوس قيصر واقتصر من قتلته .

لقد كان أغسطس يعلم علم اليقين بأن الإله يوليوس قيصر سوف يتحول الى الإله أغسطس Divus Augustus بعد موته ولهذا الفرض بنى أغسطس لنفسه قبرا جميلا في شكل ضريح جميل (٢) Mausoleum في قلب ساحة الإله مارس المنتقم رائد شباب الرومان . وهذا يقودنا الى الحديث عن ملاقة أغسطس بقطاع الشباب الرومانى .

أغسطس والشباب :

لم يتوانى أغسطس أبدا عن بث صورته المقدسة في قلوب الشباب باعتبارهم عصب الامبراطورية وقادة المستقبل وحملتها رسالتها من بعده فاهتم بتنظيماته وجمع حوله أبناء كبريات الاسرة القديمة والنobile . لقد أحيا أغسطس جماعات الشباب الدينية القديمة وبث فيها روحه كما حاول أن يربط بين ايمان الشباب بالعقيدة الدينية وولاء هذا الشباب لشخصه تلك هى فلسفة الحركة الاوغسطية الجديدة . ففرجيل يتحدث منفعا بأسلوب عاطفى « ورومانتيكى » بالغ عن احياء العذب طرواده الاولمبية لأول مرة منذ أن هدمها الأغرريق منذ أكثر من اثني عشرة قرنا ، كما نعلم أن انشودة العصر Carmen Saeculare التى ألفها هوراتيوس كان ينشدها « كدرال » منفى من أبناء وبنات كبريات الأسر ، كما اعتاد أغسطس أن يستعرض الشباب في ساحة معبد مارس المنتقم وهم يمتطون جيادهم ويرتدون زنا عسكريا .

وأخيرا وليس آخرا - يجب أن نذكر العارىء بأن الاتجاه نحو

Dudley, op cit., p. 123-129.

(١)

op. cit., p. 196-199.

(٢)

استخدام الدبابة وسداجة الجماهير المؤمنة بها (١) لخدمة الاهداف السياسية والاغراض الوصولية قد عرف قبل مجيء اغسطس ، كما انتشر بتدّة ابان الحروب الاهلية التي سادت في القرن الأخير قبل الميلاد . وكان رد الفعل على الناس هو انها أولت ظهورها للمعابد وأعرضت عن الآلهة لأن العبادة لونتها السياسة وبالتالي فقد انتشرت موجة من التشاؤم والشك والالحاد مما دعى بعض الزعماء من أمثال فارو وسوللا وقيصر الى اتخاذ بعض الخطوات بفرض الاصلاح الدينى وبفرض احياء نازع التقوى Pietas التي عرف بها الرومان الأولون ، والحق يقال ان كل هذه الخطوات المبكرة لم تكن بنفس الذكاء والجديّة والدقة التي تناول بها اغسطس القضية ذاتها ؛

والآن لنوجه لانفسنا سؤالاً هاماً : هل نجح اصلاح اغسطس في المجال الدينى كما نجح في المجالات السياسية والادارية والعسكرية ؟

نعم . . لقد نجح اغسطس وحقق ما كان يريد ابان حياته كما جنى خلفاؤه ثمار هذا الاصلاح . لقد نجح اغسطس في ان يقنع الناس بأنه مؤله وبأنه المخلص والمنقذ الطاهر . ولما انتقل الى عالم الخلود لم يجزع مواطنوه بل قالوا انه رب جاء اليهم بالهدى وبلغ الرسالة وأدى الأمانة ثم عاد من حيث أتى . . . الى عالم الآلهة والخلود .

وسرعان ما تبلورت عبادته كهنوتيا وخرج المبشرون بها الى كافة انحاء الامبراطورية كما يشهد بذلك الأدب والفن الرومانى .

كما يجب أن ننوه بدور الشرق في صناعة عبادة اغسطس واعطائها المقومات الفلسفية والشعائر والصورة اللاهوتية المطلوبة . لقد كان الشرق ذلك المنجم الفنى بالروحانية وفكرة البحث عن الله - كان دائماً المفلس لفكرة تالية الملوك وجعلها ديناً شعبياً .

وخلاصة القول أن الامبراطور عاش ليشاهد في كل ولاية من ولايات الشرق معبداً على الأقل موقوفا لعبادته جنباً الى جنب مع الربّة Roma et Augustus وصارت العبادة الامبراطورية في الولايات رمزا لسلطة روما واغسطس ، وسرعان ما انتقلت عبادة الامبراطور الى الغرب . . . حيث اقيم في لوجدونوم Iugdunum (ليون الفرنسية حالياً) وكذلك في كولون (كيلن الألمانية) معابد تحمل نفس الأسماء Roma et Augustus

ومن أهم انجازات أغسطس في المجال الدينى احيائه للجماعات الكهنوتية القديمة والتي كانت تعرف باسم Collegia لأن الرومان كانوا يحرسون دائما على ارضاء الهتهم راقامة سلام دائم معهم (Pax deorum) ومن أجل ذلك اقاموا هذه الهيئات أو الجماعات التي كانت تتولى القيام والاشراف على الطقوس والشعائر وخاصة شعائر التكفير عن الخطايا وشعائر النفران . ولما كانت هذه المناصب الدينية عادة تملأ بالاشراف ولما كان عدد الاشراف قد اخذ في الانقراض فقد أهمل كثير من هذه المناصب ولذا لم يتردد أغسطس في انشاء عناصر شريفة جديدة وذلك بتحويل بعض عشائر العامة الى عشائر شريفة لكي يتوافر العدد الكافى من الاشراف لشغل هذه المناصب الميجورة . وبالطبع لم يفت أغسطس ان يكون عضوا في كافة اللجان الدينية والكهنوتية من القاعدة الى القمة . ولما مات لبيدوس الكاهن الاعظم Pontifex Maximus عام ١٢ ق.م انتخب أغسطس كاهنا اعظم وبذلك وصل الى قمة السلك الكهنوتى وتربع على عرش الديانة الرومانية .

(ب) التقويم الخلقى والاصلاح الاجتماعى :

كان من الطبيعى ان يتوجه أغسطس الى حقل الاصلاح الاجتماعى والتقويم الخلقى ليكمل حلقة الاصلاح والبعث الجديد من ناحية ومن ناحية ثانية فان المجتمع الرومانى كان فى أشد الحاجة الى مثل هذه الاصلاحات ، فقد سقطت القيم صريعة أبان الحروب الأهلية وداس الناس على الأخلاق والمثل . وتفككت الأسرة الرومانية خاصة تلك التى فقدت عائليا وقل عدد الرجال بينما تزايد عدد النساء مما أدى الى انتشار الفساد الخلقى والعبادات البوهيمية الخليعة القادمة من الشرق (١) .

لقد قامت ليفيا بدور السيدة الأولى فعنيت باصلاح شأن الأسرة الرومانية وخاصة شئون الزواج والطلاق ، وأوحت الى زوجها بعدد من القوانين الاصلاحية التى واجه أغسطس صعوبة وحرجا فى تطبيقها لأن المواطن الرومانى فى عهده كان أسوأ من ان يلتزم بتطبيق مثل هذه القوانين ، خاصة اذا كان من الطبقة الدنيا المسنهرة . كما ان بعض المقربين الى الامبراطور مثل مايكيناس والذين تعودوا على حياة الترف والنعيم وجدوا من الصعب قبول هذه القوانين الجديدة الصارمة بل اعتبروها تدخلا فى حرية المواطن الشخصية وعملا من أعمال التسلط . كما أصبح موقفه أغسطس حرجا عندما دار النمز واللمز حول سيرة

cf. H. Last in C.A.H., X, p. 441 ff.

(١)

جوليا ابننه ومفامراتيا المحجلة مع العتاق ولذا لم يترد أغسطس في نفى ابنته خارج البلاد حتى « بظل بيت أغسطس » البيت المثالي الذي يجب أن يقلده الرومان في البساطة والتقشف والنظام رافضا توسل الجماهير بعودتها بعد توبتها وندمها (١) .

ونستطيع أن نوجز القوانين الخاصة بالاصلاح الاجتماعى والتقويم الخلقى على النحو التالى :

١ - مجموعة قوانين يوليوس الخاصة بالزواج :

Leges Iuliae de maritandis ordinibus

لقد شجعت هذه القوانين الشباب على الزواج باعطاء امتيازات للمتزوجين على حساب العزاب كما فرضت أعباء وقيودا على هؤلاء الآخرين لتشجيعهم على الزواج .

وقد بدأ التفكير في سن هذه التشريعات ما بين ١٩ — ١٨ ق.م. ، وفي عام ٦ ميلادية عين قنصلان هما ماركوس بابيوس *Marcus Papius* وكونتوس بابايوس *Quintus Papaeus* من أجل اكمال هذه القوانين ، وعلى أى حال حثت هذه القوانين الشباب على الزواج عند سن معين . وأرغمت الارامل اللاتى فقدن أزواجهن عند سن معين على الزواج مرة أخرى خلال مدة لا تزيد على ثلاثة أعوام والا حرموا من حق الارث ومن حق حضور الألعاب والمهرجانات العامة . كما فرضت هذه القوانين عقوبات مشابهة على الذين لا ينجبون . ومن أهم مواد هذه المجموعة قانون حق الأبناء الثلاثة *ius trium liberum* الذى هدف الى مكافأة ارباب الأسر الذين انجبوا ثلاث أبناء فأكثر فجعلت لهم أولوية الترقى فى الوظائف العامة .

كما اشتملت أيضا على قانون يحارب الزنا وخيانة النساء لأزواجهن بأن أيدت حق الأب فى أن يقتل ابنته الزانية والرجل الذى ارتكبت معه جريمة الزنا اذا فاجأهما لحظة ارتكاب هذا الاثم . أما بالنسبة للزوج فقد اباح له هذا القانون قتل العشيق فقط .

وعلى أى حال كان أغسطس أول من جعل الخيانة الزوجية « قضية عامة » تمس المجتمع الرومانى بصرف النظر عن كونها قضية خاصة اذ نصت هذه القوانين على اقامة محكمة أحوال شخصية للنظر فى قضايا

Dio Cassius. 55. 13, 1.

(١)

Ibid 56, 32, 4.

بأن أظه حرموا من حق الارث ومن حق حضور الألعاب والمهرجانات العامة .

الخبائات الزوجية . ولم تقتصر اقامة الدعاوى على أحد الزوجين بل أصبح من حق المواطن الرومانى أن يبلغ عن أى جريمة زنا ويقدم مرتكبها للمحاكمة . وكانت عقوبة الرنا عادة النفى الى الجزر الصغيرة البعيدة عن ايطاليا .

كما شملت هذه القوانين الأزواج الذين كانوا يتخذون عشيقات لهم بعيدا عن زوجاتهم وفرضت عليهم عقوبات مماثلة .

وبالرغم من أن الشعراء الرومان استقبلوا هذه المجموعة من القوانين بالتليل والتكبير كبداية لعودة روح الأجداد للأسرة الرومانية ، وبالرغم من أنها ظلت محل تعليق وتطوير من جانب الفقهاء على مر العصور إلا أنها فشلت فشلا ذريعا لأنها فتحت الباب أمام الواشين واستممت الى البلاغات الكيدية التى كان يقدمها مخبرون مرتزقة مما أعاق سير المحكمة وضللها عن معاقبة الفاعل الأصلي ، كما لم يردع الرومان عن الزنا لأنهم لجأوا الى وسائل خبيثة مثل الزواج الوهمى لدفع التهمة عنهم . وبالتالي فان هذه القوانين لم تطبق بجدية على الإطلاق .

ومن أهم قوانين هذه المجموعة القانون الخاص بالحد من الاسراف والتبذير ومظاهر البذخ الذى كان ظاهرة غريبة على الرومان . لأن الأسر الرومانية التقية الورعة عاشت عيشة بسيطة ومتقشفة من كل المظاهر الكاذبة ، خاصة أن البساطة *simplicitas* كانت صفة جوهرية من صفات الرومانى القديم التى حاول أغسطس احياها .

لقد جاءت النيارات اليوهيمية من الشرق الماجن المستهتر وزحفت على بلاد اليونان قبل ايطاليا - لأننا نجد بعض القوانين الاغريقية تسن بفرض محاربة البذخ والاسراف منذ أيام سولون المشرع فى القرن السادس ق.م . حتى حكم ديمتريوس الفاليري *Demetrius of Phalerum* فى اواخر القرن الرابع ق.م ، وعلى كل حال ، اهتمت قوانين يوليوس بمنع البذخ فيما يختص بملابس النساء وزينتور ، ورددت جوهر قوانين الفاليروسى فحظرت على الرومان التبذير عند اقامة المآدب او بناء القبور . ولكن كما ذكرنا لم يكن من السهل تطبيق مثل هذا القانون والتحكم فى حب الناس للحياة بل ان مايكيناس اقرب الناس الى أغسطس لم يتوقف أبدا عن حياة البذخ والترف البوهيمى .

٢ - قوانين عتق العبيد :

كذلك أدرك المصلح الكبير انه لى يحقق اسلاسه ويمسح العالم بالصبغة الرومانية فان روما فى حاجة الى الرومان ، ولما عمل على زيادة أعداد

الايطاليين وفي نفس الوقت حرص على نقاء دمائهم من الشوائب الأجنبية .
كما أدرك أغسطس مدى الخطر الذي يحدثه تزايد عدد العتقاء من العبيد
libertini ، اذ شاعت هذه الظاهرة كتعبير من جانب الرومان في التحرر
والسمو أو كتخلص من اعباء الملكية وتخفيفا من المسؤولية الاقتصادية (١)
كما ان كثيرا من السادة الرومان آثروا أن يذكروا في وصاياهم عتق عبيدهم
لكي يضمنوا جنازة كبيرة من العبيد الذين يسبحون باسمهم وينوح عليهم
فيها عبيدهم ذاكرين افضالهم وأيديهم البيضاء .

ولهذا الغرض استن أغسطس قانونين هما قانون ايليوس سنتيوس
Lex Aelia Sentia وقانون فوفيوس تارينيوس Fufius Caninius
عام ٢ ق.م بهدف تقييد عتق العبيد والحد من انسياب هذه الظاهرة
حرصا على رفع خامة الجمهور الروماني الذي أهبط المعتقون مستواه .
وربما كان القانون الذي استنه أغسطس عام ١٧ ق.م والمعروف
باسم قانون يوليوس نوربانوس Lex Julia Norbana واضحا وصريحا
اذ ألغى العتق ما لم تستوفي الاجراءات الخاصة بذلك والتي كان الرومان
يتجاهلون بها تهربا من دفع الرسوم المقررة . وقد نصت مواد هذا القانون
على أن الشخص المعتق لا يصح له أن يعتبر نفسه في درجة المواطن
الروماني الحر المولد أو حتى في مرتبة المواطن الايطالي .

والى جانب ذلك حرص أغسطس على أن يقيد المعتقين اجتماعيا حتى
لا يخرجوا عن حجمهم الطبيعي وذلك باقامة العوائق القانونية التي تحول
بينهم وبين الترقى في سلك الوظائف الرومانية Cursus honorum سواء
في العاصمة أو في المقاطعات الايطالية ، وفي نفس الوقت حرص أغسطس
على امتصاص طاقة المعتقين في وظائف صغيرة خصصت لهم . ومن
أمثلة هذه الوظائف وظيفة رئيس الحى في روما Vicomagister والذين
كانوا يناط بهم مهمة الابلاغ عن الحرائق ومكافحتها والاشراف على
الملاهي العامة Ludi Compitalicil (٢) كما ملأ المجالس الاغسطية
بالمعتقين Servi Augustales وهي مجالس كانت تتكون من ست
من صفار الموظفين وكانت مهمتهم الاشراف على برامج الترفيه بالانفاق
عليها من أموالهم الخاصة ومن تبرعات الاغنياء كما تولت الاشراف على
عبادة يوليوس قيصر (وأغسطس وخلفاؤه من بعده) في الأقاليم الايطالية .

A.M. Duff, Freedmen in Early Roman Empire (1928).

(١)

cf. G. Niebling, Historia, 1956, p. 303 f.

(٢)

(ج) نشر الأفكار السياسية عن طريق الفن والأدب والمهرجانات العامة :

أدرك أغسطس أهمية الدعاية والإعلام فكان له جهازا خاصا أشرف عليه مايكيناكس Maecenas كانت مهمته التبشير والنشر ومسلء رؤوس الجماهير بالأفكار التى كان يريد للناس أن تعرفها بحرف النظر عن استعداد الناس السيكولوجى والفطرى لقبول مثل هذه الأفكار (١) .

وكانت وسيلة مايكيناكس الأولى هى الأدب والشعر لأنهما كانا المدخل السهل الى قلوب الجماهير وعقولهم . كما اعتمدت الدعاية الأوغسطية على الفن وركزت عليه بشكل خاص لأنه وسيلة المعرفة المنظورة . فمبر الفن عن الأفكار وشكلت العمارة هيكلها وأفصحت النقوش عنها . وإينما ولى المسافر وجهه وجد آثارا ضخمة وأبنية تكاد تنطق بالعظمة والإجلال فيعلم الناس أن عهدا عظيما قد ولد Magnus nascitur ordo

وفى كل مكان اقيمت الهياكل والمحاريب والمعابد للآلية خاصة تلك التى ارتبطت بأغسطس أو بأفكاره السياسية مثل اللاريس ربات الميادين ومفارق الطرق وكذلك روح آل يوليوس gens Julia .

والى جانب الفن استخدم أغسطس النقود (٢) التى وضع عليها شعارات متنوعة لكل ما يريد أن يعرفه الناس ، ونظرا لسرعة تداولها كانت وسيلة أكثر فعالية من أى وسيلة أخرى . ولذا يجد دارس النقود الرومانية بين يديه أكبر مجموعة متنوعة ومشوقة من العملات .

ومهما يكن من أمر فإن النهضة الأدبية (٣) بلغت من القوة والازدهار درجة جعلت الدارسين يطلقون عليها اسم العصر الذهبى الأوغسطى Augustan era بالرغم من أن جذور هذه النهضة كانت تمتد أصلا الى الأيام الأخيرة من عصر الجمهورية وأبان الحروب الأهلية فى روما .

(١) George M.A. Hanfmann, Roman Art A Modern Survey of the Art of Imperial Rome, (1964), p. 25. also. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire, p. 82.

(٢) C.H.V. Sutherland, Coinage in Roman Imperial Policy (31 B.C.-68 A.D. 1951, Chapter 2 and 4.

(٣) T.E. Wright, Fifty Years of Classical Scholarship (1954). p. 306 ff. (٢) also of C.G. Starr Civilization and the Caesars Ithaca : Cornell University Press (1954).

بل أن بعض العبقریات الأدبية كانت تفيض بالأفكار الجمهورية وبسبب ذلك عانت وتحملت . وعلى أى حال فقد أخذ أغسطس على عاتقه تماماً كما كان يفعل النبلاء الرومان — مهمة رعاية الآداب والفنون عن طريق مايكيناس . وسرعان ما تدفق على روما العبقریات من كافة أنحاء المعمورة . فمثلاً بفضل رعاية أغسطس كتب ديونيسيوس مواطن هاليكارناسوس بآسيا الصغرى مؤلفه فى نقد بعض الأعمال الأدبية الإغريقية ومؤلفه الآخر عن تاريخ روما المبكر . ومن أسبانيا قدم سينيكا الأكبر Seneca أستاذ فن الجدل الخطابى والمناظرات . كما قدم ديودوروس الصقلی Diodorus Siculus عمله النادر والشهير عن التاريخ . ومن بلاد بونطوس Pontus فى آسيا الصغرى جاء استرابون Strabo ليؤلف أكبر عمل عن الجغرافيا سجل لنا فيه معلومات دقيقة ونادرة عن بلاد حوض البحر المتوسط .

كما وجد أغسطس ارتباحا فى فيلسوف جاء من دمشق هو نيكولاءوس الدمشقى Nicolaus of Damascus فعهد إليه بالكتابة عن حياته وتربيته ونشأته .

ولكن الأرض الرومانية كانت قد أنبتت عبقریات خالدة فى تاريخ الأدب الرومانى من أمثال فرجيل وهوراس وتيبوللوس وبروبرتيوس وليفيوس . كلهم تجمعوا فى بطانة أغسطس وهلّوا لمجهودات الإمبراطور فى إحياء الفضائل الرومانية القديمة واعترفوا بفضلها فى عودة السلام والعظمة لروما . هؤلاء الرجال العظام نعرضهم بإيجاز على النحو التالى :

١ - فرجيل :

هو بوبليوس فرجيليوس مارو Publius Vergilius Maro (٩١ ق.م) شاعر الإمبراطورية الأولى . كان ابن اقطاعى من مانتوا Mantua وكانت له ضيعة فقدّها إبان حركة نزع الأراضى التى قام بها أغسطس (عندئذ اكتافيانوس) عام ٤٢ ق.م . ولكن مايكيناس تدخل ليحصل له على تعويض مالى، وكان أول عمل قدمه للناس مجموعة من المختارات Eclogae فى الشعر الرعوى الذى يتغنّى بجمال الريف وهدوءه كرد فعل لما ساد المدن من حروب أهلية وأزمات ومشاكل اجتماعية معقدة . لقد كانت دعوة مفتوحة للعودة نحو الطبيعة .

والحق يقال لم يكن فرجيل أول رائد لهذا النوع من الشعر فقد سبقه إليه شعراء العصر الهلينيّ من الإغريق خاصة شعراء مدرسة

الاسكندرية . واهم الأفكار التي تضمنتها المختارات هي تأليه يوليوس قيصر وظهوره كنجم في السماء . كما بشر فرجيل في الاكلوج الرابع بمولد المخلص الذي سوف يكون على يديه خلاص العالم من الشرور ويأتى بالسلام على الارض وبالمسرة بين الناس .

وتلى « المختارات » (أو الاكلوجات) مجموعة قصائده الخاصة بالفلاحة Georgica التي كتبها بناء على رغبة مايكيناس كدعاية لايادى أغسطس البيضاء على الفلاحة والفلاحين وكنداء للناس لكي تهجر المدن حيث المعاناة والضوضاء الى الريف حيث الارتواء في أحضان الطبيعة ، كما اشتملت هذه القصائد على ارشادات للفلاحين في فن الزراعة والحدائق وتربية النحل .

ومن الواضح ان فرجيل كان يقتفى اثر شاعر الملحمة التعليمية الاغريقى هسيودوس Hesiodos (١) الذي عاش في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد وعلى اى حال فقد ظهرت عبقرية فرجيل كشاعر اصيل استطاع ان يهضم أعمالا اغريقية ثم يصوغها بعقلية وبروح رومانية تنبض بحبه لاطاليا وحنينه الى ريفها الجميل .

اما عمله الرائع الخالد فهو الانبياءة التي ألفها في السنوات العشر الأخيرة من عمره بناء على رغبة اكتافيانوس عام ٢٩ ق.م وظل معتكفا على نظمها باحثا عن الهدوء والالهام في نابلى وريفها وصقلية ومراعيها ولكن منيته وافته وهو على وشك الانتهاء منها ولذا أوصى وهو على سرير الموت بحرقها اعتقادا بأنها لا ترقى الى المستوى الذي يريده .

تعتبر الانبياءة نموذجا للشعر عندما يوضع في خدمة الامانى الوطنية ويجسم أحلامها وكبرياءها . فهي وضعت لكي تعلن صيحة روما الجديدة ورسالتها كحاكمة للعالم كله . والملحمة الرومانية مصاغة على نهج الياذة هوميروس الخالدة عن حرب طروادة بل تكاد تبدأ من حيث تنتهى فهي تروى كيف ان اميرا طرواديا هو اينياس ابن انخيسيس هرب من المدينة المحترقة في قارب صغير حمل فيه آلهة المدينة ووالداه وراح يضرب في البحار وتعرض للمخاطر والأهوال ولكنه كان يحس برسالته الخالدة وواجبه المقدس Fides ملتزما بالتقوى الرومانية Pietas التي أوحى اليه بانشاء دولة الرومان في ايطاليا .

لقد جسد فرجيل في شخص اينياس المنل العليا التي يجب على الروماني ان يقتدى بها كما غمز فرجيل ولز ال ، سيده أغسطس الجالس

(١) وهو مؤلف القصيدة التعليمية الشهيرة الأيام و... إل.

على العرش كأنه صورة أخرى من اينياس بطل الرومان الأول في القوى والالتزام بالواجب والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الغاية الكبرى ، وكأنه يلمح للرومان بأن اينياس أوجد دولة الرومان وأغسطس أوجد امبراطوريتهم .

ولو اردنا الحديث عن الانبياء بالتفصيل لاحتجنا مئات الصفحات ولكن يكفي ان نقول انها درة الادب الروماني الخالدة . انها بناء فني رائع لمضمون فلسفي وسياسي عميق الاثر وهو ان الانسان ليس الا العوبة في يد القدر العاتى . ولهذا تقطر أبياتها واسلوبها رقة وعطفا على الانسان وقدره .

٢ - هوراتيوس (١) :

هو كونتوس هوراتيوس فلاكوس Quintus Horatius Flaccus (٦٥ - ٨ ق.م) صديق فرجيل ورفيقه في بطانة مايكيناس ولد في بلدة فينوسيا Venus-a باقليم أبوليا Apulia وكان أبوه أحد العتقاء الذين نجحوا في جمع بعض الأموال واقتناء ضيعة واستطاع أن ينفق على ابنه ويعلمه أحسن تعليم بل أرسله الى أثينا - جامعة الحضارة الانسانية حيث التقى بأبناء رجال السناتو والفرسان .

خدم هوراس في جيش بروتوس Brutus عام ٤٤ ق.م واشترك في معركة فيليبى Philippi عام ٤٣ ق.م ولما عاد الى بلده وجد ضيعته بين الضياع التي صادرها اكتافيانوس في حركة التصفية الكبرى ، فتعرف على فرجيل الذي قدمه بدوره الى مايكيناس Maecenas راعى الشعراء فرعاه وقليلًا قليلًا أخذت أحواله المالية تتحسن حتى تمكن من اقتناء ضيعة عام ٢٣ ق.م في منطقة التلال السابينية بالقرب من روما ، بينما اخذ نجمه يعلو في سماء مجتمع الآداب في العاصمة .

كان هوراتيوس على النقيض من فرجيل فبينما كان الأخير حياً خجولاً كان الأول جريئاً صريحاً ، بقدر ما مدح أصدقاءه هاجم خصومه وشهر بهم ولذا كان من أهم أعماله الهجائيات Epodes ، كذلك كتب هوراتيوس « الخواطر » (Satirae) بعد عام ١٤ ق.م حيث كشف عن نفسه كمثقف مهذب ومستنير مدرك لأخطاء الناس وشوائبهم . وبالرغم من أنه كان ابيقورى المذهب الا أنه أعجب بأفكار أغسطس عن الحياة البسيطة الفاضلة

cf. L.P. Wilkinson, Horace and his Lyric Poetry 2nd edition 1951; (١)

F. Fraenkel Horace (1957).

اللى يجدها الانسان فى الريف ولذا تغنى بالريف وجماله فى كتابه «الآغانى» Odes أو Carmina وفى نهاية حياته كتب «الرسائل» Epistulae بعد أن اشتغل رأسه شيئا ولذا جاءت أكثر نضجا من أى عمل سابق يكثر فيها من التعليق على طبيعة الانسان ويتمرنش لبعض القضايا الأدبية لقد كان هوراتيوس أمام الشعر الغنائى الرومانى ولا يأنه فى ذلك أحد سوى كاتلوس Catullus كما تحكم فى وزن القوافى وفى نفس الوقت امتلك أسلوبا حلوا ساحرا جعل منه حديث النوادى الأدبية فى الماضى والحاضر . كما أصبح هوراتيوس بعد موت فرجيل عام ١٩ ق.م شاعر البلاط واحتل هذا المنصب حتى وفاته عام ٨ ق.م .

٣ - شعراء الفزل أو الشعر الالىجى (Elegaic)

وهم كثيرون . بالرغم من جودة أشعارهم إلا أنهم ظلوا فى مرتبة ثانوية بالنسبة لفرجيل وهوراتيوس . ومن أهم الشعراء تيبولوس Tibullus (٤٨ - ١٩ ق.م) وبروبرتيوس Sextus Propertius لقد أثر تيبولوس أن يكون حرا فلم يدع نفسه يستقط أسيرا فى شباك مايكيناس . ولذا ظل مخلصا فى قلبه للنظام الجمهورى العتيق . وأحسن أشعاره تلك التى سجل فيها غرامياته وصور فيها جمال ريف إيطاليا . أما بروبرتيوس فكان غليظا قاسيا ، ألح عليه مايكيناس ليكتب أشعارا وطنية وقومية لكنها لم تصل الى الانسياب والجودة كأشعاره العاطفية فى الحب والفراق . وعلى قمة شعراء الفزل يجرى :

أوفيدىوس (٤٢ ق.م - ١٧ ميلادية) :

هو بوبليوس أوفيدىوس ناسو Publius Ovidius Naso ولد ببلدة سولمو Sulmo (٢) شرقى إقليم لاتيوم وكان ينتمى ببعكم مولد . الى طبقة الفرسان . أتم تعليمه فى اثينا ، سافر الى مقلية وآسيا الصغرى بصحبة صديقه الشاعر ماكر الصغير Macer Junior كما شغل بعض المناصب الصغيرة تولد مايكيناس برعايته فانطلق مشبدا بأغسطس وعهده .

وبالرغم من أن أوفيدىوس كان غزير الانتاج إلا أنه كان شاعرا مستهجنا جر عليه سخط القصر الجمهورى . كتب مؤلفه « تحولات الصور » (أو : مسخ الأشياء Metamorphoses) وهى مجموعة من القصص الكلاسيكية تدور حول قصص بشر تحولوا الى حيوانات وطيور

L.P. Wilkinson. Ovid Exiled (1955).

(١)

(٢) وسولمو Sulmo mihi patria est, Ovid, Tristia, 1. 2.

ونباتات بعد مسخهم ، فمثلا روى قصة تحول قيصر الى نجم في السماء .
ومن الواضح انه نهل من كنوز الاساطير الاغريقية التي أعاد شعراء
الاسكندرية صياغتها بصورة تتناسب مع افكار عصرهم .

كما كتب مؤلفه تقويم الأعياد Fasti وهو تقويم شعري للسنة
سهور الأولى من السنة الرومانية يعالج فيها موضوعات فلكية ودينية
وتاريخية أما باقى القصائد مثل قصص الحب Amores وفن العشق
Ars Amatoria الذى تتضمن نصائح لطالبى المتعة الجنسية من الرجال
والنساء ، فقد اغضبت القصر خاصة فى وقت كان فيه أغسطس ينادى
بالمثل العليا وبالأخلاق الفاضلة .

وأكثر من هذا اتهم « اوفيدوس عام ٨ ميلادية فى فضيحة تمس
القصر الجمهورى (ويقال انه كان على علاقة بجوليا ابنة أغسطس الخليفة)
فانتهر أغسطس هذه الفرصة ونفاد الى بلدة تومى Tomi على البحر
الأسود ومن هناك كتب مجموعة رسائله Epistulae وكذلك الأحزان Tristia
التي تدلل فيهما للعفو عنه أو تخفيف الحكم عليه بطريقة مهينة . كما دافع
عن نفسه مستشهدا بشعراء الاغريق وبالرغم من هذا لم يرق فؤاد أغسطس
لبكائه وشكواه فظل فى المنفى حتى مات .

٤ - كتاب النثر :

لم تكن النهضة الأدبية فى عصر أغسطس وقفا على الشعر بل شملت
النثر ايضا . وكثيرا ما قيل ان الشعر الرومانى نثر منظوم والنثر الرومانى
شعر منشور (١) ومن عمالقة النثر تيتوس ليفيوس (٥٩ ق.م الى ١٧
ميلادية) والذى كان لا يقل مرتبة عن فرجيل وهوراس . وكان امير
المؤرخين بلا منازع . ولد فى بادوا Padua ولا نعلم كثيرا عن حياته
الخاصة ولكنه نال اعجاب أغسطس بالرغم من اخذه عليه الاعجاب ببومبي
العظيم والتعاطف مع الحزب الجمهورى القديم ، واعتمد كثيرا على الاسفار
حيث جمع مادته العلمية . أعجب ليفيوس بمبادئ أغسطس خاصة
بالنزعة العاطفية الوطنية فى تمجيد روما والتمسك بالقيم والمبادئ التي
سار عليها السلف Mos Maiorum

من أعظم مؤلفاته لنا « منذ تأسيس المدينة » ab urbe condita libri

(١) cf. P.G. Walsh : Livy his Historical Aims and methods, London 1961.
Suetonius, Divus Augustus, 28, 2-4.

وفيه روى ملحمة روما التاريخية منذ نشأتها . حتى وصلت الى ما وصلت اليه في عهده . ويعتبر البعض هذا المؤلف انيادة اخرى ولكن منشورة لانه يتفننى بالمبادئ التى قادت روما لتأخذ مكانها بين السحاب مبالغا فى وصفه حتى أن بعض المؤرخين اعتبروا ذلك خروجا عن التقليد التاريخى ، والحقيقة أن ليفيوس لم يكن يهدف الى كتابه مادة تاريخية بالدرجة الاولى بقدر ما كان يهدف لعمل أدبى يتمتع به الرومان ويتملق فيه عواطفهم . وقيل أن هذا المؤلف بلغ مائة واثنتين وأربعين كتابا لم يصل ائينا منها سوى خمس وثلاثين كتابا فكيف نحكم على عمل فقد منه ثلاثة ارباعه ؟ .

المهرجانات المئوية :

كذلك عنى الامبراطور باحياء المهرجانات العامة وخادمة المهرجانات المئوية *ludi saeculares* . والتى اعتاد الرومان أن يحتفلوا بها كل مائة عام . وكان الرومان قد هجروا هذا العيد أثناء الحروب الأهلية ولكن الامبراطور أعلن أن عام ١٧ ق.م هو عيد مرور مائة عام على آخر مهرجان اقيم وكبداية لحقبة جديدة وأكثر من هذا أن الامبراطور غير فى جوهر المهرجان فبدلا من أن كان وقفا على آلهة العالم السفلى أصبحت تقام على شرف أبوللو وديانا . وأصبح المهرجان عبد شكر لأبوللو لانقاذ روما والاخذ بيدها من الهاوية الى طريق الأمل والسلام وقد شاركت كل اقاليم ايطاليا فى هذا المهرجان لمدة ثلاثة أيام . ومن أهم شعائره تقديم القرابين الى أبوللو فى معبده الجديد على تل البلاتين بجوار القصر الامبراطورى . بينما يصطف « كورال » من الفتيان والفتيات ينشد النرايم المقدسة *Carmen Saeculare* التى ألفها هوراتيوس خصيصا لهذه المناسبة . وبالطبع استطاع أغسطس أن يبت أفكاره عن طريق القدسية الى اولادها ليبدأ المهرجان وعن طريق الشعائر الدينية والترانيم المقدسة .

وكما رأينا كان أغسطس يشجع على تشبيه نفسه بالاله أبوللو المنقذ ولم نجد الدعاية الأوغسطية فرصة خيرا من التجمهر وترتيل الصلوات المنظومة وتقديم الاضاحى لبث أفكارها وتنفيذ أغراضها .

قضية الخلافة على عرش أغسطس :

من الناحية النظرية والاسميه فام حكم المواطن الاول *Princeps* على قوة السناتو الدستورية والتشريعية وعلى أكاف الشعب الرومانى والذى منهما اسنمد المواطن الاول شرعية سلطته . وبالتالي فقد كان من المفروض أن يتولى السناتو مهمة البحث عن خليفة لأغسطس . كما كان من حق أى

فرد من الشعب خاصة اذا كان من بين اسباط الشيوخ الجمهوريين
القدماء أن يتقدم لشغل هذا المنصب وكان بينهم بالفعل من هو على
استعداد أن يفعل ذلك اذا وجد الأمان .

ومن الواضح ان الامبراطور العجوز أدرك ذلك وخشى أن يؤدي
التنافس الشديد بين مدعى الأحقية الى انفجار صراع دموى يعود بروما
الى الأيام السوداء أيام سوللا وماريوس وبومبي وقيصر وانطونيوس .
فحرص على أن يحسم هذا الأمر بنفسه حتى يموت وهو مرتاح الضمير
هادئ البال مطمئن على مستقبل الامبراطورية (١) .

لقد علمته الأيام والتجارب أنه لابد وأن يختار خليفته من بين أسرته
لأنه لم ينس أنه دفع ثمن اختيار يوليوس قيصر خليفة له بالسيف والدم ،
ببرحمة وبالقسوة . باللين والشدة . وعانى في سبيل اثبات بنوته جل
عمره . لقد كانت قضية الخلافة هي شعلة النساغل . وهمه بالليل وجوهر
سلوكه بالنهار . فقد كان معتل الصحة منذ صباه لا يكاد يشفى حتى
يدهمه المرض بشراسة من جديد وكثيرا ما توقع الموت في أى لحظة .
ولذا حرص منذ أيامه الأولى على العرش - أن يصاهر من ذويه من آل
يوليوس قيصر ومن كبار الأسر الرومانية طمعا في أن « يفرخ » جيلا
يستطيع أن ينتقى منه الخليفة الصالح . ويعتبر النقاد هذا خروجا على
أنورة الرومانية التي كرس حياته من أجلها والتي عملت على فتح الطريق
الى الحكم لكل قادر عليه بعد المرور في رحلة وظائف طويلة أو ما يسمى
بسلك المناصب *Cursus honorum* ، وشاء القدر أن يسخر من حسابات
الامبراطور الدقيقة ، فالبرغم من اعتلال صحته وشيخوخته إلا أنه كان
أطول عمرا من هؤلاء الشباب الذين « فرخهم » ورباهم لهذا الغرض ،
ودفنهم واحدا وراء الآخر في حين أنه كان يظن أنهم هم الذين سوف
يشيعونه الى مثواه الأخير . وكانت النتيجة أن القدر كان يقلب مخططة
راسا على عقب في كل مرة يتساقط فيها الورثة كأوراق الخريف تحت
أقدام شجرة عجوز . ولنلقى نظرة على الذين رشحهم الامبراطور للحكم
واختارهم القدر للقبر في ريعان الشباب :

١ - ماركوس ماركللوس : Marcus Marcellus

نحن نعرف أن أغسطس حرم من نعمة أنجاب ولد ذكر يخلفه ، ولم تكن
له سوى ابنة واحدة من زوجته الثانية *Scribonia* وكان اسمها جوليا
الكبرى ، ولكنه عندما تزوج من ليفيا دروسلا *Livia Drusilla* عام ٣٨
ق.م كانت العروس أما لفتى في الرابعة والعشرين من عمره وحاملا في

أشهرها الأخيرة إذ وقعت بعد أيام قليلة من زواجها الجديد ابنها الثاني من زوجها الأول وكان اسمه دروسوس Drusus ، ومن الغريب أن أغسطس لم يفكر في بادئ الأمر في أي من هؤلاء . وربما أراد في ذلك الوقت أن يقلد يوليوس قيصر في طريقة اختياره له ، وتبنى أغسطس ابن اخته اكتافيا والذي كان يسمى ماركيللوس ، ورعاه وأشرف على تعليمه بل وزوجه من ابنته جوليا اللعوب عام ٣٥ ق.م . وكان وقتئذ في الثامنة عشر من عمره . وفي العام التالي ساعده في الحصول على مقعد في السناتو ، وفي عام ٢٣ ق.م . عينه رقيباً حالياً aedile (أي ايديلا) لكي يشرف على المهرجانات الشعبية وأوصاه أن ينفق ببذخ حتى يكسب رضا الناس وحبهم (كما فعل أغسطس نفسه يوماً ما) وبالفعل قام ماركيللوس بتغطية الفورم بالخيام لحماية الناس من الشمس المحرقة . كما عين راقصة وفارس لتسلية الجمهور ، ولكن لم يمض عام على الفتى في هذا المنصب حتى سقط في ظروف غامضة فريسة لمرض غامض . وقد حاول حبيب أغسطس الخاص أنطونيوس موساس أن ينقذ حياة ماركوس عن طريق حمامات المياه الباردة والساخنة ولكن ذلك لم ينقذ الصبي من الموت . وقد حزن أغسطس حزناً شديداً وأمر بأعداد جنازة رسمية له وأن يدفن في الضريح الذي بناه أغسطس لنفسه . وكرمه بأن أطلق اسمه على المسرح الذي بناه الصبي قبل موته ، وأمر بصنع تمثال تخليداً له . عندئذ لجأ الامبراطور بقلب مكلوم الى أقرب الناس اليه ، وحتى قبل موت ماركيللوس كان أغسطس يفكر في صديقه ورفيق كفاحه الجنرال المخلص الأمين أجريبيا أملاً في أن يكون خليفته . ومن ثم زوجه أرملة ماركيللوس . وزفت جوليا الى الجنرال . وفي عام ٢٣ ق.م . عندما اشتد على أغسطس المرض وكان في هذه المرة شديداً ، وتوقع الناس موته ، بل أنه جمع مستشاريه حول سريره وناقش معهم وضع الامبراطورية السياسي والعسكري ، ثم أمر بتسليم بيسو شريكه في قنصلية هذا العام الدفاتر الخاصة بالقوات والمدفوعات الخاصة بهم ، ثم سلم ختمه الخاص الى أجريبيا بمثابة اعلان للخلافة رغم أن ماركيللوس كان لا يزال على قيد الحياة ، مما دعا الناس الى التساؤل والدهشة ، ولكن يبدو أن أغسطس لم يثق في شخص واحد للخلافة بل ترك الفرصة دائماً لبديل أو منافس آخر . فمثلاً عندما فكر في ماركوس ماركيللوس فكر في أن يكون معه أجريبيا ، وعندما فكر في تيبيريوس فكر في نفس الوقت في حفيده جايوس ولوكيوس قيصر ، وعندما مات الحفيدان أجبرا أغسطس خليفته تيبيريوس على تبني جرمانيكوس ابن دروسوس ابناً له . ولكن بفضل مهارة طبيبه الخاص شفى الامبراطور من المرض . وفي عام ١٨ ق.م . منح أجريبيا

سلطة الامبريوم البرفرنصلى . وسلطة نقيب العامة *tribunicia potestas* لمدة خمس سنوات أخرى وهى نفس السلطات التى كان يتمتع بها أغسطس نفسه ، ثم جددت هذه السلطات مرة أخرى عام ١٣ ق.م . ومن المحتمل أن يكون أجريبا قد حمل سلطة الامبريوم الأعلى *Imperium maius* مثل أغسطس تماما . ولكن الآمال انهارت عندما رحل أجريبا فجأة عن الديار عام ١٣ ق.م وورث أغسطس أجريبا بدلا من أن يرث أجريبا أغسطس ، وحزن الامبراطور وبكى بحرقة على جنراله الراحل وأمر بدفنه فى الجبانة الامبراطورية *Mausoleum imperiale* ونقل أغسطس أبناء أجريبا من ابنته جوليا الى منزله وهم جايوس قيصر ولوكيوس قيصر . وبعد ايام وضعت ابنته طفلا ذكرا آخر سمى بأجريبا اليتيم *Agrippa Postumus* وكانت جوليا قد أنجبت كذلك من الجنرال بنتين هما أجربينا وجوليا الصغرى باسم أمبا (ومن العجيب أنها سلكت سلوكها الشائن فحق عليها ما حق على أمبا ونفيت فى احدى الجزر المقفرة فى البحر المتوسط) .

٢ - تيبريوس : *Tiberius*

وبعد موت أجريبا اتجهت انظار أغسطس الى ابن زوجته تيبريوس وكان قد أثبت كفاءة نادرة الحرب فى نوريكوم *Noricum* (جنوب نهر الدانوب) واقتنع بأنه خير من يصلح لوراثته ، ومن ثم فقد أرغمه على طلاق زوجته التى كان يحبها وكان اسمها فبسانيا أجربينا (وهى ابنة الجنرال أجريبا من زوجته الأولى بومبونيا *Pomponia*) والنسب أنجبت له ابنا هو دروسوس الأصغر والذي سمى على اسم عمه دروسوس قاهر الألمان *Germanicus* . وعلى أى حال قيادت جوليا زلمرة السالمة الى بيت تيبريوس ، عروس عابثة الى عريس كارد ، اذ لم يكن تيبريوس سعيدا بجوليا ذات السلوك المستهتر والسمعة الملطخة (١) ، وكالعادة تلى الزواج الترقيات فعين نيبريوس قائدا عاما للقوات الرومانية فى الليريا وفى العام السادس ق.م منحه سلطة نقيب العامة *tribunicia potestas* لمدة خمس سنوات ثم أرسله فى مهمة دبلوماسية الى الشرق خاصة ان تيبريوس كان قد ضاق ذرعا بسلوك جوليا ولم يعد يحتفل العيش معها تحت سقف واحد ، ومما زاد صدره ضيقا أنه لاحظ اهتمام الامبراطور الغير عادى بحفيديه لوكيوس قيصر وجايوس قيصر (أبناء جوليا من أجريبا) اذ أنه تولى رعايتهما بنفسه وأشرف على تعليمهما فظن تيبريوس أن زوج أمه يعمل على اعدادهما لخلافته ، فانسحب من تلقاء نفسه كنوع

(١) ولقد اختزن تيبريوس فى نفسه هذا الظلم لأنه كان مولما بزوجه التى أجبر على طلاقها وهى حامل وربما كرر أغسطس ما فعله مع أبيه عندما أجبره على طلاق أمه أيضا لبزواجها هو بنفسه وكانت حاملا بينما كان هو فى الرابعة والعشرين عمره .

من الاحتجاج الهادىء واقام فى جزيرة رودس وظل معتكفا هناك منهما
فى القراءة والتأمل من عام ٦ ق.م حتى عام ٢ بعد الميلاد .

٣ - جايوس ولوكيوس قيصر :

كانا قرّة عين جدهما الامبراطور وبقدر ما كره امهما جوليا بقدر
ما احبهما فبعد موت أبيهما أجريا تقايما الى القصر حيث عنى بتربيتهما
واولادهما عناية خاصة . ولما شبّا عن طوقهما احتفل باليوم الذى بلغ فيه
كل منهما مبلغ الرجال أى ارتداء عباءة الرجال لأول مرة *toga virilis*
فمثلا احتفل بعيد بلوغ جايوس عام ٥ قبل الميلاد وبعيد بلوغ اخيه
لوكيوس عام ٢ ق.م . وقد أعلن الامبراطور احتفاله بهاتين المناسبتين ان
تولى بنفسه القنصلية الذى عزف عنها اكتفاء بمركزه كمواطن أول متميز
بالامبريوم الأعلى *Imperium maius* ؛ كما عين كل منهما بدور
رائدا للشباب (١) *princeps inventutis* ووضعاً على رأس قائمة
المرشحين لدخول طبقة الفرسان ؛ كما أعفاهما من شرط المرور بسلك
الوظائف الرومانى الطويل . كما استثناهما من شرط السن لكى يمكنهما
من الترشيح لوظيفة القنصل وهما فى سن العشرين .

وفى العام الاول بعد الميلاد أرسل جايوس الى الشرق مدعماً بسلطة
الامبريوم البروقنصلى لتدليل بعض المصاعب وقمع بعض أعمال الشغب
فى ارمينيا ، وهناك فى قلعة صغيرة حوصر وظل يدافع عنها حتى
سقط جريحاً وما لبث ان مات متأثراً بها عام ٤ ميلادية . وكان القدر
قد كال ضربة أخرى لأغسطس عندما أصيب لوكيوس بالحمى وهو
عائد من اسبانيا وسرعان ما وأفته المنية فى العام الخامس الميلادى ودفن
أغسطس بقلب ممزق أمله العزيز والغالى .

فى هذا الوقت لم يعد أغسطس يطبق السكوت عن سلوك ابنته
الشائن مع عدد من الرجال ؛ لأنه رأى ذلك وصمة عار عليه وهو المنادى
بالاحياء الدينى والاخلاقى للرومان ، فأمر بنفيها الى جزيرة مقفرة
وصخرية فى البحر المتوسط هى جزيرة بانداتاريا *Pandataria*
ونفى عدداً من عشاقها الرجال من بينهم الشاعر الخليع أوفيد . بل أعدم
أحدهم عام واحد ميلادية بتهمة التآمر والخيانة العظمى .

واخيراً تيبريوس مرة أخرى :

وبعد موت جايوس ولوكيوس قيصر تدخلت ليفيا لاعادة السلام بين

ابنها الفاضل تيبيريوس وبين زوجها أغسطس . واقنعنه بأنه لم يعد له سواد يخلفه . بل أن الساعات عمت روما ولفطت اللسن بالحديث عن دور ليفيا (١) في مؤامرة لصفية حفيدى الامبراطور لكى تفسح الطريق لابنها الأكبر لتولى العرش .

وسر أغسطس لعودة تيبيريوس . وأعلن عن تبنيه له بشرط ان يتبنى بدوره ابن أخيه الملقب جرمانيكوس والذي ورث هذا اللقب (ومعناه قاهر الجرمان) عن أبيه دروسوس الأكبر شقيق تيبيريوس والابن الاصغر لليفيا من زوجها الأول . وبالفعل فعل تيبيريوس ذلك ثم اصطحب جرمانيكوس معه فى حملة تآديية ضد أهل بانونيا عام ٤ ميلادية .

وفى نفس الوقت تبنى أغسطس الابن الوحيد المتبقى من أولاد جوليا وأجريا وهو « أجريا البتيم » وكان قد كبر وأصبح فتى رياضيا منعمًا . وسيمارقيقًا . ولرقتة كرهه أغسطس وأبعده . وتحت تأثير ليفيا صدر قرار من السناتو بإبعاده نهائيا عن البلاد عام ٧ ميلادية . وما أن مات أغسطس حتى نفذ فيه حكم الاعدام البارد عندئذ دار الهمس مرة أخرى عن دور ليفيا فى هذه المؤامرة البشعة .

وعلى أى حال انعم الامبراطور على تيبيريوس بعد تبنيه بسلطة التربيونية مرة أخرى عام ٤ ميلادية التى جددت عام ١٣ لمدة عشر سنوات أخرى ؛ كما أشركه معه فى القنصلية ومنحه سلطة الامبريوم الأعلى . وكان أغسطس قد أصبح وقتذاك كهلا ينتظر الموت .

وبالرغم من تدعيمه لمركز تيبيريوس كخليفة له إلا انه كان محطم الشخصية بسبب الاذلال من جانب أغسطس له وبسبب طغيان شخصيه أمه المسيطرة . كما كان محروما من الهالة المقدسة التى كمن يتمتع بها أغسطس . هكذا وأخيرا اطمأن فؤاد أغسطس لوجود وريث يشغل مكانه .

(١) اتهمت الساعات ليفيا بانها وضعت السم لزوجها أغسطس ولماركلوس وجايوس ولوكيوس قيصر وأجريا البتيم وأخيرا جرمانيكوس لأنهم كانوا يقفون فى طريق ابنها تيبيريوس للوصول الى عرش الامبراطورية . ولكن مثل هذه الاقاويل التى ذكرها تاسيتوس جمعها من مصادر معادية ومن تم فى افتراء عليها بالرغم من أن ليفيا مارست نوعا من السيطرة على أغسطس بحكم جمالها وذكائها وليس من المسبعد أن تكون قد وقعت مع ابنها تيبيريوس بخصوس العرش انظر :

H.H. Seullard, op. cit., p. 236 and p. 434.

في التاسع عشر من شهر أغسطس عام ١٤ ميلادية مات أغسطس على سريرته قريح العين مرتاح الفؤاد بعد حياة حافلة بالمقامرات والمؤامرات وبالهنائم والانتصارات وبألها من رحلة عمر طويلة !

خامسا - تعليق أخير على أغسطس :

نستطيع أن نقول « إن أغسطس قد نجح في رسالته لأنه امتلك جهازا قويا للدعاية والتشهير السياسي وتسيير الرأي العام الروماني حسب هواه كما أن دعايته قد أحسنت وسائلها .

فقد ظل أغسطس يتمتع برهبة وقديسية لم يتمتع بهما أحد من قبله ولا بعده لآخر أيامه : فمثلا في عام ١٤ ميلادية أي قبل موته بأيام كان يبحر على ظهر يخته الخاص من ميناء بويتولي Puetoli في آخر رحلاته الصيفية عندما تصادف دخول سفينة تابعة لتجار من الاسكندرية وما أن شاهد بخارة السفينة المصرية الامبراطور حتى جثوا خاضعين رهبة واجلالا . تم اوقدوا بخورا مقدسا كما كانوا يفعلون في محراب آلهتهم ، ورفعوا عقيرتهم بالتهليل والصلاة للمنقذ والمخلص ومحقق السلام ، واصلوا أنهم ما كانوا ليجروا آمنين الا بفضل هذا العاهل الكبير فهو الذي زرع السلام الروماني وهامهم يجنون نثاره : السلام والحرية (١) وحتفوا قائلين : « يا من خلاله نحيا وخلال له نبحر ومن خلاله نتمتع بالحرية والرخاء » .
“per illum se vivere, per illum navigare, libertate a’que Fortunis per illum Frui”.

لقد عمر أغسطس طويلا لدرجة أن نظام حكمه بدا كما لو كان قائما منذ تأسيس المدينة . وبالرغم من هذا فقد استطاع بإدارته الحازمة أن يسير شئون الدولة جيدا وبكفاءة منقطعة النظير سواء في روما أو في أقاليم إيطاليا ، بل وفي كافة الولايات التابعة للامبراطورية . ولذا أحبه الشعب الروماني بكافة طبقاته . فالبروليتاريا الرومانية كانت تنعم برخاء الحال ، أما بقايا الرعي الأول من المحافظين فقد أحسوا بالندم على العمر الذي ضيعوه في خدمة السناتو ومعاداة أغسطس (٢) . أما الفرسان فجعلهم عصب الامبراطورية وجهازها الفعال .

(١) ويقول سويتوبيوس أن أغسطس سر من سلاة الحارة السكندريين وأمر باعطاء أربعين قطعة من الذهب لكل واحد من رفاهه فوق اليخت وطلب منهم أن يشتروا بها بضائع سكندرية انظر :

Suetonius, Divus Augustus, 98.3.

Tacitus, Annales, I, 1-4

وبالرغم من هذا لم تخل اصلاحات أغسطس من الأخطاء العفوية .
أذ تحول نظامه بحكم طول شغله له الى حكم شبه انفرادى autocracy
وكان دعوة لخلفائه في ان يتبعوا خطاه . وبالتالي فان السلطة لم تعد قائمة على
السنانو بل في أيدي الأباطرة ؛ ووجد السنانو — الشريك أساسا في حكم
البلاد — نفسه عاطلا ، وتلاشت أهميته قليلا قليلا حتى أضحي صوريا
يجتمع للموافقة الشكلية على القرارات الامبراطورية لو تفضل هو بذلك .
ولم تقم للشيوخ قائمة بعد ذلك ، ولم يعد السنانو كما كان قديما مدرسة
لتخريج السياسيين الأكفاء ؛ واكثر من هذا فقد دفعت روما ثمن وضع
مصريها في كفة رجل واحد ؛ وراحت تدفع ثمن أخطائه وشذوذه بعد ان
حرمت من فائدة حكم الثوري والمنافسة والجدل وتقليب الامور على
وجوهها فكثرت الأخطاء بعضها انزل مصائب فادحة بالبلاد .

كذلك ادى احتكار الامبراطور لكل الامور الداخلية والخارجية الى
تواكل الرومان فلم يعودوا يشاركون بكفاءاتهم بل انصرفوا الى الانشغال
بأمورهم الشخصية وكان الامبراطورية ليست لهم ، بل للامبراطور وحده
الذي يسيرهم بأوامره .

كذلك ادى اعتماد أغسطس أساسا على القوات المسلحة في حسم
الامور الى مضاعفات خطيرة مثل غرور الجيش بأهميته وبنفسه لدرجة
انهم احسوا بانهم هم صناع الأباطرة Emperor' makers وتدرجيا
اصبحت الثكنات اقوى من ردهات القصر ، وكثيرا ما حكم بعض الخلفاء
من الثكنات .

وكذلك ازدادت قوة الحرس البرائتوري Praetoriani واصبحوا
يقتلون الأباطرة ويعينون غيرهم ويعرضون العرش لمن يدفع اكثر ، بل اخذوا
يصورون للأباطرة وجود مؤامرات لاغتيالهم فتواري الأباطرة عن الانظار
في حين تولى قادة الحرس الامبراطوري العرش ؛ بل واصبح هذا المنصب
هو الخطوة الأخيرة نحو العرش ، وبدأت رعوس الأباطرة تتدحرج !! في
مؤامرات من صنع قادة هذه القوات التي صنعها أغسطس .

Ibid., 2-4.

(١)

ومن الجدير بالذكر ان بيوري يرى ان نظام أغسطس لم يكن سوى مرحلة من المراحل
التي مرت بها الامبراطورية التي يرى انها قامت منذ عهد يوليوس قيصر . ويعرف بيوري
مرحلة أغسطس بانها عصر الحكم الثنائي dyarchy بين الامبراطورية والسنانو ، ثم
تدهورت سلطة السنانو ووهنت أمام تزايد سلطات الامبراطور حتى ضعفت تماما في عهد
أغسطس ثم ظهرت المرحلة الثالثة والأخيرة وهي تركز السلطات كلها في شخص الامبراطور
وحده حتى أصبح هو مصدر القوانين ونفسا للدولة انظر :
Bary, op. cit., p. 14-15.

كذلك أدى وجود القوات بعيدا عن الوطن الى ازدياد الهوة بين العسكريين والمدنيين لأن الشعب لم يعد يرى الجنرالات يدخلون ويخرجون وضاع الانحياز بين الجيش والشعب . كما ساد احساس بكمالية العمل في الجيش والتهرب من الخدمة فيه ، بينما أدرك الإطاليون أهميته فتدققوا عليه حتى ملأوا صفوفه على كره من شباب الرومان . وبدأت الامبراطورية تعاني من النقص في التجنيد في نفس الوقت الذي حدثت فيه جفوة بين الجيش والشعب .

وأخيرا يرى بعض النقاد « أنه بالرغم من الاصلاحات السياسية والادارية والاجتماعية التي قام بها أغسطس الا أنها لم تمس جوهر المشكلة ولم تهز أعماق المجتمع الروماني ، بل كانت سطحية ، اذ ظل حكمه يعتمد على تأييد الطبقات الغنية الارستقراطية التي قام بثورته اساسا لتصفيتهم ، وظلت هذه الطبقات تنعم بحياتها التقليدية دون ادنى تدخل من الامبراطور ، فزاد خطرها وكبرت اظافرها ، وأكثر من هذا شجع الامبراطور هذه الطبقة على تجديد شبابها واعتمد على الصفوة المختارة منهم مثل لوكيوس سستيو Lucius Sestius الذي كرمه ووثق فيه ربما تماشيا مع سياسة الامبراطورية في العالم الهليني ، كما كان « السلام الاجتماعي » فرصة للأغنياء لكي يزدادوا غنا اذا استغلوه في تنمية ثرواتهم عن طريق التجارة ، هكذا تذوق الجميع طعم السلام ولكن الذي استفاد منه ماديا فئة قليلة اما غالبية الشعب فراحت تنعم بالحرية الشكلية وبالقمح الرخيص (١) ، ولما كان خبزها كفاف يوما فقد كانت سريعة التأثير بأدنى أزمة اقتصادية أو ضرائب جديدة . وهذا ما حدث بالفعل في عصر خلفاء أغسطس .

ولد أوكتافيوس أغسطس عام ٦٣ ق.م وهو نفس العام الذي شهد مؤامرة كاتيلينا للاستيلاء على الحكم ونجاح شبشرون في القضاء عليها ، وكان أبوه ينتمي الى الطبقة البرجوازية التي شقت طريقها بصعوبة في عالم الارستقراطية ، ولم يستمتع بأبيه كثيرا فقد مات وتركه لأمه ، التي تزوجت من أحد الأغنياء ليربيه ويشرف على تعليمه ، حيث تلقى أوكتافيوس تعليما اغريقيا ، ومن ثم كان يتحدث الاغريقية ولكن بركاكة ، كما أدى ذلك الى تعاطفه مع الحضارة الاغريقية والاغريق ، بقدر تعاليه على الحضارات الشرقية ، فقد رفض مثلا وهو في مصر ان يزور منف ليتفرج على عجل أبيس مبديا احتقاره لعبادة الحيوانات (٢) .

(1) Tacitus, Annals : I, 1-4.

(2) Suetonius : Divus Augustus

وعند . جاء الى ايطاليا عام ٤٤ ق.م جاء وهو لا يملك . . .
السياسة شيئا سوى وثيقة تبني يوليوس قيصر له ، ولم يكن معه أحد
سوى رفيقه وصديقه الجنرال اجريبا ، وقد نصحه زوج أمه أن ينشئ
النظر عن السفر الى روما ومنافسه ماركوس انطونيوس في زعامة الحزب
القيصري . ولكن الفتى الطموح الكثير التأمل والتفكير اصر على السفر
وشق طريقه الى السلطة مهما كلفه ذلك .

لقد تعرض اوكتافيوس لحملة من التشهير والمعايرة من جانب
انطونيوس والارستقراطيين عاينوه فيها بأصله الاجتماعي الوضع ، فاتهمه
انطونيوس في إحدى رسائله له بأن جده لأمه افريقى الأصل وأنه كان عطارا
ثم خبازا في مدينة اريكا . وأن جده لأبيه كان صرافا ومرايبا (١) ، ولكنه
صمد لهذه الحملة المسعورة لأنه كان طموحا . بارد التفكير . يحسب لكل شيء
حسابا ، حريصا في تصرفاته كجرح الفلاح الايطالى ، كما كان فولاذى
الارادة ، قويا لا ينثنى عن عزمه . كما كان معنزا بمبادئه الريفية مؤمنا
برسالة ايطاليا ومجد روما واستطاع في ظرف ثلاثة عشر عاما وبعد أن خاض
خمس معارك ضارية (٢) أن يصل الى القمة وحيدا لا ينالها فضل تصيده
لاخطاء أعدائه .

كان اوكتافيوس أغسطس مجموعة من المتناقضات فقد كان
قاسيا صارما مع أعدائه ، بشعا في انتقامه ، فبعد سحقه لقتله يوليوس
قيصر من الجمهوريين في فيليبى أمر بقطع رأس بروتوس وارسالها الى روما
لتلقى أسفل تمثال يوليوس قيصر ، وعندما ركع أحد الأرستقراطيين
يستعطفه أن يدفن جثمانه بعد تنفيذ الاعدام فيه أشاح عنه بوجهه قائلا «ان
الطيور سوف تحل هذا الموضوع » . وبعد سحقه للثورة في بروسيا والتي
تزعمها لوكيوس شقيق انطونيوس كان يعجيب على توصلات العطف بكلمة
واحدة هي « يجب أن تموت ! moriendum es » بل أنه في فكر
يوماما في تدبير اغتيال انطونيوس ذاته .

لكنه كان يظهر الرحمة والعفو في حالات كثيرة مع أعدائه عندما علم
بأن كليوبترا قد انتحرت بلدغة الكوبرا بذل جهدا لعلاجها . ولما فشل العلاج

Suetonius, Div. Aug. 4. 15.

(١)

(٢) وهى معركة موتينا عام ٤٢ ق . م (ضد ماركوس انطونيوس من اجل السناتو)
تم معركة فيليبى عام ٤٢ ق . م ضد السناتو وقتله ابيه يوليوس قيصر ، وقد انعقد في هذه
المعركة مع انطونيوس بعد التصالح معه ، ثم معركة بروسيا عام ٤٠ ق . م ضد البربر الملك
الايطاليين الذين تمردوا عليه بتحريض من فولفيا زوجة انطونيوس الاولى وشقيقة يوليوس
انطونيوس ، تم معركة صقلية ضد سكستوس بومبي عام ٣٦ ق . م واخيرا معركة اكتيوم
ضد انطونيوس وكليوبترا وذلك عام ٣١ ق . م .

اعلن أنه برىء من تهمة موتيا ، وأمر أن يدفن العاشقان في القبر الذي اعداده لنفسيهما قبل موتتهما . ورغم أنه فنك ببطليموس قيصرون ، إلا أنه احتضن أبناء كليوباترا من أنطونيوس وأشرف على تربيتهم كما لو كانوا أبناءه .

لقد كان اكتافىوس أغسطس رغم هذا مرنا ، قادرا على تكييف نفسه حسب الظروف ، ولهذا لم يكن أحد يقدر على التكيز بما يفعل خاصة أنه كان ثوريا ، لا يرتبط بعهد ولا يقيم وزنا للمبادئ أو يلتزم بالتسلسل المنطقي للأشياء ، كما كان نهازا للفرص السياسية ، يستغل بمهارة أخطاء أعدائه كما فعل مع غريمة أنطونيوس ، وكان شديد الأحساس بالتحدي عنيدا ، فمثلا عندما دمر هياج البحر أسطوله وهو يحارب سكستىوس بومبى صرخ قائلا « سوف أحرز النصر رغما عن أنف نبتون ! (رب البحر) »

وعموما كان يجمع بين التهور والغموض والحذر ، وربما يشرح ذلك اختياره لرمز أبى النول لأختامه الخاصة . وكان أبو الهول رمز الغموض والأسرار التي لا يجرؤ أحد على حلها . أو سبر أغوارها ، ثم عدل عن ذلك واستبدله بصورة الإسكندر الأكبر مثله الأعلى . ولكن يجب أن نفرق بين الشخصيتين . فبينما كان الإسكندر الأكبر يجمع بين الخيال الحالم والواقع العملى ، كان اكتافىوس واقفيا حذرا حريصا ، كما كان يتقبل النصيحة بصدر رحب ولا يستبد برايه . لكنه كان مثل الإسكندر سريع الغضب والأنفعال .

كان أغسطس أيضا برغم ضعف بنيته واعتلال صحته ، قوى الشخصية . فولاذى الإرادة ، قادرا على تحمل المتاعب ، بسيطاً في حياته . في ملبسه وطعامه ، فقد كان اثاث منزله بسيطا للغاية ، وكان يفخر بأنه يتناول طعاما بسيطا كقطعة من الخبز مع بعض التمر أو العنب . ولما وصل الى ذروة الحكم وجد نفسه مرهقا ومريضا يحيط به «أعوان» اقوياء واوفياء استطاع أن يوحد شملهم ، كان في حاجة اليهم بقدر ما كانوا في حاجة اليه ، كما وقفت من ورائه زوجة قادرة وذكية وجنرال مخلص وقادر . كل هؤلاء عملوا معه كفريق واحد ناكرين ذاتهم ناسيين كل أعمالهم للامبراطور العظيم والمنقذ المخلص مفجر الخير والبركات .

لم يرتكب أغسطس عملا واحدا غامرا فيه . وكانت نصيحته الدائمة لمعاونيه تلك الحكمة الإغريقية « أسرعوا ولكن بشاء (Speude Bradeos فكانت تلك سياسته سواء في الداخل أو الخارج ، مع الجنائز أو ... » . فقد شمس أغسطس روحه فأصبح في نظر الناس

مجموعة من المثل العليا والأخلاق . وفى عهد . قدست الأمانى الوطنية لار مرة فى شخص الربة روما الاوغسطية» كما كان يهتم بمنظره جيدا وبالمسورة التى يظهر بها وهى صورة الوجيه المفكر المحمل بالمسئولية والمقدر لها .

لقد كان اغسطس خادما روما وسيدها (١) . فقد قال « لقد تساءلتها مينية من الطوب وتركتها مبنية من الرخام » *laterciam accepi* ، وحتى آخر أيامه ظل ممثلا سياسيا رائعا متيما بالدراما السياسية يوحى الى أصدقائه بما يريد ، فمثلا عندما قدم أحد خصومه القدامى من الجمهوريين اقتراحا بمنحه لقب أبو الوطن *Pater patriae* وذلك فى العام الثانى قبل الميلاد تقدم الى المنصة ليتقبل القرار وعيناه مغرورتان بالدموع بالرغم من أنه هو الذى أوحى بهذا القرار . كما كان قوى الشخصية حتى بدى للذين كانوا يعملون معه كما لو كانوا اقزاما بالنسبة له ؛ ولكن حياته لم تكن لنفسه ؛ بل لروما (٢) أن حياته الخاصة كانت مقبضة وحزينة . وربما احسن بذلك وهو على فراش الموت . اذ دعى بمرآه نظر طويلا فيها ، ثم نظم سندانه وشعره وراح يتفحص آثار معركة الحياة على تقاطيع وجهه وفجأة سأل الحاضرين « هل لعبت دورى جيدا فى هذه الميزلة الكبرى ؟ » . ثم ردد عليهم آياتا من الشعر الاغريقى كان الممثل الهازل عادة يختتم بها دوره طالبا من الحاضرين أن يصرفوه بالتصفيق اذا كان قد أجاد دوره . وبينما راحت زوجته ليفيا تهطله بقبلايتها المحمومة سمع صوته الأخير يقول لها

Livia, nostri coniugu memor Vive, ac vale.

« يالفا . . عيشى تذكرين زواجنا . . ووداعا » (٣) .

(١) بالرغم من أنه كان يكره أن يلقب *Dominus* أى الرب أو المولى لأنه كان اللقب الذى اعتاد العبد الرومانى أن يخاطب به سيده . وحدث ذات مرة أن دخل المسرح أثناء عرض احدى المسرحيات وكان الممثل الاول فى تلك اللحظة يقول عبارة هى « يامولاي العادل الرحيم *Dominum aequum et bonum* وانجه الى اغسطس الذى اشاح بيده غاضبا خاصة بعد أن صفقت الجماهير . وفى اليوم التالى اعلن استنكاره لما حدث *Suetonius, ibid.* 53,2. ومن المعروف أن كاليجولا اول من قبل اللقب ثم فرضه دوميتيانوس بالامر .

(٢) قال جوفينال ملمحا بذلك .

حتى «ابطاليا» لم تعد نفسها بل شبيهة نفسها .

tam similis sibi nec Ipsa (L 109).

Suetonius, Tiberius, 59.2.

(٣)



النسخة الرسمية من تماثيل أغسطس
التي انتقاها لتقام على طول
الامبراطورية وعرضها

هكذا انتهت حياة الرجل العظيم والذي يمثل كفاحه وذكائه استطاع وهو في الرابعة والثلاثين من عمره أن يرسى دعائم امبراطورية قوية عالمية ؛ قدر لها أن تبقى خمسة قرون من الزمان قبل أن تسقط ؛ احتضنت خلالها عالم جنوب البحر المتوسط وعالم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في رباط سياسى واقتصادى متين وحقق للعالم عهدا من السلام Pax والمحبة لم يعرفه من قبل . بل أن اصلاحاته وافكاره ظلت الواجهة العظيمة للأمبراطورية لا يقدر احد على التبديل أو التغير فيها لما يقرب من ثلاثة قرون من بعده (٢) حتى أعاد ديوقلديانوس النظر فيها بعد أن تغيرت الظروف وساءت الأحوال .

كما أنه أصبح مثالا لكثير من القادة المظام في التاريخ تشبهوا به .
كما تشبه هو نفسه بالأسكندر الأكبر (٣) .

cf J. Buchan, Augustus, (New York, Houghton Mafflin Company, (1)
1937), p. 283 f

(٢) أقرب الشخصيات القيادية في التاريخ الحديث التي فلدت أغسطس وسارت على حذاه . وتشيرت روحه هو الجنرال فرانكو الزعيم الإسباني الراحل .

الفصل الثالث

خلفاء أغسطس

إباطرة الأسرة اليوليوكلاودية

من ١٤ ميلادية - ٦٨ ميلادية

بعد موت أغسطس عام ١٤ ميلادية . تولى الحكم من بعده أربعة إباطرة من داخل دائرة أسرته وآل بيته ؛ ولما كان هؤلاء الإباطرة الخلفاء (ابتداء من تيبيريوس وحتى نيرون) ينتمون نسبا إما إلى آل يوليوس وهي عشيرة أغسطس ، أو إلى آل كلاوديوس نسبة إلى أبناء وأحفاد الإمبراطورة ليفيا الذين أنجبته من زوجها الأول كلاوديوس نيرو Claudius Nero . وكان رجلا من عليّة الأسر الشريفة الرومانية . وعن طريق تشجيعه الزواج داخل الأسرة أصبح هناك جيلا يجرى في عروقهم دماء العشيرتين ؛ حكم بعضهم الإمبراطورية ومن ثم آثر المؤرخون أن يطلقوا على شجرة هذه العائلة الأسرة اليوكلاودية .

لقد حكم هؤلاء الخلفاء بدون مشقة لأن المؤسس (١) الأول أوجد لهم نظاما راسخا قويا ؛ ولكن هذا النظام لم يعد محتفظا بقوته كما كان ، بل ظل يضعف ويضعف وذلك لركود الأحوال وخمود نار الثورة والتجديد الدائم الذي كان يتصف به حكم أغسطس . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أهمية خلفاء هذه الأسرة لأنهم هم الذين قد شكلوا ملامح ما نسميه بالإمبراطورية الرومانية ، وهم الذين وقع على عاتقهم عملية توزيع السلطات التي كانت مركزة في شخص أغسطس على أجهزة دائمة ، لأن حكم أغسطس لم يكن يقوم على أجهزة بقدر ما كان يقوم على شخصه ؛ لأنه زعيم وثورى ومقاتل جاء ومضى هكذا على هذا الحال . بل أن قدسيته والوهيته التي

D. Timpe, Untersuchungen zur Kontinuität des Fröhen Prinzipats (1)
p. 16 (München 1962)

١٣١ ر.ق. ١٠٠٠ بعد وفاة ديم. إ. ١٠٠٠ المارسي مائيسار رويب أنه تزوج الدولة

نجح في بثها بين الجماهير اعطته نفوذاً مشابهاً لنفوذ البابا في الكنيسة الكاثوليكية بالفاتيكان ، ومن ثم اعتبر بعض المؤرخين طريقة حكم أغسطس بأنها علاقة شخصية بين الامبراطور والدولة . حيث كانت الأمة تسير كالمسحورة بتوجيهاته ، ويضع حلولاً مباشرة وقاطعة لمشاكلها ، ولكن ذلك كان يعتمد في المقام الأول على مزاجه وعلى حالته النفسية ساعة اصدار القرارات ، وهذا عيوب نظام حكم الرجل الواحد . وخلاصة القول كان أغسطس روح الامبراطورية الرومانية في مهدها .

وربما لهذا السبب وحده أدرك أغسطس أهمية اختيار خليفته بنفسه لانه كان يتمنى أن يظل الحكم في روما قائماً على هذا الجوهر وهو الزعيم المفدى وأبو الوطن وحرص على أن يكون خليفته من آل بيته ومن بين أسرته حتى يقطع الطريق على الصراعات والتنافس بين الورثة والطامعين ولكي يضمن امتثال الخليفة لسنة المؤسس . والحق يقال لقد ثبت حدسه ، فقد سارت الأمور هادئة في روما طالما كان الامبراطور من آل بيت أغسطس ، فلما نفذ آل بيته اندلعت الحروب الأهلية من جديد . اذ تطلعت طبقة جديدة من الجنرالات الى الاستقلال بحكم الولايات ورفعوا راية التمرد على الحكومة المركزية في روما التي وقفت عاجزة في بعض الأحيان نظراً لاتساع رقعة الامبراطورية ، وصعوبة الاتصال بينها وبسبب ما يستغرقه ارسال الجيوش من وقت ويتكلفه أعدادها من مال .

وأهم ما يميز عهد الخلفاء هو تضخم شخصية الأباطرة وتجبرها في بعض الأحيان ، لأن أغسطس قضى على روح الجمهورية الرومانية وفلسفتها في الحكم والتي كانت تقوم على الجدل والنقاش وعلى الشورى بين أولى الأمر . ولم يعد الحاكم يسمح في احسن الحالات إلا بالملاحظات النقدية ومن ثم بدأت الأحلام تراود خيال الحاكم بالتخلص الجسدي لمعارضيه ، ومن ثم تعدد حدوث حمامات الدم البارد والمؤامرات والاغتيالات ، والمحاکمات الصورية ، وازدهرت طبقة مأجورة من الوشاة والمخبرين . وأصبح شعار الامبراطور « دعيم يكرهوننى ما داموا يرهبوننى ! » *oderint, dum probent* (1)

كذلك أوجد أغسطس للخلفاء تقليداً اتبعوه وهو بث رجاله المخلصين في كافة الأجهزة والمؤسسات الدستورية والمجالس التنفيذية لتأييده ونقل أفكاره واخراس السنة النقادين أو المعارضين واحاطة الامبراطور علماً

(1) Suetonius, Tiberius, 59, 5.

بما يجرى داخل هذه المؤسسات ، والى جانب هؤلاء الأتباع والأصدقاء قام عدد من الرجال البارزين وذوى النفوذ ممن كان يعتمد عليهم الامبراطور فى تنفيذ ما يريد ، وعلى قمة هؤلاء وهؤلاء يجىء المستشارون الذين كان الامبراطور يستمد منهم قراراته ويصدر احكامه بناء على آرائهم ، وكان هؤلاء جميعا هم الطاقة المنفذة والمشرعة للعصر الامبراطورى فقد تم على ايديهم الكثير من الاصلاحات التى كانوا يستلهمونها من الرجال الادنى او التى كانت استكمالا لمشروعات اصلاحية بدأها رجال الامبراطور السابقين .

ولكن بالرغم من كل هذا فقد ظل الامر والنهى فى يد الامبراطور وحده ، ومن ثم توقفت القرارات السياسية على نوعية الامبراطور ، وحالته العقلية ، وعلى مزاجه الشخصى ، وخلفيته الاسرية ، ولهذا ركز المؤرخون الرومان فى هذه الفترة على الافراد ، واصبح التاريخ أشبه ما يكون بأعمال كتاب السير والتحقيقات التى تتقصى الجرائم والفضائح والفساد ، كما اهتم هؤلاء المؤرخون بالمعارك والحروب التى نشبت فى عهد كل امبراطور وقلما اهتموا بالجواهر الاصلاحية الكبرى الذى شمل التشريع والادارة والاقتصاد - وان شئت قل - المجتمع الرومانى بأسره .

ولقد اسدل الستار على اباطرة هذه الأسرة عندما اغتيل نيرون عام ٦٨ ميلادية وما تلى ذلك من فوضى حتى تمكن فسباسيانوس *Vespasianus* عام ٦٩ ميلادية من تنصيب نفسه امبراطورا بقوة السلاح ، وبذلك أسس أسرة جديدة هى أسرة آل فلافيوس *Flavius* والآن بعد ان القينا نظرة عامة على خلفاء اغسطس فلنتناول بالتحليل كل واحد من هؤلاء الورثة .

أولا : تيبيريوس

(من ١٤ الى ٣٧ ميلادية)

بفضل اختيار اغسطس لخليفته قبل مماته ومشاركته الحكم معه ، استمرت الأمور هادئة بعد موت اغسطس ، وانتقل الحكم فى هدوء الى تيبيريوس والذى كان من الناحية الفعلية الحاكم للبلاد منذ حصوله على سلطتى الامبريوم والتربيونية ، والأولى سلطة عسكرية تعطيه حق قيادة الجيش ، أما الثانية فسلطة شعبية . ومن ثم اعطته حق دعوة السناتو الى الانعقاد لتكريم الراحل العظيم واختيار خليفة له رسميا (١) .

(١) أهم المصادر الادبية القديمة عن حياة تيبيريوس هي :
Velleius Paterculus, ii, 123-131.

وترجع أهميته فى أنه عاصر حكم تيبيريوس وتعاطف مع الامبراطور ودافع عنه .
Tacitus, Annales, I-VI.

واجتمع السناتو بالفعل والقيت خطب التكريم والتعظيم تأبيناً للراحل العظيم ، وبلغ بهم الحماس الى اخفاء الالهية عليه رسمياً واعتباره من عداد الآلهة الرومانية الخالدة ، ومن ثم انشأت هيئة دينية للإشراف على عبادته ونشرها في كافة أنحاء الامبراطورية ، وقد اختيرت هذه الهيئة التي كانت تعرف باسم الأوغستاليس Augustales من بين رجال طبقة السناتو ، كما انعم السناتو على زوجة الامبراطور ليفيا بلقب أغسطا Augusta بناء على رغبة الراحل العظيم ، كما جاء في بنود وصيته ، بينما ورث تiberius لقب أغسطس ، فأصبح تiberius أغسطس قيصر ، ثم انعم السناتو عليه بكافة سلطات والقاب والده بالتبني ومنحه سلطتي الامبريوم والتريونية مدى الحياة .

في الحقيقة كان اخنيار أغسطس لتiberius موفقاً (١) لأنه جمع دماء

مع ملاحظة ان معظم اجزاء الكتاب الخامس مفقودة .

(iii) Dio Cassius LVii-LViii

(iv) Suetonius. Tiberius

V. Ehrenberg and A.H. Jones, Documents illustrating the Reigns of Augustus and Tiberius (2nd edition 1955); H. Mattingly, British Museum Catalogue of the Coins of the Roman Empire, Vol I. (Augustus to Vitellius 1923); H. Mattingly and Others The Roman Imperial Coinage i (1923); M. Grant Aspects of the Principate of Tiberius (1950); F.B. Marsh, The Reign of Tiberius (1931); R.S. Rogers, Criminal Trials under Tiberius (1935); D.M. Pipidi, Autour de Tibère (1944); R.S. Rogers : Studies in the Reign of Tiberius (John Hopkins University Press 1943. G.E. Smith : Tiberius and the Roman Empire, Louisiana State University Press 1942; G. Maranon, Tiberius : A study in the Resentment (1956).

! والكتاب الاخير محبوب وتجربة جديدة في تطبيق علم النفس وهو ذاتي اكثر منه

موضوعي .

R. Syme, Tacitus, (1958), p. 420 ff; E Kornemann Tiberius 1960, also cf Gazetti, Impero da Tibro olgi Antonini (1960)

وعن تماثيل الامبراطور تiberius انظر :

L. Polacco il Votto di Tiberio (1955); JRS, 1956, p. 157 ff. (Reviewed).

(١) يبدو ان أغسطس لم يقتنع بخليفته الا تحت الحاح الظروف ويروي لنا سويتونيوس عن الاجتماع الطويل الذي دار بين أغسطس وتiberius في حجرة نوم الاول ولما خرج تiberius من الحجرة علم أغسطس ساخراً وهو يقول : مسكين الشعب الروماني الذي سوف تطحنه فكان بطيئاً الحركة :

«miserum poulum Romanum, qui sub tam lentis maxillis erit» Suetonius, Tiberius, 21.

أسرتى كلاوديوس وآل يوليوس ، فمن ناحية أبيه كانت تجرى فى عروقه
دماء كلاودية بينما أصبح بحكم تبنى أغسطس له من آل يوليوس . ومن
مزيج هاتين الأسرتين جاء خلفاء أغسطس الأربعة : تيرىوس ، وجايوس ،
وكلاوديوس ، ونرون .

وعلى أى حال لم يستقبل تيرىوس العرش بالسرور والفرح ، بل
استقبله بالزهد وعدم الأكتراث والتلف ، اذ كان يبلغ من العمر خمسة
وخمسين عاما ، وأدركته الشيخوخة ، وكان يعرف عنه أنه رجل انطوائى ،
غير محبوب من الجماهير والفوغاء الرومانية ، ولكنه كان شخصا قادرا
وكفئا ، اذ قضى عمره وهو يتحمل المهام والمسئوليات ، كما أنه ورث من
أسرته آل كلاوديوس الأرستقراطية . الفطرسة والاعتداد بالنفس ، والحزم
والكبرياء . وحب العمل ، وعدم الرغبة فى التطور والتجديد . ومن ثم
كان تيرىوس رجلا محافظا ، يتمسك بالقديم بشدة كما يظهر من ذوقه
وسلوكة وعاداته حتى فى أسلوبه الأدبى والفاظه اللغوية التى كان يحرص
على انتقائها فى خطبه ، اذ كان يميل الى اختيار الكلمات القديمة الفصحى ،
وأعرض عن الأساليب الجديدة فى اللغة والأدب التى كان يزخر بها العصر
الأوغسطى ، ومن ثم صارح السناتو بلغة واضحة بأنه ليس على استعداد
أن يتغير أو أن يغير من طبيعته التى طهتها نار المعاناة والكفاح .

لقد كان يعرف أن وصوله الى الحكم لم يكن الا صدفه ونتيجة
لتدخل القدر ، لأنه كان آخر من فكر فيهم زوج أمه أغسطس ، خاصة
عندما استمع الى الفقرة التى جاءت فى وصية أغسطس والتى تقول « ما دام
الحظ العائر قد نزع منى ولداى جايوس ولوكيوس فليصبح تيرىوس
قيصر خليفة لى (١) » ، كما أن الظروف جعلت منه شخصا ساخطا على
كل شئ ، حيث عانى فى طفولته وحياته من الاحساس بالظلم ، ومن ثم ظل
يختزن القصب فى نفسه ويكتم حنقه وغيظه ، ولكى يفهم الدارس « عقدة
الحقن المكبوت » فى نفس تيرىوس عليه أن يرجع الى نشأته ، اذ كان
ينحدر من والدين جمهوريين أرستقراطيين حاربا بشدة الشخصيات
العسكرية والتحالفات الثلاثية التى أقامها الجنرالات فوق القانون
والدستور ، ثم يجد تيرىوس نفسه فى رعاية أحد هؤلاء الشخصيات
العسكرية ، بل ويجد أمه تصبح زوجة لأحد هؤلاء الجنرالات وهو
(اكنافىوس) حيث أرغم أبوه على طلاقها وهى فى مرحلة متقدمة من

الحمل ، بل أن السنة الناس لم تترك هذا الأمر يمر دون تعليق (١) ، ولما وضعت ابنها دروسوس شك الناس في نسبته إلى زوجها الأول ، خاصة أن أغسطس دلل هذا المولود الصغير وفضله على تiberius ، ولم يغفر تiberius ذلك لأمه أبدا فعندما ماتت رفض السير في جنازتها ، وزاد حنق تiberius عندما فضل الامبراطور عليه حفيده جايوس ولوكيوس قيصر ، وأخيرا عندما اختير للخلافة أرغم على طلاق زوجته التي كان يحبها حتى العبادة ليتزوج ابنة الامبراطور الخليفة جوليا التي لم تجد حرجا من الوقوف تحت تمثال مارسيس في الفورم الروماني حيث يعرض الساقطات أنفسهن للدعارة ، بل ويقول بليني أنها ذهبت إلى حد وضع أكليل من الزهور فوق هذا التمثال (Pliny, 79, XXI, 6) ، ولقد أثر ذلك كثيرا في نفس تiberius ، وذكره بما حدث لأبيه عندما أرغم على طلاق أمه ليفيا ، وظل يندم على طلاق زوجته الأولى ، ولقد روى انه انفجر باكيا عندما رآها ذات يوم وهي في عصمة رجل آخر . وأقسم لها انه لن يتعرض لها في حياتها الجديدة ، ولكنه لم يترك الزوج الجديد أسينيوس جالوس Asinius Gal'us يتمتع بوقت طويل مع المرأة التي أحبها حتى العبادة (٢) .

هكذا كان تiberius كما سماه الأديب بليني الأكبر « أنفس الناس » tristissimus hominum : (٣) ذا ذاكرة حبة تذكر كل كبيرة وصغيرة ، فمثلا روى عنه انه اثناء الفائه خطابا أمام السناتور انفجر فجأة في هجوم عنيف ومرير على أحد أعدائه ويدعى ماركوس لولlius Marcus lollius ويخبرنا تاكيتوس أن هذا الشخص كان قد ووري التراب منذ عشرين عاما (٤) .

حقيقة كان تiberius يعاني من التردد وعدم الثبات على رأى ، ولكنه كان حازما في تطبيق القانون . وكان جادا يحترق المرائين ، لأنه كان يرى فيهم الخبث والدهاء بعد أن انتفخت بطونهم وامتألت جيوبهم من جراء هذا النفاق على حساب الشعب الروماني . ولهذا كان كثير الشك والهواجس . مكتسبا حاد الطبع ، ينقص شخصيته الجاذبة والسحر الذي كان يتمتع به .

(١) تناقل الرومان بيتا من الشعر العالمي الاغريقي يقول « انهم المجنطون أولئك الذين يتجيبون بعد ثلاثة أشهر فقط » .

(٢) Suetonius, Divus Augustus 106; Tiberius 7

(٣) Pliny The Elder, 79.

(٤) Tacitus, Annales, 107, IV, 57.

أغسطس : ولكنه كما فلنا كان رجلا واسع الثقافة ، خيرا بأمور الإمبراطورية : مدركا للمسئولية الملائمة عليه ، متفانيا في أداء واجبه ، كارها للتملق والتأليه (١) ، ولقد حاول منذ البداية أن يجعل سياسة إنشاء المجالس الاستشارية وملئها بالاصدقاء السياسيين للاستماع والاستفادة من وجهة نظرهم ، ولكن علاقته بالسنااتو كانت فاترة سيئة منذ البداية ، ويعزو البعض ذلك الى غياب السنااتو الذي لم يفهم تiberius أثناء انعقاد أول جلسة بعد موت أغسطس لتعيين خليفة له ، اذا كان تiberius يدرك أنه مكروه وغير محبوب . وأن على السنااتو أن يرجوه ويلج عليه لكي يقبل الخلافة ، ولكن السنااتو اعتقد أن تiberius بعدم اكترائه أثناء الاختيار إنما يضع فخا لمن لا يحبونه أو يريدون منافسته ، ولكنه احترام السنااتو وتمسك بحقوقه ووقاره ، حتى أن نقاده يعترفون أنه بدأ حكمه باعتدال وذكاء . بل أنه نقل مهمة انتخاب المرشحين للوظائف العليا من المجالس الشعبية الى السنااتو نفسه حتى يوفر على أعضاء السنااتو الموقرين مضايقات الفوغاء أثناء الحملات الانتخابية .

تمرد القوات الرومانية الرباطة في انليريوم وعلى ضفاف الراين :

وما أن تولى تiberius السلطة حتى وقعت حادثتان تمرت فيهما القوات الرومانية وكانت أسباب التمرد ترجع الى استبقاء الجنود الدين اتموا الخدمة لمدة طويلة وقسوة معاملة الضباط للجنود ، وقام دروسوس الأصفر ابن تiberius باخماد حركة التمرد في الليريا بحزم دون أدنى تنازلات ، كما قام جرمانيكوس بن دروسوس الأكبر - شقيق الإمبراطور - بالتعامل مع القوات المتمردة في المانيا ، ولكنه سلك سلوكا مخالفا لسلوك دروسوس الأصفر ، فلجأ الى طرق خبيثة مثل تزوير خطاب باسم تiberius يعد فيه القوات بتحسين احوالهم مستقبلا، ثم عرض على الجنود أسرته وهي تنتحب ثم هدد بالانتحار . ثم لجأ الى اغراء بعض الجنود بالقيام باغتيال زعماء التمرد ، ثم حاول رفع روح القوات الرومانية المعنوية بالقيام بالتوسع في المانيا بالرغم من اعتراض عمه الإمبراطور على ذلك . ولكنه

(١) كان تiberius شديد العزوف من القاب التالية (Suetonius, Tiberus, 10) والدليل الثابت على ذلك هو ذلك النقش الذي عثر عليه في مدينة جيثيوم Gytheum في لاكونيا ويرجع الى العام الخامس عشر الميلادي وهو صورة من خطاب الإمبراطور تiberius الى مدينة روما ردا على قرار يختص بعبادة أغسطس وليفيا وفيه يستعبد ويتأفف من التالية انظر :

V. Elton, Jones, Documents, no. 102.

تركه في ألمانيا حتى عام ١٧ ميلادية ثم أرسله بعد ذلك الى الشرق لدراسة مشاكل الامبراطورية على الطبيعة وللإشراف على وضع بعض الحلول في الولايات التابعة والعميلة لروما .

علاقة تيريووس بخليفته وأبن أخيه جرمانيكوس :

كان أغسطس قد أرغم تيريووس على تبني جرمانيكوس بن دروسوس شقيق تيريووس ، وكان الامبراطور أغسطس يحابي جرمانيكوس ، كما كان يحابي أباه الراحل دروسوس ، بل أنه زوجه من حفيدته أجريينا الكبرى (ابنة جوليا من الجنرال أجريبا) ، وكان من الواضح أن تيريووس ينوى تنفيذ رغبة أغسطس باعداد جرمانيكوس (١) للخلافة وذلك بأن أظهره للناس وحرص على نشر شعبيته بين الجماهير بدرجة تغطي على شعبية ابنه دروسوس الصغير وهذه تضحية كبيرة من جانب الامبراطور . وكان جرمانيكوس شابا رياضيا ، مرحا ووسيعا ومعبودا للجماهير الرومانية . ويقال أنه ورث هذه الشعبية عن أبيه دروسوس الأكبر الذي كان يعتبر النموذج الأمثل « للرجال » ، وعن أمه أنطونيا الثانية التي كسبت شهرة كأم فاضلة مثالية (٢) وهي ابنة ماركوس أنطونيوس وأوكتافيا شقيقة أغسطس . ولما مات دروسوس مبكرا رفضت الزواج مرة أخرى وكرست نفسها لتربية ابنها جرمانيكوس وأخيه كلاوديوس (الذي أصبح فيما بعد امبراطورا) وابنتها ليفيلا . وكان المؤرخ تاسيتوس من أشد المعجبين بجرمانيكوس ابن الأكرمين لدرجة أن قارنه بالاسكندر الأكبر (٣) . لأنه اشتهر (٤) أيضا بمواهبه المتعددة فهو جنرال عفيف وشاعر رقيق ودبلوماسي مهذب ، بل ألف مسرحيات درامية بالافريقية مثلت على المسرح أيام الامبراطور كلاوديوس . اعتقد الناس أن جرمانيكوس كان ديموقراطي التفكير والعقيدة، وكانوا يتلهفون على ارتقائه العرش من أجل إعادة الجمهورية ونظمها الديمقراطية . ولهذا أضحي بطلا قوميا وزعيما منتظرا ، لأنه كان على النقيض تماما من عمه تيريووس فقد كان محبا للناس وللظهور وللتصفيق كما كان مندفعا وعاطفيا، ويرى مارانون أن

Suetonius, Caligula, 106, 2.

(١)

Tacitus, 107, II, 73.

(٢)

(٣) Gregorio Maranon : Tiberius : A Study in resentment (London 1956), p. 97.

(٤) وقد عرفنا من وثائق البردى المصري أن كان له ضيعة كبيرة في الفيوم ربما ورثها.

عن أمه أنطونيا انظر :

الناس رسمت له صورة تفوق قدراته وصفاته ، ولكنه على أى حال كان يبدي احتراما ووقارا كبيرا ازاء عمه تiberيوس ورفض التآمر ضده أو منافسته في سلطاته .

رحلة جرمانيكوس للشرق ورد الفعل الذى تركته (١٧ - ١٩ ميلادية) :

وبعد عودة جرمانيكوس من المانيا وبلاد الغال كلفه عمه تiberيوس بمهمة سياسية في الشرق ، ومنحه السناتو سلطة الامبريوم البروقنصلى الأعلى ليتحقق له السلطة والسيدة على حكام الولايات، وصادق الامبراطور على قرار السناتو . ورحل جرمانيكوس مع نخبة من الضباط والمعاونين الى الشرق مارا ببلا اليونان وآسيا الصغرى ، وكان جرمانيكوس ينتهز الفرص لزيارة المعالم الأثرية ويلتقى بالمواطنين الذين استقبلوه بالحفاوة والتكريم (٢) وخلعوا عليه الالقاب المقدسة والالهية التى كانوا يخلعونها على ملوكهم في الشرق ، وقد قابل جرمانيكوس هذه الحفاوة بأعمال اصلاحية وتنظيمية لصالح شعوب الامبراطورية . ووصل جرمانيكوس الى أرمينيا حيث وافق على الملك الذى انتخبه الشعب ، وفى غمرة الانفعال أغمض جرمانيكوس عيناه عن سياسة عمه الامبراطور ولم يلتزم بها ، فمثلا تعدى جرمانيكوس على القانون الذى أصدره أغسطس بعد فتح مصر وتحريم دخولها على الأشخاص البارزين الا بقرار من الامبراطور فدخل في زيادة سريعة لمصر وآثارها ، ولما وصل الى مصر وجد الاسكندرية تعاني من مجاعة وقحط فأمر بفتح الصوامع الخاصة بروما وتوزيع الفلال على الناس وقام بعدة أعمال أثار عواطف الجماهير بها مثل سيره في الطرقات بدون حراسة ، وظهوره في الزى الاغريقى وانتعاله صندلا مثل صنادلهم . ثم قام برحلة نيلية سياحية بداها من كانوب « كوم سمعدى جنوب ابو قير الحالية » حتى طيبة « الإقصر » . حيث متع ناظره بآثار الملوك الفابرين ووقف مندهشا أمام تمثالى ممنون حيث يحدثان صوتا موسيقيا عندما تمسهما أشعة الشمس ، ولم يكتف جرمانيكوس

(١) R.S. Rogers : Studies in the Reign of Tiberius, London 1943

(٢) نشر الأستاذ تيرنر حديثا وثيقة بردية من أوكسيرينحوس «البهنسا» عبارة عن خطبة القاها جرمانيكوس عند وصوله الى الاسكندرية وكان يقطع فيها بالنصفيق والتهنئ وبضيف الأستاذ تيرنر أن جرمانيكوس اعترف في هذه الخطبة بأن مصر ولاية رومانية Eparchia يمكن تiberيوس الذى حافظ على سياسة أغسطس انظر : E.G. Turner, Oxyrhynchus Papyri, X V (1959) , no. 2453.

زيارة الأقصر فقط بل سار جنوبا حتى أسوان حيث حدود الامبراطورية الجنوبية وشاهد جزيرة فيله والفنتين . كما انه زار ممفيس وشاهد عجل ابيس في حظيرته المجاورة لمعبد بتاح ، بل وأصر على أن يطعمه بيديه احتراماً وتبجيلاً . ويقال أن العجل اشاح بقرنيه في وجه الأمير الزئر . عندئذ تنبأ الحاضرون بكارثة سوف تحل بالأمير الزائر (١) .

ولقد حفظت لنا أوراق البردى المستخرجة من مصر العواطف الجياشة والترحاب الشديد الذي لقيه جرمانيكوس من الاغريق والمصريين لدرجة جعلت جرمانيكوس يصدر منشورين يطلب فيهما من الجماهير التوقف عن المغالاة بمناداته بألقاب كالألقاب الآلهة لأن هذه الألقاب لا تليق إلا بالامبراطور وحده وحتى لا يتعرض للنقد (٢) ، ويحظر في المنشور الآخر القيام بأعمال الاستيلاء على الدواب والراكب ومنازل الضيافة بحجة الإزداد لزيارته إلا بأمر خاص لأن ما قام به بعض الناس لم يكن سوى عمل من أعمال اللصوصية الفاضحة .

ويبدو أن جرمانيكوس أدرك انزعاج عمه الامبراطور واستياءه لما حدث في مصر اذ وجه اليه لوما شديدا في مجلس السناتو فغادر مصر الى سوريا وهناك قامت بينه وبين حاكمها جنايوس يسو Gnaeus Piso مشادة عنيفة ، وكان هذا الأخير من رجال تيبيريوس المخلصين والذي كما يبدو - لم يعجبه مسلك جرمانيكوس المغالى وحبّه للظهور وانتهى الخلاف بطرد يسو من ولايته ، ولكن سرعان ما سقط جرمانيكوس فريسة لمرض غامض أودى بحياته في خريف عام ١٩ ميلادية وهو في عاومه الثالث والثلاثين ، وكان جرمانيكوس قبل موته يتدأ أن يسو أو زوجته بلانكينا Plancina (صديقة ليفيا الحميمة) تدست له السم في الطعام . وغدت شائعات الجماهير (٣) هذه الادعاءات ، بل أن أجربينا ، اشاعت بان الامبراطور نفسه كان ضالعا في هذه المؤامرة التي راح

= وعن زيارة جرمانيكوس للشرق انظر :
E. Koestermann, Historia (1958), p. 33. cf G. Maranon, op. cit., p. 99-102
Tacitus, 107, II, and III.

(١)

(٢) ترجم استاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على هذين المنشورين الى اللغة العربية في كتابه الشيق والطريف مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الاوراق البردية ، طبعة بيروت دار النهضة العربية (١٩٧٢) ص ٧٨ وما بعدها

also cf J.G. Winter, op. cit., p. 11-13.

(٣) ومما شجع على انتشار هذه الشائعة تضيق ليفيا والامبراطور تيبيريوس عن حضور الجنائز المتواضع الذي أقيم لحرق جثمان جرمانيكوس ، ولم يبلغ الامبراطور نبأ سقط الجماهير لسلطة الحنازة صاح عاصبا . بعدت الأمراء وبقوا في راطورية

Tacitus, 107, III, 5.

ضحيتها زوجها ، وبالرغم من هذا استدعى الاسبراطور صديقة بيسو الى روما حيث قدم للمحاكمة ولم يتدخل الامبراطور على الإطلاق في هذه المحاكمة مما جعل اللسن يتقول عليه ، واضطر بيسو في وجه الشائعات القوية رغم براءته أن ينتحر ، ولكن أجربينا أرملة جرمانيكوس لم تكتف بذلك فأعلنت تحديها للامبراطور مطالبة بأن تكون الخلافة لاولادها مما ضايق تiberius ومن ثم جر عليها وعلى اولادها حنقه وغضبه (١) .

مؤامرة سيانوس Scianus :

لما كان تiberius كثير الشك فيمن حوله ، منطويا على نفسه الا من قل له نادرة من الاصدقاء وضع ثقته في شخص واحد هو سيانوس ، وقد باغت صداقته به حد الافتتان ، وكانت صدمة عنيفة للامبراطور عندما اكتشف أن سيانوس الذي رفعه الى قمة السلطة يخطط لاقتسام الحكم معه : فبعد موت جرمانيكوس أصبح دروسوس ابن تiberius هو المرشح للخلافة ، ولكنه سقط هو الآخر فريسة لمرس غامض قضى عليه في خريف عام ٢٣ ميلادية وقد حزن تiberius بشدة لموت ابنه (٢) ، وكانت الشيخوخة قد دهمته اذ أصبح في الرابعة والستين من عمرة ، وكان لزاما عليه أن يبحث عن خليفة له من آل بيت أغسطس ، وعلى ذلك فقط وقع بصره على أكبر أبناء جرمانيكوس الذين انجبتهم من أجربينا الكبرى وهما نيرون ، دروسوس وبالفعل رشحهما للخلافة أمام السناتو ، ولكن سيانوس أفسد هذا الترتيب بدسائسه ومؤامراته .

كان ايليوس سيانوس قائدا للحرس البرائتورى ، وكان ينتمى الى

(١) يرى مارانون أن مرض جرمانيكوس وموته ليس له علاقة بما أشيع من أن السم قد وضع له في الطعام وأن تiberius يرى من ذلك وأنه يرجح أن جرمانيكوس مات متأثرا بالمalaria أو بداء السل الذي ظهرت عليه أعراضه والتي وصفها سويتونيوس وهو لا يدرى انظر Suetonius, Caligula, 106. ويعلل اتهام الجماهير لتiberius بأنه نابع من سيكلوجيتها التي تحيد عادة موت البطل شهيدا ليبقى عليه حيا في ذاكرتها وعلى أي حال لم يستطع المحقق فيتلوس أن يثبت حدوث جريمة السم ومن ثم جاءت براءة بيسو Maranon op. cit., p. 10-

(٢) بالرغم من حزن تiberius على موت ابنه الا أنه رفض أن يعلن الحداد العام عليه ، وعاد بعد دفنه مباشرة للعمل ونسى الأمر كله . وعندما جاءه وفد من الرواده ليعزيه في فاجعته التفت اليهم قائلا أنه أيضا يعزيهم في بطلهم الأسطوري هكنور (الذي قتله أخيليس في الياذه هوميروس انظر

طبقة رجال (١) الفرسان . واستطاع بكفاحة وشجاعته ومهارته وتفهمه لمشاكل الامبراطور النفسية أن يكون رجل تيريوس الموثق به والمستمع الى وجهة نظرة ، وحاول ان يلعب دور اجريبا بالنسبة لاغسطس عندما أصبح زوج ابنته ووريثه . ولكن سيانوس كان طموحا ، خائنا خيب آمال الامبراطور بعد ان أسكرته خمرة السلطة . اذ انتبذ فرصة لتحقيق أغراضه بأن اقنع تيريوس بأن يسمح له بتجميع فصائل الفرسان التسع الخاصة بالحرس البرائتورى فى معسكر واحد بالقرب من روما ، وبذلك أصبح تحت سيانوس قوة فعالة يستطيع بها السيطرة وتنفيذ ما يريد بقوة السلاح لو استدعى الامر .

ثم اخذ سيانوس يملأ راس الامبراطور بأوهام وشكوك حول مؤامرات وهمية تحاك ضده ، وركز سيانوس على المستحقين للخلافة من أفراد الأسرة اليوليوكلاودية وكذلك على البارزين من رجال السناتور ممن قد يقفون فى وجه اطماعة مستقبلا .

واكثر من هذا تسلل سيانوس الى قلب ليفلا Livilla زوجة دروسوس ابن تيريوس وإزدادات علاقته بهاء بعد موت دروسوس ، وكان يطمح أن يحصل على مزيد من السلطات عن طريقها ، بل تجرأ وطلب من تيريوس أن يسمح له بالزواج منها املا أن يصبح يوما وصيا على العرش وعلى ابن دروسوس الطفل وبذلك يقطع الطريق على آل جرمانيكوس ، ولكن الامبراطور رفض بشدة طلبه . فالتجأ الى وسائل أخرى لتحقيق غرضه (٢) .

استغل سيانوس موقف أجربينا أرملة جرمانيكوس اذ كانت امرأة ذات طبيعة مهيمنة ومتهورة ، تسيطر عليها الهواجس والتشكوك ، فأقنع الامبراطور بأن موقف هذه السيدة العدائى منه يهدد مركزه ، ونقل اليه اتهامات أجربينا للامبراطور بتدبير موت جرمانيكوس ، وقد ساعد موت الامبراطورة ليفيا عام ٢٩ ميلادية سيانوس فى تنفيذ أغراضه لانها كانت حريصة على تماسك الأسرة اليوليوكلاودية ووحدتها . ونجح سيانوس فى اقناع الامبراطور باعلان أجربينا وابنها الاكبر نيرون اعداء للدولة وامر

(١) عن الخلفية الاسرية والاجتماعية لسيانوس انظر المثال الطرف :

L.Aelius Seianus and his political Significance, (H.W. Bird: Latomus,

Tome XXVIII fasci 7 (١٩٦٩), pp- 81-98.

(٢) - انظر ماركس - عدت هذه الترميمات انظر :

G. Maranon. op. cit., pp. 127144. (chapter 2)

ينفيهما الى جزيرة بعيدة . حيث انتحر نيرون ١٠ ٣٠ ميلادية بيسمى التت
السلطات في روما القبض على أخيه دروسوس بتهمة الخيانة العظمى ، أما
أجربينا فقد ظلت في المنفى الا أنها ماتت عام ٣٣ ميلادية بعد تجويعها حتى
الموت ، ولم ينج من اولادها سوى جايوس (وهو الامبراطور كاليجولا
مستقبلا) واخواته الاناث الثلاث .

كذلك استهدفت مؤامرات سيانوس عددا كبيرا من أصدقاء أجربينا
والمتعاطفين معها ، قدم بعضهم الى المحاكمة وأعدم بينما فضل البعض الآخر
أن يأخذ حياته بيده ، ويحدثنا تاكيثوس أن أكثر من مائة متهم حوكموا
أمام السناتو بتهمة الخيانة العظمى *maiestas* ومن بينهم الاعضاء
البارزين من أمثال سكريبونيوس وكالبورنيوس بيسو ، وبالرغم من أن
تيسوريوس لا يعد مسؤولا عن حمامات الدم البارد الا أنه أغض عيناه عنها .
ولم يحاول أن يوقفها بل توارى عن الانظار لان سيانوس أوهمة بأن حياته
في خطر وجعله يعيش في حالة رعب دائم ، ثم أفنعه بالانسحاب الى جزيرة
كابري *Caprae* عام ٢٦ ميلادية ، وبات خلا الجو لسيانوس لينفذ
ما يريد . وأصبح سيانوس هو الحاكم الفعلى واعتقد السناتو أن زعيما
جديدا قد بزغ نجمة ومن ثم راح يطرده بآيات التشريف والتكريم وأصبح
العرش على مرمى من بصره .

بدأت الشكوك تراود مخيلة تيسوريوس عندما طلب سيانوس منه
السماح له بعقد قرانه على أرملة ابنه دروسوس ، ورفض الامبراطور ذلك
رفضاً قاطعاً عام ٢٥ ميلادية ، ولكن في عام ٣١ ميلادية تمكنت أنطونيا
والدة الأمير الراحل جرمانيكوس من الحصول على وثائق بخط سيانوس
تكشف عن أغراضه وأطماعه ، (١) ، ثم أرسلت هذه الوثائق الى تيسوريوس في
كابري ، عندئذ تبين له مدى الظلم الذي أوقعه بآل أسرته ، وأنه كان ضحية
لسيانوس نفسه ، وأدرك أن الوقت قد حان لتصحيح هذا الخطأ وللتخلص
من سيانوس فأصدر أمراً بنقل جايوس *Gaius* الابن الوحيد من أبناء
جرمانيكوس الباقي على الحياة الى القصر في كابري ورعايته تحت إشراف
الامبراطور شخصياً ، ثم اتصل بأحد رجاله المخلصين وهو سوتوريوس
ماكرو *Sutorius Macro* (٢) وكلفه بمهمة سرية وهي السفر الى روما

(١) R.S. Rogers, Criminal Trials and Criminal legislation under

Tiberius, New York (American Philological Association 1955) p. 115 f.

Josephus, 47, LVIII, 8.

Alpa Fucens

(٢) كشف احدى النقوش التى عثر عليها حديثا فى البافونكس عن

==

اسم ماكرو الحقيقى وهو : =

والاستيلاء على قيادة الحرس الجمهورى فى صمت وارسل معه رسالة طويلة ومحملة بالكلمات *Verbosa et grandis epistola* (١) موجهة الى السناتو وفى نفس الوقت اشاع بأن هذا الخطاب الهام الذى سيلقى امام السناتو يتضمن منح سيانوس سلطة التريونية وبذلك يصبح شريكاً فى حكم الامبراطورية . هكذا خطط تيبريوس بمهارة وحذر للتخلص من سيانوس .

وفى اثناء ذلك كان ماكرو قد استولى على قيادة الحرس الجمهورى وفى ١٨ اكتوبر عام ٣١ ميلادية قرا على السناتو نص رسالة الامبراطور ذات المقدمات الفامضة ثم فى نهاية الخطاب اعلن الامبراطور نبذة لسلوك سيانوس وادانته ولم يستغرق السناتو وقتاً طويلاً فى محاكمته واعدامه ومثلت الجماهير بجثته ثلاثة ايام (٢) بل واعدمت أسرته معه فى نفس اليوم ، بل ان زوجته السابقة قتلت نفسها بعد ان كتبت الى الامبراطور اعترافاً بأن زوجها السابق كان على علاقة بليفلا زوجة دروسوس وأنهما دبرا معاً موت دروسوس بدس السم له (٣) . كل هذه المشاكل والمؤامرات اضعفت من مكانة الامبراطور العجوز وزادت من شكوكه وانطوائه ، وراح يطبق بعنف عقوبة الخيانة العظمى *lex de maiestate* ، كما زاد الشقاق بين الامبراطور ومجلس السناتو حيث عاش أعضاؤه فى رعب، خوفاً من الوشاة والمخبرين *delatores*.

وبلغ بهم الرعب انهم كانوا على استعداد لادانة رفاقهم اذا ما ارضى الامبراطور ذلك . ولم يخف السناتو اورتياحه العميق عندما استقبل نبأ موت الامبراطور تيبريوس فى السادس عشر من مارس عام ٣٧ ميلادية بعد بلوغه العام الثامن والسبعين (٤) .

Quintus Naevius Sutorius Macro, c. l'anné epigraphique 1957, no. 250

وبرى الاستاذ سكالارد أنه كان يشغل منصب ققيب خفراء روما آنظر : Scullard, op. cit., p. 287.

(١) على أى حال لم يتضمن هذا الخطاب الذى نقله الينا ديون كاسيوس أى اتهام ضد سيانوس بتدبير مؤامرة لاغتيال تيبريوس آنظر :

F. March, The Reign of Tiberius, p. 394.

Seneca, 97, II.

(٢)

(٣) شبه الهجاء جيوفينال (49.٢) مأساة سيانوس بالرأى الذى شئى برجا شاهقا من

الشجر وهو لا يدري أنه سوف يسقط من علبائه .

(٤) بينما حزن أسدقاء تيريزوس المقربين - مثل اليهودى هيرودس أنطيانس أمير

==

ان مصادرها عن تiberيوس متناقضة ، فقد صورته المصادر السناتورية - التي اعتمد عليها تاكيتوس وسويتونيوس - كدكتاتور سفاك للدماء وعبقريه شر كبرى ، بينما كتب بعضهم سيرته بصورة ابولوجيا دفاعية تبرر سلوكه ، وتبين فضائل الحميدة وخدماته التي اداها للامبراطورية واصلاحاته التي قام بها في الولايات . لقد كان تiberيوس شحيحا في النفقات العامة ، وقد جعله هذا مكروها لدى جماهير العاصمة بينما اعتبره سكان الولايات الرومانية مصلحا ومنقذا لهم من استغلال كبار الموظفين .

اما فيما يختص بالسياسة الخارجية فقد حاول تiberيوس ان يسير على نهج سلفه اغسطس ، وحرص على استمرار المجلس الاستشاري القديم الذي كان اغسطس قد انشاه من بين أعضاء السناتو بغرض تدارس شئون الامبراطورية *Consilium Coercendi intra terminos Imperii*

بل وعمل من خلاله ، كذلك لم يكن تiberيوس من أنصار التوسع لأنه اعترض على محاولات جرمانيكوس في توسيم - ود الامبراطورية في المانيا ، وكان هذا نهاية لأحلام روما في هذه المنطقة من اوروبا : وفي عهده أيضا أصبحت كابادوكيا (جنوب البحر الأسود) ولاية رومانية بعد موت ملكها أرخيلاؤس عام ١٧ ميلادية .

ولقد كان عهده عهد سلام بصرف النظر عن بعض الثورات النى واجهها مثل الثورة التي حدثت في بلاد الغال حول ليون *Galia lugdunensis* عام ٢١ ميلادية وحركة التمرد التي قادها تاكفريناس (١) زعيم البربر في ولاية نوميديا (الجزائر) والتي استمرت من ١٧ حتى ٢٤ ميلادية . كذلك حدثت في عهده خلافات بين روما والبارثيين كادت تؤدي الى الحرب ولكن تiberيوس نفادى ذلك مرتين مفضلا الطرق الدبلوماسية وعن طريق المفاوضات التي بدأها جرمانيكوس عام ١٨ ميلادية وانهاها لوكيوس فيتيليوس *L. Vitellius* قبل موت تiberيوس بقليل .

ربيع الجليل بفلسطين الذي علق على موت الامبراطور بقوله « ان الليث لن يزار بعد » اليوم » انظر :

Joesphus, 47, XVIII, 8

بينما نجد الفوغاء الرومانية تعلن شماتها وتحتف « القبا بتiberيوس في التiber » *Tiberium Tiberim ! Suetonius, 106, Tiberius 85.*

(١) عن هذا الثائر انظر :

R. Syme : *Studies in Roman Economic & Social History in Honour of A.C. Johnson* (1951), p. 113.

كما عثر على بقايا نصب تذكاري اقامه 'الفصل دولابلا' *Dolabella* لربة النصر « فكتوريا » بمناسبة موت تاكفاريناس انظر :

R. Bartoccini, *Epigraphica*, 1958, p. 3 ff.

لم يخرج تiberius عن سياسة أغسطس في شيء سوى مد صلاحية مندوبي الامبراطور legati . لحكم 'لولايات' وربما لم يكن ذلك تراخيا واهمالا من الامبراطور بقدر ما كان امرا مقصودا بسبب ازمة الثقة التي قامت بين الامبراطور وبين معظم القيادات البارزة خاصة اعضاء السناتو .

اما فيما يختص بالسياسة المالية والاقتصادية فقد كان تiberius صحيحا اذ خفض النفقات العامة مثل التي كانت تخصص للانفاق على التسلية والمهرجانات الرياضية والتي اعتاد الشعب الروماني عليها ، كما كان حريصا في منح الهبات العامة مما جعله غير محبوب من الناس في عصر كانت فيه شعبية الحاكم تقاس بمدى انفاقاته العامة . وكان نتيجة سياسة الحرص المالي ان تراكمت المدخرات في الخزانة العامة حتى بلغت الفين مليون سستركيس روماني .

ولم يكن تiberius على وفاق مع السناتو فبعكس أغسطس الذي كان ذكيا تملق السناتو بينما راح يحركه في الخفاء متخذا منه مقلب القط لما ربه واغراضه ، هاجم تiberius السناتو علنا ورفض في بعض الأحيان ان يجتمع به ، بل ضاق ذرعا بتصرفات بعض زعمائه من امثال ارونتيوس وغريمه اسينيوس جالوس ، بل ان غموض الامبراطور وانطوائه على نفسه وكراهيته للتملق بث الرعب والخوف في قلوب بعض زعماء السناتو .

لقد ظلم التاريخ تiberius (١) كثيرا ، فلقد ظلت الفكرة عنه لقرون عديدة انه كان شريرا وأن خلفاءه من امثال كاليجولا ونيرون سلكوا مسلكه ، وقد علل احد علماء التحليل النفسي للتاريخ واسمه الدكتور مارانون في كتابه المشوق تiberius : دراسة في الكراهية « بأن مصدر هذه الكراهية هو التأثير الثقافي المسيحي الذي شكلت تفكير العصور الوسطى وطلائع العصر الحديث اذ ظلم المسيحيون تiberius لأن السيد المسيح قام في عهده برسالة السماوية في فلسطين ثم حدث له ما حدث في حضور بونتيوس بيلاطس الحاكم الروماني لولاية يهوذا الذي لم يكن في قدرته ان يفعل شيئا ضد الحاح الكهنة اليهود .

وكما يقول المؤرخ العظيم رونالد سايم ، « انه من الطبيعي ان يتغير سلوك الانسان كلما تقدمت به السن » خاصة تiberius حيث تعرض في حياته لمشاكل عديدة ، كما حلق به ظلم واجحاف كتمه في نفسه واختزنه طويلا وظل هذا الكتمان يغلي في أعماق نفسه حتى انفجر كالبركان الرهيب (٢) .

(١) فيما يخص بالتهم التي وجهت الى تiberius وجهه نظر ناكيتوس في ذلك انظر
منالة
Von Fritz, Classical Philology 1957, p. 78 ff.

cf. G. Maranon, op. cit., p. VI.

(٢)

ثانيا : جايوس كاليجولا امبراطورا

(٣٧ - ٤١ ميلادية)

Gaius Caligula

كان تيبيريوس قد اوصى بأن يعين جايوس الابن الوحيد المتبقى من
انساء ابن اخيه جرمانيكوس الذين فتك بهم ، وكذلك حفيده تيبيريوس
حميلوس Tiberius Gemellus وهو ابن ابنه دروسوس) ورثة على ممتلكاته
الخاصة . وا عرض الأمر على السناتو لاختيار احدهما رحجت كفة
جايوس ، لأن كراهية الامبراطور الراحل داخل مارجات السناتو كانت
واضحة ، اذ رفض الأعضاء الانعام عليه بشرف التالية بعد الموت ، وكان
من الطبيعي ان يفضلوا ابن جرمانيكوس المحبوب على حفيد الامبراطور ،
بل ان جايوس كان يتمتع بثقة مأكرو وكان هذا الأخير من أبرز الشخصيات
التي أثرت على الرأي العام داخل مدرجات السناتو حتى اختير جايوس
امبراطورا ، ومن ثم انعم السناتو عليه بالامبريوم والسلطة التربيونية مدى
الحياة ، وكان جايوس وقتذاك لم يتعد الخامسة والعشرين ربيعا (١) .

ولقد ساد الفرح والرضاء الناس بعد اختيار جايوس . وبدأ جايوس
عهدا جديدا، فقد اطلق سراح المسجونين السياسيين، وألغى نظام المخبين،
وخفض الضرائب عن كاهل الناس ، وزاد اعتمادات النفقات العامة ، واعاد
نظام الانتخابات عن طريق المجالس الشعبية ، وأعلن تبنيه لحفيد تيبيريوس
بل انه اخرج عمه كلاوديوس من اعتكافه في مزرعته وجعله قنصلا
شريكا له في الحكم . كما أبدى الامبراطور الشاب روحا « عصرية » وتقديمة
في حبه في للمسرح والرياضة والمهرجانات بعكس تيبيريوس تماما . ومن ثم
كان جايوس معبود السناتو والجيش والجماهير الرومانية في الفترة المبكرة
من حكمه .

(١) مصادونا عن الامبراطور جايوس هي :

Suetonius, Gaius Caligula ; Dio Cassius, book 59 ; Josephus, Anti Jud.
XVIII, 205, XI, 211 ; Philo, In Flaccum : legatio ad Gaium ; Tacitus Annales,
book 7 and 8.

(معظمة مفقود)

. وقد جمع تشارلز ووث كل المصادر عن جايوس في مقاله أنظر :

M.P. Charlesworth, Cambridge Historical Journal (1933), p. 105 ff.

وكذلك انظر :

J.P.V.D. Blason : The Emperor Gaius, Oxford Univ. Press, 1934.

وهو كتاب مفيد وشامل



الامبراطور كاليجولا
(متحف الكابيتول بروما)

ولكن هذا السرور لم يدم طويلا لان جايوس كان ضعيف البنية مختل الشعور ، كما ان تيبيريوس لم يدرجه على ادارة شئون الامبراطورية اذ قضى وقته حبس القصر في كابري ، وكان اعلى منصب وصل اليه هو وظيفة الكوايستور . بل ان الفتى عانى من الرعب وشاهد امه واخويه وهما يسقطان ضحية لمؤامرة سيانوس ، بل انه ظل لفترة ينتظر حتفه ، وفجأة تغير الموقف من النقيض الى النقيض ، عندما وجد جايوس المضطهد نفسه امبراطورا وكان لذلك تأثير كبير على اهتزاز شخصيته .

لقد تربى جايوس في بيت جدته انطونيا ابنة ماركوس انطونيوس واكتافيا حيث التدليل والرعاية ، بل انه تربى في صحبة امراء شرقيين من امثال الامير اليهودي هيروودس اجريبا Herodes Agrippa حفيد هيروودس الكبير ، وابناء امراء تراكيا ، فتعلم منهم فكرة الحكم الشرقي الذي كان سائدا في الممالك الهلينستية . فضلا عن ذلك فقد قضى جايوس ايامه الاولى مع أسرته في معسكر للجيش قرب الراين حيث دله الجنود واطلقوا عليه اسم « ذو النعل الصغير (١) » وذلك لان امه اجربينا اعتادت ان تلبسه لباس الجنود الرومان بما في ذلك النعل الصغير ، ومن ثم اطلق عليه لقب كاليجولا والذي لا تزال نعرفه به حتى الآن .

وعلى اى حال لم يكد يمض على توليه العرش ستة اشهر حتى داهمه مرض شديد اثر على قواه العقلية والنفسية ، ونهض منه وقد ظهرت عليه علامات الجنون ، وراح يتحدث عن اللاحدود في الحكم المطلق ، ويدعو الناس الى عبادته جهرا ، بل أعلن تأليه شقيقته واساء معاملته عمه كلاوديوس (٢) وبنى جسرا عاليا ربط ما بين القصر الجمهوري فوق تل البلاتين ومعبد جوبيتر فوق الكابيتول الذي أعلن انه شقيقه ، ثم حدد القرايين والاضحيات التي يجب ان تقدم لشخصه ، بل اتهم بانه حاول تقليد ملوك البطالمة في شروعه الزواج من شقيقته . ولما راح يدعو الى فكرة الحكم (٣) المطلق فقد نبذ السناتو واحتقر الحقوق السياسية التي كان يتحدث

(١) وهو باللاتينية Caligula اي النعل المدجج بالمسامير وتصغيرها كاليجولا Caligula

(٢) يقول سويتونيوس ان كاليجولا ضاق ذرعا بلان يلقب الناس عمه كلاوديوس بالعم Patruus لان ذلك يظهره كما لو كان وصيا عليه . وقد وصل به الغضب ذات مرة ان القى بعمه في النهر بملابسه لمجرد ان جاء على رأس وفد ليهنئ ابن اخيه الامبراطور بنجاة من مؤامرة دبرها اليبندوس وجايتوليوس . وقد وقع ذلك الحادث في المانيا انظر :

Suetonius, Gaius, V.

(٣) ولهذا جعله الروائي والفيلسوف الفرنسي البير كامى موضوع رواية هي : Caligula وقد ترجمت هذه الترجمة الى العربية تحت عنوان الامبراطور بطارد القمر .

عنها الجمهوريون ، وطالب بأن يلقب بالمولى (dominus) كما انقلب جايوس على اغنياء السناتو وكبار الموظفين لان سياسة البذخ والاسراف افلست الخزانة وسرعان ما جعلته في حاجة الى الاموال ومن ثم استخدم المخبرين لمعرفة اسماء الاغنياء والموسرين وبالتالي لكي يصادر اموالهم وضياعهم . واكثر من هذا طلب من المخبرين التبليغ عن كل من عادى يوما ما امه واخوته او تعاون مع سيانوس . وسرعان ما دبر اغتيال جميلوس حفيد تيبيريوس ، واشيع انه عاشر اخته دروسيللا Drusilla معاشرة الأزواج ولما ماتت امر برفسها الى مصاف الآلهة . ولما اعترضت اختاه على تصرفاته امر بنفيهما . وبلغ به احتقار الناس ان أعلن انه عين حصانه نبيلًا وكان ينوى تعيينه قنصلا شريكا له في الحكم .

ومهما يقال فقد قام جايوس بتنفيذ عدد من المشروعات الهامة، فقد قام باصلاح الطرق الهامة في اسبانيا . وبنى فنانا في بولونيا لارشاد السفن القادمة من بريطانيا ، وعاقب متاولى انشاء الطرق الايطاليين ممن فشلوا في تنفيذ عقودهم كما يجب ان تكون ، ثم شرع في بناء جرين لنقل المياه aqueduct في روما .

كما اتبع نهج سلفة في سياسة الخارجية بانتائه العديد من الولايات والممالك العميلة وانشأ عددا من الممالك في تراكييا وارمينيا ليعين عليها اصداقاه ، كما عين صديقة اليهودى هيروديس اجريبا (١) ملكا على ربع يهوذا (جودايا) Judaea كما قام جايوس بمعاينة بعض الملوك الذين لم يعجبوه مثل مثيريداتيس ملك ارمينيا وبطليموس ملك موريتانيا الذي قتله وادمج مملكته في ولاية افريقيا ، كما اقام بزيارة لمسكرات الجيش على نهر الراين .

صدامه مع اليهود :

ادى اصرار الامبراطور على الزام شعوب الامبراطورية على اعتبارة ربا في صورة البشر الى نشوب الخلاف بينه وبين اليهود الذين كانوا قد أعفوا من هذا الالتزام . وقد نشب هذا الخلاف بعد حوادث الشغب التي قامت في مدينة الاسكندرية حيث كان تعيش جالية يهودية كبيرة ، ونظرا لتعاون اليهود مع الرومان وانعزالهم عن الحياة العامة وعدم مشاركتهم للاماني الوطنية لمواطني مدينة الاسكندرية ، بل وادعائهم حق التمتع

(١) عن حياة هيرودس اجريبا ومنامراته انظر :

M.P. Charlesworth, Five Men, Character Studies From the Roman Empire, London 1936, Chapter I (Herodes).

بحقوق المواطنة منها (بينما لم يكونوا من بين المؤهلين لها) . فضلا عن تركيز الثروة في أيديهم وسعيهم الدائم للحصول على مزيد من الامتيازات ، فقد أصبحت الجالية اليهودية مكرهة من قبل أهل الاسكندرية . وقد انتهزمواطنو مدينة الاسكندرية مناسبة زيارة هيرودس أجريبا لمدينتهم واستعداد الجالية اليهودية لاستقباله بالحفاوة والتكريم ليقيموا موكبا ساخرا يقوده معتوه عصبوا رأسه باكليل من نبات البردى ووضعوا على ظهره عباءة من السجاد البالى وراحوا يهتفون له . ولما أدركوا أن هيرودس أجريبا ليس الا صديقا للامبراطور لجأوا الى حيلة أخرى وهى الايقاع بين الامبراطور وأصدقائه اليهود عن طريق اظهار ولاءهم لدعوة الامبراطور لعبادة ، فأرغموا اليهود على عبادة تماثيل الامبراطور ، ولما رفض اليهود ذلك اقتحمت الفوغاء بيع اليهود وأقاموا تماثيل الامبراطور بالقوة . ولما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم انولاء للامبراطور ، ومن ثم راحوا يهاجمون منازلهم وينهبون أحياءهم : واسقط في يد فلاكوس الوالى الرومانى (١) على مصر ، واضطر الى مجازاة أهل الاسكندرية باصدار منشور يتهم فيه اليهود بأنهم دخلاء على المدينة ، ومن ثم نزع منهم كافة الامتيازات التى حصلوا عليها بطرق غير مشروعة ، وقد شجع تصرف فلاكوس الفوغاء على مهاجمة اليهود وطردهم من باقى الاحياء ، وساقوهم الى الحى الرابع (حى الدلتا) حيث كانوا يقيمون .

وسرعان ما تحولت مظاهرات الشغب الى نهب حوانيت اليهود وبيعهم وأشعال النار فيها . بل تحولت بعض المظاهرات الى معارك سقط فيها عدد كبير من اليهود .

وسارع اليهود بارسال وفد الى الامبراطور جايوس لتقديم (٢) الشكوى والاحتجاج . ولكن الامبراطور الذى كئن قد عاد لتوه من زيارة معسكرات الراين أظهر عدم اكتراثه فى بادئ الامر ، ولكن صادف حظ اليهود التعس ان يتلقى الامبراطور نبأ تدمير اليهود لمعبد اقامة له اليهود فى مدينة قيصرية بفلسطين فيستولى عليه الغضب ويبعث الى بترونيوس

(١) ظلم اليهود هذا الوالى كما ظلمه السكندريون . وكان مثله مثل الحاكم البريطانى على فلسطين ابان الصراع المرير بين العرب واليهود فى الثلاثينيات من القرن العشرين . ولم يكن صديقا لأى من الطرفين بل كان مخلصا للامبراطور وحده ومصلحة روما فقط انظر :
H. Box, On Philonis Alexandrini -- In Flaccum (1939).

كذلك انظر :

Mary Smallwood : Philo., legatio ad Gaium (1961).
A Garzetti, l'Impero da Tiberio agli Antoniani. Roma (1960). p 599 ff. (٢)

حاكم سوريا يأمره بتنصيب تمثاله في قلب المعبد الكبير في أورشليم مستخدماً في ذلك القوة لو استدعى الأمر . ولكن بترونيوس رأى أن مثل هذا الاجراء قد يدفع اليهود الى الثورة ومن ثم تلكاً في تنفيذ هذا الامر حتى اعفاه موت الامبراطور من تنفيذه .

هكذا ازدادت كراهية الرومان للأمبراطور جايوس لتصرفاته التعسفية ، ومحاولته ملء الخزانة عن طريق مصادرة ممتلكات ضحاياها ، وفرض الضرائب على الناس . وتزوير الوصايا ، مستخدماً جيشاً من المخبرين ، حتى جاءت نهايته في يناير عام ٤١ ميلادية عندما سقط مخرجاً في دمانه تحت طعنات احد ضربات الحرس الجمهوري الذين اهانهم الامبراطور وذلك قبيل القيام برحلة الى مصر التي تزود من حضارتها ، وقلد في التسلط فراعنتها وبطالمتها ، ومن ثم ساعد ذلك على تنفيذ المؤامرة (١) . وسرعان ما ايد باقى قوات الجيش اغتيال الامبراطور واندفعوا ففتكوا بزوجته وبطفله بينما تنفست روما الصعداء .

cf. Josephus, Antiquitatis Judaicae, XIX, 80-82.

(١)

ثالثا : الامبراطور كلاوديوس

من ٤١ — ٥٤ ميلادية

ولما وصلت انباء مصرع كاليجولا الى السناتو ، هلى الاعضاء وبلغ بهم الحماس ان تناقشوا في امكانية العودة الى الاسول الجمهورية ، ولكنهم سرعان ما ادركوا ان الامور لم تعد بأيديهم وانما بأيدي قوات الحرس الجمهورى المتمرد . وحدث اثناء الثورة في القصر ان وجد احد الجنود واسمه جراتوس Gratus العم كلاوديوس مختبئا وراء ستائر أحد غرف القصر فالقى القبض عليه وجره الى معسكر قوات الحرس ، حيث استقبله الجنود بالسخرية ، وقام احدهم بتأدية التحية الامبراطورية ساخرا هاتفا به امبراطورا ، ولكن سرعان ما اصبحت الامر جادا عندما وعد كلاوديوس بمكافأة الحرس الجمهورى واوفى بوعده (٢) ، واصبح هذا تقليدا مؤسفا لكل امبراطور جديد (٣) ، واضطر السناتو مرغما الى الموافقة على ترشيحه منعما عليه بلقب اغسطس وبالسلطات الخاصة بالامبراطور . وهكذا شاءت

مصدرنا عن الامبراطور كلاوديوس هي :

(١) Tacitus, Annales, XI- II (= A.D. 47 to 54 A.D.) ;
Suetonius, Divus Claudius ; Dio Cassius IX ; Seneca Ad Polybium,
Apocolocyntosis ; Josephus, Bell. Jud. ii, 204 ,Antiq. Jud. XIX, 212 etc.

اما المصادر الحديثة فهي

M.P. Charlesworth, Documents illustrating the Reigns of Claudius and Nero.
(1939) ; R. Syme, Tacitus, 2 vols. (Oxford University Press (1958), p. 307 ff.

من الكتب المفيدة عن حياة الامبراطور

V.M. Scurmuzzza, The Emperor Claudius. Harvard University Press 1940 ;
Aldo Momigliano, Claudius --- The Emperor and his Achievement (Second
edition —ith New bibliography : New York, Orford University Press 1961.

(٢) Josephus, Antiquitates, Judaicae, op. cit., XI, 247 ; Suctonius
Claudius, 10,4.

(٣) ظلّ كلاوديوس طوال فترة حكمه سجيناً لهذا الجميل الذى اولاه له الحرس
البرايتورى ومؤازرته له في وجه المعارضين عليه من رجال السناتو واعلن ذلك مرارا وتكرارا
وصكة على النقود حيث ظهرت ثكنات الحرس البرايتورى وهى تحيى الامبراطور وتقدم له
نقبتها وكتب على العملة

Imper (ator) receptus, praetor (iani) recept (l in Fidem). cf. H.

Mattingly and E.A. Sydenham, Roman Imperial Coinage I, pl. V ; cf.
Scurmuzzza, op. cit., p. 62.

الظروف أن يصبح تيبريوس كلاوديوس قيصر جرمانيكوس امبراطورا من باب الصدفة ورغمما عن انفة متحديا السناتو (١) .

كان كلاوديوس قد جاوز الخمسين من عمره ، وكان يؤثر العزلة ، ويبتعد عن الظهور بسبب مظهره المترهل نتيجة لعاهة أصابته أثناء طفولته ، ويقال انه كان يعاني من جراء شلل خفيف (٢) . ولكنه كان ثنائرا متحذلقا بالرغم من انه كان يتلثم ويخرج الكلمات بصعوبة من فمه ، أغرق نفسه في عالم البحث والادب وفقه اللغة اللاتينية (٣) ، وراح ينظر الى العالم من زاوية مثالية . وكان كلاوديوس قد تلقى تعليمة على يد المؤرخ الروماني العظيم تاكيتوس ، وكانت له دراسات في سير العظماء وفي الآثار والتاريخ . ومن أشهر أبحاثه التاريخية بحثه عن أغسطس ، وعن تاريخ قرطاجة ودولة الأتروسكيين . فبذلك كانت له خلفية ثقافية واجتماعية جعلته متفهما للسياسة والحكم وهو امر لم يكن منحققا لاحد من سابقية .

كان كلاوديوس اكولا محبا للشراب . ومتيما بالمراهنات ولعب النرد حتى انه ألف فيها كتابا . كما كان ساديا حبا لمشاهدة المبارزات الدامية ويطيل التأمل في وجه القتلى من المبارزين وهم يلفظون أنفاسهم ، محبا للانتقام ، لا ينسى الجميل ابدا ويقال انه عين أحد الشباب في وظيفة البرايتور وهي وظيفة قضائية هامة لمجرد ان جد هذا الشاب كان قد زارة ايام كان مريضا مهملا في قصر كاليجولا ثم ناوله كوبا من الماء ليشرب (٤) . وكان أول من يصل الى ساحة الالعاب الجلادية ، كما تمتع كلاوديوس بموهبة عجيبة في كسب عطف الناس ، فلقد بالغ سينكا وتاكتوس في وصفه بالغباء (٥) ولكن اعتقد انه كان يتغابي ولم يكن غبيا ، وذلك لان ظهر في كثير

(١) من اسباب ترجيح كفة كلاوديوس ضد معارضي توليته انه كان شقيق جرمانيكوس معبود الجماهير في الامبراطورية من خلف المانيا حتى صحراء سوريا وحدود السودان ويضرب سكراموزا مثلا في التاريخ الحديث باختيار لويس نابليون كرئيس للجمهورية الفرنسية الثانية لانه كان مجرد شقيق نابليون بونابرت انظر

Scramuzza, op. cit., p. 55.

(٢) هو أحدث تشخيص للمرض الذي حاف بالامبراطور في طفولته وكان الاطباء المؤرخون قد اختلفوا في تحديد هذا المرض ثم اتفقوا على انه شلل اطفال

Infantile Paralysis

T. De C. Ruth, The Problem of Claudius, Baltimore, 1924, pp. 133-136, and pp. 15-18.

(٣) كان لكلاوديوس عدة أبحاث في الابجدية الأتروسكية واللاتينية بل حاول اضافة حروف جديدة لهذه الابجدية ولكنه لم ينجح انظر :

Scullard, op. cit., p. 299, p. 235

Suetonius, Claudius, 40, 2 :

(٤) انظر :

Seneca, Apoc 401 ; cf Tacitus, Annales, XI. 28.

(٥)

من المشكلات دبلوماسيا ماهرا . ولكن طيبة قلبه هي التي جعلته يتساهل في بعض الجوانب خاصة مع زوجاته وأصدقائه وموظفيه وعتقائه .

لقد كان كلاوديوس متيما بحب أغسطس لدرجة انه جعل اسمه القسم الأعظم ، وحاول العودة الى أسلوب هذا الامبراطور في التعامل مع هيئة السناتو . لقد كان كلاوديوس آخر من يحلم بالعرش ، اذ ابتعد كلية عن المناصب اللئيم الا من وظيفة القنصل التي وضعه فيها ابن أخيه جايوس سخرية منه ، كما كان الشعب الروماني لا يتوقع مطلقا أن يصبح العم الاعرج المترهل كلاوديوس امبراطورا ، ولكن ثبت أن كلاوديوس أعظم الاباطرة الذين حكموا روما ، فسياسة الليبرالية ومثاليته وحسه المتواصل على الكفاءة والعمل واداء الواجب جعله يفوق سابقه حتى أغسطس نفسه قدرة على الحكم ، بل ان بعض المؤرخين شبهوه بروح يوليوس قيصر الرائدة وبكفاءة النادرة . فكان حكمة عموما حكم العقل المثقف والنفس المتزنة .

سياسة واصلاحاته :

لقد أثرت دراسة التاريخ كثيرا في عقلية الامبراطور كلاوديوس ونظرته لفلسفة الحكم . وأصبح يتخذ خطأ تغلب عليه النظرة المحافظة متتبعا روح الامبراطور أغسطس وتيبريوس .

وبالنسبة للسناتو أظهر الامبراطور احترامه وتبجيله ، وتمنى - بل فعل كل ما في وسعه - لجعله يشارك فعليا في الحكم . ولكن ذلك لم يمنع سوء التفاهم بين السناتو والامبراطور ، فقد غضب رجال السناتو من اتجاه الامبراطور الى الاعتماد على العبيد والعتقاء والاستفادة بهم في تسير شئون الامبراطورية . وملأ بهم مرافقها الادارية والقضائية ، بل اعطاهم سلطة مطلقة وجعل اتصالهم به مباشرا ، ولم يخل الأمر من اصطدام هؤلاء العتقاء بمصالح بعض رجال السناتو ، فحققوا عليهم واثمهم بالبيروقراطية ، وساءهم أن يروا رجالا من أصول اجتماعية وضعيفة وفاسدة يدبرون أمور هامة فوق هاماتهم ، وأخذتهم العزة والانفة والكبرياء . ولكن الفكرة في عقل كلاوديوس كانت وضع نواة لجهاز تنفيذي للدولة بل يعتبر البعض هذه الخطوة النواة الاولى لفكرة الدواوين والوزارات (١) .

Seramuzza, op. cit., p. 50.

(١)

وعن الصراع بين كلاوديوس والسناتو أنظر سلسلة المقالات الآتية :

D. Mac Allindon in American Journal of Philology (1956). p. 113 ff. and 1957, p. 279 ff ; Journal of Roman Studies, 1957, p. 191 ff. ; Latomus, 1957, p. 252. c.

ومما ساءهم أيضا تولى الامبراطور مهمة قديمة منذ ايام الجمهورية
وهى وظيفة الرقيب على السناتو Censor وذلك فى عام ٤٧ ميلادية .
ونفذ النص الجمهورى القديم بحذافيره . واتخذ له شريكا فى هذه الوظيفة
والتي كانت مدة صلاحيتها ثمانية عشر شهرا . وقد هدف كلاوديوس
من جراء ذلك الى وقف المهازل ، وتمشيط السناتو من العناصر المتخمة
بالفساد وادخال العناصر الجديدة فى هذا البيت العتيق .

كذلك اوقف كلاوديوس المهازل التي كانت ترتكب ضد المواطنين
الابرياء باسم قانون الخيانة العظمى : رحد من نفوذ المخبرين المحترفين ،
وبالرغم من هذا اضطر الامبراطور الى محاكمة واعدام عدد من رجال
السناتو ، وقيل انهم خمس وثلانين عضوا بالاضافة الى بضع مئات من رجال
طبقة الفرسان بسبب تأمرهم ضده . كما راح عدد آخر نتيجة للمكائد التي
حاكتها زوجتا الامبراطور وهما ميسالينا Messalina واجربينا الصغرى
Agrippina او نتيجة لدسائس رجال الامبراطور البرجوازيين .

ومن اهم التجديدات الاصلاحية التي جاء بها كلاوديوس هو تطويره
لوظائف الامناء التي كان اغسطس قد اوجدها لعدد من الرجال العتقاء
والعبيد لمساعدته فى ادارة شئون الامبراطورية وتحويلها الى دواوين لها
اختصاصاتها ، وجعل لها رؤساء وذلك بسبب ازدياد المسئوليات التنفيذية
الملقاة على عاتق الامبراطور ، وقد ترأس هذه الدواوين نخبة من رجال
الامبراطور من العتقاء الفادرين والطموحين من امثال باللاس Pallas (١)
رئيس ديوان النفقات (a rationibus) ، ومنافسة ناركيسوس
Narcissus رئيس ديوان المراسلات ab epistulis ، كذلك انشا
كلاوديوس ديوانا لشئون الالتماسات الموجهة للامبراطور a libellis
وديوانا اخرى للشئون القضائية ومحكمة القصر ، وديوانا خاصا لشئون
المكتبة وتسجيل الوثائق a studiis .

وكان مديرو هذه الدواوين رجالا ذوى نفوذ قوى على الامبراطور ،
وبالتالى اصبح لهم تأثير كبير فى رسم السياسة العامة للامبراطورية .
ومهما كانت كفاءتهم فقد كان ينقصهم الخلفية المناسبة والاخلاق التي
كانت تشكل نفسية الارستقراطية الرومانى ، ومن ثم فقد استغل كثير من

(١) عن هذا الرجل ونشاطه انظر مقاله اوست

S-I. Ost., American Journal of Philology (1958) p. 113. ff.

ومن الجدير بالذكر ان رجلا له صيعة فى كراتون . اسمه اوشيم (وفى تبتونس

اسم السرييا) راجع لفرانز اسبرج ، فى افلا القويم :

cf. Papyri Michigan, IV, no. 224.

هؤلاء الرجال مناصبهم في جمع الثروات الضخمة عن طريق الرشاوى والوساطة والمحاباة ، ونشأت البيروقراطية الرومانية وأصبحت مرفداً تفشى في أجهزة الامبراطورية ادى فيما بعد الى تدهورها . وقد نظرت اعضاء السناتو الى هؤلاء الرجال الجدد نظرة احتقار لوضاعة اصولهم الاجتماعية ، ومن ثم اعتبروهم دخلاء على الحكم ، وتحت تأثير هؤلاء الرجال أيضا عين عدد كبير من العتقاء في وظائف مديري الشئون المالية بالولايات *Procuratores* ، ومن ثم سيطروا على الاجراءات القضائية المتعلقة بالشئون المالية ؛ وبذلك أصبحت السلطة الفعلية في يد هؤلاء البيروقراطيين ذوي الأصول الوضعية . وبسبب هذا اتهم تاكيتوس وسينيكا الامبراطور بالرعونة والقباه ولكنه اتهم مبالغ فيه .

لقد بدأ كلاوديوس عهده بحركة واسعة للانشاء والتعمير فأكمل جسور مجارى المياه التى كان ابن اخيه كاليجولا قد شرع فيها ، ورمم القديم منها ، بل عين مشرفا لشئرا . ودعم الجهة المشرفة على ذلك . كما قام الامبراطور ببناء الجسور مجارى المياه في آسيا وأفريقيا وبلاد الغال التى في عهده بدأت تزدهر وتشكل الحضارة الرومانية للأحبال القادمة .

كما أعطى الامبراطور كلاوديوس اهتماما خاصا للتجارة الدولية ، ولم تعرف الامبراطورية حركة انعاش واهتمام بالتجارة والمواصلات مثل تلك الحركة التى قام بها كلاوديوس ، ولم ينتظر الامبراطور اجراءات السناتو الذى كان يشرف على المنشآت العامة ، فراح يشرف على بناء الطرق والمرافق العامة سواء في ايطاليا او في ولايات الامبراطورية . واهتم الامبراطور خاصة ببناء الموانى مثل تخطيطه الجديد للميناء الكبير في أوستيا (١) (ميناء روما) ، بحيث أصبح يستقبل مائتين سفينة في آن واحد ، كما حفر قناة تربط بين نهر التيبر والميناء مما سهل وصول البضائع والواردات الى روما بنفقات ضئيلة . كما زود الميناء بعدد من الأرصفة والورش البحرية . كما قام الامبراطور بتسهيل اجراءات تفريغ ودخول البضائع الى روما ، كما شجع أصحاب السفن على الدخول في تعاقدات لنقل البضائع والغلال من الميناء الى العاصمة باعطائهم مزيدا من الامتيازات مثل التأمين على سفنهم واعفائهم من الضرائب . وبالنسبة الى عامة الشعب الرومانى حرص الامبراطور على تسهيل توزيع القمح (٢)

cf. R. Meiggs, Roman Ostia, (1960)

(١)

وهى دراسة شيقة من الساحة الطبوغرافية والانربة والتاريخية .

D. Van Berchem, les distributions de blé et d'argent à la plèbe romaine sous l'empire, Paris 1939.

وبذلك نل اختصاص توزيع القمح من المنصب السيناتورى *Praefectus annonae* الى نيب السون *Frumentia* وهو منصب

غير سيناتورى .

الرخيص عليهم وجعل هذه المهمة تحت اشرافه شخصيا وليس تحت اشراف رجال السناتو ، لأن روما بدأت تصبح أكثر اعتمادا من ذي قبل على ما تنتجه ولاياتها من القمح من أجل اطعام شعبها .

كما اهتم الامبراطور بشق القنوات خاصة في بلاد الفال وذلك لتسهيل النقل البحري بين بحر الشمال والبحر المتوسط ، كما اصلىح ميناء بولونيا ، كما خطط مشروعا لتجفيف بحيرة فوكيني Fucine في ايطاليا للقضاء على وباء الملاريا ولاستصلاح المزيد من الارض القابلة للزراعة ولتحسين الملاحة الداخلية لنهر ليريس (Liris) .

سياسته الخارجية :

كانت سياسة كلاوديوس الخارجية في الحقيقة خروجاً على الانغلاق والجمود والحرص الزائد الذي كانت تتميز به علاقة روما الخارجية في عهدي اغسطس وتيبريوس ، واصبحت أشبه بعودة صريحة الى سياسة يوليوس قيصر المغامرة والطموحة التوسعية ، فمثلا قام كلاوديوس بضم بريطانيا للامبراطورية الرومانية ، وكان قصده في ذلك استغلال خيرات هذه الجزيرة (التي غالى في تصورها) واحياء روح الصداقة بينه وبين الجنود بالاشتراك معهم شخصيا في هذا الغزو الروماني للجزيرة الغامضة .

وقد تم فتح بريطانيا عام ٤٣ ميلادية واصبحت المنطقة الجنوبية من بريطانيا تماما في حوزة الامبراطورية الرومانية . عام ٤٧ ميلادية ، حيث انشا معبدا لروما ولاغسطس في مدينة كامولودونوم Camuldonum (كولنستر) والتي جعلها عاصمة لولاية بريطانيا . وبهذا دخلت عبادة الامبراطورية في الولاية الجديدة . بل والمبادات السكندرية خاصة ايزيس التي عبت بشدة في بريطانيا وتركت اثرا قويا فيها حتى بعد انتشار المسيحية .

وفي شمال افريقيا واجه كلاوديوس بعض القلاقل والاضطرابات في مملكة موريثانيا التي كانت سلفه الراحل قد اوعز بها لاسقاط بطليموس ملكها في عام ٤٢ ميلادية طمعا في متسادرة امواله وتحويل المملكة الى ولاية رومانية ، وبعد عامين من القتال المرير والمقاومة الشعبية العنيفة قضى كلاوديوس على حركة التمرد عام ٤٤ ميلادية وسم موريثانيا الى ولايتين امبراطوريتين هما موريثانيا القيصرية Mauretania Caesariensis في الشرق وولاية موريثانيا منجدة Mauretania Tingitana في الغرب .

كذلك أبى كلاوديوس على معظم الممالك النسيطة ، ولم يقيم إلا بضم بعضها لتصبح ولايات رومانية تحت الحاح اسباب معينة ، فمثلا اضطر لوضع حد للصراعات التي سادت البيت المال في تراكيا عقب موت ملكها ، فجعلها ولاية رومانية عام ٤٦ ميلادية ، وفعل نفس الشيء بمملكة يهودا بعد موت هيروديس اجريبا ، والحقيقة كان كلاوديوس قد عينه ملكا على هذه المملكة عام ٤١ ميلادية بعد توسيع رقعتها ، وكان قصده في ذلك إبعاد لليهود عما حاق بهم على يد سلفه الراحل كاليجولا واطهار شكره لهرودس للاهتمام والمساعدة التي بذلها من أجل وصول كلاوديوس الى الحكم .

ولما مات هيرودس عام ٤٤ ميلادية ، سارع كلاوديوس بجعل المملكة شبه ولاية رومانية باسم ولاية يهودا *Judaea* ووضعها تحت ادارة مسئول روماني بدرجة بروكوراتور *Procurator*

كذلك اقام كلاوديوس علاقات وثيقة مع ممالك البحر الاسود خاصة مملكة كرميا عند مخرج هذا البحر تجاد روسيا ، وكان هدفه هو جعل البحر الاسود بحيرة رومانية ، كما قام بتطهيره من عصابات القراصنة ، ومن الواضح ان الامبراطور كان يهدف الى المزيد من التوسع الاقتصادي والتجاري في هذه المنطقة الفنية بالقمح الاوكراني الشهير .

كما اقتدى كلاوديوس بروح بوليوس قيصر في تعامله مع مواطني الولايات الرومانية وفي اقامة العديد من المستعمرات الرومانية ، وفي تحويل بعض المستعمرات الرومانية الى مدن رومانية تشع الحضارة اللاتينية لتضئ عالم البرابرة . وقد وصل لنا جزء من خطبة للامبراطور القاها في السناتو بصفته رقيبا دافع فيها عن سياسة الناهل في منح الجنسية الرومانية الى شعوب الامبراطورية خاصة شعوب الغال بل اصر على ان يتساوى مواطنو الامبراطورية سواء داخل روما او في الاقاليم في احقيتهم للتقدم للوظائف العامة . كما يتضح من ذلك ان عين بعض زعماء الغال أعضاء في مجلس الشيوخ الروماني . وقد اظهر التعداد السكاني الذي أجرى عام ٤٧ - ٤٨ ميلادية أن عدد المتمتعين بالجنسية الرومانية بلغ ٩٨٤ر٥٠٠٠ بزيادة مليون عن عددهم أيام أغسطس (١) .

نقد أبدى كلاوديوس اهتماما خاصا بشئون ادارة الولايات الرومانية ، وكان جادا يعني ما يقول في محاولته رفع كفاءة موظفيه وجعلهم شرفاء

امناء . كما كان دبلوماسيا في مناقشته طلبات سكان الولايات كما يتضح من رده على الطلب الذي تقدم به شعب الاسكندرية مطالبين بعودة مجلس الشورى الخاص بالمدينة (١) .

محاكم القصر :

ولكن النقد الذي وجهه المؤرخون القدامى الى الامبراطور كلاوديوس هو ضعفه ، وانسياقه وراء رجاله العتقاء ، ورضوخه لرغبات زوجته ميسالينا واجربينا ، وربما كان في الاتهام مبالغة خاصة وان مؤرخى هذا العصر كانوا من الارستقراطيين الذين ضايقتهم اعتماد الامبراطور على الرجال المعتقين في ادارة شئون الامبراطورية ، ولكن الذى لا شك فيه هو وجود ظواهر غير صحيحة في القصر الامبراطورى نتيجة لتدخل زوجات الامبراطور، خاصة ان الامبراطور كان رقيقا متلاطفا معهن ضعيفا امامهن . وكان حظ الامبراطور في الزواج سيئا . فقد تزوج اربع مرات ، ولم يكن من بين هذه الزوجات زوجة واحدة صالحة ، بل كلهن كن سيئات ، فاسدات ، وطموحات وشريرات . واقد انجب الامبراطور من زوجته الثالثة ميسالينا ولدا وبنتا هما بريتانيكوس Britannicus واوكتافيا .

وقد بلغ الاستهتار بهذه الزوجة ان اقامت علاقات مع رجال البلاط ، وشاعت علاقاتها الفرامية مع شاب ارستقراطى هو جايوس سيليوس Gaius Silius ، وانتهزت ذات مرة غياب الامبراطور في رحلة تفتيشية الى ميناء اوستيا (٢) فأقامت حفل زفافها على هذا الفتى في القصر ، وقد تضايق رجال الامبراطور من تصرفات الامبراطورة خشية ان تدبر قتل الامبراطور وتعين عشيقها مكانه ، وقرروا التخلص من ميسالينا بأى

(١) عن مشكلة مجلس الشورى في مدينة الاسكندرية انظر مقالة الأستاذ الدو مومليانو A Momigliano J.R.S., 1044, p. 114. حيث أيد وجود مجلس الشورى وأيد

هذا الرأي الأستاذ الدكتور مصطفى العبادى

cf. M.A. El-Abbadi J.E.A. Vol. 49. (1960), p. 107 ff.

ثم رد تيرنر على هذين الرايين في J.E.A. (1963)

وقد جمع الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على كافة المصادر عن هذه المشكلة

انظر : مصر والامبراطورية الرومانية على ضوء الاوراق البردية ، ص ١٠٦ هامش ٣٠ .
cf Scramuzza, op. cit., pp. 89-90

(٢)

ويبدو انها كانت صحيحة لأعداء الامبراطور الذى اتهموها ان الامبراطور لن يعود

حيا من رحلته وأغروها بلان تنزوج سيليوس لتبقى امبراطورة .

Tacitus. Annales, XI. 25-7 ; Suetonius, Claudius 29.20-36 ; Dio Cassius IX, 31,5.

وسيلة وذهب رئيسهم ناركيسوس الى الامبراطور ليكشف له فضائح
ميسالينا ونصحه بأن يصدر أمرا باعدامها وبالفعل أشرف ناركيسوس
على تنفيذ هذا الحكم .

وبعد موت ميسالينا نصح باللاس مدير الديوان المالى الامبراطور
بالزواج من اجربينا ابنة اخيه جرمانيكوس وشقيقه كاليجولا ، ففعل
الامبراطور ذلك ، بالرغم من أن القانون الرومانى كان يعتبر زواج ابنة
الاخ زواجا غير شرعيا ، وقد استخدمت العروس الجديدة سحرها وفتنتها
للتأثير على الامبراطور لتحقيق اطماعها غير المشروعة ، وكانت هذه العروس
لا تقل عن سابقتها ميسالينا نهما فى جمع التروة والنفوذ عن طريق حيل
بعض رجال القصر الفاسدين . ولما كان الامبراطور رجلا هادئا طيب القلب
فقد كان يصدق ادعائهن باتهام بعض أغنياء الرومان بمدير مؤامرات لاغتياله؛
ومن ثم كانت تجرى محاكمات سيئة داخل القصر (١) بعكس
محاكمات تيرىوس التى كانت علنية . وكان هدف ذلك هو مصادرة
الثروات وتدمير الأعداء الشخصيين لزوجات الامبراطور . لقد كانت اجربينا
زوجة قاسية لا ترحم (٢) وكانت قد سبق لها الزواج من أحد الاشراف
هو جنايوس دوميتيوس اهيئوباربوس
Gnaeus Domitius Ahenobarbus

ومن ثم راحت تحيك المؤامرات لتسهل وصول ابنها الى العرش
كخليفة لكلاوديوس ، ولاقتناع الامبراطور بابعاد ابنه بريتانيكوس ، وبالفعل
أمنت لابنها نيرون عددا من الوظائف الهامة ، وقد اضطر الامبراطور عام
٥٠ ميلادية الى اعلان تبنيه لابنها باسم نيرو كلاوديوس قيصر
Nero Claudius Caesar ، وانعم عليه الامبراطور وهو فى سن الثالثة عشر
بلقب رائد الشباب princeps iuventutis الى جانب سلطة الامبريوم
البروقنصلية (التى تسرى خارج روما فقط) ، وبهذا أصبح الطريق ممهدا
لاعلانه خليفة لكلاوديوس (٢) . وفى عام ٥٣ زوج كلاوديوس نيرون من ابنته
أوكتافيا (التى أصبحت شقيقته بالتبنى) ، ولما أحست الامبراطورة
بأن هناك رأيا يتبناه ناركيسوس بأحقية بريتانيكوس ابن كلاوديوس الشرعى
عن نيرون ابن زوجته المتبنى ، سارعت بدس السم للامبراطور حتى
لا يتراجع عن رايه فتعرض خططها للفشل ، ولا يصل ابنها الى العرش .

B. Baldwin. "Executions Under Claudius : Seneca's ludus de morte (١)
Claudii" Phoenix, 18 (1964), pp. 39-48.

Scramuzza, op. cit., pp. 92-93.

(١)

Scramuzza, op. cit., p. 92.

(٢)

رابعاً : نيرون

(٥٤ - ٦٨ ميلادية)

وما أن أعلن موت الامبراطور حتى تولى نيرون (١) الحكم دون أدنى
تحد أو معارضة خاصة أن أمه أجربينا وعدت الحرس الامبراطورى بمكافأة
جزيلة . وكان نيرون وقتئذ فى السادسة عشرة من عمره . وكان شاباً
عنيفاً ، يتدفق بالصحة والحياة ، ذواقاً للفنون والجمال ، وتجرى فى
عروقه دماء ارسستقراطية نبيلة من آل يوليوس وكلاوديوس وماركوس
أنطونيوس ، الى جانب دماء أسرته لابييه أهينوباربوس *Ahenobarbi* وهى
أسرة نبيلة عريقة عرفت بالقسوة والعنف ، بل أن أباه اشتهر بأنه أغلظ
الناس قلباً واقسامهم طباعاً . وقد انتقاد الامبراطور الشب إلى أمه وإلى
معلمه الأديب والفيلسوف الرواقى الشهير لوكيوس أنايوس سينيكا
Lucius Annaeus Seneca ، وإلى قائد الحرس الامبراطورى ، وهو
جندي قديم وخبير من بلاد الغال الناربوية واسمه بوروس *Burrus* (٢) ،
وقد كانت أجربينا قد عينت الفيلسوف سينيكا عام ٤٩ ميلادية معلماً
للأمير ، وخلال خمس سنوات شكلت هذه الشخصيات الهيئة الحاكمة .
وبالرغم من أنها كانت تحكم بالسلطة المطلقة إلا أنها اتبعت خطأ معقولا يحكم
لصالح خير الامبراطورية ، وأحس الناس بثمار هذه السياسة الحكيمة
فهللوا بأن عهداً ذهبياً من السلام والعدل قد بزغ فجره . وللأسف لم
يديم طويلاً بسبب تدخل أجربينا ورغبتها فى فرض سيطرتها على ابنها ، كما
كانت تفعل مع زوجها من قبل ، وأن تكون هى الرأس الأكبر فى الحكم .
فتصدى لها الفيلسوف سينيكا وقائد الحرس بوروس كما عارضها ابنها
نيرون نفسه ، وكانت وجهة نظرهم هم عدم استساعة حكم المرأة ، ويبدو أن
سينيكا وبوروس كانا يفكران فى انشاء حكومة تقوم على التراث الجمهورى

Tacitus, Annales, xiii-XVI

(١) مصادرنا من نيرون هى :

Suetonius, Nero ; Dio Cassius LXI—LXiii.

أما الوثائق فهى :

M.P. Charlesworth, Documents illustrating the Reigns of Claudius and Nero ;
cf Mattingly, *Op. cit.*

أما المؤلفات الأخرى فهى :

B.W. Henderson, The life and principate of the Emperor Nero, London 1923.

M. Levi : Nerone e i suoi tempi. Milano 1949 ; Charlesworth, JRS (1950),
pp. 69.

(٢) سرى داء السخينة المستعرة الفتنة انبار .

W.C. Mac Derrnott, Latomus, 1949, p 229 ff.



نيرون صبيا
(المتحف البريطاني - لندن)

القديم ، وأن يقدم كل معونة للامبراطور الشاب من أجل ذلك ، وكان سينيكا يمثل الحكمة والتعقل بينما يمثل بوروس الخبرة الواقعية . ولما نشب الصراع بين المستشارين والامبراطورة الأم حاول كل فريق كسب الامبراطور الى جواره باغرائه بالعروض المسرحية . وبحفلات الموسيقى والانشاد ، فضلا عن اتباع تدفق الامبراطور الغير عادى للنساء الجميلات . وتباروا في المبالغة فيما قدموه للامبراطور الذى كان يعشق حياة الصخب واللذة . وكانت النتيجة ان جروا عليهم وعلى الامبراطور الدمار .

كان سينيكا وبوروس (١) يرغبان في جر الامبراطور الى المبادئ الجمهورية القديمة ، وكان الامبراطور بدوره يتعد عنها بالرغم من انه رفض وظيفة القنصلية الدائمة لا حبا في التواضع بل ابتعادا عن الجمهورية القديمة ونظمها وحتى لا يتهم بأنه خرج على خط المؤسس العظيم اغسطس ، والحق يقال ان الجمهور الرومانى كان قد تغير ، ولم يعد كما كان أيام الجمهورية؛ نى لم يعد للفرد اى حقوق تحميه ، بل اصبح الامبراطور هو حامى الحقوق الشرعية للمواطنين . ولم يدر الشعب الرومانى بهذا التغير الكبير لان الازدهار الاقتصادى وإلرشاء انساهم المطالبة والتمسك بالحقوق القانونية للأفراد ، خاصة انهم كانوا يجنون ثمار المشروعات الكبرى التى كانت تقوم بها الحكومة ، مثل بناء الطرق وحمايتها وتزويدها بالخدمات خدمة للتجارة ، كذلك اهتمت الحكومة بالملاحة النهرية عن طريق الأنهار والقنوات الصالحة للملاحة ، كما ان الحكومة عنت بالموانىء وتوسيعها واصلاحها سواء في ايطاليا او خارجها اى في الولايات الرومانية كل هذا ادى الى تدفق الرشاء وجعل الناس يتكالبون على الكسب المادى .

ولم يمض وقت طويل حتى بدا الامبراطور يتخلص من الدائرة التى فرضت نفسها عليه . ففي عام ٥٥ ميلادية دبر مقلل بريتانيكوس ابن كلاوديوس اى ابن اخيه بالنبنى حتى لا ينازعه في المطالبة بالعرش . ثم بدأ نيرون يهيم حبا بزوجة رومانية هى بوبابا سابينا Poppaea Sabina وكانت زوجة لرجل من الأشراف هو ماركوس سالفىوس أوتو Marcus Salvius Otho ، ولما عتفنه امه لهذا ولانصرافه الى الفن والشعر والتمثيل والفناء ولعدم اكترائه بفن الحكم غضب منها . وتحت تأثير بوبابا

cf A. Garzetti. l'Impero da Tiberio agli Antonini. (Milano 1960), (١١) pp. 618-620.

(٢) وهو أحد الجيرالات التى رفعت السلاح في وجه نيرون وثار عليه . انظر الفصل

التالى :

١ م ١١ - تاريخ الامبراطورية الرومانية (

عشيقتة دبر مصرع امه أجربينا عام ٥٩ ميلادية (١) : وما أن تخلص من امه حتى طلق زوجته الشرعية أوكتافيا وتزوج رسميا من سابينا . ولم يترك أوكتافيا وشأنها بل نفاها فيما بعد ثم تخلص منها الى الأبد عام ٦٤ ميلادية .

وبعد اغتيال امه أحس نيرون أنه حر في ممارسة الحكم (٢) وكان قد بلغ وقتذاك الثانية والعشرين من عمره . ومن ثم راح يدير شئون الامبراطورية كما يشاء ، وساعده في ذلك موت بوروس Burrus عام ٦٢ ولم يعد للفيلسوف سينيكا أى تأثير على الامبراطور الذى عين رجلا من صقلية اسمه تيجلينيوس Tigellinus كمستشار له ، ولما وجد الامبراطور ان مشروعاته الخيالية وبذخه الخرافى قد افلس الخزانة العامة لدرجة أن الامبراطور اضطر الى خفض قيمة العملة الرومانية لأول مرة وكان تصرفا معقولا من الناحية الاقتصادية : وتحت الحاح الحاجة الى الأموال لجأ نيرون الى عمليات المصادرة حتى أصبح التحكم المالى فى يد الامبراطور ، حتى الخزانة العامة التى كان يشرف عليها اعضاء السناتو أصبحت تحت اشراف مسئول من الحرس الامبراطورى . وكلما ازدادت حاجة الامبراطور الى الأموال لتحقيق اوهامه واحلامه الخيالية كلما لجأ الى الطرق اللا اخلاقية مثل الصاق تهمة الخيانة العظمى ببعض الأغنياء لمصادرة أموالهم ، وقد ساعده المستشار الصقلى الجديد فى بداية حكم الارهاب ضد الأثرياء وضد الارستقراطيين الذين كانوا يثيرون غيرة نيرون ورجال بلاطه .

كان منبع جنون نيرون ولعله الشديد بالثقافة والفن الاغريقى حتى فقد اتزانة : اذ تمنى أن ينقل بلاد اليونان وحضارتها والاسكندرية وفنونها ومؤسساتها الى روما ، كما كان عاشقا للمباريات الرياضية والتراث الفنى الذى شهدته العالم الهلنستى ، وكان نيرون يعتقد أنه فنان موهوب لا يجاريه فى عبقريته أحد ، فراح يتدرب على الفناء ويتمنى أن يهزم أعداءه

(١) وذلك بذبحها على يد أحد رجاله فى فيلتها فى باولي Bauli بعد أن فشلت محاولته الأولى باغراقها فى بحيرة بقلب قاربها ولكن الأم تمكنت من السباحة حتى الشاطئ انظر :

Tacitus, Annales, XIV, 4-8 ; Ranon Katzoff : Where was Agrippina murdered ? Historia, Band XXII (1973). Heft 1, p. 72-78.

cf M.P. Charlesworth, Journal of Roman Studies, 1950, p. 69 ff. (٢)

كما ظهر نيرون مصورا على النقود فى صورة أبوللون رب الشعر والموسيقى يعرف مثله على القبشارة الربانية انظر :

Sutherland, op. cit., p 170, pl. XIV, ».

وعن نيرون الشاعر انظر :

I. Bardon. Revue des Etudes Latines, 1936. p. 337.

في حلقات الشعر أو مباريات العزف (٢) . وفي عام ٥٦ ميلادية ظهر نيرون على المسرح الروماني كمغنى وموسيقى يعزف الحانا ربانية على قيثارته الذهبية ، مما جر عليه استياء الارستقراطية الرومانية فانفضت عنه وبالتالي زادت جرائم نيرون نحوهم .

ولم يقتنع نيرون بموهبته في روما بل أصر على عرض فتونه في المباريات الاغريقية التي كانت تقام في أولمبيا وفي دلفي . ومن أجل هذا قام نيرون عام ٦٦ ميلادية و ٦٧ ميلادية بزيارة مقدسة الى بلاد اليونان ليفنى في موطن ربات الشعر ، واقد أسفر اشتراكه في المباريات الاولمبية عن تتويجه الفا وثمانمائة مرة أى في كافة المباريات التي اشترك فيها ، بالرغم من انه سقط ذات مرة على الارض اثناء سباق العربات . وبالرغم من ان الامبراطور كان يعوز دائما (سواء عن كفاءة أو بالقوة أو بالنمق) في المباريات الفنائية والموسيقية الا ان حرصه الدائم على الفوز جعله في حالة معاناة نفسية دائمة ساعدت على تفجير طاقة الشر في نفسه (١) .

حريق روما وبداية اضطهاد المسيحيين :

وفي عام ٦٤ ميلادية . شب في روما حريق مروع استمر ستة أيام واتى على شطر كبير من المدينة مسببا كارثة قومية كبرى .

بدأ الحريق في حي ماكسيموس Circus Maximus بالقرب من تل البلاتين وامتدت السنة النيران الى المنطقة التجارية ذات الحوانيت المكدسة بالمواد ، فضلا عن شدة الرياح ، مما زاد من انتشار الحريق ليشمل المناطق الواقعة في اعلى التلال والمنزل والمباني الواقعة في اسفلها في نفس الوقت ، وفشلت كل الجهود للقضاء عليه .

احدث الحريق رعبا وهلعا بين النساء والاطفال فهرعوا من ديارهم يحملون ما استطاعوا من المتاع ، وراحوا يتدافعون دون جدوى من السنة النيران التي حاصرتهم من كل جانب . فهلك عدد كبير منهم وسقط عدد آخر تحت اقدام الجماهير المذعورة .

(١) جدير بالذكر ان نيرون الذي كان مكروها في روما والولايات الغربية تمتع بسمعة طيبة في الشرق خاصة مصر . اذ عثر على وثيقة مبايعة صادرة من مدينة أوكسيرينخوس (البهنسا) ومؤرخة في ٢١ هاتور عام ٥٤ م اى بعد وفاة كلاوديوس بخمسة وثلاثين يوما ونيتها وصفوا نيرون بروح العالم المباركة Agathos daimon ويتكرر هذا في نقش انامه أهل قرية أبو صير بالقرب من سقارة ما بين عامى ٥٥ و ٥٦ م وفي قرية ليتوبوليس (أوسيم) كما ظهرت صورته على نقود الاسكندرية تحمل عبارة « منقذ العمورة » (انظر :
عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ص ١٣٠ - ١٣١ كذلك :

كان الامبراطور نيرون وقتذاك في ضاحية انتيوم Antium خارج العاصمة ، ويقال انه تلاكىء ولم يحثه شيء على العودة سوى ان النيران باتت تهدد قصره الجديد الذى بناه ليربط بين تل البلاتين وحدائق مايكيناس الفناء ، وبالفعل عندما عاد وجد النيران قد آتت على هذا القصر ، وابدى الامبراطور اهتماما في تخفيف الآلام عن الناس ، ففتح حدائقه الخاصة لهم ، وبنى لهم اكواخا مؤقتة ، وأنزلهم في المرافق العامة ووزع عليهم الاغطية والقمح . ولكن هذه الاعمال الخيرة قوبلت بالجحود والكران ، لأن شائعة سرت بين الفوغاء ان الامبراطور عندما عاد اندفع الى قاعة الفناء الخاصة في القصر ليمسك بقيثارته ويفنى أغنية حزينة عن « طروادة تحترق » ، لأن الكارثة ذكرته بكارثة طروادة كما رواها شعراء الملاحم الطروادية من الاغريق .

على اى حال لم تتوقف النيران الا في اليوم السادس ، ولكن سرعان ما شب حريق جديد في حى ايمليانوس بطرف المدينة . وقد اتهم الناس الامبراطور بأنه المدبر (١) لهذا الحريق . وبأنه أوعز الى عبيده باشعاله للتخلص من بعض الاحياء القذرة التى لم تصل اليها النيران في الحريق الاول ، وحتى يعيد بناء المدينة من جديد . والحق يقال لم يخف نيرون ارتياحه لاختفاء الاحياء القذرة . وأعلن عن مشروعه الخرافى فى استغلال الأرض الخالية فى بناء عدد من القصور والحدائق الفناء المزينة بالبحيرات الصناعية ، وبالفعل بنى نيرون قصره الكبير المسمى بالبيت الذهبى Domus Aurea (٢) فوق تل الاسكويلين ، وأقام فى حديقته الفناء تماثيله الكثيرة التى كان من بينها تمثال عملاق بلغ طوله مائة وعشرين قدما ، بالإضافة الى روائع النحت الاغريقى التى جلبها الامبراطور معه من بلاد الاغريق .

لقد بلغ من فظاعة الحريق انه لم يسلم من احياء المدينة الا ربع عشرة سوى اربعة احياء ، ويقول المؤرخ تاكيتوس انه من الصعب حصر المباني والمرافق والمعابد التى آتت عليها النيران ، ولكن المدينة خسرت بالقطع كنوزا من التراث والعمران كالمسارح والمكتبات والمعابد وغيرها . ولهذا اعتبروا يوم حدوثها يوما نحسا ، بل قالوا انه يوافق نفس اليوم الذى احرق فيه الغاليون مدينة روما فى التاسع عشر من شهر يوليو منذ اربعمائة وسبع عشرة سنة واربعمائة وسبع عشرة شهرا واربعمائة وسبع عشرة يوما من قبل هذا الحريق .

cf, Tacitus, Annales, XV, 36-41.

(1)

(٢) عن بيت نيرون الذهبى الذى بنى مكانه فيما بعد الكاروسيوم الحالى انظر : Jerard Perkins, Antiquity, 1956, p. 209 ff; Boethius The Golden House of Nero, (Göteborg 1960), chapter 3; Donald R. Dudley, Urbs Roma, p. 138-143.

وقد أدى اغتباط الامبراطور بنتائج هذا الحريق الذى شبهه المؤرخون الأوروبيون بحريق لندن الكبير عام ١٦٦٦ (١) ميلادية . بأن اتهمه الناس بأنه الراس المدبر ، ولكن لا يوجد دليل مادى واحد على صحة هذا الاتهام ، واختلف المؤرخون القدماء فى ذلك (٢) ، ولكن يبدو أن الامبراطور هو الذى اوعز بالفعل الى عبده باشعال النيران فى الحريق الثانى ، لكنه لم يكن مسئولاً بأى حال من الأحوال عن اندلاع الحريق الأول .

ولما كانت خسائر هذا الحريق مروعة فقد بحث الراى العام فى روما عن كبش فداء ، واستغل مستشارو الامبراطور ذلك باتهام المسيحيين باشعال هذا الحريق عمداً لانهم كانوا يعلمون مدى كراهية الشعب الرومانى لهم ، ويرى البعض ان اليهود كانوا وراء الصاق هذه التهمة بالمسيحيين خاصة انه كان لليهود تأثير على زوجة الامبراطور بوبايا سابينا (٢) وقدم المئات من المسيحيين الرومان الى المحاكمة بتهمة « الاتيان بأفعال فوضوية » ، وانزل بهم عقوبات بربرية ، واستقبل المسيحيون الشهداء الموت بالترحاب وبالترانيم المقدسة ، وكان هذا بداية اضطهاد الرومان للمسيحيين الأول ، الذين كانوا يعتقدون ان يوم القيامة قد اذف ، وان نارا ضارية سوف تاتى على العالم ، ومن ثم أدى هذا الى الصاق هذه التهمة بهم (٣) .

ومن المعروف ان القديس مرقس (St. Mark) جاء الى الاسكندرية عام ٦٥ ميلادية لبشر بالدين الجديد وليؤسس الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ، بينما اتجه رفيقاه بطرس وبولوس الى روما ويقول التراث المسيحى انهما هلكا خلال عمليات الاضطهاد الاولى فى عصر نيرون .

الولايات الامبراطورية وسياسة نيرون :

شهد حكم نيرون فترة تدهور فى الادارة الرومانية للولايات وكذلك

(١) كما شبهوا مجهودات الامبراطور نيرون بمجهودات الزعيم الانجليزى Wren
فى تخفيف الآلام عن ضحايا حريق لندن الكبير .

(٢) مثلاً ادان بلينى الاكبر نيرون (Historia Naturalis, 17, 105) بينما ادان
سويتونيوس عبيد الامبراطور (Seutonius, Nero, 31) . بينما اتفق سويتونيوس
وديوكاسيوس فى حادثة انشاد نيرون اغنية حريق طروادة .

(٣) cf. Josephus, Antiqu. Jud. X, 189-196 ; cf. E.M. Smallwood, in Journal
of Theological Studies, 1959, p. 329 ff.

J. Beoujeu L'incendie de Rome en 64 et les Chretiens (Paris 1960); A.N. (٤)
Sherwin-White, Journal of Theological Studies. 1952, p. 199 ff; cf. F.W.
Classical Quartely, 1947, p. 81 ff.

أيضا في علاقات روما بالممالك العميلة لها في الشرق . ولم يهتم نيرون بأى شعب تابع له إلا الاغريق الذى كان متيما بحبهم بخاصة اغريق مدينة الاسكندرية ، اذ أعلن اثناء رحلته الى بلاد اليونان قرارا بمنح الحرية لبلاد اليونان ، ثم أعلن يذكرنا بما أعلنه القائد الرومانى فلامينيوس Flaminius عام ١٩٦ ق.م . . واغلب الظن ان الحرية التى منحها الامبراطور لبلاد اليونان لم تكن تتعدى سوى الاستقلال المحلى والاعفاء من ضريبة الرأس (١) .

وازاء هذا الإهمال اندلعت حركات التمرد والثورات ضد الرومان . ومن أخطر هذه الثورات تلك التى قامت في بريطانيا عام ٦١ ميلادية بزعمارة ملكة الايكنين Iceni والتى كانت تدعى بوديكا Boudicca (٢) وذلك نتيجة لسوء الإدارة في هذه الولاية الجديدة وجشع جامعى الضرائب . واستعلاء الرومان الحضارى ازاء سكان بريطانيا وقتئذ . وبلغ من عنف الثورة في بريطانيا ان دمر العديد من المدن مثل كامولدونوم Camuldonum (كولتشستر) وفيرولاميوم Verulamium (سانت البانز St. Albans) ولونديوم Londinum (لندن) وقتل ما يقرب من سبعين ألف جندي روماني ، بل ان كتيبة رومانية بأكملها قد هلكت في هذا التمرد ولولا ان القائد الرومانى باوليوس Paulius جمع شتات القوات الرومانية ثم أعاد تنظيمها لما تمكن من اخضاع الثوار وبالتالي هزيمتهم حيث اجبرت الملكة بوديكا على الانتحار .

وفي الشرق اندلعت الصراعات في مملكة أرمينيا (٣) . لقد كانت أرمينيا ساحة الصراع السياسى بين روما والبارثيين ، وكان الطرفان يتنافسان على ادخالها في نفوذهم نظرا لأهميتها ، وكان كل منهما يتمنى او يستولى عليها ، ويحرصان على أن يكون الملك الجالس على عرشها صديق لأى منهما . وكان الرومان قد ادعوا نوعا من السيطرة على أرمينيا منذ أيام الجمهورية . ولكن في عهد نيرون أعلن ملك أرمينيا الجديد وهو شقيق لملك البارثيين الغاء الامتيازات والنفوذ الرومانى في مملكته .

وبعد سلسلة من المعارك التى قادها الجنرال الرومانى كوربولو Corbulo التى استمرت من ٥١ الى ٦٧ ميلادية انتهت باتفاق وسط وهو الإبقاء على الملك الثائر بشرط أن يعلن صداقته لروما ويتوج بواسطة نيرون شخصا ، وبالفعل زار هذا الملك روما عام ٦٦ ميلادية ولكن هذا لم يكن نصرا عسكريا للرومان بل حلا وسطا .

cf. A. Momigliano, Journal of Roman Studies, 1944, p. 115 ff

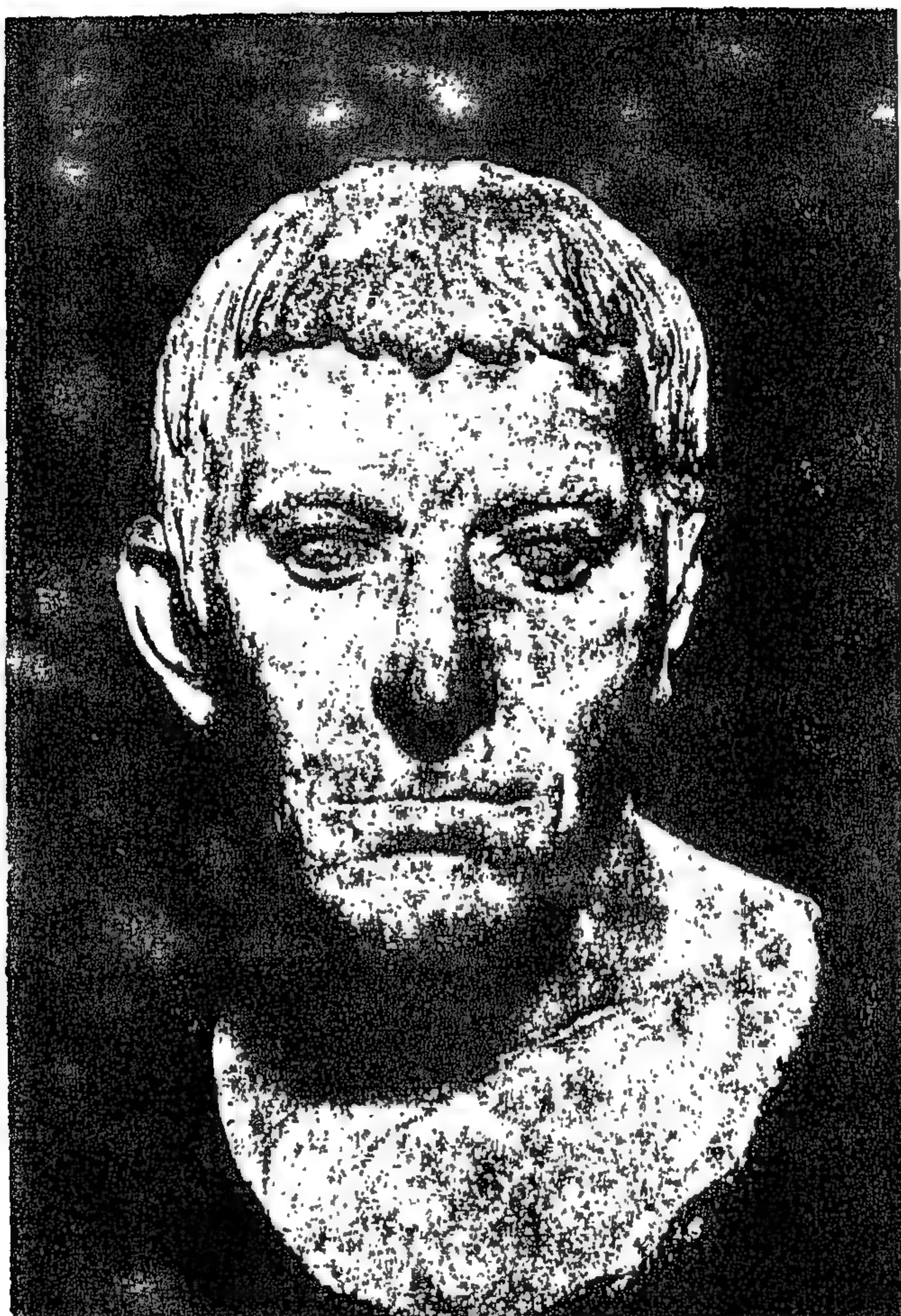
(١)

cf. Ronald Syme, Tacitus, p. 762.

(٢)

cf. D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, vol II, p. 1411

(٣)



الجنرال كوربولو
متحف الكابيتول - روما

كذلك حاول نبرون ان يسيطر على بحر قزوين ويتحكم فى طرق القوافل المحيطة ١١ به والتي كانت ارمينيا تسيطر عليها من البحر الاسود الى الهند شرقا . كما قلده الخيال الجامح الى التفكير فى استكشاف منابع النيل جنوب النوبة ، وكتابة تقرير عن الحياة والحيوان والنبات فيها ، وفى نفس الوقت يحمى ممالك جنوب الجزيرة العربية من عدوان دولة اكسوم الحبشية الناهضة . ولكن هذه المغامرة لم تتم لقيام الثورة ضده (٢) .

كذلك ادت سياسة الامبراطور الفاشلة وجهل موظفيه وقسوة قواته وجشاعة جامعى الضرائب الى دفع فلسطين كلها الى الثورة على الرومان عام ٦٦ ميلادية .

مؤامرة بيسو (٦٥ ميلادية) :

بدا الامبراطور فى عام ٦٢ سلسلة من المحاكمات التى الصقت فيها تهمة الخيانة العظمى ببعض الشخصيات البارزة اما بفرض ايجاد عذر لمصادرة اموالهم او بسبب حقد الامبراطور عليهم وتشككه فيهم . وبالتالى ادى هذا الاجراء والتصرف الارهابى الى تشجيع بعض العناصر الجمهورية الى التفكير فى القيام بانقلاب ضد هذا الامبراطور الطاغية . وقد تزعم السناتور جايوس كالبورنيوس بيسو Gaius Calpurnius Piso احدى هذه المؤامرات بالتعاون مع احدى قادة الحرس الامبراطورى ، ولكن للأسف كشف امر هذا الانقلاب عام ٦٥ . وكان من الطبيعى ان يجنح الامبراطور الى حمامات الدم والاعدام لعدد كبير من الناس من بينهم الشاعر الرومانى الشهير لوكانوس تلميذ سينيكا (٢) ، وعدد آخر من اعضاء مجلس الشيوخ

op. cit., p. 1418.

(١)

J.G.C. Anderson, CAH. X, 880.

(٢)

وقد نشر الأستاذ تيريز وثيفه بردية تتحدث عن اشتباك وقع بين الرومان والنوبيين
انظر :

J.R.S., 1950, p. 57 ff.

وعن دولة اكسوم الحبشية ودورها انظر فوزى المكاوى : مملكة اكسوم دراسة لتاريخ الدولة جامعة القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٩ - ٢٢ ؛ وعن تفاصيل حملة نبرون انظر : عبد اللطيف احمد على - العمل السابق - ص ١٢٩ - ١٣٧ .
ايضا انظر الدراسات التالية :

M. Cary and E.H. Wamington. Ancient Explorer (London 1929), p. 174. V.-
Schur, Orient Politik des Kaiser Nero, Munich 1923.

cf. Ramsay MacMullen, Enemies of the Roman Order. Harvard (٣)
University Press Cambridge Mass, 1967, pp. 23, pp 60-65.

لأنهم اعترضوا على الارهاب الامبراطورى ولم (١) يترك الامبراطور شخصا يارزا دون ان يقضى عليه حتى الجنرال كوربولو بطل معارك ارمينيا دفع الى الانتحار عام ٦٧ ميلادية . واعتقد الامبراطور انه يستطيع تأمين العرش له بتعيين رجال يثق فيهم في القيادات والمناصب الهامة في الدولة . ولكن ولاء هؤلاء الاتباع للامبراطور راح يهتز بسبب تقلب مزاج الامبراطور مما جعلهم يعتقدون ان دوام الحال من المحال ، وفي النهاية دفعهم احساسهم بعدم الامان الى التآمر ضد نيرون والقضاء عليه قبل ان يقضى هو عليهم .

ثورة فندكس Vindex وسقوط نيرون (٦٨ ميلادية) :

وما ان عاد نيرون من رحلته الى بلاد اليونان بعد ان اعلن الانعام على شعبها بالحرية حتى واجه امرا خطرا . فقد اندلعت حركة تمرد كبرى في بلاد الغال يتزعمها جوليوس فندكس Julius Vindex (٢) او « جوليوس المخلص » وكان أحد حكام مقاطعاتها . وسرعان ما ايد الثورة حاكم آخر اسمه سولبيكوس جالبا Sulpicius Galba حاكم ولاية اسبانيا البعيدة ثم انضم الى جالبا صديقة اوتو Otho حاكم لوسيتانيا Lusitania وزوج بوبايا ساينا السابق . ولكن القوات الرومانية المربطة عند الراين بقيادة فرجينوس Verginius عارضت مثل هذه الثورة ، واعلنت انه من حق السناتو فقط ان يعين الامبراطور وليس الجيش ، واعتبر حركة التمرد حركة قومية غالية ومن ثم قضى عليها وقتل فندكس . ولما هتفت القوات الرومانية بفرجينوس امبراطورا رفض قبول ذلك ، بل اعلن انه يضع نفسه في خدمة السناتو ، ولما وصلت هذه الأنباء الى السناتو ازدادت ثقته بنفسه خاصة بعد ان احس بتعاطف الحرس الامبراطورى معه . وبعد ان ادرك انهيار الامبراطور نتيجة لهلعه وجبنه ورعوثته في مواجهة مثل هذه الثورة (٣) عندئذ اعلن السناتو ان الامبراطور عدو للشعب الرومانى . وبالرغم من ان الامبراطور نيرون وجد بعض الضباط ممن كانوا على استعداد للوقوف معه بقواتهم الا انه انهار خاصة بعد ان اعلن الحرس البرايتورى

(١) D. MacA lndon. Senatorial Oppoition to Claudius and Nero, American Journal of Philogy, 77 (1956). pp. 113-132.

(٢) عن الثائر جوليوس فندكس انظر :

Raoss, Epigraphia, 1958. pp 46-120; P.A. Burnt. Latomus, 1959, p. 531 ff;

G. Towensend. Ibid. 1961. p. 337 ; J.C. Hainsworth. Historia, 1962, p. 88 ff.

cf B. A., Brunt, The Fall of Vindex and the Fall of Nero, Latomus 18 (1959), pp. 555-559.

ولاءه للثائر جالبا (١) . وهرب نيرون مع عدد من رجاله المخلصين ، وبعد ان وقف يندب العالم لفقدانه عبقرى وفنان كبير مثله وهو يصرخ (يالى من فنان عظيم يلقى حتفه) ! Qualis artifex pereo دفع بالخنجر فى عنقه وساعده اصدقائه على اكمال المشوار حتى سقط صريعا .

وبموت نيرون ينتهى حكم الاسرة اليوليوكلاودية التى انشأها اغسطس
للامبراطورية الرومانية فى عصر أباطرة الأسرة اليوليوكلاودية :

خامسا : نظرة شاملة عن الأحوال السياسية والثقافية والدينية
للامبراطورية الرومانية فى عصر أباطرة الأسرة اليوليوكلاودية :

لم يكن الاستقرار الذى شهدته فترة حكم -تبريوس سوى ثمار سياسة اغسطس الحكيمة التى لم يخرج عليها تبريوس كثيرا ، ولذا يميل المؤرخون الى اعتبار عصرى اغسطس وتبريوس عصرا واحدا ممتدا سياسيا ٢٧ ق.م. - ٣٧ ميلادية ، ولكن بالرغم من اتباع تبريوس للتراث الجمهورى القديم وتقاليده فى الحكم الا ان الأحوال سارت بالحكم تحت حكمى اغسطس وتبريوس من المشاركة السياسية الى تركيز السلطة فى يد حاكم واحد او ما يمكن تسميته بحكم الفرد autocracy وربما كان مرجع ذلك الى اهمال المواطنين الرومان لحقوقهم السياسية التى خولتها لهم القوانين الجمهورية وهروبهم من المسئوليات التى تفرضها السياسة على المواطنين فى دولة سليمة واعية . ولقد حاول كاليجولا اثناء بداية حكمه القيام بعمل ديماجوجى وهو اعادة الانتخابات الشعبية ولكنه أدرك فشل محاولته وعدم جدواها فهجرها . كما يرجع السبب ايضا الى تكاسل أعضاء السناتو وتقاعسهم وترددهم فى القيام بأى عمل شجاع من أجل الصالح العام او اتحادهم فى صف واحد للمطالبة بحقوق معين ، بل وسادت فيهم روح اللامبالاة والرياء والانفرادية ، وذلك لان الدماء الجديدة التى غلبت على السناتو فى ذلك الوقت أدركت ان الحكم لم يعد يعتمد عليهم ، بل يعتمد على رأس الامير وافكاره . ولقد وضح من البداية مدى ضعف السناتو كهيئة امام الامير منذ ايام تبريوس ، فبينما انسحب تبريوس الى قصره فى جزيرة كابرى لم يستطع السناتو ان يفعل شيئا حتى فى حالة غياب الامبراطور ، ولما وصلت رسالة الامبراطور الشهيرة والمحملة برغباته لم يفعل السناتو شيئا سوى الموافقة على كل ما يريده

(١) كان آخر أغنية غناها نيرون على قيثارته وسط الأحداث المضاربة اعمية اغريقية حزنة من قصيدة بعنوان أوديب فى المنفى وفيها انسد بفول " قرستى واسى واسى قد دفنوا بى الى حنقى " أنظر :

الإمبراطور . لانهم رأوا بأعينهم الجرائم البشعة التي ارتكبتها سيانوس بموافقة الإمبراطور ، وتعلموا من ذلك دروسا أن الدستور لم يعد يضمن الأمن لخدمته . هذا بالرغم من أن تيبريوس شكاه من كسل أعضاء السناتو في مساعدته في النهوض بمشاكل الإمبراطورية .

لقد وجد السناتو نفسه ما هو الا وسيلة للتنفيذ وابهاما للبصم على قرارات الإمبراطور ، وجهازا تابعا له يقوم بأى محاكمة يريدتها الإمبراطور او تمس من قريب او بعيد مصالحه ، حقيقة أن ما حدث لكاليجولا او نيرون كان يمكن أن يكون سلاحا في يد السناتو ، ولكن من الفيران كان يجرؤ أن يضع الجرس في عنق القبط ؟! بل ان ذلك لم يكن يمنع اتجاه الإباطرة نحو تركيز السلطة في أيديهم . كما ان الإباطرة الآخرين بدأوا يحسون ان سيف داموكليس معلق فوق رؤوسهم وقد يسقط عليهم في أى لحظة ، ومن ثم احسوا بالرعب والخوف ، وداهمتهم الشكوك حتى دفعهم الى التجبر والطفيان .

الى جانب ذلك تحولت الخطوات التي قام بها أى امبراطور سواء لأسباب شخصية او كنوع من التصرف الاختياري الذي يصدر عن الإمبراطور نفسه دون أى سند او قاعدة قانونية أصبحت سوابق قانونية ينص عليها القانون . فمثلا اعتاد أغسطس ان يشترك في الحملات الانتخابية لصالح مرشحيه كنوع من التزكية Commendatio حيث كان الناس ينتخبونهم كتعبير عن ثقتهم واحترامهم للإمبراطور ، ولكن لم يكن الشعب مجبرا على ذلك بأى حال من الأحوال . ولما تقدم السن بأغسطس لم يستطع النزول الى ساحة مارس لمثل هذا الغرض واكتفى بترشيح رجاله كتابيا ، وبمرور الزمن أصبح ذلك الزاما قانونيا ثابتا أى ان الإمبراطور أصبح يعين المرشحين دون معارضة . وبالتالي تحول الموظفون السياسيون من مفوضين للشعب ومتحدثين باسمه الى موظفين تنفيذيين لخدمة الإمبراطور وتنفيذ اغراضه حتى ولو كانت ضد مصالح الشعب .

اخيرا ظهر عامل جديد راح يهدد الأجهزة السياسية والدستورية وهو الجيش الروماني ، وكان أغسطس يعلم بخطورة ذلك ولكنه كان يسيطر عليه بقوة شخصيته وبوسائله وأجهزته . ولما جاء كلاوديوس أعلن منحه مكافأة للحرس الجمهوري اذا ما ساعده في الوصول الى المرش ، وضاعف نيرون هذه المكافأة عندما استخدم نفس الأسلوب . كما ان عدم العناية بالجيش أدى الى فنور العلاقة التقنيديية بينه وبين الإمبراطور ، وساعد على بدمره ...

جيوش الحدود عام ٦٨ ميلادية ضد الامبراطور وحكومته المركزية ومن ثم اطاحت بحكم الأسرة اليوليوكلاودية .

أما من ناحية التراث الفكرى والثقافى فى المجتمع فقد تأثر أيضا بالتحول السياسى . فمثلا أهمل الرومان التركيز على تعلم البلاغة والخطابة وفن المناظرات كما كان الحال فى عصر الجمهورية نظرا لعدم حاجة الناس الى استخدامها اذا لم تعد هناك لا الحرية ولا المؤسسات السياسية ، ولم يعد يهتم بها الا فئة واحدة من الناس هم الذين تمسكوا بدراسة الجدل والبلاغة وفن الالتقاء لانهم هم الذين ينوون العمل فى حقل المحاماة ، ونظرا لتعدد القانون المدنى الرومانى وتنوع نصوصه ومواده فقد برزت طبقة جديدة من العاملين فى حقل القضاء هم طبقة الخبراء القانونيين Juriprudents الذين يدرسون القضايا ويفحصون جوانبها ويفتون بما يجب أن يتخذ بشأنها ومن ثم يقوم المحامى بعد ذلك بمهمة عرض هذه الجوانب مستخدما الخطابة والبلاغة والالتقاء الراقى من أجل التأثير على الفضاة .

وكان تدريب الخطابة من انشاء والقاء يتم عن طريق منح الطالب موضوعات وهمية وقضايا فرضية ليس لها أى علاقة بالواقع ضمانا للحرية وبعدا عن المشاكل السياسية ، وقد يأخذ بعض فلاسفة التربية والتعليم على هذه الطريقة أنها تفرق عقلية الطلاب فى الجدل والحوار Declamatio الذى قد يصبح مجردا عن الواقع ، ولكن هذا النظام هو الذى أمد روما بأجيال (١) من الإداريين وجهابذة القانون ، ولولاه لما كانت دواليب العمل والإدارة قادرة على أن تعمل وتواجه المشكلات الاجتماعية والتنظيمية المعقدة ، بل خلق هذا النظام الموظف الرومانى الذى استطاع أن يتخذ القرار المناسب فى ظروف صعبة ومتغيرة . وهذه هى روعة الأجيال التى حملت رسالة الحفاظ على الامبراطورية .

أما من ناحية التذوق الأدبى للجماهير الرومانية فى ذلك العصر فقد وضع أسينيوس بوليو Asinius Pollio - وهو أعظم العبقريات الأدبية والتاريخية فى أواخر عصر الجمهورية - تقليدا أصبح شائعا وهو قراءة الأعمال الأدبية والتاريخية على الناس ، ومن ثم أصبح الأدباء يبحثون عن عناصر الإثارة من تورية وطباق وجناس ، حتى أصبحت الصنعة فى الأدب هى الروح السائدة فى ذلك العصر الذى أصبح يعرف بالعصر الفضى للأدب

S.F. Bonner, Roman Declamation in the Late Republic and Early Empire, (١)
liverpool 1950 ; A. Gwynn, Roman Educations From Cicero to Quintilian,
New York, Oxford University Press (1926).

اللاتيني Latin Silver age (١) خاصة ان الاماني والامال السياسية التي منها كان الأديب في العصر الأوغسطي يستمد وحيه والهامه لم تعد قائمة ، ولم يعد هناك « دوافع عاطفية » حاملة بعهد ذهبي ومجتمع عظيم تعطي تكة رومانتيكية للأدب ، ومن ثم فقد الأدب الروح والتجأ الأديب الى الاغراق في فن الصناعة والزخرفة الأدبية المعقدة والتنقيح المتواصل حتى كاد الأدب ان يصبح مهارة صناعية كقطعة نسيج محملة بالزخرفة المركبة والمجردة وليس كما كان لوحة تصويرية تنطلق بالحياة وبالطبيعة وبالبعد الثالث .

الى جانب ذلك ظهر صوت القوة والسيطرة الامبراطورية على الأدب والادباء فتعكر صفو الحرية الهادئة والحالة التي كان يعمل من خلالها الأديب والمؤرخ ، ويرى البعض ان بداية هذه الظاهرة بدأت بما فعله الامبراطور اغسطس بالشاعر أوفيدوس ، ولكنها ازدادت على أيدي خلفائه خاصة بالنسبة للمؤرخين ، فقد تعامل اباطرة هذه الاسرة بقسوة شديدة مع المؤرخين الذين وجهوا نقدا لفلسفة الحكم ، وابدوا انتاج الكثيرين منهم ، وبالرغم من ان هذا العصر شهد افواجا من المؤرخين الا أننا لا نعرف منهم غير أسماء حفنة ضاع معظم انتاجها ، ولم يتبق من التاريخ سوى الاعمال التي سجلت الاباطرة واغرقتهم بالرياء والمديح والتزلف ، ومن امثلة هؤلاء المؤرخين فيليوس باتركولوس Velleius Paterculus ذلك العسكري المتزلف الذي تبقى لنا من اعماله جزءا كبيرا يفتى معظمه حياة الامبراطور تيبيريوس بصورة سريعة ، كما ان وظيفته السياسية في عهد تيبيريوس قيدت حريته في النقد ، اذ لم يوجه نقدا واحدا للامبراطور ولا حتى لوزيره الشرير سيانوس . بل كله مديح واعجاب الجندي الاعمى بقيادته الرشيدة .

كذلك تعكس اعمال الاديب سينيكا معلم نيرون تأثير المبالغة في الصنعة الادبية وتدخل السلطة الحاكمة . فقد كتب سينيكا العديد من الابحاث التي عالجت عدة موضوعات ، كما ترك لنا تسع مسرحيات تراجمية كلها تظهر ولع ذلك العصر بفن الجدل والالقاء . وبالرغم من ان سينيكا كان فيلسوفا رواقيا الا ان الجوقة في مسرحياته كانت تردد احيانا افكارا ابيقورية وهذا دليل على الاتجاه نحو التنوع وعدم التقيد بفكرة واحدة حتى في المدارس ذات النظريات المحددة وذلك لاختفاء النساك المتطرفين القدامى والاتجاه العام نحو الاستزاج والتأثير المتنوع ، والحرية في الاختيار دون التزام

1. Duff ; A literary History of Rome, Revised editions, New York (1953).
cf MacMullen, op. cit. , pp. 23-26, 31-34.

وتقيد بأي شيء . ولما كانت مسرحيات سينيكّا تعبر عن مناظر دموية وعنفية فقد ظنّها بعض النقاد « أنها أشبه بأسكتشات » أعدت للمعرض أثناء الإلقاء . كذلك نسب إلى سينيكّا تأليف عمل تافه اسمه Apocolyntosis أى فى تآليه كلاوديوس وأن صح ذلك فإن هذا العمل الأدبى ربما كتب بأمر من الامبراطورة اجربينا الام بعد موت زوجها أو بأمر من الامبراطور نيرون حتى يستفيد من هذا التآليه ويصبح ابن المؤله كلاوديوس بالتبنى .

ومهما يبدو هذا العمل الأدبى تافها من ناحية الموضوع الا انه انعكاس صادق وحي لأفكار العصر وللممارسة الدستورية وللجسارة الرومانية .

ومن شعراء هذه الفترة المشهورين كاتب الاجراما والهجاء مارنياليس الاسبانى الاصل Martialis الذى بدا يدخل عالم الادب فى عصر نيرون ، لكنه ازدهر وأصبح مشهورا فيما بعد فى عصر الاسرة الفلافية . كذلك ترك لنا الشاعر لوكانوس مجموعة من أشعاره عن قيصر والحروب الاهلية لم يكملها بسبب القبض عليه واعدامه عام ٦٥ (١) فى مؤامرة بيسو ضد نيرون ويعرف هذا العمل باسم فارساليا Pharsalia واشتهر بالعنف وقوة التأثير مما يدل على عبقرية لوكانوس التى نجمت من العوارض الفكرية التى سادت فى الاعمال الادبية فى ذلك العصر .

كذلك نسمع عن شاعر رواقى اسمه برسسيوس نشرت له ستة اجرامات بعد موته عام ٦٢ ميلادية كلها تعكس الازدراء للحياة من ناحية الفكرة ، اما من ناحية الصنعة فهى محملة بالأفكار حتى ان المعلقين يحتاجون فى فهمها الى التطويل فى الشرح والى الكثير من التفسيرات الهامشية .

أما كتاب النشر فى عصر الاسرة البوليوكلاودية فقد اهتموا بالموضوعات الفنية والعملية والمهنية ، فمثلا كتب كولوميلّا Columella بحثا عن الزراعة De Re Rustica ظهر فيه التقدم العلمى لوسائل الزراعة وادارة الاراضى ، كذلك فان مؤلف بلينيوس الاكبر عن التاريخ الطبيعى Historia Naturalis جاء موسوعة علمية للمعلومات منها الصحيح ومنها غير الصحيح شملت كل جوانب الحياة . ولذا فهى منجم ثرى للباحثين عن المعرفة والعلوم فى هذه الفترة ابتداء من مصادر البحر الميت حتى تعداد المدن الإيطالية .

وأخيرا يجب ألا يفوتنا عمل بترونيوس الطريف والساخر والمعروف باسم ساتيريكون Satiricon ، وقد وصل لنا من هذا العمل الذى يبدو

(١) عن مأساة لوكانوس وعلاقته بمؤامرة بيسو

cf. Mac Mullen, op. cit., pp. 23-26, 31-34.

انه جاوز العشرين كتابا ثلاثة كتب فقط . وعن طريقها عرفنا هذا العمل الذي كان عبارة عن نشر راق وممزوج بالشعر يحكى رواية ثلاثة اجلاف ذوى قدر ضئيل من التعليم ولا يؤمنون بأى مبدى ، ولكن يسود اقوالهم روح النكات والبداهة الحاضرة ويسيطر عليهم غرائز الجنس واشباعه ، هؤلاء الاباحيون الثلاثة يقومون برحلة طويلة يتخللها المغامرات فى جنوب ايطاليا . ومن ثم جاء هذا المؤلف تسجيلا لحياة الناس فى هذه المنطقة من احرار وعبيد ، ونسك وعلماء . وصعاليك ، ومحدثى نعمة ومغامرين ، وباحثين عن الثراء ، وفقراء معدومين . كذلك فان طريقة الكلام بين هذه الطبقات سجلت لنا اللغة اللاتينية الدارجة فى هذه المنطقة من الريف الايطالى . بل جاءت تسجيلا لافكار الناس وشكاواهم واحلامهم واطماعهم . فضلا عن ان صعاليك هذه الموسوعة الاجتماعية الطريفة تتحدث لغة راقية لا تقل عن اسلوب لوكانوس او نيرون نفسه . وخلاصة القول ان « الساتيريكون » تعتبر قطعة ادبية وكوميديا اجتماعية ساخرة ذات مستوى رفيع يرقى بها الى المستوى الانسانى العالى الخالد . انها اسمى ما انتجته العبقرية الادبية فى عصر الاسرة اليوليوكلاودية .

وفى المجال الدينى شهد هذا العصر اتجاهات نحو تأليه الاباطرة بعد موتهم وخلق شعائر لعباداتهم ، وتكوين هيئة دينية من العتقاء للاشراف على عبادة الاباطرة ، ولكن برغم ان عبادة الاباطرة أدت دورا معيناً فى نفوس الشعب الرومانى الا انها لم تشبع النهم الروحى للمواطن الرومانى ، ومن ثم راحت العبادات الشعبية تزدهر متخذة طريقا مخالفا للعبادات الرسمية السياسية ، فمثلا ازدهرت عبادة الاخوان الارفاليين *Fratres Arvales* وهى شعائر عبادة زراعية كان اغسطس قد احيها ولكنها ازدهرت بشدة فى عصر نيرون واصبح اختصاصها يمتد الى الاشراف على تقديم الاضاحى الخاصة بالمناسبات مثل اعياد الميلاد الخاصة بالبيت الامبراطورى .

اما الفلاح الرومانى فقد ظل على ولائه لديانته الزراعية التقليدية التى كان اجداده يعتنقونها وظلوا متمسكين بربات الزراعة والقمح مثل الربة الطيبة *Bona Dea* وغيرها حتى سقوط الامبراطورية ودخول المسيحية .

اما المثقف الرومانى ساكر المدينة فقد جذبته الرواقية بمنطقها البارد وبمبادئها الاساسية السامية ، والتى كانت سادى بالاخوة العالمية وبالواجب والنظام المطلق ومعاداة الطغاة والطغيان .

كذلك جذبت البيشاجورية الجديدة قريبا اخر من المستنيرين بروحانياتهم الصوفية ، فضلا عن انها كانت تقدم لمريديها مزيجا غريبا من

الحقائق العلمية الرياضية والاسرار الصوفية والانطلاق من اليهود الارضية والدنيوية .

الى جانب هذه العبادات الرومانية وجد فريق ثالث من الرومان غايته في العبادات الوافدة من الشرق مثل ايزيس المصرية ، او في اليهودية ، ثم في العبادة الجديدة التي وضع اسسها الانسان - الرب يسوع المسيح ، والذي ظهر في فلسطين في عهد تiberios حيث نادى بالخلاص من الآثام وبالاعطف والتسامح والرحمة الا انه سقط صريعا للمكائد وللأحقاد الطائفية المتطرفة من كهنة اليهود ولم يستطع العدل الروماني حمايته لأن روما لم تكن تعطى اهتماما لمثل هذه العقائد كما انها لم ترد التدخل في شئون لا تعنيها (١) .

اننا لو حكمنا على اباطرة الأسرة اليوليوكلاودية وعلى حكوماتها في روما لقلنا انها صورة واضحة لعالم مزدهر اقتصاديا وحضاريا يتحكم فيه رجال مختلو العقول ، مهزوزى الشخصية . يقف من ورائهم حفنة من الرجال الاندال الانتهازيين . ولكن سرور الامبراطور وآثامه لم تكن عادة لتتعدى آل بيته وكبار الارستقراطيين واغنياء الرومان ، وفي اسوأ الاحوال بعض افراد الشعب في روما .

أما فيما عدا ذلك فقد شهد هذا العهد ازدهارا تجاريا منقطع النظير خاصة في حوض البحر المتوسط . وقد شعر الناس بعائد هذا الازدهار المادي ، فأولوا ظهورهم للسياسة ومشاكلها ، واتجهوا الى الكسب والمنفعة ، وقد كشفت الحفائر الأثرية عن الترف والنعيم الذي غرقت فيه إيطاليا ابان هذا العصر ، ومن ثم أدى الثراء والترف الزائد الى تدمير الشخصية الرومانية التقليدية المحللة بالفضائل وبالأخلاق المثالية والبساطة والزهد ، - وبدأ الثراء يفسد الفضائل ، فكانت بداية للانحيار المعنوي وهجران للفضائل الرومانية التي بذل اغسطس جهدا كبيرا من أجل احيائها . لقد نشأ جيل جديد من الشباب الروماني تربي على الترف والنعيم ولا يعرف شيئا عن مشاكل الامبراطورية لدرجة أن الامبراطورية راحت تعاني من النقص في المتطوعين للخدمة العسكرية لحماية مصالح شعبها ومصادر ثرائها . ولم يدرك المواطنين الرومان وهم يفرقون في السلام والرخاء أن الجبس على الحدود قد اكتشف انه القوة الحقيقية في الامبراطورية .

cf. G.D. Kilpartick, The Trial of Jesus (1953). p. 342.

(١)

وقد حدد علماء اللاهوت والتاريخ تاريخ صلب المسيح يوم الجمعة ١٤ نيسان ، أبريل عام ٢٩ أو عام ٣٠ أو عام ٣٣ ميلادية وذلك حسابا على ما جاء من انه صلب ابان عهد بلطس الذي حكم من ٢٦ - ٣٦ م ورئاسة الكاهن اليهودي قايپس ١٨ - ٣٦ م . ويعرف هذا اليوم بالجمعة الحزينة .

الفصل الرابع

عام ثورات الجيوش وتولى الإباطرة الأربعة (٦٨ - ٦٩ م)

اعقب اغتيال نيرون أحداث جسام نبت فيها أن نظام حكم المواطن الأول الذى أوجده أغسطس وسار عليه خلفاؤه لم يعد يتماشى والظروف الجديدة التى سادت الإمبراطورية . وبرز أمام الرومان قضايا هامة كان عليهم أن يضعوا لها حلولا وهى كيفية الحفاظ على وحدة الإمبراطورية من التفكك ووضع الأسس الدستورية التى يجب أن يقوم عليها نظام المواطن الأول ، وكيفية يمكن جعل جيوش الإمبراطورية ملتزمة بأوامر الحكومة المركزية فى روما . وكيفية إمكان الحفاظ على سيادة العنصر الرومانى فى هذه الجيوش . لقد أوضحت الإزمات والمشاكل التى واجهت الإمبراطورية الرومانية أهمية هذه القضايا وأصبح حكم الإمبراطورية أشبه بالامساك بالذئب من أذنيه (١) . وهذه الإزمات هى حركات التمرد التى قامت واحدة تلو الأخرى على مدى عامين مثل ثورة اليهود فى فلسطين ، وثورة الغال . وثورة الجرمان وكانت النتيجة هو بروز أربعة إباطرة فى الفترة ما بين يونيو ٦٨ وديسمبر ٦٩ ميلادية . وسيطرت جيوش الإمبراطورية فى الراين وأسبانيا والدانوب وفى الشرق على مجرى الأحداث السياسية فى روما . بل وأصبحت هذه الجيوش بالتعاون مع الحرس الإمبراطورى هى التى تصنع الإباطرة وتضعهم فوق العرش . وكما عبر عن ذلك مؤرخ الرومان العظيم تاكيتوس بقوله أن « لقد أميط اللثام عن سر الإمبراطورية الفتك » (٢) وهو أن نرسح الجيوش من خارج روما الرئيس الجديد . وجدير بالذكر أن نظام حكم المواطن الأول بالرغم من أنه كان يقوم من الناحية النظرية على رأى العام وموافقة جماهير الشعب الرومانى ، لكنه فى تطبيقه كان يعتمد على قوة المواطن الأول ، والتى بدورها كانت تعتمد أساسا على ولاء الجيش . وقد أثبتت أحداث عامى ٦٨ و ٦٩ ميلادية كيف أن قدر الإمبراطورية يكمن فى ثكنات جيوشها القابعة تحرس الحدود . وأن زعماء الجيش كان فى استطاعتهم أن يكونوا المحركين الأصليين للأحداث والسادة الحقيقيين للشعب الرومانى . وقد وجد الجنرالات الكبار فرصة لاستغلال شعبيتهم بين قواتهم بسبب سوء معاملة الإباطرة لقادة الجيش (٢) من أجل تحقيق أحلامهم فى السلطة أى

(١) lupum se auribus tenere (Suetonius, Tiberius, 25, 1).

(٢) Annales, 83, cf. R. Syme, Tacitus, p. 183.

(٣) لقد ترك اعدام الجنرال كوربولو تأثيرا شديدا على قادة الجيوش وهو الذى دفع

العادة الى التوجة على الإباطرة لا طمعا فى لحكم بل خوفا من الانتقام

Tacitus, Histories, ii, 75.6.

(م ١٢ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية)

إن الجندي الروماني لم يكن سوى وسيلة الوصول بالنسبة لجنراله ، وقد ظل الجنرالات يتحينون الفرصة حتى واتتهم عندما اندلعت حركتان من أخطر حركات الثورة والتمرد الأولى ثورة اليهود في فلسطين والثانية ثورة بلاد الفلّال الكبرى ، ووسط غموض الممارك ومؤامرات القصر الامبراطوري أخذ كل جيش من جيوش الحدود يرشح جنراله امبراطورا على البلاد ، ولذا فلتتوقف لحظة لتحدث بشيء من التفصيل عن حركتي التمرد اللتان اتاحتا الظروف للجنرالات للتأهب والقفز على السلطة .

ثورة اليهود الكبرى في فلسطين :

لقد نجح الرومان في صهر الكثير من الشعوب التي ضموها الى حوزة امبراطوريتهم ثقافيا وفكريا ، وخلقوا نوعا من العالمية الحضارية ، ولكن شعبا واحدا استعصى امره على الرومان ورفض الاندماج في العالمية الرومانية الجديدة الا وهم اليهود ، وذلك لان نظرتهم الى الدين بالنسبة لكيانهم السياسي اختلفت عن نظرة الرومان . ففي نظر اليهود الدولة خادم للعقيدة أي أن الدولة فرع من المعبد الديني ، اما نظرة الرومان فقد كانت بعكس ذلك تماما وهو أن المعبد خادم لجهاز الدولة الكبير ووسيلة من وسائل الحكم (١) .

وكان يوليوس قيصر قد تمكن من إيجاد نوع من العلاقة والتعايش السلمي *modus vivendi* مع اليهود عن طريق اصداره مجموعة من القرارات والتشريعات التي تعترف بوضع اليهود كقومية ذات كيان معين بين شعوب الامبراطورية ، ونتيجة لذلك أعفقتهم واستثنتهم من بعض الالتزامات التي وجدوها تعارض عقيدتهم . وقد استمرت هذه السياسة في عهد الامبراطور اغسطس الذي اعتمد على سيطرة صديقه هيرودس الكبير على شعبه اليهودي والذي نجح بوسائل القمع أن يجعل شعبه المشاغب يلتزم بالسلام الروماني . ولما مات هيرودس الكبير عام ٦ ميلادية أصبحت دولة يهوذا شبه بولاية لها حاكم خاص ولكن تحت اشراف الحاكم الروماني لولاية سوريا . ولم يكن لحكام ولاية يهوذا المحليين أي سلطة استقلالية معينة بل كانوا اسميين فقط .

ولما حاول الامبراطور جايوس أن يفرض عبادته بالقوة على اليهود ، وان ينصب تمثالا لعبادته داخل المعبد الكبير في اورشليم ، ثار الشعب

(١) ولهذا جاءت دعوة السيد المسيح لتفصل بين الدولة والمعبد عندما سأنه بعض اليهود الفريسيين بحث بهدف الإيقاع به أيجوز أن نعطي الجزية لقيصر ؟ فرد عليهم بذلك ، « اعطوا ما لقيصر لقيصر ما لله » : متى الأصحاح ٢٨ .

اليهودى وبدأ يحس بعدم الاستقرار ، واستيقظت عقدة الخوف من المستقبل المتأصلة في نفسية اليهودى . وكان الامبراطور جايوس قد حاول إعادة الهدوء الى نفوس اليهود بتعيين حاكم يهودى هو هيرودس اجريبا الاول عام ٤١ ميلادية حاكما على ربع يهودية Judaea ، ولكن في عام ٤٤ ميلادية اعاد كلاوديوس النظر في أمر اليهود بعد موت ملكهم هيرودس اجريبا ، وحول فلسطين الى مقاطعة تابعة لولاية سوريا الرومانية وتحت اشراف الحاكم فيها .

ومما ازد الامر سوءا هو تفجير الصراعات الطائفية والاجتماعية بين اليهود انفسهم ، اذ لم يتوقف الصراع القومى بين اليهود وسكان فلسطين الاصليين من غير اليهود والذين اطلقوا عليهم اسم الجويميم Gentile (اي الاغيار) وكان سكان فلسطين من غير اليهود ينتمون الى الشعب الكنعانى والفلسطينى وهم سكان البلاد الاصليين ، وبعبكس اليهود كان الفلسطينيون والسوريون قوما مسالمين قبلوا الثقافة الهلينية وعاشوا في سلام في مدن فلسطين التى اتخذت الطابع الهلينيستى ، وتمتعو بالرواج الاقتصادى في ظل السلام الرومانى .

ولكن الصراع القديم بين اليهود والفلسطينيين لم يتوقف منذ هجرة ومقدم اليهود الاولى الى فلسطين ومقاومة سكانها الفلسطينيين لهم كما تروى التوراة ذاتها فصول هذا الصراع .

واكثر من هذا دب الصراع داخل الجبهة اليهودية ذاتها ، بين اليهود المحافظين المتطرفين الذين كانوا يدعون الى التمسك بحذافير التوراة والذين كانوا يعرفون بالفريسيين Pharisees ، وبين اليهود المتحررين المثقفين بالثقافة الاغريقية والذين قبلوا الروح العالمية ، ومن ثم لم يجدوا مانعا في ان يتفاهموا مع الرومان . وكان معظم هؤلاء ينتمون الى الطبقات العليا للمجتمع اليهودى والذين كانوا يعرفون بالصدوقيين Saducees ، بل ان الصراع نشب ايضا بين الجنود والضباط الرومان من ناحية وذلك لانهم ضاقوا ذرعا بالتطرف والانغلاق اليهودى وسأموا العادات والأخلاق اليهودية ، وبين جماهير اليهود الذين اتهموا الرومان بالتعسف والعنف ونظروا اليهم على انهم شعب وثنى يعبد الاصنام ومن ثم شعب اقل مرتبة اى من «الجويميم» ، ووسط خضم هذا الصراع المتقد تدهور اقتصاد فلسطين ، وزحفت الصحراء الجرداء بلى الى لغة الزراعة ، وبدأت آثار هذه الازمة تضفى طابعها على الأحوال المتدهورة وتزداد الموقف اشتعالا .

وفي عام ٦٦ ميلادية اندلعت في مدن فلسطين الثورات وأعمال الشغب وحدث بعضها في مدينة قيصرية مقبر المندوب الروماني ؛ وكان اليهود يطالبون بالمساواة في الحقوق السياسية مع باقى المواطنين من غير اليهود ؛ وحدث البعض الآخر في اورشليم عندما صادر الحاكم الروماني سبعة عشر تالنتا من خزائن المعبد الكبير مقابل متأخرات الضرائب المفروضة على اليهود ، ولم يعبا الرومان في بادئ الامر بأعمال الشغب التي قام بها اليهود احتجاجا على ذلك مثل رفض تقديم الاضاحى في هيكل سليمان من أجل سلامة الامبراطور ، ثم سرعان ما اتخذ هذا الشغب طابعا قوميا منظما تحول الى ثورة ضد الرومان ، تولى قيادتها كهنة اليهود واحبارهم . وفي فبراير عام ٦٧ ميلادية ارسل نيرون احد كبار قادته وهو الجنرال فلافيوس فسباسيانوس Flavius Vespasianus ؛ وكان هذا القائد عصاميا من اصل اجتماعى بسيط . مما جعل الامبراطور يعتقد ان ذلك سوف يجعله لا يفكر في انتزاع السلطة مستقبلا ولكن ثبت خطأ الامبراطور . وقبل فسباسيانوس المهمة شاكرا ووصل الى فلسطين ، وعن طريق الخطط الدقيقية والمدروسة وبفضل المال الذى بدا يتسرب الى نفوس الثوار اليهود انفسهم بدا فسباسيانوس في تطهير جيوب المتمردين واحدا بعد الآخر حتى كاد ان يطهرها تماما منهم (١) .

وبينما كان فسباسيانوس يحاصر المتمردين اليهود في اورشليم . وصلت الانباء تفيد بان ثورة قد حدثت في روما ، وان الامبراطور نيرون قد اخذ حياته بيده . عندئذ قرر الجنرال ان يستمر في حصار المدينة حتى تسقط او حتى يتضح الموقف الفاض في روما .

ثورة الغالين بقيادة يوليوس فندكس Julius Vindex

أتت السياسة التي زرعها يوليوس قيصر اكليا في بلاد الغال . اذ انتشرت الثقافة اللاتينية بسرعة بين الغالين ، واصبحت قطعة من اقاليم روما ، وازدهرت البلاد بالحضارة والتقدم الروماني ، وفتح السناتو الروماني ابوابه لشيوخ الغالين . وكانت هذه البلاد مسالمة الا من بعض حركات صغيرة ومحدودة مثل حركة يوليوس فلوروس Julius Florus ، ويوليوس

(١) انظر : Patrick O'Donovan, Last Stand of The Zealots,

The Observer magazine, November 1966, p. 14, and 19.

حيث امدنا بخرائط لتحركات الحيوش الرومانية لجمع الثورة والجدول التالى لذلك .

بل واسماء بعض الصباط الرومان المتركين في العملية . فضلا عن صور نظام المتمردين من اليهود الذين انزاعوا عنهم من فوق - خرة المسادا - الصلابة .

ساكروفيير Julius Sacrovir ابان حكم تيبيريوس حيث أمكن القضاء عليها بسرعة .

كذلك حاول الرومان نشر الحضارة اللاتينية بين القبائل الجرمانية عبر الراين ، وسلك الرومان نفس السياسة التي سلكوها مع الغاليين : فلم يتدخلوا في نظام القبائل التي كانوا ينقسمون اليها ، وانعمت روما على بعض الأفراد بالجنسية الرومانية حتى تربطهم بها ، وحاولت روما توسيع هوة الخلاف بين القبائل المتنافسة حتى تجعل هذه البلاد في حالة ضعف تام وتحول دون قيام وحدة جرمانية وطنية تهدد الوجود الروماني . كذلك شجعت روما الجرمان على قبول الخدمة العسكرية في قواتها المساعدة تحت قيادة ضباط جرمان . وكان هذا نجاح للسياسة الرومانية ، لأن هذه القوات الجرمانية هي التي دافعت عن حدود روما ضد اشقائهم الجرمان الثائرين على الرومان .

من الواضح ان ثورة فندكس Julius Vindex في بلاد الغاليين لم تكن في الاصل ثورة قومية موجهة ضد الرومان كرومان لأن فندكس نفسه كان متشبعا بالثقافة الرومانية وكان حاكما لمقاطعة «ليون» Galia lugdunensis . بل كانت لأسباب اجتماعية . وقد وجه فندكس نداء الى حاكم اسبانيا البعيدة وكان اسمه سولبيكيوس جالبا Sulpicius Galba ليقود حركة « انقاذ الجنس البشري (١) » ، ولكن جالبا اثر التريث عندئذ تحركت القوات الرومانية المرابطة على طول نهر الراين لقمع هذه الثورة خوفا من ان تمتد الى المانيا مثل ثورة الغال التي حدثت في عهد تيبيريوس ، ومن اجل فرض الهدوء داخل الحدود وخارجها . وبالفعل قاد الجنرال فرجينوس Verginius قائد قوات الراين الحملة ، ونجح في سحق الثوار تماما . ولما طالبت القوات المنتصرة قائدها بأن يتولى منصب الامبراطور بدلا من نيرون رفض فرجينوس ذلك بشدة لأنه كان يعلم جيدا حقيقة الاحوال في روما .

الجنرال جالبا يتولى الامبراطورية (من ابريل ٦٨ حتى يناير ٦٩) :

وفي اليوم الثاني من شهر ابريل ٦٨ ميلادية أعلن الجنرال جالبا قبوله تأديب فندكس . وأعلن أنه يضع نفسه رهن السناثو والشعب الروماني . وكان هذا تحدا لسلسلة نسيرون في وقت اسمرلى فيه الجنون على

(١) وكانت هذه الكلمة المرادف لاستحدثها جالبا عندما قال : « تم خلاصنا

من سكرها على عملته أنظر :

Mattingly, *Coins of the Roman Empire* vol. 1, Pl. 1, no. 20.

هذا الامبراطور فراح يفتك بخيرة الجنرالات من امثال كوربولو Corbulo وحكام ولايتى المانيا العليا والسفلى ، بل وحذره جنوده واصدقاؤه من غضب الامبراطور وفتكه . وبعد هزيمة لفندكس أصبح جالبا فى موقف يائس وذلك لضالة ما تبقى له من قوات ، بالرغم من تأييد الجنرال اوتو Otho حاكم مقاطعة لوسيتانيا Lusitania له ، ولكن فجأة جاءت الأنباء بالانقلاب الذى قام به الحرس الامبراطورى ضد نيرون ، بل دعى نيمفيديوس Nymphidius قائد الحرس الامبراطورى - جنوده لتأييد جالبا مدعيا ان هذا الأخير سوف يقدق عليهم بهبة مالية كبيرة . ووافق السناتو على ذلك لان جالبا كان ينتمى لعائلة محافظة من اقدم العائلات الرومانية . كما كان سجل حياته مشرفا وسيرته مستقيمة .

ولكن خلال الفترة القصيرة التى حكمها جالبا ارتكب اخطاء كثيرة افقدته شعبيته كما افقدته اصدقاءه ، فقد كان حازما ملتزما بتطبيق النظام الى اقصى درجة . ولم يكن تنقصه الرغبة فى الاصلاح بل كانت تنقصه الحصافة والدهاء ، وقد يشرح ذلك تعليق تاكيتوس على بقوله : « لقد كان رجلا مناسبا للحكم ولكن ليته لم يحكم (١) » اذ لم يكن له الذكاء والمراوغة الذى كان للامبراطور اغسطس . بل كان اقرب فى ذلك الى تيبريوس . بل لم يكن جالبا جادا فى كسب اصدقاء يقفون الى جانبه ، او مهتما باصلاح شئون الامبراطورية وهو فى ذلك ابعد بكثير عن تيبريوس .

ومن الاخطاء الجسام التى ارتكبها جالبا لجوئه الى العنف ، مثلا عندما وقف حاكم افريقيا وحاكم المانيا السفلى موقف التحدى منه دبر جالبا اغتيال الأول وكلف رجلا اسمه فابيوس فالينس Fabius Valens وكان يعمل مساعدا لحاكم المانيا الصغرى باغتيال الثانى ، وبلغت الرعونة بالامبراطور الجديد أنه كانا القاتل المأجور (٢) .

كذلك نسي جالبا وقوف نيمفيديوس قائد الحرس الى جواره فنحاه عن منصبه ، وعين احد اصدقاءه ويدعى لاکو Laco ، ومن ثم اثار عليه استياء الحرس الامبراطورى صانع الاباطرة ، بل ذهب الى ابعد من ذلك ورفض منح الحرس الهبة المالية التى روى أنه وعدهم بها نظير مساعدتهم اياه للوصول الى العرش .

(١) Tacitus, Historiae, I-1-3. cf. Syme, op. cit., pp. 203-206.

(٢) cf. W Henderson, Civil War and Rebellion in the Roman Empire, London 1928.

وأكثر من هذا استدعى الجنرال فيرجينيوس من وسط جنوده في ألمانيا العليا حيث كان يتمتع باحترام وتبجيل وعين مكانه شخصا عديم الأهمية والشخصية . ولما وصل فيرجينيوس الى روما تجاهله جالبا تماما مما أثار غضب قوات الراين ضده . كذلك لجأ جالبا الى الاعلان عن محاكمات ضد مفتصبي المال العام في عهد نيرون مما أثار مخاوف الأغنياء من المحققين خوفا من الصاق التهم بهم طمعا في مصادرة أموالهم . لقد كانت هذه المحاكم فاشلة لأنها تركت المجرمين الحقيقيين يعيشون في روما فسادا من أمثال تيجلينيوس Tigellinus وبعض اصدقاء الامبراطور الجديد الذين راحوا يملأون جيوبهم على حساب تمسحهم به وتزلفهم اليه .

هكذا انتشر الامتناع العام ازاء تصرفات هذا الامبراطور الارعن ، ووصل ذلك الى ثكنات الجيش الروماني على ضفاف الراين خاصة بعد ان فقد زعيمه المفدى فرجينوس ، كذلك استاءت قوات الراين لاتجاه الامبراطور نحو محاباه فندكس واتباعه الذين حاربوه بالامس .

ولما جاء الأول من يناير عام ٦٩ رفضت هذه القوات تجديد ولائها للامبراطور او ان تقسم يمين الطاعة له . ولما سمع جالبا بذلك سارع بتبني خليفة له لعله يجد منه بعض العون والتأييد وكانت فكرة لا بأس بها لولا ان جالبا اساء الاختيار فبدلا من ان يختار شخصية قوية ذات نفوذ شعبي وعسكري مثل فرجينوس او حتى ماركوس سالفوس أوتو اختار ارستقراطيا اسمه ماركوس كالبورنيوس بيسو Marcus Colpurnius Piso ، ولكن بيسو بالرغم من نبالة أصله ومولده ونظافة صحيفته لم يكن بالشخص القوي ، بل انه لم يكن محنكا في الحياة لانه كان شابا في مقتبل العمر عديم الدراية بفن الحكم والاعيب السياسة .

وقد أغضب هذا الاختيار الجنرال أوتو كثيرا والذي كان من أشد المحمسين لجالبا في وقت من الاوقات ، فضلا عن انه كان شخصية مرموقة فقد كان زوجا لبوبايا سابينا التي اغتصبها منه نيرون وتزوجها . ولم تنتظر قوات الراين حتى يأخذ الامبراطور خطوة ثانية اذ أعلنت ولاءها لحاكم ألمانيا السفلى اولوس فيتيلليوس Aulus Vitellius والذي كان يتمتع بجماهيرية كبيرة وطالبت ان يكون هو الامبراطور بدلا من جالبا ولكن في الخامس عشر من يناير ثارت قوات الحرس الامبراطوري وفتكت بجالبا وخليفته وأعلنت ان أوتو هو الامبراطور وليس غيره .

الامبراطور أوتو : ١ من يناير حتى ابريل ٦٩ ميلادية :

ولم يتردد أوتو في قبول دعوة الحرس الامبراطوري ، وابسط يده كل

البسط لفرسية الجنود . ووافق السناتو على مضمض بالرغم من انه حزن لحير جالبا الذي كان ينتمى الى أسرة سيناتوروية قديمة . وأعلن السناتو منح أوتو السلطة التربيونية التي كانت تمنح عادة للامبراطور وكذلك الامبريوم الاعلى .

كان أوتو ينتمى الى أسرة طيبة ولكنها لم تكن أسرة ذات أصول عريقة في التاريخ الروماني . وكان رجلا قادرا لانه أثبت كفاءته أثناء حكمه لمقاطعة لونسيتانيا لمدة عشر سنوات متتالية ، وكان الامبراطور نيرون قد عينه في هذه الوظيفة حتى يخلو له الجو مع زوجته بوبايا سابينا تمهيدا لتطليقها منه وزفافها للامبراطور المقيم يحبها (١) .

وعلى أى حال بعد موت جالبا وولى عهده بيسو ، ارسل أوتو الى السناتو يطلب السلام ويعرض خدماته ، وهو يعد بتصحيح بعض الاخطاء التي ارتكبها جالبا في حق اعضاءه الموقرين ، وبينما كان هذا التقارب يحدث كانت قوات الراين تتحرك نحو ايطاليا لتثبيت قيتلليوس على العرش ، وبالرغم من عزوفه عن ذلك الا أن مساعديه فالينس وكايكينا Caecina أعلنوا أن قوات الراين لن تسمح مرة أخرى لقوات الحرس الامبراطوري باختيار وفرض الامبراطور الجديد على الدولة والجيش . وعبرت الجيوش جبال الالب بالرغم من ثلوج الشتاء المتأخر حتى وصلت سيل البو في مارس عام ٦٩ ميلادية .

وحاول أوتو مقاومة هذا الزحف الا أن قواته كانت مبعثرة على جبهات متعددة ولم يستطيع حماية معابر جبال الالب بما لديه من قوات ، بل تسرع في اعلانه تحديه لجيش الراين دون انتظار تلقى المساعدات من جيش الدانوب ، وفي ابريل من نفس العام لاقى قوات الراين قرب كريمونا Cremona حيث ألحقت به هزيمة ساحقة (٢) .

وبالرغم من أن اصدقاءه نصحوه بتجميع ما لديه من قوات مواليه في الولايات الا أن أوتو تعجل وقرر أن يأخذ حياته بيده مفضلا ذلك عن الدخول في مغامرة غير مضمونة عواقبها . وحتى لا يعرض نفسه لفتك غريمة .

الامبراطور قيتلليوس : (من ابريل حتى ديسمبر ٦٩

بعد انتحار أوتو أعلن السناتو موافقته على اختيار قيتلليوس مواطنا

Syme, op. cit., pp. 152-6, p. 205

(١)

cf. Tacitus, Historiae, II, 40, 1.

(٢)

أول وامبراطورا ، وبذلك وضع حدا للصراع بين القوات والقواد . وعادت قوات الدانوب التي كانت قد جاءت لتثبيت أوتو على العرش وهي غاضبة ، بل أن الامبراطور الجديد أراد أن يعاقبها فكلف إحدى كتائبها ببناء مسرح amphitheatre في بلدة كريمونا Cremona التي شهدت الصراع الدموي بين انصار الامبراطور الجديد من قوات الراين وانصار الامبراطور المنتحز من قوت الدانوب . وكان هذا عملا شاقا بالنسبة لهذه القوات وعقابا صارما على ما اقترفته . واخذ فيتليوس يسرح قوات الحرس الامبراطوري القديمة ويعين بدلا منها قوات جديدة منتقاه من بين قوات الراين . وفي أثناء عودة قوات الراين المناصرة لفيتليوس ارتكبت عدة حماقات أثناء مرورها عبر المقاطعات الايطالية وبلاد الغال مثل نهب بعض المدن وجمع الاسلاب بطريقة استشارت المواطنين . وكانت بداية لنهاية لفترة الامن التي سادت منذ انتصار اكنافيوس على انطونيوس عام ٣١ ق.م . وادرك الرومان خطر الجيش اذا ما فقد زمام الموقف وخرج عن النظام .

كان فيتليوس رجلا طيبا : سليم الطوية . زاهدا في الحكم والعرش فاصبح بذلك العوبة في ايدي دعاة الصراع ومراكز القوى ، وكان ابوه صديقا للامبراطور كلاوديوس ومن اخلى انصاره واكفاهم ، وحاول أن يستغل ذلك لتقوية مركزه ولكن عبثا اذ كان رجل مآذب ذواقا للطعام الفاخر ، وترف الحفلات فأنغمس فيها تاركا كل شيء (١) ليسير كما تبغى الاقدار مما جعل قوات الجيش الروماني في الشرق تبحث لها هي الأخرى عن بطل تحمله على أسنة الحرب الى عرش الامبراطورية ، وقاد الدعوة الى ذلك حاكم ولاية سوريا ليكنيوس موكيانوس Licinius Mucianus ووالى مصر اليهودى المرتد تيريوس الكندر Tiberius Alexander (٢) ، ووقع اختيارهما على الجنرال فسباسيانوس Vespasianus بطل فلسطين وقاهر اليهود ، ولم يستغرق اقناعهما له بقبول المفامرة كثيرا . وتمكن « صناع الاباطرة » من تأمين انصار له من بين قوات مصر وسوريا وفلسطين في منتصف يوليو عام ٦٩ ميلادية ، ولم ينقص الداعون سوى اعلان الدعوة .

١ الجنرال فسباسيانوس يتولى الحكم : (ديسمبر عام ٦٩ ميلادية .)

ولما وجد فسباسيانوس الأمر جادا والامل ممكنا والانصار كثيرين

cf. R. Syme, op. cit., pp. 189-190, p. 205 f

(١)

cf. Syme, op. cit., pp. 505-523 ;

(٢)

وعن حياة جوليان الكندر : انظر مقالة الامتلاء ص ٦٠

E.G. Turner, JRS, (19٥4) P. 54 ff.

أحل ابنه تيتوس Titus محله في قيادة الحرب ضد المتمردين اليهود في فلسطين ، وسافر الى مصر لكي يؤمن صوامع الفلال المخزونة في وادي النيل حتى يضمن في يده سلاحا استراتيجيا فعلا ضد السلطات الحاكمة في روما نظرا لاعتماد الشعب الروماني في غذائه على قمح وادي النيل ، وفي نفس الوقت سار موكيانوس بقوة رومانية عبر شمال آسيا الصغرى والبلقان الى ايطاليا لكي يجمع انصارا جدد . وما كاد يصل حتى سمع ان قوات الجيش الروماني في الدانوب والتي كانت قد وقفت الى صف اوتو ضد فيتيلليوس قد تمردت على الامبراطور الاخير لسوء معاملته لها ، وأعلنت تأييدها لقوات الشرق الاوسط ودعوتها بتنصيب فسباسيانوس امبراطورا ، وسارت قوات منها تحت قيادة ضابط صغير هو انطونيوس بريموس Antonius Primus الى ايطاليا (١) .

وتقدمت القوات المناصرة لفيتيلليوس للاقاة قوات الدانوب وصدتها ، ومرة اخرى التقت الجيوش المتصارعة عند مدينة كريمونا في اواخر اكتوبر عام ٦٩ ميلادية ، ودارت معركة حامية الوطيس لم تستغرق اكثر من يوم وليلة سحقت فيها قوات فيتيلليوس وانهارت معنوياتها بسبب عدم اكتراث قائدها فكفرت به ، وتقدمت قوات الدانوب فأحرقت المدينة عن آخرها (٢) وهدمت المسرح الذي حكم على قوات الدانوب ببنائه في الصيف السابق ، وتدفقت القوات المتعطشة للنهب والسلب والحرق والفتك الى روما . وحاول فيتيلليوس أن يحقن الدماء فلجأ الى شقيق فسباسيانوس وكان اسمه فلافيوس سابينوس Flavius Sabinus والذي كان يعمل قائدا لحرس المدينة وأجرى معه مفاوضات تهدف الى الوصول الى حل سلمى انقاذا للمدينة ومواطنيها ، ويقوم هذا الحل على استقالة فيتيلليوس وتنازله عن العرش مقابل ان يترك ليعيش حيث يريد . وتوصل الطرفان الى هذا الحل (٣) . ولكن ما ان علمت فلول قوات الراين المناصرة لفيتيلليوس بذلك حتى غضبت لعقد الامبراطور هذه الصفقة من وراء ظهورها فهجمت على القصر وحسبت الامبراطور فيه وحاصرت فلافيوس سابينوس في قلعة الكابيتول ثم ذبحته تحديا لفسباسيانوس . ولما وصل الخبر الى قوات الدانوب تقدمت يحدوها الفضب والرغبة في الانتقام ووصل انطونيوس بريموس الى مشارف العاصمة ودخلها ، ودار قتال عنيف في الشوارع والطرق ومن اسطح المنازل انتهى بمذبحة كبرى.

Tacitus, Historiae, iii. 63, 3-4.

(١)

Syme, op. cit., pp. 158-168, and p. 201.

(٢)

Tacitus, Ibidem

(٣)

لأنصار فيتليوس ، وقبض على الأخير ونفذ فيه حكم الإعدام علنا وعلى مرأى ومسمع من الجماهير ، وذلك في العشرين من ديسمبر عام ٦٩ . وعانت قوات الدانوب في المدينة سلبا ونهباً وقتلاً وهتكاً ، إلى أن وصلت قوات موكيانوس إلى روما في يناير عام ٧٠ ميلادية ليضع لذلك حداً ، وليعيد النظام والأمن والسلام تمهيدا لوصول الإمبراطور فسباسيانوس والذي لم يتمكن من دخول روما قبل نهاية العام نفسه .

ثورة أهل بتافيا Battavia والغال

ما أن انتهت الحروب الأهلية بين الجيوش الرومانية في ديسمبر عام ٦٩ ميلادية حتى اندلعت حركة تمرد كبرى في بلاد الغال . بدأت هذه الحركة بتمرد ضابط اسمه جوليوس كيفيلس Julius Civilis من أهل هذه البلاد (١) وكان يعمل في خدمة القوات المساعدة الرومانية . وكان أهل بتافيا من العنصر الجرمانى الذين يسكنون الآن منطقة الأراضى الواطئة (أى هولندا) ، وكان الرومان قد اعتادوا تجنيد ثمان فصائل Jomortes منهم للعمل في القوات المساعدة . ولما حاول الرومان مؤخرا تطبيق مشروع الإمبراطور أغسطس القديم في إعادة تنظيم القوات المساعدة بطريقة حازمة فضبت هذه الفصائل لهذا الإجراء . واستغل قائدها هذا السخط واستمالها إليه منتظرا فرصة للثورة على الإمبراطورية . وجاءت الفرصة عندما دعاه أنطونبوس بريموس حاكم المانيا السفلى وفلاكوس Flaccus حاكم المانيا العليا للانضمام إلى أنصار الإمبراطور الجديد وإعلان التمرد ضد فيتليوس ، وفعل ذلك ولكن بعد انتصار قوات الدانوب والشرق الأوسط استمر كيفيلس في الثورة مسلنا أن تمرد أهل بتافيا ليس ضد أى إمبراطور ولكن ضد الاستعمار الرومانى بالذات ، ودعى أهل الغال للثورة والوقوف معه من أجل استقلال بلاد الغال عن الإمبراطورية ، وتدفقت القبائل الجرمانية المعادية لروما عبر الراين وأعلن جوليوس كلاسيكوس وجوليوس توتور J. Classicus and J. Tutor زعيما قبيلة التريفيرين Treveri الغالية الانضمام للثورة وتلاههما جوليوس سابينيوس Sabinus زعيم قبيلة اللنجونيين Lingones الغاليين أيضا . وكانوا جميعا من الضباط السابقين في الجيش الرومانى ومتمتعين بالجنسية الرومانية ، زعماء معروفين وهو استقلال إمبراطورية الغال وجعل عاصمتها مدينة تريفييس Augusta Treverorum (٢) ، بل وانضم اليهم القوات

cf. Syme, op. cit. ج ١٧٦-١٧٥.

(١)

(٢) أنظر خريطة الدارين والدانوب .

الرومانية المعسكر على طول نهر الراين . ولكن من الملاحظ أن قرنا ونصفاً قرن من الاستعمار الروماني المستنير لبلاد الغال كان قد غير الأحوال : فقد أصبح شعب الغال روماناً يتحدثون اللاتينية ويتمتعون بترف الحياة الرومانية ونظامها ومن ثم رفضوا الانضمام الى هذه الثورة ؛ وآثروا أن يبقوا مواليين لروما مفضلين ذلك على العودة الى حمى الصراعات القبلية التي سادت البلاد قبل استيلاء روما عليها .

ولما علم موكيانوس نائب الامبراطور بأن الخطر قد استفحل أرسل قوة رومانية الى هذه المنطقة سحقته الثورة في مهبها رغم مقاومة أهل بتافيا حتى نهاية عام ٧٠ ميلادية ، وبعد سحق التمرد سلكت روما سلوكاً معتدلاً ازاء الثوار . فلم تنزع من أحد حقوقه المدنية أو القانونية التي اكتسبها ، ولكن في نفس الوقت أجروا تعديلاً على وضع القوة البتافية المساعدة قرب موطنها في هولندا فأبعدت عن هذه المنطقة حتى لا تتحرق النفوس مرة أخرى للاستقلال والانفصال . وحدد عدد رجالها ممن يختارون كقواد عليها . وهم في ذلك كانوا ينفذون في الحقيقة مشروع أغسطس الخاص بإعادة تنظيم القوات المساعدة .

تيتوس يضع نهاية لثورة اليهود في فلسطين :

سبق أن تحدثنا عن الظروف التي مرت بها فلسطين من صراعات مريرة بين سكانها اليهود ومن غير اليهود ، ثم حدوث الاقتتال بين اليهود أنفسهم : بين الصدوقيين Sadducces الاثرياء وانصار الرومان والحضارة الهلينية من ناحية ؛ وبين الفريسيين Pharisees المتطرفين والذين كانوا يشغلون المناصب الصغرى في سلك الكهانة اليهودي من ناحية أخرى . وكانوا هؤلاء الآخرين يدعون الى طرد الرومان لانهم نجسين غير يهود (أي جوييم) ، واقامة دولة يهودية في فلسطين تقوم على تعاليم اليهودية بحذافيرها ، وكون هذا الفريق حزباً مقاتلاً معاد للرومان هم الزيلوت (الزيلوط) Zealot معتمدين على محاباة ربهم « يهوه » Jehova ونصرته لهم ، كما كشفت الوثائق التي عثر عليها حديثاً في مفارة قمران المطلة على البحر الميت والمعروفة باسم مخطوطات البحر الميت Dead sea Scrolls عن تعاليم فريق ثالث من اليهود الربانيين هم الإسمينيين Essenes (1) وترجع تقريباً الى عام ٧٠ ميلادية ؛ لقد أدى الأمر الى اندلاع الثورة عام ٦٦ ميلادية والتي سرعان ما عمت كل فلسطين وطردت الحامية الرومانية من

(1) عن وثائق البحر الميت ، الجدل العنيف الذي نشأ بين الرومان واليهود :
H.H. Seeley : Dead Sea Scrolls and The New Testament London
(1952) ; G. Vermes : The Dead Sea Scrolls in English (London 1962) ;
Reza S. : The Dead Sea Scroll (1956) ; by the same

القدس (اورشليم) ، وكان يساعد الرومان في ذلك اهل فلسطين من غير اليهود ، وزاد الأمر سواء اعلان الرومان أن اليهود لا يتمتعون بحقوق المواطنة في مدينة قيصرية Caesarea عاصمة الإقليم ، وعمت الثورة حتى وصلت ربع يهوذا Judaea وراح الفلسطينيون يفتكون باليهود في كل مكان، ورد اليهود على ذلك بالعدوان عليهم ، وامتدت الفوضى . وامتدت ثورة اليهود خارج فلسطين الى سوريا ومصر ، ولم يدرك الرومان خطر الثورة اليهودية الا عندما فتك اليهود بجيش روماني كامل ذهب لسحق الثورة بقيادة كستوريوس جالوس حاكم سوريا وانزلوا به هزيمة بشعة .

وازاء هذه الأخطار أرسل نيرون جيشا كبيرا يبلغ تعدادة خمسون الفا بقيادة فسباسيانوس لسحق الثورة وذلك في عام ٦٧ ميلادية وبالفعل طهر الجيش الروماني جيوب الثوار في معظم اجزاء البلاد وهرب معظمهم للاختفاء في اورشليم داخل قلعتها . وقام فسباسيانوس بحاصرة القلعة وهم بالهجوم عليها لولا ان سمع بأنباء الثورة ضد نيرون وما تلى ذلك من احداث داخلية ، وهم مرة اخرى للهجوم على القلعة بعد تولي فتليوس لعرش الامبراطورية ، ولكن حالة عدم الاستقرار في روما جعلته يؤجل هذا الهجوم لمدة عشرة اشهر اخرى مستغلا اندلاع الصراع بين اليهود أنفسهم داخل اسوار المدينة .

ولما دعى موكيانوس الى تعيين فسباسيانوس امبراطورا على العرش اضطر الأخير الى تأجيل هذا الهجوم مرة اخرى ثم اضطر اخيرا الى توكيل ابنه تيتوس لقيادة المعركة .

وفي عام ٧٠ ميلادية قام تيتوس بتشديد الحصار حول قلعة اورشليم ، وكان للمدينة ثلاثة اسوار كل منها يكون قلعة بذاتها ، فضلا عن الهيكل وجبل صهيون وجبل الزينون . وقد أدى الحصار الى انتشار المجاعة والمرض . وفي الوقت المناسب دمر تبتوس الاسوار وهجم على الهيكل واحرقه ثم استولى على قلعة جبل صهيون بعد قتال عنيف وبذلك سقطت معقل اليهود ، ودمرت اورشليم واصبحت دولة يهوذا ولاية رومانية ، وامر تبتوس بحل التنظيمات السياسية والدينية اليهودية وفرض عليهم

author. More light on the Dead Sea Scrolls (1958), T.H. Gaster. The Scriptures of the Dead Sea Sect (1957) ; Van der Ploeg, The Excavations at Qumran (1953) ; F.M. Cross, The Ancient Library at Qumran (1959) ; E.P. Seidman, The Monks of Qumran (1960) ; R. de Vaux, L'Archéologie de la Mandéisme (1961).

R. Some Tacitus, pp. 104-105.

ضريبة الرأس السنوية ومقدارها دينارين رومانيين (حوالى عشرة قروش
مصرية) تدفع لحساب معبد جوبيتر الكابيتولى رب الرومان امعانا فى اذلال
اليهود ، بعد حرمانهم من الامتيازات السابقة ، ثم احتفل تيتوس باقامة
قوس نصر لا تزال بقاياها قائمة قرب الفورم الرومانى حتى الآن ، وعليه
نحت يمثل اسلاب الرومان من المعبد اليهودى حملت فى الاستعراض
الكبير بمناسبة هذا الانتصار بمدينة روما .

ان يوسيفوس السكندرى هو مصدرنا الاول عن هذه الثورة ، بعد
ان قبض الرومان عليه عام ٦٧ ميلادية وهاجر الى روما حيث عاش فى
كنف القصر الامبراطورى ، وهناك كتب مؤلفه الشهير عن الحرب اليهودية
De Bello Iudaico باللغة الآرامية من اجل يهود بلاد ما بين النهرين
الذين كانوا يتحدثون هذه اللغة ، ثم ترجمة بمساعدة تلاميذه الى اللغة
اليونانية المبسطة وذلك فى اواخر السبعينات من القرن الاول الميلادى ،
وفى عام ٩٣ ميلادية انتهى يوسيفوس من مؤلفه الثانى عن الانار اليهودية
Antiquitates Judaicae وعموما كان يوسينوس محبا للرومان مسالما يكره
المتطرفين اليهود ، رغم دفاعه المستميت عن الديانة اليهودية ، ولهذا منحه
الرومان الجنسية الرومانية .

ومن نتائج هذه الثورة ايضا انشاء الحاخام اليهودى يوحنا بن
زاكاي Johanan Ben Zakki لمدرسة لاهوتية فى مدينة جبهه Gebneh
على الساحل الفلسطينى وذلك بعد هروبه من الحصار الرومانى لاورشليم ،
وبدون هذه المدرسة ما حفظت تفاصيل المدرسة الفرنسية اليهودية ، كما
اسس احبار اليهود مجمعا دينيا (سنهدريم Sanhedrim) جعلوا رئاسته
فى بيت هليل ، واصبح رئيس السنهدريم بالتالى المسئول الاول عن
الجمالية اليهودية المتبقية فى فلسطين . وخلاصة القول بالرغم من أن اليهود
دمروا سياسيا الا أنهم ازدهروا عقائديا فى ظلال الامبراطورية الرومانية .

لقد انتهت الثورة اليهودية باستيلاء الرومان على دير المسادا
(المصعدة) عام ٧٣ ميلادية وحيث كان يعيش فريق من الرهبان اليهود

(١) عثر فى فلسطين حديثا على نظام ٩٦٠ متمردي يهودى القوا بأنفسهم من فوق صخرة
المسادا المظلة على البحر الميت بعد أن قاوموا الرومان حتى عام ٧٣ ميلادية انظر : التحقيق
الصحفى المصور عن هذا الاكتشاف فى العدد الخاص من جريدة الاوبزيرفر :
The Observer, November 22nd, 1966.

بصرف النظر عن وجهة نظر الجراح البروفيسر الاسرائيلى بارين الحارثى بشأن مفاومة
الزبلوت للرومان .



جزء من استعراض انتصار تيتوس على اليهود حيث ظهرت أسلاب المعبد الكبير في أورشليم وهي البوق النعني الذي يدعو الناس للصلاة ومائدة القرايين « المينوراه » والمشمسان ذي السبع عيون ومن الجدير بالذكر ان هذه الاشياء اعادها الامبراطور جستنيانوس قبل عام ٥٦٥ ميلادية الى اورشليم

الدين أطلقوا على أنفسهم اسم الإيسينيين Essenes . ولا يزال هناك عند
صخرة المصعدة التي يعرفها الإسرائيليون الآن باسم « المسادا » بقايا
الحصون اليهودية وبقايا المعسكر الذي أقامه الرومان هناك ، كما وضعوا
فرقة كاملة يقودها آمر Legatus عسكرت في اورشليم ، كما وجد الرومان
في ذلك فرصة للاستيلاء على بلاد العرب النبطية (شرق الأردن) ووضعوا
فرقة رومانية في إحدى مدنه وهي بوسترا (أو بوسرى) ، وجعلوا البطراء
عاصمة للقليم كله ، وبدأ العمران الروماني يزحف إليها .

ومن أشهر الوثائق التي تغطي تاريخ فلسطين في تلك الفترة مجموعة
الوثائق التي نشر عليها عام ١٩٦١ في كهف في صحراء الأردن ، وهي أرشيف
كامل من أوراق البردي يرجع تاريخه إلى عام ٩٣/٩٤ ميلادية ، وتمتد
حتى ثورة اليهود في عصر تراجانوس عام ١٣٢ ميلادية ، وهذه الوثائق
مكتوبة باللغة النبطية والآرامية والأغريقية ، وتغطي موضوعات شتى مثل
عقود البيع والارث والتنازل وعقود الزواج . كما نتسّر إلى الإحصاء
السكاني الذي أجرى في هذه الولاية العربية القديمة عام ١٢٧ ميلادية في
عهد الحاكم الروماني سكستوس فلورنتينوس Sextus Florentinus ،
وعندما ينتهي العلماء من نشر هذا الأرشف سوف تظهر الكثير من أسرار
حكم الرومان لهذه الولاية العربية في شرق الأردن .

لقد حرم الرومان على اليهود الاقتراب من اورشليم أو من اطلال
معبد سليمان وحائطه التي جعلوها حائط المبكى ، وظل هذا الحظر قائما
لمدة ستين عاما منذ تدمير تيتوس للمعبد ، لكن بعض اليهود كان يتسللون
من آن لآخر للبكاء على قدس الأقداس ويروى التراث اليهودي كيف أن
أحد أئمة اليهود واسمه اكيبا Akkiba ، تسلل إلى هيكل سليمان واقترب
من قدس الأقداس حيث يزور يهوه شعبه ، وفجأة بدلا من أن يرى نور
الله رأى ثعلبا يتدفع مرعوبا من الحجر فتحسّر على هجران يهوه لشعبه
المختار ! وبقيت اورشليم أطلالا حتى قرر هادريانوس بناء مدينة رومانية
مكانها تقام للرب الروماني جوبيتر الكابيتولي تسمى باسمه وهو إيليا كابيتولينا
Aelia Capitolina ويتوسطها معبد كبير له يدفع اليهود له الجزية السنوية
بدلا من معبدهم وقد أثار هذا التصرف غضب اليهود مرة ثانية فقاموا
بثورة ثانية تزعمها حاخام يهودي اسمه شمعون باركوخبا ادعى أنه المسيح
المنتظر ، ومرة ثانية فتك الرومان باليهود بلا رحمة وكانت الضربة
القاضية التي وضعت نهاية مأسوية لليهود جروها على أنفسهم بسلوكهم
الفريب منذ تسللهم إلى فلسطين مدعين أن الرب أعطاهم لهم دون غيرهم
من البشر الذين اعتبروهم أقل مرتبة منهم .

صراع القوات الرومانية ومستقبل الامبراطورية :

لا نستطيع ان نترك احداث عامى ٦٨ و ٦٩ تمر دون تعليق . لقد كشفت هذه الاحداث حقائق مرة أمام الشعب الرومانى بخصوص نظام الحكم الذى أوجده اغسطس وحاول فيه أن يخفى المشاكل القديمة وراء واجهات جذابة ، ولم يحاول خلفاؤه أن يجرأوا على تعديل هذه الأخطاء . لقد برزت أمام الشعب الرومانى ثلاثة مشاكل هى جوهر الصراع داخل الامبراطورية مستقبلا ، اولها : التساؤل عن حدود منصب المواطن الاول والاسس الدستورية التى يقوم عليها ، وثانيهما : مدى تجاوب شعوب البحر المتوسط مع روما ، وثالثها واطرها : ما هو دور الجيش الرومانى وحدوده خاصة فيما يتعلق بالحكم الداخلى ؟

فيما يتعلق بالمشكلة الاولى فقد كان هناك غموض فى طبيعة منصب المواطن الاول وعدم تحديد المؤهلات الخاصة لتولى هذا المنصب . فمثلا تولى تيبيريوس بعد اغسطس لأن الأخير قد تبناه بل وأشرکه فى السلطة التربيونية معه اثناء حياته .

ثم جاء جايوس الى الحكم بناء على تفضيل الحرس الامبراطورى له ، وكذلك كلاوديوس الذى دفع بالهدايا الى هذا الحرس بعد توليه . وتولى نمون لأن كلاوديوس كان قد تبناه ولأن أمه قتلت زوجها الامبراطور لتفصح له الطريق الى العرش ، هكذا لم يكن هناك اسس ثابتة سواء قانونية أو اخلاقية يختار على اساسها الامبراطور . ولا يوجد قاسم مشترك اعظم بين هؤلاء الأباطرة سوى أنهم يمتون بصلة مباشرة أو غير مباشرة للأسرة اليوليو كلاودية التى وضع اساسها اغسطس وزوجته ليفيا .

والحق يقال لقد حاول فسباسيانوس أن يضع حدا لهذا بأن وضع تقليدا جديدا ثابتا وهو اختيار الخليفة عن طريق توريث العرش لأكبر الأبناء . فقد كان له ولدان عنى بتربيتهما لتولى شئون الامبراطورية من بعده ، الى جانب ذلك بدد القموض حول سلطات المواطن الاول وواجباته ووضع ذلك فى لائحة تشريعية عرضها على الشعب ليبدى موافقته عليها فى بداية عهده بالحكم ، ويعرف ذلك « بأمبريوم فسباسيانوس » . ولحسن الحظ وصل الينا جزء كبير من هذه اللائحة وذلك لأن أحد الزعماء الوطنيين الايطاليين فى القرن الرابع عشر الميلادى واسمه كولا دى رينزى Cola di Rienzi نسخه ونشره فى روما اثناء مقاومته للاستبداد البابوى ليبين له ولواطنيه ان الرومان القدماء آمنوا أن سائطة الحاكم يجب أن تكون مستمدة من الشعب وبموافقته .

م ١٣ - تاريخ الامبراطورية الرومانية :

أما بخصوص القضية الثانية ، فقد أدرك الرومان أن حركات التمرد في بتافيا (هولندا) وبلاد الغال فشلت لأن الذين قاموا بها كانوا محدودى العدد ، وذلك لمعارضة شعوب هذه الولايات للشورة والخروج عن الامبراطورية ، وأدركوا أن ذلك يرجع أولا وأخيرا للعلاج الطيب ، وإلى نظرة روما التحررية إلى هذه الشعوب ، وحسن معاملتها لهم قبل التمرد وبعد التمرد ، وبدأت الإدارة الرومانية تصبح أكثر تفهما وتسامحا مع هذه الشعوب خاصة الجرمان والغال ، حتى نظرة الرومان إلى اليهود تغيرت بالرغم من أنهم كانوا أكثر شعوب الامبراطورية مشاكسة وشراسة ، حقا لقد فتك بهم تيتوس عام ٧٠ ميلادية وحرق معبدهم وحل أحزابهم وألقى مجلسهم الوطنى المعروف باسم السنهدريم Sanhedrim وكذلك سلك الكيانة العليا ، ولكنه أبقى لهم بعض الامتيازات الخاصة استجابة لعواطفهم القومية مثل الاعفاء من الخدمة فى الجيش الرومانى وذلك مقابل ضريبة الرأس السنوية بالرغم من أنها أصبحت تدفع لمعبد جوبيتر رب الرومان بدلا من هيكلم فى اورشليم وهو تسامح كبير لشعب سبب للرومان الكثير من المضايقات .

أما بخصوص مشكلة الجيش ودوره (١) فى الحكم فقد أحس مؤرخ الرومان الكبير تاكيتوس بها عندما علق على عام الابطارة الاربعة بقوله « لقد كشف القناع عن سر الامبراطورية » أى أن إدارة الامبراطورية أصبحت تعتمد داخليا وخارجيا على الجيش وكذلك مستقبلها . وهذا حقيقى . ولكن كان لا يزال فى أعماق فرق الجيش الرومانى المتعددة على الجبهات المختلفة ضمير رومانى حى ، كما أنهم كانوا يكرهون فى أعماقهم الاقتتال فيما بينهم ، بل كانوا على استعداد للاستماع إلى كلمة تصدر من قائد قوى عاقل ، وبالفعل امتنع الجيش عن تكرار ما حدث عام ٦٨ و ٦٩ ميلادية وهى نفس الأحداث التى وضعت حدا للجمهورية الرومانية منذ قرن مضى ، وظل الجيش يعاف هذا السلوك لمدة مائة سنة ونيف حتى عام ١٩٣ ميلادية عندما تفجر الصراع بعد اغتيال الامبراطور برتيناكس Pertinax ، وذلك راجع إلى عناية الابطارة بالجيش واصلاح احواله ورفع مستوى الجنود والضباط .

وبالرغم من ذلك تركت المعارك والاقتتال أثارا عميقة على الامبراطورية ، فقد تناقص عدد الرومان فى الجيش ، وبدأ الايطاليون يملأون السكتائب والفرق . وهؤلاء كانوا يتعاطفون مع اخوتهم وشعوبهم الابطالية أكثر من

(1) R. Syme, Tacitus PP. 15.7 - 175.

تعاطفهم مع أبناء اقليم لاتيوم ، ولو اعتبرنا الايطاليين الى حد ما روماناً فما بالنسبة بالحال عندما تضاعف عدد المتطوعين الايطاليين بسبب انخفاض معدل المواليد في المقاطعات الايطالية والتجاء روما الى الجرمان مثلاً ؟ بالرغم من ان الجيش الروماني لم يعد رومانياً كما كان في الماضي ، بل اكثر منه ايطاليا وكان الايطاليون يحسون في قرارة انفسهم بالظلم الاجتماعي وانعدام الأمن في مقاطعاتهم بعد سلوك القوات الرومانية الهمجي في مدينة كريمونا اثناء الفتنة الكبرى عام ٦٨ ميلادية ، كما ان مستقبل اعتماد الجيش على الايطاليين أصبح يعنى ان مستقبل الامبراطورية يتوقف لا على الرومان بل على أبناء المقاطعات الايطالية ، خاصة ان الرومان بدأوا يتشككون في نوايا الايطاليين الذين عبروا عن سخطهم لسوء الأحوال في مقاطعاتهم بإنشاء الجمعيات الخيرية لمحاربة الفقر بين شعوبهم كرد فعل على الاستغلال وسوء الادارة الرومانية .

الفصل الخامس

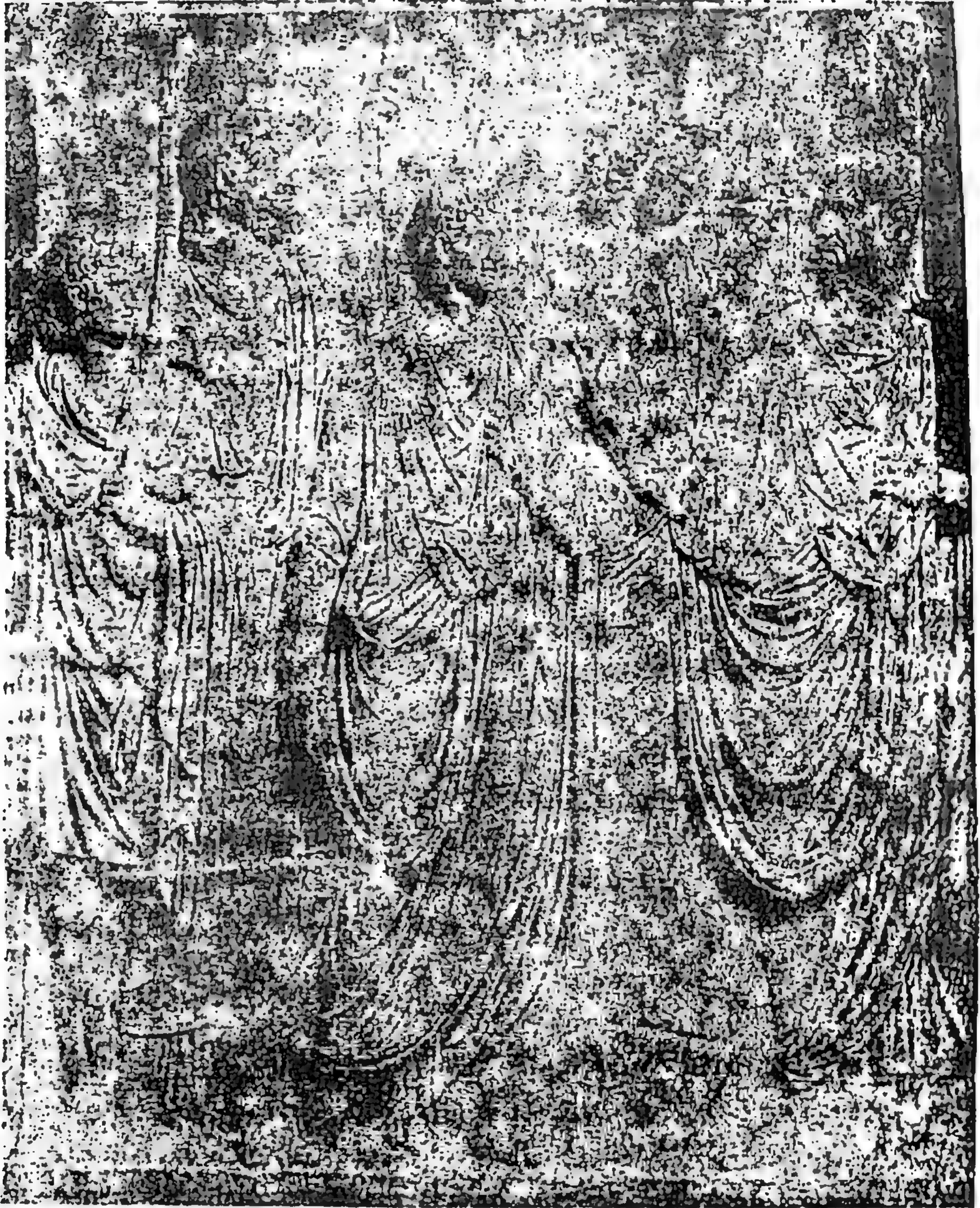
حكم الأسرة الفلاوية (Flavia)

٧٠ - ٩٦ ميلادية

١ - فسباسيانوس :

دخل تيتوس فلاقيوس فسبانوس (Titus Flavius Vespasianus) روما منتصرا عام ٧٠ ميلادية في نفس الظروف التي دخل بها اكتافيانوس بعد معركة اكيوم واسس الامبراطور الجديد حكم الأسرة الفلاوية . ولذا لقبه بعض المؤرخين بمؤسس امبراطورية الثانية .

والى حد كبير يعتبر هذا اللقب صحيحا ، فما أن تسلم فسباسيانوس العرش في الستين من عمره حتى وجد العديد من المشاكل في انتظار حل لها ، بعضها كان لا يقل صعوبة عن المشاكل التي راجعها أغسطس نفسه ، مثلا وجد فسباسيانوس - كما وجد أغسطس من قبل - ان البلاد يديرها « جنرالات » حولوا الجيوش الى الاقتتال والتنافس فيما بينها ، ووجهوا حراهم الى صدور بعضهم البعض وليس الى صدور العدو ، كما وجد الانفرازة العامة مفلسة وخاوية على عروشها ، ووجد الروح المعنوية العامة لدى الرومان منهارة ، اذ لم يعد هناك الكبرياء الوطنى والايمان بالثاق بعظمة الوطن والامبراطورية بعد ان هزتهم الاحداث الدامية وزعزعت ثقتهم بانفسهم . والحق يقال لم يكن فسباسيانوس يتمتع بما تمتع به أغسطس عندما واجه مشاكل مماثلة : فلم تكن لديه الهالة المقدسة التي احاطت بأغسطس وسهلت له مهمته ، ولم يكن مثالا ينتمى الى اب مثل يوليوس قيصر ينسب اليه ، ولم يكن لديه الشباب والحيوية ، ولا الفرور الذي يجعله يتحدى القدر . ولكنه كان يشبه أغسطس في جوانب أخرى فهو مثله ينتمى الى الريف حيث التقاليد والرجولة الصارمة اذ انحدرت أسرته من سلالة اروسكية وكانت تعيش في قرية رياتى Reate احدى قرى السابينيين وكان أبوه يعمل جامعا للضرائب وتسليف الفلاحين القروض وله ضبعة قريب رباتى ومن الواضح ان فسباسيانوس اكتسب خبرة في ادارة الاموال والاعمال منذ نشأته ولهذا احترمت الممتلكات الخاصة وادار بحكمة وكفاءة . من الناحية العامة ، كما اكتسب من نشأته وتربيته طاقة



فسباسيانوس يدخل روما يتقدمة روح الشعب الروماني الذي يضع
قدمه على البوميريوم اول حدود المدينة ثم نائب الامبراطور (من اليمين)
تالو ان غابرييل ... متحف ... بكنار ...

ورغبة شديدة للعمل مع حب الفكاهة والمداعبة والتعليق اللاذع فضلا عن التبسط والحرص الشديد (١) ، بل والخبث التي يتميز به أهل الريف ، وقبل كل شيء كان متزنا عاقلا ، وبذلك تحول البلاط من البوهيمية والبذخ التي تتميز بها عهد نيرون الى الهدوء والوقار الذي يعكس الأصل البرجوازي المتكافح . ولقد حرصت أسرته البرجوازية على تربيته وأخيه خير تربية حتى شب وكبر ، وتمكن وأخيه من الحصول على مقعد في السناتو الروماني . وبالرغم من ذلك لم ينسى العسكرية ، فتدرب في سلك الجيش الروماني حتى أصبح جنرالا محبوبا من جنوده ، مما لفت نظر الامبراطور كلاوديوس وكلفه بمهام عسكرية في ألمانيا وبريطانيا . وعندما تولى نيرون عينه حاكما على ولاية أفريقيا البروقنصلية ، ثم كلفه بقيادة الحملة لقمع ثورة اليهود في فلسطين بل أن أخبار انتصاراته في فلسطين سبقتة الى الوطن فنال إعجاب الناس ورضاء الجيش واحترامه .

وما أن تولى العرش حتى حذى حذر جالبا وأوتو وفتليوس ، بل وأباطرة الأسرة اليوليوكلاودية فلقب نفسه باسم قيصر ، حيث أصبح هذا الاسم لقبا ورمزا للسلطة أكثر منه نسبا ، وأصبح كل من يتولى عرش الامبراطورية يتلقب به تلقائيا . كما جعل لفظ امبراطور لقبا ثابتا يبدأ بالاسم الخاص للامبراطور ، وهذا في الحقيقة أحياء لما فعله أغسطس وأن كان نيرون قد سبقه في هذا . ولقد حرص فسباسيانوس على أن يرى السناتو يصدر قرارا باختياره وأن تصدق الجمعية العامة على هذا القرار ، ولكنه حرص على أن يكون تاريخ تعيينه منذ أن نادته قواته في فلسطين بلقب القائد المظفر *Imperator* ، وخلاصة القول وضعت الظروف على العرش رجلا مناسبا في مكان مناسب .

اتجاهاته واصلاحياته :

١ - إعادة فرض السلام في الداخل والخارج :

حاول فسباسيانوس أن يتشبهه بأغسطس بصفته مؤسسا لأسرة

(١) عبر سويتونيوس عن ذلك بذكر حادثة طريفة منه عندما رفض إعفاء عبده وراعيه المخلص الأمين من المبلغ المقرر عليه لكي يعتق ويصبح حرا ، إذ رفض فسباسيانوس مطالبها بالمال اللازم أولا ، عندئذ طلق العبد المجزؤ على سنده قائلا أن الثعلب قد يمر فراءه ولكنه لن يثير من طباعه « ! *Vulpem pilum mutare, non mores* » . كما صدر منه أهل الاسكندرية لشعبه وسنوره بصاحب الست أوب (١) . في تاريخ روما ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، فسباسيانوس أحد أصدقاءه وألح في الطلب وكانت سخرية أهل الاسكندرية «ثارا بالآلاف بين الامبراطور وبينهم *Suetonius, 16,3.*

جديدة فراح ينشر الاشاعات على انه رجل المعجزات تباركه عناية السماء . ولذا حرص الامبراطور على ان يذكر الناس ان بمقدمه اختفت حركات التمرد والحروب في المانيا وبلاد الغال البلجيكية والشمالية ، وكادت ثورة اليهود ان تسحق في فلسطين فأعلن ان عهده عهد السلام وامر باغلاق ابواب معبد يانوس رمزا لانتهاه الحروب وعودة السلام والوثام الى ربوع الامبراطورية .

ومن اجل ذلك بنى الامبراطور معبدا للسلام وساحة كبيرة سماها
ساحة السلام Forum Pacis

٢ - الاصلاح العسكرى :

لقد أدرك فسباسيانوس أهمية عودة ثقة المواطن في الوطن كأساس لعودة السلام واعادة بناء مجتمع الرخاء والاستقرار ، وثقة المواطن العامل لا يمكن ان تتأتى الا بأبعاد شبح الحروب وحركات التمرد ، ولهذا أمر بتسريح فرق جيش الراين الجرمانية التى انضمت الى ثورة الزعيم الجرمانى، يوليوس كىفيليس بحكم مشاعرهما القومية التى تغلبت على واجباتهما العسكرية كجنود لحماية الامبراطورية ، واحل محلها فرقا جديدة جندت من قبائل وقوميات متباينة منها الجرمان والغال والبلقانيين وقبائل شمال افريقيا ، كما حرص على عدم بقاء القوات المجندة من الولايات لحراسة المناطق التى جندت منها منعا للثورة الوطنية والرغبة فى الانفصال ، كما حرص على جعل قيادة هذه القوات فى ايدى قيادة ايطالية مخلصه وتنويع القوميات داخل هذه الفرق .

ولاول مرة ألفى فسباسيانوس القاعدة القديمة التى استنها ماريوس وهى تفضل تجنيد العناصر الساخطة والرعاع المستهتره الميالة للعنف والقسوة والسريعة الغضب والانفعال لأن القدرة القتالية تكون اشد فتكا عندها ، لكن فسباسيانوس وضع قاعدة جديدة وهى تفادى تجنيد البروليتاريا الرومانية والرعاع الايطالية لانها مصدر الفوضى ومحبة للشغب وذلك خطر على سلام الامبراطورية ، وفضل عند تجنيد القوات الاعتماد على الطبقة الوسطى المثقفة والمهذبة خاصة من ولايات الامبراطورية الحديثة الاندماج حضاريا وسياسيا ، سواء من بلاد الغال او اسبانيا ، كما انشا الاكاديميات العسكرية Collegia inventum لتخريج كوادر الضباط المدركين لرساله الجيش فى حماية الامبراطورية .

كذلك تناولت اصلاحات الامبراطور الجيش البرايتورى - مصدر التمرد وقائى الاباطرة فطهرها وحدد عدد افراسه واعطى لواء قيادتها لابنه تيتوس بعد عودته من الشرق .

٣ - الإصلاح المالي :

لقد كلف بذخ نيرون وجنونه والحروب الأهلية المتعاقبة الامبراطورية كثيرا ، ولما جاء فسباسيانوس وجد الخزانة خاوية ، ومن ثم بدأ في اصلاحها مستغلا خبرته الاسرية في ادارة المال والأعمال وجمع الضرائب ، والمهارة في تشغيل راس المال . ولما تولى الامبراطور منصب الرقيب عامي ٧٣ ، ٧٤ ميلادية اعاد حصر الممتلكات الخاصة والعامة في الامبراطورية . ولما وجد أن الدخول قد زادت بكثير عما كانت عليه أيام الجمهورية زاد الضرائب العامة . كما اهتم الامبراطور بانشاء إدارة مركزية للممتلكات العامة وارضى الدولة . كما استردت الدولة الكثير من اراضيها التي انتزعت عليها بعض الأفراد مما زاد من الدخل العام .

ومن الاجراءات المالية الهامة الخاء الاعفاء الذي منحه نيرون لبلاد اليونان من دفع الضرائب ، كذلك نسيم بعض المدن المتحالفة مع روما الى اقاليم قريبة منها ، ومن اهم هذه المدن المتحالفة جزيرة رودوس وبيزنطة وساموس ، وبالتالي فرضت عليها الضرائب ليسرى عليها ما سرى على الولايات التي ضمت الى الامبراطورية . ولما منح الامبراطور الجنسية الرومانية الكاملة لبعض المقاطعات ومنح الحقوق اللاتينية « أي الجنسية الرومانية غير الكاملة » لجميع سكان اسبانيا كان قصده من ذلك الاعداد لادماج هذه الشعوب في الامبراطورية الرومانية ، وبالتالي جعلها ملزمة بدفع ضريبة الارث المفروضة على المواطن الروماني ، ومما كان يعنى زيادة الدخل في ميزانية الدولة .

كذلك اكد الامبراطور بسلوكه البسيط للشعب الروماني ان اموالهم لن تنفق الا فيما هو يستحق وواجب ، وتوكيدا لذلك هجر فسباسيانوس القصور الفخمة التي بناها نيرون ولجأ الى بيت بسيط . فكسب بذلك تأييد كبيرا . وتدفقت اموال الولايات الغنية خاصة مصر وسوريا لتتملا خزانة الامبراطورية ، وبدأت بشائر الرخاء تعلن مقدم عصور الوئام والسلام .

٤ - البناء والتعمير :

لقد تركت الحروب الأهلية انارها على المنشآت والطرق العامة في الدولة فبدأ فسباسيانوس على الفور في اصلاحها واعادة بنائها ، كما أعيد تعمير بعض المناطق التي تعرضت للدمار والحرق . وفي روما أعيد بناء الكابيتول والعديد من المعابد واماكن العبادة مثل مبد وساحة السلام ،

كما ظهر قاع نهر التبر من الرواسب الطينية حتى أصبح أكثر ملائمة للملاحة الداخلية ، ودعمت ضفافه . كما أصلحت العديد من جسور المياه .

ومن أشهر المنشآت التي خلدها فسباسيانوس للانسانية ذلك الاثر الخالد المعروف باسم الكولوسيوم Coliseum والذي ظل يعرف حتى العصور الوسطى باسم مسرح آل فلافيوس Amphi-theatrum Flavium وقد أقام فسباسيانوس هذا الصرح فوق إحدى بحيرات قصر نيرون الذهبي الذي سبق الإشارة اليه .

وكان الغرض من هذا البناء هو اعداد مكان مناسب لمرض مباريات السيفيين gladiatores ، تلك الرياضة الوطنية الدامية المحببة لقلوب الرومان ، ولكي يكون مكانا لاصطياد وقتل الحيوانات المفترسة (Venationes) التي انشأ لها جحورا صناعية . ويقال أنه في يوم واحد أمكن إطلاق خمسة آلاف نوع من الحيوانات المفترسة لاصطيادها (١) .

كان الكولوسيوم يسع مكانا لخمسین الفا من النظارة ، ومزودا بمخازن ومطاعم لطعام هذه الفوغاء النهمة التي كانت تلتهم الطعام التهاما وعقولها مركزة على القتال الدموي بين الجلادين ، وبين الضحايا والحيوانات المفترسة ، لاشباع رغباتهم السادية ، كما كان هذا البناء مجهزا بوسائل خاصة لتحول دون ثورة الفوغاء المجنونة عند الدخول أو الخروج ، وكانت مقاعد الجلوس loci مرقمة وكذلك الصفوف (gradus) . وكان يوجد عند نهاية كل صف حوض للاستفراغ vomitoria لان عادة الرومان كانت ادخال ريشة في حلقهم عندما تمتلئ بطونهم لتخفيف الامتلاء عن المعدة . كل هذا يدل على روعة الهندسة والبناء في ذلك الوقت .

ومن الطريف ان منازل السيفيين لم تتوقف في الكولوسيوم الا في عام ٤٠٤ ميلادية بعد اعلان المسيحية دينا رسميا للدولة بقليل ، حيث نددت بهذه الالعاب اللا انسانية ، بينما استمرت لعبة قتل وصيد الحيوانات المفترسة حتى عام ٥٢٣ ميلادية (٢) .

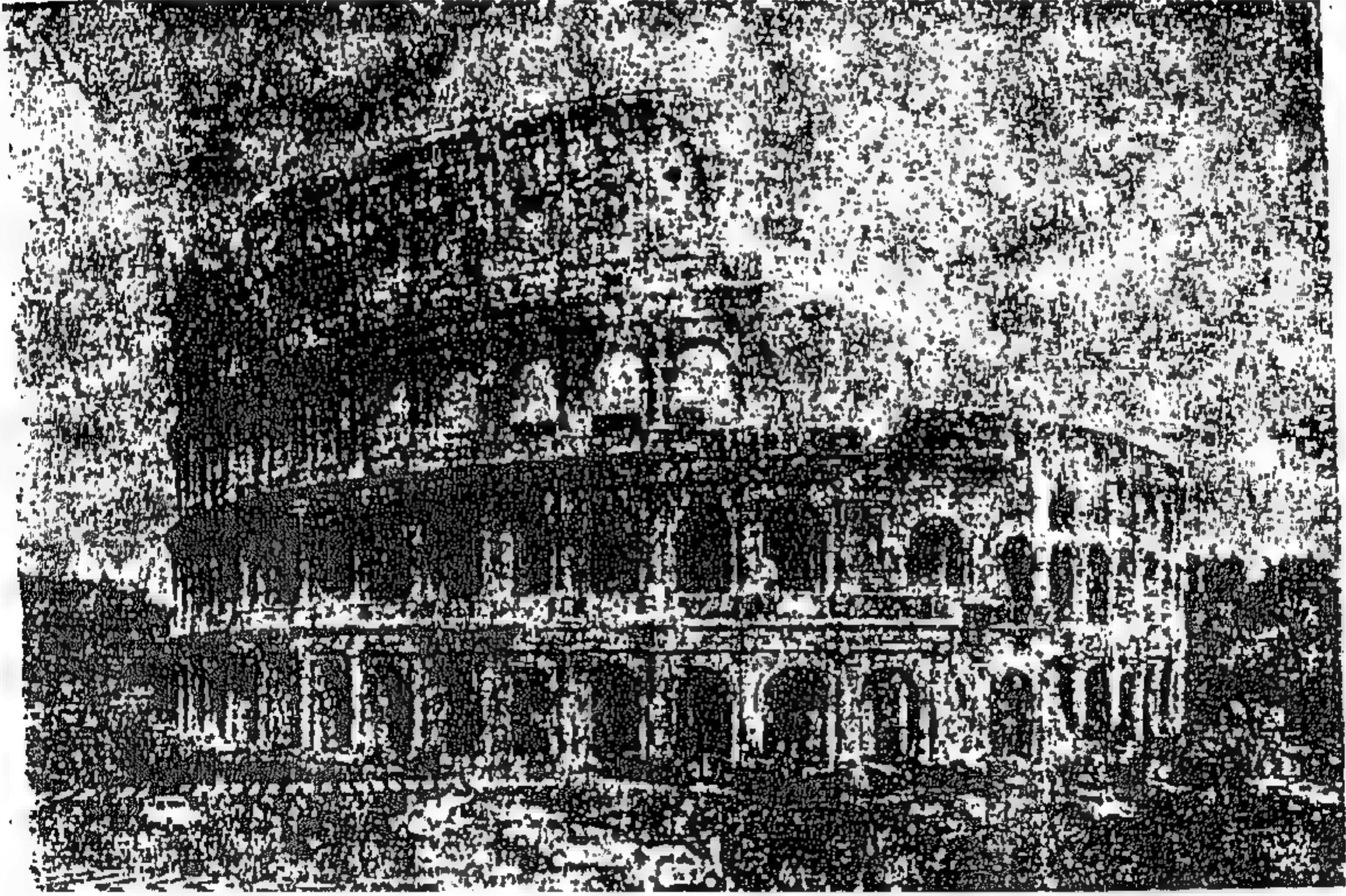
وعلى الحدود بنى فسباسيانوس ثكنات للاقامة الدائمة لجيوش الامبراطورية وأصلح ما كان قد تهدم منها . اما الطرق فقد لقيت عناية فائقة من الدولة بنرض تسهيل ونقل الجيوش والتجارة ، وقد استعان فسباسيانوس بالجنود في بناء الطرق واصلاح المنشآت العامة والتحصينات

cf. Suetonius, Titus, 17

(١)

cf. Donald R. Dudley, Urbs Roma, pp. 142-145.

(٢)



الكولوسيوم روما

الدفاعية ، ولتشجيع الجنود على ذلك قام بنفسه بحمل التراب على كتفه أثناء تنظيف آثار الحريق والدمار الذي حاق بالعاصمة ، وبذلك ضرب المثل الأعلى للمواطنين من أجل المشاركة العامة من أجل الرخاء المشترك .

ومن الجدير بالذكر أن فسباسيانوس رسم برنامج الإصلاح للبناء والتعمير على أساس دراسة عملية دقيقة ، وكعلاج لموسم البطالة في المجتمع الروماني ، فحارب بذلك عصفورين بحجر . وقد روى أن مخترعا قدم له اختراعا يسهل حمل مواد البناء وبطريقة آلية رخيصة فكافىء المخترع ثم ازاح الاختراع جانبا قائلا « دعونى اطعم الفقراء » .

Plebisculam Pascere !

٥ - سياسته ازاء ولايات الامبراطورية :

لقد فاق فسباسيانوس في تنظيماته جميع من سبقوه من القادة العظام ابتداء من يوليوس قيصر حتى كلاوديوس ، فقد استهل عهدا جديدا يهدف الى ربط الولايات ربطا عاطفيا وسياسيا واقتصاديا بالامبراطورية استمر قويا حتى عام ٢٦٠ ميلادية . فقد جعل ولاية اسبانيا قطعة من ايطاليا عندما منح ثلثمائة مدينة اسبانية حقوق المواطنة الرومانية الفير كاملة - اى الحقوق اللاتينية ، حتى اقليم المانيا الواقع على الساحل الشرقى لبحر الادرياتيک بدأت يد العمران والأنعام على مدنه بالحقوق اللاتينية تعمل بنشاط بعد أن كان نسيا منسيا، كما بعث بالعديد من المستوطنات الرومانية الخالصة Coloniae deductae في ولايات الدانوب في حركة لم يعرفها الرومان من قبل ، بل انه اقام معسكرين للجيش الروماني في شرق الدانوب احدهما قرب مدينة فندوبونا (فيينا الحالية) . والثاني عند كانونتوم بين فيينا وبودابست .

ولذلك اهتم بتوسيع الحدود وتأمينها بأقامة سلسلة من القلاع والحصون ولأول مرة مد حدود الامبراطورية في بريطانيا حتى شمال نهر الهمبر Humber وجنوب ويلز وذهب بذلك أبعد مما ذهب اليه كل من كلاوديوس ونيرون ، وانشأ مدينة ابوراكوم Eboracum (مدينة يورك الحالية) وجعلها مقرا للقيادة العسكرية . ويرجع الفضل في ذلك الفتح الى القائد الروماني الشهير يوليوس اجريكولا والد زوجة المؤرخ تاكيتوس الذى استمر في توسعته حتى وصلت في عصر دوميتيانوس الى سكوتلندا عام ٨٣ ، ولكنه استدعى على عجل بينما كان يستعد لفتح ايرلندا ، وقد كان المؤرخ تاكيتوس مسحورا بشخصية والد زوجته للدرجة أنه كتب عنه كتابا سماه بأسمه (Agricola)

لقد اهتم فسباسيانوس بألمانيا خاصة شرق الراين ، فضم الأراضي الواقعة بين الراين والدانوب في شمال ألمانيا ضمن خطنه في الدفاع والتنسيق بين جيوش الإمبراطورية في جبهة الراين والدانوب ، وقد سار خلفاؤه على نهجه في هذه المنطقة وزادوا من دعمها لأنهم توقعوا أن تكون مصدر الخطر للسلام الروماني في المستقبل .

كما أجرى بعض التعديلات في وضع بعض الأقاليم والمدن المتحالفة من أجل زيادة دخل الإمبراطورية ، فشلا إسقط الامتياز الذي كان نبرون قد منحه لبلاد اليونان باعتبارها من الضرائب . بل حولها إلى ولاية تابعة للسنااتو ، كما قام بضم جزيرة سردينيا وكورسيكا للإدارة الرومانية المباشرة وفرض عليها الضرائب ، كذلك إسقط الاستقلال الذاتي عن بعض الجزر المتحالفة مع روما وضمها إلى الولايات القريبة منها أو التي تقع في أقاليمها مثل جزيرة ساموس ورودرس وميناء بيزنطة ، كما حول بامفوليا وليكيا في آسيا الصغرى إلى ولايات رومانية وكما سبق أن وضعنا كان هدفه الأساسي من هذه التعديلات هو زيادة الدخل العام للإمبراطورية من ولاياتها .

لقد بذل فسباسيانوس جلي جهده لجعل الولايات الغربية قطعة لا تتجزأ من إيطاليا وشركاء في المسؤولية وفي الإدارة وليس رعايا تستغل لخير الشعب الروماني أو كمناطق لتجنيد الجيوش الإمبراطورية ، ولهذا حرص على تكوين طبقة برجوازية مثقفة في هذه الولايات وأنعم عليها بحقوق المواطنة الرومانية الكاملة ، كما أنعم على شعوبها بالحقوق اللاتينية وألقى عليها مسؤولية الإدارة وحفظ النظام في هذه الولايات ، بل أنه استخدم سلطته كرقيب على السنااتو وضم بعض أعيان هذه الولايات من الفالين والإسبان إلى السنااتو الروماني وعين غيرهم في الوظائف الإدارية المسؤولة ، وبذلك أفاد فسباسيانوس الإمبراطورية بهذه الطاقات الجديدة والإخلاقه وسخرها لخدمتها ، ولهذا اعتنى بشدة في اختيار العناصر الأخلاقه والأمانة والقادرة من بين رجال هذه الولايات الغربية .

فسباسيانوس والشرق الأوسط

كان فسباسيانوس يعرف الشرق الأوسط جيدا ، كما كان مدركا لمشاكله ومشاكل الإمبراطورية فيه ، فقد كان القائد الأعلى للقوات الرومانية التي سحقته ثورة اليهود كما كان من قبل حاكما لولاية شمال أفريقيا ، ولهذا حاول بقدر الإمكانيات المتاحة له وضع حلول لهذه المشاكل .

كانت مشكلة الشرق الأوسط دائما هي الحدود ، فقد كانت جبهة متسعة لمسافة ثمانمائة ميل من الساحل السوري شرق ساحل البحر

الأسود ولا يوجد فواصل طبيعية يمكن أن تكون حدودا سياسية ، فضلا على أن هذه المنطقة كانت المنطقة العازلة لمنع توسع البارثيين وتعدّتهم على ولاية سوريا الرومانية .

ولقد حاول الإمبراطور أغسطس وحلفاؤه إبطال خطر البارثيين وحماية الجبهة الشرقية للإمبراطورية عن طريق وضع ملوك عملاء للرومان على عروش الممالك الشرقية خاصة مملكة أرمينيا الكبرى وخلق الممالك العميلة التي كانت بمثابة كلاب الحراسة للإمبراطورية ، لكن بقيت بعض نقاط الضعف في السياسة الرومانية ، إذ لم يكن هناك فرق أو قلاع عسكرية لمنع أي غزو معاد قادم من الشرق عبر نهر الفرات خاصة المنطقة العليا أو الوسطى ، كما أن الفرق الرومانية العسكرية في سوريا كانت أقل كفاءة من غيرها من قوات الإمبراطورية ، فضلا عن بطء تحركها وبعدها عن الصنق الخطر في هذه المنطقة الثرية المليئة بالقوميات والثقافات والأجناس المتباينة والفخورة بنفسها وبماضيها مما يجعلها أقرب إلى الثورة على الرومان .

وبذلكاء ودهاء وحصافة بدأ فسباسيانوس في إصلاح هذا الخطأ فمثلا عمل على إصلاح العلاقات السياسية بين روما ودولة البارثيين ، إذ أرضى هذا الشعب المقاتل بتنازله عن فرض السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على العرش في مملكة أرمينيا الكبرى ، إلا أنه رفض الاشتراك مع البارثيين للقيام بحملة مشتركة ضد قبيلة الألانيين Alani ، إحدى القبائل الترماتية (السبيرية) التي كانت تقتل المنطقة الواقعة ما بعد القوقاز ، وكانت تشكل تهديدا مستمرا على البارثيين ، وكان هدفه من ذلك رفض ترك البارثيين منشغلين لدفع الخطر والهائم عن حلم التوسع غربا عبر الفرات .

فضلا عن ذلك قام فسباسيانوس في عام ٧٥ ميلادية باحتلال ممر دارا وبنى قلعة محصنة في منطقة القوقاز وبذلك قطع خط الرجعة على البارثيين في العودة لتهديد الشرق الأوسط .

وكانت الضربة الثانية للنفوذ البارثي في الشرق الأوسط هو تشديد سيطرة الإمبراطورية على مدينة بالمورا Palmyra (تدمر) لأهميتها كمحطة تجارية نشطة ، طريق القوافل ، لما جعل يهودية ولاية رومانية يحكمها بروكوراتور روماني وجعل تحت امرته فرقة رومانية عسكرية في اورشليم ، ثم وسع حدود سوريا لتشمل المنطقة الممتدة من حارابيس غربا حتى حدود الحوض الأعلى الأوسط لنهر الفرات ، كما أنه ضم مملكة كرماجيني الواقعة

شمال غرب الفرات وشمال سوريا الى ولاية سوريا الكبرى بعد أن عزل ملكها .

كما أدرك أن حماية الشرق الأوسط تتطلب أيضا دعم حدوده شمالا في شبه جزيرة الاناضول وخلق ولايات قوية ومائعة فيها ، اذ قام بضم كابادوكيا وارمينيا الصفري الى ولاية جالاتيا Galatia خالقا ما نسميه الآن تركيا ، ثم ترك فرقتين واحدة لحراسة ومنع أى عبور قادم من شرق الفرات ، والثانية لحراسة طريق القوافل الذى يربط سوريا وموانئ البحر الأسود وعسكرت في لمنطقة الواقعة ما بين شمال الفرات وجنوب البحر الأسود عند ساتالا Satala وبذلك نقل عبء لدفاع عن الشرق الأوسط من سوريا الى منطقة الفرات العليا وخلق موانع عسكرية محصنة و فرق متاهبة لحماية الحدود ضد أى غزو قادم من بارثيا .

وكان كل تصرف من هذه التصرفات يعكس شخصية فسباسيانوس التى تتميز بالذكاء والحذر والمهارة والعقلية العسكرية الاقتصادية والسياسية .

واخيرا امر القوات الرومانية بالقيام ببعض العمليات المحدودة جنوب خليج سرت Syrtis لتأديب بعض القبائل الليبية التى تعودت على مهاجمة الحواضر والمدن مما سبب ازعاجا للامبراطورية .

٥ - العناية بالتعليم والخدمات :

كذلك ظهرت شخصية فسباسيانوس فى تنظيمه للجهاز الادارى وفى اختيار موظفيه . فكان يحرص على اختيار الكفاء والاكثر امانة واستقامة ، ولهذا قام بتغيير كبير فى طريقه اختيار موظفيه ، فمن المعروف أن الامبراطور كلاوديوس اختار هذا الجهاز من عبيده المحررين او العتقاء وكان معظمهم من أصول وضيعة ، فتحولوا الى موظفين بيروقراطيين جشعين استشرى فيهم الفساد والرشوة والمحسوبية ، كما أن هذا التصرف من جانب كلاوديوس جر عليه غضب السناتو وسخطه ، ولارضاء السناتو الفى فسباسيانوس ذلك واستبدله باختيار الفرسان والاعيان والايطاليين ، لأن الفرسان كانوا اكثر حركة ونشاطا وفهما فى التعامل مع الناس وقدرة فى فن الادارة فضلا عن غناهم مما يجعلهم اقل ميلا للارتزاق من الرزائف او سرقة المال العام ، أما اعيان الايطاليين فهم احسن من يتفهم شئون الاقاليم الايطالية ويحسن ادارتها ويعرف ظروفها .

فضلا عن ذلك كان فسباسيانوس اول امبراطور يحرص على جعل التعليم خدمة من الخدمات التى يجب ان تقدمها الدولة للمواطنين لانه ادرك مدى اهمية التعليم فى نشر الحضارة الرومانية والثقافة اللاتينية فى كافة ولايات الامبراطورية ، خاصة فى حوض البحر المتوسط . وان الثقافة الواحدة هى خير رابط يربط شعوب الامبراطورية برابط عاطفى وفكرى ، وهى فكرة قديمة بدأها يوليوس قيصر ولهذا أصدر قرارا بأن يكون التعليم فى كافة انحاء الامبراطورية بالمجان مقابل ان تدفع الدولة رواتب عالية للشعراء واساتذة البلاغة والخطابة الاغريقية والرومانية ، بل تكريما لهؤلاء الأساتذة أصدر قرارا بأعفاء المدرسين من دفع أى ضرائب تقديرا لدورهم فى خلق الامبراطورية ذات الفكر المتحد . كما أنه وضع نواة التعليم العالى بتأسيس وظيفة استاذ البلاغة والخطابة التى كان اول من شغلها الخطيب الأسباني الاصل فاييوس كونتليانوس (٣٥ - ٩٥ ميلادية) مؤلف الكتاب الخالد معاهد الخطابة Institutio Oratoria الذى وضع به اصول علم التربية ووضح اساليبها لبناء الخطيب المفوه .

كذلك انفق فسباسيانوس ببذخ على الخدمات العامة للمواطنين مثل بناء الجسور والكبارى والمرافق والطرق والمعابد والقلاع والحصون . وان الزائر لقرية كرانيس بالفيوم ليدرك ذلك عندما يقرأ النقش المقام على واجهة المعبد الجديد الذى أقامه الامبراطور من أجل رب القرية الذى كان يعبد فى شكل التمساح .

٦ - الخلافة والمعارضة :

أدرك فسباسيانوس - كما أدرك اغسطس من قبله - خطورة الصراع على تولى منصب الامبراطور بعد وفاته ، ومن ثم اختار ابنه الأكبر وساعده الأيمن الجنرال الاعم تيتوس قاهر اليهود ومدمر اورشليم ليكون امبراطور من بعده ، وكان تيتوس يشغل قائد قوات الحرس البرائتورى ، وربما فعل فسباسيانوس ذلك رغبة فى تأسيس حكم أسرته وبقاء الخلافة فى بيته ، او ربما تفاديا لآى صراع دموى قد ينشب حول السلطة خاصة فى وجود عناصر سيناتورية طموحة وجنرالات على الحدود يروادهم حلم الجلوس على عرش الامبراطورية .

وفى الحقيقة كان الاختيار موفقا ، فقد كان تيتوس محبوبا من الجيش والجمهور وله شعبية فى الولايات ، فضلا عن كفاءته ووجوده بجوار أبيه جعله مانعا مشغول الحزم ومستعدا له .

لكن فكرة توريث العرش لأكبر الأبناء ضاقت للناس لأنها سلوك ملكى ذكرهم بممارسات الملوك النسطورية القديمة ، كانوا يحتضرونهم ، فضلا عن كراهية

الرومان الفريزية الملكية . وقد قاد المعارضة فريقان الفريق الأول أنصار المذهب الكلبى ، وكانوا فئة فوضوية رافضة لكل شىء يرجع اصولها الى انتستينيس Antisthenes الفيلسوف الأيبنى المهجن واحد تلامذة سقراط الحكيم ، والذي اسس مدرسة فى احد ملاعب الكلاب ولهذا عرف تلاميذه باسم الكلبين Cynici ، وكان يدعو الى أن الفضيلة هى المعرفة إن المعرفة اذا تحققت لا يستلزم احد اخذها او اغتصابها ، ولكى تتحقق المعرفة يجب تحرير النفس من الرغبات المادية لأن النفس امارة بالسوء ، وقد قاد المدرسة من بعد انتستينيس تلميذه ديوجينيس السينوبى Dingenos of Sinope الذى طور المذهب الكلبى الى درجة احتقار العلم والمعرفة واخلاقيات العصر ورفض كل شىء لأن الذى لا يحتاج الى شىء هو الذى يرفض كل شىء ، وبعد موت ديوجينيس ازدادت أعداد تلاميذه ومريديه واتباعه فى العصر الهلينستى نتيجة للقلق والفوضى والحروب والمجاعات التى أرهقت الناس ، ومن الشرق الهلينستى دخلت هذه المدرسة الى روما وايطاليا كرد فعل للحروب الكثيرة التى خاضتها الجمهورية الرومانية ، ثم بدا عددهم يتزايد منذ عصر الأسرة اليوليو كلاودية كرد فعل للتسلط وجبروت اباطرتها ، وزاد عدد أنصار هذه المدرسة بين الرومان وراحوا يسخطون على كل شىء ، يتجولون فى ثياب رثة ، يطلقون لحاهم وشعورهم ، ويسرون حفاة يحملون متاعهم خلف ظهورهم لا يعملون بل يتسولون ويتجولون ولا يخفون عداؤهم للنظام والقانون ويبشرون بمبادئهم الفوضوية ، وقد وجدوا لهم أنصارا من رعاى الغامة والساخطين واليائسين مما ادى الى اثاره أعمال الشغب ضد النظام وضد الامبراطور ذاته ، الذى نظر اليهم على انهم اعداء الامبراطورية لانهم يعملون على استقاطها ويسخرون من كل شىء فيها .

ولقد عارض الكلبيون فكرة توريث الحكم كمبدأ لانهم يعتبرون السلطة شرا واثما واذا كان الاب اثما فليس من حقه أن يورث الاثم لابنه ، لان الأبناء يجب الا يؤخذوا بجريرة الآباء ، كما انهم كانوا يدعون الأبناء للتمرد على الآباء وعدم الخنوع لرغباتهم لأن أمهاتهم ولدتهن أحرارا ، كما انضم اليهم المنجمون والمشعوذون والسخرة فى بث البلبلة ضد النظام مما اضطر الامبراطور فسباسيانوس لانتهاز الفرصة للقضاء على هذه العناصر واستئصالها تماما كجزء من عملية علاج الامبراطورية من سقامها واصدار قرارا عام ٧١ بطردهم من البلاد رم على بعضهم دخول العاصمة (١) .

أما أنصار الرواقية الجديدة فكان معظمهم من المثقفين ومن الطبقة الراقية فى المجتمع ، طبقة أصحاب الصالونات الأدبية والآداب والحديث

(1) cf. R. Moc Mullen. op. cit. p, 59 ff.

عن الروح ومشاكلها بعكس الكلية التي كانت فلسفة الفقراء والمعموزين والتعساء الذين يجتمعون في السوق العامة ليستمعوا الى كلام سوقى بسيط يحمل لهم العزاء والامل . كانت الرواقية فلسفة اغريقية ظهرت كرد فعل للتحول الاجتماعى والسياسى والفكرى الذى حدث فى العالم الهلينستى ، ووضع زينون السورى القبرصى اساسها فى اواخر القرن الرابع واولى القرن الثالث ق . م ، وبعكس الكلية التلقائية كان للرواقية تعاليم ومنهج وخطة عمل ، ومعلمون بدرجات مختلفة ، ولهذا بقيت فلسفة قوية الشكيمة حتى بعد انتشار المسيحية والى ان اغلق الامبراطور جستنيانوس مدارسها عام ٥٢٩ ميلادية ، وتقوم الرواقية على فكرة تمجيد الحكمة والحكماء من اصحاب المعرفة لانهم هم وحدهم الذين يعرفون الحقيقة المطلقة والفضيلة ، ولما كان غالبية المثقفين من الارستقراطيين الذين هم شيوخ مجلس السناتو فقد تكونت جبهة معارضة داخل السناتو ضد انفراد الامبراطور بالسلطة دون الرجوع الى السناتو الذى هو عقل الدولة ومنعجم خبرتها ، وقد كان موقف هذا الحزب من الامبراطور واضحا منذ عصر نيرون ، عندما قاد زعيمهم بايتوس ثراسيا Paetus Thrasea حملة من المعارضة فى وجه نيرون مما دعى الأخير الى اعدامه تخلصا منه .

لكن معارضة الرواقيين عادت من جديد عندما تولى قسباسيانوس الحكم واعلن توريث العرش لابنه ، وقاد الحملة الجديدة فيلسوف وعضو بارز فى السناتو اسمه هلفيديوس بريسكوس Helvidius Priscus زوج ابنة الراحل بايتوس ثراسيا والذى نادى بعودة المبادئ الجمهورية القديمة ، بل ودعى الى عبادة زعمائها الراحلين من الرواقيين من امثال بروتوس وكاتو الأصغر كانبياء لهذه الفلسفة ، وقد وصلت الجراة والتهور بالفيلسوف هلفيديوس بريسكوس الى لوم الامبراطور قسباسيانوس علنا وتوجيه الشتائم ضده مما اضطر الامبراطور الى الانتقام منه بنفيه من روما الى اقاليم ايطاليا ، ثم فقد قسباسيانوس اتزانه وأمر باعدامه بعد ان علم بتآمره على قلب نظام الحكم وذلك فى عام ٧٥ ميلادية ، ولكن قسباسيانوس حزن اشد الحزن على هذا التصرف فهو لم يكن دمويا ، بل عرف عنه الرحمة والعفو وفعل الخير ، بل انه خشى من عواقب هذا التصرف مستقبلا على أسرته (١) .

(1) cf. MacMullen, op. cit, p. 55.

(م ١٤ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

لكن الرواقيين من أعضاء السناتو كانوا قد نجحوا في احياء العاطفة القديمة في وجوب أن يكون هذا المجلس هو قلعة الحكم لأنه يمثل المشورة والرأى السديد ، فهو مجلس من الحكماء ، والحكماء هم الذين يجب أن يحكموا ، وبالتالي يجب أن يكون الامبراطور من رجال المجلس وباختيار المجلس وليس مفروضا بقوة السلاح واردة الجنود ، او عن طريق التوريث، لأنه ليس من حق احد أن يورث العرش لابنه كالعقار ، وجاء رد فسباسيانوس القاطع والمتحدى كما جاء على لسان المؤرخ كاسيوس ديون « اما أن يتولى ابني العرش من بعدى أو لا احد » (١) . ولم يعبا فسباسيانوس بعد ذلك برأى الرواقيين واستمر في اعداد تيتوس أولا ثم دوميتيانوس ثانيا ، فأشرك تيتوس معه في القنصلية سبع مرات ، كما شاركه في وظيفة الرقيب ومنحه السلطة التربيونية والامبريوم البروقنصلى عام ٧١ م . كما عينه قائدا للحرس الامبراطورى اما دوميتيانوس فقد اشركه في القنصلية ست مرات ومنحه لقب رائد الشباب .

٧ - فسباسيانوس والسناتو :

اصبح في مقدور فسباسيانوس بعد حصوله على منصب الرقيب العام عام ٧٣ ميلادية أن يملأ المقاعد الخالية بأعضاء جدد من الشيوخ ، وذلك لأن السناتو فقد العديد من شيوخه اثناء الحروب الأهلية ، ونتيجة للمؤامرات وغدر الأباطرة وبسبب الشيخوخة . ولقد اتى فسباسيانوس بالشيوخ الجدد من الاقاليم المختلفة للامبراطورية حتى يكون السناتو ممثلا للامبراطورية كلها وليس حكرا على روما ، كما حرص على اختيار العناصر الجديدة من رجال الفرسان لخبرتهم الطويلة في الادارة ، وبالرغم من هذا فقد حرص فسباسيانوس على أن تكون اغلبية المجلس من الولايات الغربية ، لأن آل فلافيوس كانوا يحسون في اعماقهم بأنهم من الايطاليين وليسوا من روما ومن ثم تعاطفوا مع الولايات اللاتينية الناطقة بهذه اللغة وفضلوها لى الولايات الشرقية .

كانت نظرة فسباسيانوس الى السناتو يسودها الاحترام . ولكن في نفس الوقت رفض بشدة أن ينصاع لرغباته ، ومن أقواله الماثورة « ليس من اللائق استخدام الفاظ غير مهذبة عند مخاطبة السناتو ولكن رد الاهانة بالمثل أمر مشروع ومناسب » (٢) . ولهذا وقف في وجه بريسكوس والمتعاطفين معه من الرواقيين والذين طالبوه بالاذعان للسناتو لأنه بيت الخبرة والمعرفة . وكانت وجهة نظر فسباسيانوس صريحة وهى انه يعتبر السناتو مستودعا للخبرة والقدرات وليس شريكا في حكم البلاد ، ولكي

(1) Dio Cassius, 65. 12. 1.

(2) Suetonius, Vespasianus, I, 5.



قسيسيانوس - المتحف الوطني - روما

يوضح ذلك حرص على اعتبار حكمه يبدأ منذ اليوم الذي نادت به قواته امبراطورا وليس من تاريخ موافقة السناتو على هذا الاختيار .

٧ - شخصية قسباسيانوس :

كان قسباسيانوس رجلا صارما ، صبوراً وذكياً ، مجرباً وخبيراً للحياة التي تركت خطوطها غائرة على وجهه ، كما كان رجلاً محباً للعمل منكباً عليه . فكان يبدأ يومه قبيل الفجر كما يروى بلينى فى إحدى رسائله (١) وبذلك ضرب المثل لمساعديه وموظفيه الذين حاولوا احتذاءه ، ولكنهم وجدوا ذلك شاقاً عليهم . ولقد كان مخلصاً فى قراراته لأنه كان يعرف بالضبط ما تحتاجه الامبراطورية التي خدّم فى غالبية ولاياتها ، بالرغم من أن الناس استقبلوا بعضها بالاحتجاج ، فواجه ذلك بالمداعبة والمرح اللذان تميز بهما . فمثلاً احتج عليه ابنه تيتوس ذات مرة عندما فرض ضرائب على استخدام دورات المياه وحيث يقضى الناس حاجاتهم ، فأخرج قسباسيانوس من جيبه عملة برونزية وقربها من أنف ولده وسأله عما إذا كانت رائحتها رائحة مراحيض ، فلما أجاب ابنه بالنفى رد قائلاً « ولكنها تأتي من المراحيض (٢) elatio est » ، ولقد ظل محباً للمداعبة والفكاهة حتى وهو فى لحظة مفارقة الحياة . فعندما كان يعالج سكرات الموت قال مداعباً للواقفين من حوله « ياويلتاه اعتقد أننى سأصبح رباً ! » «Vae, inquit, puto deus fio!»

ثم وقف وهو يقاوم الموت ليفادر سريرده وبمساعدة رفقاءه سار على قدميه لى يستقبل وفداً رسمياً قائلاً « ان الامبراطور يجب ان يموت وهو واقف على قدميه » (٣) ؛ ثم انهار ولفظ أنفاسه فى أحضان أحد الحاضرين وكان ذلك فى عام ٧٩ ميلادية . وهو فى التاسعة والستين من عمره . وأعدت له جنازة كبيرة ، وطبقاً للعادات الرومانية سار وراء نعشه أحد كبار الممثلين فى ثياب الامبراطور ونياسينه ، ووضع على وجهه قناعاً يمثل الامبراطور ، وسار خلف الجثمان وهو يقوم بين الفينة والأخرى بالقاء حوار مختصر متقمصاً شخص الامبراطور الراحل ، وفيه تتمثل فكرة الناس الطريفة عن أهم خصائصه ، وهما الحرص الشديد على المال وحضور البديهة . فمثلاً تساءل هذا الممثل عن تكاليف هذه الجنازة فأجيب

Pliny, Epistulae, iii, 5.9.

(١)

Suetonius, Ibid, XIV.

(٢)

ومن الطريف أن نفوذ واتاة استخدام المراسم لا تزال تسمى فى باريس باسم Vespasienus وفى روما تعرف باسم Vespasiani

Suetonius Ibid, 23-24.

(٣)

بأنها عشرة ملايين سستركيس فصاح قائلا « أعطوني فقط مائة ألف سستركيس والقو جثمانى فى التيبر » Centum sibi sesteria darent ac vel in Tiberim proicerent ! (١)

ولكن بعد موته أعلن الرومان تأليهه ، وكان جديرا بذلك لأنه لم يكن أقل شأنًا من غيره من الإباطرة بل اكفاهم منذ اغسطس ، فقد أعاد النظام الى الامبراطورية وانقذ اقتصادها المنهار من الافلاس ، وأعاد تنظيم الجهاز الادارى والمالى على أسس واضحة وثابتة ، ووضع مستقبل العرش بتوريث ابنائه ، ومن ثم كان جديرا أن يسميه الناس بمؤسس الامبراطورية الثانية .

خلفاء قسباسيانوس :

١ - تيتوس (٧٩ - ٨٠ ميلادية) :

كان تيتوس وسيما ، ساحر الشخصية لماحا محبا للخير وكراما ، كما كان ساعد أبيه الأيمن ، ومحل ثقته ، وشريكه فى السلطات والحكم . فضلا على أنه كان قائد الحرس البرائتورى الذى حمى أباه من مؤامرات الاغتيال بحماس شديد ، وسحق هذه المؤامرات بقسوة متناهية ، حتى شاع عنه حبه للقسوة والعنف . كما تناقلت الاخبار حبه الشهوانى العنيف لبرنيكى اليهودية شقيقة جوليوس اجريبا الثانى ملك مملكة يهوذا ، فاحتج الناس على ذلك وقالوا أن كليوباترا جديدة قد برزت فى الشرق ، وربما أدى التشكك فى سلوكه الى معارضة الرواقيين لأبيه عندما عينه وريثا له فى الحكم .

ولكن ما أن جلس على العرش حتى تغيرت شخصيته تماما ، اذا أصبح يقدر المسئولية متفانيا فى أداء واجبه ، وهجر فراش برنيكى وسار على منهاج أبيه ، وفتح صدره للناس ببشاشة ولطف ، وكرس حياته لرفاهية الشعب وتحسين احواله . ولما كان وسيما بشوشا مثقفا وجنديا شجاعا واداريا حازما فقد اعتبره المؤرخون نموذجا لما يجب أن يكون عليه الحاكم ، بل لقبوه « بقرّة عين البشر » humani amor ac deliciae generis . (٢) وقد ضرب به المثل فى الكرم وسعة اليد ، وروى عنه أنه جلس للعشاء ذات مساء مع اصدقائه وقبل أن يبدأ تذكر أنه لم يفعل أمرا خيرا لأحد فى ذلك

Suetonius, Ibid, XIX, 2.

(١)

Suetonius, Divus Titus, I.

(٢)

اليوم ، فصاح خرينا « ايها الأصدقاء : لقد خسرت يوما ! »
Amici, diem perdididi ! (١) .

ولكن كرمه لم يكن بأى حال من الأحوال عبثا أو تبذيرا لأنه سار على منهاج أبيه في انفاق الأموال العامة وحرصه عليها ، كما اهتم بالمشروعات العمرانية والمرافق العامة ، فرمم العديد من جسور المياه ، واعتنى بشبكات الطرق عبر الامبراطورية كلها . وفي روما اكمل بناء الكولوسيوم وافتتحه في احتفال استمر مائة يوم ، كما انشأ فيها حمامات شهيرة عرفت باسم «حمامات تيتوس» ، وفضلا عن ذلك قضى على نظام المرشدين والمخبرين السريين الذين تفشى خطرهم ، واستفحل ضد أمن المواطنين ، ورفض حتى محاكمة المتآمرين ضده في سماحة منقطة النظر ، بل امتدت سماحته الى احترام الديانات المختلفة لشعوب الامبراطورية ، ويذكر له أن حضر وهو لا يزال وليا للعهد حفل اختيار عجل ابيس في منف بزيه الرسمي ، ولم يعبأ بالنقد الشديد الذى وجه اليه من جراء هذا التسامح مع رعايا الامبراطورية .

ولقد كان حكمه بالرغم من قصره (اذ لم يتعد عامين وبضعة أشهر) اسعد ايام حكم هذه الاسرة ، بالرغم من ان الامبراطورية تعرضت لكارتين عنيفتين الأولى في شهر اغسطس عام ٧٩ ميلادية عندما ثار بركان فيزوف وألقى بحممه فدفن ثلاثة مدن تماما هى بومبى Pompeii وهركولانيوم Herculaneum وستابى Stabii ، (٢) كلها بالقرب من خليج نابلس . ولم يدر أحد ان هذه الكارثة القديمة قدر لها ان تكون ذات فائدة كبيرة لعالمنا المعاصر اذ حفلت لنا حمم البركان وترابه هذه المدن خاصة بومبى حيث كشفت الحفائر عن مدينة رومانية كاملة بمنازلها وشوارعها ومرافقها تكاد تنطق بالحياة . أما الكارثة الثانية فقد حدثت عام ٨٠ ميلادية عندما اندلع حريق كبير في روما راحت نيرانه تلتهم المباني والمنازل ثلاثة ايام متوالية ، وقد أتت هذه النيران على معبد جوبتر الكابيتولى الذى بناه قسباسيانوس ، ولم يتوانى تيتوس في تقديم العون ومواساة الضحايا واصلاح ما دمر، ولكن يد المتية امتدت اليه في سبتمبر عام ٨١ ميلادية وهو في الثانية والأربعين من

Suetonius ; Ibidem, 8, 15.

(١)

(٢) وصف بلىنى الأصغر هذه الكارثة وصف شاهد عيان في احدى رسائله
(Epistuale VI, 16)

ومن الجدير بالذكر أن عمه - بلىنى الأكبر - سقط شهيدا وهو يحاول انقاذ السكان بصغته قائدا لقائمة الاسطول في ميسينوم . وقد كشفت الحفائر عن هياكل ما يقرب من ألفين من السكان في بومبى ويعتقد العلماء أن سبب الوفاء هو الاختناق من الغازات التى اطلقها البركان تماما مثلما حدث في كارثة بلىيه عام ١٩٠٢ .

عمره على أثر حمى أصابته وبكاه السناتو والشعب الروماني وأعلنوا رفعه الى مصاف الالهة .

٢ - دوميتيانوس , Domitianus (٨١ - ٩٦ ميلادية) :

وما أن قضى أخوة نعبه حتى هرول دوميتيانوس الى ثكنات الحرس الامبراطوري وحصل من الجنود على موافقتهم في ترشيح نفسه امبراطورا حتى قبل أن يبدى السناتو رايه في ذلك . وربما كان هدفه في ذلك وضع السناتو امام الأمر الواقع ، وقطع خط الرجعة على المعارضين على فكرة الخلافة بالتوريث ، ربما أراد تقليد ابيه فسباسيانوس عندما اعتبر انتخاب قوات الشرق له هو التاريخ الرسمي لتوليهِ الامبراطورية . وبالفعل لم يجد السناتو بدا من الموافقة على هذا الترشيح والانعام على دوميتيانوس بالسلطات اللازمة والالقاب التقليدية وذلك في الرابع عشر من شهر سبتمبر عام ٨١ ميلادية .

كان دوميتيانوس محبا للسلطة والنفوذ ، متعطشا للقوة والجبروت ، وكان أبوه وأخوه قد أدركا ذلك من قبل ، فحاولا الحد من نهمه بتحديد سلطاته وابعاده عن المناصب العسكرية بالذات ، وذلك لما أظهره منذ الوهلة الأولى لتأسيس ابيه لحكم الأسرة . فقبل ان يصل أبوه من الشرق لتولى عرش الامبراطورية رسميا كان دوميتيانوس يمثل الأسرة في روما ، وأساء استخدام سلطته باندفاع الشباب وطموحه المجنون ، ومنذ هذا الوقت حاول فسباسيانوس ومن بعده تيتوس كبح جماحه بقدر الامكان . وبالرغم من انه أعد للخلافة الا أنه منح سلطات مدنية فقط لا تتعدى القنصلية . وخلال فترة العزل حول دوميتيانوس طاقته الفتيحة الى ميدان الدراسة فانكب على دراسة أعمال وسيرة تiberius الذي كان يقارن حاله بحاله ، كما شغل نفسه بقرض الشعر والقراءة خاصة في مجال الحضارة الاغريقية ، وانكب على الارتشاف من ينابيعها حتى خرج وهو يرى الحياة الرومانية من خلال منظار اغريقي (١) .

الاتجاه الأوتوقراطي في حكمه :

ولم يخفى دوميتيانوس منذ الوهلة الأولى نواياه في التحكم والتسلط الأوتوقراطي ، فحرص على ان يتولى منصب القنصل في كل مرة ، بل غير لقب منصب الرقيب الى الرقيب الأبدى Censor perpetuus منذ عام ٨٥ ميلادية ، كذلك حرص على أن ينادي عرفيا بلقب « المولى والرب »

cf. R. Syme, Tacitus, p. 509-510.

(١)

dominus et deus خاصة من جانب موظفيه وكتاب عصره ، فكان رجاله يقولون « ان مولانا وربنا يأمر بأن ينفذ هذا الشيء . . . »
dominus et deus noster hoc fieri iubet (١) ، وجعل القسم بعقورية الامبراطور شرطا في كل عقد او وثيقة . كما انه قلد خلفاء اغسطس في تأسيس كهنة لعبادة ابيه واخيه على غرار الهيئة الاوغسطية اذ اسس الهيئة الفلافية (٢) .

وبالرغم من انه نظر الى السناتو نظرة الوقار والاحترام الا انه لم يترك له الفرصة في التلاعب او الخروج عن الحجم الذي اراده له مستغلا في ذلك سلطته كرقيب ابدى عليه من سلطته ان يسقط العضوية ويمنحها لمن يريد خاصة لاتباعه من رجال الفرسان الذين عينهم في المناصب العليا . وكقضاة في محاكمات رجال السناتو ، مما اثار غضبهم عليه .

وتوكيدا لفكرته بأن السناتو يجب ان يكون سلطة تنفيذية تابعة للسلطة العليا (٣) حرص على ان يظهر في اجتماعاته متوشحا بنياشين القائد المنتصر triumphator لكي يذكر الاعضاء بسلطاته العسكرية التي تسمو على حقوقهم المدنية المحدودة ، ولذا لم يكن بغريب ان يصدر السناتو لعنته عليه بعد موته damnatio memoriae ويأمر بمحو اسمه وتدمير تماثيله المقامة ، وكتب عنه تاكيتوس بأسلوب يقطر حقدا وكرها وكذلك بلينيوس الأصغر .

سياسته واصلاحاته :

حقيقة ان نظرة دميثيانوس الى الحكم كانت اوتوقراطية الا انها كانت تتسم بالقدرة والكفاءة . ولقد شرع منذ ايامه الاولى في تنفيذ برنامج عملاق للبناء والتعمير ، حتى ان معاصريه وصفوه بأنه كان مجنوناً بالتشيد والبناء والتعمير (٤) ، فأكمل ما لم يكمله ابوه واخوه ، وزاد على ذلك بإنشاء العديد من ملاعب الرياضة والحمامات داخل العاصمة ، كما أنشأ فيها المعابد الجميلة ، كما اكمل الكولوسيوم وحمامات أخيه تيتوس وكذلك

Suetonius, Domitianus, 13.

(١)

(٢) كان دوميثيانوس يهوى اصطياد الدباب بوخزه بدبوس رفيع ومن الطرائف التي رواها سويتونيوس عنه ان أحد زواره سال حاجبه ذات مرة عما اذا كان الامبراطور بمفرده في حجرته نرد عليه هذا الياور مبتسما « لا يوجد معه أحد حتى ولا ذبابه » .

«ne muscam quidem», Suetonius, ibid, 3.

cf. Syme, op. cit., p. 224.

(٣)

Suetonius, ibid, 5.

(٤)

قوس النصر الضخم الذى كان أخوه الراحل قد شرع فى بنائه ، ورمم البانثيوم وحمامات أجريبا ، ومعبد ايزيس وسيرايس الذى زينته بالمسلات المصرية ، الى جانب ذلك أعاد فتح المكتبات العامة ودعمها بالكتب والوثائق ، كما اهتم باصلاح شئون الفلال ومخازن التموين . كما احكم الرقابة على ادارة مرفق المياه ، وعين لذلك مشرفين *Curatores* يتولون الرقابة على جسور المياه لفترات طويلة ، ولم يكن اهتمامه ببناء شبكات الطرق وتحسينها اقل من اهتمامه بالبناء والتعمير خاصة طرق السفر الرئيسية فى ولايات الامبراطورية الشرقية .

ومن الواضح ان هدف دوميتيانوس من وراء ذلك كان سياسيا اكثر منه اصلاحيا لانه عشق الدعاية وحب الظهور ، وحسب الف حساب للحفاظ على تأييد الجماهير لحكمه . فمثلا كان يحرص على نقش اسمه فوق جدران المباني والمنشآت التى رممها او اقامها ، خاصة تلك التى اقيمت فوق الخرائب التى احدثها حريق عام ٨٠ الشهر ، كما اقام المهرجانات الرياضية فوق الكابيتول تكريما لجوبتر وجعلها على غرار المهرجانات الاغريقية فى اولبيا ودلفى وغيرها من المدن مما اثار احتجاج المحافظين على نقاء الحضارة الرومانية من التلوث الاغريقى والشرقى . ولكى يكسب الجماهير اغدق عليها ثلاث مرات بالمنح والهبات *Congiararia* ، فضلا عن توفير الطعام ووسائل الترفيه .

والى جانب حرصه على تأييد الجماهير حرص على ارضاء الجيش وقادته ، فاهتم بتنظيم وسائل الامداد العسكرى حيث انشأ قيادة لشئون الجنود المفترين *Castra peregrinorum* لتتولى الاشراف على تجهيز القوات المسافرة عن طريق موظفى الامدادات حتى ولو كانت هذه القوات تنتقل داخل العاصمة ذاتها . وقد طور اهتمامه لوكلاء الامبراطورية *(Frumentarii)* بالذات فحولهم الى عملاء سريين يكلفون بمهام سرية لصالح الدولة ، ومن اجل ارضاء الجنود رفع راتب الجندى الى نسبة الربع تقريبا . وحرص على زيارة ثكنات الجيش بين الفينة والفينة ، بل وقاد الجيش بنفسه فى بعض عمليات الحدود ، ولهذا كسب شعبية كبيرة بين القوات الرومانية (١) .

كما ورث دوميتيانوس عن ابيه واخيه المهارة الادارية والمالية ، ولكنه كان اكثر تحورا فى سياسته ، فبسط يده قليلا اذ اسقط المتأخرات من الضرائب على الناس ، والتي زاد استحقاقها عن خمس سنوات ، ولكنه اصر على جمع الضرائب أولا بأول ، وقد وجه اليه اتهامات فيما بعد بأنه

الصق التهم ببعض الشيوخ ليقضى عليهم وليؤمم أموالهم ، ولكن هذا افتراء بحث لأن دافع التخلص من هؤلاء الشيوخ كان سياسيا في المقام الأول (١) . خاصة اذا ما كانوا من انصار الرواقيين الذين وقفوا من الامبراطور موقف العداء السافر وتآمروا لقتله .

كما حاول اصلاح الاقتصاد الروماني بالعناية بالزراعة التي كان يبوهاها ، ولما لاحظ طفيان المساحة المزروعة بالكروم على تلك المزروعة بالقمح أصدر قرارات تحدد نسبة الأرض المزروعة بالمحصول الأول وتشجيع المحصول الثاني ، ولكن هدفه لم يتحقق بسبب شدة منافسة قمح الولايات خاصة مصر وسوريا للقمح الروماني .

اما فيما يختص بتشريعاته وقوانينه فقد كانت في جوهرها رومانية متزمته وصارمة ، اذ اقام نفسه حاميا للفضيلة ومكافحا ضد الرذيلة . فأوقف بعض العروض التهريجية والتمثيلات الصامتة نظرا لهبوط مستواها الاخلاقي ، كما وضع القوانين التي حالت بين العبيد وبين العتق حتى لا يلوثوا المجتمع الحر بانضمامهم اليه بعد الحصول على حقوق المواطنة .

ومن قوانينه الاخلاقية المتطرفة احياؤه لقانون قديم ينص على دفن أى راهبة من راهبات الربة العذراء قستا حية اذا ما فرطت في عذريتها . وقد افزعت هذه القسوة المتطرفة في تطبيق المبادئ الاخلاقية الناس خاصة انه لم يضرب لهم المثل الأعلى في سلوكه الشخصي لأنه اتخذ من احدى بنات أخيه تيتوس وهي دوميتيا لونجينا Domitia longina عشيقه له بعد ان قتل زوجها .

وبالرغم من اعتماد الامبراطور على نظام المخابرات السريين ، الا انه انزل العقاب الصارم بالكثير منهم ممن الصقوا تهما بالابرياء من الناس ، وكان يقول دائما أن الامبراطور الذي لا يعاقب المخابرات هو الذي يشرهم princeps qui delatores non castigat, irritat (٢) ، وكذلك بالكتاب والشعراء ممن لجأوا الى الاسفاف في القول وشهروا بالشرفاء من الناس ،

(١) كرس تاكيتوس الثلاثة كتب الاخيرة من مؤلفه التواريخ Historiae لاعطائنا صورة فائقة عن حكم دوميتيانوس وهذا الاتجاه يتفق والصورة العامة التي عالج بها تاكيتوس عهد تيبيريوس بل وعهد أغسطس نفسه ، ولهذا يشك بعض المؤرخين في تحيز تاكيتوس فيما يختص بدوميتيانوس بالذات خاصة لأنه اتهم الامبراطور بعزل ثم دس السم لصهره القائد - اجريكولا ولهذا بالغ في التشنيع عليه . cf. Syme, p. 244.

Suetonius, 9.

(٢)

وتحت رقابته الصارمة قضى على الرشوة وظهر القضاء من خطرهما ومن التحيز والمحاباة .

اما فيما يختص بنظرته الاصلاحية في الولايات فقد سار قدما الى الامام بسياسة والده في الادماج الثقافى والحضارى الرومانى لهذه الولايات ، ومن اجل هذا اختار بحذر موظفى الولايات من العناصر النشطة والقادرة ، ونتيجة لذلك عم الرخاء والهدوء ورفرفت راية العدل والسلام .

سياسته الدفاعية والعسكرية :

لم يحاول دوميتيانوس الخروج على التقليد الاوغسطى الذى يعارض التوسع ، ولكنه فى نفس الوقت ادرك ان الانتصارات العسكرية هى تدعيم لسلطته ولحكمه الاوتوقراطى ، فلجأ الى بعض العمليات العسكرية على حدود الامبراطورية لهذا الغرض . و ضد بعض القبائل والشعوب الشائنة على الحكم الرومانى . فمثلا عندما ثارت قبائل الناسامونيين *nassamones* الليبية التى كانت تسكن شرق طرابلس بسبب اجحاف جبال الضرائب من الرومان ، سير جيشا اليها وابادها عن آخرها فى اواخر عام ٨٥ واولائل عام ٨٦ ميلادية . كما قام الجيش الرومانى بتأديب القبائل الموريتانية البدوية لمعارضتها سياسة التوسع الزراعى على حساب المراعى . وفى عهده ايضا قام الوالى الرومانى لبريطانيا وهو يوليوس اجريكولا - *Julius Agricola* - صهر المؤرخ تاكيتوس - اثناء ولايته ما بين ٧٧ - ٨٤م بسلسلة من الفتوحات لشمال الجزيرة وفى اسكتلندا (١) ودار بسفنه حول بريطانيا ليؤكد ما ادعاه بحار اغريقى منذ عدة قرون سابقة بأن بريطانيا ماهى الا جزيرة كبيرة . وحاول اجريكولا فتح جزيرة ايرلندا ولكنه استدعى قبل ان ينفذ هذا المشروع العسكرى ، ثم عزل من منصبه .

(١) حاول تاكيتوس تشويه صورة دوميتيانوس باظهار صهره اجريكولا فى صورة القائد العظيم الذى وقع ضحية و فريسة لطغيان الامبراطور . فالف مقالا عن اجريكولا اظهره نبه كقائد عظيم يعزل بعد تهديد سرى من الامبراطور ولا يمنح معاشا *Salarium* ريقضى وقته فى هدوء وانعزال ، ثم يتهم تاكيتوس دوميتيانوس بأنه دبر وضع السم لاجريكولا ، وقد كان موضوع اجريكولا ماثرا للجدل بين المؤرخين حول دقة وصدق تاكيتوس المطلقة نهر هنا يتحيز لصهره ، ولكى يحوله الى صورة بطل قوس لا يقل شجاعة فى معارضة الامبراطور عن زعماء الروانيين لوى الحقائق واستغل النائعات التى تتفق وهدفه . ولكن الحقيقة هو أن دوميتيانوس واجريكولا ربطتها صداقة حميمة وقوية وان اعتزال اجريكولا راحه الى اماكنه من الحروب وبعد سنين طيلة من القتال . انظر :

T.A. Dorey, «Agricola and Domitian» *Greece and Rome*, (Second) series 7. 1960), pp. 66-71.

وعن الدفاع عن تاكيتوس فى هذه النقطة انظر :

Kurt von Fritz «Tacitus Agricola, Domitian and the problem of the principaten», *Classical philology* 52 (1957), pp. 73-111.

أما بخصوص حدود الراين والدانوب فقد أولاها عناية فائقة إذ سار دوميتيانوس بنفسه على رأس جيش كبير عام ٨٣ (١) ميلادية وعبر الراين حيث أدب قبائل الكاتيين الذين كانوا يشيرون الشغب في المنطقة كلها ثم احتل الجيش المنطقة الواقعة بين نهري اللاهن Lahn والماين Main ودمم احتلاله بالقلاع ونقط الدفاع والمراقبة . ولما عادت قبائل الكاتيين للتمرد وطرد الرومان من هذه المنطقة مستغلين حركة التمرد التي قادها أحد ضباط بعض الفرق عاد فطرد هذه القبائل عام ٨٩ ميلادية بعد القضاء على حركة التمرد . وقد علمت حركة التمرد العسكري دوميتيانوس بالا يسمح لأكثر من فرقة عسكرية واحدة بالتواجد داخل ولاية واحدة كما أنه قام بفصل الإدارة المالية لولايتي المانيا من تبعيتها لإدارة ولاية بلاد الغال البلجيكية Gallia Belgica كما دعم الخط الدفاعي بين الراين والدانوب بمجموعة من القلاع والتحصينات ونقاط المراقبة المتقدمة ليضمن خط امداد سريع وقصير بين القوات العسكرية على شفاف هذين النهرين . وقد احتفى بانتصاره (٢) هذا على الجرمان بأن سك عملة تحمل عبارة « لقد سقطت المانيا Germania Capta !

وخلال عهده أيضا واجهت روما عدة مصاعب عن جانب القبائل والشعوب الجرمانية التي تسكن وادي الدانوب خاصة في اقليم بوهميا .

وكان أخطر القبائل الشائنة قبائل الداكيين Dacians التي كانت تسكن شرق أوروبا في المنطقة المعروفة الآن باسم رومانيا والمجر . فقد اندفعت هذه القبائل عام ٨٥ ميلادية بقيادة ملكها ديكابالوس Decabalus بعد أن وحدت صفوفها وعبرت نهر الدانوب إلى موزيا Moesia حيث سحقته القوة الرومانية وقتلت حاكم الإقليم الروماني وسارع دوميتيانوس على رأس جيش كبير حيث طرد القبائل الغازية (٣) .

ولما حاول قائد الحرس البرائتوري كورنيليوس فوسكوس Cornelius Foscus غزو داكيا واجه هزيمة قاسية هلك فيها معظم من

(١) B.W. Jones, «The Dating of Domitian's War against the Chatti», Historia, Band X II (1973), Heft 1. pp. 79-90.

(٢) وربما أراد بذلك أن يقلد أغسطس بعد فتحه مصر عندما سك عملة تحمل شعارا « لقد سقطت مصر » . Aegyptus Capta

(٣) Mattingly, op. cit., vol II, pl. LXII, no. 3.
cf. Syme, op. cit., 214, p. 338.

معه . ولما حاول الجنرال الروماني تاتيوس جوليانوس الانتقام للقوات الرومانية عام ٨٨ ونجح في تحقيق بعض الانتصارات السريعة ثارت القبائل الجرمانية في منطقة بوهيميا وسارع دوميتيانوس مرة أخرى لتأديب الثوار ولكنه رد على أعقابهم خاسرا عندئذ لجأ إلى سلاح الدبلوماسية فسعى لعقد صلح مع ملك داكيا - إعتزف بمقتضاه بسيادة روما على هذه المنطقة وأعاد أسرى الحرب من الرومان مقابل دعم مالي من روما لبلاده ودعم فني من مهندسيها وبذلك أعلن دوميتيانوس عام ٨٩م أنباء انتصاره على الداكيين والكاتيين مرة واحدة ثم وجه همه لتأديب ما تبقى من القبائل الشائرة التي ظلت تقاوم حتى تم إخضاعها عام ٩٣ ميلادية . وبذلك خفف من حدة التوتر في ولاية الدانوب العليا والوسطى بالرغم من أن هذا الهدوء لم يستمر طويلا .

المعارضة والمقاومة لحكمه :

كما رأينا كانت قيادة دوميتيانوس وإدارته للدولة حكيمة وناجحة حتى أن عدد المعارضين لها كان قليلا . ولكن كانت هناك عوامل دعت إلى وجود نوع من القلق وعدم الرضا عن حكم الأسرة الفلافية وحاولت إسقاطه وكان مصدر هذا القلق هو تسلط الامبراطور في الإدارة وفرضه لسياسته فرضا رغم أنف المعارضين . ولما طلب الامبراطور من موظفيه واتباعه أن ينادوه « بالمولى والرب » احتج الناس ممتعضين لأنهم ظنوا أن كاليجولا جديد قد ظهر . ولما تشددت قبضة الامبراطور على الدولة قام أنصار المدارس الفلسفية (١) والمنجمون (٢) بالوقوف في وجه التسلط والطغيان ، وأزاء هذا أصدر الامبراطور قرارا بطردهم من البلاد ، كما أن تبنيه لعدة قوانين أخلاقية متزمته بقصد تطهير سلوك الناس وأحيائه لعقوبة الدفن حيا « لراهبات الربا فستا » أثارت احتجاج الناس وقللت من شعبيته في عصر تحرر فيه الرومان نتيجة لظهور المدارس الفلسفية من قيود التقاليد وشنن الآباء خاصة أن سلوك الامبراطور الشائن مع ابنة أخيه جعلهم يقولون أن فاقده الشيء لا يعطيه . وأخيرا فإن انغماس الامبراطور في الاغريقيات ومحاولته ادخالها في شكل الألعاب الاولمبية والمساجلات الشعرية والادبية وبناء الديار الجميلة الرقيقة لإقامة الرياضيين ترك انطباعا سيئا عند الرومان الذين عافوا هذه الاغريقيات واعتبروها مبعوعة وعناصر هدامة لشعب تربى على الدم والقتال والرجولة والاقدام (٣) ومن ثم انطلق

cf. R.(MacMullen, op. cit., pp. 78-80.

(١)

cf. op. cit., p. 113-132.

(٢)

cf. R. Syme, op. cit., p. 509-510.

(٣)

صوت انصار حماية التقاليد الرومانية معترضا . ولكن المعارضة الفعلية جاءت من السناتو الذى اقلقه التسلط والفروور والذى رفض ان يكون تابعا للامبراطور وقاد هذا الشعور انصار المدرسة الرواقية التى سبقت ان قدمت شهداء عديدين .

وقد تبلور الغضب والرفض فى حركة تمرد عسكرية عام ٨٩ ميلادية فى ثكنات القوات الرومانية فى المانيا العليا والتى تزعمها انطونيوس ساتورنينوس Antonius Saturninus الحاكم الرومانى لولاية المانيا العليا (١) . وقد حرض ساتورنينوس جنود الفرقتين اللتين يقودهما على اعلانه امبراطورا وذلك فى ثكناتها فى مدينة ماينز الالمانية وذلك فى شتاء عام ٨٨ : ٨٩ م . وبنى ساتورنينوس احلامه على تأييد بعض قادة الجيوش الرومانية وعلى مساعدة قبائل الكاتيين الالمانية . وقد استجابت هذه القبائل لولا ان اعاققت الثلوج طريقها ، ولسوء الحظ لم يجد ساتورنينوس من يساعده بل على العكس وجد حاكم المانيا السفلى الموالى للامبراطور يهب لسحق حركة التمرد وبالفعل سحقته الثورة سحقا وسقط ساتورنينوس صريعا قبل ان يصل الامبراطور على رأس قواته وقد نمت الى علم الامبراطور ان وثائق قد عثر عليها مع ساتورنينوس معظمها خطابات تأييد من اشخاص عديدين تمنوا له النصر وحثوه على المضي قدما فى ثورته وبالرغم من ان هذه الوثائق قد دمرت قبل ان تقع فى يد الامبراطور الا انها تركت فى نفسه مرارة وتعطشا لتمشييط العاصمة من اعدائه الذين يتربصون به .

ومنذ ذلك الوقت سيطر الرعب والقلق على الامبراطور ، وراح يتخيل المؤامرات التى تحاك ضده . وبدأ بذلك عهد ارهاب جديد ، وراح بلا رحمة يسفك دماء الاعضاء البارزين من رجالات السناتو والادارة ، ووجد المخبرون السريون اذانا صاغية من الامبراطور فراخوا يكيدون للناس انتقاما منهم وحقدا عليهم وابتزازا لاموالهم وطمعا فى ذهب الامبراطور ، وقد أدى هذا الرعب الى كراهية الناس له ولاعماله حتى ان المؤرخ تاكيتوس اخذ موقفا معاديا ومتحيزا منه ومن الامبراطورية الثانية التى اسسها ابوه ، ودفع الرعب دوميتيانوس الى ان يعيش داخل حجرته فى قصره لا يخرج منها الا نادرا ، وقد قيل انه كسا جدرانها بغطاء لامع حتى يستطيع ان يرى من يقف وراءه لكى لا يطعن من الخلف ، بل انه حرص على ان يضع خنجرا تحت وسادته ليلا . وبلغ به الرعب لدرجة انه لم يعد يضمن انه سيعيش غده ويروى سويتونيوس كيف انه وضع بضع تفاحات على المائدة (٢) وراح فى

Ibid, pp. 32, 75, 213.

Suetonius, Domitianus, 16.

(١)

(١)

كل مرة يقسم « لو قدر لي أن أحيي لكل هذه التفاحات ! » :
Si modo licuerit

وزادت الأحوال سوءاً . إذ بدا المواطن يفقد ضمان السلام ولا يعرف ماذا يحدث له . وهو يرى المحاكمات والاعدام يحدث كل يوم لمشاهير السياسيين بتهمة الخيانة العظمى وآخرين بتهمة الإلحاد بالديانة الرومانية وكان معظم هؤلاء من المعتنقين للديانة اليهودية والمسيحية .

وكان آخر الذين أعدموا ابن عم الإمبراطور واسمه فلافيوس كلينس Flavius Clemens وكان فتى كسولاً مشاكساً ، كذلك نفى الإمبراطور زوجة هذا الأخير وكان اسمها دوميتيلا Domitilla (١) وهي في نفس الوقت إحدى بنات شقيق الإمبراطور . وأغلب الظن أن دوميتيلا كانت تمارس الشعائر المسيحية أن لم تكن قد اعتنقتها لأنها تبنت قضية المسيحيين الرومان ولهذا قرر الإمبراطور نفيها من المدينة .

اغتيال دوميتيانوس :

وأزاء هذه المحاكمات الهزلية والتي تلتصق التهم بالابرياء قرر بعض الذين كانوا يخشون وقوعهم في حلبة القدر أن تكون لهم المبادأة ويقعدرون بالإمبراطور قبل أن يفدر هو بهم . وقد نجح المتآمرون في التأثير على زوجة الإمبراطور دوميتيلا التي كان الإمبراطور قد طلقها متهما إياها بارتكاب جريمة الزنا مع المفضي والراقص الأول في ذلك الوقت واسمه باريس ، ولم تنس الإمبراطوره هذه الإهانة رغم أنه ردها إليه مرة أخرى ، واختارها المتآمرون لتكون على رأسهم بعد أن انضم إليهم قائدان من قرات الحرس الإمبراطوري أحدهما يدعى ستيفانوس والآخر بارتينوس بالانسافة إلى العديد من موظفي القصر ورجال الحكومة . وقبل أن يخرج المتآمرون خناجرهم (٢) من تحت أروابهم بحثوا طويلاً مسألة الإمبراطور الجديد ووقع اختيارهم على محام عجوز من أبرز رجال القانون والسناتو على السواء وحصلوا على موافقته بقبول منصب الإمبراطور إذا ما نجحت

(١) cf. R. Syme, p. 216 — Suetonius, Dom, XV, I, Dia, LXVII, 14.

(٢) يروي ديو كاسيوس أن أبولونيوس التياني Apollonius of Tayana كان في مدينة إفييسوس في آسيا الصغرى وفي لحظة مصرع دوميتيانوس في روما دعى الناس إليه ثم صاح « أحسنت يا ستيفانوس أحسنت يا ستيفانوس !! أظن الخبيث . لقد جرحته . له جرحته . . لقد قتلته !! » ولم يفهم أحد ما يقول . ويؤكد المؤرخون صدق الرواية . وأن صحت فأنها قد تكون من باب توارده الخاطي Tetepathy منعا . . . عن غير بن الخطاب وسارية . (يا سارية . . . الجبل)
cf. Dio, LXVII, 11.

المؤامرة . وكان هذا الرجل هو ماركوس كوكايوس نيرفا الشهير بالامبراطور نيرفا Marcus Cocceius Nerva ، وفي ليلة من ليالى شهر سبتمبر عام ٩٦ ميلادية سقط الامبراطور تحت ضربات خناجر المتآمرين فتنفس الناس الصعداء ولم يذرف السناتو عليه دمعة واحدة ، بل على العكس انزل عليه اللعنات واصدر السناتو قرارا بمحو اسمه من على المنشآت وهو ما يعرف بلعنة الذكرى damnatio memoriae وتركت جثته ملقاة حتى دفنت في مقابر المعدمين لولا مربيته التى اعادت دفنها سرا في مقابر اسرته وهكذا سقطت الاسرة الفلافية .

تقييم للأسرة الفلافية وعهدها :

بالرغم من اختلاف وتباين شخصيات اباطرة الاسرة الفلافية الثلاث الا ان هناك قاسما مشتركا اعظم يجمع بينهم وهو حب العمل والكفاءة المتناهية فى الادارة . ولهذا لم تتأثر المشروعات العمرانية او الاصلاحية بموت ايا منهم لأن التالى له كان يكملها ويزيد عليها ، فمثلا ورث دوميتيانوس سياسة ابيه فى دعم مركز الحكومة فى الداخل ودعم قوة الامبراطورية فى الخارج الا انه كان ينقصه مرح ابيه ونطانته وقدرته واحتمال تيتوس فى العمل . ومهما قيل عن اباطرة هذه الاسرة فسيذكرها التاريخ بما حقته فى مجال التنظيم والادارة فهم اول من وضع للعمل الادارى فى الامبراطورية قواعدا ونظما وحدودا ومنهجيا كان لها اثر دائم على الامبراطورية فى كل العصور .

ففى مجال الدفاع والسياسة الخارجية لم يكن الفلافيون توسعيين ولم يسمحوا لجنون العظمة الوطنية لتقودهم فى متهاتات التوسع ، بل عرفوا بمقدرة وحدود قوة الامبراطورية ، وآمنوا بنظرية الامبراطور اغسطس فى تفادى التوسع ، ولكنهم رغم هذا ادركوا أن الجيش الخامل خطر على الدولة ومصدر لأعمال الشغب والتمرد ، ومن ثم فكروا فى امتصاص طاقة الجيش وجعله منهمكا . فاستخدموا الجيش فى تنفيذ مشروعات المرافق العامة والمشروعات المدنية . وفى تأمين حدود الامبراطورية عن طريق حروب صغيرة مانعة لهجوم الأعداء سواء فى افريقيا أو بريطانيا أو المانيا وعلى طول وادى نهر الدانوب ، كما حرصوا على أن يكونوا دائما بين الجنود وفى ثكناتهم ، وقيادتهم فى المعارك ، كذلك حرص الاباطرة الثلاث على اختيار المجندين من ابناء الطبقة الوسطى فى الاقاليم ضمانا لمعدن جيد من الرجال المتزنين الخالين من مركبات النقص الاجتماعية . وضمنا للسلام وتفاديا للتمرد ، كما باعد الاباطرة بين القوات الرومانية على الحدود حتى يجعلوا حجم التمرد اذا ما حدث - محدودا يسهل القضاء عليه .

لقد نجح اباطرة هذه الاسرة في توضيح وتجديد حدود الامبراطورية وحمايتها بطريقة سهلة لا تكلف الدولة كثيرا وسد القبائل البربرية المهاجمة عبر الحدود او المتجربة من داخلها ، وقد اولى هؤلاء الاباطرة عناية خاصة بولايات الشرق ، وخوفا من خطر دولة بارثيا دعمت ولاية كابادوكيا لتصبح حصنا اماميا عائقا في طريق بارثيا ، كذلك اهتموا بولاية سوريا Provincia Syria

لتسهيل الاتصال بين الفرق الرومانية الست والتي كانت موزعة على ولايات الشرق ، ولتسهيل نقل الامدادات من الغرب في حالة الضرورة .

وفي شمال افريقيا حاول هؤلاء الاباطرة اجبار سكان موريتانيا ونوميديا الرجل على ترك حياة البداوة وشجعوهم على الاقامة الدائمة وزراعة الارض الغنية التي ادركت الامبراطورية اهميتها في زيادة الدخل الزراعي . وفي بريطانيا قضى الرومان على مناطق الثورة في ويلز وغيرها من المناطق ، بل وصل الجيش الروماني لأول مرة الى اسكتلندا وحاول غزو ايرلندا لولا استدعاء الامبراطور لقائده اجرىكولا ، وقد قلنا ما فيه الكفاية عن تأمين الحدود الجرمانية الدانوبية وقمع ثوراتها في عهد دوميتيانوس وتدعيمه لهذه الجبهة المشاكسة بوضع تسبعة فرق على طول وادي الدانوب وهذه اكبر مظاهرة عسكرية قامت في تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ ايام اغسطس .

وفي مجال الاصلاح المالى والإدارى يكفى ما قلناه . لقد نجح اباطرة الاسرة في وضع قواعد ثابتة لاختيار الموظفين الإداريين ظل معمول بها حتى بعد سقوط هذه الاسرة .

وقد حرص الفلافيون على الاستعانة بالكفاءات القادرة في الادارة والحكم من امثال الجنرال اجرىكولا Agricola ، وفرونطو Fronto وفرونطينوس Frontinus ، وبليسيوس الكبير Plinius ، وتاكيوس المؤرخ العظيم .

وكان دوميتيانوس اول من عين خبراء قانونيين Juridici للإشراف على الاجراءات القانونية المدنية في بعض الولايات الكبيرة وبهذا كان اول من فصل الإدارة المدنية عن الإدارة العسكرية في التنظيم والحكم .

وقد اتبع اباطرة الاسرة الفلافية تقليد اغسطس الخاص بالاعتماد على طبقة الفرسان لخبرتهم الطويلة في الادارة المالية وتقوية جبهتها في مواجهة الطبقة النبيلة الارستقراطية ، ولما كان الفلافيون انفسهم ينتمون الى طبقة الفرسان فقد اولوها عناية خاصة ووثقوا فيها وملاءموا الوظائف (م ١٥ ب تاريخ الامبراطورية الرومانية)

الشاعرة برجالها بدلا من العتقاء الذين قامت عليهم الادارة في عصر الاسرة
البوليوكلاودية ، وبمقتضى سلطة الرقيب الابدية. أصبح الاباطرة قادرين على
ترقية من يجذبونه من الفرسان الى طبقة رجال السناتو وقد فعلوا ذلك
بالفعل واصبح لهم جبهة مناصرة من الاعضاء الجدد داخل السناتو مما
زاد من حقد النبلاء عليهم .

لقد شكلت التقاليد الفلافية الخاصة كالحرص المالى والعناية
بالزراعة واحترام الملكية الخاصة وحقوقها ملامح الحكم وحددت رسالة
الامبراطور كخادم للشعب وامين على ممتلكاته ومسئول عن رفاهيته
وسعادته . وهذه التقاليد تنبع من البيئة التى جاء منها هؤلاء الاباطرة
واسبحت فى القرن التالى لسقوط اسرتهم تقاييدا اساسية بل وملزمة لاي
امبراطور . اما مدى نجاح كل منهم فى ارضاء الجماهير فهذا يتضح من
نظرة الناس اليهم بعد موتهم فقد انبوا بعضهم بجداراة ولعنوا بعضهم بحقد
يكاد أن يكون شخصيا .

وقبل أن نسدل الستار عن هذه الاسرة وجب علينا ان نلقى نظرة
سريعة على الحياة الثقافية والدينية والفنية فى عهدهم .

لقد سار الفلافيون على هدى اغسطس فى التمسك بفكرة بعث الامة
انعظيمة فى كافة المجالات التى تمس حياة الافراد بما فى ذلك المجال
الفكرى والروحى .

ومن بين العبقریات الأدبية التى تالأت فى عهد الاباطرة الفلافيين الشاعر
الملحمى سيليوس ايتاليكوس Silius Italicus الذى اتخذ من فرجيل
مثله الاعلى واحتذى بحدوده فى ملحمة القتالية التى ألفها عن احداث
الحرب البونيقية الثانية ، وفى نفس العصر تشبع فلاكوس بروح الشاعر
الاغسطسى أوفيدىوس عندما ألف ملحمة الرائعة لارجوناوتيكا Argonautica
او رحلة السفينة ارجو . كما عكف ستاتيوس على البحث عن الأفسار
القديمة فى مؤلفاته مثل ملحمة طيبة Thebais وملحمة آخيل Achilleis
وفى ديوانه « الغابات » Silvae الذى سجل فيه اشعاره الارتجالية .
ولكن للأسف تميزت معظم هذه الاعمال الأدبية بروح العصر التى كانت
تحرص على التكلف والبلاغة والخطابة بدرجة تثير فى النفس الاحساس
بثقلها وعبوسها وسيطرة التكلفة والصنعة عليها .

ومن الأدباء الظرفاء فى ذلك العصر كاتب الابجراما « أى الاشعار
القصيرة » والزجال الناقد اللازع مارتياليس Martialis الذى لم يترك
كبيرة ولا صغيرة فى الحياة الرومانية الا وتناولها بالنقد اللاذع والتفريظ

الدكى مستخدما حسن التعبير وحيوية الوصف وسلاسة الاسلوب مما جعل منه شاعرا عظيما يرتبط اسمه بفن الإيجراما الرومانية .

ومن النقاد البارزين أيضا المعلم كونتليانوس Quintilianus واضع قواعد الخطابة Institutes Oratoriae التى هى مصدرنا الاول عن نظم التربية التعليمية فى المدارس الرومانية (١) فى هذه الفترة لأن هذا المؤلف يشمل منهجا كاملا وضع لغرض تعليم فن الانشاء الخطابى . ولكن الذى لا ريب فيه هو عشق كونتليانوس الواضح للأسلوب الشيشيرونى السامى ومحاولته رفع الأسلوب العام فى الكتابة الى هذا المستوى الرفيع . وهو طموحا ما من شك فى ذلك . وجدير بالذكر أن معظم هذه العبقريات الادبية لم تكن رومانية لحما ودما فقد كان ايتاليكوس ومارتياليس وكونتليانوس من اصول اسبانية كما كان سينيكا ولوكانوس فى عصر خلفاء اغسطس . ومن ثم أولوا ظهورهم للتقليد الرومانى القديم كما بسط الإباطرة الفلافيون حمايتهم ورعايتهم على هذه العبقريات الادبية وأخذوا بيدها وأنعموا عليها بالمناصب فمثلا شغل سيليوس ايتاليكوس وكونتليانوس منصب القنصل .

وبالرغم من هذا فإن الثقافة والادب فى هذه الفترة لا يمكن أن يتصفا بالرقى والسمو الرفيع لأن الكثير منها كان جامدا ومبتذلا . وان كان الارستقراطيون قد أعرضوا عنها إلا أن العامة انكبت عليها وتأثرت بها وانرت فيها . والدليل على توغل الثقافة والفنون الى أعماق الناس واضح من خلال مؤلف بترونيوس الظريف المعروف باسم ساتيريكون Satiricon . ومن حفائر الانريين فى بومبى بعد ازاحة تراب بركان فيزوف الذى دفنتها لاحظ الاثريون اهتمام اصحاب المنازل حتى المتواضعة منها بتزيين جدرانها بالرسوم الجميلة والاهتمام بجمال قاعات الطعام وتنظيم الحدائق ناهيك عن جمال المرافق العامة . ان المرء ليحس وهو يتفحص آثار مدينة بومبى ومنازلها ومبانيها بمدى ارتفاع درجة التذوق الفنى عند الناس فى هذه الفترة والذى يعكس دراية ولو سطحية بالتسعر والشعراء قديمهم وحديثهم وحب عميق لكل ما هو رقيق وجميل .

ان حب الجمال والفنون وانتشار الثقافة حتى ولو كانت سطحية بين الناس يعكس أيضا نظرهم الى الدين فى هذه الفترة . فقد لاحظ العلماء تدهور العبادات الرسمية والنسائر التقليدية فمثلا سجل الاثريون ملاحظة هامة من مدينة بومبى هى أن المدينة تعرضت لزلزال دمر مبانيها عام ٦٢.

(١) انظر : فتحة حسن سليمان : التربية فى المجتمع اليونانى والرومانى القاهرة .

(١٦٠) ص ١١٨ وما بعدها .

ميلادية قبل أن يدمرها البركان عن آخرها عام ٧٩ ميلادية . كما لاحظ الأثريون أن سكان المدينة لم يكلفوا أنفسهم عناء ترميم معابد الآلهة الرومانية التقليدية وتركوها خرائب واطلال أما معبد الربة ايزيس المصرية فلم يتوانى أهل المدينة عن ترميمه وبناءه عقب الزلزال مباشرة وهذا يثبت انتصار الديانة الشرقية ودخول آلهة النيل منتصرة الى معاقل آلهة التبر رغم التشجيع والمعايرة التي انهال الشعراء الرومان بها على آلهة النيل أثناء الحرب ضد كليوباترا ، حقا لقد أصبح المنتصر أسير المهزوم عندما أحست جماهير الرومان في هذا العصر بأنها متعطشة لينابيع ديانة الشرق ونهلت منها حتى امتلأت عقولها بأسرارها وقديسياتها وحتى فقدوا ذاتهم المتميزة في بحر الفكر الشرقي العارم الذي جرف في طريقه سدود المقاومة رغم انف المتطرفين . وعاش المواطنون حياتهم سعيدة مرفهة بعد أن ألغوا غارب الحكم والسياسة على عاتق الإمبراطور ورجاله .

نظام حكم المواطن الأول بين النظرية والتطبيق :

بموت دوميتيانوس كان قد انقضى مائة وثلاثة وعشرين عاما على تأسيس أغسطس لنظام حكم المواطن الأول تولى الحكم فيها أسرتان ، الأسرة اليوليوكلاودية التي شملت الإباطرة الذين انحدروا من المؤسس سواء بالفربي أو بالتبني ، والأسرة الفلافية التي أوجدها المؤسس الثاني للإمبراطورية فسباسيانوس . ومن لاحظ أن إباطرة الأسرتين تمسكوا بضرورة توريث الحكم لابنائهم أو أقاربهم لكي تظل الخلافة في بيوت أسرهم . وقد أعلن ذلك فسباسيانوس صراحة عندما أعلن أن يولى أبناءه أو لا أحد يتولى الحكم (١) .

ولهذا أضحى السناتو مسلوب الإرادة في اختيار الإباطرة ، ولم يتبقى أمامه سوى منح موافقته التقليدية . واضفاء القاب التكريم والسلطات المعهودة على الشخص المخنار إمبراطورا من قبل قوى خارجة عن إرادته ، لقد ثبت أن نظام توريث الحكم كان أسوأ نظم الحكم . ذلك لأن البنوة أو القرابة تفرض شخصا قد يكون غير لائق نفسيا وعفليا للحكم من أمثال جايوس ونيرون ودوميتيانوس .

كذلك فإن اضفاء السلطات على الإمبراطور بصورة مطلقة ولمدى الحياة جعل من الصعب التخلص من الإباطرة المنحرفين وأصبح الحرس البرايتورى هو المتحكم فهو الذى يبقى على الإمبراطور أو يقتله . وفي هذا الجو تجسمت

فكرة الاغتيال والمؤامرات والانقلابات وقد أدى ذلك الى انتشار الصراع .
وقيام الحرب الأهلية في كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية كما حدث في أعوام
٦٨ و ٦٩ ميلادية .

ولم يكن للسناو شروط سوى أن يكون الامبراطور عادلا وكفء ذا سلوك
حميد ويضرب المثل الأعلى للناس . والا فان الامبراطور يتعرض للمؤامرات
او الاغتيال ؛ واذا نجا منها فان السناو كان يحرمه من اصفاء التكريم
والتأليه عليه بعد مماته كما جرت العادة . ولكن الاباطرة لم يتقيدوا بوجهات
نظر السناو على الاطلاق في حياتهم ، لأن كلا منهم باشر عمله بنفسه في ظل
الظروف القائمة .

وعندما انعم السناو مثلاً باللقاب التشريفية والالهية على كلاوديوس
وفسباسيانوس وتيتوس تماماً مثلما فعل مع اغسطس كان ذلك بمثابة
اعلان الرضا من جانب السناو لهؤلاء الاباطرة نظراً لالتزامهم بالقانون والعرف ،
وعندما صب السناو لعناته على نيرون ودوميتيانوس فان ذلك كان يعنى
انحرافهما عن الدستور وسوء سلوكهما . وهناك عدد من الاباطرة من أمثال
تيبريوس وجالبا واوتو وفيتلليوس امتنع السناو عن تأليههم او تجريدهم
من التكريم مؤقتاً ثم عاد وكرمهم فيما بعد .

وفي مسألة الحكم اختلفت وجهات نظر الاباطرة فهناك منهم من يعتبر
الامبراطور موظفاً كبيراً وليس الا مواطناً اول بين مواطنيه ومن ثم يقع
اختصاصه في حدود القانون الذي يحكم تصرفاته ومن خلال العرف الذي
سار على نهجه من سبقوه . وذلك الراى كان يراى اغسطس وتيبريوس
وكلاوديوس وفسباسيانوس وتيتوس ؛ اما الراى الثانى فيرى ان الامبراطور
يجب أن يكون امبراطوراً له مطلق التصرف ومطلق السلطات وان السناو
والشعب الرومانى ما هم الا رعيته واتباعه والامبراطور يجب أن يكون فوق
العرف والقانون كما رأى كل من جايوس ودوميتيانوس ؛ بل اضافوا على
ذلك وجوب الاعتراف بالوهية الامبراطور في حياته وبعد مماته مثلما فعل
جايوس كاليجولا .

ومن ثم جاء تفسير السناو للأباطرة الى فريقين : فريق آمن بسيادة
القانون والعرف ، وفريق تعدى عليه ومن ثم جر على نفسه البلاء والمؤامرات .
ولكن هناك نتيجة اوضحت في حكم الحقيقة التابنة هي أن في كلا الحالتين
نجد الامبراطور هو الحاكم وليس السناو او كبار الموظفين . ولم يجد
بعض رجال السناو الساخطين والحالين بأيام الجمهورية الأرستقراطية
نفعاً من توجيه النقد والاتهامات الى الامبراطور سوى الانتقام من جانبه

ورد الامبراطور بالانقاص الدموى منهم . واخيرا وجد السناتو ان حلم اسقاط حكم المواطن الاول خرافة . وانه من الخير ان يسمى الى توثيق صلاته بامبراطور عادل خيرا من ان يظل على عناده القديم وان فكرة ارجاع الجمهورية القديمة امرا محالا بعد ان رسخت دعائم نظام حكم المواطن الاول في الامبراطورية ، بل وبالرغم من كل عيوبه ثبت انه خير نظام لحكم الامبراطورية الشاسعة ، لان الفوضى السياسية التى كانت قائمة خلال الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية كانت لا تزال ماثلة فى ذهن فريق من الجمهوريين الارستقراطيين ، وقد شجع ذلك على قبول الامر الواقع وان كان مريرا على انفسهم ، مخيبا لامالهم واحلامهم عن الايام الخوالى ايام كان السناتو هو مركز اعصاب الدولة لا يترك رجاله المحنكين امرا الا وقلبوه نقاشا بين محبذ ومعترض قبل ان يتخذوا قرارا لهم ، ونظروا بحسرة الى الايام التى كان فيها امرهم شورى بينهم . ومن ثم قبلوا الواقع المر وفشلوا ان يؤقلموا انفسهم مع النظام الجديد .

الفصل السادس

عصر الإباطرة الصالحين

المصادر التاريخية :

ان مصادرنا عن الفترة التاريخية التي تبدأ بموت دوميتيانوس عام ٩٦ ميلادية وتنتهى عند الامبراطور سيفيروس الاسكندر Severus Alexander في عام ٢٣٥ ميلادية قليلة ؛ ولهذا قسمت هذا الفصل الى فترتين الاولى وتنتهى عند موت ماركوس اوريليوس Marcus Aurelius عام ١٨٠ م ، وهى فترة العصر الذهبى للامبراطورية الرومانية حيث وصلت الى اقصى درجات التوسع والازدهار السياسى والاجتماعى والحضارى نتيجة لسيادة السلام الرومانى فى الخارج وكفاءة الادارة فى الداخل . اما الفترة الثانية فهى التى تبدأ من ١٨٠ م وحتى حكم سيفيروس الاسكندر فى عام ٢٣٥ م . وهى فترة التدهور السياسى والقوضى الاقتصادية والحروب الأهلية بين الجيوش الرومانية مما سبب ازمت راحت تهدد الامبراطورية ذاتها . بل وكانت الارهاصات الاولى للموامل التى ادت الى سقوط الامبراطورية الرومانية (١) فيما بعد .

وعلى أى حال ليس لدينا مصادر كافية عن هاتين الفترتين فمثلا مؤلف كاسيوس ديو Cassius Dio الذى يغطى هذه الفترة حتى عام ٢٢٢ ميلادية لم يتبق منه سوى اجزاء بسيطة من كتابه الاخيرين . اما الباقي فليس امامنا خيار سوى الاعتماد على ما كتب فى القرن الحادى عشر الميلادى عن هذا المؤلف المفقود .

cf. Joseph Vogt : The Decline of Rome, (English edition, London. (١)
Weidenfied and Nicolson 1967), pp. 25-28.

وهناك مؤلف آخر كُتب اغريقى اسمه هيروديانوس Herodianus (١) والذي كُتب سجلا للفترة ما بين ١٨٠ و ٢٢٨ ميلادية ، الى جانب ذلك نعتد أيضا على سلسلة من التاريخ الداتى او تاريخ السير لبعض الاباطرة ابتداء من هادريانوس ، جمعت ابان القرن الرابع الميلادى وعرف باسم Historia Augusta ومن المصادر البامة لتلك الفترة خطابات بلينيوس الأصغر ومراسلاته مع الامبراطور اثناء توليه حكم ولاية بيثينيا Bithynia ما بين ١١١ - ١١٣ ميلادية .

وهناك مصادر صغيرة أخرى متفرقة خاصة تواريخ السير الذاتية ولكنها ليست بذات الاهمية الكبرى .

ونظرا لقدرة المصادر الادبية فان اعتمادنا على المصادر المباشرة يصبح حيويا مثل النقوش واوراق البردى وقطع العملة وكل ما يساعد على اعطاء صورة حية وناطقة للحياة فى عصر ازدهار الامبراطورية الرومانية . وهنا تبرز اهمية الولايات الرومانية فى امداد المؤرخين بالمعلومات سواء البردية او النقشية او الاثرية . خاصة مصر ذات التراث الغزير والمصدر الاول للوثائق البردية الذاخرة بكل المعلومات الخاصة والعامة والمشاكل التى استولت على الناس ابان عصر الامبراطورية (٢) .

أولا : عصر الازدهار : من ٩٦ ميلادية الى ١٨٠ ميلادية :

بموت دوميتيانوس سقطت الامرة الغلافية وادرك الرومان من الدروس السابقة ضرورة تغيير نظام تولي الاباطرة وان نظام توريث الحكم لابن الاكبر او احق أبناء الاسرة ليس بالنظام الافضل ، وقد ساعدهم على ذلك ان دوميتيانوس مات دون ان يكون له وريث . وفى هذه الاناء تبلورت

(١) هيروديانوس السورى مؤرخ اغريقى عاش ما بين ١٧٠ - ٢٤٠ ميلادية فى مدينة روما حيث شغل عددا من المناصب فى الباط والقضاء . وقد ترك لنا سجلا لتاريخ الاباطرة من ماركوس اوريليوس حتى تولى جورديانوس الثالث عام ٢٢٨ ميلادية . ويتميز تاريخه بالوضوح والحياد والساطة والموضوعية وتسود فيه النزعة الاخلاقية وبالرغم من انه سطحن الى حد كبير الا ان معاصرته للاحداث يضيف على تاريخه اهمية خاصة .

(٢) هنا يجب ان اشير الى النتائج الباهرة التى ابرزتها حفائر كلية الاداب جامعة القاهرة فى الفيوم وبالتحديد فى مناطق كرانيس كوم اوشيم (انظر التقرير العلمى الاول والثانى لمواسم ١٩٧٢ و ١٩٧٣) وكذلك فى منطقة باخيناس ام الاتل . ويرجع الفضل الاول فى هذه الحفائر الى العلامة الاستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على والى تلميذه ومساعدته مؤلف هذا الكتاب .

فكرة جديدة - ربما من باب السدفة - لاحتياز الإمبراطور وقد فجحت هذه الطريقة وانت بأفضل العناصر على الإطلاق في تاريخ الإمبراطورية وهو نظام التبني من خارج دائرة الاسرة وهؤلاء الإباطرة الأكفاء على التوالي هم :

١ - نرفا (٩٦ - ٩٨ م) :

واسمه بالكامل ماركوس كوكيوس نرفا ، وهو الرجل العجوز الذي سبقنا الإشارة إليه بأنه قد اختير من جانب المتأمرين لتولى الحكم وكان يبلغ من العمر ست وستين سنة ، وكان ينحدر من أسرة عريقة عملت بالقانون أباً عن جد . بل أنه كان يمت عن طريق المصاهرة الى الاسرة اليوليوكلاودية وقد جعلته كفاءته على علاقة طيبة بالفلايين . ولكن لما كان نرفا لم ينجب ولداً فان أحداً لم يخش عليه من فكرة تأسيس أسرة جديدة أو احياء الاسرة اليوليوكلاودية .

كانت أول محاولة للإمبراطور نرفا هو التشاور مع شيوخ السناتو والتعاون معهم من أجل استعادة ثقة الشعب الروماني في الإمبراطورية ورفع روحه المعنوية من أجل مستقبل الشعب . ولهذا بدأ في شراء الارض وتوزيعها على المعدمين من الرومان . كما بدأ مشروعاً بمقتضاه أصبحت الدولة تفرض رعايتها على أبناء فقراء الإقليم وتمدهم بالمعونة والتعليم ذلك من طريق التبرعات وقد اتسع هذا المشروع فيما بعد حتى أصبح من أهم أجهزة الدولة (١) .

كذلك شجع نرفا الرومان الأثرياء على توريث اقرباءهم (٢) المقيمين بالريف الإيطالي عن طريق الوصايا وأوقف عمليات القمع ضد أنصار دوميتيانوس حتى لا يسبب ذلك رد فعل دموى .

كان نرفا رجلاً أميناً جاداً وقوراً ولكنه كان ينقصه التأيد العسكري . وقد أدرك نرفا هذا النقص عندما هب الحرس البرايتورى في حركة تمرد ضد قائده عام ٩٧ م لأن هذا الأخير اشترك في التآمر على حياة دوميتيانوس الذي كانت الجنود تحن الى أيامه وحسن معاملته للقوات . وأجبر الثوار

(١) cf. A.R. Hands : *Charities and Social Aid in Greece and Rome*, (1) Thames and Hudson, London 1968, p. 21.

(٢) عن سياسة نرفا الاقتصادية انظر :

R. Syme, *JRS* (1936), p. 55. ff ; *Southeast JRS*, (1957), p. 50 ff.

الامبراطور على اعدام قائد قواتهم ولم يستنج الامبراطور ان يتخذ رفاقه الذين اجلسوه على العرش ، ولكنه اخذ خطوة جريئة ردا على هذا الخطر المتمثل في العسكريين ، بان اختار خليفته من بين احد جنرالاتهم الحازمين واعلن تبنيه لهذا الجنرال وجو ماركوس اولبيوس تراجانوس Marcus Ulpius Traianus وكان حاكما على منطقة المانيا الدنيا . وتبناه ثم انعم عليه بكافة التشريعات ومهد لاشراكه معه في الحكم وذلك عن طريق منحه السلطات المخولة للامبراطور . وقبل ان يعود الوريث من ولايته في المانيا حيث كان يشرف على تنظيم طرق ومعسكرات القوات الرومانية ليتسلم مهام منصبه الجديد لفظ الامبراطور العاقل نرفا انفاسه متأثرا بالمرض الذي كان مصابا به ، ودفن الامبراطور الراحل في الضريح الامبراطوري الذي بناه الامبراطور اغسطس . بل كان آخر الاباطرة الذين نالوا هذا الشرف

لقد كان نرفا محبوبا من السناتو ومن الشعب الروماني على السواء ، لان سياسته كانت على البقيض تماما من سياسة الدين سيفور . فمثلا كسب ولاء النبلاء عندما اقسام على الا يحاكم اى عضو من اعضاء السناتو او يلحق بهم الاذى الا بناء على حكم السناتو نفسه . بل انه اوقف محاكمات الخيانة العظمى تلك التهم الملفقة التى كان الاباطرة السابقون يستخدمونها لتصفية اعدائهم ، واكثر من هذا اعاد نرفا كل المنفيين السياسيين والفلاسفة المطرودين بسبب عداوتهم للحكم السابق ، كما سمح للمواطنين الذين نالهم الاذى بسبب وشايا المخبرين بان ينتقموا لانفسهم باقامة الدعاوى القانونية ولم يدخل الامبراطور لوقف انتقامهم الا عندما زاد عن الحد وكاد ان يهدد الأمن والسلام .

لقد تعلم نرفا من الدروس القديمة للأحداث الرومانية . وابدى اهتماما كبيرا بشئون ايطاليا كلها ، وجعل الاعفاء من ضريبة لارث التى كان قدرها ٥٪ اكثر شمولا عن ذى قبل لكى يضيق التناقضات بين خزانة الدولة ودافعى الضرائب من المواطنين ، ويعتبر مشروع نرفا بانشاء لجنة لمساعدة الفلاحين الايطاليين الفقراء ورعاية أبناء المحتاجين وتعليمهم من اعظم انجازاته (١) . وقد عرفت هذه بالمعونة alimentaria ، ولهذا حرص خلفاؤه من الاباطرة خاصة تراجانوس على تدعيم هذا المشروع حتى اصبح

(١) cf. B.W. Henderson : Five Roman Emperors (London 1927), pp. 212 ff.; cf. A.R. Hand, op. cit., p. 107.

من أهم الأجهزة التنفيذية في الامبراطورية . ان اختيار الشخص الكفء ليخلف الامبراطور كان نقطة تحول في تاريخ الامبراطورية الرومانية لانه أصبح يأتي بالعناصر الصالحة والمتزنة . وقد سارع السناتو فمنح تراجانوس لقب قيصر اعترافا به كشرىك للامبراطور نرفا وكامبراطور منتظر وولى للعهد ومنحه ايضا السلطة التربيونية والامبريوم . وكان نرفا ينوقد شوقا ليرى تراجانوس يشاركه في الحكم الا انه لم تمض ثلاثة اشهر على هذا حتى فارق نرفا الحياة في الخامس والعشرين من يناير عام ٩٨م في بيته في روما . واعلن السناتو امتنانه للامبراطور الراحل بان اضاف اسمه الى قائمة الباطرة المؤاهين اعترافا منه بفضل على الامبراطورية . لقد كان نرفا امبراطورا قادرا ومتقلا ولكنه كان ضعيفا مسالما . ولكن تبنيه لخليفته مستقبلا على اساس القدرة والكفاءة حال دون اندلاع الصراع حول العرش بعد مماته . مثلما حدث في عام الانقلابات الاربعة في (٦٨ - ٦٩م) . وبذلك انتهى عهد الاسر الحاكمة ، وبدا عهد الباطرة الذين يختارون ويدربون من خارج العائلة الحاكمة ويختارون على اساس كفاءتهم ، ومن الطريف ان معظم هؤلاء الباطرة لم يكونوا حتى من اصول رومانية بل كانوا من اصول اسبانية . لكنهم يمثلون اعظم واصليح الباطرة والذين بفضلهم وصلت الامبراطورية الى قمة التوسع والنقدم .

٢ - تراجانوس (٩٨ - ١١٧م) :

بالرغم من ان تراجانوس يعتبر اعظم واكفأ الباطرة جميعا الا ان المصادر الادبية عن حياته واعماله قليلة . فدُلف ديون كاسيوس عن « حياة الباطرة الاثنا عشر » يتوقف عند موت دوميتيانوس عام ٩٦ ميلادية وبذلك حرمانا من عمل دقيق لمس عن قرب حياة الباطرة وعكس بدقة منقطعة النظر سيكلوجيتهم واعمالهم . وما تبقى من الأعمال الادبية لا يعطينا الصورة الدقيقة عن حياة تراجانوس وتفكيره ونفسيته ، بل يدور في فلك الأعمال التقليدية التي تملق الباطرة وتفرقهم في بحور المديح والثناء .

غير انه من حسن الحظ تجيء أعمال المؤرخ العظيم تاكيتوس التي نشرها بعد تولى تراجانوس العرش بقليل لكنها للأسف لا تلمس الا التليل عن عهدي نرفا وتراجانوس عندما يعلن ان الماني الاسود الذي عاشت فيه الامبراطورية تمت حكم دوميتيانوس قد تبدل الى الاحسن (١) ، وهذا

لا يفى الباحث بالمعلومات المطلوبة لكنها برغم اختصارها شهادة صادقة من مؤرخ صادق وشاهد على عهدين .

أما فيما عدا ذلك فإن المصادر الأدبية الباقية تخلو من حرارة العشق وتلجأ الى المديح والرياء والتملق التقليدى ، ومن أمثلة هذه الأعمال « رسائل الأديب بلينيوس الأصغر الى الإمبراطور تراجانوس ، وخطبته لفرء التى ألقاها فى مديحه أمام السناتو عام ١٠٠ ميلادية ، وكذلك مقالات الأديب الأغريقى ديو كريستوموس Dio Chrysostomos مواطن مدينة بروسا Prusa فى بيثينيا بآسيا الصغرى — عن الصورة المثالية للإمبراطور المتمثل فى تراجانوس كلها أعمال سطحية تقوم على ترف الإمبراطور وتملقه ، وتعميق البحث التاريخى ولا تساعد على تقصى الحقيقة .

أما الموجز التاريخى لكتاب ديو كاسيوس السادس والنمانيين المفقود والذى أعده لنا مؤرخ القرن الحادى عشر الميلادى كسيفيلينوس Xiphilinus واكملة مؤرخ القرن الثانى عشر الميلادى زوناراس Zonaras فهو صورة قاتمة ومصدر منحامل على الإمبراطور وعصره ، ويكاد أن يكون على النقيض تماما من الأعمال التزلفية المتحيزة للإمبراطور ؛ كذلك نجد مؤلفات أدبية معادية كتبها اليهود ضد عدوهم الإمبراطور تراجانوس متمثلة فى المشنة Mishna (١) والتلمود وغيرها وهذه أيضا لا يمكن الاعتماد عليها لأنها مصادر متحاملة وعدوانية .

هكذا نجد أن المصادر الأدبية عن حياة أعظم الإباطرة جميعا عاجزة عن تقديم الحقيقة المحايدة . لأنها إما متحيزة له بشكل ملفت أو معادية له بصورة قاتمة .

ومن ثم يلجأ المؤرخون الى المصادر غير الأدبية المتمثلة فى النقوش وأوراق البردى والنقود وقد ساهمت مصر فى ذلك بالنصيب الأكبر ، كما يلجأ المؤرخون الى الآثار خاصة عمود تراجانوس الشهير الذى بناه الإمبراطور

(١) المشنة : مجموعة من العناوى والنصائح والتفسيرات التى وضعها أحبار اليهود كسروج للتلمود جميعا الحبر الأعظم يهوذا حاناسى الملقب بالأمير فى مطلع القرن الثالث الميلادى والذى كان على علاقة طيبة مع الإمبراطور كاركالا (١١١ — ٢١٧) ميلادية . وكان حاناسى يسب دور الكاهن الأعظم وزعيم اليهود فى فلسطين .

في روما والمصور بمنظر عن حياة الامبراطور وفتوحاته ، وكذلك الى قوس النصر الذي اقامه الامبراطور في بينيفينتوم Beneventum في ايطاليا احتفاء بانتصاراته وفتوحاته في الشرق . وعن طريق مقارنة المصادر الادبية ومواجهة بعضها ببعض ، ثم الاستدلال بالمصادر الاثرية المصورة او المكتوبة يمكن للمؤرخ في النهاية ان يتلمس طريقة لرسم صورة حقيقية محايدة عن الامبراطور تراجانوس .

الامبراطور وحياته :

كان تراجانوس اول امبراطور يجلس على عرش الامبراطورية وينحدر من اصول غير رومانية ، فقد كان من سكان ولايات الامبراطورية . وبالتحديد من مواليد مقاطعة ايتاليكا Italica التابعة لولاية بايتيكا Baetica في جنوب اسبانيا ، وكانت هذه المقاطعة غنية بمواردها الطبيعية وهناك عاشت أسرته منذ اجيال بعيدة ، وكان منها أعضاء بارزين شغلوا مناصب عليا في الامبراطورية ، كما كان تراجانوس فخورا بابيه الذي كرمه الامبراطور فسباسيانوس بضمه الى عضوية السناتو والى رجال الطبقة الارستقراطية . كما اوكل اليه العديد من المناصب الهامة مثل القنصلية وقيادة قوات الجبهة الشرقية في سوريا ، وتولى حكم ولاية وغير ذلك من المناصب القيادية التي جعلت من الابن فخورا بالاب جاعلا منه مثله الأعلى .

وقد تقلب تراجانوس في العديد من المناصب قبل ان يختاره نرفا ويتبناه ويشركه معه في الحكم كولى للعهد . فقد كان تاريخه العسكري في عهده فسباسيانوس وابنه دوميتيانوس مشرفا للغاية خاصة في جبهتي الراين والدانوب وفي سوريا واسبانيا . كما تولى حكم ولاية جرمانيا الجنوبية في عهد نرفا حيث حقق انتصارات باهرة أهله للحصول على لقب «جرمانيكوس» اى بطل المانيا وقاهرها . ومن ثم اخنار نرفا رجلا عسكريا صارما ، صريحا وحازما ، وقد اثبتت الأحداث حسن الاختيار وبرزت مدى قدره تراجانوس على تحمل المسؤولية ، والتفانى في أداء واجبه على خير وجه وفي احسن صورة خاصة في مجال التنظيم والادارة .

ان وصول تراجانوس الى العرش كان بداية لانهاء سيادة اثرياء الايطاليين والروما . راحنكارهم للوظائف العليا في الامبراطورية ، وبداية تولى طبقة من النبلاء والاعيان القادمين من الولايات الغربية - الوظائف القيادية في الامبراطورية ، وكان هؤلاء اكثر الناس تفهما لمصلحة شعوب الولايات

ومشاكلهم : ولهذا يعتبر عصرهم عصر الازدهار الذهبى لولايات الامبراطورية وشعوبها .

لقد امضى تراجانوس عامين بعد موت نرقا منهمكا فى تحسين خطوط الدفاع فى جبهتى الراين والدانوب تاركا السناتو والشعب فى انتظار وصوله الى روما لتولى مقاليد الحكم رسميا وهذا دعم من شعبيته الجماهيرية ؛ فضلا عن قوة شخصيته ومظهره الذى يوصى بالوقار والجدية ؛ فقد كان طويل القامة ؛ صارم الملامح ؛ يغطى راسه الشعر الابيض . قضى عمره فى المعارك بين الجنود مما جعله يختلف عن غيره من الابطارة الذين سبقوه .

سياسة تراجانوس ازاء السناتو :

لقد سلك تراجانوس مع السناتو سياسة الاحترام والتقدير وتعاون معه بشغف فى نفس الوقت الذى حظى فيه بحب الجماهير ؛ ولهذا منحه السناتو لقب « افضل الابطارة » Optimus Princeps وذلك فى عام ١٠٠ ميلادية ؛ وقد سك هذا اللقب على النقود الرومانية عام ١٠٥ ميلادية لكنه لم يصبح لقبه الرسمى الا فى عام ١١٥ ميلادية . وظلت ذكراه لقرون عديدة موضع التقدير حتى اصبح مثلا وقدوة ؛ ففي القرون التالية كان السناتو يكرم ويتملق الابطارة بعبارات تقليدية تقول « يا اسعد من اغسطس ويا اكفا من تراجانوس » Felicio Augusto, melior Triano

ان السناتو الذى تعامل معه تراجانوس كان يختلف تماما عن السناتو الذى تعامل معه الابطارة المبكرين ؛ فقد قلعت اظافره واهينت كبرياؤه على ايدى نيرون ودوميتيانوس واضحى ضعيفا لا يملك حولا ولا قوة ؛ ولهذا رحبوا به واعتبروه امبراطورا خيرا من الاسوا melior pessimo princeps . كما ان تركيب السناتو كان قد تغير تماما . ففي عهدى كلاوديوس وفسباسيانوس كان السناتو يضم عددا قليلا من ابناء الولايات اما فى عهد تراجانوس فقد اصبح ابناء الولايات يمثلون اكثر من ٤٠ ٪ تقريبا من المجلس ؛ كما ان عددا كبيرا منهم جاء من الولايات الشرقية بالذات ومن ثم اصبح السناتو مستانسا وراغبا فى التعاون مع الامبراطور العاقل ؛ لقد كان

تراجانوس جنرالاً عسكرياً من الدرجة الأولى ، كما كان نشيطاً ذا صميم حتى في إدارة شئون الامبراطورية ، عليماً بكل صغيرة وكبيرة في جهازها . كما كان يتخذ القرارات الفورية بسرعة وفي الوقت المناسب ويتعامل مع المواقف المختلفة بحزم وحسم . فمثلاً وضع الحرس البرايتورى عند حده وجعله موضع الضبط والربط ، وراقبه بحذر ولم يعد هذا الحرس يتحكم في حياة الأباطرة كما كان الحال قديماً . كذلك لم يسمح تراجانوس للبارزين والظموحين من اعضاء السناتو في استقلال مناصبهم كما كانوا يفعلون اثناء حكم نيرفا عندما استغلوا كهولة الامبراطور وتسامحه وميلنه للمسالمة ، وطلب من مجلس السناتو محاكمة امثال هؤلاء دون تدخل منه لانه أعلن مرارا وتكرارا انه لن يصدر حكماً سواء بالاعدام أو النفي على أى عضو من الشيوخ ما لم يكن الحكم صادراً من المجلس ذاته . كما ألقى كل احتفالات التتاليه السابقة مما جعل السناتو والتعب الرومانى يثق فيه ويؤمن ببعده عن التجبر والطفیان .

أعماله :

الادارة الانسانية المستنيرة والحازمة في الداخل :

وسع تراجانوس من نظام المعونة الغذائية والرعاية التعليمية لابناء الفقراء في الاقاليم وجعل لها ادارة تحت اشراف رقباء الطرق نظرا لوقوع الشئون الاقتصادية في اختصاصهم . كما قدم للفلاحين المساعدات والسلفيات المالية نظير نسبة محددة من الفائدة وخصصت ارباح هذه السلفة لاعانة ابناء الفقراء والمعوزين من ابناء الاقاليم (١) كما منح ابناء الرومان الحق في شراء القمح المسعر مثل الكبار تعاماً لتشجيعاً للآباء على الانجاب وزيادة تعداد السكان . لقد كان هدف تراجانوس من تقديم السلف الزراعية للفلاحين هو انعاش الزراعة في ايطاليا وتشجيعها على منافسة النهضة الزراعية في الولايات الرومانية الغربية ولهذا حظر الهجرة من ايطاليا وشجع اصلاح الاراضى فيها وتوطينها بالجنود المبرحين .

كان تراجانوس يدرس شئون الولايات جيداً ويتخذ قراره بحرص

شديد ، كما كبح جماح المسؤولين الذين يسيئون شئون الإدارة ويستفلون
ضعف الإباطرة في التعدي على حقوق الناس مما سبب الخراب الاقتصادي
لكثير من المناطق ، ومن ثم كان تراجانوس يبعث الى هذه المناطق أمناء
ماليين *Curatores* لمساعدة هذه المناطق على اصلاح احوالها المالية .
ومن امثلة الولايات التي وقعت فريسة لخراب ولاية بيشينيا *Bithynia*
في آسيا الصغرى . وكانت قبل ذلك ولاية تابعة للسيناتو ومن ثم سلبيبا
السيناتو راضيا الى الامبراطور ليتخذ ما يشاء من قرارات من اجل اصلاح
احوالها المتدهورة : وعلى الفور عين الامبراطور تراجانوس صديقه الاديب
الروماني بلينيوس الأصغر ليتولى ادارتها ، ولحسن الحظ وصل الى
ايدينا الكثير من المراسلات الخاصة بين الامبراطور وصديقه بلينيوس والتي
القت الضوء على تاريخ هذه الفترة كما سبق ان اشرنا ، وكان الامبراطور
يحرص على كل رد او استفسار يطلبه صديقه الاديب ويساعده في ذلك
موظفو الإدارة والخبراء ويتخذ قراره بناء على سوابق قانونية ، اما اذا لم
توجد سابقة فانه يتخذ قراره بناء على ما يمليه عليه عقله وحكمته وضميره
الانسانى ، وقد ترك لنا بلينيوس عدة تساؤلات وجهها الى الامبراطور
شملت نواحى متعددة من المشاكل المادية والمعنوية ابتداء من عادة التخلص
من الاطفال الرضع عند الاغريق ، الى قضية اضطهاد المسيحيين وشكواه
لتدهور الحمامات العامة والخاصة وأخطار المجارى المكشوفة وما تسببه
من أمراض طالبا بسرية الاصلاح ، لكن سياسة التدخل في شئون المدن
والمقاطعات الإيطالية بهدف الاصلاح المالى والادارى ورفع الظلم عن الناس
خلق نوعا من الوصاية ووضع سابقة لمن خلفه من الإباطرة للتدخل في الشئون
المحلية للمقاطعات فكان بداية لتدهور الحكم المحلى والاعتماد على الحكومة
المركزية .

لقد حرص تراجانوس على تحسين الطرق والجسور والموانئ في الولايات الرومانية وبناء طرق جديدة لخدمة التجارة والجنود في السلم والحرب وأهمها الطريق الذي كان قائما على خليج العقبة (١) ، وأعاد حفر القناة التي كانت تربط بين النيل وخليج السويس كما أعاد تنظيم البريد *Cursus Publicus* وتعيين مشرف عليه من طبقة الفرسان *Praefectus Vehiculorum* ، وأصبح استخدام الطرق من جانب كبار المسؤولين الرومان أمرا عاديا في عهده . وكان اهتمام الإمبراطور بالنعاش اقتصاد الإمبراطورية وتجميل العاصمة كبيرا مما دفعه إلى القيام بحركة بناء وتعمير كبرى ، فمثلا راح يحسن في أحوال الميناء الكبير في أوستيا ويوسع من مرافقه ويعيد تشييد منشآته التي كان كلاوديوس قد بداها ، وحيث كان القمح يخزن فيها . كما ساعد أصحاب المطاحن والمخابز على تحسين وسائلهم ، ومن ثم بدت روما تصبح مدينة ذات مركز اقتصادي هام .

كما اهتم تراجانوس بتجميل العاصمة فأقام ساحة جديدة *Forum* رائعة يحيط بها مرافق الحياة لعامة من أسواق ومخازن وحوانيت وفي وسطها أقام عمودا ضخما زين برسومات تبين غزواته ضد أهل داكيا ، حيث يمكن التفرج عليه من شرفات المكتبات التي بناها من حوله ، ويعرف هذا العمود الشهير باسم عمود تراجانوس . كما أقام جسرا لمد الأحياء الفقيرة على الناحية الأخرى من النهر بالمياه عرف باسم جسر ميساه تراجانوس *Aqua Traiana*.

وقد شجع الإمبراطور أغنياء الأقاليم على الاقتداء به وإقامة المنشآت بقصد تجميل مدنهم على نفقتهم الخاصة مساعدة منهم في انعاش وتعمير الولايات ، وساد في القرن الثاني الميلادي حركة تعمير أهلية في كافة مدن الإمبراطورية ، وتنافس الأغنياء في كل مكان على بناء الحمامات وملاعب الرياضة والمسارح ومجاري المياه والمعابد وغيرها من المرافق العامة . لقد أحسن تراجانوس معاملة سكان العاصمة فأقام لهم المهرجانات ابتهاجا بالمناسبات وأنفق عليها ببذخ شديد لم يسبق له مثيل وقد ضرب المثل بعدد هذه الأعياد ، فمثلا ظل مهرجان انتصاره على أهل داكيا قائما لمدة مائة وست وعشرين يوما (٢) بكل وسائل التسلية والترفيه مثل المبارزات وصيد الوحوش وعروض السيرك والمسرح .

cf. Inscr. Lat. Sele no 5834.

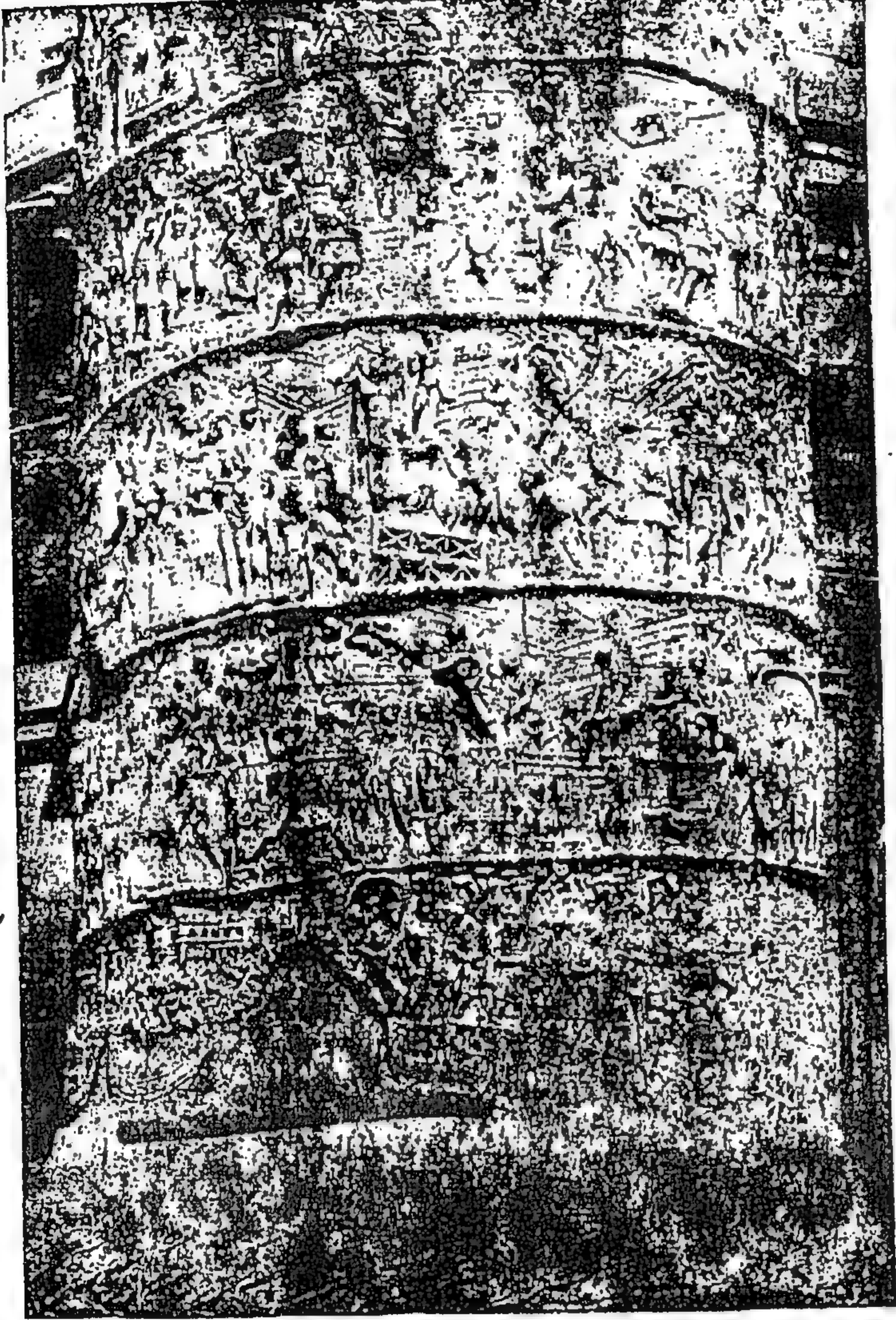
(١)

(٢) عثرنا في كوم أونيم على عملة تذكارية سككت بمناسبة هذا الانتصار وقد ظهر

النيل يحیی انتصار الامراطور وفي نفس الوقت يظهر في وناق الردی لفظ بطل داكيا وبطل بارتيا :

cf. Grenfell, Hunt and Hogarth : Fayum Towns and their Papyri, London 1900, no. 47, p. 173.

(م ١٦ - تاريخ الإمبراطورية الرومانية)



جزء من عمود تراجان حيث ظهرت روعة الفن
وعظمة الهندسة — العمود موجود في روما

توسيع حدود الإمبراطورية ونشر العمران والحضارة الرومانية :

كان تراجانوس أول من حطم الجمود الاغسطى وعاد بالبلاد الى سياسة التوسع . ولما كان واثقا من قواته ومن قيادته فقد أعاد سياسة التوسع العدواني لأول مرة منذ سقوط الجمهورية وكان هدفه الأول والاخير ملك داكيا . وسبق ان ذكرنا كيف ان دوميتيانوس كان قد عقد صلحا مع هذا الامير مقابل ان تمده روما بفريق من العمال المهرة الرومان ، وقد اعتبر الرومان هذا الصلح عارا عليهم واهانة لهم ، ومن ثم عزم تراجانوس على تصحيح هذا الخطأ وإعادة كرامة الإمبراطورية التي اهيئت على يدي دوميتيانوس . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى اعتبر قيام مملكة قوية في الدانوب خطرا على سلام المنطقة وتهديدا لمصالح الإمبراطورية .

وعلى أي حال لا نعرف بالضبط سبب اندلاع الحرب ، ولكن نعرف انه في سنة ١٠١ ميلادية قاد تراجانوس حملة ضد مملكة داكيا ، ولم يمض عام حتى استسلم هذا الملك وتنازل عن كثير من الأراضي التي كان قد غنمها قبل ذلك في عهد دوميتيانوس ، ولكن لم يكف تراجانوس يغادر المنطقة حتى تأمر هذا الملك مع البارثيين فعاد الامبراطور للانتقام منه عام ١٠٦ ميلادية غازما على احتلال هذه المملكة وتحصينها من خطر القبائل المهاجمة عبر الدانوب ، وتوغلت الجيوش الرومانية ولم يجد ملك داكيا بدا من الانتحار ، وعملت الجيوش الرومانية تقتيلا في اهل البلاد بعد سقوط عاصمتهم حتى قضى عليهم وتحولت داكيا الى ولاية رومانية وعمرت بمستوطنين رومان من كافة انحاء الولايات الرومانية ، ومن سلالة هؤلاء يجيء اهل رومانيا المعاصرة والذين تربطهم صلات قوية باللغة والحضارة اللاتينية . كما استغل الامبراطور مناجم الذهب (١) في هذه المقاطعة من اجل الانفاق على مشروعات الإمبراطورية الكبيرة وكسب رضاء الرومان ، لكن تدفق ذهب داكيا سبب هبوطا في سعر الذهب وارتفاعا في سعر الفضة مما اضطر الامبراطور الى زيادة نسبة القصدير والنحاس في العملات الفضية ليعيد التوازن بين الذهب والفضة . وقد بلغ من فرحة الامبراطور بهذا النصر ان اقام العمود التذكاري الشهير الذي لا يزال قائما في مكانه وعليه رسومات محفورة تسجل مشاهدا من هذا النصر العظيم .

كما وسع من حدود نوميديا في شمال افريقيا جنوبا حتى حدود الصحراء الكبرى كما اقام حامية لحراسة المستوطنات من هجوم بدو

cf. J. Carcopino : Points de vue sur l'imperialisme romain (Paris (1) 1927), pp, 73. ff.

الصحراء كما انشأ جنود فرقته الثانية مستوطنة تاموجادى Thamugadi في الجزائر (تمغادى الحالية Timgadi) ، الى تحولت الى حاضرة رومانية عامرة بالأسواق والحمامات والمعابد والمسارح ، كما انشأ فيها مكتبة كبرى بلغ عدد المجلدات فيها ٢٣٥٥٥ مخطوط ، واصبحت تمغادى فخر الحضارة الرومانية في أفريقيا .

حروب تراجانوس في الشرق ١١٤ - ١١٧ م :

حتى اثناء انشغال الامبراطور في حروبه في داكيا لم ينس الشرق حيث يوجد الخطر البارثي . ففي عام ١٠٥ ميلادية اصدر اوامره الى حاكم سوريا بضم مملكة العرب النبطيين (Nabatean) في شرق الاردن والذين كانوا يقطنون الجنوب الشرقي من سوريا وفلسطين وتم هذا الاستيلاء دون أدنى مشاكل وبذلك اصبح الرومان يسيطرون على اهم طرق التجارة والقوافل عبر الشام والى البحر الاحمر . ثم ادخل الاراضي الجديدة في ولاية بلاد العرب Provincia Arabia (١) وكان دافعه النفسى هو ان يسير على هدى الاسكندر الاكبر الذى يستولى على كثير من خياله وتفكيره .

وقد ساعد تراجانوس على المضي في سياسة الغزو والتوسع الدخل الكبير من مصادر مناجم الذهب في داكيا . فحاول اصلاح وضع الامبراطورية في بلاد ما بين النهرين وارمينيا (٢) . خاصة ان تراجانوس لم يرض عن تنازل نيرون عن حقوق الامبراطورية لملك ارمينيا الذى اصبح شبه مستقل وقرر ان يصلح هذا الموقف . وفي عام ١١٠ ميلادية وجد تراجانوس العذر الذى يجعله يشعل الحرب وهو عندما تدخل ملك البارثيين في شئون ارمينيا وعزل ملكها الموالي للرومان وعين ملكا آخر من اصل بارنى ناقضا بذلك المعاهدة التى كان البارثيون قد عقدوها مع نيرون . وبسرعة اكتسحت الجيوش الرومانية في عام ١١٥ ميلادية وادى دجلة والفرات الاعلى متجهة الى بارثيا حيث استولى على عاصمتهم كتيشفون (طيسفون) Ctesiphon وضم الى روما منطقة الخليج الفارسى ذات الاهمية الحيوية في التجارة مع الهند ووصل الى مصب دجلة والفرات في الخليج . ويروى عنه انه راح يحملق في مياذ الخليج وهو يسلى نفسه برؤية السفن المبحرة

(١) Chaput, la Frontiere de l'Euphrate de Pompée à la conquête arabe, Paris 1902. p. 248 ; cf. Antiquity 1934, p. 373, ff.

حيث نعتند بوجود ثلاثة بين حملة داكيا وخطر بارثيا وهذا هو سبب حملة تراجانوس ضده الاخيرة . وعن الحملة بالتفصيل انظر :

J. Guey : Essai su la guerre parthiaque de Trajan, Paris 1927.

F.M. Toppe' : Trajan's Parthian War. New York 1946.

(٢) H. Stark : Rome on the Euphrates, pp. 208-216.

الى الهند والى لشرق الاقصى ثم قال متحسرا « لو لم اكن متقدما فى العمر لسرت الى الهند » . ثم اعاد تنظيم هذه الاراضى فى ولايتين رومانيتين هما ولاية آشور Provincia Assyria وولاية بلاد ما بين النهرين Provincia Mesopotamia ولكن لم يكد يمضى وقت على ذلك حتى هبت الثورات والتمرد فى هذه المناطق واضطر تراجانوس الى الانسحاب الى سوريا مؤقتا لحين استرداد هذه المناطق مرة اخرى .

القضاء على ثورة اليهود الكبرى :

وفى اثناء انشغال الامبراطور بمحاربة البارثيين وتواجد معظم الفرق الرومانية خارج البلاد اندلعت ثورة اليهود الكبرى (١) وكانت الشرارة الكبرى فى ثورة اليهود قد اندلعت من مدينة قورينة Cyrene (شحات بولاية برقة فى ليبيا) عام ١١٥ ثم انتشرت الى المناطق المجاورة لها الى قبرص ومصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . وكان سبب الحركة ادعاء احد شيوخ اليهود واسمه شمعون باركوخبا (اى ابن النجمة) بأنه المسيح جاء ليحرر اليهود من الرومان الوثنيين ، وقد ادى ذلك الى تحدى السلام الرومانى خاصة بعد حدوث حركة التمرد الكبرى فى بلاد ما بين النهرين وعودة البارثيين الى الحرب ضد الامبراطورية . وقد قام اليهود بمذابح كبيرة ضد الاغريق ، ورد الاغريق بالمثل ، وشهدت الاسكندرية اياما دامية لم تنساها ابدا ، وتدخل تراجانوس بسرية لوقف هذه المذابح . وكلف احد جنرالاته المخلصين بذلك وكان اسمه لوسىوس كويتوس Lusius Quietus وهو مراكشى الاصل بالقضاء على ثورة اليهود فى فلسطين وبالفعل نفذ ذلك بعنف دموى . وتوقفت الحروب الدامية بين الاغريق واليهود فى اجزاء كبيرة من الامبراطورية خاصة فى مصر وقبرص وبلاد ما بين النهرين وبرقة الا فى مصر حيث استمر القتال بين الاغريق فيها الى ما بعد عصر تراجانوس اذ لم يكن من السهل ايقاف هذا العنف والكراهية ذات الجذور الضاربة فى تاريخ العلاقات بين الطائفتين .

موت تراجانوس (١١٧ م) :

وبينما كان الامبراطور يستعد للقيام بحملة عسكرية اخرى عام ١١٧ ميلادية لاجلاس احد مرشحيه على عرش بارثيا ولنملك زمام السلطة هناك سقط الامبراطور فريسة المرض والاعياء بسبب الاجهاد الكبير . فاضطر الى مغادرة انطاكية Antioch عائدا الى روما ، وبينما هو فى طريقه استسلم

(١) انظر عبد اللطيف احمد على المرجع السابق ص ١٨٥ وما بعدها .

للموت في التاسع من اغسطس عام ١١٧ ميلادية في مدينة سيلينوس Selinus بكليكا في آسيا الصغرى وقد جاوز الستين من عمره ، وبينما هو في النزع الاخير طلب تبني احد اقربائه من الشباب وهو بوبليوس ايليوس هادريانوس والذي كان قد تركه في الشرق (الأوسط) ليتولى قيادة الجيش هناك .

تقييم تاريخي للأمبراطور تراجانوس :

يعتبر الامبراطور تراجانوس بحق اعظم الاباطرة جميعا ، فعلى يديه وصلت الامبراطورية الى قمة اتساعها بعد ان حقق حلم يوليوس قيصر القديم في الاستيلاء على داكيا (رومانيا) وبلاد البارثيين Parthia ومنح لقب بطل داكيا Dakikos الذي ظهر في الوثائق البردية التي عثر عليها في الفيوم ، وكذلك على النقود في الاسكندرية وفي الامبراطورية ، كما تمتع بلقب بطل بارثيا Parthikos الذي اعطاه وضعاً فريداً ، فقد كان اول قائد روماني ينجح في تحقيق الحلم الكبير وهو غزو بلاد البارثيين ، لقد حاول كراسوس عام ٥٢ ق.م. ان يحقق هذا الحلم ولكنه قتل وسحقت قواته وأسرت جنوده وسلبت بيارق الجيش الروماني لتعلق في العاصمة طيسفون كرمز لاهانة الامبراطورية الرومانية ، ثم حاول ماركوس انطونيوس غسل عار هذه الهزيمة عام ٣٧ ق.م . ولكنه لقي هزيمة مريرة كاد ان يقتل فيها ، اما اغسطس فقد لجأ الى سلاح الدبلوماسية والتهديد مستغلاً بعض الكوارث التي نزلت بالبارثيين وارسل ابن زوجته تيبريوس ليكسب نصراً دبلوماسياً على البارثيين مجبراً اياهم على قبول السلام الروماني واستعادة البيارق والشعارات الرومانية واعادة الجنود الرومان الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة في الأسر ، لكن اغسطس لم يفصح عن الامل الدفين في القيام يوماً ما بحمله لفتح هذه البلاد ومات اغسطس دون ان يحقق هذا الامل ، وتجنب خلفاؤه هذه المغامرة الا نرون الذي شرع في ذلك لكنه لم يعطى الفرصة لتنفيذها ، وبقي الامل مكبوتاً حتى اتمه تراجانوس ولذا منح لقب اكفا الاباطرة Princeps Optimus ، كما ان كفاءته ونشاطه واخلاصه تركت ذكرى طيبة في نفوس الرومان لاجيال طويلة فاعتبره النموذج الامثل الذي يجب ان يكون عليه الامبراطور الروماني سواء بالنسبة للادارة الانسانية في الداخل او التوسع في الخارج .

لقد كان تراجانوس طموحاً مثل الاسكندر الاكبر يجمع بين الخيال والواقع اندفع كالأعصار في حملاته التوسعية العملاقة ، لكن هذا التوسع كلفه حياته التي ارهفتها الحروب والمغامرات العسكرية حتى سقط فريسةً للاعياء .

كما دفعت الامبراطورية الرومانية ثمن هذا التوسع الطموح فقد انسعت اكثر من اللازم وأكثر من الحدود الآمنة القوية ولم تعد طاقتها العسكرية تتناسب مع اتساعها فبدأت تضعف بل أصابها الشلل العسكرى ولم تعد قادرة على الدفاع عن حدودها الترامية الاطراف ، وبالتالي فقدت الدويلات العازلة الثلاث التي أقامها تراجانوس أهميتها الدفاعية وهى داكيا وبارثيا ومملكة العرب النبطيين . وظهر هنا العجز واضحاً في القرن الثالث الميلادى عندما بدأت قبائل الهون Huns - تزحف من سيبيريا واواسط آسيا دافعة امامها الجرمان القوط والشعوب الايرانية لتزحف على حدود الامبراطورية من جهات الراين والدانوب وأعلى الفرات ، فضلا على أن الاهانة الكبرى التى إلحقها بالبارثيين مهدت الطريق امام العناصر الايرانية الوطنية للاستيلاء على الحكم واقامة حكم معاد للرومان ، يحقد عليهم ويدعو لطردهم من الشرق الأوسط كله وهو ما نعرفه بالدولة الساسانية . وفى النهاية تسببت كل هذه الأخطار مجتمعة فى تدهور الامبراطورية ومهدت لسقوطها بعد ما يزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن تقريبا من موت هذا العاهل الكبير .

٣ - هادريانوس (١١٧ - ١٣٨ م) :

وما أن وصلت الأنباء بأن تراجانوس قد مات حتى هتفت القوات الرومانية فى انطاكية بحياة هادريانوس قائدها الأعلى امبراطورا ، ثم صدق السناتو فى روما على قرار الجنود بعد بضعة ايام قليلة ومنحه السلطات التقليدية كما هو متبع ، لكن بعض الشائعات رواها لنا ديو كاسيوس (١) Dio Cassius أن افلوطينا Plotina أرملة تراجانوس دست وصية مزورة عن زوجها بتبنى هادريانوس وتوليهِ العرش ويقول أنه لولا رضا افلوطينا لما تولى هادريانوس الحكم ، لكن هتاف الجنود به امبراطورا ثم تصديق السناتو على هذا القرار هما الأمر الاساسى الذى اتى بهادريانوس الى العرش .

أن الدارس لحياة الامبراطور هادريانوس سوف يجد فى النقوش والوثائق البردية وقطع النقود والآثار معلومات قيمة بالاضافة الى المؤلفات التاريخية مثل تاريخ الأباطرة Historia Augusta وهو مؤلف يعطينا موجزا عن سيرة الأباطرة الرومان خلال القرنين الثانى والثالث الميلادى برغم ما تشيره من مشاكل وتعقيدات ، كذلك نجد تلميحات غير مباشرة لكن مفيدة فى كتابات المؤرخ الكبير تاكيتوس .

(1) Dio Cassius, LXIX, 1.

كان هادريانوس — أو هادريان كما يعرف في اللغات الحديثة مثل سلفه تراجان — ينحدر من مستوطنة إيتاليكا الأسبانية بل قيل أن هادريانوس ولد في مدينة روما عام ٧٦ ميلادية وفي سن العاشرة فقد هادريانوس والداه ؛ فانتقل إلى العيش في بيت تراجان — أقرب من بقى له من الأهل فرعاه ورباه (١) ولم يبخل عليه بالتعليم الراقى بعد أن أبدى الصبى ولعا شديدا بالثقافة والفنون الإغريقية وانكب عليها ينهل بنهم شديد حتى خرج وهو لا يرى العالم الرومانى إلا من خلال منظار إغريقى ؛ ولذا تهكم عليه المتطرفون من الرومان ولقبوه « بالمتأغرق » *Graeculus* وربما كان هادريان سعيدا بهذا اللقب لأنه يدين بالكثير للثقافة الإغريقية التى خلقت لديه فكرا راقيا وحكمة واتزاناً ، عاملا بوصية أفلاطون القديمة أن الأمور لن تستقر إلا إذا أصبح الملك فيلسوفا والفيلسوف ملكا .

كذلك كان يحرص على ترتيبه ذهنة وفي نفس الوقت على لياقته الجسمانية عملا بالحكمة الرومانية القديمة بأن العقل السليم فى الجسم السليم *Mens Sana, Corpore Sano* . فقد كان يتمتع بقامة مشوقة ، ويتفجر حيوية وصحة ؛ وله لحية كثة تبعث على المهابة والوقار ؛ وكان رياضيا من الدرجة الأولى ؛ محبا للرحلات والتجول وكانت هوايته الأولى هى القنصر ، كما كان جنديا بكل معانى الكلمة فقد تقلب فى مناصب الجيش المختلفة ، وكان يهوى حياة الجنود ؛ حتى بعد تولية العرش كان لا يزور مقاطعة إلا ويبدأ بزيارة نكبات الجيش وقضاء الوقت معهم مرتديا زى جندى بسيط ، ويصدر الأوامر والنصائح ويسنعرض الأسلحة والخنادق حتى مطابخ الجنود كان يزورها ويفتس عليها . وأحيانا كان يصحب الجنود فى مسيرات طويلة اتعويدهم على الحمل . وكان يتقدمهم وهو يضع متاعه فوق ظهره ، مما جعل الجنود تلتف حوله وتهواد (٢) .

كما كان هادريانوس ملما بخبرات متنوعة وتجارب عديدة فقد تقلب فى المناصب الإدارية والعسكرية ابتداء من نقيب الفرقة إلى الكوايستورية ؛ ثم أصبح نقيبا للعامة ؛ وتولى البرايتورية القضائية ؛ ثم القنصلية ؛ كما خدم فى كافة ولايات الامبراطورية مع الجيش الرومانى وشارك مع حروب تراجانوس فى بارثيا وداكيا ؛ وكان آخر منصب تولاه قبل موت تراجانوس هو حاكم سوريا وقائد القوات فيها وذلك فى عام ١١٧ م ؛ ويقال أن أفلوطينا زوجة تراجانوس هى التى اختارت له زوجته وهى ثيباساينا

cf. B.W. Henderson : *Life and Principate of Emperor Hadrian (117-138)* (1)

A.D) London 1923, pp. 19-29.

(2) Ibid P 1., Hehl Leben & Tod von ... p. 355 ff.

Vibia Sabina حفيذة تسمبقة تراجانوس المسماء ماركيانا Marciana وذلك لجعل الامبراطور وخطبته على اتصال وثيق ، وقد تم الزواج عام ١٠٠ ميلادية تحت مسمى ومباركة افلوطينا من أجل مستقبل هادريانوس ، وكانت ثيبيا سابينا امرأة ساحرة الجمال شديدة الحب ولم تكن على وفاق دائم مع هادريانوس ، وهي التي اصططحته في رحلته الى مصر عام ١٢٠ وسجلت اسمها على تمثالي ممنون بالأقصر مع وصيفتها جوليا بالبيلا Julia Balbilla (١) .

وهناك من يلقي ظلال الشك حول علاقة تراجانوس بهادريانوس قائلين انها كانت متوترة بدليل ان تراجانوس لم يشرك هادريانوس فعليا معه في الحكم مثلما فعل نرقا مع تراجانوس ، وان الرجلين لم يكونا على اتفاق كامل ، حتى انهم يشكون - كما سبق ان اشرنا - في امر التبنى الذي جاء في آخر لحظة ، عندما كان تراجانوس يلفظ انفائه الأخيرة ، ويرون انه من صنع افلوطينا ، لكن سواء تمت الوصية او لم تتم فان قرار القوات الرومانية في سوريا كان كافيا لتولى هادريانوس العرش (٢) .

وخلاصة القول كان هادريانوس يتمتع باحترام كبير بين قوات الجيش وبين حموع الشعب الروماني وشعوب الولايات . فقد كان تاريخه العسكري مسرفا للغاية ولهذا لقي قرار تعيينه ارتياحا وترحيبا ..

لقد ورث هادريانوس تركة مثقلة عن سلفه تراجانوس صاحب سياسة التوسع والاندفاع العسكري . فقد كلفت هذه الحروب التوسعية الاقتصاد كثيرا ، كما اهلكت جزءا كبيرا من القوة البشرية في الامبراطورية ، كما ان هذه السياسة العدوانية ادت الى اندلاع الثورات الممادية من جانب بعض القوميات مثل ثورة اليهود التي اندلعت من قورينائية في ليبيا وامتدت الى المغرب وفبرص ومصر وسوريا وفلسطين ، كما قاست ثورة بين الجرمان في وادي الدانوب الأدنى وكذلك في بريطانيا ، وذلك وقوف حفنة من كبار الضباط المتعاطفين مع الامبراطور الجديد على رأسهم القائد الفذ ماركوس توربو Marcinius Turbo الذي عينه هادريانوس قائدا اعلى للقوات بدلا من القائد المراكشي لوسيسوس كويتوس Lusius Quietus لانهارت الامبراطورية فوق رأس الامبراطور الجديد .

سياسته الخارجية :

وليدنا قرر هادريانوس احداث تغيير شامل في السياسة الخارجية لوقف النزف الاقتصادي والبشرى الذي اصاب الامبراطورية من جراء

(١) انظر من ٥٥٠

(2) Heikelheim and Yeo op. cit, p. 300 ff

حروب تراجانوس التوسعية ، فأصدر قرارا بوقف التوسع شرقى دجلة والفرات ، وأصدر أوامره الى قواته بالانسحاب من ولايتى آشور Assyria وبلاد النهرين Mesopotamia اللتان كان تراجانوس قد ضمهما الى الامبراطورية ، كما اعاد ارمينيا الى وضعها القديم وهو الاستقلال الذاتى بشرط أن تسير فى فلك الامبراطورية ، كما عقد معاهدة سلام مع البارثيين ، كل هذا من أجل الدفاع عن حدود الامبراطورية وحمايتها ، وكان هذا سلوكا شجاعا من جانب هادريانوس فى وجه فريق العسكريين التوسعيين والذين كانوا يحلمون بفتوحات جديدة ويرون فى تراجانوس الامبراطور الأمثل الذى يجب أن يحذو حذوه سائر الأباطرة ، وقد اعترض هؤلاء بشدة على سياسة هادريان المسالمة والدفاعية والتى تقوم على دعم ما هو واقع وتتفادى أى توسع أو تورط من شأنه أن يكلف الامبراطورية أكثر مما فى طاقتها .

كما تعرض قرار هادريانوس لمواجهة جديدة من النقد على المستوى الشعبى وسرت الشائعات بأنه يعد للانسحاب من داكيا تاركا الآلاف من المستوطنين الرومان لقدرهم ، وأنه أمر بتدمير الجسر الذى اقامه تراجانوس فوق نهر الدانوب ، ولكن هادريانوس لم يعبأ بهذه الموجة من النقد والتشنيع وتمسك بسياسته الواضحة التى لها سابقة فى تاريخ الامبراطورية وهى سياسة الامبراطور أغسطس نفسه التى وضعت حدا للتوسع ولهذا اتخذ لنفسه لقب هادريانوس أغسطس والذى ظهر على نقود عام ١٢٣ م . التى تصادف مرور ١٥٠ عاما على تاريخ الانعام بلقب أغسطس على اوكتافيانوس (عام ٢٧ ق.م) . وتشبها بسياسة الامبراطور أغسطس اطلق هادريانوس على سياسته اسم السلام الأوغسطى Pax Augusta.

لكن احياء سياسة « السلام الرومانى » من جديد وهجر سياسة التوسع لم تعجب بعض كبار قادة الجيش من اتباع تراجانوس خاصة قائده المراكشى لوسىوس كويتوس Lusius Quietus الذى كان يحلم بفتوحات جديدة ويرى فى سياسة سيده الراحل النموذج الأمثل الذى الذى يجب أن يحذو حذوه سائر الأباطرة ، ويعتبر سياسة هادريانوس المسالمة سياسة انهزامية وتفريطا فى ممتلكات الشعب الرومانى . والحقيقة أن هادريانوس حاول أن يحتذى جذو الامبراطور أغسطس عندما هجر سياسة أبيه يوليوس قيصر التوسعية وأوجد « السلام الرومانى » الذى يقوم على دعم ما هو موجود ورفض أى توسع جديد من شأنه أن يرهق الامبراطورية ، وأن حدود الامبراطورية يجب أن تتكافىء مع مقدراتها الحربية

والاقتصادية . ويبدو ان السناتو كان مقتنعا برأى هادريانوس الذى طبقه حتى قبل وصوله الى روما لتولى العرش ، وربما شجع غياب الامبراطور كبار القادة على التأمر لقلب نظام الحكم ولكن السناتو كان بالمرصاد لهؤلاء العسكريين التوسعيين وقدمهم الى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وصدر الحكم باعدام لوسيوس كويتوس وثلاثة من رفاقه ، ولم ينتظر السناتو حتى وصول الامبراطور لكي يصدق على الحكم ، وتعجل تنفيذ الحكم فى غيابه باعتباره الهيئة المسئولة عن سلامة الامبراطورية فى غياب الامبراطور ، ويرى البعض أن هادريانوس لم يكن يرضى أن يبدأ حكمه بالاعدام والقتل وأنه كان يفضل العفو عنهم لدعم مركزه ، بينما يرى البعض الآخر أن الامبراطور تعمد أن يتلكأ فى العودة لحين أن ينتهى السناتو من دور الجلاد بالنسبة له ، وأن تنصله من مسئولية اعدام الجنرالات الأربعة ليس الا مكرًا وخداعًا ومراوغة .

وأخيرا بعد أن هدأت العاصفة وطبق الامبراطور سياسته وأعيد قادة التوسعيين ، بدأ الركب الامبراطورى يسير الى روما بعد أن توقف فى بيزنطة ونيقوميديا حيث زار حدود الامبراطورية عند الدانوب ، وفى صيف عام ١١٨ ميلادية وصل هادريانوس الى روما لتولى العرش رسميا .

وبعد بضعة أيام ظهر الامبراطور بقمته المشنوقة ولحيته ذات المجابة والوقار ووقف فى السناتو يعلن عدم مسئوليته عن اعدام القادة وتسم أمام الأعضاء أنه لن يسمح باعدام أى عضو من أعضاء السناتو مستقبلا الا اذا صدر عليه حكم بذلك من السناتو ذاته ، وبانفيل نقد هادريانوس ومعه ، كما قام هادريانوس بحركة دبلوماسية ذكية وهى أنه قدم اعتذاره للسناتو لقبوله تولى السلطة ومهام الامبراطورية فور اعلان الجيش وقيل موافقة السناتو عليها ، ثم اتخذ مكانه فى السناتو كأى عضو عادى ، وبذلك كسب تأييد السناتو ورضاه .

أما هديته بالنسبة للشعب الرومانى فقد كانت مثيرة حقا فقد أعلن مضاعفة النبة المالية Congiarium, أو النفحة الامبراطورية التى كانت تمنح فى المناسبات للفقراء ، وأكثر من هذا أعلن تنازل الامبراطورية عن الديون المتأخرة على الناس من الضرائب ، وأيضاً أكد للناس صدق قراره أمر بحرق الدفاتر والسجلات الضريبية فى احتفال مسيب فى الفورم الرومانى ، وقد بلغ حجم الديون الملغاة عن الفلاحين فى إيطاليا وسائر الولايات ٩٠٠ مليون سسركيسى رومانى (١٠٠ يقرب من خمسين مليون دولار أمريكى بالقدر الحديث) ، ثم أعلن دعمه لصندوق الإعانة والرعاية للفقراء وطبق

عليهم الرعاية الطبية والتعليمية . وحرر المعدمين من العوز والحاجة تحت شعار « الحرية المستعادة Libertas restituta » ، وقد أكسب هذا القرار الامبراطور شعبية كبيرة خاصة في الولايات التي عصرها الفقر والاستغلال الروماني مثل مصر (١) وآسيا الصغرى ، لكن بالنسبة للشعب الروماني لم يفعل كثيرا بهذا الكرم الجارف وقابله بتحفظ شديد ، وهنا شعر الامبراطور بخيبة امل كبيرة لنكران الناس بالجميل وآثر ان يترك روما وايطاليا في برنامج زيارة طويل المدى للولايات .

وخلاصة القول ، لقد ساعدت الفترة التي خدمها الامبراطور تحت قيادة تراجانوس في تفهمه للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، وأدرك هادريانوس ان قدرة الاقتصاد الروماني لا تسمح بفتوحات توسعية جديدة كالتي قام بها تراجانوس ، ويقال ان قلق الامبراطور كان فلسفيا ايضا لانه كان لا يريد الانفتاح حضاريا على الشعوب الشرفية حتى لا يؤثر ذلك على الحضارة الهلينية وصورتها الرومانية ، وحتى لا تتلوث بحضارات وعقائد وافكاره اجنبية لان هادريانوس كان شديد الحرص على نقاء الحضارة الهلينية ، ولهذا رأى ان تعكف روما على تقوية اقتصادها لكي تنتعش ثقافتها وفنونها باعتبارها الوريث الوحيد للحضارة الهلينية (٢) ، ومن المعروف ان هادريانوس بحكم تعليمه كان عاشقا لهذه الحضارة متيما بأفكارها مدركا لرسالتها وأهميتها في توحيد الفكر العالمي الروماني ، ومن ثم نظر الى الأمور نظرة عالمية وليس من زاوية المصالح الرومانية الضيقة (٣) .

(١) يعكس رضا الناس عن بساطة وعصامية الامبراطور البردية التي عثر عليها في أم الل (باخياس بالفيوم) والتي يعتقد العلماء أنها موضوع انشاء تلمذ مدرسة تخيل نفسه الامبراطور هادريان يكتب خطابا لحليفته يتحدث فيها بلهجة شاعرية فلسفية روحانية وقد لاحظت بنفسى مدى القرابة في الافكار بين بردية امنمحات الاول اول ملوك الدولة الوسطى التي يتحدث فيها الى ابنه وخليفته في العرش وبين لهجة هادريانوس الى خليفته . ومن الواضح ان كاتب البردية كان على علم ببردية امنمحات التي كانت تدرس في المدارس المصرية حتى وقت متأخر . أنظر :

Grenfell & Hunt & Hogarth, op. cit, no. XIX, p. 212.

كذلك أنظر معر الفراعنة تأليف سير الن جاردنر - ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل ومراجعة د. عبد المنعم أبو بكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥١ .
(٢) ازدهرت الفنون في عهده لدرجة أصبحت هناك مدرسة متميزة للفن في عصر :

(2) cf. J. Toynbee : The Hadrianic School A chapter in the history of Greek Art, Cambridge University Press. (1934) pp. XXI.

(3) cf. H Stuart- The Roman Empire, Cambridge (1945), p. 175-195.

رحلات هادريانوس الطويلة في الولايات :

غادر هادريانوس روما غاضبا عام ١٢١ ميلادية متجها الى بلاد الغال ووادي الراين ، ومنها سافر في العام التالي ليتفقد بريطانيا وليشرف على مشروع اقامة السور العظيم عبر نهر التاين Tyne في شمال انجلترا والذي لا تزال اطلاله باقية حتى اليوم تحمل اسمه وذلك من اجل وقف اغارة القبائل الشمالية الاسكتلندية على المزارع الجنوبية في انجلترا ، ومن بريطانيا عاد الى مرة أخرى الى بلاد الغال ثم اتجه الى اسبانيا حيث قضى فصل الشتاء ، وقبل ان يتحرك في مطلع الربيع نظم حملة تأديبية ضد القبائل المراكشية التي كانت تهاجم الحواضر الرومانية في هذه المنطقة وفي هذه الاثناء سمع عن اندلاع الثورة من جديد في بلاد الباريين ونقضهم معاهدة السلام مع الرومان وذلك بتحريض ملكهم خسرو Chosroes وفجأة ظهر هادريانوس في الشرق الاوسط متاهبا ومستعدا ، وقد ادى ظهوره المفاجيء الى تراجع خسرو وعودته للسلام وبذلك قبعت الثورة البارتية في مهدها ، وقضى هادريانوس وقته في نشر العدل وال عمران في ولايات الشرق ، فجلس يستمع الى شكاوى الناس وطلباتهم ويفصل فيها بنفسه ويعاقب الموظفين المستغلين للناس بلا رحمة ولا شفقة . كما كان يشرف على بناء المعابد في المدن التي يزورها وكذلك الحمامات ومجاري المياه العلوية والمسارح وملاعب الرياضة .

وفي عام ١٢٨ ميلادية بدأت رحلته لشمال افريقيا حيث راح يفتش على المزارع الامبراطورية (Saltus) للقمح هناك ويقترح أفضل السبل لاستغلال هذه المزارع حسب جودتها ومن ثم اصدر قراره المشهور Lex Hadriana de rudibus ، ومن شمال افريقيا ابخر الى البلدة الحبيبة الى نفسه وام الحواضر الهلينية مدينة آثينا وهناك تراس الالعاب الرياضية ، كما سره ان يختاره اهله ارخونا شرفيا عليهم وبذلك عدل القوانين حسب مصلحة الناس كما اكمل لأول مرة معبد زيوس في اولبيا منذ أن وضع الطاغية الاثيني بيسستراتوس Peisistratus في القرن السادس ق.م. اساسه . ثم افتتحه باحتفال كبير .

(١) من اجل ذلك اعتبر هادريان نفسه بطلا مثل سيرن والمعروف لنا ان هرقل كان اللطال الاغريقى القوي المدافع عن الاغريق ضد انتقام الاعداء البيرية (هيروdot الكتاب الثاني ص ١٥٠) . بريسبة معبد زيوس في جوجا وأحمد بدرى ص ١٤٢) ولهذا شبه هادريانوس بآلهة هاتين المدن .

وفي أثينا بنى هادريانوس ضاحية جديدة سماها مدينة هادريانوس Hadrianopolis ، وأقام في وسطها معبدا كبيرا لكل الارباب Pantheon وعلى جانبي شوارعها بنى الأروقة المسقوفة ، كما بنى مكتبة كبيرة ودارا كبيرة للثقافة والرياضة gymnasium ، ومعبدا كبيرا من أجل الوحدة الهلينية الكبرى سماه Pan-hellenion . كما أضاف الى مدينة أثينا بوابة لا تزال قائمة حتى الآن .

وفي عام ١٢٩ ميلادية بدأ هادريانوس رحلته الكبرى لزيارة آسيا الصغرى ، حيث نزل بأسمرنا (أزمير) وانفسوس Ephesus (إفسس) في تركيا الآن . وبيثينيا وانطاكية وبالمورا (تدمر في سوريا) ، وفي كل مدينة كان يزورها كان يفتتح المنشآت الحضارية الكبرى من معابد ومكتبات وجماليات ودور الرياضة والثقافة ومجاري المياه ، تاركا ذكرى طيبة بين شعوب الولايات التي وجد فيها الاجلاص والعرفان بالجميل الذي أنكره عليه الشعب الروماني .

هادريانوس يزور الشرق الأوسط ومصر :

ومن آسيا الصغرى دخل هادريانوس سوريا التي كان حاكما عليها قبل توليه العرش ، ثم زار فلسطين ودخل بيت المقدس (مدينة اورشليم) حيث وجد المدينة أطلالا مهجوره ووجد معبد سليمان تسكنه الثعالب ووجد اليهود مشردين ومحرمات عليهم الاقتراب من هيكل سليمان ، ومن ثم خطرت لهادريانوس فكرة وهي أن يعيد بناء اورشليم من جديد على الطراز الروماني وباسم روماني جديد هو آيليا كابيتولينا Aelia Capitolina ويجعل فيها معبدا لرب الرومان جوبيتر الكابيتوليني Jupiter Capitolinus ويقوم فوق هيكل سليمان وقدس الاقداس وبذلك يجعل اورشليم مدينة مختلفة تماما عن نظرة اليهود اليها ويجولها الى مسنعمرة رومانية خالصة ، كما أعلن حظر ممارسة عادة الختان بين اليهود لانه وصفها بأنها عادة بربرية غير انسانية ، وقد اثار هذان المشروعان اشدع حركة تمرد قادها اليهود على طول تاريخهم بعد سنوات قليلة من مفارقة الامبراطور للشرق الاوسط .

ولم يعبأ هادريانوس بما الحقه قراره بمشاعر اليهود في فلسطين واكمل تجواله في الشرق بعبور حدود فلسطين الى مصر في صحبة زوجته فيبيا سابينا ووصيفتها جوليا بالبيلا Julia Balbilla وغلامه المفضل أنطينوس Antinous وكان شابا من اقليم بيثينيا في آسيا الصغرى

كان يرى فيه تجسيدا لكمال الاجسام الاغريقية ورشاققتها ، خاصة ان الامبراطور هادريانوس يتخيل نفسه بطلا اسطوريا مثل هرقل الذى كان يتخذله صبيا اسيويا من يثينيا ، والمعروف لنا ان هرقل كان يعتبر البطل الاغريقى القوى المدافع عن الحضارة الهلينية ضد انتقام الشعوب البربرية (١) وبالتالي اراد هادريانوس ان يظهر بنفس الدور الذى قام به هرقل فظهر فى صحبة غلام اسيوى مثله ، على اى حال ابهر هادريانوس وزوجته وحاشيته الى اقربا راسا من فلسطين ، حيث وصل الى مصر فى مطلع خريف عام ١٣٠ ميلادية ، وقد سجلت عملة مدينة الاسكندرية الصادرة فى السنة الخامسة عشرة من حكم هادريانوس تلك الزبارة الامبراطورية ، ولما كان النيل فى ذروة فيضانه فقد اضطر الامبراطور الى الانتظار حتى مطلع الخريف ليقوم برحلته النيلية الى الاقصر واسوان على نحو ما فعل جرمانيكوس منذ اكثر من قرن ، فقد كان محرما على هادريانوس بصفته فرعونا على المصريين ان يركب النيل اثناء الفيضان . وفى آخر خريف عام ١٣٠ بدا اليخت الامبراطورى يتهادى على امواج النيل حتى وصل الى طيبة القديمة وتفرج على معابدها وآثارها ووقف طويلا هو وزوجته سابينا امام تمثالى ممنون فى البر الغربى من الاقصر ومتع سمعه بالنواح الذى قيل انهما كان يصدرانه عند مطلع الشمس ، ولحسن الحظ ان بعض بطانة الامبراطور نحتوا اسماءهم فوق هذين التمثالين العملاقين ، كما نقشت الوصيفة جوليا بالبيلا بعضا من الاشعار باليونانية الركيكة تخليدا لهذه الذكرى (١) .

ولابد ان يكون هادريانوس قد حزن لتدهور الحضارة الاغريقية فى مصر وتغلب القومية المصرية عليها فنا ودينا وفكرا ، كما لاحظ ان عدد المدن الاغريقية فى مصر لا يتناسب ومساحة مصر وعدد الاغريق فيها والذين اضطروا الى العيش فى عواصم الاقاليم المصرية وفى الريف . . . ط جموع الفلاحين ومن ثم اصبحوا مصريين واكتسبوا الطابع المصرى ، فعدد المدن الاغريقية فى مصر ثلاثة هى الاسكندرية ونقراطيس فى الدلتا ، وبطلمية فى سوهاج فى الصعيد ، كما ادرك ان مصر الوسطى وهى المساحة الممتدة من منف (ميت رهينة) حتى افروديتوبوليس (كوم شقاو بالقرب من طما محافظة سوهاج) خالية تماما من اى مدينة اغريقية كبرى ، ومثلما قلد تراجانوس الاسكندر فى فتوحاته قلد هادريانوس الاسكندر ايضا فى اقامته

(1) cf. A et E Bernard. Les Inscriptions grecques et latines du Colosse de Memnon (Paris 1960) pp. 15-24.

للحواضر والمدن الاغريقية واعطائها اسمه فقد بنى في الجزء الاوروبى من تركيا عبر البسفور مدينة سماها مدينة هادريانوس Hadrianopolis لا تزال اطلالا قائمة حتى اليوم ، كما بنى ايضا ضاحية بذلك الاسم في مدينة اثينا . وبالقِطع جاء وهو يفكر في بناء مدينة بنفس الاسم في مصر ، غير ان الروايات روت انه اثناء الرحلة النيلية وعندما كان اليخت الامبراطورى يتهاذى قبالة قرية الشيخ عبادة (مركز ملوى محافظة المنيا) غرق الصبى انطينووس اثناء ملئه وعاء بالمياه لمولاه الامبراطور ، وقلد الامبراطور البطل الاغريقى الاسطورى هرقل في حزنه عندما غرق فتاه هولاس في ظروف مماثلة . وحزن عليه بشدة مدعيا انه أصبح مؤلها وكان الاغريق يقدسون ويعبدون الفرقى مثلما كان المصريون يفعلون ازاء غرقى النيل (١) ، ومن ثم وجد انصار مزج الحضارتين في مصر فرصة لخلق ديانة مشتركة نواتها الفتى الفريق انطينووس الذى اصبح مثل اوزوريس تماما، وهنا وجد هادريانوس فرصته في اعلان بناء حاضرة اغريقية خالصة بالقرب من المكان الذى غرق فيه انطينووس واطلق على هذه المدينة اسم انطينوبوليس Antinopolis . وجعلها النموذج الامثل للحواضر الاغريقية في مصر (٢) واتخذ من دستور نقراتيس القديم لها دستورا لحب الامبراطور لكل ما هو عتيق من الحضارة الاغريقية . ووطن فيها ما تبقى من العناصر الاغريقية التى لم تتمصر خاصة من اقليم الفيوم اقرب الاماكن من الحاضرة الجديدة وشجع المستوطنين باعطائهم امتيازات مختلفة مثل الاعفاء من الضرائب وتوزيع الاراضى وحق الزواج من المصريات ، وبنى للمدينة طريقا للقوافل يربط بينها وبين ميناء برنيكى على البحر الاحمر ليعطى المدينة مصدرا اقتصاديا دائما . وقد ازدهرت هذه المدينة في العصور المتأخرة بل عرفها المسلمون باسم مدينة انصنة ، كذلك متع هادريانوس نفسه بتفقد مدينة الاسكندرية الخالدة والدخول في محاورات مع فلاسفتها المقيمين في الموسيون (دار الحكمة) بل يقال انه ضم الى عضوية الموسيون اثنين من الفلاسفة المتجولين المشهورين وهما بوليمون اللاذقى وديونيسيوس الميليطى ، وقد لاحظ المتخصصون في الآثار السكندرية وجود موجة من الانعاش الفنى الهللىنى خلال وعقب زيارة الامبراطور سواء على النقود أو في رسم اقنعة الموميات التى اشتهرت بها اللاهون والفيوم والروبيات بمصر الوسطى والتى لا يخلو متحف من متاحف الدنيا من نموذج لها

(١) انظر مقالنى " نظر على الاغريق وعادة الفرقى في مصر العصريين اليونانى والرومانى

مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخة - المجلد الثامن - ص ١٧١ - ٢٠ .

(٢) H.I. Bell : Antinopolis : A Hadrianic Foundation in Egypt. Journal

& Roman Studies, XXX (1940), pp. 133-147.

cf. Dudley, op. cit., p. 199-202.

كذلك لاحظ المتخصصون في دراسة الوثائق البردية بداية تطبيق نظام تقسيم الاراضى في مصر حسب جودتها وتجديد الايجارات حسب هذه الجودة والتي كانت تتفق وسياسة الامبراطور الاقتصادية التي اصدرها عام ١٠١٨ م ، خاصة في اقليم الفيوم وكانت الضرائب قد تراكمت في الصعيد لمدة خمس سنوات ، وفي مصر الوسطى تراكمت الضرائب لمدة اربع سنوات ولمدة ثلاث سنوات في اقاليم ، وربما اقر الامبراطور طلب الادارة الرومانية في مصر الذي تقدمت به عقب موت تراجانوس مباشرة بالسماح لها بتطبيق نظام تأجير الاراضى حسب مناطق جودتها الزراعية ولا شك ان الفاء الديون المتأخرة عن كواهل الفلاحين المصريين بعث في الناس الأمل وانبثقت الاقتصاد الذي قتلته الحروب الاهلية المخربة بين الاغريق المصريين وبين اليهود والتي دارت رحاها على طول الوادى ، وادت الى نقص الايدي العاملة بعد ان جند تراجانوس الفلاحين المصريين في الميليشيا التي كونها لوقف هذه الحرب ، كما ان تخفيض الايجارات ادى الى انعاش الزراعة في مصر حتى ان البعض يلخص أعمال هادريانوس في مصر بأنها ثورة زراعية وثقافية (١) .

هادريانوس يسحق ثورة اليهود في فلسطين :

وما ان عاد هادريانوس الى روما من رحلته الى مصر حتى هبت ثورة اليهود في فلسطين في خريف عام ١٣٢ م ، وقد سبق ان بينا الاسباب التي ادت الى قيام هذه الثورة ، وقام اليهود بأعمال ارهابية فدائية ضد القوات الرومانية العسكرية في فلسطين وكان يقودها متطرف يهودى كان يدعى شيمون باركوخبا او شيمون بن النجمة ، وعلى الفور ابصر هادريانوس الى سوريا ، وجمع الجيوش الرومانية من عدد من ولايات الشرق ، كما عين عليها الجنرال الرومانى الشهير يوليوس سيفيروس الذى استدعاه من قيادته في بريطانيا ، واتبع سيفيروس نفس الاستراتيجية التى طبقها فسباسيانوس وتيتوس من قبل وهى عزل جيوب الثوار ومحاصرتها حتى المجاعة ثم تصفيتها بطريقة منظمة ، وقد بلغ عدد اليهود الذين لقوا حتفهم في هذه الحرب ما يقرب من نصف مليون يهودى ، واسر ما يقرب من هذا العدد ، وبذلك تم سحق هذه الثورة عام ١٣٥ م بعد حرب استمرت عامين ، ودمرت اورشليم وتحولت الى اطلال وتفرق اليهود هائمين على وجوههم

cf. Westermann. J.E.A (1925) pp. 172-177.

(١)

وكذلك امال الروبى : كرانيس كوم اوشيم دراسة اقتصادية واجتماعية في العصر الرومانى - رسالة دكتوراة غير منشورة - اداب القاهرة ١٩٧٥ ص ٨ - ٨١ .

(م ١٧ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

بعضهم وصل الى الحجاز واليمن ومصر وعادت فلسطين الى الرومان .
وتناقص عدد اليهود فيها حتى كاد ان ينقرض تماما .

تدعيم حدود الامبراطورية :

لقد كان هجر هادريانوس لسياسة التوسع التي سلكها سلفه
تراجانوس وانسحابه من بعض المناطق ضرورة حتمية لانقاذ اقتصاديات
الامبراطورية ، لكن ذلك لم يكن تراخيا او اهمالا لحدود وممتلكات الشعب
الروماني ، فقد حظى الجيش في عهد هادريانوس باحترام كبير واصبحت
قوة روما مرهوبة الجانب تخشاهام امم الارض جميعا ، واصبحت حدودها
قوية محصنة ، فقد كان هادريانوس اول امبراطور روماني يطبق خطة
دفاعية منظمة لاقامة الحصون والأسوار والخنادق الدفاعية مثل حائط
هادريانوس الشهيرة التي اشرنا اليها في شمال بريطانيا ، وقد لقيت الحدود
الامانية بالذات معظم اهتمامه اذ بنى فيها عددا من القلاع والاسوار ذات
الأبراج المحصنة والبوابات الكبيرة وبذلك احاط الامبراطورية بسيياج
دفاعي حقق الامن والسلام لشعوبها من هجوم البرابرة ، بل أصبحت
هذه القلاع والحاميات على الحدود تشكل مناطق لجمع المكوس والجمارك
ولضبط حركة التجارة بين الامبراطورية والشعوب الاجنبية من جيرانها .

اصلاحات هادريانوس في المجال العسكري :

لقد كان هادريانوس جنديا بكل عواطفه ولذا لم ينس الجيش ابدا .
بل كان دائما في مخيلته وعلى قائمة الاصلاح . حيث ادخل عليه برنامجا
اصلاحيا شمل الضبط والربط والتجنيد والتدريب واستراتيجية المعارك
وتكتيك القتال . لقد كان هادريانوس يعبد الضبط والربط العسكري وسبق
ان ذكرنا حبه لشككات الجنود التي كان دائم الزيارة لها بل قيادته للجنود
في تمرينات المشي الطويل وهو يرتدي زي جندي عادي ويحمل متاعه مثلهم
فوق ظهره ، وكان لا يترك جزءا من الشككات الا وزارها واعطى اوامره الفورية
اللازمة بخصوصها ولذا التف الجيش حوله في ولاء واخلاص ، واصبح محبا
للنظام والطاعة ، وعلى درجة عالية من اللياقة القتالية والاستعداد
الهجومى (١) .

ومن أهم التغيرات التي اجراها هادريانوس في المجال العسكري
ازالته للفروق بين القوات الرومانية النظامية المعروفة باسم الفرق

Legione ؛ وبين القوات المساعدة auxilia التي كانت تتكون من الحلفاء الاجانب ، في مجالات التدريب والتسليح والتشكيل ، ولاول مرة لم يعد المواطنون الرومان ينضمون الى الفرق فقط والاجانب للقوات المساعدة فقط ؛ بل اصبح هناك مواطنون رومان يخدمون في القوات المساعدة واجانب يخدمون في الفرق الرومانية . وقد حرص هادريانوس على تحريك الجيوش لتكون بالقرب من اطراف الحدود وابعادها عن المناطق الداخلية ، وكان دائم الحث للشباب للانضمام الى صفوف الجيش عن طريق تعميق الاحساس بالوطنية والواجب وعن طريق افرائهم بتوطينهم في مستوطنات عسكرية دائمة على الحدود وذلك بعد التسريح من الخدمة ، وقد نجح بالفعل في تجنيد اعداد كبيرة من سكان مناطق الحدود ، وكان اغلبهم من ابناء الجنود الذين ولدوا بالقرب من المعسكرات اثناء الخدمة ، ومن ثم منح هادريانوس هؤلاء حق « وراثة الاب » وكان هذا الحق محرما عليهم قبل ذلك . وقد شجع هذا القرار المزيد من ابناء الجنود على الانضمام الى جيوش الحدود الرومانية .

والى جانب القوات المساعدة التي عسكرت في القلاع والابراج على طول حدود الامبراطورية خاصة في جبهتي الراين والدانوب أسس هادريانوس قوات جديدة اطلق عليها اسم « الفئات » numeri وذلك من القوميات المختلفة التي تتكون منها شعوب الامبراطورية مثل الجرمان وسكان الدانوب ومن البريطانيين ومن المراكشيين ، وكانت كل اقومية من هذه القوميات تشكل قوة numeri وتقاتل بروح الجماعة وبطريقتها الخاصة ، وترك لكل منها حرية استخدام لغتها القومية واسلحتها المحلية ، وكانت كل قوة تشكل مجموعة متحركة وخفيفة السلاح والحركة اشبه بالقوات الخاصة في الجيوش الحديثة ، وتتكون كل قوة من مجموعة المشاة او مجموعة من الخيالة او من المجموعتين معا ، كما شمل بعضها جماعات الاستطلاع والاستكشاف exploratores ، وفي بعض الاحيان كان يقود كل وحدة ضابط روماني برتبة قائد مائة centurion ، وبالطبع كان لهذه القوات تأثير كبير في حماية الحدود التي تعيش في مناطقها او بالقرب منها فضلا عن معرفتها الجيدة بطبيعة الأرض والعدو وسرعة حركتها وانتقالها .

اما بخصوص التجديد في فن التكتيك الحربى الذى ادخله هادريانوس وسارت على نهجه الجيوش الرومانية حتى مجيء ديوقليديانوس ، فكان احياء نظام الفيالق المقدونية القديمة Phalanx عند الهجوم والدفاع ، فعند عمليات الهجوم تقوم القوات لمساعدة بمناوشة العدو وتجهيز ميدان

المعركة لفيالق الفرقة الرومانية لتضرب ضربتها القاضية والنهاية ، وفي حالة صد الدفاع تتلقى القوات المساعدة الضربة من العدو وتستوعبها ثم تقوم فيالق الفرقة بأكالة الضربة الانتقامية للعدو .

لقد جاهد هادريانوس من أجل خلق جيش دفاع وطني متأهب للعمل في اللحظة التي تصدر إليه الأوامر لكي يزود عن حدود الامبراطورية وسلامتها ويجعل المعتدين يفكرون ألف مرة ومرة قبل التعدي على حدود الامبراطورية ، كما أن رعاية الامبراطور الخاصة لشركات الجيوش وضربه المثل الأعلى للجندى جعل الروح المعنوية للجنود على درجة من العلو والنظام لم يسبق لها مثيل ، وحتى لا تفقد الجيوش عند الحدود لياقتها العسكرية أصدر أوامره بتحريم بناء الشركات الفخمة البعيدة عن روح الجنود التقشفية ، كما حرم على الجنود العمل في الزراعة أو التجارة وتكريس انفسهم لشرف القتال حتى لا يفقدوا هذه اللياقة ويبقوا في درجة عسكرية عالية متأهبة ، ورغم هذا لم يؤثر هادريانوس سياسة التوسع العسكري ، وإنما كان هدفه جعل الجيش في درجة الاستعداد والتأهب الدائم وفي حالة تسخين مستمر بقصد ارباب العدو دون التورط في حروب ، ففي عهده لم تقم جيوش الامبراطورية بأى حروب سوى الحرب ضد اليهود المتمردين في فلسطين وهى حرب في جوهرها دفاعية وليست هجومية .

تنظيم الادارة في الولايات :

لم يكن هادريانوس بالرجل البسيط الذي يمكن فهمه بسهولة ، بل كان أكثر الإباطرة تعددا في المواهب والقدرات منذ يوليوس قيصر ، فكان يحاول دائما أن يستحوذ على كل شيء ، ويلم بكل شيء وفي نفس الوقت كان يخرج من أشد المضلات واعقدها بالحل الناجح والأمثل . كما أن رحلاته الطويلة ومراسلاته مع كبار الموظفين في الولايات جعلته يلم بقدر كبير بفن الإدارة فكان يعرف كل شيء عن كل ولاية وكان يراعى الشعوب مطبقا شعاره الذي رفعه وهو « مع الفقراء ضد الوجهاء ، مع المعوزين ضد الموسرين » *humiliores contra honestiores, tenuiores contra potentiores*

فكانت قراراته الفورية التي اتخذها أثناء تفقده لشئون الولايات عادة من أجل الفقراء البسطاء ، ففي أثينا أصدر قرارا بوقف تصدير زيت الزيتون حتى يحد من ارتفاع أسعاره ، كما وضع سعرا محددًا للأسماك لحماية للبسطاء من الناس من جنون الأسعار ، وفي آسيا الصغرى أعفى المدن من متأخرات الضرائب ، بل منح الإعانات المالية للمدن التي أصابها الزلزل والكوارث الطبيعية ، وفي مصر خفض إيجارات أرض الامبراطورية بالنسبة

لمزارعيها من الفلاحين، وخفض الضرائب والقي المتأخرات ، كما أعاد تنظيم أنواع الأراضي وحدودها حسب جودتها وحدد الضرائب على ضوء ذلك . كما أعفى مزارعي الاقطاعيات الامبراطورية في مصر من الخدمة الالزامية التي كان يفرضها وكلاء الامبراطورية الماليين conductores ، أو المشرفين على تحرير عقود الايجارات ، كما جعل مدة سريان عقود الايجار طويلة ومؤمنة حتى يطمئن المزارعين ويشجعهم على العمل بعد ان كانوا تحت رحمة هؤلاء المسئولين ، فساعد ذلك المدمين من الفلاحين على الاستقرار المالي وبدأوا يتحولون الى مزارعين مكتفين بل وموسرين (١) .

وفي شمال افريقيا شجع الرومان على استيطان وتعمير الأراضي البور بزراعتها بحدائق الزيتون ، والقي الايجارات طوال المدة التي تكون أشجار الزيتون في مرحلة قبل الانتاج ، ثم تبدأ الايجارات مخفضة وتزداد تدريجيا . كما أعطى هؤلاء المستوطنين الحق في الاتصال به مباشرة اذا وقع عليهم ظلم أو ضيم من وكلاء الامبراطورية الماليين أو جباة الضرائب الجشعين . ولذلك أصبح هادريانوس محبوبا من رعايا الامبراطورية الفقراء ويحظى عندهم بالتقدير والاحترام .

الى جانب ذلك كان هادريانوس ولوعا بالتعمير واقامة الحواضر في كل أرجاء الامبراطورية ، ووصل العمران والتحضر اقصى درجاته في الولايات في عهده ، وحول كثيرا من القرى التي قامت بالقرب من ثكنات ومعسكرات الجيوش الرومانية الى حواضر ومدن تتمتع بالاستقلال الذاتي ، ومن المدن التي أقامها هادريانوس في الولايات مدينة هادريانوبوليس في تراكيا (على الحدود البلقارية - التركية واسمها الآن أدريانوبوليس) ومدينة هادريانوثيرا Hadrianuthera وستراتونيكافيا في آسيا الصغرى ومدينة أنطينوبوليس في مصر ومستوطنة جوليا هادريانا أفينيون (Colonia Julia Hadriana Avenio) ومكانها الآن مدينة أفينيون Avignon في جنوب فرنسا) وغير ذلك الكثير في ولايات الدانوب .

وبقدر ما نشر العمران والحضارة بقدر ما نشر حقوق المواطنة الرومانية كمكافأة للشعوب التي تشربت تماما بالروح وبالثقافة الرومانية ، وهي سياسة رومانية سبق الإشارة إليها عند الحديث عن شمال افريقيا وبدأها يوليوس قيصر وقلدها الامبراطور اغسطس ، وسار عليها الإباطرة خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين ، وكان أعلى مرحلة هي منح المقاطعة أو الولاية درجة المستوطنة Colonia الرومانية حتى يتمتع سكانها بالجنسية الرومانية الكاملة بدلا من الحقوق اللاتينية اذا كانت المدينة أو المقاطعة

(1) Heihelheim & Yeo, op. cit. p. 359 also cf. Westerman, g. E. A. 1925, pp. 172-177.

متحالفة مع روما municipia : فمثلا رفع هادريانوس بعض أجزاء ولاية شمال افريقيا وولاية داكيا من درجة المقاطعة المتحالفة municipia الى درجة المستوطنة الكاملة colonia .

كما ابتدع هادريانوس تقليدا جديدا وهو منح الحقوق اللاتينية لأعضاء مجالس الشيوخ في ولايات الامبراطورية (decuriones) وكبار الموظفين المحليين فيها ، وسماه الحقوق اللاتينية الكبرى (Latium Maius) او المجال اللاتيني الأكبر .

وكان هدفه هو تشجيع الوفاء للامبراطورية في الولايات بخلق جماعات رومانية الثقافة والحقوق حتى تتحول الامبراطورية الى امبراطورية عالمية وليست وقفا على الرومان والاطاليين .

اعادة تنظيم اجهزة الحكم :

كما قلنا كان النظام disciplina بالنسبة لهادريانوس يكاد ان يكون عبادة ، ولهذا وجد الحاجة ماسة لاعادة بناء الجهاز الحكومى المركزى واختيار اكفا العناصر للعمل به ، فقد وضع شروطا لاختيار هذه العناصر لا تكاد تختلف عن الشروط التى نضعها للموظفين فى عصورنا الحالية : مثل أن يكون الفرد كفىء وقادرا ومدربا ووفيا للامبراطور وللامبراطورية ، ومقابل ذلك زاد من الرواتب واكثر من المكافآت التشجيعية لحثهم على العمل الدائم والخلاق .

كذلك نهج هادريانوس على نهج فسباسيانوس فى الاعتماد على رجال الفرسان لشغل المناصب العليا بدلا من المعتقين الذين كان يعتمد عليهم كلاوديوس واساءوا كثيرا الى الدولة حيث نشروا بذور الفساد والبيروقراطية ، لقد زاد هادريانوس من الاعتماد على طبقة الفرسان لادراكه مدى مهارتها العملية والقيادية فى ادارة شئون الامبراطورية ، كما عين الفرسان فى رئاسة الدواوين المركزية الاربعة التى اوجدها كلاوديوس وهى ديوان المراسلات (ab epistulis) ، وديوان المظالم a libellis وديوان المحاسبات (a rationibus) وديوان المعارف a studiis وتكريما لمديرى الدواوين كان ينعم عليهم بالالقاب الشرفية والفخرية مثل الرجل المبجل Vir egregius ، والرجل الأكمل Vir perfectissimus والرجل الأسمى Vir eminentissimus وكانت هذه الالقاب قبل ذلك وقفا على قادة الحرس البرائتورى (١) فضلا عن ذلك انشأ هادريانوس ديوانين جديدين لزيادة مشاركة الفرسان فى الادارة وتدعيم سير العمل

(1) Heilbrunn & Yeo, op. cit. p.

في الامبراطورية وهما ديوان النقل والبريد *Cursus publicus* وكان البريد قبل ذلك ليس له ادارة مركزية بل تكليف يقع على عاتق سكان المقاطعات الايطالية وشعوب ولايات الامبراطورية ، لكن هادريانوس جعله ديوانا مركزيا منظما وجعل على راسه رجلا من طبقة الفرسان بدرجة برايفكتوس *Praefectus Vehiculorum* اى رئيس المركبات ، اما الديوان الثانى فهو ديوان الضرائب المركزية الذى كان يرأسه امين الخزانة *procurator* والذى ينتشر رجاله ووكلاؤه فى كافة اجزاء الامبراطورية ، ومن التجديدات الادارية والقانونية التى اوجدها هادريانوس وظيفة محامو الخزانة *Fiscus Advocati* لاقامة الدعاوى نيابة عن الخزانة العامة وديوان الضرائب ، واوكلت هذه الوظائف لرجال الفرسان الذين كانوا يشغلون وظائف عسكرية صغيرة ويريدون تغير مجال عملهم الى العمل الادارى والتدرج فيه ، فكانت وظيفة محام الخزانة هى اولى درجات سلم الوظائف العليا بالنسبة لهؤلاء الفرسان المدنيين ، وهكذا فصل هادريانوس بين سلك الفرسان العسكريين وسلك الفرسان الاداريين ، وكان الاخرون لا يشتركون فى القتال ولكن يقومون بالشئون الادارية فى الولايات وفى داخل الثكنات التى جعل لهم فيها ادارة خاصة وحدد لهم واجباتهم داخل القيادة ، وبذلك لأول مرة منذ عهد اغسطس عين فرسانا مدنيين بلا خبرة او تدريب عسكرى لتولى وظائف ادارية وكان هدف هادريانوس من ذلك جذب اصحاب الكفاءات والخبرات من غير العسكريين للمشاركة فى دعم اجهزة الحكم .

وينتقد البعض فكرة الفصل بين سلك الفرسان العسكريين والفرسان المدنيين لانها خلقت قيادات عسكرية كبرى بلا خبرة مدنية او ادارية وجاهلين فى فن الحكم كما خلقت قيادات ادارية كبرى بلا خبرة عسكرية وجاهلة بروح التعامل مع الجيوش والمواقف التى يتطلب فيها استخدام الجيوش ، وكانت النتيجة هو المواجهة بين القيادات العسكرية والقيادات المدنية كما حدث فى القرن الثالث الميلادى عندما وجدت القيادات الادارية العليا نفسها تحت رحمة القيادات العسكرية الجاهلة تماما بروح الادارة المدنية مما ادى الى تولى سلسلة من الابطارة العسكريين الاجلاف الذين تدهورت على ايديهم الادارات المدنية . وهذا عجل بتدهور الامبراطورية الرومانية فيما بعد .

كذلك دفع حب التنظيم الامبراطور هادريانوس الى خلق مجلس دائم للرئاسة *Consilium principis* يتكون من رؤساء الدواوين المختلفة

وقادة الحرس البرائتورى ، والخبراء من الفقهاء والمشرعين ، واصبح هذا المجلس هو الذى يرسم السياسة ويضع القرار بالنسبة للامبراطور وللإمبراطورية ، بل واصبح هذا المجلس هو الهيئة التشريعية العليا التى تقترح على الامبراطور سن القوانين وتفسيرها ، بل وكان يتحول الى محكمة عليا لمحاكمة اعضاء السناتو وكبار قيادات الموظفين ، واصبح هذا المجلس للامبراطور بمثابة مجلس سناتو خاص ، بل وكان يصحبه هذا المجلس حتى فى رحلاته ، ويقال فى تفسير نشأة هذا المجلس ، أن الامبراطور هادريانوس كان كثير الترحال والسفر لتفقد أمور الثكنات والولايات ومن ثم كان بعيدا عن مجلس السناتو وغير قادر على الاتصال به أو التفاهم معه ، ومن ثم كون هذا المجلس (١) *Consilium* الاستشارى أساسا من الفقهاء والخبراء القانونيين من أمثال الفقيه سالفىوس يوليانيوس *Salvius Julianus* الذى تطور التشريع الرومانى على يديه تطورا كبيرا ، وبدا يأخذ الشكل الانسانى العالمى الذى أعطاه الخلود والبقاء حتى عصرنا الحديث .

الاصلاحات القانونية والتشريعية :

حرص هادريانوس على تطبيق القوانين تطبيقا عادلا وانسانيا فى كل أمور الدولة سواء فى مجال تخفيف الضرائب عن كواهل الناس وقت الأزمات الاقتصادية ، أو تجميد الأسعار أو تشجيع فلاحه الأراضى البور ، أو رفع مستوى الرعاية والخدمة فى أحياء العاصمة المكتظة بالفقراء والعبيد .

ولقد أصبحت اصلاحات هادريانوس فى مجال التشريع تراثا عاما للبشرية وقدوة لرجال القضاء فى كل مكان وزمان فمثلا جعل لفتاوى المشرعين والفقهاء *responsa* قوة القانون وملزمة للقضاة للأخذ بها عند نظر القضايا ، ولا يصبح القاضى حرا منها الا اذا تناقضت هذه الفتاوى مع بعضها البعض عندئذ يرجع القاضى الى ضميره ورايه لاصدار الحكم ، وقد جمع الامبراطور حستيانوس الاول البيزنطى (٥٢٧ - ٥٦٥ م) هذه الفتاوى فى موسوعة قانونية *Digesta* نسبها الى نفسه .

(١) اشار الاديب بلينيوس الاصغر الى حضرة احدى اجتماعات هذا المجلس *Epistulae, VI, 31* ، وعن موضوع الخلاف بين هادريانوس والسناتو حول المجلس الاستشارى انظر : B.W. Henderson, op. cit. وان كان المؤرخون قد بالغوا فى حجم هذا الخلاف .

كما كلف الامبراطور الفقيه سالفوس يوليانيوس باعادة مراجعة
لوائح وتشريعات رجال القضاء البرائتورى Praetores ووضع لوائح
ثابتة لهم للسير عليها بقيت مستخدمة ومراعاة لقرون عديدة ، وخلصت
التشريع الرومانى من العوائق والتناقضات القانونية التى لم يطق
هادريانوس على بقائها ، وقد عرفت هذه اللائحة باسم اللائحة الدائمة
edictum perpetuum بعد ان وافق السناتو والامبراطور عليها
وبذلك أصبح التشريع ثابتا ومواده معروفة وواضحة . بل اعطى للمواطن
الحق فى اقامة دعوى ضد قانون معين ومقاضاة الدولة ولذلك أصبح القانون
العادل هو الحكم فى كل أنحاء الامبراطورية .

ولكى يسهل فض القضايا المتكدسة أمام المحاكم البرائتورية قسم
هادريانوس ايطاليا - باستثناء روما - الى اربعة ألوية قضائية ، وجعل
لكل لواء ادارة قانونية مستقلة يترأسها قاضى القضاة Juridicus consularis
الذى كان عادة من رجال السناتو الذين يختارهم الامبراطور ، وقد قصد
بهذا التقسيم تحرير القضاء من احتكار مجلس السناتو الرومانى وادارته
الانفرادية المطلقة لهذا الجهاز ووضع ايطاليا فى درجة معادلة ودون تمييز
لسائر ولايات الامبراطورية أمام القضاء والعدل ، كما قصد بها نزع البساط
من تحت اقدام السناتو الذى ساءت علاقته بالامبراطور بعد هذا القرار .
كذلك زادت أهمية الامبراطور فى مجال التشريع وأصبحت قراراته
(Constitutiones) مصدرا للقوانين بل لها صفة القوانين الملزمة ، وكانت
هذه القرارات ذات درجات مختلفة فهى إما مراسيم امبراطورية edicta
يصدرها الامبراطور بحق الأمبريوم الذى يحمله ، أو قرارات decreta
يتخذها بعد نظر المشكلات ، أو ردوده responsa على التساؤلات التى
يبحث بها موظفوه ، أو توجيهاته mandata الى الموظفين التابعين له
وبذلك بدأت ملامح التشريع الرومانى تأخذ الشكل الانسانى الخالد (١) .

علاقة الامبراطور بالسناتو :

بدأت العلاقة طيبة بين الامبراطور ومجلس السناتو باعتبار هذا
المجلس من ناحية النظرية شريكا للامبراطور فى حكم الامبراطورية فعند
وصول هادريانوس الى روما لتسلم الحكم اتخذ مكانة فى السناتو كعضو
عادى ، ثم قدم اعتذاره لتولية السلطة بعد صدور المباينة من الجيش
مباشرة ودون انتظار موافقة المجلس ، ثم اقسم انه لن يحاكم عضو من
المجلس بتهمة الخيانة العظمى الا امام محكمة من السناتو ذاته وقد حافظ
هادريانوس على وعده طوال مدة حكمه .

(1) Heichelheim & Yeo, op. cit. p.

غير أن سحب الخلاف بدأت تتجمع بين الامبراطور ومجلس السناتو فالامبراطور كان كثير الترحال والسفر وبذلك وجد السناتو نفسه معزولا بلا عمل ، كما أن احتضان الامبراطور لرجال الفرسان في الادارة اثار حقد السناتو الدفين ضد رجال هذه الطبقة ، وزاد من الخلاف تكوين الامبراطور للمجلس الاستشارى *consilium* الذى كان يتنقل مع الامبراطور ويرجع اليه في المشورة ، زاد من احساس أعضاء المجلس بأنهم مهملين ولا يشاركون في ادارة الامبراطورية . خاصة أن غالبية الخبراء والفقهاء القانونيين الذين كان يتكون منهم المجلس كانوا من طبقة الفرسان التى كان السناتو يحتقرها ، ثم كانت الضربة الكبيرة التى سحب الامبراطور بها البساط من تحت اقدام السناتو وهى تقسيم ايطاليا الى أربعة الوية قضائية يشرف عليها الامبراطور ويختار لكل منها رئيس قضاتها ، وظل السناتو يقاوم هذا القرار وبالفعل نجح فى الضغط على خليفة الامبراطور هادريانوس وهو انطونينوس بيوس بأن يلقى هذا القرار ، لكن الامبراطور الفيلسوف ماركوس اوريليوس اعاده مرة اخرى بعد بوليه .

وخلاصة القول ، بالرغم من أن الشعب الرومانى وشعوب الامبراطورية قدّرت أعمال واصلاحات هادريانوس ، إلا أن السناتو استاء فيما بعد من تصرفات الامبراطور الذى لم يستطع فهمه على الطلاق ، ومن ناحية أخرى احسن هادريانوس بجفوة وهوة واسعة تفصل بينه وبين هذا المجلس .

وقد زادت هوة الخلاف فى الايام الاخيرة لحكم الامبراطور عندما اصيب الامبراطور بمرض مؤلم مزمن جعله أقل صبرا فى تحمل مضايقات السناتو عند معالجة بعض الحساسيات التى كان يشيرها هذا المجلس ، لكن السناتو لم يفلح أبدا فى الحط من شأن هذا الامبراطور الواسع الادراك ، والذى كان يعتمد على نفسه فى الالمام بكل الأمور وفى اتخاذ القرار المناسب ، كما فشل لسناتو فى سبر أغوار نفسه ومعرفة ما يدور فى عقله ، ولهذا ادعوا فيما بعد بأنه كان مختل العقل والشعور .

الرعاية الاجتماعية للفقراء والمعوزين :

لقد بذل هادريانوس جهده الأكبر لحماية الضعفاء من الأفوياء ، والفقراء من الموسرين عملا بنعاليم المدرسة الرواقية ، وتعاليم فيلسوف الرومان الشهير سينيكا *Seneca* وتلبية لمطالب الكليين *Cynics* ، الذين يرون أن الناس مهما تباينت اوضاعهم الاجتماعية فهم جميعا بشر يساوى الموت بينهم ، ومن ثم فلا فرق بين الحر والعبد ، وبين الفقير والغنى .

ولهذا حرم هادريانوس على السيد أن يقتل عبده أو يعذبه أو يخصمه أو حتى يبعه كجلاد Gladiator يبارز حتى يقتل أو يقتل لأي سبب ، وكان هذا أول تشريع روماني يعامل العبيد كبشر لهم حق الحياة كغيرهم ، كما ألقى حق رب الأسرة القديم في التحكم في منح أو رفض الحياة بالنسبة لأبنائه وهو الحق القديم المعروف باسم *ius vitae necisque* (حق الحياة أو عدمها) والذي كان جزءا من سلطات رب الأسرة الروماني *paterfamilias* ، كما وضع التشريعات اللازمة لحماية اموال اليتام والقصر من جشع الأوصياء عليهم ، وجعل من حق القصر أن يرثوا ويمارسون التصرف فيما آل اليهم من ارث دون الرجوع إلى الوصي .

أما في مجال أعمال الرعاية الاجتماعية والخيرية والتعليمية فقد سار هادريانوس على نهج نرفا وتراجانوس في تخصيص جزء من اموال الدولة لرعاية وتعليم أبناء الفقراء والمعوزين الإيطاليين ومن ثم عين نقيباً لرعاية الطفولة ومدّها بالغذاء عرف باسم *praefectus alimentorum* . يقوم بتوزيع هذه الاموال على الجهات والجمعيات الخيرية المختلفة ، كما خصص جزءا من الميزانية للانفاق على المدارس في اجزاء الامبراطورية وتخصيص مرتبات للاساتذة المسنين ، واتباعا للسياسة التي بدأها فسباسيانوس دعم هادريانوس مدراس البلاغة والفلسفة والطب والفنون الحرفية بالاموال اللازمة سواء كانت في ايطاليا او في ولايات الامبراطورية المختلفة .

حركة النشاط العمراني في روما وايطاليا :

يعتبر عصر هادريانوس عصر نشاط وتعمير عمراني ليس في ولايات الامبراطورية فحسب ، بل في روما وايطاليا ، فمبارته في تنظيم وتخطيط الاقتصاد الروماني وفر للخزانة اموالا طائلة كانت تذهب سدى ، ومن ثم استخدم الفائض النقدي للقيام بمشروعات عمرانية كبرى ، فقد بنى ورمم مئات الابنية والمنشآت في روما وحدها . أشهرها معبد فيثوس وروما الذي يقال ان هادريانوس صممه بنفسه ، والمعبد الكبير الذي اقامه تخليدا لذكرى تراجانوس وزوجته افلوطينا بعد موتها عام ١٢٢ م ، وقصره المشهور بفيلا هادريان في تيبور *Tibur* (تيفولي *Tivoli*) على ضفاف نهر *Anio* . وبنى غطت مبانيها ساحة براد على المائة فدان شملت اجنحة الإقامة والقاعات والحمامات وقاعات المائدة والحدائق الغناء التي زينت في كل ركن بروائع الفنون التي تجدها كما لو كانت متحفا على الطبيعة وهي : نراتن مساحة للزوار ، وعلى الضفة الاخرى من التيبور وبالقرب من مدينة الفاتسكان الحالية اقام هادريانوس اروع نموذج للعمارة

الرومانية على طول التاريخ وهو ضريحه الشهير Mausoleum (مكانه الآن قلعة سان انجلو St. Angelo) من الرخام الخالص والاعمدة التي نحت بعضها من المحاجر المصرية ، وزينت أرضيته بالفسيفساء ، وأقيمت فيه التماثيل المختلفة ، ونظرا لمتانة البناء فقد تحول في العصور الوسطى إلى قلعة أطلق عليها قلعة القديس أنجيلو ولا تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

وآخر الأبنية الخالدة التي أقامها هادريانوس معبد البانثيون Pantheon الذي نفذه المهندس الاغريقي ابوللودوروس Apollodorus وهو لا يزال في حالة جيدة رغم مضي السنين ورغم استخدامه المستمر عبر العصور ، ففي العصور المسيحية حول إلى كنيسة عام ٦٠٩ م لكن منذ القرن التاسع عشر اعتبر اثرا قوميا ، وهذا المبنى يتميز بأعمدته ومبانيه الدائرية وقبته الضخمة التي يبلغ قطرها ست وعشرين قدما . والتي أصبحت نموذجا لعدد من القباب المشهورة (١) .

هادريانوس في أيامه الأخيرة :

بالرغم من انكباب هادريانوس على معرفة كل شيء بنفسه ودراسته على الطبيعة ووضع القرار الأمثل ، إلا أنه كان يفضل أحيانا أن ينعزل عن العالم وعن الناس ليخلد إلى ذاته ، يتفكر ويتأمل ويبحث عن الصفاء النفسي والجمال الروحي ، ويراقب العالم وأحواله من مكان بعيد وفي منأى عن الناس ، وقد أثار ذلك الشك والتخوف عند بعض المقربين إليه واعتقد بعض زعماء السناتو أنه مختل العقل والشعور . ولكن الامبراطور ظل على ذلك الحال حتى آخر أيامه ، ويقال أنه نظم أبياتا من الشعر الصوفي وهو على فراش الموت ، يناجى بها روحه ويسألها عن مصيرها ومقصدها بعد مغادرتها جسده .

وبذلك اثبت هادريانوس أنه خادم الامبراطورية وسيدها والعليم بكل كبيرة وصغيرة فيها ، كما اثبت أيضا أنه كان متحررا من قيود العالم المادي ومن شهوات النفس وجورها عندما يخلو في صفاء اليها يتأمل فيها ويحاسبها .

(١) منها قبة كنية ابا صوفيا الشهيرة في القسطنطينية التي تحولت إلى مسجد بعد الفتح العثماني ، ومنها أيضا قبة كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان ، وقبة مسجد الصخرة في بيت المقدس ، وأحدثها قبة الكابيتول الشهيرة في واشنطن : وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

لم يفادر هادريانوس ايطاليا منذ عودته اليها عام ١٣٥ م بعد سحقه لثورة اليهود في فلسطين ، واعتكف في فيلته الشهيرة في تيبور (تيفولي) في ريف كمبانيا الخامل وعلى ضفاف نهر آنيو حبسا فيها بعد ان اصابته حالة من الاكتئاب النفسى والملل المقبض ، والشعور بالوحدة وفقدان الشهية للحياة ، وسرعان ما اصابه مرض مؤلم عام ١٣٦ م حطم نفسيته وقضى على البقية الباقية من الامل عنده .

هادريانوس يختار خليفته :

من المعروف ان هادريانوس لم ينجب ولدا لى يخلفه ، كما ان ميله للاعتماد على نفسه أولا وحبه للعزلة جعله لا يتخذ لنفسه صديقا معيناً يشاركه افكاره واحلامه ويعده لى يتولى العرش من بعده ، بل كما رأينا ، جرت عزله وانطوائه عليه غضب السناتو وعدائه .

- ولما تزايدت وطأة المرض وبدأ الشفاء املا محالا بدأ هادريانوس يفكر فى اختيار الخليفة الجديد ووقع اختياره فى اول الامر على أحد اصدقائه من أعضاء السناتو هو لوكيوس كايكينيوس كومودوس Lucius Ceicinius Commodus وتبناه تحت اسم لوكيوس ايليوس قيصر ومنحه السلطة التربيونية ، ولكن هذا المختار مات فجأة فى شبابه عام ١٣٨ ميلادية وأخرس موته المبكر والمفاجئء الألسن الحاقدة والتي وصفت اختياره للحكم بأنه ضرب من جنون الامبراطور ، ولكن اختيار الامبراطور للخليفة الثانى اثبت مدى تعقله وحكمته اذ اختار فى هذه المرة ثريا رومانيا من ولاية بلاد الغال القريبة اسمه تيتوس اوريليوس انطونينوس Titus Aurelius Antoninus وكان أحد أعضاء مجلسه الاستشارى الذى كان يرافقه فى انترحال ، وتقليدا لاغسطس العظيم - أو ربما لأن هادريانوس ادرك ان اوريليوس انطونينوس رجل متقدم فى السن - فقد أرغمه على تبني بدوره لوكيوس فيروس ابن الراحل كومودوس المختار الاول ، وكذلك أرغمه على تبني ابن شقيقه زوجته وهو ماركوس انيوس فيروس وكان مثله اسبانيا وهو الذى اصبح فيما بعد الامبراطور ماركوس اوريليوس Marcus Aurelius ، ومن ثم منح السناتو تيتوس اوريليوس انطونينوس الامبريوم والسلطة التربيونية واصبح بذلك شريكا له فى الحكم .

وبذلك سلس هادريانوس الامبراطورية اكثر من خليفة ولدى جيلين كائين .

ولم يبق بعد ذلك لهادريانوس سوى أن يتمنى مجيء الموت سريره ،
وسهلا لكن هذه الأمنية لم تتحقق ، بل اشتدت وطأة المرض حتى كاد يجن
من آلامه عندئذ فكر هادريانوس في أن يضع نهاية لحياته ، فرجى طبيبه
الخاص أن يعطيه سما زعافا لكن الطبيب فضل أن يتناول هو السم على
أن يقدمه لسيده عندئذ رجا عبده أن يقطعنه بالخنجر فولى العبد مذعورا
من الرجاء .

وأخيرا في العاشر من يوليو عام ١٣٨ م تحققت أمنيته وفاضت روحه .
وقام ابنه بالتبني وخليفة أنطونينوس بنقل جثمانه ودفنه في الضريح المعد
له وأصدر قرارا برفعه الى مصاف الآلهة بالرغم من معارضة السناتو
الشديدة ، وهكذا أصبح هادريانوس مؤلفا .

٤ - أنطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ - ١٦١ م) :

بموت هادريانوس أصبح خليفته المتبني تيتوس أوريليوس أنطونينوس
امبراطورا ، وقد أظهر منذ أول لحظات توليه العرش وفاء شديدا لسلفه
الراحل ، وأصر في شجاعة وعناد غريب أن ينتزع من السناتو المتمنع قرارا
باعتبار هادريانوس الها على غرار الأباطرة العظام ، وبسبب ذلك الإصرار
كسب الأمبراطور الجديد كنيته الخالدة بيوس Pius أى التقى ، ومن ثم
عرف عند المؤرخين باسم أنطونينوس بيوس تعبيرا عن تقواه تجاه هادريانوس
وبسبب التزامه بالواجب وبالفضائل والشمال الرومانية القديمة ، وقد
دفعه وفاؤه ازاء هادريانوس أن يكرس وقتا ومجهودا كبيرا لاكمال ضريحه
بحيث يتناسب مع مقامه كامبراطور مؤله يعرف باسم هادريانوس المؤله
Divus Hadrianus

حكم أنطونينوس بيوس ثلاث وعشرين عاما مرت هادئة ، فقد كان
الامبراطور هادئا وديعا في حياته الخاصة والعامة ، لم يخرج أبدا عن
سياسة هادريانوس ، بل سار على منوالها بوفاء عظيم ، فلم يحدث في
عهده حروب أو ثورات في أى جزء من اجزاء الامبراطورية الا نادرا .

كان أنطونينوس بيوس ذا قامة فارغة ، وطلعة بهية تنبئ بالوقار
والنقوى ، وكان رقيقا مهلبا في معاملته للناس ذكيا ، محبا للتبحر في
العلوم والمعرفة وخطيبا مفوها كما كان حازما مجدا في عمله ، يكره الترف

(٣) للأسف معظم الابحاث عن أنطونينوس قديمة وأهمها .

E.R. Bryan : The Reign of Antoninus Pius (London 1895) ; Lacour-
Gayet : Antonin le Pieux et son Tem, Paris 1888.

والتزلف ويعشق البساطة والصدق ، كما كان بعيدا كل البعد عن الكبرياء والفرور ، محبا للخير والعدل ، وقبل كل شيء كان وديعا . ولهذا لم يكن له أعداء كثيرون ، بل احبه الجميع واخلصوا له .

ولد انطونينوس بيوس في لانوفيوم Lanuvium احدى المدن اللاتينية القديمة ، وقد هاجرت أسرته من نيمائوسوس Nemausus (نيميس Nimes في بلاد الفال جنوب فرنسا) وكانت أسرته أسرة أرستقراطية عريقة تملك العديد من الضياع في ايطاليا ، وقد احب انطونينوس ضيعته الواقعة في لوريوم Lorium بإقليم كمبانيا النائي حبا شديدا ، وكان يقضى فيها معظم وقته يحيا حياة الريفى البسيط ، يطعم مواشيه وطيوره ويقيم المآدب لأصدقائه ، ويقطف الثمار والزهور بنفسه ، ويقضى وقت فراغه في صيد الاسماك والقنص ، وكان بيته الريفى البسيط احب اليه من القصور الخرافية التى بناها هادريانوس ومن سبقه من الإباطرة .

ولقد تقلب انطونينوس فى سلك الوظائف العليا حتى وصل الى القنصلية التى تولاها للمرة الثانية فى عام ١٢٠ م ، ولكنه أثر بعد ذلك ان يعتزل الحياة السياسية ويعود الى ضيعته ليحيا حياة الرومان القدماء . ولما تولى هادريانوس الحكم أخرجته من عزلته واختاره رئيسا لقضاة احدى الألوية القضائية الأربعة التى قسم اليها ايطاليا ، وفى عام ١٣٥ م عينه حاكما على ولاية آسيا الصغرى بدرجة بروقنصل ، ولقد أظهر انطونينوس نالاً فترة حكمه لآسيا الصغرى مواهبه وقدراته ونزاهته المطلقة ، وساعده على ذلك خبرته الطويلة فى مجال القضاء ، وتكريما له اختاره هادريانوس عضوا فى مجلس رئاسة الدولة ، وقبل موته بقليل اختاره خليفة ووريثا له .

انطونينوس والسناتو :

راينا كيف ان انطونينوس دخل فى دور التحدى مع السناتو بعد موت هادريانوس مباشرة عندما أصر على تأليهه أسوة بغيره من الإباطرة العظام ، بينما كان السناتو يصر على احلال اللعنة عليه ، بل والغاء كافة قراراته decreta وهذا يعنى الغاء قرار التبنى الذى جاء بأنطونينوس الى العرش ، لكن انطونينوس نجح فى عقد صفقة مع السناتو ، وهى أن يوافق على منح الانقلاب الربائية لهادريانوس مقابل أن يلغى قرار تقسيم ايطاليا الى اربعة ألوية قضائية يقوم الامبراطور باختيار كبار قضاتها بقصد ابعاد السناتو عن مجال التحكم فى القضاء فى ايطاليا والذي كان يحتكر مجلس

السناثو منذ فديم الزمان ، وبالفعل أصدر ادرنينوس قرارا باعادة نظام القضاء الى ما كان عليه اقبل صدور قرار هادريانوس ، واصدار العقوسن اعضاء السناثو الذى قبض عليهم هادريانوس فى ايامه الاخيرة وكانوا فى انتظار الموت .

وفى ضوء هذه الصفقة نجح انطونينوس فى اعادة الثقة بينه وبين السناثو ، بل حرص على دعم هذه الثقة باظهار احترامه لذلك المجلس واعتبار نفسه عضوا فيه قبل ان يكون امبراطورا ، ولذلك كان يحرص على حضور الجلسات ، ويستشير المجلس فى الكثير من المشاكل التى تواجهه ، كما كسب حب ورضاء السناثو برسالة المعونات المالية سرا لاسر اعضاء السناثو الفقراء ، ورفضه انزال ايطاليا من وضعها المتميز واعتبارها كغيرها من الولايات الاخرى فى الامبراطورية ، كما كان هادريانوس ينوى ان يفعل .

سياسته واعماله :

حرص انطونينوس على ان تأخذ العدالة مجراها وأن يسود القانون فى كل ربوع الامبراطورية ، كما حرص على دعم حدودها باقامة الحصون والقلاع والموانع عند اطرافها حتى ينعم أهلها بالسلام والطمأنينة ، ومن اشهر هذه الموانع الحائط الكبير الذى بناه فى شمال بريطانيا ، والواقع الى الشمال من حائط هادريانوس بالاضافة الى عدد كبير من القلاع المحصنة والابراج العالية فى المانيا ووادي الدانوب . وهى نفس السياسة التى بداها هادريانوس .

كما ادى تنظيم الجهاز المالى فى عصر هادريانوس الى الاستقرار الانتصادى فى الامبراطورية ، وامتلات الخزانة العامة بالاموال التى راح انطونينوس ينفق منها بلا تحفظ على التعمير والعمران واعمال الخير والبر والرعاية الاجتماعية للفقراء ، وكانت الموانىء الايطالية اولى اهتمامه ، كما بنى الحمامات والمسارح وملاعب الرياضة والمكتبات العامة فى كثير من المدن الايطالية .

وقد دفعه حرصه على ارضاء المعوزين والفقراء فى ايطاليا الى دعم صندوق الاعانة الاجتماعية والغذائية والصحية والتعليمية القديم ، وفتح فروع لها فى كافة الاقاليم الايطالية (١) وزيادة على ذلك فقد انشأ فى روما دارا لرعاية الفتيات اليتيمات والفقيرات تكريما لزوجته الوفية فاوستينا

cf. Hands, op. cit pp. 110, 140 (2) ibidem p. 110, 140.

(١)

Faustina ، وقد اطلق على هذه المؤسسة الخيرية اسم فتيات
فاوستينا Puellae Faustiniannae .

كذلك لم ينس انطونينوس شعوب ورعايا الامبراطورية في الولايات،
ففى عهده ازدهرت الطبقة الوسطى ونعمت بالعدل رغم استمرار النزف
الرومانى لاقتصاد هذه الشعوب ففى مصر مثلاً ، اعتبر عصره عصراً مبارك
الخيرات حيث اكتملت الدورة الدهرية فى عصره (وهى ١٤٦٠ سنة) فى
عام ١٣٩ م وظهر الطائر الخرافى العنقاء Phoenix لينهى الدورة
القديمة ويبدأ الدورة الجديدة ولذا ظهر العنقاء مصوراً على عملة مدينة
الاسكندرية عام ١٣٩ م ، وعبر الفلاحون المصريون عن رضاهم بالامبراطور
المبارك فى نقوشهم وخلعوا عليه الالقاب الدينية المختلفة فقد ذاقوا لأول
مرة طعم العدل وشعروا بحماية الامبراطور العادل ضد الموظفين المستغلين
لهم بدون وجه حق ، لكنه لم يستطع ان يوقف النزف الاقتصادى للولايات .
واغلق عيناه تماماً عن هذا الخراب الاقتصادى ، غير انه ابدى استعداداً لواساة
الملايين من الشعوب بالنظر فى شكواها بحرص ضد المستغلين من الوسطاء
والحكام (١) ، وفى ظروف معينة كان يخفض الضرائب او يلغىها مضطراً بسبب
حدوث الكوارث الطبيعية خاصة فى ولاية آسيا الصغرى .

وبالرغم من انفاقاته على رفاهية الايطاليين وعلى العمران فى
الامبراطورية الا أن الأموال ظلت تتدفق على الخزانة وبلغ الفائض من الأموال
عند موته ألفين وسبعمائة مليون سستركيس أو ما يعادل تقريباً ١٣٥ مليون
دولار ذهبى (بالتقدير الاقتصادى الحديث) .

تطوير التشريع الانسانى :

ان اعظم اعمال انطونينوس مساهماته الخلاقة فى مجال التشريع
والقانون ، فقد احاط نفسه بأنبح فقهاء التشريع والقانون وملاً بهم مجلس
الدولة ، ومن مشاهير هؤلاء الفقهاء سالفىوس يوليانيوس الذى قام بوضع
اصول لائحة ثابتة للقضاء ، عرفت بأسم اللائحة البرايتورية الدائمة ، كما كان
لسالفىوس يوليانيوس عدد من التلاميذ الفقهاء من امثال فولوسىوس

(١) يؤكد ذلك العثور على نصاصة بردية تسجل جزءاً من محاكمة كاتب قرية مصرية
بناء على دعوى اقامها أحد الفلاحين عليه وحقق فيها والى مصر فاليريوس يودايمون بنفسه وكان
مديقاً شخصياً للامبراطور انطونينوس ، وامر بتفريم كاتب القرية والزامه برد تعويض
للفلاح المصرى يعادل أربعة امثال ما صودر منه والوثيقة مؤرخة فى ١١ فبراير عام ١٤٢ م انظر :
William Linn Westermann, «The Praefect of Liturgist, J.E.A. Vol. 40 (1953)
pp. 107-111.

مايكيانوس Volusius Maecianus معلم الامبراطور ماركوس اوريليوس ومؤلف الموسوعة الكبرى عن الائتمان المالى Fidei Commissa فى ستة عشر مجلد وموسوعته عن القضاء العام De iudiciis publicis فى أربع عشرة مجلد ، ومن الجدير بالذكر أن قولوسيوس مايكيانوس كان واليا على مصر عام ١٦٠م فى اواخر عهد انطونينوس ، ومن بين أعلام القضاء والتشريع الذين ضمهم انطونينوس الى بطانته سكستوس بومبونيوس وأولبيوس ماركيللوس .

لقد كان انطونينوس خبيرا بكل دقائق القانون وقواعد الفقه والتشريع . وله مساهمات عظيمة فى التفسير والتوضيح خاصة فى قوانين الوصاية على القصر والأيتام وضمان حقوق هؤلاء الصغار من ظلم الاوصياء وقوانين عتق العبيد حيث شدد من العقوبات المفروضة على السادة الذين يعذبون عبيدهم أو يقتلوهم وبذلك تحققت دعوة الكلبين بأن العبد انسان قبل أن يكون عبدا ، كما حارب انطونينوس الجرائم بتشديد العقوبات عليها خاصة جرائم الخطف التى تفشت فى ايطاليا فى ذلك الوقت ، ومن مساهمات انطونينوس فى القانون الرومانى تخفيفه العقوبات المفروضة على الهاربين من الجندية والجيش ، واطلاق سراح الأسرى الذين قضوا عشرة سنوات فى الأشغال الشاقة بالمناجم والمحاجر ، كما ألغى الحظر الذى فرضه هادريانوس على اليهود بخصوص ممارسة عادة الختان ، وحظر أى اضطهاد ضد المسيحيين ، ومن الطريف أن انطونينوس هو صاحب أشهر قواعد القضاء مثل « المتهم برىء الى أن تثبت ادانته » ومثل « اذا تنازع القضاة حول الحكم يفسر ذلك لصالح المتهم » .

سياسة الداخلية والخارجية :

بالرغم من عشق انطونينوس للهدوء والسلام ، الا أنه لم يأل جهدا فى أن يضرب بشدة اذا لاح فى الأفق خطر أو تمرد أو تعرضت حدود الامبراطورية لأى خطر ، فمثلا قام برده المتمردين من القبائل فى بريطانيا وموريتانيا ، كما ردع البارثيين بقوة وأوقف تقدمهم فى أرمينيا ، ففضى على العديد من أعمال الشغب والتمرد ، لقد كان انطونينوس رمز العظمة والقوة والمهابة للامبراطورية وفى عهده شدت سفارات الشعوب البعيدة رحالها الى روما طلبا للصداقة والسلام مع الرومان ، فجاءت سفارة من الصين وأخرى من باكتريا وثالثة من الهند ، وتردد اسمه فى بلدان واقطار دول أسيا ، بل لعب دور الحكم فى خلافت الممالك ، فعندما علم أن ملك بارثيا يستعد للاستيلاء على أرمينيا أنذره فى رسالة جعلت الملك البارثى يهجر المشروع كله ، وكان يعين الملوك ويختار الحكام ويتحكم فى حدود هذه الممالك . لقد كان حظ هذا الامبراطور التقى الوديع

العادل حسنا ، اذ لم يستغل ضعفه ووداعته احد من الطامعين في الحكم فثار عليه ، لقد جنى انطونينوس ثمار سياسة تراجانوس العنيفة التوسعية ، وسياسة هادريانوس القائمة على القوة المتيقظة الرادعة لكن الوداعة وحدها لا تحمى الامبراطورية لان السلام لا يقوم الا على القوة المتيقظة والرادعة كما كان الحال في عصر هادريانوس ، ولولا ذكرى تصرفات تراجانوس وهادريانوس لتحركت القبائل البربرية ضد الامبراطورية وزحفت على حدودها لسلبها مصادر خيراتها ، لكن الخوف جعلها تحجم عن ذلك . غير ان انطونينوس اعتمد على جنى ثمار من سبقوة دون ان يساهم هو لمن بعده بشيء في دعم الوسائل الدفاعية للامبراطورية ، بل على العكس دفعه حرصه في توفير الاموال الى اهمال نفقات الدفاع فبدأ التراخي العسكري ، وبدأ الضبط والربط الذي خلقة هادريانوس يضعف ، وبدأت صلابة القوات الرومانية تلين وتدهور ، في حين كان اعداؤها خارج حدودها يتهافتون على تعلم مزاياها العسكرية وتقليد تدريبات وتكتيكات قواتها ، املا في ان يرثوا بطشها يوما ما ، وعلى رأس هذه الشعوب الجرمان والعرب والهنود والفرس . ومن ثم كان عصره هو بداية العد التنازلي للقوة والكفاءة الاسطورية للعسكرية الرومانية ، وبداية عصر التراخي الذي ادى الى طمع اعداء الامبراطورية فيها .

لم يقلد انطونينوس سلفة هادريانوس في كثرة التحرك والقيام بزيارات طويلة لولايات الامبراطورية ، بل اثر ان يعتكف في روما او في احسن الاحوال في مزرعته في لوريوم بسهل كمبانيا يدير منبأ شئون روما والمقاطعات الايطالية والولايات البعيدة وذلك من اجل توفير نفقات السفر الباهظة ، وكما قلنا كان من نتيجة حرص الامبراطور في الانفاق ان توفر لدى الخزنة العامة اموال كثيرة استطاع ان ينفق منها بكرم من اجل رفاهية الشعب الروماني ، فأقام له المهرجانات الرياضية والترفيهية لتسلية ، وشيد له العديد من المرافق والمباني والمنشآت ، واعفى غير القادرين من الضرائب المتأخرة ، لكن اعظم اعمال انطونينوس بيوس ، فرضه لروح القانون العادل الذي كان به مولعا ومتيما وخبيرا ، وأصر بشدة على ان تأخذ العدالة مجراها في شتى الاجهزة الادارية والمالية دون تحيز لاحد مهما كانت درجته الاجتماعية وبذلك أكد مبدأ المساواة المطلقة بين الناس امام شريعة القانون ، في نفس الوقت حرص على تطويره ليتماشى مع خدمة الانسان ورفاهية المجتمع ولذا اعتمد كما رأينا على اعلام الفقه والتشريع وهم الذين أعطوا للقانون الروماني روحه ونصوصه التي نعرفها الآن والتي ورثته عنه الكثير من القوانين الحديثة والمعاصرة .

موت الامبراطور انطونينوس بيوس :

سبق ان ذكرنا ان هادريانوس عندما اختار انطونينوس ارغم هذا

الاخير على تبني فتى اسبانيا اسمه ماركوس أنيوس فيروس Marcus Annus Verus ، ومن الطريف ان انطونينوس كان متزوجا من عمه هذا الشاب واسمها فوستينا الكبرى Faustina والتي أصبحت الامبراطورة بعد تولى زوجها انطونينوس العرش ، وقد أصبح ماركوس أنيوس فيروس بعد تبني انطونينوس له يلقب باسم ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius

وفي عام ١٣٩ م انعم الامبراطور انطونينوس بيوس على خليفته ماركوس أوريليوس بلقب القيصر وكان ذلك بمثابة اعلانه خليفة له رسميا ، وفي عام ١٤٤ ميلادية زوجه من ابنته فوستينا الصغرى ، ثم ولاه القنصلية ثلاث مرات ، وفي عام ١٤٦ طلب من مجلس السناتو الموافقة على منح ولى العهد السلطة التربونية والامبريوم ، وكان هذا اعلان بأنه شريك منذ تلك اللحظة في الحكم وامبراطور في الظل .

وفي ايامه الاخيرة احس انطونينوس بنتائج اهماله في المجال العسكري وفي اعداد وتطور وتدعيم القوات ، وأن رصيد اعمال تراجانوس وهادريانوس قد نفذ وأن جيش الامبراطورية الآن ليس بالقوة الرهيبة القادرة بانزال الرعب في قلوب الاعداء والطامعين (١) ، ويقال انه وهو على فراش الموت في ضيعته في لوريوم في مارس ١٦١ م راح يهذى ويزمجر وينتقد الاباطرة الذين سبقوه الى أن خمدت انفاسه .

ه - الحكم المزدوج بين ماركوس أوريليوس ولوكيوس فيروس :

وبموت أنطونينوس بيوس في مارس عام ١٦١ ميلادية خلفه ماركوس أوريليوس في الحال ، وفي صمت تولى عرش الامبراطورية .

لقد كان ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius من ابرز وانبل اباطرة الامبراطورية ، فقد تربى في كنف أسرة اسبانية ثرية مستنيرة ، أعطته حقه في التعليم خاصة في الفلسفة التي عشقها هذا الامبراطور وتبحر فيها وأصبح من ابرز اعلام الفلاسفة الرواقيين .

كان ماركوس أوريليوس رحيمًا ، خيرا ، متسامحا حتى شبهه البعض بالسيد المسيح في اخلاقياته وسلوكه وحبّه للمسالمة ، ولعل ماركوس أوريليوس رغم انه لم يكن مسيحيا - قرا عن السيد المسيح وعرف شيئا عنه من المسيحيين الاول . فقد كانت المسيحية في طريقها الى الانتشار والازدهار ابان القرن الثاني .

(١) كان سر قوة الامبراطورية وسياسة السلام الروماني تقوم على المبدأ اقاتل اذا أردت أن تصنع السلام فاستعد للحرب .

si pacem Facis bellum para

ومن الواضح أن انطونينوس بيوس لم يلتزم به وهذا سر قلقه عندما اكتشف ذلك .

وقد أقبل ماركوس أوريليوس على الحكم بدافع الاحساس بالواجب ، وكاختبار لعزيمته في التفانى في المسئولية حسب تعاليم الفلسفة الرواقية ، وليس طمعا فيه لانه كان زاهدا عن متاع الدنيا (١) ، لكن حكمه قدر له أن يواجه اشد العدوان خطورة على حدود الامبراطورية من جانب الجرمان والبارثيين .

ولد ماركوس أوريليوس في روما عام ١٢١ م لأسرة اسبانية ثرية وفي سن السادسة من عمره أجبر هادريانوس لوكيوس كومودوس فيروس على تبنيه ثم أجبر أنطونينوس بيوس على تبنيه كخليفته من بعده .

ولقد أصر منذ الوهلة الاولى للحكم على أن يشركه أخاه المتبنى لوكيوس فيروس Lucius Verus في تولى عرش الامبراطورية ويشاركة سلطاتها والقابها كاملة ، ولأول مرة يبدأ عهد جديد وهو الحكم المزدوج للامبراطورية واصبح يتولى عرشها امبراطوران كل يحمل لقب اغسطس .

ويرى البعض أن هذا التجديد نابع من حب ماركوس أوريليوس الشديد لأسرته ورغبته في تدعيم صلة للرحم ، بينما يرى آخرون أن صفاء ذهن الامبراطور جعله يؤمن أن الامبراطورية كانت فعلا في حاجة الى أكثر من رجل من أجل النهوض بأعبائها والوصول بها الى المستوى اللائق في الداخل والخارج . والدليل على ذلك أن دقلديانوس وصل الى نفس القرار من باب الوازع الدينى الخالص بعد مائة وثلاث وعشرين عاما .

لكن أمل ماركوس أوريليوس قد خاب لأن لوكيوس فيروس كان متقاعسا ، ضعيفا ، يلهث وراء ملذاته ولهوه ، بالرغم من أنه كان شديد الاخلاص للامبراطور ملقيا عليه مسئولية الحكم وحده ، وقد حاول ماركوس أوريليوس بقدر الامكان تحريكه والافادة منه لصالح الامبراطورية ولكنه لم ينجح .

كان ماركوس أوريليوس فيلسوفا بطبيعته (١) ومريدا مخلصا للرواقية التي كان قد تلقى في شبابه دروسها ، ومارس افكارها ، ولكن بغير تشدد أو تعصب . وقد تركت الافكار الرواقية بصماتها واضحة على تفكير الامبراطور وسلوكه الاجتماعى فكان دائم الرضى والقناعة في وجه كل

cf. J. Romaine, Marc-Aurele, ou l'empereur de bonne volonté, Paris (١) 1968. p 18 ff.

(١) عثمان أمين - الفلسفة الرواقية - القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١.



المتحف البريطاني - لندن
ماركوس اوريليوس في ثوب الكاهن الاعظم

الأعاصير ، لا يفرح ولا يحزن بل يقبل الأمور على ما هي عليه بنفس راضية ،
وقناعة نابعة من الإيمان بالواجب وبالأمر الواقع .

لقد كان ماركوس أوريليوس دائم الرجوع الى ذاته والتأمل فيها ،
ومن ثم جاء مؤلفه الشهير باللغة اليونانية لغة المثقفين والذي سماه مع الذات
Ta eis heauton والذي ترجمه الرومان الى التأملات Meditationes
وبالرغم من زهده وتجرده عن الطموح وجنون المجد فقد أقبل على حكم
الامبراطورية بكفاءة منقطعة النظر ، دافعها الاجساس بالواجب الذي
يقدمه الرواقيون ، ومن سخرية القدر ان الرجل الذي عبد السلام
والمؤاخاة بين البشر لم يعط الفرصة لترجمة هذا الايمان الى حقيقة لان
الاضطرابات التي حاقت بالامبراطورية فرضت عليه القتال وهو كاره له من أجل
حماية الامبراطورية من خطر الاعداء وهو جوهر الاحساس بالواجب (١) .

الحرب ضد البارثيين : (١٦١ - ١٦٦ م) :

لم يكد ماركوس أوريليوس يتولى العرش حتى غزى ملك البارثيين
فولوجاسيس الثالث Vologases أرمينيا ، ولما حاول والى كابادوكيا
الروماني وقف هذا الزحف دفع حياته ثمنا لذلك ، واجتاح البارثيون ولاية
سوريا غربا حيث هزموا الحامية الرومانية ونهبوا الولاية ، وبسرعة كلف
ماركوس أوريليوس شريكه لوكيوس فيروس بتولى مهمة ردع البارثيين
وطردهم من سوريا ، وبالرغم من ان الاخير كان كسولا متخاذلا الا ان
الجنرالات الرومان تمكنوا من اعادة الأمور الى نصابها ، وفي عام ١٦٤ - ١٦٥
ميلادية استطاع الجنرال الروماني الفدافيدوس كاسيوس Avidius Cassius
ان يستعيد بلاد ما بين النهرين ويستولى على سيلوكيا ومدينة كتي سيفون
(طيسفون) عاصمة البارثيين ، ولكن انتشار وباء الطاعون بين القوات
الرومانية فضلا عن النقص الشديد في الامداد من غذاء وعتاد حال دون نصر
ساحق للرومان (٢) ، ومن ثم عاود البارثيون احتلال ما بين النهرين وأرمينيا
ولم يتمكن الرومان من استرجاعهما الا في عام ١٦٦ ميلادية عندما مدوا
سلطانهم شرقا حتى نهر خابور Khabor . ولم تمض سنوات قليلة حتى
عادت بارثيا مملكة عميلة للرومان . ولكن ذلك النجاح في طرد البارثيين
لم يساو ما جره من بلاء على الامبراطورية عندما نشر الجنود الرومان

(١) Birley, Marcus Aurelius, London, Eyre and Spottiswoode, 1966.

(٢) cf. T. Frank : An Economical Survey of Ancient Rome, vol. V, p. 76., cf. F. Stark, op. cit., p. 237.



مارکوس اوریلیوس الامبراطور الفيلسوف فوق صهوة جواده
— بیاتزا دی کامبیودولیو — روما

العائدون من الشرق وباء الطاعون في الامبراطورية وقد سقط نتيجة لذلك
الآلاف من الضحايا .

حروب الدانوب (١٦٧ - ١٧٥ م) :

وقبل أن تستتب الأمور في الولايات الشرقية اندفع خطر أشد ضراوة
في الشمال عند حدود الدانوب حيث هاجمت القبائل البربرية حدود
الامبراطورية مستغلين استدعاء بعض فرق الجيش الروماني هناك للخدمة
في حروب الشرق . وتقدمت القبائل البربرية على ساحل البحر الادرياتيكي
صوب الجنوب ، وقد ظهرت الامبراطورية في موقف لا تحسد عليه فهناك
نقص شديد في الجيش وحالة من الذعر بسبب انتشار الطاعون وافلاس
في الخزانة بسبب بهالة الحرب الباريثية ، ولكن الامبراطور التقى قابل
ذلك بشجاعة منقطعة النظير فقام ببيع اثاث ونفائس القصر الامبراطوري ،
وحلّى الامبراطورة في مزايدات ليجمع التبرعات والاموال لسد النقص ، كما
قام بتجنيد العبيد والعبيد المبارزين Gladiatores في صفوف الجيش ،
بل لم يتردد في استخدام الجنود المرتزقة من الجرمان واهل سكيثيا
لتعويض النقص في الجيش الروماني ، وانطلق هو وشريكه لوكيوس فيروس
الى الحدود الشمالية للامبراطورية ، وبدا الجيش الروماني يطرد القبائل
البربرية الفازية ويجليها عن الاراضي التي اغتصبتها ، وبينما كان القتال
قائما على أشده سقط لوكيوس فيروس الامبراطور الشريك ميتا نتيجة
لاصابته بأزمة قلبية وذلك في عام ١٦٩م تاركا ماركوس أوريليوس وحيدا
في وجه الاعاصير والانواء ، لكن الامبراطور الشجاع والرواقى المؤمن لم
يجزع من هذا الحدث الجليل ، بل اعتبره اختيارا من الطبيعة ومن العقل
الاكبر لصلابة ايمانه وصبره على بلواه في وجه المحن ، واستمر في تقدمه حتى
أدب القبائل الفازية وطردها الى ما وراء الراين والدانوب ، ثم تابع
انتصاراته على قبائل القاديين Quadi والماركومانيين (Marcomanni)
والصرمانيين Sarmatiani ، وغيرهم ، وكاد الامبراطور أن ينتهي منهم
تماما في عام ١٧٥م لولا أن جاءت الأنباء تحمل تمرد أكبر قادة الرومان في
الشرق وهو أقيديوس كاسيوس .

تمرد أقيديوس كاسيوس :

كان أقيديوس كاسيوس حاكما على ولاية سوريا موطنه الأصلي ،
وكان قائدا عنيفا قوى الشكيمة ، وبفضل ذلك حمى الشرق كله من خطر
البارثيين في وقت كانت فيه الامبراطورية مشغولة في جبهة الدانوب، ولكن
لسوء الحظ اضاع الجنرال السوري العظيم كل ما قدمه من خدمات



ماركوس أوريليوس (وكأنه المسيح) يقدم الاضاحى فوق تل
الكابيتول في حضور الكهنة - لوحة من قوس النصر الخاص
به . هذه اللوحة تبين النزعة الواقعية في الفن الرومانى في
قمة ازدهاره (والذي أصبح نواة للفن في عصر النهضة الايطالية)
فوجه الامبراطور المسن والمرهق بمسئوليات الحكم يدعو
للشفقة والرثاء - روما بالانزو دى كونسرفاتورى -

للامبراطورية عندما صدق شائعة بأن الامبراطور ماركوس أوريليوس قد مات ،
ولما كان أفيدْيوس كاسيوس لا يثق في قدرات كومودوس ابن الامبراطور فقد
اعلن تحديه له وبأنه أحق منه في تولى عرش الامبراطورية ، ولما كان كاسيوس
سورى الأصل فقد وجد تأييدا كبيرا من الشرق الأوسط كله بما في ذلك
مصر الذى سبق لهذا الجنرال ان دخلها وقضى على الفتنة الكبرى التى
قام بها فلاحو الدلتا ممن عرفوا باسم البقوليين *Bucolici* ، وبناء
على هذا التأييد اعلن أفيدْيوس كاسيوس نفسه امبراطورا من الشرق على
غرار ما فعله قسباسيانوس ، ولما ثبت لأفيدْيوس كاسيوس كذب الشائعة ،
وان الامبراطور لم يمت حاول التراجع عن مشروعه ولكن الوقت كان
متأخرا ، ولم يعفه من هذا الحرج سوى طعنات خنجر أحد ضباطه الذين
خانوه وقطعت رأسه لترسل الى الامبراطور .

ولما علم الامبراطور نبأ التمرد في الشرق ، عجل بعقد سلام مؤقت
مع قبائل القاديين مضحيا بالنصر الذى كان على وشك من تحقيقه ، ثم
استدعى زوجته فاوستينا وابنه كومودوس الى صرميوم *Sirmium*
ثم جمع قواته استعدادا للتحرك نحو الشرق ، وفي خطبة درامية متنوعة
الانفعالات من العنف الى السخرية من أعدائه ، الى وعده بالعفو والرحمة
خاطب جنوده ، ولكن قبل ان يتحرك وصل الضابط من سوريا يحمل رأس
الجنرال الثائر أفيدْيوس كاسيوس والقاها عند قدمي الامبراطور الذى تأثر
بشده ، وأشاح بوجهه حتى لا يراها ، وأمر بأن تدفن بكل محافل التكريم
والتبجيل . وكان يمكن ان ينتهى الامر عند هذا الحد ، لكن الامبراطور اصر
على السير بقواته الى الشرق ، ليقطع رؤوس الفتنة من كبار الضباط
ويرهب المتشككين فيه ويهدأ القوات ويعيد الأمور الى أوضاعها ، وفي آسيا
الصفرى ماتت زوجته فاوستينا التى احبها حتى العبادة ، والتى عاشت
معه تحت سقف واحد ثلاثين عاما انجبت له خلالها ثلاث عشرة طفلا ، وتلقى
الامبراطور هذه الضربة بإيمان الرواقى القوى الايمان ، واستمر في رحلته
عبر آسيا الصفرى الى سوريا ومصر حيث قوبل بكل آيات الحفاوة والتكريم
وهذات القوات وعفا عن المتمردين ، وعاد الى روما عام ١٧٦ م حزينا مكلوم
الفؤاد ، محطم الآمال بعد ان فقد زوجته وخيرة جنرالاته ، ومن ثم بدأ في
الاعداد لاعلان ابنه كومودوس خليفة له ، وكان هذا الأخير رياضيا وسيما ،
مفرما بحلقات الصارعة ، لكنه غير مؤهل تماما لإكمال المسيرة التى بدأها
الاباطرة الصالحون ، ولهذا يتهم المؤرخون الامبراطور ماركوس أوريليوس
بأنه وضع نهاية حزينة لقصة سعيدة عاشتها الامبراطورية بسبب توريثه
العرش لابنه كومودوس . وفي روما احتفل ماركوس أوريليوس بانتصاراته

على الجرمان والصرماتيين ، وازاح خلال الاحتفالات الستار عن تمثاله الشهير وهو يمتطى جواده الذى لا يزال قائما فوق الكابيتول .

عودة الامبراطورية الى جبهة الدانوب :

وبعد ان فرغ من احتفالاته عاد الامبراطور مرة اخرى الى جبهة الدانوب عام ١٧٨م وظل يقاتل بكل قوته وقواته حتى حقق النصر على الاعداء وطهر المنطقة منهم ، وكاد ان يحقق حلم الاباطرة العظماء من امثال اغسطس وتراجانوس فى اقامة ستار منيع من الحصون والقلاع والموانع فى جبهة الدانوب لولا ان القدر حرمه للمرة الثالثة من جنى ثمار النصر الذى بذل فيه مجهودا كبيرا ، اذ بينما كان الامبراطور فى معسكر القوات فى مدينة فندوبونا Vindobona (فينا) سقط فريسة لمرض قاتل قيل انه وباء الطاعون الذى كان متفشيا بين القوات فى ذلك الوقت . ولفظ الامبراطور انفاسه الاخيرة بين جنوده فى السابع عشر من شهر مارس عام ١٨٠ ميلادية ، ويقال انه وهو فى سكرات الموت ، راح يودع روحه الى مثواها الاخير ، ويناجيها مناجاة الصوفى قائلا لها « اذهبي الى حيث الشمس فى شروق فان شمسى ارشكت على المغيب » .

سياسة ماركوس اوريليوس الداخلية :

لقد بذل ماركوس اوريليوس مجهودا فى مواجهة ظروف صعبة بسبب بهافة حروب البارثيين من ناحية ، وقبائل الشمال من ناحية اخرى ، فضلا عن انتشار وباء الطاعون وما سببه من ذعر ونقص فى الرجال وتدهور فى الاقتصاد ، فى وقت لم يجد الامبراطور المال الكافى لاعداد جيش يرد الخطر عن امن الامبراطورية وسلامتها . فما كان من هذا الامبراطور الشجاع الا انه قام ببيع نفائس القصر الامبراطورى والودائع الثمينة التى تكدست منذ ايام الاباطرة السابقتين فى خزانة القصر فى مزاد علنى حتى ملابس الامبراطورة المطرزة بالذهب عرضها ماركوس اوريليوس للمزاد ايضا (١) . ولما طالب بعض الجنود بزيادة (٢) الرواتب اجابهم بصراحة ان اى زيادة لهم سوف تجيء على حساب اهاليهم فى المدينة (٣) ، ولم يتردد الامبراطور فى تجنيد العبيد والمبارزين والمرترقة فى الجيش الرومانى لتعويض النقص ،

(١) cf. Scriptores Historiae Augustae, H.M. Ant. Phil, 17,4.

(٢) cf. Dio LXXI, 3,3.

(٣) Rostovetzeff : Economic and Social History of the Roman Empire. I, p. 358.

وبعد الانتصار على برابرة الشمال قام بتهجير الشعوب الاجنبية الى المناطق التي قضى الطاعون على الرجال فيها ، بل ولم يتردد في نقل بعض هؤلاء البرابرة الأجانب ليعمروا مناطق في ايطاليا ذاتها تعرضت لهذا الوباء الخطير خاصة في الريف حيث عانت الزراعة تدهورا كبيرا بسبب النقص في الرجال .

ومن الاعمال الجلييلة للامبراطور تدعيمه للقضاء وذلك بزيادة عدد المحاكم للفصل في قضايا الناس المتزايدة ، بل وتحت الحاح الحاجة اعاد نظام القضاة الاربعة Juridici لادارة شئون قضاء المناطق الاربعة الرئيسية في ايطاليا والذي كان قد ابتدعه هادريان وجر عليه سخط السناتو ، ثم الفاه الامبراطور انطونينوس ترضية للسناتو .

كانت نظرة ماركوس اوريليوس الى السناتو تختلف عن نظرة هادريان ، لان ماركوس اوريليوس اعتبر نفسه عضوا عاديا في مجلس السناتو عند حضور جلساته ، وكان يناقش القضايا داخل المجلس بوضوح ويستشير اعضاءه في العضلات مشركا المجلس في المسئوليات ، ولم يكن احترامه لرجال السناتو ابدا على حساب تقديره لرجال الفرسان ، بل أدرك رسالتهم واهميتهم واعتمد عليهم حيث يتوجب الاعتماد .

كان سياسة الامبراطور هي حماية الفقراء المعدمين (humiliores) من الاغنياء المتخمين honestiores ، فقد حرص الامبراطور ماركوس اوريليوس على رعاية الفقراء وتوفير الحاجيات لهم من غذاء وترفيه ، وفي وقت الازمات الاقتصادية (١) كان يخفف عن كواهل الناس بالفاء الضرائب المتأخرة ، كما زاد من عدد الموظفين الماليين في المقاطعات الايطالية لتحسين الادارة المالية ، كما وضع الاوصياء على القصر والايتام من البلوغ حتى سن الخامسة والعشرين تحت اشراف ورقابة الدولة خاصة في ادارة ضياع هؤلاء القصر .

كل هذا اكسبه شعبية ومحبة من جميع طوائف الشعب نظرا لهدوئه وبساطته وانسانيته في الحكم وعطفه على الفقراء وزهده عن الحكم او التملك وتفانيه في سبيل الواجب فكان محل الاعجاب والتقدير من معاصريه ومن الاجيال القادمة .

ماركوس اوريليوس والخلافة :

بالرغم من نزاهته وتفانيه في سبيل الواجب الا ان ماركوس واريليوس لم يكن موقفا في الحكم على الناس وتقدير المحيطين به ، فكل الدين بالغ في

M. Rostovetzeff : Economic and Social History of the Roman (1) Empire, I, p. 358.

تقديرهم وأشاد باخلاصهم وكفاءتهم لم يثبتوا سوى العكس ، أن كل الذين أكل لهم الثناء والمديح في كتابة « التأملات » ابتداء من زوجته فاوستينا الصفري وابنائهم حتى أصدقائه لم يكونوا سوى صورة سيئة مخالفة لانطباع الامبراطور المثالي عنهم . فلوكيوس فيروس لم يكن بالرجل الكفء على الاطلاق كما ثبت من تصرفاته ، ولم تكن زوجته الامبراطورة فاوستينا زوجة تستحق كل ما خصها به نظرا لسوء سلوكها ، كما أن ابنائه كانوا فاشلين عابثين دون مستوى تحمل المسؤولية والواجب . فمثلا لم يكن ابنه العايب المستهتر كومودوس Commodus جديرا بتولى القنصلية عندما كان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة ، حقيقة أن الامبراطور اضطر الى ذلك بعد موت لوكيوس فيروس وبعد حدوث حركة التمرد الكبرى في الشرق والتي قادها الجنرال افيدوس كاسيوس ، وانه من حق الامبراطور أن يرشح خليفة له ليقى الامبراطورية شرور الصراع خاصة وهناك جنرالات طموحين . ولكن هذا الابن لم يكن أفضل الكفاءات . وعلى أي حال قبل أن يبلغ كومودوس الثامنة عشرة منحه أبوه لقب أغسطس بالإضافة الى السلطة التربوية وبذلك أصبح من الناحية الرسمية شريكا لابيه في الحكم . مثلما كان لوكيوس فيروس قبل وفاته . ولم يدرك الامبراطور أن كومودوس لا يملك لا القدرة الذهنية ولا الاخلاقية لتولى مهام هذه المسؤولية الكبرى لحمل رسالته من أجل اسعاد الشعب الروماني ، كما انه خرج على التقليد العظيم الذي سار عليه الأباطرة الصالحون في اختيار الخليفة من العناصر الصالحة وليس توريث ابنائهم العرش من بعدهم .

٦ - كومودوس (١٨٠ - ١٩٢ م) :

كان كومودوس خيبة أمل لاخلام أبيه العظيم ، وليس هناك في تاريخ الفترة التي تولاها شيئا يمكن أن يقال لصالحه ، بل أن ادوارد جيبسون اعتبر أن تولى كومودوس هو نهاية عصر الرخاء والاسترخاء الذي بدأ من بعد موت دوميتيانوس وهو ما يعرف بعصر الأباطرة الكفاء أو الصالحين (١) .

ويبدو أن ماركوس أوريليوس أحس بحقيقة ابنه ، ولكن الوقت كان متأخرا لازاحته عن طريق العرش خاصة بعد اعلانه شريكا معه ومنحه السلطات المخولة لذلك . غير أن الامبراطور أوريليوس رأى أن الحل الأمثل هو أن يعينه له شريكا قادرا ينصحه ويمنعه من الانحراف والسقوط كما

(١) ينهم بعض المؤرخين الامبراطور ماركوس أوريليوس بأنه سبب بداية انهيار الامبراطورية وذلك بالفائه نظام التبنى واعادته عرش الامبراطورية الى نظام التوريث أنظر :
G. Ferrero : La Ruine de la Civilization antique, Paris (1921).

كان هو نفسه مع لوكيوس فيروس ، ويبدو أن ماركوس أوريليوس كان يعتقد أن مسئولية الامبراطورية الثقيلة سوف تغير يوما ما من شخصية ابنه كومودوس وتجعله أكثر حرصا واقل استهتارا ، كما وضع في رجاله المخلصين أملا كبيرا في اسداء النصيح اليه وحمايته من نفسه وحماية الامبراطورية منه .

ولكن كومودوس مضى يتخبط باستهتار ضاربا عرض الحائط بكل نصائح أبيه ، فمثلا سارع الى عقد الصلح مع قبائل «الماركوماني» «والكادي» مضحيا بانتصارات أبيه لأنه كان يريد السلام مقابل أى شيء ، فهو لا يقوى على مواجهة الحروب ومسئولياتها لجبنه وضعفه ، وبعد أن تم ذلك غادر جبهة اللانوب وعاد مسرعا الى روما لينعم بمزايا الامبراطور ، ويتمتع بملاهي العاصمة ، تاركا الحكم برمته في أيدي جماعة من الانتهازيين الذين التفوا حوله واعموه غن الحقيقة وراحوا يستفنون الحكم لنزواتهم ومصالحهم الشخصية .

كان كومودوس جبانا وقاسيا وشهوانيا ، كما كان شديد الإعجاب بقوته الجسمانية ، محبا لاستعراض ذلك في الظهور امام الناس في حلقات المصارعة ومع الجلادين ، مظهرا مهارته في صيد الحيوانات المفترسة ، وكان يحرص على اظهار قسوته في قتل من يصارعه سواء كان ذلك انسانا أو حيوانا . كان كومودوس يتشبه بهرقل البطل ذى القوة الخرافية في الاساطير الاغريقية ، ويظهر مثله كقاتل للاسود الضارية . ولذا حرص كومودوس على أن يحتفظ في تماثيله بالهراوة الكبيرة وجلد الاسد تماما مثلما كان يصور هرقل .

ولما كان كومودوس منهمكا في عالمه الخاص فقد ترك الحكم تماما ، واحتقر السناتو ، ولما اكتشف أن هناك مؤامرة على حياته يحيكها زعماء السناتو بدأ في الانتقام بوحشية من أعضاء هذا المجلس العريق . ولم يكن كومودوس محبوبا من أحد على الإطلاق ، وكان بقاؤه فوق العرش رهينة برضاء الحرس الجمهورى عنه ، ولهذا راح يسترضيه بالمنح والهدايا والجمائل ، وقد استغل الحرس الجمهورى الوضع الجديد للاثراء على حساب الامبراطور الضعيف لحين التخلص منه في الوقت المناسب .

وبالرغم من التدهور الكبير في اسوان الامبراطورية وشؤونها الا ان حدودها بقيت سالمة بفضل نقطة جنرالات الجيش الرومانى الذين قاموا بواجبهم خير قيام ، وحرموا حدود الامبراطورية في موريتانيا وفي بريطانيا وفي داتيا . ورسوا القبائل الاديبة عنها وسحبها بنجاح .

ولكن الفوضى الداخلية بدأت تهدد أمن الامبراطورية . فقد انتشرت عصابات قطاع الطرق في ايطاليا والولايات ، وبلغت جسارة بعض الخارجين على القانون في بلاد الغال الى احتلال المدن وتكوين الجيوش لمحاربة وتحدي الحكومة الامبراطورية ، ونتيجة لذلك تدهور الاقتصاد بدرجة مخيفة لم يسبق لها نظير . وفي نفس الوقت راح الامبراطور كومودوس يفرق نفسه في الترف والملذات والشهوات حتى افرغ الخزانة وتركها خاوية على عروشها مسببا ازمة اقتصادية عويصة هددت افلاس الامبراطورية ، ومن ثم لجأ الى العادة القديمة وهي تلفيق التهم الى الاغنياء والموسرين من أجل مصادرة اموالهم ، وعاد المخبرون السريون الى الظهور وبدأوا في العمل من جديد بعد ان قضى عليهم الاباطرة الصالحون ، وساد الرعب والقلق . وسط هذا كله طلب كومودوس من الناس اعتباره الاله حاكما بأمره ، بل سك عملات وضع على وجهها صورة له كرب على الرومان وسمى نفسه «هرقل الرومان» وبلغ من جنونه واستهتاره في استعراض قوته الحسمانية أن تولى القنصلية في الاول من يناير عام ١٨٣ وهو في زى المصارع بالسيف Gladiators وفي الليلة التالية تأمر قائد الحرس البرائتوري كونتوس ايمليوس لايتوس Quintus Aemilius Laetus الذي كان يشك في نواياه فأوعز الى منازله في حلقة المصارعة واسمه ناركيسوس أن يخنقه حتى الموت مقابل مكافأة ، وقد عاون قائد الحرس في هذه المؤامرة عشيقه الامبراطور واسمها ماركيا Marcia وكبير أمناء البلاط . ولما اشيع نبأ مقتله خرجت الجماهير تهتف للسناتو قائلة « لقد نجوت !! لقد كسبت » (١) .

وبمصرع كومودوس تنتهى فترة الاستقرار التى بدأت بتولى نرفا ، وبدأت الامبراطورية على وشك من أن تشهد صراعا مسلحا بين جيوشها حول العرش .

الاحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عهد الاباطرة الصالحين :

يعتبر ادوارد جيبون الفترة (٢) من موت دوميتيانوس حتى تولى كومودوس اسعد عصور التاريخ الرومانى— بل الانسانى— كله رخاء وازدهارا . لقد عاشت الناس سعداء مؤمنة حياتها ، وكانت ولايات الامبراطورية

(١) Dio Cassius LXXIV, 2,3.

(٢) من هذه النقطة يبدأ كتاب ادوارد جيبون (١٧٣٧ — ١٧٩٤م) الخالد عن تدهور الامبراطورية الرومانية .

Decline and Fall of the Roman Empire
وقد ترجمه الى العربية : على محمد أبو درة وراجعته وقدم له محمد نجيب هاشم —
دار الكتاب العربى ١٩٦٩ (فى اربعة أجزاء) .

ومقاطعات إيطاليا تنعم بالرخاء . حيث قامت المباني الفخمة والمزينة بكل أنواع المعمار والتي اقامها اصحابها الاثرياء على نفقاتهم الخاصة وهبطت الضرائب التي لم تكن تزيد على ١٠٪ من الدخل العام للفرد ، وكانت الحكومة المركزية كريمة مع المواطنين حريصة على رعايتهم ورضاهم . كان الاغنياء يسكنون « الفيللات » الريفية الجميلة المزينة بأروع فنون المعمار والنحت والرسم مما يدل على ارتفاع الذوق الحضارى والفكرى خلال تلك الفترة .

كان السناتو فى منتهى الرضا ، فالاباطرة الجالسون على العرش كانوا من خيرة العناصر ، محبوبين من عامة الشعب . وقبل كل شىء هم أعضاء صالحون فى السناتو . وبالتالي فقد حرص الاباطرة على احترام السناتو ومعاملته بالملاطفة والرقعة وعرض الامور عليه لآخذ رأيه فيها ، وقد أدى ذلك الى انصياع السناتو بدوره لارادة الامبراطور ومجاراة سياسته وآرائه وبالتالي وجد نفسه أكثر اعتمادا على شخصية الامبراطور (١) وقوته عن ذى

(١) حاول « ون ويليامز » حديثا فى مقال علمى طريف أن يرسم صورة دقيقة لشخصية كل امبراطور من الاباطرة الصالحين والمميزات السلوكية لكل منهم وذلك فى ضوء الوثائق والمصادر القانونية سواء الاوامر أو القرارات أو الفتاوى أو من التأشيرات المدونة على الشكاوى أو من الرسائل الدبلوماسية التى كان يرسلها الامبراطور عن طريق هيئة ادارته الخاصة مثل ديوان المراسلات (أو المظالم ؟) وخرج ويليامز بالصورة الآتية : هادريانوس : تنسم قراراته بالعجلة والتسرع ونفاذ الصبر والفضب ازاء الفساد أو الرشوة خاصة فى مجال القضاء ، وكذلك الهياج عندما يكتشف أن موضوعا ما يضيع وقته الثمين ، أو أن موظفا قد أخل بواجباته العامة . كما كان أسلوب الامبراطور يكشف عن ثقته بنفسه بأنه قادر على اكتشاف الحقيقة عندما يستمع بنفسه الى الشاكى أو الشهود ويستجوبهم بنفسه ، وكان ينصح عامليه بالتروى وعدم الضرورة فى الالتزام الاممى للمقوبات فى ضوء الالباتات والادلة ، بل يجب الرجوع الى الضمير والحدس وهو بذلك يحاول فى اعطاء الثقة بالنفس لدى عامليه ، ويرفض ويليامز رأى سايم

R. Syme, Les empereurs romains d'Espagne (1965) p. 254.

بان هادريانوس كان متحاملا على اغنياء الاقاليم ومتحيزا ضد فقرائها ، لكنه يوصى فى احدى رسائله الى واليه فى مصر « أن يظهر تصرفا انسانيا ورحيما مع الفلاحين » عام ١٢٤ و ١٣٥ م بسبب عدم وفاء النيل وفاء كاملا ، ويشرح فى لهجة فلسفية طبيعة الاشياء التى تدور فى دورة : رخاء فجذب فرخاء جديد يولد من الجذب . ويتسم هذا الخطاب أيضا برغبة الامبراطور فى الحديث الى الفلاحين المصريين مباشرة دون وسيط وتكراره للفظ Philanthropeia أى الرحمة الانسانية وذلك فى أكثر من مكان ، كما أن أسلوبه يتسم بروح الفلسفة الصوفية الاغريقية ويرجع المؤلف أن يكون

قبل ، بينما بدأ موظفو الامبراطور ورجاله المخلصون يشغلون الوظائف

== ذلك انعكاسا للعرض الذي حاق بالامبراطور في ايامه الأخيرة . كما ان اهتمامه بمراسلات ديون المظالم يكشف عن عدالته وحساسيته التامة لانصاف المظلومين ايا كانت قوميتهم أو موطنهم ورغبته في تنمية الروح الفردية لدى موظفيه بإظهار ثقته فيهم وتحميلهم للمسؤولية انظر

P. Garnsey, Social Status and Legal Privilege in The Roman Empire, London (1970) p. 210-212.

كذلك فان الامبراطور هادريانوس كان يبدى اهتمامه لرسائل الاقاليم المثيرة للمشاكل والمظالم أكثر من رده على قرارات المدن التشريعية المتعلقة لشخصه وكان رده عليها يتم بالدبلوماسية والمجاملة مثل رسالته الى الاثينيين .

اما مراسلات أنطونينوس بيوس فيظهر منها الصرامة والحزم لكن مع الروح المرحية والميل الى السخريه والتهكم والاسلوب الساخر والنقد اللاذع وهى صفة تميزه عن سلفه هادريانوس ، ومن أهم ميول أنطونينوس الحرص على تطبيق القوانين بدقة واهتمامه الخاص برعاية الرقيق ، ويقول المؤلف ان دافعه في ذلك هو العقل والحكمة والتقوى وليس العاطفة الانسانية والميل الى اظهار الرحمة الانسانية انظر

G. W. Bowersock, Greek Sophists in the Roman Empire p. 34-40.

[J.R.S, LXI (1971), pp.53-63 (J. Nutton) كذلك انظر :

كما تبين رسالته احترامه لكل قرارات هادريانوس ، كما سار على نهج سلفه العظيم في رعاية وتنمية الثقافة الاغريقية وبسط حمايته على المدن الاغريقية من اجل رفاهيتها ورخائها اما الامبراطور ماركوس أوريليوس فقد كان شديد الميل الى طلب التفاصيل الدقيقة عن الموضوعات حتى ولو كانت تافهة ، كما كان لديه طاقة مدهشة في التحمل والصبر عند بحث الامور وهذا واضح من طول رسائله وردوده مثل رسالته بخصوص الخلاف بين هيرودس اتيكوس والاثينيين (والتي اشرت اليها في ص ٣٠٣ هامش ١) ، كما تظهر رسائله دقة وتطرفا في الحرص يبلغ درجة التقعر عند اختيار كلمات رسائله سواء باليونانية أو باللاتينية ، فأسلوبه شديد الرقى ومتزمت من ناحية الاسلوب واللفظ مما يعكس ثقافته الراقية وميله لاطهارها ، وسرا على نسق أسلافه كان يحرص ويؤكد على الرحمة والانسانية والانصاف والعدل (انظر ص ٢٧٣) وتكرار كلمة الضمير والوازع الاخلاقي والاخلاص يؤكد انه كان ذا ضمير يقظ وسلوك متعقل ورأى راجع سواء عند اصدار الحكم أو ابداء الراى .

اما الامبراطور كومودوس فيلاحظ المؤلف صمت الوثائق ويشرح ذلك بتقاعس الامبراطور وكسله . وعدم رغبته في ارهاق نفسه بالعمل أو حرصه على العدل والانصاف ، وبضيف ايضا ان صمت الوثائق يبين خوف عامله في الولايات من غضبه وميل الشرعين الى السكوت تجنباً لشروره . وللمزيد عن هذه المعلومات ارجع الى تفاصيل المقال :

Wynne Williams : Individuality in The Imperial Constitutions. Hadrian and The Antonines, *Journal of Roman Studies*, Vol Lxvi (1976) pp. 66-83.

العامّة والحساسة في الامبراطورية على حساب الوظائف الدستورية الرومانية والموجودة منذ ايام الجمهورية . فضلا عن عنصر الاستمرارية في سياسة الاباطرة الصالحين ، بعكس اباطرة القرن الاول الميلادي حيث اختلفت السياسة باختلاف شخصية الامبراطورية وقدراته الفكرية والعقلية .

ولكن اعتماد حكومات الاقاليم في نفقاتها على ما تتبرع به الحكومة المركزية ادى الى عواقب وخيمة ، فقد راحت سلطات الاقاليم تنفق الاموال ببذخ معتمدة على معونة الحكومة المركزية في حالة افلاس خزائنها المحلية . وهذا جعلها غير ملتزمة بمسئولية معينة تجاه الامبراطورية . ومن العوامل ذات التأثير المسمى اعتمادها في نفقاتها على تبرعات الاثرياء من ابنائها لمشروعاتها مما جعل بعضهم يسعى للحصول على وظائف حكومية صغيرة ذات رواتب ويهرب من المناصب الشرفية العليا خوفا من هول نفقاتها ولانها مكلفة ، ووجدت الامبراطورية نفسها في بعض الاحيان تسمى الى فرض الوظائف بالقوة على الاعيان من ابناء الولايات (١) وبهذا حرمت الاقاليم من خبرات اعيانها في وقت كانت في ميسر الحاجة اليهم لتطوير الاحوال فيها .

ان رخاء الاحوال عامة في الامبراطورية في القرن الثاني الميلادي لا يجعلنا نهمل حقيقة هامة وهي وجود تناقض كبير بين الطبقات الاجتماعية ، فبينما كانت الفيلات الفخمة والحالة تنتشر في الاقاليم كانت هناك الاحياء الشعبية القادرة في المدن ببيكانها الرعاع الكسالى والفضوليين ، والذين اعتبروا اصلاحات الاباطرة الادارية والتشريعية مثل مراقبة الاوصياء على القصر او الالتزام بتسجيل المواليد في دفاتر القيد تدخلا لا لزوم له في حياتهم

(١) حدث هذا في ولاية بيشينيا Bithynia عندما اجبر بعض الاغنياء على قبول عضوية المجلس التنفيذية انظر Pliny. Epistuale, X, 11 . وفي مصر فرضت وظيفة gymnasiarch (رئيس الجمنازيوم) بالامر على الاثرياء الاغريق وكذلك الوظائف الادارية الاخرى . انظر : cf. Ortel, Die liturgie

وكان لهذا الاتجاه عواقبه المريعة في مصر اذ بدا الهروب من تولى الوظائف الشرفية العامة واتجهت الحكومة الى تحميل الاغنياء اكبر قدر من الوظائف التي يشفقون عليها . من اموالهم الخاصة مما ادى الى اختفاء الطبقة الموسرة في الريف وتحولها الى طبقة معدمة وذعبت اراضيها الى الاقطاعيين الذين بدا نفوذهم ينتشر تدريجيا وبلغ مداه في العصر البيزنطي .

الخاصة ، ولكن بفضل الإباطرة الواعين الصالحين أصبح العالم الرومانى أكثر التزاما وأكثر احتراما للقوانين ، وأكثر ميلا لوضع الامور فى نصابها القانونى ، وبذلك تحول الجو العام الى وقار وانضباط واعتزاز بالواجب بشكل لم يسبق له مثيل .

ازدهار الثقافة والعلوم الاغريقية والرومانية :

لقد خلفت لنا هذه الفترة المزدعجرة من الامبراطورية الرومانية تراثا غنيا من الادب الاغريقى والرومانى . فلقد ادى السلام والرخاء الى انتشار العلم والثقافة وحب الفنون الجميلة . ولقد ادى عشق بعض الإباطرة الى الثقافة الاغريقية الى ازدهارها فى روما ذاتها ، وكان النثر والبلاغة قمة قمة الانتاج الادبى المكتوب بالاغريقية والذى غمر بلدان البحر الأبيض كلها ، ان الدليل على ازدهار اللغة والادب الاغريقى فى هذه الفترة هو كثرة عدد الكتاب والادباء الاغريق الذين ازدهروا فى هذا العصر ، ثم الى تفضيل المسيحية الى استخدام اللغة اليونانية كلفة الاناجيل والكتابات المبكرة لهذه الديانة التوحيدية فى مهدها . بل ان الامبراطور ماركوس اوريليوس نفسه فضل ان يكتب بالاغريقية مؤلفه الفلسفى الشهير « الى الذات » Ta Eis heauton وقد ترجمه الرومان الى اللاتينية تحت عنوان التأملات Maditationes .

ومن اشهر الادباء الاغريق فى هذه الفترة الاديب ايليوس ارستيديس Aelius Aristides (١١٧ - ١٩٠ ميلادية) والذى ألف خمسة وخمسين كتابا فى البلاغة والخطابة . ومن بين هذه الخطب البلاغية واحدة جعل موضوعها عظمة روما القاها ابان حكم الامبراطور انطونينوس بيوس ، وبها وصف الامبراطورية بأنها اتحاد مدن تتزعمه روما ، وقد تلقى ارستيديس تعليمه على يدى الخطيب الاثنى الشهير هيروديس اتيكوس Herodes Atticus (١٠١ - ١١٧ م) والذى عرف بثرائه (١) وتبنيه للمشروعات الادبية والفنية فضلا عن عبقريته . وقبل ذلك بقليل لمع اسم الاديب والمؤرخ ديو كروستوموس « ذو الفم الذهبى » Dio Chrysostomos (٥٠ - ١١٥ م) الذى كان صديقا لنرقا وتراجان والذى

P. Grandor : Un milliardaire antique, Hérode Atticus et sa Famille, (١)
(Cairo 1930).

ترك لنا مجموعة من الخطب قلد فيها أسلوب أفلاطون وديموسثينيس وهى عبارة عن مقالات قصيرة ذات موضوعات سياسية وأخلاقية .

ومن أشهر المؤرخين الاغريق الذين عاشوا ابان تلك الفترة بلوتارخوس {٦١ - ١٢٠ م} وكان رجلا مرموقا جاء من مدينة خايرونيا الشهيرة فى شمال اليونان حيث خلف تراثا غنيا فى الادب التعليمى ، يهدف الى مساعدة الناس فى الوصول الى حياة أفضل ، وكان بلوتارخوس معلما لولى العهد هادريان فى عهد الامبراطور تراجان الذى انعم عليه برتبة سيناتورية قنصلية . ولكن بلوتارخوس أثر أن يعود الى وطنه فى بلاد اليونان ليساهم فى ادارتها ولكى يكرس نفسه للكتابة باللغة الاغريقية .

ومن اعظم ما اخرجت عبقريته عمله الكبير « السير المتوازية لحياة مشاهير الاغريق » التى هى دروس فى السلوك والاخلاق وعبرة لمن يريد أن يعتبر وليست سوى تاريخ سير سجل أعمال هؤلاء العظام . وتتميز هذه السير الذاتية بالحيوية والانجذابية ، وساعدت على ملء الفراغ فى بعض جوانب تاريخ هذه الفترة وتزيد من معلوماتنا عن أحداثها وتفاصيلها . ولهذا صارت من المطالعات المفضلة لطالبي الثقافة عبر العصور .

ومن مؤلفاته الاخرى عدة مقالات متنوعة غطت مواضيع مختلفة أهمها الجانب الاخلاقى ولكنها شملت أيضا موضوعات فلسفية وأدبية ودينية وتاريخية وأثرية .

ومن العبقریات التى شهدها هذا العصر الاديب باوسانياس (حوالى ١٥٠ م) Pausanias الذى سلك طريق هيرودوت فى السفر والترحال من اجل المشاهدة والتسجيل ، وقد قام بعدد من الاسفار خرج بعدها مؤلفه الكبير « سباحة فى بلاد اليونان » الذى يقع فى عشرة اجزاء كاملة تحتوى على وصف دقيق لجغرافية اقاليم اليونان ، ولبيانها الشهيرة والمعابد الكبيرة واعمال الفنانين الاغريق فى كل جزء فيها . كما شمل وصف باوسانياس معلومات شتى عن العبادات والشعائر والاساطير والروايات الشعبية ، انه منجم غنى يذخر بالمعلومات الهامة التى يعتمد عليها الاثرى والمؤرخ وعالم الفنون القديمة على السواء (١) وقد كتبه باللغة اليونانية ايضا .

(١) لا تزال الترجمة الوحيدة المعتمدة هى ترجمة سير جيمس فريزر

James George Frazer, Sir, Pausanias Description of Greece, London 1898.

وهناك مؤرخ معاصر لبأوسانياس وهو أريانوس Arrianus البيثيني Bithynia (حوالي ٦٥ - ١٧٥ ميلادية) الذي قلد أكسينوفون وضاع أعماله على طريقته ، وهو الذي ترك لنا معلومات وفيرة عن الاسكندر الأكبر والتي بدوره استقاها من المصادر القديمة مثل كتابات أرسطوبولوس وبطليموس ، وبالرغم من وفرة معلومات أريانوس إلا أنه أخفق في تحقيق الجاذبية الأدبية والتاريخية التي يتميز بها أكسينوفون . وإلى جانب مؤلفه عن الاسكندر الأكبر كتب أريانوس وصفا لشواطئ البحر الأسود وجمع اقوالا ماثورة للفيلسوف الرواقى إبكتيتوس Epictetus والذي كان عبدا واعتق وعاش في الفترة ما بين عهد نيرون وعهد أنطونينوس بيوس لقد كان الفلاسفة الرواقيون والكليون يقومون برسالة التوجيه المعنوي والروحي للناس ولهذا كسبوا شعبية كبيرة في هذا العصر كرسل الهدى والخلاص لمن يطلبها من الفقراء والبائسين .

ومن أعظم مؤرخي القرن الثاني الميلادي المؤرخ المصري أبيانوس السكندري Appian of Alexandria (٩٠ - ١٦٠ م تقريبا) وكان أبيانوس موظفا مدنيا بروما ، أحس بالفارق الكبير بين الحياة المضطربة في عصر الجمهورية المليء بالحروب وبالسلام الروماني والرخاء في عصر الامبراطورية فكتب مؤلفه الكبير « التاريخ الروماني » الذي سجل فيه الحروب التي خاضتها روما منذ نشأتها حتى توحيدها دويلات البحر المتوسط في ظل الامبراطورية والسلام ، كما عالج الحروب الاهلية ولما كان أبيانوس معاديا لسياسة روما في عصر الجمهورية فقد دلل على ذلك بمصادر قديمة وهامة بعضها حقيقي والبعض الآخر مبالغ فيه ، وعلى أي حال يعتبر كتابه عن الحروب الاهلية مكملًا لمصادرنا الأخرى ، ووجهة نظر معترضة تكمل الصورة الشاملة من زاويتين مختلفتين .

وفي ذلك العصر أيضا عاش لوكياس الساموساتي (of Samosata) (١٢٠ - ١٨٠ م) ولوكيانوس معروف لقراء الادب الاغريقي بمحاوراته القصيرة ذات النقد اللاذع ، تسخر من الالهة ، والعظمة ، وجنون العصر ، وحماقته ، ومن الفسق ، والفجور ، بأسلوب حيوي جذاب يشد القارئ اليه ويسترعى انتباهه ، بالرغم من أنه لا يقدم بديلا ايجابيا للاشياء التي يسخر منها وذلك لان طابع التشاؤم يغلب على تفكيره .

هؤلاء هم رجال الفكر والادب الاغريقي فماذا عن رجال العلوم العلمية الذين نبغوا في هذا العصر .

يتلأ في هذا العصر عبقريتان في العلوم العلمية هما بطليموس ، وجالينوس البرجاموني Galinus of Pergamum حوالي ١٢٩ - ١٩٩ م وكلاهما اغريقيان . اما بطليموس فقد ألف عملا عظيما في الجغرافيا والتضاريس اعتمد فيه لأول مرة على الخرائط مما يدل على مدى تقدم هذا العلم عند الاغريق ، كما ألف عملا ثانيا ضخما عن « الفلك » يعتبر من أحسن الاعمال التي وضحت النجوم والنواكب ورصدت حركتها نتيجة للملاحظة الدقيقة وقد ظلت نظرياته قائمة حتى عصر النهضة الاوربية ، بالرغم من انه جعل الارض هي مركز المجموعة الشمسية كلها . كما أن نظرياته عن علم المثلثات القائمة على وتر الدائرة لا تزال الاساس الاول في علم الهندسة في العصر الحديث .

اما جالينوس فقد ذاع صيته كطبيب ماهر وعالم في وظائف الجسم او الفسيولوجيا حتى أن الامبراطور ماركوس اوريليوس استدعاه الى روما ليعمل كطبيب خاص له . وبالرغم من أن جالينوس مارس مهنة الطب بشغف الا انه وجد وقتا للبحث العلمي الاكاديمي فشرح الحيوانات وأجرى التجارب ودون الملاحظات وخرج بالنتائج التي ظلت المصدر الاول لدارسي الطب حتى اعادة اكتشافها وتصحيحها على يد الطبيب الانجليزي وليم هارفي في عصر النهضة (١٥٧٨ - ١٦٠٨) ، وقد تبين فيما بعد أن جالينوس قد أخطأ في بعض معلوماته الطبية مثل تحديد الدورة الدموية ويرجع البعض أن سبب الخطأ ناتج من استمداده المعلومات بعد تشريحه لحيوانات تختلف في طبيعتها عن جسم الانسان . وقد ألف جالينوس مائة مؤلف شملت موضوعات متنوعة ابتداء من التشريح والفسيولوجيا والعلاج الى القضايا الفلسفية والثقافية المتنوعة (١) .

اما عن عباقرة الفكر الروماني الذين كتبوا باللغة اللاتينية ، فيجىء على رأسهم الاديب والمؤرخ كورنيليوس تاكيتوس Cornelius Tacitus (٥٤١ - ١١٧ م) ، لقد تلقى تعليمه الاول في البلاغة والخطابة ولكنه استخدمها كوسيلة في كتابته للتاريخ وقد كتب تاكيتوس مؤلفيه العظيمين الحوليات (Annales) والتاريخ (Historiae) وهما من أهم المصادر التاريخية للفترة

ما بين موت اغسطس حتى نهاية عصر دوميتيانوس بالرغم من انهما لم يصلا اليها كاملين .

يقوم ففر تاكيتوس التاريخى على جوهر أخلاقى فى حين أنه يستمد مادته من مصادر سياسية من الدرجة الاولى . وقد نجح تاكيتوس فى كتابة تاريخه فى قالب مسرحى درامى يشد اهتمام القارئ ويعطيه صورة حية ومتحركة للحياة الرومانية ولخبايا القصور ودهاليز السناتو ، ومن الملاحظ ان تاكيتوس كان يخفى فى باطنه عدااء لحكم الفرد ، ربما نبع ذلك من تعاليم الرواقية التى عارضت الاتجاه نحو الانفراد بالسلطة ونظام الملكية الوراثية منذ أيام الفلافيين حيث كان يشغل وقتذاك منصبا اداريا . وقد اثر ذلك على تفكيره التاريخى بالرغم من انه كتب مؤلفيه العظيمين أيام نرفا وتراجانوس التى تعتبر ازهى عصور الامبراطورية الرومانية واكثرها اتزاناً وعدلاً . ولهذا يجب على المؤرخ المعاصر ان يتناول بالحذر كل ما قاله عن اباطرة الاسرة اليوليوكلاودية التى كان يشعر نحوها بعدم الارتياح خاصة ان تاكيتوس شوه صورة تيبيريوس لدرجة أضاعت معها الجوانب الطيبة فى شخص هذا الامبراطور .

ومن عباقرة الادب الرومانى الشاعر الهجائى جوفيناليس Juvenalis (٤٧ - ١٢٧ م تقريباً) وقد تلقى جوفينال (كما يلقب فى اللغات الحديثة) تعليمه أساساً فى فن البلاغة مثل تاكيتوس ، ولكن روحه الساخرة وسخطه الشديد على الفساد المنتشر فى عصره وفجور الحياة فى المدينة وطغيان الامبراطور دوميتيانوس وفجوره ، ودسائس النساء وسيطرتهن وفسق الاجانب وعبثهم ، جعلته يلجأ الى النقد اللاذع والهجاء الشديد الذى يميل الى المبالغة فى التحقير على حساب الحقيقة (١) ولكنه بالرغم من ذلك فهو طريف محبب الى النفس . وقد أصبح المثال الذى يحتذى به فى الادب الانجليزى فى العصر الاوغسطى .

ومن مشاهير الكتاب اللاتين فى تلك الفترة سويتونيوس ترانكويللوس Suetonius Tranquillus مؤلف حياة الاباطرة الاثنى عشر وهى منجم للأقاويل والشعائعات التى لا حد لها . وقد افاد سويتونيوس من عمله

(١) أنظر : مصطفى العبادى : جوفينال - دراسة لتطور شاعر نافذ - مطبوعات

جمعية الآثار بالاسكندرية (١٩٧٤) من ص ٥٠ - ٦٣ .

كمستول في شئون السياسة الرومانية لحين من الوقت في عصر هادريان مما جعله على دراية بالوثائق والاسرار التي لم يعرفها احد غيره .

ومن مصادر المعرفة عن هذا العصر مؤلف أولوس جيلْيوس (١٢٣ - ١٦٩ ميلادية) Aulus Gellius الشهير والمعروف باسم « الليالى الآتيكية » لقد بدأ جيلْيوس مؤلفه بكتابة مذكراته أثناء دراسته في مدارس اثينا الفلسفية وقد نجح هذا الاديب في تسجيل فقرات هامة من المؤلفات الشهيرة مناهير الفلاسفة والادباء ، التي بدونها ما كان العالم الحديث ليعرف شيئاً عنها ، كما أن موضوعاته متنوعة بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى ، كما تعكس مؤلفاته المناقشات التي كانت تدور في جلسات المثقفين في ذلك العصر .

كذلك لمع في سماء الادب والثقافة في القرن الثاني الميلادي عبقريتان تخصصتا في فن المراسلات الادبية أو الرسائل وهما بلينيوس الاصغر Plinius وماركيوس كورنيليوس فرونتو Marcus Cornelius Fronto أما الاول فقد عينه تراجانوس حاكماً على ولاية بيثينيا Bithynia وكان دائم الشكوى من وضع الاحوال فعبر عن ذلك بكتابات كثيرة الشكاية الى الامبراطور في شكل مراسلات شخصية يطلب فيها المشورة والمساعدة من القيصر ولحسن الحظ أصبحت هذه المراسلات مرآة صادقة للأحوال داخل الولايات الامبراطورية في ذلك العصر .

لم يكن بلينيوس يريد لمراسلاته أن تكون خاصة فقط بل أراد لها أن تنشر كمقطوعات أدبية تماماً مثلما كانت تقرأ مراسلات شيشرون الى صديقه اتيكوس ، لأن خطابات بلينيوس تعكس الجانب الادبي والثقافي للمجتمع الروماني في ذلك الوقت وتكشف عن التدقيق الراقى للأدب والفنون والانسانيات في لغة لاتينية سهلة وجميلة .

أما ماركوس كورنيليوس فرونتو فقد كان معلماً لمارتنوس أوريليوس ولوكيوس فيروس ، وكان محباً للأدب اللاتيني القديم ولاستخدام الالفاظ العتيقة التي كانت سائدة في آداب عصر الجمهورية وقد استعار منها فرونتو ولكن رسائله ليست ذات تأثير قوى على النفس نظراً لتفاهة الموضوعات التي تعالجها بل حرصه على الحالة الصحية للأسرة الامبراطورية وعلوه عليها .

كان فرونتو أفريقي الأصل تماماً مثلما كان الكاتب لوكيوس أبولايوس Lucius Apulsius (حوالى ١٣٠ م) . ويستر ، ضع أبولايوس مع طبقة

الكتاب التي حاولت تفهم الحاضر وتخيل المستقبل لتحلم به وترسم خدوطة
تماما مثلما فعل الادباء لوكيانوس وبثرونيوس . كانت لغة أبوليوس لغة
جميلة ذات رونق ونضارة بالرغم من انها كانت صعبة وغامضة في بعض
الاحيان ولكن تلك كانت اللغة اللاتينية العامة التي كان يتحدث بها خليط
الجنود والاجناس لكافة شعوب الامبراطورية والتي منها تولدت اللغات
الحالية الاوربية . ومن اهم اعمال أبوليوس كتابه « مسخ الكائنات »
Metamorphoses على نفس اسم مؤلف أوفيدوس الشهير ، ولكن
هذا المؤلف الطريف عرف باسم آخر هو « الحمار الذهبي » وهو عبارة
أودسا من المغامرات التي يقوم بها شاب اسمه اركيوس تحول الى حمار
بفعل السحر ، وظل على ذلك الحال حتى شفعب له الربة ايزيس الذهبية
واعادته الى طبيعته البشرية . ومن ثم أصبح احد نساكها وعبدتها في
روما . وما بين تحول لوكيوس في شكل الحمار الذهبي الى عودته لصورته
البشرية يحشد لنا المؤلف الكثير من المعلوم . . . رغبة عن الفولكلور الشعبي
الروماني والسحر والشعوذة والشعائر الدينية والشعبية والفسق
والفجور وغير ذلك من الهواجس التي كانت تسيطر على العامة من الرومان
والتي لم يكن يعرف عنها الطبقات المتعلمة شيئا ، لقد نزل أبوليوس الى
الدرك الاسفل من المجتمع الروماني ليأتى بتجسيد كامل لأفكارهم وعقلياتهم
ومعتقداتهم .

لقد ظهرت نتائج حكم الاباطرة الصالحين على الادب والفكر في
الامبراطورية . حقيقة لا نستطيع أن نقول أن هذا العصر أنتج شعراء عباقرة
مثلما أنتج عصر اغسطس وخفاؤه ، ولكن شاعرا مجهولا ألف أبياتا سرعان
ما تحولت الى اغنية يغنيها الناس . هذه الابيات القصيرة ليست مريرة
ولا ذعة مثل اشعار جوثيناليس او مارتياليس ولا حزيننة متشائمة مثل
مناجاة هادريان لروحه ولكنها ابياتا متفائلة بالحياة وبالحب وبالربيع
تنشدها مجموعة وليس فردا في لغة لاتينية سهلة تعكس الحالة
النفسية للناس في ذلك العصر وتقول كلماتها :

Cras amet, qui nunquam amavit ; quique amavit, Cras amet.

سيمشق غدا ذلك الذي لم يعشق أبدا

وحتى الذي عشق ، سيمشق غدا

ملامح التقدم الحضارى في المجتمع الرومانى :

من اهم ملامح التقدم الحضارى في الامبراطورية الرومانية ابان هذه
الفترة هو انتشار التعليم في كافة ربوعها واتاحة الفرصة امام كافة رعايا

الامبراطورية للحصول على قسط وافر من الثقافة دون تمييز وقد تبنى الاباطرة الصالحون هذا الاتجاه ، ويشهد بلينيوس بانتشار المدارس بكافة انواعها منها ما هو عام ومنها ما هو خاص ، لان الاباطرة الصالحين قلدوا فسباسيانوس عندما رفع رواتب المدرسين والاساتذة في روما والمدن الكبرى . واصبحت الدولة لأول مرة تشرف على التعليم وترعاه ، وفي عصر هادريان كوفىء المدرسون بأن اعفوا من الضرائب بكافة انواعها كما انتشرت المكتبات العامة في كل مكان مما سهل للبعض فرصة الاطلاع والبحث معتمدين على انفسهم . ولهذا ارتفعت نسبة التعليم بين سكان الامبراطورية بشكل لم يسبق له مثيل وانتشر انصاف المتعلمين او من حظو بقسط عام من التعليم لان هدف الدولة كان نشر التعليم العام بصورة تفوق بالطبع التعليم الرفيع الذى كان يحرص عليه فئة قليلة (١) .

وقد ظهرت علامات التقدم في الاتجاهات الفنية والمعمارية اذ اصبح الناس اكثر ادراكا بقيمة الاعمال الفنية التى خلدها الفنانون واصبحوا ذواقين لها ، ومن ثم ظهر الاتجاه العام نحو حب الاساليب الكلاسيكية والقديمة وتقليدها في الفنون والآداب . ونجد هذا الاتجاه واضحا للعيان في كتابات بلينيوس الذى حاول تقليد شيشيرون ، واريانوس الذى حاول تقليد اكسينوفون ، وبابوسانياس الذى حاول ان يقلد هيرودوت ، وفرونتو المتيح بحب الاسلوب والكلمات اللاتينية العتيقة .

ونادرا ما نحس بالتجديد والخروج على التقاليد الفنية والادبية القديمة مثلما لجأ الفنان الذى نحت وزين عمود تراجانوس ، كما جذبت الاعمال الفنية في عصر هادريان الضخامة وشغل الساحة والحشد الفنى واختيار ما هو اكثر نفعا او ما هو عملى . كذلك اصبح فن العمارة في تلك الفترة اتجاها عام يعكس الذوق الاغريقى روماني Graeco Roman في العمار ، فمثلا أصبحت المباني اكثر اتساعا ورحبة وضخامة واقل ميلا نحو الابتكار . لقد ساد الفن الروماني في تلك الفترة احساس بالعظمة Megalomania وهى عقدة تصيب شعوب الامبراطوريات في اوج عظمتها ، وهذه العقدة دفعت الفنانين الى تقليد الاعمال القديمة ولكن بصورة اكثر ضخامة ، واصبح هدف الفنان هو الضخامة وليس الفخامة ، الكم وليس الكيف ، فقد اقام تراجان أضخم ساحة عرفت بها روما وبني هادريان أضخم معبد في تاريخ العمارة الرومانية . فقط الاساليب الفنية

M.H. Ibrahim Graeco-Roman Education in Egypt From the first to (1) the Fourth Century A.D. According to Papyri. (dissert. Athens 1972).

R. Barrow, Greek & Roman Education inside The Ancient World, Cassington McMillan Education, London 1975.

والمعمارية من ايطاليا الى الولايات النصف رومانية وراح البرابرة يقلدون بجهالة الاساليب الرومانية بطريقة مشوهة حطت من اقدر الاصاله الفنية وسرعان ما لوئت السذاجة البربرية الجوهر الرومانى فحطت من قدر الفنون الاغريقو رومانية . ولكن بالرغم من هذا تعطينا فكرة عن تسلل الثقافة من روما الى اطراف العالم الرومانى بفضل انتشار التعليم .

تقدم فن الادارة والتوسع في وضع اللوائح والتشريعات التنظيمية :

لقد سادت روح التقنين كل شىء في الحياة في ذلك العصر كمحاولة لفرض منهج واتجاه قومى واحد حتى في القوانين والدساتير . لقد توسعت سلطات الامبراطور واصبحت احكامه ونصائحه وتفسيراته سوابق قانونية تصدر الأحكام على ضوءها ، فمثلا قديما كان الامبراطور يحكم بمجرد انه كان يملك حق الامبريوم الذي يخول له ان يكون القانون . اما في القرن الثانى فكان الامبراطور يصدر قرارات وتعليمات الموظفين ويجيب على اسئلة واستفسارات ويرد على خطابات وكانت رسوده ونصائحه واجاباته توضع موضع القوانين لكونها سوابق قضائية .

كذلك أصبحت سلطات السناتو قناعا آخر يرتديه الامبراطور . حقيقة كانت قرارات السناتو حسب العرف والقانون الرومانى لها قوة القانون بل هو الذي كان يسن القوانين في الماضي ، ولكن في القرن الثانى جرد السناتو من ذلك الحق بطريقة (١) دبلوماسية اذ أصبحت مشروعات القوانين تناقش أولا في المجلس الاستشارى *Consilium* الذي يكونه الامبراطور ومستشاروه ثم تعرض مسوداته على السناتو ليقرها دون اى تعديل أو اعتراض . هكذا أصبح الامبراطور وأحكامه مصدرا للقوانين . وكانت حجته في ذلك انه قد اختير بواسطة الشعب والسناتو وهما أعلى سلطة يستمد منها القوانين ، ومن دلائل تجمع السلطات القضائية وتمركزها في شخص الامبراطور انه أصبح الفصيل الاخير في القضايا وحكمه يبطل اى حكم يصدر من قبل اى محكمة قضائية ، اى انه أصبح لأى مواطن الحق في استئناف اى حكم صادر ضده الى الامبراطور شخصيا بدلا من بعض المجالس الشعبية في العصور الماضية والتي تداعت وغمرها النسيان في ذلك العصر . كما كان من حق الامبراطور الاشراف على المحاكم وتنظيمها

(١) وقد سبب هذا في بعض الاحيان مواجهة بين الامبراطور والسناتو . ورغم نجاح هؤلاء الابطارة . الا ان الخوف من تحول معارضة بعض اعضاء السناتو الى مؤامرات ظل يقلق راحة الابطارة تماما مثل تخونهم من انقلابات ضباط الجيش والحالين بالعرش .

واختيار بعض القضاة والمشرعين وتعيين بعضهم في مجلسه الاستشاري Consilium كل هذا أدى الى تجمع السلطات القضائية في شخص الامبراطور ، واثباتا لذلك طلب هادريان من المشرع جوليانوس وضع لائحة قضائية يسير على ضوء موادها المسئولون عن تطبيق القانون عرفت باسم اللائحة البرايتورية Edictum Praetoris .

ولقد وضعت هذه اللائحة من أجل تنظيم الاحكام القانونية واخضاعها لنصوص ومواد ثابتة تحقيقا للعدالة ، وحتى يكون هناك متخصصون للقانون المدني يستلهمون احكامه من واقع محدد وحتى لا يصبح القضاء العوبة لهواجس واحكام الهواة ولكي يصبح المسؤل عن العدل فقيها ومحترفا لا هاويا على دراية محدودة ببعض الثقافة القانونية .

كما لمس التغير التشريعي نظام المحاكم الجنائية لأول مرة منذ أن وضع سوللا نظامها وحدد شكلها الذي كان يعتمد على جمهرة المواطنين العاديين الذين يحضرون المحاكمة ويتحولون داخل قاعتها الى محلفين ، وابعادا لخطر الفوغائية عند اصدار الاحكام استبدل اباطرة القرن الثاني الميلادي هذا النظام بنظام جديد وهو أن يرأس الامبراطور المحكمة الجنائية بنفسه او عن طريق تعيين مندوبين عنه متخصصين في القانون الجنائي . ومن بشائر النهضة التشريعية وسيادة القانون أن ظهر لأول مرة مجلد يحوى نصوص مواد القانون المدني الروماني في صورة منهجية ومنطقية ذلك المؤلف الخالد الذي وضعه الفقيه الروماني جايوس Gaius .

لقد أدت هذه الاصلاحات الدستورية والاجتماعية الى حالة سلام روماني حقيقى ، ولأول مرة تحسن وضع العبيد والطبقات الدنيا ورعاع المدن . وقل عدد العبيد الا فيما يحتاجه اصحاب المزارع للعباد في ضياعهم كما ازداد عدد المعتقين ، أما من ناحية السلطات فقد بدأت تتركز في شخص الامبراطور ، وقد تفرغ الاخير لقضية السلام والسيطرة على الجيش وادارة السياسة الخارجية . وقد نجحت سياسة اللامركزية decentralization في تخفيف العبء عن الأباطرة من ناحية ، واعطاء الفرصة للكفاءات المحلية لأخذ مكانها خاصة أغنياء الاقاليم والولايات من ناحية أخرى . وبسبب سياسة الرومانية لاسكان الاقاليم الغالبية وبعض الولايات تحولت الامبراطورية الى اتحاد شعوب من أجل الرخاء ، وأصبحت المناصب مفتوحة أمام المتعلمين بصرف النظر عن العنصر العرقية ، ومن ثم جمشت شعوب كثيرة الرخاء في رضاء ، وسائد السلام وأمن بينهما ومن ثم تصبح شعوب كثيرة تحبون سادتهما وكلمات الأغنية معبرة فعلا .

تطور الفكر الدينى الرومانى :

لقد سادت العدالة والحرية فى ظل النظام الحكومى العاقل الذى حرص الاباطرة الصالحون على اقامته ونشره فى كافة ربوع الامبراطورية الرومانية ابان القرن الثانى الميلادى ، وتحقق للمواطنين حقوقا ومزايا لم تكن فى الحسبان ، وساد الأمن والطمأنينة وشعر الناس لأول مرة برعاية الدولة لهم . فمثلا كان هناك صندوق الخدمات والمعونات لابناء الفقراء والمعوزين ، واتيحت فرص التعليم أمام الناس فى كل الاعمار والطبقات ، ونجحت الدولة فى بناء الطرق المعبدة التى تربط بين اجزاء الامبراطورية . ونظمت الدولة المهرجانات العديدة والاعياد من أجل الترفيه عن المواطنين . وقبل كل شئ كانت الحكومة حريصة على خفض الضرائب وعدم زيادتها بحيث لم تتعدى ١٠ ٪ من دخل الفرد .

وفى مدن الامبراطورية المتعددة نشأت افاق العامة ومرافق الخدمات للفرد ، ووضعت نفسها فى خدمة المواطن . كل المدن التابعة للامبراطورية ابتداء من روما حتى كرانيس فى الفيوم نجد هناك الحمامات العامة والسوق العامة وغيرها من مرافق فى خدمة الفرد وسد حاجياته ، كما ساد الامبراطورية من اقصاها شرقا الى اقصاها غربا اقانون واحد وكفل لكل مواطن حقوقا واحدة .

ومن خلال تأمين الحدود من خطر البرابرة المهاجمين عاش رعايا الامبراطورية الرومانية فى هدوء بال وسلامة حال ، لا يقلقهم شئ على الاطلاق مادامت الحكومة تشغل بالها بمسئوليتها كاملة فى رعاية مواطنيها اجتماعيا وثقافيا .

وازاء هذا وجد الناس وقتا ليفكروا فى الجانب العاطفى الدينى ، وفى الروح والخلود ، ووجدوا تحت امرتهم كنوز الشرق الروحانية وعباداته المختلفة التى تشفى عطشهم النفسانى والروحانى ، وجد الناس ثلاثة عبادات تشبع متطلباتهم فى الفردية والخلود : وهى المسيحية ، وعبادة الربة المصرية ايزيس ، وعبادة الرب الشرقى ميثراس Mithras (١) والذى كانت عليه تقوم الديانة المشرية باعتباره رب النور والنار ، وهو رب فارسى الأصل انتشرت عبادته فى مقاطعات الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن عبادته فى القرن الثانى الميلادى انتشرت بشكل لا يمكن تصوره لا فى الولايات

cf. John Ferugson : The Religions of the Roman Empire Thames and Hudson (1970), Chapter XII, pp. 211-243.

الشرقية فحسب ، بل في ولايات الامبراطورية الغربية ، بل وفي داخل ايطاليا ذاتها ، حيث انتشرت الكهوف الصناعية التي كان يعبدونه فيها Mithraia والتي كانت ترمز الى الكون الارضى الذى فيه تظهر الروح الانسانية من آثام العالم وذنوبة لتعود طاهرة الى السماء كما جاءت الى الارض .

كان متراس رب النور والحكمة والشمس التي تبدد دياجير الجهالة والظلام ، وتطرد الشياطين ، ولهذا كان متراس في نظر عبادة بطلا مخلصا صور على الكهوف كشاب قوى في زى شرقى وهو ينحر ثورا قويا بكل هدوء كذلك لم يكن متراس صاحب النعم على البشر ، بل ايضا شفيعا لهم في يوم القيامة امام رب النور الاكبر اهورا مازدا huramazda بنى كان متراس في نظر عباده هو الذى ينظر في امر الارواح ويحاسبها على ما قدمت او اخرت ولكنه كان دائما في صف البشر محبا لهم (١) .

ولكى يمكن للفرد ان يدخل الى طائفة المثرية كان عليه ان يمر بثمانية مراحل من الاختبار الصعب فاذا صمد روحا وجسدا فانه يصبح واحدا من هذه الجماعة ويظل يترقى خلال سبع درجات حتى يصل الى الفئة العليا المسماة باباء الطائفة ، وقد انتشرت هذه العبادة بين الجنود لانها تناسب سيكولوجيتهم وحياتهم التي تعيش وسط الاخطار والمغامرات والتجول .

اما عبادة الربة المصرية ايزيس (٢) فلكانت اكثر عاطفية ورومانسية من عبادة ميثرا ، وكما هو معروف كانت ايزيس شقيقة لاوزوريس راما للطفل حورس وهو ثالث معروف . ومن وادى النيل انتشرت اسطورة ايزيس واوزوريس وكيف ان الشرير ست حقد على اخيه اوزوريس وبخدعة خبيثة قتله وطعنه اربا اربا ، وجابت ايزيس الحزينة البرية وهى تنوح على زوجها واخيها حتى عثرت على جثته وعن طريق السحر تمكنت من بشة للحياة مرة اخرى .

ويبدو ان ابولايوس كان احد النساك المتعبدين (٣) لايزيس لانه صور لنا في كتابه « الحمار الذهبى » كيف تمكنت هذه الربة من رد بطل القصة لوكيوس الى الصورة البشرية مرة اخرى . ومن خلال هذه القصة يعطينا

Ferguson, op. cit, pp. 47, 219 f.

(١)

(٢) لقد انتشرت عبادة ايزيس في شرق الامبراطورية وغربها حتى ان اقديس بولس من بعدد من معابدها على طول الطريق الذى سلكه وهو يشير بالفترة المسيحية . وعثر على معابدها في بربطانيا وحتى افغانستان من عبادة ايزيس . انظر :

R.E. Witt, Isis in The Graeco-Roman World, Thames and Hudson, 1971, p. 264.

ابولايوس صورة واقية للشعائر والاحتفالات التي كانت تقام لعبادة ايزيس، وكان عبدتها يعتقدون ان من ينجح في اختبارات التعميد والدخول في هذه العبادة سوف يصبح سعيدا في حياته الاخرى لانه سوف يحيا في الفردوس الابدي حيث يحكم اوزوريس العظيم . كذلك فان ذلك يعطينا صورة لانتشار الشعوذة والسحر وتغلغلها في عقول شعوب الامبراطورية في ذلك العصر .

ويجب ان نعترف ان عبادة ايزيس ومثرا قد اثرتا في المرحلة المبكرة لظهور المسيحية خاصة من ناحية الشعائر والممارسة (١) ، وبينما كانت العبادتان الوثنيتان السابقتا الذكر تنتشران بين المثقفين والجنود ، كانت المسيحية تنتشر بسرعة بين الفقراء المعوزين والمظلومين الذين يطلبون الخلاص من هذا العالم الظالم على يد ابن الرب في صورة البشر خاصة بين رعايا الامبراطورية في الولايات الشرقية .

لقد نظرت الحكومة الرومانية منذ ايام نيرون نظرة الشك الى المسيحيين، ولم يكن عدااء الاباطرة الصالحين لهذه الديانة الجديدة قائما على اساس اعتراض في العقيدة لان العصر كان عصر الحرية ، كما ان الرومان لم يتدخلوا في الديانات الكثيرة المنتشرة بين رعاياهم مثل اليهودية ، الا ان نقطة العداوة الوحيدة للمسيحيين كانت تنبع من منطلق سياسي وهو عزوف المسيحيين عن تقديم القرابين للامبراطور الروماني باعتباره الها ، وحرق البخور امام تماثيله مما اعتبره الاباطرة تمردا سياسيا على سلطنة الامبراطور والامبراطورية وقارنوا ذلك بتهمة الخيانة العظمى . ومن هنا نشأ الاضطهاد الديني للمسيحية باعتبارها دينا هداما للامبراطورية ولسلطة الامبراطور المقدسة . وبالرغم من ان الاباطرة الصالحين اغمضوا عيونهم عن نشاط المسيحيين الاول لدرجة ان الامبراطور تراجان كتب الى بلينى يعرفه بان استخدام المخبرين للتجسس على المسيحيين يعتبر عملا منافيا لروح العصر . الا ان ذلك لم يمنع حدوث بعض الاضطهادات ضد المسيحيين بتهمة العصيان والعناد العقائدي .

وازاء هذا الخطر الوثني نشأ اتحاد بين الجماعات المسيحية المبكرة دقيق التنظيم يوحد ما بينها ، اذ بدا سلك الكهنوت المسيحي في الظهور وبدأت الكنائس المستقلة والمتنافسة في الاتحاد فيما بينها والالتزام بنظام دقيق

(١) جدير بالذكر ان احدى رهبان القرن السادس عشر وهو الاب جوردانو برونو أعلن ذلك صراحة مما أدى الى حرقه حيا في ١٦ فبراير عام ١٦٠٠ م .

(٢) cf. M. L. W. Laistner, Christianity and Pagan Culture in the Later Roman Empire (Ithaca 1951), pp. 22. ff.

فمثلا كان يقود شعب الكنيسة او القداس شيوخ الكنيسة او القسس Presbyters الذين كانوا بدورهم يخضعون لسلطة الاسقف (Bishop) وكان الاساقفة بدورهم ملتزمين بسلطة كرسى « المطران » وكان كل مطران يشرف على منطقة جغرافية يحكمها من داخل مدينة كبيرة تعتبر مقر المطرانية الإقليمية .

وفي الوقت الذى كانت المسيحية تنظم سلكها الكهنوتى واللاهوتى بنظام حكيم وناجح كان المبشرون المسيحيون وكتاب الابولوجيا المسيحية يتعمقون فى جوهر الثقافة الفلسفية الاغريقية ويستخدمونها من أجل صياغة افكارهم الجديدة فى صورة قريبة الى تفكير الناس المشربين بالفكر الاغريقو رومانى وذلك لتسهيل نشر الافكار المسيحية .

ان روح العصر التى تتسم بالتسامح شجعت المسيحية على التبلور فى شكل عقائدى واضح الملامح مكتمل الشعائر لها منطلقها المقبول ، ونفضل فى ذلك يرجع الى حرية الفكر وحرية العبادات . فكل الشعائر الدينية فى ذلك الوقت كانت تمارس بحرية . بل وكان كل منها يستعير من الآخر ما يروقه دون أن يجد متزمتا يمنعه لا قولاً ولا فعلاً . لدرجة أن التشابه شديد بين هذه العبادات والشعائر الى درجة يصعب الفصل بينها .

لم يعرف هذا العصر شيئاً اسمه التعصب المذهبى او المنهجى او الفلسفى (١) حتى ان ماركوس أوريليوس الامبراطور الرواقى لا يجد حرجاً من أن يطالب بالحاح شديد نسخة من قصيدة الشاعر الابيقورى الرومانى لوكريتيوس ليقرأها والمعروف ان الرواقية والابيقورية متضادتين فى التفكير تماماً .

وربما نبع التسامح العام من رغبة اصحاب العقائد والجماعات الدينية فى التقارب واحترام الالهة المختلفة واعتبارها صوراً مختلفة لرب واحد للجميع وعلى استعداد فى مزج هذه العقائد فى عقيدة كبرى ولهذا وصف هذا العصر بأنه عصر المزج الدينى والفكرى Syncretism (٢) وفى نفس الوقت كانت الجماهير تتعطش لديانة اسمى تحقق لصاحبها الخلود الروحانى . وكان هذا ممهداً لانتشار الديانات التوحيدية فيما بعد على حساب الوثنية .

(١) نشر الاستاذ أوليفر حديثاً نقشا عشر عليه فى الاجورا الاتينية وقد انضح أنه جزء من خطاب موجه من الامبراطور ماركوس أوريليوس الى الشعب الاثينى وفيه يدافع بشدة عن سياسة صديقه هيروودس اتيكوس فى وجوب الحد من التوسع فى الامتيازات حفاظاً على روح المؤسسات الاغريقية وحتى تظل ابنا مركزاً للثقافة وينبوعاً للحضارة فى الشرق ولهذا يدعوهم للثقة بهيروودس اتيكوس وبذكرهم بكرمه وامانه ورعايته لاساتلة الفلسفة :
J.H. Oliver, Marcus Aurelius : aspects of Civic and Cultural policy in the East (Hesperia Supplement 13) Princeton, American School at Athens 1970. (cf. JHS, XCIII, 1973, p. 259-261).

Ferguson, op. cit., p. 211 ff.

(٢)

الفصل السابع

اندلاع الصراع بين قادة الجيوش على العرش عام ١٩٣ م وقيام حكم آل سيفيروس

كما رأينا عندما تعرضنا لكومودوس وحكمه ، يرجع نهاية نظام المواطن الاول الذى أسسه الامبراطور اغسطس الى سلوك كومودوس المشين واستهتاره المطلق، وجريه وراء شهواته وعشيقاته وجنونه بحلبة المصارعة؛ وصيد الحيوانات استعراضا لقوته التى جعلته يفخر بأنه هرقل الجديد . وازاء الكراهية نحو هذا الامبراطور الارعن ، فقد اعتمد كومودوس فى بقاءه على الحكم على قوة الحرس البريتورى ، وراح يشتري رضاها بأى ثمن ويطلق للجنود والقوات العنان ، بل كان يضحى بقيادة الحرس الامبراطورى عندما يستهلكون وعندما تزداد كراهية المواطنين لهم .

ولما حاولت شقيقته لوكيلا Lucilla التى كانت ارملة للوكيوس خيوس وامبراطورة ذات يوم ، أن تسترد لنفسها بعضا من سلطاتها التى فقدت على يد كومودوس بأن تدبر مؤامرة لقتله على يد ابن زوجها فى عام ١٨٣ ميلادية ولكنها فشلت ، لأن الفتى المكلف بدس الخنجر فى ظهر كومودوس غلبه التردد وهو يصرخ « ان السناتو يهديك هذا ! » (١) مما دفع الحرس الامبراطورى الى اللحاق بالفتى وانقاذ حياة الامبراطور فى آخر لحظة ، وبعدها بدأت الهواجس تستولى على خيال الامبراطور واصبح يرى فى كل من حوله متآمرين على حياته ، وبالطبع زاد ذلك من اعتماده على الجيش فى الحكم ولهذا زاد رواتب الجند . وترك الجبل على الفارب لقادة الحرس الامبراطورى الذين كانوا يعيشون فى البلاد فسادا .

وقد ادى انتشار الفساد ولهو الامبراطور الى افلاس الخزانة، ومن ثم بدا يتصيد الاغنياء والموسرين ويلفق التهم ضدهم طمعا فى مصادرة اموالهم وساد حكم الرعب والارهاب ، واصبحت تهمة الاشتراك فى مؤامرة للاتاحة بحكم الامبراطور سبغا مطلقا على رؤوس الوجهاء والاغنياء (٢) يسقط فى اى وقت ، وضاع الاحساس بالامن الذى ساد فى عصر الابطرة الصالحين .

Dio Cassius LXXII, 2.

(١)

Herodian, I

(٢)

واخيرا نجحت مؤامرة واحدة أدت الى اغتيال الامبراطور كومودوس .
تلك التى دبرتها محظيته ماركيا Marcia بمساعدة قائد الحرس لايتوس
وحاجبه اكلكتوس Eclactus عندما اوعزوا الى احد المصارعين بخنق
الامبراطور حتى الموت داخل حلبة المصارعة وهو يرتدى زى المصارعين .
وكان هدف المتآمرين هو منع الامبراطور من تجديد قنصليته للعام الجديد
والتي كانت ستصبح سارية المفعول فى اليوم التالى لمصرعه .

وهكذا خابت آمال ماركوس اوريليوس فى خليفته . بالرغم من ان
كومودوس لم يقضى نهائيا على المزايا التقليدية التى اوجدها الاباطرة الصالحون
من أجل حكم عادل وكفىء وتقبل سماع الشكوى ومنح حق الاستئناف
فى روما لاي متظلم وذلك بفضل حكام الولايات الرومانية الذين استمروا فى
سياستهم الحكيمة فى محاربة الظلم والاستبداد . ولكن تدهور الاقتصاد
فى الامبراطورية أدى الى نشأة العصابات وقطاع الطرق فى بعض اقاليم
الامبراطورية مثل اسبانيا وبلاد الغال ، بل وصل الحد بهذه العصابات الى
اعلان الاستقلال حيث انضم اليهم الهاربون من جنود الجيش والفلاحون
المعدمون الساخطون على الادارة المالية للامبراطورية ، فالجنود بدأوا يهربون
بعد ان اعياهم القتال والوباء . وبالرغم من مجهودات الجنرالات الموالين
لكومودوس فى قمع حركات التمرد الا ان الامبراطور لم يحرك ساكنا فى حل
هذه المشكلات مما دعى الى ارتفاع الاجور بشدة وانحدار الامبراطورية نحو
التدهور (١) .

الامبراطور بيرتيناكس Pertinax (١٩٢ ميلادية) :

كان المتآمرون قد اعدوا مرشحا لتولى العرش وهو هلفيوس برتيناكس
Helvius Pertinax وكان شيخا جاوز عامه السادس والستين ، وقد
اكتسبته حياته الطويلة فى مجال الحكم والادارة خبرة وكفاءة لادارة شئون
الامبراطورية ، كما اظهر منذ اول وهلة حمزا شديدا فى تطبيق القوانين ومراعاة
قواعد الالتزام من أجل ترتيب الاوضاع المنهارة خاصة الاقتصادية ،
وبسبب تبذير كومودوس لم يجد بيرتيناكس سوى مليون سستركيس فى
الخزانة العامة وهو مبلغ ضئيل ، ومن أجل ذلك أعد برنامجا يتضمن اصلاح
الاراضى البور بعد استغلالها وتخفيض الضرائب على الصادرات والواردات
وتخفيض نفقات الدولة العامة . وكانت هذه السياسة ناجحة ولكن لم تكن
لتعطى اكلها الا بعد وقت ليس بالقصير ، ولم يكن هذا الشيخ العجوز ليعيش
حتى يرى ثمار سياسته قد أينعت على النحو الذى كان يبغيه .

H.M.D. Parker : A. History of the Roman World from A.D. 138. (١)
p. 337, (2nd edition London 1958), pp. 26-51.

ولما كان بيرتيناكس كهيلا فقد كان عليه أن يعين خليفة حتى يقطع الطريق على الطامعين والمتصارعين ، ولكنه تلكأ في اتمام ذلك وكان لذلك عواقب وخيمة اذ ساد التزمزيم بين قوات الحرس الجمهورى ازاء سياسة شد الاحزمة على البطون من اجل اصلاح الاقتصاد لان ذلك يحرم هذه القوات من النعيم (١) الذى كانت تنعم فيه منذ ايام كومودوس ، ولهذا قرروا التخلص من ذلك الامبراطور بأى وسيلة ، ولم يكد يمضى اليوم السابع والثمانين على تولي بيرتيناكس الحكم حتى سارت قوات الحرس الجمهورى في مظاهرة عسكرية الى القصر وهجمت على الامبراطور وقتلته .

لقد كان الامبراطور بوبليوس هلفيوس بيرتيناكس من اقدم اعضاء السناتو ، وبالرغم من انه برز من ادنى الطبقات الاجتماعية الا انه تفرس في العمل العسكرى والسياسى كما شغل منصب برايفكتوس روما Praefectus وازاء ذلك نلاحظ ان السناتو لم يتردد في الموافقة على ترشيحه امبراطورا وأنعم عليه باللقاب الشرفية والسلطات القانونية المعتادة .

ولكن قد يؤخذ على برتيناكس انه كان العوبة سهلة في ايدى الذين اتوا به الى العرش او الذين اوعزوا باتياناه الى العرش . ولما كان بيرتيناكس رجلا ذا ضمير حى ومحبا للانضباط النظامى والالتزام بالسلوك الصحيح فقد بدا يضيق الخناق على رجال الحرس الجمهورى المتملقين ، وكما سبقنا اشرنا وضع لوائح اقتصادية قاسية من اجل انقاذ اقتصاد الامبراطورية من الانهيار . وازاء هذا التشدد والحزم فقد بيرتيناكس مؤيديه من الحرس البرايتورى ومن كبار الموظفين فى الجهاز الادارى وانتهى امره الى ما انتهى عليه حيث اغتيل على يد القوات البرايتورية فى الثامن والعشرين من مارس عام ١٩٣ ميلادية .

الفوضى تسود الامبراطورية

يشبه بعض المؤرخين الاحداث التى عصفت بالامبراطورية الرومانية بعد مصرع كومودوس بحالة الفوضى التى عمت بعد مصرع نيرون وهو ما نعرفه بعام الانقلابات العسكرية او عام الاباطرة الاربعة ، والذى انتهى بوصول فسباسيانوس الى العرش . وهذا حقيقى الى حد كبير لان جيوش الامبراطورية العسكرية خارج الحدود بدأت تتدخل فى اختيار الامبراطور

فكل جيش يريد ترشيح جنراله امبراطورا ، ولكن في هذه المرة ظهر سخط قوات الجيش على قوات الحرس البرائتورى ازاء استئثار الأخيرة بشئون العرش وعرضها العرش للمزايدة والبيع .

وقد استغلت قوات الحرس البرائتورى قيام منافسة بين عضوين في السناتو على تولى العرش وحدث ما يشبه بالمزاد العام الى ان فاز العضو الثرى واسمه ماركوس ديدىوس جوليانوس بعد ان عرض مبلغ وقدره ٢٥ الف سستركيس للحرس البرائتورى (١٢٥٠ دولارا امريكيا) وبالطبع رضخ السناتو لرغبة الحرس البرائتورى واذعن لارادته ووافق على الترشيح وانعم بالتشريفات والسلطات اللازمة وعاش جوليانوس منفلقا على نفسه ، بل ان ديو كاسيوس عبر عن مخاوف الناس منه عندما قال « لقد احوال السناتو الى قلعة مسلحة وكذلك مقصورته الخاصة حيث راح يردد « انا هنا . . هنا وحدى » (١) وكان على استعداد ان يفعل اى شئ » .

ولكن كما يقال : كان جوليانوس يملك من الاموال اكثر مما يملك من العقل والذكاء ، لانه اتى الى العرش بطريق الرشوة والوضاعة والاهانة ، ولهذا امضى فترة حكمه القصيرة معتكفا في روما ، محتقرا من السناتو ، ومحل سخريه وتخوف من الجماهير ، حتى ثارت قوات الجيوش الرومانية على هذا الوضع السيئ عندما ضاقت ذرعا بهذا الفنى الغبى المنبوذ .

ثارت قوات الجيوش الرومانية في الشرق الاوسط وفي سهل الدانوب وفي بريطانيا ، ورشحت اباطرة من عندها طمعا في مكافأة مجزية بعد الوصول الى العرش ، ويبدو ان جنرالات الجيوش كانت تحلم بالانقلاب حتى قبل تعيين جوليانوس ، لانه بسرعة هتفت قوات الشرق الاوسط بجنرالها جايوس بسكنيوس نيجر Gaius Pescenius Niger والى سوريا امبراطورا ، وردت قوات الدانوب بالمثل بأن هتفت بجنرالها وحاكم منطقة بانونيا Pannonia امبراطورا ، وكان يدعى بوبليوس سبتيميوس سيفيروس Publius Septimius Severus ، وفي نفس الوقت هتفت القوات الرومانية في بريطانيا بجنرالها كلاوديوس البينوس Claudius Albinus امبراطورا وكان البينوس من بلدة حضر منتوم في شمال افريقيا (٢) .

وكان لشخامة الجيوش اثر في رجحان كفة ميزان الصراع على العرش ، فمثلا كان البينوس يملك ثلاثة فرق ، بينما كان نيجر يقود تسع فرق فقط في سوريا ، اما سبتيميوس سيفيروس فكان يقود اثني عشرة فرقة فضلا عن تواجده بالقرب من ايطاليا .

Dio Cassius LXXIV, 12.2 ; 13-3.

(١)

Gilbert-Eharcles Picard, La Civilization romaine de l'Afrique du Nord, (٢)
Paris, 1959, p. 75 ff.

كان التأييد العام يميل نحو نيجر خاصة من جانب السناتو والشعب الروماني ، ولكن سبتيميوس سيفيروس كان أسرع منه في التصرف فدخل روما بقواته من الشمال و اضاف اسمه كشريك للامبراطور الراحل برتيناكس Pertinax ليلفى وجود جوليانوس القانوني والشرعى من ناحية ، ومن ناحية اخرى لى يظهر نفسه منتقما لمصرع برتيناكس ووريثا له كامبراطور صالح ، ولقد حاول جوليانوس مقاومة سيفيروس فى البداية ثم عاد فحاول الاتصال سلميا . ولما احست قوات الحرس الامبراطورى بتوايا سيفيروس هجرت جوليانوس وانفضت من حوله ، عندئذ لجأ جوليانوس متوددا الى السناتو ، وتحت الحاجة ورجائه أعلن السناتو أن سبتيميوس سيفيروس عدوا للدولة وخارجا على قوانينها ولكن ذلك لم يكن يخيف القائد العازم على اسقاط حكم جوليانوس . ووجد السناتو نفسه وقد قامر على جواد خاسر فأسرع يصحح خطاه . فأعلن تأليه برتيناكس الراحل وادانة جوليانوس والحكم باعدامه ورحب بسبتيميوس سيفيروس ووافق على ترشيحه وانعم عليه بالالقب التشريفية والسلطات القانونية المعتادة .

سبتيميوس سيفيروس امبراطورا (١٩٣ - ٢١١ م) :

وفى الفاتح من شهر يونيو عام ١٩٣ م سقط جوليانوس صريعا تحت طعنات أحد الجنود ودخل سبتيميوس سيفيروس روما منتصرا على رأس قواته . وبعد أن استتب له الأمر سارع بتوزيع المنح (Congiaria) والمكافآت على الجنود (١) وعلى الشعب ، وزاد رواتب الجند بمقدار الثلث تقريبا (٢) ولكى يرضى جهاز السناتو قلد الاباطرة الصالحين فى القيام بالقسم امامهم انه لن يتدخل فى محاكمة او اعدام اى عضو من أعضاء السناتو بل سيترك الامر كله للمجلس ليحاكم أعضائه بنفسه . وازاء ذلك اذعن السناتو لمطالبه ، وبجاءهم كل اتباع وانصار جوليانوس وقتلة برتيناكس من قوات الحرس الامبراطورى ، وامعانا فى ضمان الامن سرح سبتيميوس سيفيروس قوات الحرس الامبراطورى واستبدلها بقوة جديدة من جنوده المسرحين من جيش الدانوب قدرت ب ١٥٠.٠٠٠ جندي وبذلك ضمن لنفسه تأييد حرس جديد انتقاه بنفسه من جنوده المخلصين الذين يعرفونه ويعرفهم .

التخلص من أعدائه ومنافسيه :

كان على الامبراطور سيفيروس أن يتخلص من منافسه القوى نيجر

cf. Script. Hist. Aug., Severus, VII, 6-7.

(١)

T. Frank : Economic Survey of Ancient Rome, A, p. 86.

(٢)

والى سوريا ومن اجل ذلك هادن البينوس قائد بريطانيا واستدعاه ليتولى مهمة القيصر Caesar . وهو تعريف جديد قصد به ولى العهد المنتظر . ثم استدعى سيفيروس قواته الى الخدمة لمحاربة بيسكينيوس نيجر الذى كان قد ضمن لنفسه مبايعة الولايات الشرقية ، كما كان نيجر يحظى بموقع استراتيجى هام لانه يستطيع قطع القمح المصرى عن روما فتعرض روما خوفا من المجاعة . وكان نيجر قد بدا يتحرك عندما ارسل قوة احتلت مدينة بيزنطة ليتحكم ايضا فى مدخل البسفور والدردنيل . وما ان وصل سيفيروس الى مسرح العمليات حتى حاصرت قواته بيزنطة واحرقت انتصارين فى آسيا الصغرى على قوات نيجر الذى آثر الانسحاب الى سوريا والاحتفاء بجنوب جبال طوروس ، وفى عام ١٩٤ م لاحقه سيفيروس والحق به هزيمة ساحقة فى ايسوس فى نفس المكان الذى هزم فيه الاسكندر الاكبر دارا . ولما حاول نيجر الهرب الى بلاد البارثيين لحقت به جنود سيفيروس وقتلته . وفرت قوات نيجر للعمل فى جيش الملك البارثى فولوجاسيس الرابع .

كان سيفيروس (١) قاسيا فى الانتقام من المدن والقوات المؤيدة لخصمه، ولكى يعاقب هؤلاء الانتصار غزى شمال بلاد ما بين النهرين واحتل مملكة اوسرينى (Osroene) ، واقام مستعمرة فى نيسيبس Nisibis ، ويبدو ان سيفيروس حاول محاربة البارثيين لولا استدعائه العاجل لمواجهة خطر الانقلاب الذى قام به البينوس فى عام ١٩٥ م. اثناء غيابه فى القتال .

فى هذه الاثناء كانت مدينة بيزنطة قد استسلمت بسبب الحصار المنيع الذى ادى الى قيام مجاعة كبرى ، ودخلت قوات سيفيروس المدينة التى اراد لها القدر فيما بعد ان تراث روما نفسها ، وعاملها معاملة قاسية لم يسبق لها مثيل اذ امر بهدم اسوارها وقلاعها وقتل اعضاء حكومتها وحاميتها وصادر اموال مواطنيها ، وتحولت المدينة العامرة الى قرية تابعة لمدينة بيرنتوس Perinthus المجاورة لها .

سيفيروس يتخلص من البينوس :

كان البينوس مثل نيجر محبوبا من السناتو والشعب الرومانى . وقد لمس السناتو عندما جلس على العرش اثناء غياب سيفيروس انه رجل طيب القلب سليم الطوية فأحبوه ، وبدأوا ويملاون راسه بخبث سيفيروس، وانه سوف يقع قربا ضحية لغدره ، وقد ساعد على ذلك الحاح زوجته

(١) من الجدير بالذكر ان كلمة Severus تعنى باللاتينية القاسى .

عليه بالخروج عن طاعة سيفيروس من أجل ضمان العرش لابنائهما بدلا من ولدى سيفيروس ، وتجمع حوله عدد كبير من أعضاء السناتو وحملوا السناتو على تعيينه امبراطورا واعطائه لقب اغسطس Augustus ، وقبل البينوس التحدى بشجاعة وجمع قواته عند مدينة لوجدونوم Lugdunum (ليون الحالية في جنوب فرنسا) التي جعلها مقر قيادته ، ورد سيفيروس على ذلك بأن البينوس عدوا للشعب الرومانى عن طريق قواته في شمال بلاد ما بين النهرين ، ثم بعد ذلك أعلن تعيين ابنه باسيانوس Bassianus والذي عرف فيما بعد باسم كاراكالا Caracalla قيصرًا وولى عهد منتظر بدلا من البينوس ، واعطى باسيانوس اسما جديدا وهو ماركوس أوريليوس انطونينوس تمسحا في الاباطرة الصالحين ولكسب عطف الجماهير ، ثم بعد ذلك سار غربا للاقاة خصمه البينوس .

وفي فبراير عام ١٩٧ م واجهت قوات سيفيروس قوات البينوس بالقرب من ليون في صراع مرير انتهى بانتصار قوات الدانوب ولم يجد البينوس خيارا سوى ان يأخذ حياته بيده .

واظهارا لفضبه وانتقامه اعطى سيفيروس لقواته اشارة التأديب . فهاجموا ليون أغنى مدن الغال واكثرها رخاء ، وعملوا فيها نهبًا وقتلا وسبيا وهتكا ، ثم أشعلوا فيها النيران التي انت على معظمها . وازيحت لوجدونوم الشهيرة عن عرش الرخاء ، ولم تسترد رخاءها وجمالها الا بعد وقت طويل من هذه الكارثة .

وهكذا وجد سيفيروس نفسه اميرا لا ينافس في حكم الامبراطورية الشاسعة ، وادرك انه يتوجب عليه اقتلاع جذور المتآمرين في روما مستخدما عنفا بربريا لم يسبق له مثيل ، وراح يتعقب ويستأصل مؤيدي البينوس في بلاد الغال وفي ألمانيا وبريطانيا واسبانيا بلا رحمة ولا شفقة ، وفي روما كشف القناع عن نفسه للسناتو حين امر باعدام تسعة وعشرين عضوا من اعضائه بتهمة التآمر والخيانة العظمى . وساد الرعب والخوف ، وأذن المجلس لكل ما طلبه الامبراطور الهائج . ووافقوا على تعيين ابنه كاراكالا كخليفة منتظر (اى قيصر) وباسمه الجديد الذى استعاره له ابوه من أسرة آل انطونينوس ، وأعلن السناتو صراحة أن كاراكالا لبس الا امبراطورا منتظرا (Imperator Designatus) ، ولم بطل المقام بسيفيروس في روما اذ غادرها لاكمال فتوحاته ضد البارثيين .

الخصاع البارثيين (١٩٧ - ١٩٩ م) :

استغل الملك فولوجاسيس الرابع ملك الباثيين الصراع

حول العرش فاستولى على أرمينيا وشمال بلاد ما بين النهرين حيث حاصر قلعة نيسبيس Nisbis الرومانية ، ولما وصل سيفيروس مع قواته في شتاء عام ١٩٨/١٩٧ م تراجع البارثيون فرفعوا الحصار الذي كانوا قد فرضوه على القلعة الرومانية ، وانسحبوا الى بلادهم تلاحقهم قوات سيفيروس التي استولت على سيليو كيا على شاطئ دجلة ، ثم كتيشفون (طيسفون) نفسها عاصمة البارثيين ، وحاول سيفيروس مرتين الاستيلاء على حصن « هاترا » Hatra في اعالي سهل دجلة ، ولكنه فشل مثلما فشل تراجانوس من قبل ، وعلى اى حال ، امن سيفيروس شمال بلاد ما بين النهرين في يد الحكم الرومانى ، وجعلها ولاية مستقلة عاصمتها مدينة نيسبيس .

ومن اهم نتائج فتوحات سيفيروس في الشرق هو الحاقه الهزيمة بالبارثيين لدرجة جعلت امبراطوريتهم تتوارى وتنهار منذ تلك اللحظة وه عمل لم يقدر عليه من اباطرة الامبراطورية الذين سبقوه .

وقد قضى سيفيروس عامين يتجول في المنطقة زار خلالها مدن النهرى الاوسط ومصر التي تجول بين آثارها وركب النيل حتى طيبة حيث تفرج على تمثالى ممنون ، ويقال انه حاول ترميمها بسد الشقوق التي يدخل منها بخار الماء مما ادى الى توتنها عن احدث الصوت المشهور عند الفجر ، تم عاد بعائلته الى روما ٢٠٢ م ليقم اعياد النصر احتفاء بمرور عشرة سنوات على توليه العرش ، وانفق ببذخ مستخدما الاموال التي صادرها من اعدائه والتي كانت تدر عليه دخلا كثيرا لدرجة انه انشأ خزانة خاصة بالامبراطور *res privata* خاضعة له شخصيا ولا يحاسبه احد على التصرف فى اموالها .

اعماله واصلاحياته :

وبعد ان استتب الامر للامبراطور الجديد شعر الرومان بأنه مختلف فى عنصره وثقافته واصوله الاجتماعية تماما عن الاباطرة الصالحين ، ومن ثم لم يتوقعوا ابدا العودة الى الحكم العاقل السعيد (١) فهو فى نظرهم قد جلس على العرش بفعل القوة العسكرية ، ومن ناحية العنصر فهو افريقى المولد والاصل اذ ولد فى بلدة لبتس ماجنا Leptis Magna (لبتة) بمقاطعة طرابلس (Tripolis) فى ليبيا عام ١٤٦م . وهى جزء من ولاية افريقيا الرومانية Provincia Africana وأن اسرته فينيقية الاصل والثقافة

Script. Hist. Aug., Severus, IV,I.

(١)

(٢) أنظر ص ٦٧ .

لدرجة انه كان يتحدث اللاتينية ولكنه فينيقيه ، بل ان بعض افراد أسرته كانوا لا يتحدثون اللاتينية بتاتا ، ويقال ان اخته عندما زارته في روما أخرجته لعدم معرفتها اللغة اللاتينية فاضطر لاعادتها الى لبدة ولهذا يرى بعض المؤرخين فيه صورة خفية لانتقام هانيبال بعد مضي أربعة قرون من الزمان على هزيمة قرطاجة .

وبالرغم من عنصره الفينيقي الخالص الا ان سبتيميوس سيفيروس تلقى تعليما رومانيا وثقافة لاتينية حيث درس الفلسفة في أثينا والقانون في روما ، ووجد طريقه الى سلك الوظائف الرومانية عن طريق طبقة الفرسان التي كانت مفتوحة أمام هذه العناصر الأجنبية ، وتمرس في سلك الوظائف العليا تحت رعاية ماركوس أوريليوس الامبراطور والفيلسوف الراحل فتولى التربيونية ، ثم عين برايتورا في أسبانيا وحاكما على جنوب بلاد الغال ، وحاكما على بانونيا ودخل مجلس السناة وأصبح عضوا بارزا فيه الى جانب مركزه العسكري المرموق .

لقد كان سيفيروس طموحا متعطشا للسلطان والقوة شأنه شأن أجداده الشرقيين ، ومن ورائه تقفز زوجته الثانية جوليا دومنا Julia Domna السورية الاصل والتي كانت تنحدر من عائلة كبرى ثرية في حمص Emesa كانت تتمتع بمركز كهنوتي كبير ، وكانت زوجته مثله متعطشة للعرش وانجبت له ولدين هما باسيانوس واخيه جيتا . وهكذا شاءت الاقدار ان يسير قدر الامبراطورية الرومانية زوجان لا ينتميان للاصول الرومانية ، كما كان معظم افراد الاسرة اليوليوكلاودية ولا حتى للمقاطعات الايطالية كما كان ينتمى معظم اسرة الفلافية ، ولا حتى للولايات التابعة لروما مثل الاباطرة الصالحين ، بل ينتميان الى عنصر أفريقي سامي مما يعنى ان ذلك كان منعطفا خطيرا في تاريخ الامبراطورية الرومانية وبداية لانتهاى سيادة العنصر الأوربي عليها وبداية تولى العناصر الشرقية قيادتها .

ولكن بالرغم من ذلك أدرك سبتيميوس سيفيروس مزايا الاباطرة الصالحين فحاول ان يلصق نفسه واسرته بهم . فقبل ان يعود من الصراع مع الجنرال نيجر أعلن انه ابنا متبنا لماركوس أوريلبوس ، ثم أصر على ارغام السناتو على تأليه « اخيه بالتبنى كومودوس » ، بل انه كما سبق ان ذكرنا غير من اسم ابنه باسيانوس Bassianus (الذى اشتهر فيما بعد باسم كاراكالا Caracalla بسبب عشقه للعباءة الضيقة التي كان يرتديها الغاليون في بلادهم والمسماة بهذا الاسم) واعطاه اسما جديدا هو ماركوس أوريليوس انطونينوس ، الذى كان يعجب به أعجابا خالصا لا يمكن ان يكون

بدافع ربط أسرته بهذه الاسرة أو لهدف مادي كوراثه ضياع انطونينوس التى ضمها اليه ، وانما لانه كان يشاركه الى حد ما في الثقافة (١) والافكار الفلسفة التى اشتهرت بها زوجته السورية (٢) .

هكذا كان سيفيروس شديد الاعجاب بسلفه ماركوس اوريليوس ، وليست من باب ربط أسرته باسرة هذا الامبراطور الفيلسوف أو طمعا في وراثته ضياعه الشاسعة ، بل لمجرد اعجاب يصل الى درجة البتوة الروحية ، ومن ثم نسب أسرته الى اسرة آل انطونينوس ، بل اطلق لأول مرة على هذه الاسرة الكبرى آل البيت المقدس (٣) .

كانت عقلية سيفيروس مزيجا من البيروقراطية والسكورية بالاضافة الى واقعية التفكير السياسى المدرك لمشاكل العصر وخطاره ، ولقد اظهرت سياسته الداخلية اهتماما لم يسبق له مثيل لمصالح الرعايا الذين يعيشون بعيدا في الولايات ، خاصة فيما يختص بمشاكل الادارة والحكم ، ولا يغيب عن اذهاننا ان سبتيميوس سيفيروس نفسه كان ينتمى الى احدى شعوب الولايات الرومانية ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن ذا اتجاه قومى معين أو حاقدا على العنصر الايطالى ، عند توزيع مهام الادارة والعمل ، بالرغم من انه اتهم بأنه لم يحمل شعورا وطنيا للامبراطورية بقدر ما حمل لولايته الاصلية في افريقيا .

لقد عزم سيفيروس بعناد شديد على تغيير وتطوير هيكل نظام حكم المواطن الاول معتمدا على خبرته الطويلة بالشئون العسكرية والادارية بالاضافة الى ذكائه الخارق وفولاذية ارادته ، ولقد بدا بوضع اساس مقدس للاسرة الحاكمة التى قرر ان يقيمها معتمدا على الاعزاز لجنوده لاعلان ما ترغب فيه نفسه . فأصبح الامبراطور رسميا يعرف باسم المولى (Dominus) وروما مقر قصره تعرف بالمدينة المقدسة . (Urbs Sacra)

حقيقة اننا لا نشك في ان هدفه الحقيقى والخالص كان حل مشاكل الامبراطورية وشعوبها ، ولكنه غير مجرى نظام الحكم من اساسه ليتخذ

(١) cf. Script. Hist. Aug., Geta, 2.

(٢) Ibid. Severus, XVIII, 5.

(٣) T. Frank, op. cit., Volume I, p. 78.

بينما يرى روستوفتزف عكس ذلك :

Rostovezeff, op. cit., i, p. 157.

Grant, op. cit., pp. 56-59.

(٤)

طابع الأوتوقراطية العسكرية أو الحكم العسكري الانفرادى والمطلق . وربما كان هذا السلوك هو الحل الأمثل للمشاكل التي عاصرها على ضوء اتجاهه الواقعي في السياسة .

كان وجهة نظر سبتيميوس سيفيروس هي أن الرومان والإيطاليين قد تمتعوا بالحكم طويلا وأن الوقت قد جاء لكسر هذا الاحتكار ، ويسمح لسكان الولايات التي انتشرت فيها الثقافة اللاتينية بالتمتع بهذه الحقوق التي حرموا منها منذ وقت طويل ، ولكي يحقق ذلك اتبع طريقتين الأولى هي تقليد أظافر إيطاليا وشوكتها والاقبال من امتيازاتها السابقة ، وفي نفس الوقت عامل الولايات بلا تمييز لكي تصل إلى نفس الوضع المادي والمعنوي الذي كانت عليه إيطاليا ، فمثلا فرض لأول مرة على إيطاليا تواجد قوات من الجيش على أرضها وبالقرب من روما مثلها في ذلك مثل أي ولاية رومانية أخرى ، أيضا ألغى احتكار تحنيد القوات البرايتورية من بين الرومان والإيطاليين وفتح أمام سكان الولايات الراغبين في ذلك حتى يكسر سيطرة الرومان والإيطاليين على هذه القوات التي كثيرا ما كانت تصنع الإباطرة ، وبالرغم من هذا يحرم سيفيروس الإيطاليين من حق العمل في هذه القوات بل استمروا يعملون بها حتى ألغيت تماما في بداية القرن الرابع الميلادي . أيضا منح سبتيميوس سيفيروس لبعض سكان الولايات الحق الإيطالي . وهو حق يعطى سكان هذه المقاطعات نفس الامتيازات الاجتماعية والتشريعية للرومان داخل إيطاليا وبذلك ساوى ما بين سكان كل الولايات الرومانية بما في ذلك سكان إيطاليا في الحقوق والواجبات ، وأعطى اهتمامه الأول بالطبع لولاية أفريقية وولاية صقلية . كذلك كسر احتكار الرومان والإيطاليين لعضوية السناتو وفتحها أمام جميع سكان الامبراطورية حتى أن الإيطاليين لم يعد يشغلون سوى ثلث المجلس وأصبح ثلثا مقاعده يشغلها شيوخ من أفريقية ومن أسبانيا وآسيا الصغرى وألمانيا ، ولا يمكن أن يؤخذ ذلك على سيفيروس ، بل على العكس يعتبر ذلك امتيازاً له لأنه حطم الطبقة السياسية العازلة بين الإيطاليين وأشقائهم في المواطنة في الولايات التابعة للامبراطورية . وهدم كل أعمال هادريانوس الذي حاول بها أن يجعل بين الولايات الغربية وبين الولايات الشرقية فاصلا معنوياً .

اعتبر سبتيميوس سيفيروس الجيش هو جوهر السلطة والحكم ومصدرها في كافة أنحاء الامبراطورية ومن ثم أعطى الجنود وضعاً متميزاً . فبدأ بذلك عهد الأوتوقراطية العسكرية ، ولهذا اتهمه المؤرخون الأوروبيون المتطرفون بأنه « أول من زرع دكتاتورية الشرق في تربة الغرب » وهو اتهام

(١) يظهر هذا الاهتمام في تحصين بلدته ليس ماجنا بالقلع على طول حدودها الجنوبية وعلى مساحة قدرها ٢٠٠٠ كم انظر :

مجحف . لأن الدكتاتورية العسكرية كانت ستقوم سواء جاء سبتيميوس أم لم يجرى .

ولعله لم ينسى أنه كان مدينا إلى الجنود في الجلوس على العرش وفي هزيمة منافسيه في الحكم . ولهذا كان يثق في قواته ويجذب أن يجتمع بها ويناقش معها مشروعاته السياسية ويحصل على موافقتها قبل عرض هذه الأمور المدنية الخالصة على السناتو . وكانت قواته هي لسان الحال أفكاره فهي التي أعلنت أن الجنرال البيئوس عدوا للشعب الروماني وهي التي نادى بأن يكون كاراكالا قيصرًا ووريثًا للعرش ، وأعادت إلى كومودوس وضعه المؤله الذي حرم منه ، كل هذه الأمور عرضت على القوات ووافقت عليها قبل أن تعرض على السناتو أو حتى يعلم بها . كما كان كريما متسامحا حتى مع أعدائه فعندما أقام المصريون تمثالا لمنافسه نيجر بعد هزيمته لـ يفضب وطلب أن يترك هذا التمثال ليدرك الناس أن عظمة المنتصر من عظمة المهزوم . واعترف قائلا لقد كان حقار جلا عظيما (١) .

ومن المزايا التي حصل عليها الجنود في عهده زيادة كبيرة في الرواتب بلغت مقدار الثلث بحجة تعويضهم عن زيادة الأسعار التي ارتفعت كثيرا في عصر كومودوس . كما أنه فتح أبواب الوظائف المدنية أمام العسكريين (٢) وسهل لهم الترقيات ومنحهم امتيازات بعد التسريح من الجيش . كما سمح للجنود بفلاحة الأراضي الواقعة حول المناطق التي كانوا يعسكرون فيها ، وأنشاء القرى المسلحة والدفاعية وهذا يجرى على النقيض من سياسة هادريان التي حرمت أى عمل زراعى على الجنود حفاظا على تدريبهم ولياقتهم العسكرية ، وهناك أدلة كافية على قيام مثل هذه القرى المسلحة التي يسكنها الفلاحون المسلحون في مناطق عديدة حول حدود ألمانيا وتركيا وفي أفريقيا .

كما زاد سبتيميوس سيفيروس من كفاءة الجيوش القتالية بتشجيع التخصص المهني والفنى في أنواع الأسلحة ، ودفع الفرسان لتولى قيادة هذه التخصصات الجديدة وانتزاع المراكز القيادية من أعضاء السناتو نظرا لتدهور الروح العسكرية عند هذه الطبقة الأخيرة ، لدرجة أن سيفيروس وضع قيادة الفرق الثلاث التي أعدها لخوض الحرب ضد البارثيين تحت

(١) Script. Hist. Aug. P. Niger, XII, 6-7 ; Dio Cassius LXXVII. 3.2.

Rostovtzeff, op. cit., I, 403.

(٢)

قيادة قواد من طبقة الفرسان ، بل انه عين رجالا عسكريين من طبقة الفرسان لتولى حكم بعض الولايات التابعة للسناتو وقيادة قواتها . وهذا تحطيم للتقليد الطبقي الرومانى الذى كان متبعاً بدقة منذ ايام اغسطس ، كما اعتنى بضباط الوحدات الادارية ، وباختيار ابناء قادة المائة فى هذه الوظائف العسكرية الغير عاملة حتى يمكن تعبئتهم عند الحاجة . كذلك انشا سبتيميوس قوة عسكرية متحركة يقودها بنفسه للعمل بسرعة فى اى منطقة من الامبراطورية ، وفى عهده زاد تعداد الجيش من ثلاثين الى ثلاثة وثلاثين فرقة ، كما انه وضع فرقة من الجيش بالقرب من روما وكان يهدف بذلك الى انذار الذين قد تراودهم افكارهم بالثورة والاطاحة بالامبراطور والقضاء على اى معارضة لسياسته او اتجاهاته .

وفى عهده تدفق الجنود المسرحون (Veterani) على الوظائف فى الولايات ، واصبحوا صرا هاما فى ادارتها ، وشغل الضباط الصفار الكثير من الوظائف التى كان يشغلها رجال طبقة الفرسان فى الماضى بعد احوال هذه الطبقة الاحيرة محل طبقة السناتو .

واخيرا انعم سيفيروس على الجنود بحق القيام بعقد زواجهم اثناء تأديتهم الخدمة العسكرية والاعتراف بشرعية الابناء الذين يولدون من هذا الزواج (ex castis) ، بل وسمح للجنود المتزوجين بحق الاقامة مع عائلاتهم بالقرب من المناطق التى تعسكر فيها القوات التابعون لها .

وهكذا أصبح الجيش الرومانى لأول مرة ممثلا لكل شعوب الامبراطورية خاصة الفقيرة والكادحة عن طريق فتح التطوع امام الجميع ، وذلك يتفق وسياسة سيفيروس فى مناصرة الولايات وتغليبها على روما او ما يعبر عنه فى الانجليزية Provincialization نتيجة لاعطاء الطابع القومى الرومانى لهذه الولايات البعيدة التى كان الرومان ينظرون الى شعوبها قديما نظرة الوضاعة وانهم غنم تجز اصوفها لصالح الامبراطورية فقط . وفى نفس الوقت اكتسب الجيش الجديد ثقة مطلقة فى نفسه واحس الجنود لأول مرة منذ ايام الجمهورية بأنهم ارقى وضعا من المدنيين . ويرى البعض ان هذه الامتيازات منحت اجبارا لا اختيارا وتحت دافع الحاجة الى تأييد الجيش للحكم (١) ولم يعد الامبراطور قادرا على منح فرقة معينة امتيازاً خاصاً دون الاخرى كما كان يحدث ايام اغسطس (٢) .

Rostovtzeff, op. cit., p. 403.

(١)

cf. Parker, op. cit., p. 222.

(٢)

وس التجديدات التي أحدثها سيفيروس (١) تعيين قائدين لفوات الحرس البرائتورى بدلا من قائد واحد . وقد وصل سيفيروس الى هذه النتيجة بعد تجربته مع قائد قواته البرائتورية جايوس فولفيوس بلاوتيانوس Plautianus والذي كان مثل الامبراطور أفريقى المولد بل من نفس بلدته وقد استغل بلاوتيانوس زمالته للامبراطور في تدعيم مركزه . اذ حصل على مقعد في السناتو ثم تولى القنصلية وبدأ يسر على نهج سيانوس أيام تيبيريوس فنظم زواج ابنته بلوتيللا من كاراكالا ابن الامبراطور بالرغم من معارضة الامبراطورة جوليا دومنا لذلك .

وفي عهد بلاوتيانوس ازدادت مسئوليات وسلطات قائد الحرس الامبراطورى اذ أصبح يشرف على حصص القمح التموينية Annona كما أصبح ينظر في القضايا المدنية الواقعة على مسافة مائة ميل من موطن العاصمة ، ونزع هذا الحق من القضاة السيناتوريين الذين أصبحوا ينظرون في قضايا الاقاليم فقط ، وأصبح قائد الحرس يقوم بالاستماع الى قضايا الاستئناف والفصل فيها باسم الامبراطور . وألغى محاكم المحليين في القضايا الجنائية وأصبح هو وحده الذي يفصل فيها .

وقد أزعج تضخم مركز بلاوتيانوس كل من الامبراطورة جوليا دومنا وابنها الامير كاراكالا فدبرا مؤامرة للقضاء على بلاوتيانوس عام ٢٠٥ ميلادية ، ولما أنكر بلاوتيانوس تهمة الخيانة العظمى التي وجهها اليه كاراكالا دبر الاخير مقتل قائد الحرس في حضرة الامبراطور سيفيروس نفسه .

ومنذ تلك اللحظة قرر الامبراطور تفادي ما حدث بتعيين قائدين لقوات الحرس البرائتورى بدلا من قائد واحد حتى يراقب كل منهما الآخر ، وكان من بين قائدى الحرس البرائتورى اللذين عينهما سيفيروس أحد اعلام التشريع والقانون الرومانى وهو بابينيانوس Papinianus ، كما ضم الى مجلسه الاستشارى اثنين آخرين من شيوخ الفقهاء القانونيين هما باولوس . وأولبيانوس Ulpianus ، ومن الطريف ان كلا من بابينيانوس وأولبيانوس كانا سوريين متشبعين بالثقافة الهلينية الشرقية بالاضافة الى تعليمهم

(١) من المراجع الحديثه عن صور سبتيوس سيفيروس انظر :

A.H. MacCann, The Portraits of Septimius, (A.D. 193-211), Severus, American Academy in Rome, 1968.

كذلك انظر المقال الممتع :

Balty, J. Unprototype officielle dans l'iconographie de Septime Severe, Bulletin de l'Institut historique Belge de Rome, 33 (1961) p. 101-113.

الرومانى . وكان من نتيجة حب سيفيروس لرجال القانون ان اقامت نزعة تشريعية كبيرة اكسبت القانون الرومانى روح العدل الاجتماعى (١) وتهدف الى حماية الضعيف الفقير من المستبد الغنى خاصة ان قام فى هذه الفترة استغلال سياسى من جانب الاغنياء (humiliores) وذوى الجاه او الوجهاء على حساب المعدمين ذوى الاصول الوضيعة (honestiores) ، ولأول مرة نسمع عن تعيين مدرسين لتعليم اهل القرى . كما وضع سيفيروس عدة لوائح انسانية مثل تحريمه الاجهاض وحمايته لحقوق الزوجات ورعاية الاسر الفقيرة . وفى عهده وزع الدواء مجانا على المرضى باشراف الطبيب جالينوس (٢) . ولم يكن سيفيروس اشتراكيا لكى يحطم هذا الحاجز الاجتماعى ولكن اعتماده على الجيش فى فلسفة حكمه هو الذى جعله يفعل ذلك . اذ ان الفقراء وحدهم هم الذين كانوا يقبلون على العمل فى الجيش بعد تنظيمه الجديد .

لقد كانت مشكلة الامبراطورية الرومانية الاقتصادية هو تملق حكامها على الجيش والفوغاء المعانسة . فبالنسبة للجيش منحوه الرواتب العالية والمكافآت ، وبالنسبة للفوغاء اعفوا ببذخ لنسليتهم بالمهرجانات والالعب واوجدوا المشروعات الكبرى لكى تمتص الايدى العاطلة . وبالنسبة لفوغاء روما منح اباطرة هذه الاسرة النفائح Congiaria المالية فى المناسبات وللعسكريين أيضا كل هذا ارهق الخزانة وافلسها .

لقد انفق آل سيبورس الاموال التى جمعوها من الممتلكات المصادرة للفوغاء الكسالى المستعدين للبطالة والتكفل بالانفاق عليهم ومنحهم الهبات وهى مشكلة - يمة برزوا على مسرح السياسة الرومانية منذ ايام الاخوين جراكوس وحاول قيصر (٣) ان يقلم اظافر الفوغاء بتحديد اعداد قواتهم المستفيدين من مشروع القمح الرخيص . وكذلك فعل اغسطس . ولكنها عادت وظهرت مرة اخرى بصورة اخطر لدرجة ان تراجان انفق اكثر من ثلث غنائمه التى جلبها من داكيا على هؤلاء الفقراء الكسالى (٤) .

وكانت النتيجة تضخم العجز فى الاقتصاد الرومانى لدرجة رهيبة ابان القرن الثانى الميلادى . فقد ظهر ماركوس اوريليوس فى ضيق مالى

cf. Rostovtzeff, op. cit., I, p. 405. (١)

cf. M. Grant, op. cit., p. 81-82. (٢)

T. Frank, op. cit., I, 242, p. 312. (٣)

Ibid, vol, V, p. 68. (٤)

شديد بالرغم من أن هذا الامبراطور العاقل رفض أن يثقل كواهل الناس
بضرائب جديدة (١) بالرغم من أنه اضطر الى منح التفاع Congiaria
سند عودته الى روما بقدر أكبر مما تعود الفقراء عليه .

لكن والحق يقال اطلق سيفيروس يد مشاهير فقهاء القانون من امثال
بابيانوس واولبيانوس وباولوس لتحقيق احلامهم في وضع التشريع
الانساني العادل من أجل اسعاد شعوب الامبراطورية دون أي تفرقة
أو تمييز .

دعم الجهاز الاداري والتنظيمي لمواجهة بؤابر الانهيار :

يتسم عصر سيفيروس بازدياد رقابة الدولة على الجمهور ومصالحة .
وذلك عن طريق اجهزة ذات طابع عسكري بحث ، بل وعلى التنسيق العسكرية
ذاتها . فأصبحت الدواوين العامة او المصالح الحكومية عسكرية الطابع
خاصة وان الموظفين الذين كانوا يشغلون هذه المكاتب كانوا مسرحين من
الجيش بعد الخدمة العسكرية .

ولاول مرة تحدث فقهاء العصر عن الخدمات العامة وواجبات الجماهير
ازاء الدولة وعن حقوق اصحاب المهن الحرفية Collegia وصغار
التجار - خاصة الذين يختصون بالمواد الاستهلاكية - في تكوين نقابات .

وفي الاقاليم كلف اعضاء المجالس البلدية من الوجهاء والاعيان بالاشراف
على جمع الضرائب ، وحملت المجالس الاقليمية مهام جديدة في الإدارة
ومسؤوليات مدنية معينة مثل مكافحة الحرائق ، وفرضت عليهم رقابة
دقيقة لضمان تنفيذ هذا التكليف وعدم التهرب منه . ولما كان سيفيروس
عسكري النظرة والمزاج فقد دفع سياسة الاتجاه نحو الحكم المحلي
واللامركزية دفعة قوية لم يسبق لها مثيل منذ بداية الاتجاه نحو تلك
السياسة منذ قرن سابق من الزمان تقريبا .

ومن العوامل التي ساعدت على تضخم شخصية سبتيميوس
سيفيروس التدهور الاقتصادي المفاجئ في الامبراطورية الرومانية مما دعا
الى اتخاذ سلطات فوق القانون لمواجهة هذا الانهيار ، وبالفعل نجح في
تحسين وضع الاقتصاد قليلا وذلك عن طريق زيادة الضرائب ، ولكن
التدهور غطى على هذا الاصلاح لاننا نجد الامبراطور يضطر الى تخفيض
قيمة العملة الرومانية بتخفيض نسبة الفضة والذهب فيهما وتقليل وزنها .

لقد فرضت عليه الظروف الحرب والقتال ، لأن قوى خفية أقوى من ارادته هي التي وضعت في ذلك الموقف ، ففي خلال فترة حكمه البالغة ثمانية عشر عاما لم يسد السلام سوى في ست منها فقط ، وبالتالي عانت الامبراطورية وولاياتها من جراء هذه الحروب ، حتى ولايتا أفريقية وسوريا الولاياتان اللتان لقيتا مكانة عزيزة في قلب الامبراطور والامبراطورة بصفتيهما موطنهما الاصلى قاستا من جراء ذلك التدهور (١) .

ومن بوادر الانهيار السياسي والاقتصادي في الامبراطورية انعدام الأمن وظهور عصابات قطاع الطرق وازدياد سطوتها في الولايات بسبب انضمام الهاربين والساخطين واللاجئين السياسيين الى هذه العصابات لدرجة ان بعضها كاد ان يصبح دولة داخل الامبراطورية ، ومن أشهر زعماء قطاع الطرق في ذلك العصر رجل يدعى بوللا فيلكس *Bul'a Felix* تمكن من نشر الرعب في الريف الايطالي عن طريق عصابته التي بلغت ستمائة من قطاع الطرق والقتلة والاشرار ، وقد تفشى خطر هذه العصابة وشرورها ما بين ٢٠٦ ، ٢٠٧ ميلادية والحقت بالتجارة الداخلية ضربة قاصمة .

وفي نفس الوقت هدد مستأجرو الاراضى التابعة للامبراطور بترك الارض التي يدفعون عنها اجارات للدولة اذا ما اسكمر الزامهم اجباريا للقيام بأعمال الزامية في المدن التي تقع حقولهم في زمامها مما يعطلهم عن فلاحه الارض التي يدفعون عنها الضرائب والرسوم ، بل بدأ بعضهم بالفعل يهجر الحقول الى الجبال والاغوار لينضم الى عصابات اللصوص او جموع العاطلين . وهذا خطر تفشى فيما بعد في الامبراطورية وساعد على سقوطها وانهيارها ، وبالرغم من ذلك نجد رعايا الامبراطورية من سكان الولايات يشقون بالامبراطور سيفيروس ويرفعون شكاواهم اليه من الظالمين من رجاله، ويترحمون فيما بعد على ايامه التي اعتبروها اسعد الايام، وزاد من صعوبة مهمة سيفيروس انه ورث خزانة خاوية على عروشها بسبب بهاذلة نفقات الحروب التي سادت الامبراطورية قبل وبعد توليه السلطة ، ولكنه تغلب على هذا العجز عن طريق مصادرة ممتلكات اعدائه ، وقد بلغ من ضخامة هذه الممتلكات المصادرة ان تطلبت ادارتها انشاء خزانة خاصة *ratio privata* اعتبرت اموالها اموال الامبراطور الشخصية ، بالرغم ان الذين اشرفوا عليها كانوا موظفين حكوميين تابعين للادارة الامبراطورية ، واستغل ريعها

A.G. Birley : Septimius Severus the African Emperor, Eyre and (1)
Spottiswoode, London 1971., p. 136 ; p. 217 ff.

لمواجهة نفقات الحكومة المتزايدة ، ولكن محاولة تحسين احتياطي الخزانة عن طريق مصادرة أموال الناس لم يفتى الامبراطورية بل ، على العكس أقرها (١) .

لقد انتشر وكلاء الحكومة المركزية Publicani في كل مكان من الامبراطورية واصبح تجنيد الناس للوظائف امرا اجباريا منذ ايام اسرة آل سيفيروس (٢) لانها وظائف مكلفة وبلا عائد وتسببت في افقار الكثيرين منهم . لقد حاول سيفيروس وضع حلول شجاعة ولكن قاتلة لمشاكل الامبراطورية الاقتصادية التي اصبحت على شفا العودة الى نظام الاقتصاد البدائي المتمثل في نظام المقايضة (٣) . ويوما بعد يوم لم تعد الدولة تهتم بالاصلاح الاقتصادي لانها وقفت عاجزة جبالها ثم استسلمت لها قدريا ، ولهذا لم تحاول اصلاح نظامها النقدي (٤) الذي بدأ ينهار منذ ايام نيرون (٥) لدرجة ان العملة الامبراطورية لم يعد معترف بها في الولايات الشرقية (٦) ، واصبح التعامل مشروطا بقطع العملة الذهبية او الفضية ولهذا توقفت هذه الولايات عن سك عملاتها الخاصة . وعادت الى عهد ما قبل اختراع النقود في القرن السابع ق.م وهو استخدام مبياتك المعادن الثمينة (٧) او المقايضة المباشرة .

اما بخصوص سياسته الخارجية فقد لمحنها عنها من قبل . ولكن على اى حال وجد الامبراطور نفسه في قتال فرض عليه ، وحروب مستمرة منذ ١٩٧ ميلادية عندما هاجم دولة البارثيين وانتهى باحتلال كتيشفون (طيسفون) عاصمتهم ، وانشاء ولاية ما بين النهرين Mesopotamia وجعل قلعة نسيب Nisibis عاصمة لها ، والتي تمها أعلن قراره الشير بالانعام على ابنه كاراكالا بلقب أغسطس ، وقبض الجيش بهذا الاسم عام ١٩٨ م وبذلك اصبح شريكا في الحكم مع ابيه ، وفي نفس الوقت عين ابنه الثانى والذي كان يسمى جيتا Geta ، قيصرا اي يرثا للعرش تحت الاختبار ، وكنايب لاختيه الاكبر .

٥٧٨

Rostovtzeff : I, p. 423 : cf. T. Frank, vol. V, p. 25. (1)

Rostovtzeff, op. cit., Ibid. pp. 412-413. (2)

T. Frank, op. cit., vol. V, p. 229 f. (3)

Rostovtzeff, Ibid., p. 423. (4)

Ibid, p. 413. (5)

T. Frank, op. cit., vol. IV, p. 223. (6)

Ibid., p. 746. (7)

وأخيرا قضى الامبراطور الفترة ما بين ١٩٩ الى ٢٠٢ ميلادية في تجوال دائم حيث زار مقاطعات الشرق مثل ولاية مصر وسوريا حيث قسم هذه الولاية الأخيرة الى ولايتين مثلما فعل بعد ذلك بولاية بريطانيا ، كما زار آسيا الصغرى وولايات الدانوب . وبالطبع أعطى الامبراطور ولاية افريقيا عناية خاصة لانها وطنه الأصلي خاصة مدينة لبدة . ولذلك قضى الامبراطور ما يقرب من عامين في افريقيا حيث انشأ عدة استحكامات على حدودها كما رفع من الوضع السياسى لعدد من المدن الى درجة المساواة في الحقوق مع الرومان ، وحسن من وضع السكان واحوال الجنود . ثم فصل اقليم نوميديا (الجزائر) عن الولاية الافريقية وجعله ولاية مستقلة قائمة بذاتها (١) . ومن الملاحظ ان اتجاه سيفيروس كان يتخذ طابع تفتيت ولايات الامبراطورية الكبرى حتى يعطيه ذلك فرصة في السيطرة المطلقة على كل شبر من اراضي الامبراطورية من ناحية ، ومن ناحية اخرى ليحول دون احلام التمرد والانفصال الذي كان يراود بعض حكام الولايات الكبيرة مما كان يؤدي الى نشوب الحروب الأهلية ، ولعله كان يذكر جيدا تجربته هو نفسه مع الحكم . وفي عام ٢٠٨ ميلادية زار الامبراطور بريطانيا حيث كانت قبائل الكاليدونيون قد زحفت عليها من الشمال مستغلين الفراغ الذي أحدثه سحب الجنرال بينوس لفرقتيه عندما ذهب ليحارب سبتيميوس سيفيروس . وقد تمكن الامبراطور سبتيميوس من رد القوات الزاحفة حتى حدود اسكتلندا ثم جعل حائط هادريان الشهير حدا فاصلا بين بريطانيا الرومانية والقبائل المتبربرة في الشمال .

ومن هناك انعم على ابنه جيتا بلقب اغسطس في عام ٢٠٩ م وبذلك رفعه من درجة القيصر الى الوريث المتوقع الى شريك في حكم الامبراطورية مع اخيه .

وفي شهر فبراير عام ٢١١ م بينما كان يعد لحمله جديدة مات الامبراطور في مدينة ابوراكوم Eburacum (يورك الحالية) وهو في الخامسة والستين من عمره ، وادعى بعض المؤرخين انه نصح ولديه وهو

R.M. Haywood, «The African Policy of Septimius Severus» Transactions (١) of the American Philological Association, 71 (1940) pp. 175-185. also cf. Duncan Jones «Wealth and Munificence in Roman Africa, Papers of the British School at Rome, 18 (1963), p. 159.

ومن تاريخ زيارة الامبراطور واسرته الى بلده الأصلية لبس جنا والاثار الدالة على ذلك انظر A. Birley, op. cit., p. 216-218

كذلك انظر : ليبيا في التاريخ - الجامعة الليبية بنغازي ١٩٦٨ ، ص ١٢٧ وما بعدها .

على فراش الموت أن لا يباليا بشيء ولا يهتما بأحد سوى الجنود فقط ، وأن هذه الامبراطورية ستكون قوية اذا كانا قويين ، وضعيفة اذا كانا ضعيفين . وسواء صدق هذا الادعاء (١) أم لا فهو يصور الطريق الحقيقى الذى كانت تسير فيه الامبراطورية والذى أدى بها الى السقوط والانهار . الا وهو اعتماد الحكام على القوة العسكرية كوسيلة للحكم .

وبعد توليه مباشرة سارع كاراكالا الى عقد الصلح مع القبائل الكاليدونية فى بريطانيا وعاد مع أخيه جيتا ليتما الشعائر الجنائزية الخاصة بأبيهما ولكن يحثا مجلس السناتو على تأليهه ، وقد تم ذلك بالفعل .

حكم الامبراطور كاراكالا (٢١١ - ٢١٨ م) وأخيه جيتا (٢١١ - ٢١٢ م)

لم يمض على موت سبتيميوس سيفيروس وقت طويل حتى اندلع صراع مرير بين الاخوين الوريثين ، لأن غياب الوالد اطلق الاعنة للحداد القاتل بينهما ، ولم تجدى محاولات الأم جوليا دومنا شيئا فى التوسط بين فلذتى كبدها ، وزاد من مرارة الصراع تدخل رجال البلاط والجنود حتى أصبح لكل شقيق حزب من المؤيدين ، حتى لم يكن هناك احد فى البلاد الا واتخذ جانبا اما مع كاراكالا او مع جيتا . ومن كان مع احد الاخوين كان بالتالى نمد الآخر . ولم يكد ينقضى عام واحد على حكمهما المزدوج حتى دبر الأخ الأكبر كاراكالا اغتيال أخيه مدعيا أنه بذلك كان يدافع عن نفسه ازاء مؤامرة كان يدبرها جيتا ، وبسرعة غمر الحرس البرائتورى بالمكافآت السخية ورفع رواتب الجند بمقدار ١٥٪ . ثم بدأ فى تصفية انصار أخيه جسديا ، كان من بين ضحايا هذا الانتقام المجنون الفقيه وقائد الحرس الامبراطورى بابينيانوس ، كما تضمنت قائمة الضحايا ابنة ماركوس اوربليوس نفسه وكانت تدعى كورنيفيكيا Cornificia بتهمة انها جرات على زيارة الامبراطورة الأم وقدمت العزاء لها لموت ابنها جيتا ، وكان ذلك التصرف كافيا لكاراكالا أن يتخلص منها ، وقد تحدثت الاناصيص الرومانية عن الشجاعة الفائقة التى واجهت بها هذه الاميرة - بنت الاكرمين - سيف الجلاد ، وهمهمت تسخر من آل سيفيروس الذين يدعون زورا وبهتانا ان اباهما قد تبناهم فنسبوا انفسهم اليه مدعين انهم جزء من آل انطونيوس .

الامبراطور كاراكالا وسياسته :

كان كاراكالا ضعيفا ماكرا وبربريا فى انتقامه ، كما كان شديد الاعتقاد بالهوا حس والخزجلات ، محبا للانغماس فى الفسق ، وهو لا يختلف

كثيرا عن كاليجولا ونيرون وكومودوس في فسقهم وعدم لياقتهم لتولى العرش . لقد شجع كاراكالا على ذلك رفعه الى منزلة «الاغسطس» وهو في سن مبكر ودون تعميق لمعنى العلاقات الانسانية في نفسه وتدريبه على فن الحكم عن طريق التدرج في سلك الوظائف الطويل ، او تحميله المسؤولية وتعويده على تحملها ، كل هذا جعل كاراكالا ينشأ محتقرا للقوانين والحقوق ، ونمت في عقله اتجاهات استبدادية وانفرادية يكاد ان يكون طفيلنا شرقيا . ولقد جعل نصيحة ابيه له بالعناية بالجيش والاعتماد عليه جوهر فلسفة حكمه الاستبدادي العسكري ، وكان شعاره « مادامت الجنود راضية عني فليذهب الجميع الى الجحيم » ، وكان يقول « لا احد سواي يجب ان يمتلك المال وذلك حتى اعطيه لجنودي » (١) كما كان شديد العناية بالفقراء (humiliores) الذين منهم جند قواته . بينما ترك كل الشئون الغير عسكرية لتصرف امه الملكة بمساعدة المجلس الامبراطوري الاستشاري (Consilium) ، وانفرد هو بالجيش والعسكرية واحلام الفتوحات وتقليد الاسكندر الاكبر لا في انتصاراته الحربية فحسب ، بل في مبادئه السياسية وافكاره التي سحرت الباب المثقفين في ذلك العصر . ولكن هدف كاراكالا الحقيقي كان سحق المثقفين وافناء كل من يعترض طريقه ولم يكن رجال السناتو اسعد حالا ، بل ضحية من ضحاياه (٢) .

الدستور الانطاوني : Constitutio Antoniniana

منذ ان عشر على بردية جيسن (٣) P. Gissen التي تحمل عبارة جاءت على لسان كاراكالا تمنح جميع شعوب الامبراطورية من غير الرومان الجنسية الرومانية الكاملة باستثناء من اسماهم بالمستسلمين والجدل لم يتوقف بين المؤرخين وفقهاء تاريخ القانون وعلماء الوثائق البردية حول المضمون الذي احتوته . وانحصر الجدل في عدة قضايا اهمها ما هي الاسباب والدوافع لصدوره ؟ وما هي اهميته ؟ ومتى صدر ؟ ومن هم المستسلمون الذين استنوا من هذا الحق ؟ وهل كان هذا القانون الزاما يجب تطبيقه بالاكراه ام منحه اختيارية لمن يريد ؟

والذي لاشك فيه ان روح الاسكندر الاكبر ومثاليته تركت بصماتها واضحة على افكار الاباطرة الصالحين وعلى اباطرة الاسرة السفيرية التي حاولت ان تسير على نهجها ، فمذ عصر الاباطرة الصالحين نلاحظ بداية الاتجاه نحو مبدا الاكثار في منح الجنسية الرومانية نتيجة لاتساع الانق السياسي والانساني Philanthropeia وتحت تأثير الفلسفات الانسانية

(١) Rostovtzeff : op. cit., I, 417 ; Dio Cassius LXXVIII, 3,2.

(٢) Dio Cassius, LXXVIII, 901.

(٣) P. Gissen., 40, Col I = Mitteis, Chrestomatie, 377.

خاصة الراوقية . كما أن كاراكالا نفسه كان شديد التشبه بالاسكندر الأكبر واحلامه في توحيد العالم وكسر الحواجز العنصرية بين سكانه . الى جانب ذلك فقد تدهورت قيمة الجنسية الرومانية في القرن الثالث ولم تعد ثمينة لدرجة ابقائها وقفا على الرومان . كما أن الاتجاه نحو منحها لعدد كبير من الشعوب بدأ حتى منذ أواخر عصر الجمهورية وبالتحديد منذ عهد يوليوس قيصر كتشجيع للمستوطنات الرومانية خارج (١) إيطاليا على التمسك بالروح والنظم والفكر الروماني ، واستمر هذا الاتجاه في عصر الامبراطورية . ومهما يكن من أمر فإن صدور هذا القرار يعد قمة الوصول الى سياسة المساواة بين الرومان وسكان الولايات في عصر سبتيميوس سيفيروس وابنه كاراكالا لأنهما لم يكونا روماناً ، بل فينيقيين ، بل وتجري في عروق كاراكالا دماء سورية من ناحية أمه جوليا دومنا ، وقد سبق أن وصفنا وصول سبتيميوس سيفيروس وزوجته السوزية انتقام قدرى لهزيمة هانيبال جاء بعد أكثر من أربعة قرون من الزمان أن يحكم الامبراطورية الرومانية زوجان شرقيان بل وينتمي الزوج إلى العنصر الذي جاء منه هانيبال ، ومن ثم فمن الطبيعي أن يكون هناك اتجاه لدى هذه الأسرة لكسر الحاجز الوهمي الذي أقامه الرومان القدماء ليميز بينهم وبين شعوب الولايات - خاصة الشرقية - واعتبار إيطاليا في وضع لا يختلف عن سائر الولايات الأخرى . ويرى الأستاذ دي فبشر أن ولاية أفريقيا بالذات قد ازدهرت في ذلك الوقت حضارياً (٢) واقتصادياً وعمرانياً ، بل وأصبحت هي المصدر الأول لإمداد روما بالقمح وبالتالي فإن الحفاظ عليها وارضاء سكانها كان بمثابة دعم الأمن الغذائي لإيطاليا . ومن ثم لم تعد شمال أفريقيا في القرن الثالث مجرد ولاية وشاة بين طيع اغنام الامبراطورية ، بل قطعة لا تتجزأ من إيطاليا كما يشهد بذلك علماء النقوش والآثار (٣) . إذ يقدر عدد المدن فيها بحوالى ٥٠٠ مدينة بل امتد فضل شمال أفريقيا على إيطاليا الى مجالات أخرى مثل المجال الديني والأدبي والفني خاصة فن الباروك الأفريقي الذي أثر في الفن الروماني . كما امتدت شمال أفريقيا الامبراطورية بالقيادات السياسية لدرجة أن الأفريقيين في القرن الثالث الميلادي أصبحوا يشكلون ٢٦٪ من أعضاء

(١) أنظر ص ٧٠ كذلك انظر كتابي « تاريخ الرومان من القرية الى الامبراطورية »

القاهرة دار النهضة العربية ص ٣٨٥ .

(2) De Visscher, La Constitution Antonine et la dynastie africaine, Revue International Des Droits De L'Antiquite, serie 3, Tome VIII (1961) p. 240.

(3) Julien (Ch. A) Histoire de l'Afrique du Nord, chapter VII, p. 106-193.

مجلس السناتو القادمين من الأقاليم (١) ، ومن الطبيعي أن تساعد أسرة سبتيميوس سيفيروس الأفريقية القيادات النابغة من موطنها الأصلي وتأخذ بيدها لتساعد في قيادة الإمبراطورية ، ويؤكد جلبرت بيكارد (٢) على حقيقة هامة هي أن حاشية سبتيميوس سيفيروس كانت أفريقية مثله ، بل أن العنصر الأفريقي لعب دورا في تدبير مصرع كومودوس لأن القائد البرايتورى فى عام ١٩٠م كان إميلوس لايتوس وكان أفريقيا ، بل أن الصراع بين سبتيميوس سيفيروس ومنافسه البينوس كان صراعا بين قائدين من شمال أفريقيا لأن البينوس كان من مدينة حضرمنتوم القريبة من قرطاجة وبعد انتصار سيفيروس فى ليون عام ١٩٧ م اختار سواطنا له هو فوليوس بلاوتيانوس ليتولى قيادة الحرس البرايتورى . وكان بلاوتيانوس فقيها مشهورا وله سطوة لا تقل عن سطوة سيانوس فى عصر الإمبراطور تيبيريوس خاصة بعد أن دعم مركزه عند سيده الإمبراطور بتزويج ابنته بلاوتيللا لولى العهد كاركالا الذى وضع حدا لسطوة صهره بتدبير موته عام ٢٠٥ م .

ومن ثم فقد كانت حاشيته سبتيميوس سيفيروس ومساعدوه وفقهائه من شمال أفريقيا (٣) وأنها استغلت هذه الفرصة النادرة التى أولاها لها القدر لهدم الحاجز النفسى بين الرومان والأجانب من سكان الإمبراطورية عن طريق الاكثار فى منح الحقوق الإيطالية *ius Italicum*

وهى الخطوة الممهدة لمنح الجنسية الرومانية ، ومن ثم فإن كاركالا لم يكن سوى منفذا لأفكار أبيه الذى سبق أن منح فى عام ١٩٩م عواصم الأقاليم المصرية الحق فى تكوين مجالس شورى لتحمل مسؤولية جمع الضرائب نيابة عن الحكومة المركزية وتحمل عنها مشقة البحث عن وكلاء بعد تزايد تهرب الأعيان من تولى الوظائف الشرفية . غير أن هذا التفسير يجب ألا يتعارض مع القول بأن القانون الانطونينى ليس إلا خطوة طبيعية ومنطقية فى مرحلة طويلة سلكتها الإمبراطورية من أجل « ترمين » Romanisation العالم الرومانى وتحويل مواطنى الولايات الى مواطنين كاملى الحقوق وجعل سلوكهم يتطابق مع السلوك الرومانى ، لكن سياسة الأسرة السيفيرية زادت فى الدفع نحو هذا الاتجاه ، ويرى أساتذة القانون الرومانى أن النزعة الانسانية فى القانون الرومانى فى عهد هادريانوس أدت

(1) M. Hammond, J. R. S. 1957, P. 74.

(2) Piccard, Gilbert Charles, La Civilization romaine de L'Afrique du Nord, Paris, 1959, p. 76 f.

(3) Piccard, op. cit., v. 76.

الى صدور قانون الامم *ius gentium* الذى اعترف بحقوق غير الرومان ويعملون فشل قانون الامم بسبب قيامه على قواعد القانون المدنى الذى كان لا يزال عبدا للشكلية ، ففى نظر الرومان « ان الشكل يعطى جوهر الشيء » *Forma dat esse rei* . ومن ثم فقد كان قانون الامم اكثر تعقيدا وقسوة فى المعاملات وقد ادى هذا الى فشله (١) .

غير ان بعض المفسرين لهذا القانون يعزون صدوره الى اسباب اقتصادية ويتبعون فى ذلك ماكتبه ديوكاسيوس عن تخفيض كاراكالا لضرائب الارث والميراث والتجارة الى النصف ومن ثم اراد تعويض ذلك عن طريق تحميل الفارق الى شعوب الامبراطورية من غير الرومان وذلك بمنحهم الجنسية الرومانية الكاملة ليدفعوا هذه الضريبة (٢) التى لم يكن يدفعها الا الحاصلون على الجنسية ، ويرى آخرون ان سبب صدور هذا القانون هو تحميل المواطنين الجدد هذه الضريبة ليعوض الخسائر التى تعرض لها الامبراطور ابان حملته فى بحر مرمرة فى شهر اغسطس عام ٢١٤م وانه كان فى ضائقة مالية بعد هذه الهزيمة . بينما يضيف دى فيشر (٣) رايًا جديدًا كان غائبًا عن اراء المؤرخين وهى ان هذا القرار كان منبعا مقاومة انتشار المسيحية فى شمال افريقيا فى ذلك الوقت واقبال سكان شمال افريقيا عليها بعد ان مزقهم التباين والاختلاف فى القوميات ، وكانت المسيحية بدعوتها المثالية لالغاء الفوارق بين البشر هى البلمس الشافى لهذا التمزق والتفرقة بينهم وبين الرومان ، ومن ثم هدف كاراكالا بقراره جذب الانظار عن افكار الديانة الجديدة وربط شعوب شمال افريقيا المتنوعة العنصر والثقافة وكذلك سائر شعوب الولايات الشرقية برباط سياسى ودينى واحد خاصة ان القانون الرومانى كان مرتبطا بالديانة الرومانية ، ومن ثم فان هذا القرار كان تصرفا ذا صبغة سياسية - دينية *Politico-Religious* لربط وتوحيد شعوب

الامبراطورية برباط سياسى ودينى حتى لا تفويهم المسيحية بدعوتها الى هدم الحواجز العنصرية والطبقية ، خاصة ان سبتيميوس سيفيروس سبق ان طبق فكرة « السلام الدينى » الذى يجمع بين كل آلهة شعوب الامبراطورية فى مجمع واحد هو البانثيون *Pantheon* ووضعه تحت رعايته . غير اننا لانميل الى قبول التفسير الاقتصادى بحدده بأن القرار صدر تحت ظروف ضائقة مالية بعد هزيمة كاراكالا فى عام ٢١٤م لان الازمة الاقتصادية كانت موجودة قبل

(١) محمود السقا : تاريخ القانون المصرى من العصر الفرعونى حتى نهاية العصر

الاسلامى مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٤ ص ٤٤١ .

(2) cf Dio Cassius LXXVIII, 905 ; T. Frank, Vol. V, p 87.

(3) De Visscher, loc. cit., p. 241.

ذلك خاصة ان مقدمة الفرار تتحدث عن الشكر والامتنان للآلهة بعد نجاة الامبراطور من المؤامرة التي دبرها ضده أخوه جيتا ، ومن ثم فإن هذا الفرار صدر بعد اغتياله لآخيه لندعيم شعبيته بين شعوب الامبراطورية وانسائها الجريمة البشعة التي ارتكبتها ، وربما بوازع ديني للتوبة والتكفير عن جريمته حتى ترضى عنه الآلهة التي كان يحس بأنه اغضبها بفعلته هذه (١) . غير اننا نستبعد ان تكون الازمة الاقتصادية عاملا دفعه لاختيار التوقيت المناسب لاصدار القرار .

اما بالنسبة لتحديد تاريخ صدور القرار فإن الغالبية من المؤرخين وعلماء تاريخ القانون الروماني يتفقون على أنه صدر في يناير عام ٢١٣ ق.م وأغلب الظن أنه صدر في شهر مارس عام ٢١٢ م . وقد اعتمدوا في تحديد هذا التاريخ على ضوء الظروف والمصادر وفي ضوء ما ذكره ديوكاسيوس وكذلك في ضوء تتبع القوانين الأخرى التي أصدرها ناراكاللا . غير أن رايًا حديثًا يرى أن هذا القرار لم يصدر قبل صيف عام ٢١٤ م (٢) وقد بنى صاحب هذا الرأي استنتاجه على أساس أن اسم اوريليوس Aurelios الذي انتشر بين سكان الريف المصري بعد صدور قرار منح الجنسية كأسماء رومانية جديدة لهم بدلا من الأسماء الاغريقية والشرقية لا يظهر في وثائق البردي المصري إلا في خريف عام ٢١٤ م ، كما يربط صاحب هذا الرأي بين هذا التاريخ المقترح وبين هزيمة كاراكالا في بحر مرمرة في صيف عام ٢١٤ م ، ويتفق مع ديوكاسيوس في أن الدافع لصدوره هو الحاجة الماسة إلى زيادة دخل الامبراطورية من الضرائب ، ولكنه يختلف مع ديوكاسيوس في قبول عام ٢١٢ م تاريخا لصدور القرار باننا اختلافه على أن ديوكاسيوس يضع أحداثا في مؤلفاته دون الالتزام بانسياقها الزمني أو تسلسلها التاريخي ، وأن وثائق هذا القرار ليست مرتبة ترتيبا زمنيا واضحا . غير أن رايًا أحدث ناقش الرأي السابق في ضوء قوائم أسماء الجنود التي عثر عليها في مدينة دورا يوروبوس (٣) (الصالحية في شمال شرق نهر دجلة) واعترض عليه مؤكدا الرأي الأول وهو أن القرار صدر في ربيع عام ٢١٢ م . ويرفض هذا الرأي الجديد الربط بين هزيمة كاراكالا في صيف عام ٢١٤ م وبين صدور القرار لأن الأزمة الاقتصادية كانت قائمة حتى قبل الهزيمة . ورغم أن اسم Aurelios لا يظهر في قوائم دورا يوروبوس إلا في عام ٢١٤ م إلا أن

(1) J. F. Gilliam, *Dura Rosters and the Constitutio Antoniniana*, Historia, XIV (1965) p. 91.

Bickermann, *Das Edict des Kaisers Caracalla*, p. 32.

(2) Fergus Millar, J. E. A., XLVIII, (1962), pp. 124-131.

cf. J. Gilliam, loc. cit., p. 90 ff.

صاحب هذا الراى يؤكد وجود فارق زمنى بعد صدور القرار وبين تنفيذه على ايدى السلطات الرومانية فى الولايات واستيعاب الأجانب لمضمون القرار ونتائجه خاصة أن الفلاحين المصريين كانت لهم تجربة مريرة مع كاراكالا عندما أصدر قرارا بطردهم من اسكندرية . كما أن القرار بمنح الجنسية الرومانية لجميع السكان لم يكن قرارا سهلا بل قرارا قلب الأمور رأسا على عقب بالنسبة لقوانين الإدارة فى الولايات وبالنسبة لحياة وتقاليده ونظم سكانها خاصة أن صدور القرار كان فجائيا ولم يسبقه تمهيد من جانب الامبراطور أو مساعدة ، فمن الطبيعى أن يحتاج سكان الولايات وقتا للتفكير فى الوضع الجديد كما تحتاج الإدارات الرومانية وقتا للتنفيذ . هذا بالإضافة الى الأدلة التى ساقها المؤرخون من انصار قبول عام ٢١٢ كتاريخ لصدور القرار . كما أن نص الوثيقة يفصح أن القرار قد صدر بمناسبة نجاة الامبراطور من مؤامرة اخية جيتا وبالتالى فهو قد صدر بعد موت اخيه جيتا عام ٢١٢ كعمل خير يتلو عملا شريرا وكخروج من الأزمة النفسية التى كان يعانىها الامبراطور بعد قتله لأكبره ومن أجل ارضاء الآلهة وكسب شعبية بين سكان الولايات وتوحيد شعوب الامبراطورية برباط قانونى ودينى متين .

أما بالنسبة لتفسير كلمة «المستسلمين» (dedeticii) الذين استثناهم الامبراطور من هذا الحق فقد دار فيها جدل أيضا ويصفه فقهاء القانون عبارة «فيما عدا المستسلمين» بأنها قيدها على المبدأ العام الذى جاء بصدر الدستور (١) لأنه حرم هؤلاء المستسلمين من حق الحصول على الجنسية الرومانية . أما تحديد نوعية المستسلمين فقد اعتقد البعض خطأ أو قصدا بأن المقصود بهم هم المصريون (٢) وتفسرهم لذلك أن سكان الريف المصرى لم يكونوا منتدبين الى مواطنه أى من المدن الإغريقية الأربعة فى مصر وهى الاسكندرية ونقراطيس وبطلمية وانطينوبوليس ، وأن أساس منح الجنسية الرومانية كان قاصرا على سكان المدن . غير أن هذا الراى مرفوض شكلا وجوهرا فالقرار لم يصدر بالنسبة لمصر وحدها ، بل بالنسبة لجميع سكان الولايات التى كانت تزخر بقوميات وشعوب تعيش بعيدة عن المدن وبعضها كان دون المصريين حضارة وأصالة ، كما أن المصريين لم يرفعوا السلاح فى وجه الامبراطورية حتى يحرمون من هذا الحق . ان حرمان هؤلاء المستسلمين من هذا الحق لأبد وأن ينسجم مع حالتهم فى كونهم فى وضع

(١) محمود السقا الملل السابق ص ٢٤٥ .

(2) cf J. G. Winter, Life and Letters in the Papyri the Jerome Lectures, An Arbor 1933, p. 24.

يجعلهم أدنى من وضع سائر السكان الأجانب ، وهم أغلب الفئتين قليلة العدد ، ولابد أن يكونوا أولئك الذين رفعوا السلاح في وجه الامبراطورية سواء كانوا ثوار وطنيين أم خارجيين على القانون من أمثال قطاع الطرق ورجال العصابات التي انتشرت في ذلك الوقت ، وكذلك الغزاة البرابرة مثل الجرمان وغيرهم ممن استولوا بقوة السلاح على أجزاء من الامبراطورية الرومانية واستوطنوها عنوة . كما أن الوثائق التي ظهرت بعد صدور هذا القرار تؤكد تمتع الفلاحين المصريين (١) كغيرهم من سكان الولايات سواء في حمص أو دورا يوروبوس ، ويدلل على ذلك انتشار اسم أوريليوس كاسم اتخذته المواطنون الجدد في هذه الولايات بما في ذلك مصر . ومن ثم فإن الرأي القائل بأن المستسلمين هم المصريون أصبح رأيا قديما ومرفوضا .

ثم نأتى الى المشكلة الأخيرة وهي هل ألزم هذا القانون سكان الولايات الأجانب بالتخلي عن نظمهم القانونية المحلية واستبدالها بالنظم الرومانية؟ أم كان لهم الحق في الاحتفاظ بوضعهم الاقليمي الى جانب الجنسية الرومانية؟ وهل كان القانون الروماني يجيز الجمع بين الجنسية الرومانية والجنسية المحلية في آن واحد؟ ويجب الأستاذ الدكتور محمود (٢) السقا على ذلك بأنه منذ عصر الجمهورية كان القانون الروماني يجيز للأجانب حق الاحتفاظ بجنسيته الأصلية الى جانب الجنسية الرومانية . ومن ثم فإن القانون أبقى على القوانين المحلية ، لكنه أعطى لهم حق الاختيار بين قوانينهم المحلية والقانون الروماني . ويرى آخرون أن الإبقاء على القوانين المحلية كان أمرا ضروريا بالنسبة للسكان الذين لم يتشربوا بعد مبادئ القانون الروماني ومسئوليات الجنسية الرومانية ومجال طبيعة قوانينها . وهو الرأي الأرجح والذي يتفق وروح الوثائق ، أما الذين يرون أن القرار كان الزاميا إجباريا يقتضي إلغاء وهجر القوانين المحلية للشعوب مقابل تطبيق القانون الروماني بطريقة آلية فهو أمر لا يتماشى مع روح الاتجاه الليبرالي عند الرومان في احترام قوانين الشعوب وديانتهم وعاداتهم والذي نلمسه منذ عصر الجمهورية وخلال عصر الاسرة الفلانية في صدر الامبراطورية . لقد كان الرومان حريصين دائما على عدم التدخل في تشريعات وشرائع الشعوب المحلية خاصة في الشرق حيث كان مصدرها العقائد الدينية كما هو الحال عند اليهود والمصريين . ولهذا فحتى بعد صدور هذا القرار ظلت أشكال المعاملات والتصرفات القانونية في الولايات تتم في ضوء القوانين المحلية ولم تختلف عن التصرفات التي كانت تتم قبل صدوره ، لأنه ليس

(1) Fergus Millar, loc. cit., pp. 124-133 ; Gilliam, loc. cit., 74-91.

(٢) محمود السقا العمل السابق ص ٤٤١ .

من اليسير أن تغير قوانين هذه الشعوب العريقة والمستقاة من واقعها المادي والنفسى والتي كانت تخاطب عاداتهم واحاسيسهم ومن صميم ترائهم بجرة قلم . وبناء عليه لم يكن دستور كاراكالا ملزما أو صارما فى الزامه ، بل أعطى المواطنين الجدد حق اللجوء الى القضاء الرومانى بدلا من محاكمهم الأهلية ، وبمرور الزمن تدهورت المحاكم الأهلية لتفسح الطريق أمام الاختصاص الأواحد للقضاء الرومانى ولما جاء ديوقلديانوس وجد الأمور سهلة فلم يجد صعوبة فى الفاء القوانين المحلية من أجل اخضاع شعوب الولايات لسلطة واحدة مركزية يرمز اليها امبراطور واحد قوى ومؤله .

مغامرات كاراكالا العسكرية ونهايته :

حاول كاراكالا السير فى خطى الاسكندر الأكبر ، ولكنه بدأ مغامراته فى الغرب عندما سحق قبيلة الالمانيين Alamanni والتي كانت تقيم عند ملتقى الراين والدانوب ، واصبحت هذه القبائل تهدد حدود الامبراطورية ومن ثم أسرع الامبراطور بقيادة حملة عسكرية قادها بنفسه وتمكن بعدها من سحقهم عام ٢١٣ . واضاف الى اسمه كنية جديدة هى 'الجرمانى العظيم Germanicus Maximus' .

وفى عام ٢١٣ عبر البلقان متجها نحو الشرق متتبعا الطريق الذى سار فيه الاسكندر الأكبر حيث توقف قرب مقدونيا ليجند قواتا منها لتضفى على خياله شيئا من الواقعية ، وسار دون مقاومة حتى وصل الى سوريا ، وحاول التحرش بالبارثيين ، ولكنه حزن عندما وجد انهم غير راغبين فى القتال بتاتا ، وانهم رجعوا عن حياة الحرب . واضطر ازاء ذلك ان يسير الى الاسكندرية حيث جن جنونه لحرية اهل هذه المدينة فى الحديث والتعبير عن آرائهم التى أصبحت تقليدا عندهم ، وبدون سبب او آخر جمع زهرة شباب المدينة ثم عمل فيهم ذبحا وتقتيلا (١) . بعد ذلك رجع الى انطاكية Antioch حيث وجد عذرا للتحرش بملك البارثيين وهو انه طلب يد ابنة الملك ارتابانوس ربما مقلدا الاسكندر عندما تزوج بابنة الملك دارا . ولما رفض الملك البارثى سار كاراكالا على رأس قواته الى مقاطعة ميديا عام ٢١٦م وبينما كان يستعد لهجوم آخر فى خريف عام ٢١٧م . خر صريعا تحت طعنات خنجر قاتل .

(١) يظن البعض ان المظالم البشرية التى وجدت مدفونة فى مقبرة كوم الشقافة بالاسكندرية هى نقايا القلى فى هذه المذبحة ، لكن التعرف على عظام بعض الخيول بينا يلقى ظلالا من الشك فى هذا الرأى .

لقد كان الوقت متأخرا لهذا الامبراطور أن يحقق احلام الاسكندر الاكبر (١) . حقيقة لقد أصدر السناتو قرارا في حياته باعتباره مؤلها (٢) ولكن مفاخراته كانت على حساب اضعاف الامبراطورية اقتصاديا . لقد ارهق الخزانة بزيادته لرواتب الجيش بمقدار الثلث عما كانت عليه أيام أبيه . ولم يكن في قدرة اقتصاد الامبراطورية أن يتحمل مثل هذه الزيادة علاوة على بهائنة النفقات العسكرية . ولذا بدد ما جمعه أبوه ظلما من اموال للدولة وتحول ذلك الى عجز في ميزانيات الامبراطورية ، واضطر ازاء ذلك الى تخفيض قيمة العملة مرة ثانية واستمر التدهور الاقتصادي دون توقف حتى وصل الى مرحلة الافلاس التام .

الامبراطور ماكريونوس وابنه دياودومنيانوس
Dialumenianus (٢١٧ - ٢١٨ م) :

دبر ماركوس اوبيليوس ماكريونوس اغتيال كاراكالا عندما احس ان الامبراطور سوف يتخلص منه ، وعلى مضض حيا الجيش ماكريونوس امبراطورا وصدق السناتو على الاختيار وانعم عليه باللقاب ومنح السلطات وبالتالي انعم الامبراطور الجديد على ابنه دياودومنيانوس بلقب قيصر ثم اشركه معه في الحكم بعد منحه لقب اغسطس .

كان ماكريونوس موريتاني الاصل والمولد ومن طبقة الفرسان ، ولم يسبق له الدخول الى السناتو ، ولهذا يفتبر أول امبراطور يصل الى منصب الامبراطور دون أن يكون عضوا في السناتو .

لم يكن ماكريونوس عسكريا بقدر ما كان فقيها في القانون ، ولهذا أنهى الحملة العسكرية ضد بلاد البارثيين بدفع مبلغ كبير الى ملكهم لشراء السلام ، وكان هذا اهانة للقوات العسكرية ، كذلك ادى اتجاهه نحو السلام مقابل التنازل عن كثير من الشروط الى زد فعل عنيف عندما قبل أن يتولي امير من بارثيا عرش أرمينيا ويحتفظ لروما بالولاء الاسمي . وزاد الطين بله ان ماكريونوس حاول خفض النفقات العسكرية مما ادى الى اشغال غضب الجنود الذين اخذوا يتأسفون على أيام كاراكالا وفتوحاته الشجاعة (٣) وحاول ما كرينوس امتصاص غضبهم باعلان كاراكالا الاله ثم منح ابنه دياودومنيانوس لقب اغسطس ونسبه الى اسرة آل انطونينوس ، ولكن كل ذلك لم يجدي (٤) شيئا ، واثارت الجنود واخذت تبحث عن

Rostovtzeff, op. cit., I, p. 422.

(١)

Dio Cassius LXXIX, 9,3.

(٢)

Dio Cassius LXXIX, 26,2.

(٣)

Script Hist. Aug., Macrimus, XIV, 4.

(٤)

امبراطور جديد ولم يطل غيابها اذ راحت سيدات اسرة آل سيفيروس تسعى لاعادة الحكم الى الاسرة لأول مرة منذ مصرع كومودوس ، ويعرف ذلك بحكم نساء آل سيفيروس السوريات .

دور نساء آل سيفيروس في استرجاع العرش لابنائهن :

من اشهر نساء اسرة آل سيفيروس جوليا مايسا Julia Maesa وجوليا مايسا هي شقيقة الامبراطورة جوليا دومنا . وكانت امرأة ثرية ذات تأثير على الحياة في روما ، ولما ارتقى ماكرينوس العرش قرر اعادتها الى وطنها الاصلى وهو مدينة حمص في سوريا . وعاشت هناك مع ابنتيها الارملتين الاولى كانت تدعى جوليا سوايمياس Julia Soaemias والاخرى جوليا مامايا Julia Mamaea .

ولما علمت جوليا مايسا بان حكم ماكرينوس يترنح قررت ان تعرض القوات الرومانية بالمال وبأدعاء لا اخلاقي هو ان ابن ابنتها الكبرى جوليا سوايمياس - وكان في الرابعة عشرة من عمره ويدعى قاريوس اقيتوس باسيانوس Varius Avitus Bassianus ما هو الا ابن غير شرعى للامبراطور الراحل كاراكالا ، وعلى ذلك فهو احق الناس بالعرش . وكان باسيانوس شابا ناسكا مخلصا لديانته السورية .

وكثيره من أبناء هذه الاسرة كان يعمل كاهنا لرب الشمس الفينيقي السوري ايلاجبال Elagabal ، وقد سحرت وسامته الجنود الرومان مما شجعهم على الثورة المسلحة ضد ماكرينوس في يونيو عام ٢١٨ ميلادية ، والتي انتهت بهزيمة قوات هذا الامبراطور قرب انطاكية على ايد الجيوش المناصرة لباسيانوس ، حيث كانت جوليا مايسا وابنتها جوليا سوايمياس تصحبان الجنود وترقبان القتال من فوق عربتهما ، وسقط الامبراطور ماكرينوس وولده قتيلىن وهتفت الجنود بباسيانوس امبراطورا ، ووافق السناتو في روما على الالقاب كما استئصل الجنود كل من عارض ارادتهم . واصبح أعضاء السناتو اشبه بالعبدة الذين يرتدون عباءات الشيوخ على حد تعبير المؤرخ القديم (١) .

الامبراطور الجابالوس Elagabalus (٢١٨ - ٢٢٢ م) :

ولما كان باسيانوس كاهنا لرب الشمس الفينيقي الجابال في حمص فقد عرف باسم الجابالوس . ولكنه اتخذ اسما سياسيا هو ماركوس أوريليوس انطونينوس تيمنا باسم هذه الاسرة من الإباطرة ، وبالرغم من

مجهودات جدته ووالدته ومجهودات معلميه الا ان الصبي لم يكن يهتم بشيء سوى ربه الفينيقي الذي حمل تمثاله معه الى روما وراح يبشر بعبادته بين الرومان وينشئ تنظيمًا كهنوتيا داخل العاصمة .

أما الحكم ، خيره وشره فقد تركه لوالدته جوليا سوايمياس فأقبلت عليه بشغف جعل السناتو يدهش لامرأة تحاول ان تدس أنفها في شئونه ، وكان الجابالوس سعيدا وهو يرى جدته جوليا مايسا تقوم بدور الامبراطور الفعلى ليتفرغ لنشر عبادة ربه السوري الذي نقل تمثاله المخروطى الشكل والمصنوع من الحجر الاسود من سوريا الى روما . وزوجه بالربة القرطاجية تانيت Tanit ، واطاف الى القابه لقبًا غريبا وهو الكاهن المبجل لرب الشمس الذى لا يقهر الجابالوس ، وقد دهش الرومان لاستعراضات دينية غريبة عليهم واثارت فيهم الامتعاض وبدأ التذمر ينتشر بين الناس .

وفي عام ٢٢١ م بدأت جدته جوليا مايسا تحس بأن جنون حفيدها بهذا الرب الشرقى سوف يعرض الاسرة كلها للخطر ، فراحت تحثه على تبني ابن خالته اليكسيانوس Alexianus وهو ابن ابنتها الثانية جوليا مامايا Mamaea وتحثت اسم ماركوس اوريليوس الكسندر كما حثته على منحه لقب قيصر وذلك عام ٢٢١ م ، ولما كانت البنود قد ضاقت ذرعا بتصرف الجابالوس فقد راحت تنحاز للأمير الجديد وسرعان ما دب الصراع بين الامبراطور وخليفته . وهنا تدخلت قوات الجيش والحرس الامبراطورى فقتلت الجابالوس وامه في ربيع عام ٢٢٢ ميلادية واعادت تمثال ربه الى وطنه في سوريا .

الامبراطور الكسندر سيفيروس (١٩٢ - ٢٣٥ م) :

وانتقل عرش الامبراطورية الى الكسندر بعد ان اضاف الى اسمه لقب سيفيروس توكيدا لعودة العرش الى هذه الاسرة التى ينتسب اليها النساء السوريات الحاكمات .

كان الكسندر سيفيروس صبيا في الرابعة عشر من عمره لا يعرف شئ من الحكم شئ من التقدير على تحمل مسئوليته ، ولهذا سيطرت عليه نصيبات قوية رجال البلاط وقادة الحرس منهم اولبيانوس Ulpianus القائد البرايتورى والفقيه المعروف والذي كان من الناحية الفعلية (de facto) رئيسا للدولة . كذلك لعبت جدته جوليا مايسا وامه جوليا ماميا دورهما في السيطرة والادارة . ولما ادركت هاتان المرأتان انه من المجازفة ان يقام الحكم على البشري فحسب ، بن يجب ان يقوم على

أسس دستورية ثابتة خاصة لمجلس السناتو ، لأن ذلك سوف يضى على الحكم صفة شرعية مستمدة من تاريخ هذه المؤسسة العريق . ولهذا يعتبر هذا الحكم أسعد أيام السناتو في تاريخ الامبراطورية . وعلى ذلك اختير ست عشرة عضوا من السناتو للاشتراك في مجلس العرش ، كما اختير آخرون ضمن أعضاء المجلس الاستشاري للامبراطور . وكان اوليانوس الفقيه الروماني الشهير من أبرز أعضاء الحكومة والذي كان قائدا للحرس البرائتورى في الفترة ما بين ٢٢٢ - ٢٢٨ ميلادية . ولكن التوجيه والقيادة الفعلية كانت في يد والددة الامبراطور جوليا مامايا خاصة بعد موت امها جوليا ماميسا عام ٢٢٦ م .

ومن الملاحظ ان السيدات السوريات الحاكمات للامبراطورية الرومانية كن يعشقن الالقاب الفخمة فمثلا سجل اخذ النقوش القاب جوليا مامايا فيقول « أغسطس والددة الاغسطس وام ثكنات الجيش والسناتو والوطن

Augusta, Mater Augusti et Castrorum et Sentaus et Patriae

لقد كانت جوليا مامايا امرأة آمرة لا تبق على اعدائها ، بسطت نفوذها بشدة على ابنها لمدة احد عشر عاما ثم دمرته في النهاية . فمثلا ارغمته على ان يتخلص من زوجته التي كانت تفار منها . ولقد ادى شحها في الانفاق وتهربها من المسئوليات العسكرية الى فوضى شاملة في الادارة . ولكنها كانت مقبلة على الحكم بشغف ومهارة ، اذ حرصت على استمرار المبادئ التي اوجدها سبتيميوس سيفيروس ، كما شجعت نشر التعليم بقدر معين لكن المواطنين ، واصلحت من الحالات التي يطبق فيها قانون الحرس البرائتورى مع الاحتفاظ بعضويته للسناتو ، كما أصبح من حق قائد الحرس ان يصبح عضوا في مجلس السناتو مع الاحتفاظ بمنصبه . ولكن القضية الكبرى وهي كيفية التحكم في الجنود بقيت دون حل . هكذا راحت مامايا تتصرف وتدير بينما الامبراطور متقاعد ، معتمد على امه في كل كبيرة وصغيرة وذلك لانه كان ضعيف الشخصية محتقرا في نظر قوات الجيش الحاملة بالفتوحات والعطايا . لكن خيال الاسكندر الاكبر كان يسيطر عليه من آن لآخر فقد كان يحتفظ في محرابه الخاص بتمثال للقائد المقدوني العظيم (١) .

بدأت القلاقل عام ٢٢٨ ميلادية عندما تمردت قوات الحرس البرائتورى وقتلت قائدها اوليانوس دون ان يستطيع الامبراطور

(١) Script. Hist. Aug., Severus Alexander, XXXI, 5 ; Ibid., VIII, 4.

ولا البيت الحاكم كله ان يفعل شيئا للانتقام من قتله الرجل الذي قضى حياته في خدمتهم (١) ، وقد زاد من ضعف الاسكندر سيفيروس قيام الدولة الساسانية في بلاد الفرس على يد اردشير عام ٢٢٣ ميلادية . وبدأت الدولة الجديدة تطالب بحدود الامبراطورية القديمة وطالبت بأحققتها في الاستيلاء على مصر وآسيا الصغرى ، خاصة ان الدولة الساسانية بعثت مع قيام الديانة القومية الزرداشية «Zoroastrainism» التي فرضت على الفرس بعثا قوميا يطالب بطرد الرومان من الشرق من أجل ان ينتصر الخير على الشر ، وحاول اردشير غزو أرمينيا ولكن فشل وفي عام ٢٣٠ ، ٢٣١ م غزى ولاية ما بين النهرين الرومانية ، وبالرغم من ان القوة الفارسية كانت لا تزال ضعيفة الا ان ظهورها في حد ذاته كان يعتبر بادرة لقيام الاخطار في الشرق الاوسط ، وحاول الاسكندر سيفيروس تجنب محاربة الفرس بكل السبل ، ولكن لما فشلت مساعيه السلمية لم يكن امامه سوى قيادة الجيش الروماني الفاضب على تدهور سلطان الامبراطورية ، وفي ربيع عام ٢٣٢ حاول الرومان غزو بلاد الفرس ذاتها عبر ثلاث طرق مختلفة ولكنهم فشلوا بعد ان اوقعوا بالفرس خسارة كبيرة ، وبفضل هذا النصر اعيدت حدود الامبراطورية الرومانية الى ما كانت عليها وعاد الاسكندر سيفيروس الى روما ليحتفل بهذا النصر وذلك في عام ٢٣٣ ميلادية .

ويبدو ان عودة الاسكندر سيفيروس جاءت نتيجة وصول الانباء عن خطر القبائل الالمانية التي بدأت تهدد حدود الامبراطورية في المنطقة ما بين الراين والدانوب خاصة قبائل الالمانى «Alamanni» ، وبسرعة اتخذت الاجراءات على عجل لمواجهة هذا الخطر ، ورحل الامبراطور الى المانيا تصحبه امه والجيش الروماني ، وعند مدينة ماينز Mainz عسكرت قوات الامبراطورية ، وبينما كانت الجند تستعد لدخول المعركة حاولت الامبراطورة مامايا التأثير على ابنها لكي يسعى الى السلام مقابل دفع مبالغ باهظة للألمان والتفاوض معهم ، وبالفعل تم عقد معاهدة سلام مع الالمان جنبته الحرب ولكنها افقدته احترام جنوده الذين طالما اغضبتهم رضوخ الامبراطور لامه وتدخلها في الشؤون العسكرية البحتة . واتهموها بأنها سعت الى تجنب الحرب بسبب شحها وبخلها . وسرعان ما اندلعت الثورة في الثكنات بقيادة جايوس جوليوس فيروس ماكسيمينوس Maximinus Gaius Julius Verus ، وكان في الاصل فلاحا من اقليم تراكيا تمارس في الجيش الروماني حتى وصل الى رتبة عسكرية عالية . وقبضت الجنود

(١) Modrze Jewski et T. Zawadzki, la date de la mort d'Ulpian et la perfectue du pretoire au debut regne d'Alexandere Severe, Revue Historique de droit Française et etranger, 1967, p. 441 ff.

على الاسكندر و امه و اعدموهما ، و اعلنوا ارتقاء قائدهم ماكسيمينوس العرش مانحين اياه لقب اغسطس . وذلك فى عام ٢٣٥ ميلادية . ولم تفلح سياسة اغراق الجنود فى الرفاهية و اعطائهم دروعا من الفضة (١) ولا نداءهم باسم ايها المواطنين على طريقة القادة العظام ولا رعايتهم و السهر عليهم و تخفيف اعبائهم .

وقد كانت هذه الثورة بداية لخمسين عام من الفوضى اشتعلت فيها الحروب الاهلية و ساد التفكك و الانهيار الاقتصادى و بدأت الامبراطورية تترنح .

نظرة شاملة على الامبراطورية فى عصر آل سيفيروس :

بسبب الفوضى و الانحلال الذى حل بالامبراطورية طوال فترة الخمسين عاما التى تلت سقوط الاسكندر سيفيروس من (٢٣٥ - ٢٨٥ م) فقد نظر الرومان الى عصر سبتيموس سيفيروس نظرة الحنين ، و بالغوا فى سعادة الحال ايامها و فضائل الامبراطور ، ولكن الحق يقال ان اعتماد هذه الاسرة على الجنود و حدهم فى الحكم قوض اساس الامبراطورية الرومانية لان ما فعلوه لم يكن ابدا مماثلا لما فعله اغسطس نفسه او فسباسيانوس و اسرته او الابطرة الصالحون ، لان الامبراطور اصبح يختار من قبل الجيش و مقابل رواتب و مزايدات ، و اصبحت القوات هى التى تسقط الامبراطور و تقتله دون عقاب او خوف من احد ، اما السناتو فلم يعد بذى قيمة سوى هيئة صورية تقليدية ، و اصبحت اعضاؤه مجرد رجال ، اما الشعب فكان بين شقى الرضى و لم يكن فى مقدوره ان يفعل شيئا و السلاح مشهور فى وجهه .

ولهذا نجد الثقافة الرومانية تنهار ، ولا تكاد نسمع عن روائع الادب كما كان للحال فى عصر الابطرة الصالحين الا من بعض الكتاب و المؤرخين القلائل من امثال هيروديانوس Herodianus (١٧٠ - ٢٤٠ م) و ديوكاسيوس (١٥٥ - ٢٣٠ م) و لولاهما لما امكنا من الاستفادة بالمصادر الفنية التى خلفها لنا من عصر الاسرة السيفيرية خاصة ان كلاهما كان موظفا فى الادارة الامبراطورية فى ذلك العصر ، و جدير بالذكر ايضا الفيلسوف الاغريقى فيلوستراتوس Philostratus الذى رعته زوجة سبتيموس سيفيروس الامبراطورة جوليا دومنا فكتب عن السوفسطائين وعن حياة ابولونيوس التايانى Apollonius of Tayana كما كتب ايضا وصفا مطولا لروائع اللوحات الفنية ، و عدد آخر من الخطابات الادبية ، و من

Ibid. LVI, 2 ; LII, 2 ; XLII, 1-2.

الملاحظ أن هيروديان وكاسيوس ديون وفيلوستراتوس كانوا اغريق وكتبوا بالاغريقية ، ويعزى البعض افلاس الادب الرومانى فى ذلك لعصر الى بأس الكتاب من المثقفين الذى تضاعل عددهم واصبح التعليم ضحلا بسبب - التوسع فيه دون التعمق فى مواده او التطوير فيها .

ومن ناحية اخرى عصفت الاخطار بالامبراطورية وحاقت ييها من كل جانب ، فمن الشمال بدأ الجرمان يعاودون الكرة للهجوم على الامبراطورية ، ومن الشرق قامت الدولة الساسانية فى فارس وهى دولة قوية وطموحة ومتطرفة قوميا بسبب ديانتها "زر-اشية" مطالبة بالشرق الرومانى كله (١) ، واخيرا فان افراد الشعب الرومانى بداوا ينخوفون من بربرية الجنود الذين يسلبونهم خيرات البلاد ويدفعون لهم الضرائب الباهظة ، وبداوا يحقدون على الجيش الرومانى بقدر ما كان يحقدون على البرابرة الاعداء .

واذا اردنا تفهم جوهر حكم آل سس-يوس وجب علينا أن نضع امام اعيننا حقيقة هامة ، وهى قيام هذا الحكم على تراث الماضى دون محاولة التجديد والابتكار ، فكل قراراتهم ليس الا تقليدا للباطرة القدامى من اغسطس المؤسس الاول للامبراطورية وحتى عصر الباطرة الصالحين ، كما انهم عندما اعتمدوا على تجارب الماضى اعتمدوا على التجارب بكل اخطائها وفشلها دون محاولة الاستفادة من مدى تطبيق هذه التجارب او تطويرها والتخلص من المواقفات فيها .

ايضا سقط نظام اختيار ولى العهد الصالح وتبنيه وتربيته ، وذلك على يد ماركوس اوريليوس عندما عين ابنه كومودوس وريثا له ، صحيح ان احترام آل انطونينوس كان صفة من صفات آل سبتيميوس سيفيروس ، ولكن اهتمام هذا الامبراطور بتاليه كومودوس قضى على مبدأ الاختيار الصالح للامبراطور كما اراده الباطرة الصالحون ، واصبح السرس يورث للأبناء سواء كانوا صالحين ام غير صالحين ، وبالطبع كان اغلبهم غير صالحين لقيادة الامبراطورية خاصة فى تلك الفترة المعسبة من تاريخها .

اما السناتو فلم يعد كما كان ، حتى لم يعد يقوم بدوره الاستشارى بسبب اعتماد الامبراطور المطلق على المجلس الاستشارى الاعلى للدولة (٢)

J. Gagé, La montée des Sassanides, Paris Albin Michel, 1964. (١)

G. Alföldy, Sept. au I. - Journal du Sénat, Bonn 1968. (٢)

(Consilium) أكثر من أى وقت مضى منذ انشاء هذا المجلس الأخير على يد هادريانوس ، أين ذلك العهد من عهد تبيريوس الذى كان يشتكى من خمول أعضاء السناتو وعدم قدرتهم على التفاعل وتركهم شئون الامبراطورية له وحده ويطالبهم بالمزيد من المشاركة ؟

أما عن ادعاء اباطرة هذه الاسرة الالهية فليس امرا غريبا لانهم كانوا يشجعون عبادة الاباطرة الراحلين ويقلدونهم . كما أن نساء هذه الاسرة بدان بدورهن يقلدن ليفيا أو سيدات الاسرة اليوليوكلاودية من امثال اجربينا الكبرى والصغرى وافلوطينا زوجة تراجان وغيرهن ، فى التدخل والتحكم فى شئون الامبراطورية .

أما عن تنظيم اصحاب الحرف والصناعات فى نقابات والزامهم بتحمل المسؤولية العامة فان ذلك يبدأ من ايام كلاوديوس عندما الزم اصحاب سفن نقل القمح بمد المدينة بالقمح وامن على سفنهم وجعل لهم مقرا لقد اهتمت هذه الاسرة المتأخرة حرص تراجان واشرافه على انقطاعات ورعايته لها ، فتركت رعايتها حتى كادت ان تكون مستقلة ، كما ان فكرة هادريان فى وضع الجنود الذين ينتمون الى بعض الولايات ليرابطوا عند حدود ولاياتهم بهدف اشغال الفيرة الوطنية فى الدفاع عن هذه الحدود جاءت بنتيجة عكسية ، اذ أدت الى قيام الاحتكاك بين القوات ، وتفصيل المصالح القومية الخاصة على مصالح الامبراطورية ، ورأينا كيف ان قوات الدانوب ارغمت الاسكندر سيفيروس على ترك مشروعه وهو احتلال بلاد الفرس ليعود مع هذه القوات الى المانيا لطرد بعض القبائل المتبرزة ، لان فى نظر هذه القوات حماية المناطق التى جاءوا منها وارتبطوا بها ماديا وعاطفيا يجئ فى نظرهم فوق امن الامبراطورية وسلامتها .

أما عن فسق القوات وطمعها فى المال فهو امر قديم منذ ان اعتلى كلاوديوس العرش بعد دفعه مكافأة للجنود ، واصبح ذلك تقليدا متبعا ، أما تدهور الثقافة وانتشار الجهل وانحطاط الذوق الرفيع الى درجة البربرية وشراسة الطباع والاخلاق وتهجينها بطباع البرابرة فلم يكن راجعا الى منح الجنسية الرومانية لكافة شعوب لامبراطورية فحسب ، بل الى فشل الامبراطورية فى رفع مستوى الولايات وخلق ثقافة واحدة ترتبط بها اجزاء الامبراطورية فى شكل قومي متماسك على اساس عالى ، بل يرجع اللوم الى الشعب الايطالى نفسه الذى تكاسل وتقاعس ولم يتحمس للامبراطورية الواحدة المتماسكة خوفا من ان يفقد امتيازاته الوهمية على شعوب الامبراطورية غير اللاتينية .

كما بدأت بوادر مشكلة التخلخل السكاني والقومى تظهر منذ القرن الاول الميلادى ، وحاول الاباطرة تشجيع الايطاليين على الهجرة الى مختلف الولايات الرومانية من اجل التوحيد الفكرى والثقافى للامبراطورية ، ولكن اختلاف الطقس وانتشار الامراض ، وفقدان الهوية القومية وسط بحور من البرابرة الفلاظ الجهلاء اضاع الهدف المطلوب ، حتى المهاجرون الرومان الذين حافظوا على ثقافتهم ولغتهم من تيارت الشرق الاوسط او الشمال الجرمانى فقدوا تدريجيا الاحساس بهذا الهدف وبدأوا يتطبعون بطباع هذه الشعوب ويتحدثون بلهجاتها ويسلكون مسلكها .

ان نظام الحكم فى القرن الثالث الميلادى بالرغم من اعتماده على الفقهاء القانونيين ، وخبرة العقلية الادارية والتنظيمية والقضائية ، الا انه لم يكن ذلك الحكم الذى خطط له اغسطس او فسباسيانوس ، لان هذا الحكم سار فى طريق الدكتاتورية العسكرية او النظام الاوتوقراطى ، وكاد ان يصبح ملكيا مستبدا بالرغم من مظاهر النظام القديم شكلا ، سواء فى الانقلاب او المظاهر او الشارات وغير ذلك من المظاهر الصورية مما ادى الى نفور الكثيرين من هذا النظام .

وفى ذلك العصر ايضا بذات الامبراطورية تعود الى تقليد النظام الذى ابتدعه آل سليوكس ابان القرنين الثالث والثانى ق . م وهو انشاء المستوطنات الحربية لحماية اطراف الدولة (١) . واول من ادخل هذا النظام الى الامبراطورية هو هادريان عندما وطن القوات على حدود مواطنها الاصلية ، ثم طور سبتيميوس سيفيروس من هذا النظام ، ووزع الاراضى المنزوعة من العدو على الجنود والضباط لاستيطانها وزراعتها ، لان سياسة احاطة حدود الامبراطورية بحزام من المستوطنات العسكرية كان حلم كثير من الاباطرة بما فى ذلك ماركوس اوريليوس (٢) الذى حاول ان يوطن المنطقة حول رافنا بعناصر سكانية موالية حتى ولو غير رومانية .

وفى الشرق كانت الحضارة الهلينية تذوب فى بحر الثقافات الشرقية العريقة وانتصر العنصر الاسيوى (٣) على الحضارة الهلينية المتضائلة ، كما انتصر لعنصر القبطى عليها فى ودى النيل ، اما فى الغرب فقد ظهرت القوميات المحلية فى بلاد الغال واسبانيا .

(١) E.B. Kermann : Institution Seleucides, p. 90.; Rostovetzeff, op. cit

(٢) Rostovetzeff, op. cit., I, 423 ; Dio Cassius LXXI, 11, 4.

(٣) Rostovetzeff, I, p. 187. f.

في ذلك الوقت أيضا بدأ نظام الاقطاع يظهر وينتشر في دويلات شرق البحر المتوسط التي انسحبت من حيز الهلينية المنهارة عائدة الى روح الشرق القديم ، وينتهي تاريخ ديوكاسيوس عندما بدأ اردشير يهدد لا بلاد ما بين النهرين فحسب ، بل سوريا كلها معلنا ان آسيا الصغرى حتى بحر ايجيه ميراث فارس الشرعى ، ويقول « ديوكاسيوس » لم يكن الخطر يكمن في عميان السناتو في ان يرى خطورته (اي اردشير) في حد ذاته ، بل في ان يدرك الحالة التي وصلت اليها الجيوش لدرجة ان بعضها بالفعل انضموا اليه (اي الى اردشير) ، حتى قوات ما بين النهرين جرات على قتل قائدها .

« وكان الاسكندر (سيقيروس) يدرك انهم سوف يقتلونى لو شاهدونى في زيبى (١) الرسمى ، ولهذا جعلنى اقضى البقية الباقية من قنصليتى في مكان ما خارج روما » (٢) .

وهكذا ينتهى مؤلف ديوكاسيوس ، ويتصارعون كالجلادين على العرش وتندحرج رؤسهم بعد سنوات من توليهم ، بل بعد ايام قليلة ، لكنهم لم يعبأوا ابدا بذلك لان شهوة السلطة كانت تعمى ابصارهم تماما مثلما كان يهتف الجلادون امام الامبراطور قديما « سلام ايها الامبراطور المقبلون على الموت يحيونك » . كل هذا كان يحدث والامبراطورية تسير بسرعة نحو الهاوية .

Dio Cassius LXXII.

(١)

Ave Imperator : morituri te Salutant.

(٢)

(٣) هي عبارة كان يصرح بها الجلادون قديما لتحبة الامبراطور قبل بداية قتالهم والامبراطور يجلس ليرى من الذى سيموت ومن الذى يحيا .

الفصل الثامن

الامبراطورية بين التصدع والصمود (٢٣٥ - ٢٨٥ م)

من الأسكندر سيقيروس حتى ديوقليديانوس

مظاهر التصدع والانحيار في القرن الثالث :

ان نظرة فاحصة للمحنة السياسية والاقتصادية والفكرية التي مرت بها الامبراطورية الرومانية ابان القرن الثالث الميلادي لتبين بوضوح العوامل التي ادت الى سقوط روما عام ٤١٠ ميلادية وسقوط لامبراطورية الغربية نهائيا عام ٤٧٦ ميلادية حيث قامت دويلات جرمانية صغيرة على اشلائها ، بينما قام على نصفها الشرقي ما يعرف بالامبراطورية البيزنطية .

ويلقى بعض المحللين السياسيين اللوم على الاباطرة أنفسهم ، ويحملونهم مسؤولية هذه الدراما المفجعة ، فمثلا يرى « قونجت » ان بذور الانحيار ظهرت منذ فترة التوسع في عصر الجمهورية ، لانه كلما اتسعت الحدود كلما فقد المواطنون المزايا السياسية القديمة التي كانوا يتمتعون بها منذ الايام الاولى للجمهورية ، وتحولت المجالس الشعبية الى مسرح للتمثيل السياسي بين محترفي السياسة ، بل تحولت هذه المجالس الى العوبة في أيديهم (١) كما حدث في عهد الاخوين جراكوس وبالتالي حرمت الامبراطورية من مساهمة مواطنيها الفعالة في ادارة شئونها .

وكان المفروض ان يقوم اغسطس بثورة اصلاحية لاقتلاع جذور الفساد السياسي ، وبالفعل فعل ذلك ، ولكنه أهمل الشعب الروماني ذاته ، وتعاون مع السناتو بعد ان جرده من السلطات ، فكان حكمه ثنائيا بينه وبين السناتو (dyarchy) ، ووافق السناتو على الوضع الجديد قانعا بتحويل اغسطس الى شبه ملك دائم ، يقاسمه حكم الامبراطورية ، وتولى رجاله مهام الادارة العسكرية للولايات وهكذا أصبح السناتو هيئة استشارية فقط للامبراطورية كما كان في اصل نشأته في عصر الملكية ، واستفاد اغسطس كثيرا من خبرة رجاله الارستقراطيين من الرومان والايطاليين محترفي السياسة

cf Joseph Vogt : The Decline of Rome — The Metamorphosis of Ancient Civilization (Translated from German by Janet Sondheimer) Weidenfeld and Nicolson, London 1967), p. 11.

ابن عن جد ، وخلال هذه الصفقة بين أغسطس والسنااتو ضاعت حقوق العامة وتضاءل دور الجمعيات الشعبية ، وأصبح الامبراطور وصيا على العامة عندما حصل لنفسه على سلطات نقيب العامة ، وربط بين حرية الفرد ونظام حكم المواطن الاول Principatus et libertas هكذا لم تكن ثورة أغسطس ثورة راديكالية بل ثورة اصلاحية توفيقية ، وبالتالي لم تمهد الأرضية جيدا لقيام الامبراطورية عليها .

كذلك يلقي المحللون اللوم على أغسطس في وضع تقليد اتبعه خلفاؤه من بعده وهو اعتماد الامبراطور على القوة العسكرية لفرض نفوذه القانوني والدستوري وللتخلص من أعدائه ومعارضيه ولتحقيق رغباته .

وظل النظام الثنائي الذي أوجده أغسطس قائما على مدى قرنين من الزمان تعرض خلالها لتعديلات كثيرة ، ونشب صراع مرير بين الإباطرة والسنااتو حول مسألة الحكم ، ودار جدل هل يختار السنااتو الامبراطور أم ينحصر دور السنااتو في الموافقة على تعيين الامبراطور والانعزام عليه بالسلطات اللازمة ؟ وقد أدى هذا الصراع الصامت الى استئصال عدد كبير من شيوخ الاسر الارستقراطية الرومانية والايطالية التي كانت تكون جوهر السنااتو القديم ، وحل محلهم رجال جدد منسوبو الارادة والكرامة نجى بهم من الولايات البعيدة مثل بلاد الغال واسبانيا وافريقيا وآسيا الصغرى ، وأصبح السنااتو الجديد خليطا غريبا ، وعلى حد التعبير القديم أصبح رجاله عبيدا « يرتدون عباءات الشيوخ » ، واختلفت نظرة الإباطرة الذين جاءوا أيضا فيما بعد من الإقاليم الايطالية ، ثم الولايات اللاتينية العنصر والثقافة ثم الولايات - الشرقية العنصر والثقافة - اختلفت نظرتهم الى السنااتو ، ما بين احترام وعطف مثلما فعل أنطونينوس التقى الى كراهية وازدراء مثلما فعل كومودوس ، فضلا عن ازدهار طبقة الفرسان التي فتحت أبوابها على مصراعيها للجنود المسرحين ، واستولت هذه الطبقة على كافة المراكز الحيوية في الامبراطورية .

وفي نفس الوقت الذي هوت فيه سلطة السنااتو صعد نفوذ قادة الجيوش الرومانية ، وقد بدأ التسلط العسكري بسيطرة قوات الحرس البرائيتورى على القصر وقتلها لبعض الإباطرة وتجنين من تراهم ممن يدفعون لها ثمن الجلوس على العرش ، ثم سرعان ما ظهر نفوذ القوات المرافطة عند حدود الامبراطورية خاصة في المانيا والدانوب والشرق الاوسط ، وتحرك القادة الطامسون في الحكم يوحون لجنودهم الهتاف بهم إباطرة مقابل وعود ومكافآت ، وأصبحت أوامر العسكريين أكثر رزنا من نصائح الآباء وكشفت الجيوش - كما قال تاكيتوس - عن سر الامبراطورية .

لقد جاء سبتيميوس سيفيروس ، من الأسرة المنسوبة ، من أسرة رومانية الثقافة ، فينيقية العرق والتفكير ، موطنها لبتس ماجنا (Leptis Magna) (بلدة الحالية) في مقاطعة طرابلس (Tripolitania) في ولاية افريقيا ، بينما جاءت زوجته جوليا دومنا من عائلة كهنوتية سورية كانت تقيم في حمص (Emesa) ، وقد تعاطف ابنائها جيتا Geta وكاراكالا Caracalla مع الجانب السوري أكثر من الجانب الافريقي الفينيقي ، وكانت سياسة هذه الأسرة متميزة بالتعاطف الشديد نحو الشرق الاوسط ، خاصة نحو العنصر السوري الفينيقي ، ولهذا ولوا ظهورهم للتقاليد الرومانية الاوربية البالية ، وهدموا عقدة الاستعلاء الروماني القديم ، ووضعوا فلسفة حكمهم في الجيش وحده . وبهذا وضعوا اساس الحكم العسكري المطلق . وربما ساعد في ذلك ادراكهم ان مهمتهم الاولى هي حماية الامبراطورية من التصدع والعدوان الخارجى ، وهى امبراطورية شاسعة امتدت من حدود اسكتلندا شمالا حتى حدود اسوان جنوبا ، ومن بلاد ما بين النهرين شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا . وتحت تهديد الخطر الخارجى وجد السنانون نفسه راضيا بدور المحقق لمطالب الاباطرة والجنود ، كما فتحت هذه الاسرة الابواب على مصاريعها لرجال طبقة الفرسان لتولى أعلى المراكز سواء فى الادارة او فى الجيش ، وأصبح من حق أى فرد من رعايا الامبراطورية ان ينضم الى الجيش الامبراطورى ويترقى الى رتبة قائد المائة (Centurion) ومنها يدخل طبقة الفرسان ليتولى أعلى المناصب الادارية والعسكرية ، وبذلك فقد العنصر الرومانى والايطالى السيطرة على حكم الامبراطورية .

لقد أصبح الجيش الرومانى فى القرن الثالث هو الذى ينعم بشمار الامبراطورية ، ولم يعد جيشا للنظام ، موضوعا عند حده كما كان فى عصر اغسطس وتيبريوس وبعض خلفاء الاسرة اليوليوكلاودية ، بل أصبح هو المتحكم الفعلى . فقد زيدت عدد الفرق وضوعفت الرواتب ، ومنح الجنود حق الزواج اثناء الخدمة ، وحق الاستيلاء وزراعة الاراضى الواقعة على حدود الامبراطورية (١) ، كل هذه الامتيازات قتلت غريزة الجندية الحازمة ، سر انتصار روما القديمة - واوجدت نوعا جديدا من الجند المتقاعسة المتراخية التى تزاحم الفلاحين فى زراعة الأرض وتزاحم المدنيين حياتهم وارزاقهم ، ولعل كلمات سبتيميوس سيفيروس فى يورك وهو على فراش الموت لخير دليل على ذلك عندما قال لولديه « تماسكا وادفعوا للجنود ولا يهتمكم بعد ذلك شئ (٢) » .

cf. Watson, The Roman Soldier, p. 111.

(١)

cf. Dio Cassius LXXVI, 15, 2.

(٢)

لقد أعطى الحكم العسكرى المطلق للباطرة حقوقاً مدنية ودينية تخول لهم حق سن القوانين دون الرجوع الى السناتو ، حتى الاستشارة حصرت في مجموعة ضيقة من كبار الفقهاء والمشرعين ، الذين كانوا يحيطون بالامبراطور مكونين مجلس الامبراطورية (Consilium Principis) ، واصبح من حق هذا المجلس سن التشريعات Constitutiones واصبح كبار الفقهاء يتولون قيادة الحرس البرائتورى Praefectus Praetorio ، بل اصبح صاحب هذا المنصب بمثابة نائب الامبراطور ، ومن أمثلة الفقهاء الذين شغلوا هذا المنصب الخطير بلاوتيانوس Plautianus وبابيانوس Papianus في عصر سبتيميوس سيفيروس ، وباولوس Paulus وأولبيانوس Ulpianus في عصر خلفائه ، واصبح لهؤلاء الحق في الرجوع الى السوابق القانونية والفتاوى الدستورية في حالة تنازع القوانين ، بل ووضعوا المبادئ الاولى للقانون الدولي عندما وضعوا قانون الامم (ius gentium) — ذلك التراث القانوني الخالد الذي جمعه جستنيانوس Justinianus في موسوعة القانون (Corpus iuris) ، ولكن هؤلاء الفقهاء العظام هم الذين أعطوا للحكم العسكرى المطلق قاعدة دستورية ، واول من افتي بان واجب المواطن الاساسى هو التفانى في خدمة الدولة ، وأن الامبراطور هو مصدر السلطات والقوانين والمالك الاول لضياع وممتلكات الامبراطورية ، وهو يملك لانه يحكم ، ويحكم لانه يملك ، بل اصبح الناس يخاطبون الامبراطور بلقب الرب Dominus ، ويشار الى أسرته بالبيت المقدس domus divina ، واصبح كل شيء له صلة بالامبراطور مقدس (Sacer) ، بل وتحققت اولوهية الامبراطور ولكن بمنطق يختلف عن منطق الشرائيين ، وهو لانه بطل مخلص للوطن برز ليؤدي هذه الرسالة بتفانى وشجاعة فهو اذا مبعوث العناية الالهية (١) .

لقد كان للدكتاتورية العسكرية وتسلطت القوات على الحكم مضار ومنافع ، فمن ناحية الزم ذلك الجيش بحماية الامبراطورية والدفاع عنها ورد المعتدين عنها ، ولكن دفعه الى الفرور والتسلط والتماذى في تعيين قادتهم اباطره ، وبدأت هذه اللعبة الجديدة بعد اعتيال سيفيروس الاسكندر عام ٢٣٥ ميلادية وتعين ماكسيمينوس Maximinus — التراقي الاصل وقائد القوات المتمردة — امبراطورا ، وساد الامبراطورية صراع عسكرى بين القوات والقوات ، شبه بالصراع الذى دار في عام الفتنة (٦٨ — ٦٩ ميلادية) وفترة الثورات ١٩٣ — ١٩٧ ميلادية ، وتحطم السلام

الرومانى اعظم ما حققه اغسطس والاباطرة الصالحون تحت اقدام الجند المتصارعة . ففى خلال الفترة ما بين ٢٣٥ - ٢٨٥ ميلادية ادعى العرش اكثر من ست وعشرين امبراطورا هلك معظمهم قبل الوصول الى العرش ، ولم يكلف السناتو سوى خمسة منهم فقط ، بينما لم يختار الاباطرة سوى خمسة منهم فقط ، ولم ينج من الاغتيال سوى امبراطور واحد فقط ، وكان المنهزمون من هؤلاء الادعياء يلقبون « طفاة » ، والمنتصرون يصبحون « اباطرة » ، وكان الجنرال المنتصر يشرع بعد الجلوس على العرش فى استئصال معارضيه ، فجاليينوس (٢٥٣ - ٢٦٧ م) مثلا استئصل مالا يقل عن ثمانية عشر منافسا . وهى خسارة كبيرة لان معظم المتصارعين على العرش كانوا من خيرة القواد كفاءة وشعبية بين جنودهم .

كذلك يلقى المحللون اللوم على اغسطس فى انشاء امبراطورية مترامية الأطراف ، متعددة الاجناس والثقافات . ومحاولة حكمها عن طريق حكومة مركزية غير قادرة على الاستعانة من اثار البشرية والطبيعية لشعوب الامبراطورية ، كما انشأ نظاما هندسيا اجتماعيا طبقيا عقيما - فشل فى ارضاء ارباب الطبقات ، ونفس الطبقات العاملة المنتجة والتي من عرقها عاشت الامبراطورية . ومن الضرائب التى كانوا يدفعونها يتسلم كبار الضباط والموظفين ذواتهم الصالية ، وتعيش القوغاء المتقاعسة عالة عليهم . ولكن ابرة آل سيفيروس حاولت علاج هذه الظاهرة عن طريق اعطاء الامبراطورية التسعة المطلق لغرض المساواة بين شعوب الامبراطورية وتحطيم الحواجز الاجتماعية وتحقيق الوحدة السياسية فى شخص الامبراطور نفسه ، وهو نظام ابتدعه الفرس وحاول الاسكندر الاكبر تطبيقه ، ونتيجة لذلك مات السناتو ، وفقدت روما بل ايطاليا كلها مكانتها المتميزة واصبح الاجانب غير الرومان (peregrini) هم سادة الامبراطورية الجدد ، وذاقت ايطاليا والايطاليين لأول مرة الالم الذى عانته شعوب الامبراطورية للشرقية ، بأن عسكرت فيها فرقة مرابطة بالقرب من روما ، واصبح الامبراطور يحكم من داخل العاصمة القديمة باسم البروقنصل وهى سلطة عسكرية كانت تحكم بها الولايات فقط ، بل وفتح الحرس البرايتورى امام الاجناس المختلفة للامبراطورية من شرقيين والليبيين ولم يعد حكرا على الرومان والايطاليين (١) .

ان فلسفة وضع الولايات على قدم المساواة مع ايطاليا فى الحقوق والواجبات على يد آل سيفيروس هى نهاية قصة نهب ولايات آسيا والشرق

وخراب اقتصادها على يد المستغلين الرومان. ، وهي قصة معروفة منذ ايام عصر الجمهورية ، ولقد حاول قيصر ومن بعده أغسطس وقف هذا النهب الجشع لجامعى الضرائب من الرومان (publicani) واستبدال ذلك بتطوير اقتصاد هذه الولايات ثم الاستغلال المنظم العاقل لها ، ولعل كلمة تيبيريوس الشهيرة الى واليه ايميلوس ركتوس فى مصر لخير مثال على ذلك عندما عنفه على ارسال جزية اكثر من النسبة المقررة بقوله « أريدك أن تجز غنمى لا أن تسلكها » (١) . كان المحتجون على طريقة نهب واستغلال الولايات يطالبون بتطوير اقتصاد هذه الولايات بالتخطيط السليم ، ومنح شعوبها الجنسية الرومانية ، وتضييق البون ألثاسع الذى يفصل بين المواطنين الرومان Cives وبين رعايا الامبراطورية غير الرومان (peregrini) ، وبالفعل ساد اتجاه بمنح الجنسية لبعض المستوطنات اللاتينية فى الغرب وبعض مواطنى المدن الاغريقية فى الشرق ، ثم نجد محاولات لتطبيق القانون المدنى الرومانى فى الولايات غير الرومانية ، ثم تطوير قانون يساوى بين هذه الشعوب المختلفة هو قانون الامم (ius gentium) وكان الدستور الانطونينى الذى استثنه الامبراطور ماركوس أوريليوس أنطونينوس الشهير بأسم كاراكالا عام ٢١٢ م والذي بمقتضاه منحت الجنسية الرومانية لجميع شعوب الامبراطورية باستثناء بعض الفئات الخارجة على القانون هو فتوى لسياسة المساواة بين الرومان وغير الرومان فى الحقوق والواجبات ، وقد استقبلت شعوب الامبراطورية هذا القانون بالبشر والسرور اذ لاحظ علماء الوثائق البردية تهافت الاغريق فى مصر على اتخاذ الاسم الرومانى « أوريليوس » كاسم جديد لهم بعد حصولهم على الجنسية الرومانية ، وبصرف النظر عن رأى بعض المؤرخين فى أن الدافع وراء هذا الدستور هو الرغبة فى فرض ضرائب جديدة على الناس نظرا لشدة الازمة الاقتصادية خاصة أن الجنسية الرومانية الجديدة لم تعف حاملها الشرقيين من ضريبة الراس ، بل حملتهم الضرائب التى كان يدفعها المواطنون الرومان مثل ضريبة الارث (٢) .

ان ستة قرون ونصف قرن من حكم الامبراطورية للشرق الهلنستى تقريبا لم تنجح فى تحويله الى شرق لاتينى فكرا ولغة وثقافة ، لأن اللاتينية كانت ضاربة الجذور فى مجتمعات الشرق ، بل تسلت الافكار الاغريقية والديانات واللغة الاغريقية حتى الى داخل روما نفسها ، فكتب المؤرخون تاريخ روما بالاغريقية مثل هيروديان وديوكاسيوس ، وغزت الفلسفات

(١) عبد اللطيف أحمد على - مصر والامبراطورية الرومانية - ص ٦٩ ملحوظة ٢ .
cf. H.I. Bell. J.E.A., vol. 23 (1942), pp. 29-19.

الاغريقية عقول المثقفين الرومان واصبحت اللغة الاغريقية لغة تخاطب المثقفين الرقيمي الثقافة كما كانت الفرنسية يوما في مصر في العصر الحديث .

وجدير بالذكر ان الشرق ايضا لم يكن اغريقيا بحتا . لان القوميات واللغات الوطنية استمرت حية ومحتفظة بكيانها الخاص داخل الاطار الاغريقي ، فبقيت اللغات العبرية والعربية والسوريانية والارامية والمصرية لغات حية داخل الاطار الاغريقي وداخل الاطار الاكبر في الامبراطورية الرومانية ، واحتفظت هذه القوميات بديانتها ، وغزت هذه الديانات الشرقية افئدة الرومان فتربعت ايزيس على الكابثول مع زوجها سيرابيس (اوزوريس في الصورة الاغريقية) ، وجاء الاله الفارسي مثراس Mithras ايضا الى روما ، كما وجدت المسيحية - وهي ديانة سامية شرقية وجدت لها معجبين وعبادا من بين الرومان . وما يتاثر من الشرق يمكن ان يقال عن الولايات اللاتينية الغربية بصورة اخف وطأة . نبالرغم من انتشار الثقافة اللاتينية في بعض الولايات الغربية مثل بلاد الغال واسبانيا وبعض المناطق في شمال افريقيا وبريطانيا والمانيا ، الا ان الوجود القومي واللغوي لسكان الاصليين ظل يقاوم وبقي يقاوم - في اطار ضيق - موجه الحضارة والثقافة اللاتينية ، اذ بقيت اللغة الكلتيه Celtic لغة التخاطب بين القبائل الغالية والجرمانية والاسبانية ، بل وفرضت هذه اللغات تأثيرها على اللغة اللاتينية ، فظهرت لهجات لاتينية افليمية في هذه المناطق هي التي تحولت الى اللغات الاوربية الحديثة فيما بعد ، وفي شمال افريقيا بقيت اللغة الفينيقية الليبية (البونيقية) مستخدما جنبا الى جنب مع اللغة اللاتينية .

لقد شهد القرن الثالث الميلادي سيطرة الجنود الالليين (اليوغوسلافيين) والبانونيين (المجرين) على الجيش الروماني وعلى المستوطنات العسكرية عند الحدود ، وفرض قاداتهم انفسهم على العرش بقوة السلاح . وتحولت المجالس المحلية التي انشأها الاباطرة بهدف تحقيق الحكم الذاتي بين هذه الشعوب المختلفة الى اجهزة ادارة وقمع للحكومة الرومانية لتحقيق مآربها وسلخ السكان بالضرائب الباهظة . والقي العبيء في ذلك على الطبقة المسورة الحال لتتولى هذه المناصب الشرفية التي كانوا ينفقون عليها من جيوبهم ، وانتشرت مجالس العشرة (dekaprotoi) واصبح يرشح لها الاغنياء في قائمة انتظار خاصة لشغل هذه الوظائف (album decurionum) . وعلى كاهل هذه الطبقات البرجوازية الصغيرة قامت اجهزة الحكم في الولايات ، ومن اموالهم الخاصة راجت عمليات البناء والتعمير والترميم ، وقيمت مهرجانات الترفيه وصيد الحيوانات للتسلية العامة .

هذا هو اصل نشأة البرجوازية في تاريخ الفكر السياسي العام ، لكن سرعان ما حل الدمار الاقتصادي بهذه الطبقة الثرية ، واهملت الزراعة لقلة العناية بالرى والصرف ولعدم تحسين وضع المزارعين وتخفيف الضرائب عنهم ، ولتمسك الدولة بالنسبة القديمة المعينة من انتاج الفلال دون الوضع في الاعتبار ان الاجور قد تضاعفت والائمان قد أصبحت باهظة ، وان ايجار الارض نفسه قد أصبح خرافيا ، فضلا عن عوامل أخرى مثل ارهاق الارض ، وتقلب مناخ البحر المتوسط مما يجعله يؤثر عادة على الانتاج الزراعى والحيوانى . كما ان النقص فى الايدى العاملة فى مجال الزراعة قد ظهر واضحا بسبب الخسائر البشرية نتيجة للهبوط الشديد فى نسبة المواليد وارتفاع نسبة الوفيات نتيجة لسوء التغذية ، وبسبب انتشار الاوبئة الرهيبة ، فضلا عن خسائر الحروب المتعاقبة التى لم تتوقف ، كما ان ظاهرة الهروب الجماعى للفلاحين من القرى بسبب عجزهم عن دفع الضرائب القاسية المفروضة عليهم جعل نسبة الاراضى البور تزداد ، ونتيجة لاختفاء الملكيات الصغيرة ، بدأت الاقطاعيات تظهر خاصة فى مصر ، وتحول الفلاحون الى عبيد لاصحاب هذه الاقطاعيات ، فمثلا تدل الاحصائيات ان الاقطاعيين فى هرموبوليس ماجنا « الاشمونين » كانوا يمتلكون ١/٦ زمام الارض المزروعة فيها . وقد تضخمت هذه النسبة فيما بعد خاصة فى القرن السادس الميلادى عندما نسمع عن عائلة ارستقراطية واحدة هى آل ابيون (Apions) ممتلك وحدها ١١٢.٠٠٠ ارورا من زمام منطقة اوكسيريخوس « اليهنسا » البالغ ٢٨٠.٠٠٠ ارورا . اى ان اسرة واحدة امتلكت ٢/١ من زمام اراضى هذه المدينة الريفية فما بالك بباقى الاسر الاقطاعية الاخرى (١) .

هكذا عصف الفقر بالناس ، واسقط فى ايدى حكومة الامبراطورية . واضطرت فى عصر سبتيميوس سيفيروس الى زيادة الضرائب والمكوس لتعويض العجز العام فى دخل الخزانة ومجابهة نفقات الحروب المدمرة على الجبهات المتعددة . لقد كان على الناس ان تتحمل نفقات اطعام الجيوش وصناعة ملابسهم وسلاحهم وان يعبدوا لهم الطرق ويحفروا الخنادق ويبنوا الاسوار الدفاعية مجانا ، ونتيجة للضعف وسوء التغذية انتشرت الاوبئة الفتاكة مثل الوباء الذى انتشر ايام ماركوس اوريليوس وقضى على نسبة كبيرة من السكان ، ثم عاد واندلع فى عهد الامبراطور ديقىوس (Decius) . ولاول مرة شعرت الامبراطورية بنقص فى القوى البشرية

A.H.M. Jones, Thoughts on the Decline of the Roman Empire, Bulletin (١)
of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XXIII, Part I, May
1961, p. 14.

المنتجة ، خاصة في مجال الزراعة - العمود الفقري لاقتصاد الامبراطورية - وضاق الناس ذرعا بالارهاق المالى والجشع الرومانى والفقر الاقتصادى ، ولعل اصدق صورة على مرارة الناس ذلك النقش الذى اقامه اهالى قرية سكابتوبارا Skaptopara في تراقيا ويرجع تاريخه الى عام ٢٣٨ م وهو يقطر مرارة واحتجاجا على تسلط الجنود وجشع جبلة الضرائب ويقولون « لقد ضقنا ذرعا حتى اننا ننوى ترك بيوت آبائنا بسبب قسوة هؤلاء الزوار . لقد كنا نحن - ملاك العقارات - كثيرين فأصبح عددنا الآن ضئيلا » (١) . وفى الفيوم واحة الحضارة والازدهار الاغريقى ، هجرت القرى وانقرضت الارض المزروعة وانتشرت ظاهرة الهروب الجماعى للفلاحين (٢) المصريين واصبح الطعام شيتا باهظا فى مصر التى تعكس اوراق البردى المصرى المعاناة والالم والفقر والحرمان لدرجة ان باعت الام اطفالها لتأكل بثمرتهم (٣) .

لقد حائل بعض الاباطرة كما سنرى - اعادة تعمير المدن والقرى الزراعية ، ووضع معايير اكثر انسانية ، لكن لم يكتب لهذه المجهودات النجاح لا التعمير واعادة التسيكين شمل قلب المدينة الريفية فقط بينما تركت اطرافها مهجورة (٤) ، كما ان المحاولة توقفت لان جهاز الادارة الامبراطورية كان ينقصه المتخصصون والتخطيط السليم فضلا على ان الامبراطورية كانت مشغولة فى صراع دفاعى مميت واعمى ضد اعدائها والمعتدين عليها والطامعين فى الاستيلاء على اراضيها .

وكما يحدث فى كل عصر - تستخدم الحكومات سك النقود لتحقيق التوازن بين السيولة والاسعار حسب دراسات اقتصادية هدفها الحفاظ على سلامة الاقتصاد ، ولكن حكومة الامبراطورية فى محنتها استغلت النقص فى الذهب والفضة ورفعت من نسبة النحاس فى العملة الفضية لدرجة ان النقود السكندرية فى القرن الثالث الميلادى التى كانت تسمى بالقطع ذات الأربع دراخمت فضية (Tetradrachma) أصبحت قطع برونزية ؛ وقد بدأ تخفيض نسبة الفضة فى النقود منذ عصر ماركوس أوريليوس فصاعدا،

(١) S.I.G. 3rd edition, no. 888. cf. Vogt, op. cit., p. 26.

(٢) A.E.R. Boak and H.C. Youtie, «Flight and Oppression in Fourth-Century Egypt», Studi in Onore di Aristide Calderini et Roberto Pariboni, 2 (Milan-Varese, 1957), pp. 325-337.

(٣) cf. J.G. Winter, Life and Letters in Greek Papyri, Michigan Ann. Arbor 1933, p. 59 = P. OXY, XVI, no. 1895.

(٤) أنار سيد أحمد على الناصرى - المبرر العلمى لحفائر كوم أو شيم الموسم الثانى

وكان من نتيجة تخفيض قيمة العملات في الامبراطورية ارتفاع الاسعار ، وانخفاض سعر الذهب ، الى جانب هبوط سعر الفضة ، واهتزت الثقة في الدينار الروماني والنترا دراخما السكندرية ، ورفضت شعوب الامبراطورية التعامل بالنقد المخفض ، بينما ارتفعت اسعار العملات العتيقة ذات النسبة العالية من الفضة والتي ترجع الى ايام العهود السابقة ، ففي مصر رجع الناس الى استخدام العملات القديمة منذ ايام البطالسة ذات النسب المرتفعة من الفضة . وظهرت محاولات لتزييف النقود القديمة بطلاء العملات البرونزية بطبقة من الفضة ، واحيانا سك نقود من الرصاص المطلى بطبقة من الفضة ، وصدرت لأول مرة عقوبات ضد المزيفين والمتلاعبين في العملة مثل الجلد والحبس (١) .

وكما نلاحظ عند التنقيب في منازل كوم اوشيم « كرانيس » اوباكخيلاس « ام الاتل » يعكس القلق الاقتصادي وعدم الامان لدى الفلاحين الرغبة في تخزين اكبر عدد من النقود في اوانى مدفونة في الأرض او تحت ارضية حجرات المنازل (٢) . وقد بلغت الفوضى الاقتصادية والنقدية ان الناس رفضت التعامل بالنقد الامبراطوري ، ولجأت الى الطرق البدائية في التعامل الا وهو نظام المقايضة ، واغلب الظن ان هذا النظام انتشر من مصر التي عاشت تاريخها الطويل تتعامل به ، كما ان الطبيعة الزراعية للفلاحين المصريين تشجع على المقايضة كما هو الحال في بعض قرى الفيوم حتى في العصر الحديث . ، على اي حال أدى ارتفاع الاسعار والاجور الى تضخم مالي رهيب ، وقد نجح العالم هايكلهايم (Hichelheim) في دراسة الازمة الاقتصادية بدقة على ضوء كل المعلومات المستمدة من النقوش وأوراق البردى وشقافات الضرائب ، وتوصل الى حقيقة واحدة وهي هبوط مستوى المعيشة للسكان بشكل مقلق خلال القرن الثالث والرابع .

وقد ظهرت رعوثة الاجهزة البيروقراطية وغبائها عندما أصبحت في حاجة ماسة الى المال من أجل الانفاق على الجيوش ، فقد أجبرت المجالس المحلية في ولايات الامبراطورية على الاشراف على جمع لنسب العينية المقررة على الاراضى الزراعية دون مراعاة لارتفاع الايدى العامة وقلة المحصول وتضاعف أسعار الغلال . وكانت الحكومة تطالب بالنسبة على كل زمام قرية كاملا دون اعتبار للأرض المتروكة بورا او التي هرب

cf. Vogt, op. cit., pp. 26-27.

(١)

R. Haatvedt and E. Peterson, Coins From Karanis, Michigan An (٢) Arbor 1966, p. 10. ff. cf. also El-Nassery, G. Wagner A. New Roman Hoard From Karanis, B.IFA.O, LXXV (1975) pp. 25 ff.

(٢٣ — تاريخ الامبراطورية الرومانية)

أصحابها ، وكانت الضريبة المطلوبة من زمام القرية تقسم على الزارع أى ان يتحمل الذين زرعوا أراضيهـم ضرائب الذين لم يزرعوا أو هربوا من القرية ، وإذا حدث عجز عند المسئول عن جمع الضريبة كان عليه ان يعوضها من ماله الخاص ، وكانت النتيجة هو رفض الناس أو أبناء الطبقة المتوسطة الاقبال على وظائف الإدارة (Curiales) (١) ، وأزاء ذلك اضطرت الحكومة الى جعل هذه الوظائف الشرفية اجبارية ، أما بالنسبة للفقراء فقد توسعت الدولة فى تطبيق نظام السخرة عليهم (munera) واستغلالهم مجاناً فى تحقيق المشروعات الدفاعية مثل بناء سور روما الكبير فى عصر أوريليانوس عام ٢٧١ ميلادية ، أو فى شق الترع وردم الجسور وبناء الطرق وفى تزويد الجيوش بكل ما تحتاج اليه .

وبسبب تضخم عدد البروليتاريا العاطلة فى روما وانتظارها للمنع والتفائـح (Congiaria) وهى تعيش عالة على الحكومة ، ظهرت أزمة خطيرة فى الغذاء خاصة فى المحاصيل الزراعية ، وألقت الحكومة مسئولية الإنتاج على عاتق أصحاب النقابات الحرفية Collegia التى أصبحت عضويتها اجبارية منذ القرن الثالث الميلادى ، وأصبح الفقراء يقومون بأعمال السخرة الدنيا (munera sordida) التى تحتاجها الحكومة خاصة من أجل أعداد وتسليح الجيوش .

بهذه الحلول حاولت الحكومة الامبراطورية - ذات السلطات العسكرية المطلقة - تأمين الدخول لنفسها ، وتجنيد الطاقات البشرية لشعوبها ، محدثة فوضى اقتصادية واجتماعية لم يسبق لها مثيل ، وعلى حد وصف أحد الخطباء فى ذلك الوقت وهو يرحب بقدوم امبراطور جديد ويلعن الامبراطور الراحل « ان الولايات ترتعد فرائصها خوفا وهى فى اغلالها مقيدة ، لقد انتشر المخبرون هنا وهناك يتصنتون الى ما يقوله الناس ، ولا أحد يستطيع ان يتحدث بحرية أو يفكر بحرية ، لقد قمعت الجوانب العادلة العاقلة للحرية وأصبح كل انسان يخشى حتى ظله » (٢) .

هكذا تحمل المعوزون والفقراء الالم فى صبر ومعاناة ، وأحنى البرجوازيون رؤوسهم خوفا من سطوة الحكام العسكريين حرصا على أراضائهم حتى يتمكن بعض رجالهم من التسلق الى الطبقة الحاكمة البيروقراطية الاقطاعية ، وأصبحت بروليتاريا المدينة عبيدا للفئة

(١) اشتق هذا الاسم من كلمة كوريا Curia ومعناها المجلس الإدارى لأن معظم هؤلاء الوسطاء كانوا أعضاء فى مجالسهم الإقليمية والتى حولتها حكومة الامبراطورية الى هيئة لتنفيذ مطالبها وممثلة للسلطة المركزية .

(٢) Pseudo-Arctides, Panygric to the ruler, 21 = Vogt, op. cit.,

الارستقراطية المحدودة العدد ، تعمل في خدمتها وتعيش على خيراتها ، ولم يكن الزراع المعدمون (Coloni) احسن حالا من العبيد ، أما جماهير الفوغاء فكانوا ينتظرون الاحسان من الدولة بالخبز والتسليحة ، ولا هم لها سوى ان يكون خبزها كفاف يومها بعد ان قتل الامل في نفوسها .

ولما يئست شعوب الامبراطورية الكادحة من الاصلاح ، ولما كانت الامبراطورية قد وصلت في عصر تراجان الى اقصى اتساعها ، في عصر كانت وسائل المواصلات فيه لاتزال بطيئة ، فقد شجع ذلك بعض الشعوب على الاستقلال والانفصال حفاظا على وجودها ، ورفعت السلاح في وجه الامبراطورية الجشعة المستغلة (١) . وقد استغلت قوى خارجية ضعف الامبراطورية وراحت تعلن عن اطماعها فيها مثل الامبراطورية الفارسية الساسانية ، التي هبت من كبوتها لأول مرة منذ تحطيم الاسكندر لها عام ٣٢٤ ق.م ، وراحت تطالب بارثيا في آسيا الصغرى وفي بحر ايجه ، كما طالبت بممتلكاتها القديمة في الشرق الاوسط ومصر ، ووجدت روما نفسها لأول مرة في تاريخها منذ حروب هانيبال تخوض حربا دفاعية مريرة لا تقدر عليها بل وتهدد وجودها ذاته .

وجدير بالذكر ان الفوضى السياسية الاقتصادية الاجتماعية تركت بصامتها على الجانب الفكرى والدينى . فقد شهدت هذه الفترة زعزعة التراث الدينى القديم وازدهرت العبادات الشرقية داخل ايطاليا مثل ايزيس وسيرابيس ومثراس الفارسى ، كما انتشر السحر والتنجيم وكل العبادات الهروبية المحاربة للمادية بالتصوف وتطهير الروح وتحريرها من قبرها الذى هو الجسد . وفي نفس الوقت انتشرت الفيثاغورثية بمزيجها المنطقى والاسطورى . ولكن التحدى الكبير جاء من المسيحية التى لجأ اليها الفقراء والساخطون والثوار كديانة مقاومة للمظلومين . والقت الحكومة اللوم على المسيحيين وطالبتهم بالتخلى عن ديانتهم الجديدة القادمة من الشرق الاوسط والعودة الى ديانة الاجداد لان الالهة القديمة هى التى قادت روما من قرية غامضة في سهل لاتيوم الى صاحبة الامبراطورية الكبرى . وبالتالي اتهمت حكومة الامبراطورية المسيحيين بالخيانة والتخاذل وعدم الولاء (٢) وطالبتهم باعلان هذا الولاء في صورة تقديم القرابين للامبراطور ، ولما عارض المسيحيون الاول ذلك

R. Remondón, La Crise du monde romain de Mar-Aurèle à Anastase, (١)
2nd. edition, Paris 1970, p. 251 f.

cf. V.J. Vogt, op. cit., p. 47 f. ; A.H.M. Jones, The Decline of Ancient (٢)
Rome, Longmans 1966.

معتقدين أنهم سوف ينتظرون عودة المسيح ليقودهم الى الخلاص من الظلم والجوع والفقر بدأت الدولة في عمليات الاستئصال ضدهم ، ولم يزددهم ذلك الا اصرارا على دينهم الذى بدأ ينتشر فى القرن الثالث فى ولايات الامبراطورية بسرعة مذهلة ، وتكونت الكنائس فى الاسكندرية وانطاكية وغيرها بل وفى روما ذاتها ، وبدأ شعب الكنيسة ينتظم حول الاستف والقس والشماس فى سلك كهنوتى منظم بعد ان دفعت شهداء كثيرين . ولكن على حد تعبير ترتوليانوس « ان دماء المسيحيين كان بذورا لمسيحيين جدد (Semen Sanguis) (١) وحدث تحالف بين الديانات الوثنية والمسيحية لتشكيل جبهة مقاومة فكرية ضد التحكم العسكرى . كل هذا يدل على الصراع النفسى psychomachia نتيجة للافلاس الروحى والفكرى الذى الذى ساد الامبراطورية ابان القرن الثالث .

كانت هذه هى مقدمات الانهيار (٢) ، ولكن الامبراطورية تمكنت بفضل الجهود الخارقة لسلسلة من الابطاطرة المخلصين جاء معظمهم من الليريكوم Illyricum (يوغوسلافيا الحالية) - ابتداء من كلاوديوس انقوطى Claudius Gothicus وحتى دقلديانوس - من اعادة القوات الشائرة الى النظام وتطهير حدود الامبراطورية من الغزاة الاجانب واعادة الجهاز السياسى والادارى الى العمل من جديد ، وفرض هيبة الحكومة على اطراف الامبراطورية . ولكن الامبراطورية دفعت ثمن ذلك باهظا . لقد تغير الوضع السياسى والاقتصادى والمعنوى للامبراطورية تماما عما كان عليه ايام الامبراطورية المبكرة وفى عصر الابطاطرة الصالحين . وبدأت شمس الحضارة الاغريقية الرومانية تنحدر سريعا نحو المغيب وراح ليل العصور الوسطى يفترب ، وبدأت شعوب ذات قوميات متميزة تبرز على أشلاء الامبراطورية وآخر هذه الشعوب هم الفرنجة (Franks) الذين راحوا يقلدون روما القديمة روحا وفكرا واسلوبا واليهم يعزى وضع اساس حضارة أوروبا الحديثة (٣) . واستمر الانحلال حتى سقوط روما عام ٤٧٦ ميلادية بل وحتى سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية على يد العثمانيين عام ١٤٥٣ ميلادية .

(١) Tertulian, Apologeticum, 50, 13.

(١)

J.R. Polanque, Le Bas Empire (Collection Que ... Sais Je ? No. 1955), (٢) p. 32 f.

F. Loj, La Fin du monde antique et les débuts du Moyen, Age, Paris, (٣)

Albin Michel, new edition, 1968, p. 165 f.

٢ - المصادر التاريخية لهذه الفترة :

ان ندرة المصادر التاريخية لهذه الفترة لا يتفق وأهميتها في تاريخ الامبراطورية الرومانية . فأهم مصادرها هو مؤلف هيروديانوس Herodianus احد معاصري كاسيوس ديو ولكن هذا المؤلف يتوقف عند عام ٢٣٨ ميلادية فضلا على انه قليل الافادة تاريخيا لانه شغل نفسه بالموضوعات الجوفاء مثل مؤامرات القصور دون ان يتطرق الى الدوافع السياسية البعيدة وراء هذه الثورات .

ان هبوط الثقافة والادب لدرجة الاسفاف والجنس الرخيص والاساطير المجردة في تلك الفترة ما هو الا انعكاس للفقر والامية والقلق النفسى وهبوط مستوى التذوق الفنى والادبى (١) ، كما ان انصراف الناس عن الثقافة والادب لم يعط فرصة لازدهار العبقريات الادبية والتاريخية كما كان قديما . وحتى القدر اليسير من الاعمال الادبية التى كتبت في هذه الفترة لم تصل الى ايدينا .

والى جانب هيروديانوس لدينا مقتطفات من سير الأباطرة Historia Augusta التى كتبت ابان القرن الرابع الميلادى . لكنها عديمة القيمة كمصدر تاريخى لأنها عبارة عن اقاويل وادعاءات محملة بالتزوير والفساد والشائعات الرخيصة .

كذلك يوجد لدينا بعض اعمال كتاب الملخصات (epitomators) التاريخية خلال القرنين الرابع والخامس الميلادى وخلال العصر البيزنطى ولكنها ايضا محدودة الفائدة .

ومن مصادر هذه الفترة التى كتبت باللاتينية مؤلف ماريوس ماكسيموس Marius Maximus الذى حاول السير على منهاج سويتونيوس فى كتابه سير الاباطرة المتأخرين ابتداء من نرفا حتى ايلاجابالوس ، ولكن هذا العمل فقد وليس لدينا سوى تعليقات القدماء عليه ، ويبدو انه كان عملا يعكس محاولات رجال الادب Literati لكتابة التاريخ دون ان يكون لديهم التفكير السياسى المطلوب .

وأخيرا يجد الباحث مجالا جديدا لجمع المعلومات (١) من كتاب المسيحية الاول من أمثال يوسيبوس Eusebius أسقف مدينة قيصرية Caesarea في فلسطين والذي كتب التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica كما نجد بعض الفائدة في مقالة الفيلسوف المسيحي لاكتانتيوس - شيشرون المسيحية - كما كان يلقب (٢) ، والخاصة بشهداء الاضطهاد الوثني De Mioribus Persecutorum ، وهذا الأدب المسيحي يرجع الى اوائل القرن الرابع الميلادي ، ولكن على المؤرخ أن يستخدمه بحذر شديد لأنه أدب معاد كتبته فئة مغرورة ضد فئة ظالمة ، مستخدمة المبالغة والتحويل والدعاية للدين الجديد لجذب الوثنيين الباقين تحت لوائهم ، كما يغلب عليه طابع الروحانية الغيبية الزاهدة في الدنيا وكل ما فيها ، والباحثة عن مملكة الله العليا ، كل هذا افقد هذه المصادر موضوعيتها ووضوح الرؤيا التاريخية فيها .

ان الأثرى وحده هو الذي يعرف جيدا مدى الفقر والجهل نتيجة لانتشار الامية ونتيجة للافلاس الفكرى والمادى (٣) لدرجة ان العثور على الوثائق المكتوبة يصبح أكثر ندرة عن ذى قبل ، وحتى اذا وجدت فان معلوماتها تعكس الحالة المادية السيئة والمعنوية المنهارة حتى أن بيوتا كاملة في الفيوم بحثنا فيها ولم نعثر حتى ولا على سطر واحد مكتوب (٤) .

تدهور السلام واندلاع الصراع حول العرش (٢٣٥ - ٢٦٨ م) :

ماكسيمينوس التراقى (٢٣٥ - ٢٣٨ م) .

كان ماكسيمينوس فلاحا تراقيا اميا ذا بدن ضخم حتى قيل انه كان قادرا على التهام أربعين رطلا من اللحم في يوم واحد وأن يشرب

(١) cf. J. Fontaine : La littérature Latine chrétienne, Paris, Presses Universitaires de France, 1970.

(٢) H.J. Rose A Hand book of Later Latin Leterature, Methuen Company 3rd. edition (1954) p. 481 f.

(٣) J. Vogt, op. cit., p. 31.

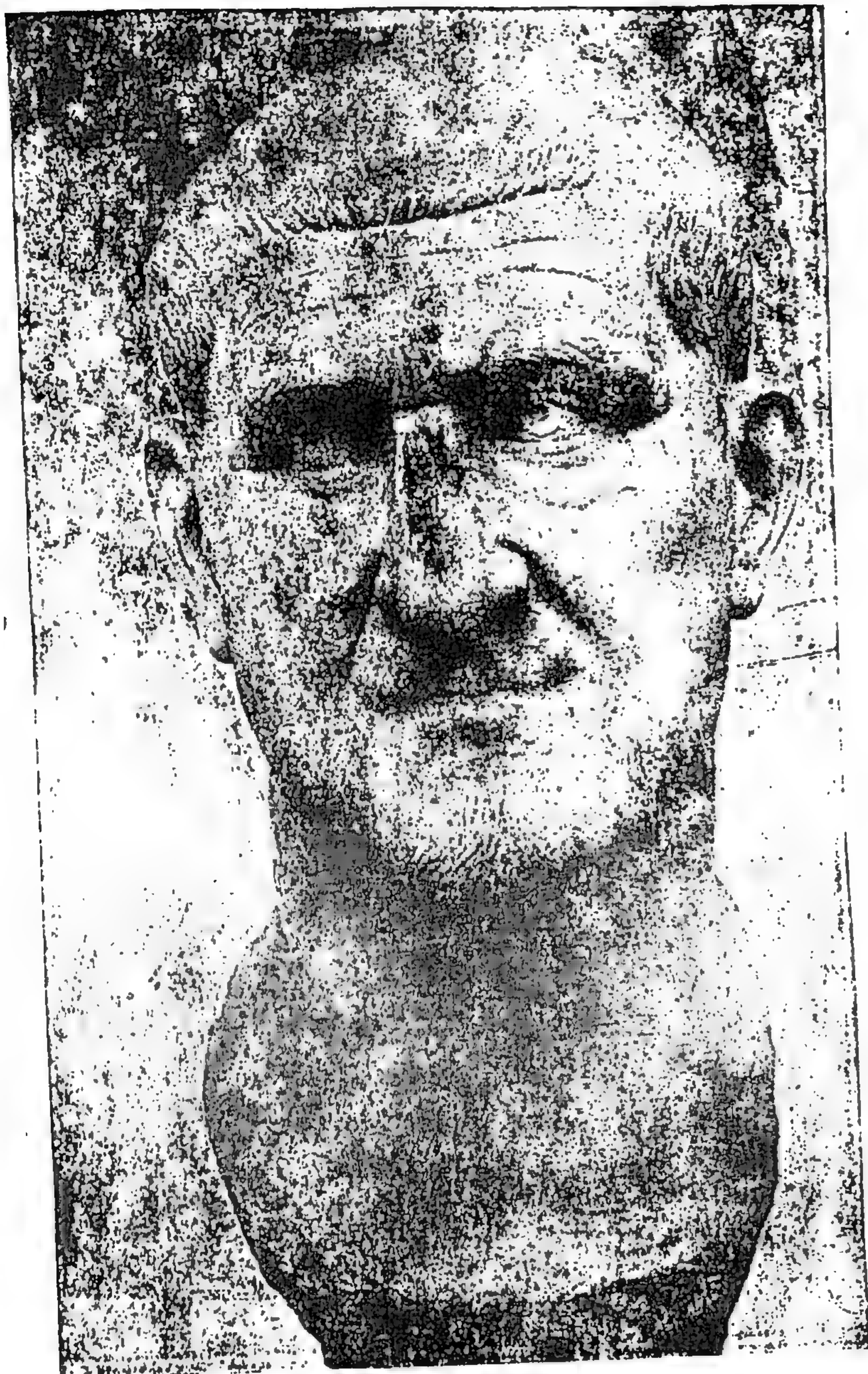
(٤) انظر د. سيد أحمد الناصري : ، التقرير العلمى الاول لحفائر كلية الآداب ، جامعة القاهرة في كوم اوشيم ١٩٦١ - ١٩٧٢ .

ستسة وأربعين قدحا من النبيذ ، وكان جنديا تدرج من تحت السلاح ولذا احترمته قواته وخشيت بأسه ، وكان ماكسيمينوس يعرف جنوده جيدا وما أن هتفوا به امبراطورا حتى أمر بمضاعفة رواتبهم ، ثم قاد جنوده ضد الجرمان بعد أن سحقهم وأسر عدد كبيرا منهم ونهب بلادهم ، ثم سحق اهل الصرب وداكيا Dacia وقوط وادي الدانوب الأدنى ، ثم راح يخطط للاستيلاء التام على شرق أوروبا وألمانيا .

وكانت المشكلة الوحيدة التي واجهت ماكسيمينوس هي افلاس الخزانة ، وعدم قدرته على مجابهة نفقات الحملات العسكرية ، ولهذا أرسل جباة الضرائب الى كل ربوع الامبراطورية لنهب الناس خاصة الاثرياء الذين تحول بعضهم الى معدمين بسببه ، وقد أدى ذلك الى ثورة سخط قامت ضده في شمال أفريقيا قتل فيها مندوب ماكسيمينوس ، وأعلن الشوار انطونيوس جورديانوس الثرى امبراطورا بالاشتراك مع ابنه جورديانوس الثانى ، وبارك السناتو هذا الاعلان لانه كان على علاقة سيئة بالتراقى والذى أعلن انه عدوا للشعب الرومانى ، ولما سقط جورديانوس الابن فى القتال ضد حاكم نوميديا الذى كان مواليا لماكسيمينوس وانتحر جورديان الاب بالسم ، عين السناتو اثنين من أعضائه هما بوبينوس ماكسيموس M. Pupienus Maximus وديكييموس كالفينوس بالبينوس Decimus Calvinus Balbinus امبراطورين بالاشتراك ، كما عين جورديانوس الحفيد قيصرا . وكان ذلك أعظم موقف للسناتو فى وجه هذه الاحداث . ولهذا اضطر ماكسيمينوس الى السير بقواته لدخول روما ، ولكنه وجد مدينة اكويلايا Aquileia محصنة فحرب حولها الحصار لمدة طويلة حتى ثارت قواته عليه وقتلته هو وابنه ، وبايعت كلا من بابينوس وبالبينوس ، واستقبلا بالترحاب والتهاف عند دخولهما المدينة . ولكن هذا التهاف لم يبق طويلا اذ لم يمض على مقتل ماكسيمينوس شهران حتى ثارت قوات الحرس البرايتورى وقتلت الامبراطورين ، وأعلنت ان جورديانوس الثالث الذى كان صبيا فى الثالثة عشر من عمره امبراطورا .

(١) عن موجز شامل للمصادر الحديثة أنظر :

Andre Chastagnal, Histoire de l'Empire Romain, Revue Historique, 506 (1973), p. 443 ff.



تمثال معبر للجندی الصارم
الامبراطور ماكسيمينوس التراقي

٢ - جورديانوس الثالث (٢٣٨ - ٢٤٤ ميلادية) :

وما أن اعتلى العرش هذا الامبراطور الصبي حتى بدأ أعداء الامبراطورية في الخارج الهجوم على حدودها الواهية . ومن أخطر هؤلاء الأعداء القوط ، وهم شعب جرمانى من شعوب الشمال موطنه الأصلي سكنديناويا هاجرا بان القرن الثانى الميلادى من حوض نهر القستولا (Vistula) الى أوكرانيا وسواحل البحر الأسود ، ثم اندفعوا الى أسفل وادى الدانوب وتحالفوا مع قبائل الصرماثيين (Sarmatians) وقبائل الكاربى Carpi وبدأوا يهاجمون موسيا (Moesia) فى شمال آسيا الصغرى ومنطقة تراكيا .

وفى الشرق الأوسط بدأ الفرس يهاجمون بلاد ما بين النهرين وسوريا وفى عام ٢٤١ قاد الملك الفارسى شابور العظيم Shapur جحافلته تجاه مدينة انطاكية على نهر العاصى (Orontes).

وازاء هذا الخطر كانت الامبراطورية مقبلة على كارثة رهيبة لولا أن الامبراطور الصبيلقى بزممام المسئولية على صهره جايوس فوريوس تيميسيثيوس Caius Furius Tirostheus الذى كان يشغل منصب قائد الحرس البرايتورى وكان لحسن الحظ قائدا كفى ومخططا عسكريا رائعا . فنظم قواته وسار معه فى عام ٢٤٢ تجاه الدانوب ، فمادوا السلام اليه ، ثم اتجهوا الى سوريا واستعادوا انطاكية وطردوا الفرس من ولاية سوريا وبلاد ما بين النهرين . وكان الشاب وزوج ابنته الامبراطور على وشك من الاستيلاء على مدينة طيسفون Ctesiphon الفارسية عندما لقي حتفه تاركا زوج ابنته الامبراطور سائرا ، وام يجد جورديانوس الثالث بدأ من أن يرتقى فى أحضان أحد شيوخ عرب منطقة نهر الاردن الاقوياء يدعى فيليب فعينه قائدا للحرس البرايتورى وشربنا معه فى حكم الامبراطورية . ولكن فيليب العربى لم يرض بهذا المنصب وأن يكون شريكا لامبراطور صبي ، فاستغل النقص فى المؤن لدى القوات ودبر انقلابا قتل فيه جورديانوس الثالث وهتفت القوات بفيليب العربى امبراطورا وهكذا تولى عرش الامبراطورية الرومانية رجلا عربيا .

من المراجع الحديثة عن هذه الفترة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية :

G. Downey, The Late Roman Empire, New York Holt, Rinehart and Winston, 1969 ; P. Brown, The World of Late Antiquity From Marcus Aurelius to Mohammed, London, Thames & Hudson, 1971



تمثال نصفى للامبراطور فيليب العربى (٢٤٤ - ٢٤٩ م)
تعبر ملامحه عن المحنة والقلق الذى كان يعيش فيهما
خلال فترة حكمه القصيرة

٣ - فيليب العربى : ٢٤٤ - ٢٤٩ ميلادية

اول شىء فعله فيليب العربى هو عقد الصلح مع الملك شابور . هذا الصلح ملخصه ان يرفع الملك شابور يده عن ولاية ما بين النهرين وارمينيا الصفرى مقابل تنازل روما عن مصالحها فى ارمينيا الكبرى وان تدفع له ٥٠٠.٠٠٠ دينار كغرامة حرب وفدية وللأسرى الرومان الذين قبض عليهم الفرس .

حاول فيليب كسب السناتو بالرياء وكسب الناس بالادارة الحازمة والرعاية العامة ، لكن فيليب لم يكن قائدا عسكريا ممتازا ولم يستطع ان يقاوم اعداء الامبراطورية فى الخارج ، وكل ما حققه هو كسب نصر هزيل ضد مقاطعة كاربي فى داكيا ، ثم عاد الى روما عام ٢٤٧ م ليستعد للاحتفال بالعيد الألفى لتأسيس روما ، وحتى خلال الاحتفالات كانت حدود الامبراطورية نهبا للقوط والكاربيين عند الدانوب ، ولم تستطع القوات الرومانية المسلحة عند الدانوب ان تفعل شيئا سوى انها هتفت بقائدها امبراطورا ونفس الشىء حدث فى قوات الشرق ، وازاء هذا الخطر ارسل فيليب قائده القوى جايوس دىقيوس Gaius Dacius لاستعادة الدانوب ، وبالفعل تمكن دىقيوس من مطاردة القوط عبر الدانوب ، واعجبت القوات الرومانية بكفاءة الجنرال الحازم الماهر فهتفت به امبراطورا فقبل هذا المنصب تحت الحاح قواته ، وحاول التفاوض مع فيليب فلما فشل سار بقواته لطرده فيليب من على العرش . وعند مشارف مدينة فيرونا Verona دارت معركة شرسة بينه وبين فيليب قتل هذا الأخير خلالها . وهكذا انتهت فترة حكم هذا العربى لعرش الامبراطورية الرومانية (١) .

٤ - الامبراطور دىقيوس ٢٤٩ - ٢٥١ م

ما ان اعلن دىقيوس امبراطورا حتى هاجمت جيوش القوط بقيادة ملكها كنيفا Kniva التحصينات الرومانية فى سهل الدانوب ، وتدفت الى داكيا (رومانيا) وميسيا السفلى Moesia وثرافيا ، واستولوا على المدن الدفاعية الرومانية هناك وفتكوا بسكانها ، وقبضوا على عدد كبير من الأسرى ونهبوا ممتلكات السكان ، واضطر دىقيوس الى العودة بسرعة الى روما لبحث الأمر مع السناتو ، ثم سار بقواته التى كان يساعده فى قيادتها جنرال حاذق عليه ظامع فى العرش وهو تريبونيانوس جالوس Trebrianus Gallus ، ولهذا راح يتباطىء فى مواجهة القوط ،

PSI. 1444 and Philip the Arabian, Chronique d'Egypte, Tome LXXII (1) (1972), p. 236-242 (b) John Rea).

وبالرغم من أن ديقوس نجح في هزيمة أحد جيوش القوط إلا أن النتيجة لرعونة جالوس وإهماله المتعمد تمكن ملك القوط كنيثا من سحق قوات ديقوس عام ٢٥١ ميلادية في منطقة أبريتوس Abrittus المليئة بالمستنقعات والواقعة بالقرب من مدينة أدامكليسي Adanclisi بمنطقة دبروجا Dobrudja (يوغوسلافيا) وكانت أكبر هزيمة لحقت بالرومان منذ كارهاى ، وسقط ديقوس وولده صريعين وهتفت بقايا الجيش الرومانى بالجنرال المتقاعد البليد جالوس تريبونيانوس امبراطورا . وفى استسلام مهين عقد هذا الامبراطور المتخاذل معاهدة مع ملك القوط قبل فيها أن يعود القوط بما نهبوا وبمن أسروا من كبار الضباط الرومان وأن تتعهد روما بدفع جزية سنوية للقوط ! بالسخرية القدر !!

وبالرغم مما أثار مصير ديقوس التعس فى نفوس المؤرخين المحدثين أو القدامى من أسى إلا أن الكتاب الرومان (١) الوثنيين أكلوا الثناء لحرصه منذ أول وهلة فى حكمه على إقامة أو اصر المودة مع السناتو ، ونظروا اليه على أنه الحكم الامثل الذى جمع بين شجاعة القائد العسكرى وحزم المدير الادارى وعناد الزعيم الذى لا ينثنى ، بينما نظر اليه الكتاب المسيحيون من زاوية مخالفة تماما وانها لوا عليه بالسباب والتجريح اذا لقبه لاكتانتوس Lactantius بالحيوان النجس animalis exsecratus .

وذلك لانه اول من ابتدع عملية الاستئصال الجماعى للمسيحيين فى ولايات الامبراطورية . وقد بارك الكتاب الوثنيون هذه الأباداة الجماعية لانهم كانوا يعتبرون المسيحيين جماعات هدامة لا تدين بالولاء للامبراطورية الرومانية واتهموهم بالسلبية لتبشيرهم بالسلام الاستسلامى حتى ولو كان على حساب كرامة الانسان ، وجدير بالذكر انه يوجد لدينا عدد من الشهادات التى كانت تمنح للأفراد بعد تقديم الصلوات والاضاحى للامبراطور المقدس كاثبات على ولاء الناس للديانة الوثنية الرسمية للامبراطورية وتعرف باسم البراءات (libelli) (٢) ، وقد عثرت جامعة ميتشجان على العديد منها فى مدن الفيوم القديمة ، ونفهم من نصوصها أن الامبراطور عين فى كل مدينة شخصا مختصا لاستقبال هذه الاضاحى والصلوات ثم يوقع بالتصديق على أن الشخص المذكور ادى فى حضرته هذه الشعائر

A. Chastagnol, Le Bas Empire (Collection U. 2, no. 58), Paris, A. (1)

Colin 1969, p. 51 f.

J.G. Winter, op. cit., p. 139 ff.

(2)

الوثنية ، ويعتقد العلماء أن هذا المرسوم الخاص بفرض الشعائر الوثنية صدر ما بين ٢١ - ١٤ يونيو عام ٢٥ ميلادية (١) . ويبدو أن عددا كبيرا من المسيحيين المصريين قاموا بتقديم الاضاحى حتى يتجنبوا الموت الذى كان عقوبة الرافضين لهذا القرار (٢) .

٥ - الامبراطور فاليريانوس وابنه جالينوس Gallienus
(٢٥٣ - ٢٦٨ م) :

لم يمكث جالوس وابنه فولوسيانوس Volusianus على العرش سوى عامين (من ٢٥١ - ٢٥٣ م) ثم ثارت عليهما قوات الراين بقيادة قائدها الذى اراد الانتقام لجالوس وهو ليكينيوس فاليريانوس Licinius Valerianus ونادت القوات بفاليريانوس الاول امبراطورا ، وسرعان ما قبل هذا الامبراطور بعد أن اشرك ابنه جالينوس معه فى الحكم وبعد أن منحه كافة السلطات لحكم الولايات الغربية . وحكم الوالد والولد معا فى انسجام تام حتى وفاة الأب عام ٢٦٠ ميلادية .

تعتبر فترة حكم جالينوس من اشد عصور الامبراطورية حرجا . لقد بدأت بكارثة قومية مخيفة على يد القوط عندما هاجموا الحصون الدفاعية الواهية على طول الراين والدانوب ، واتحدت القبائل الالمانية فى وادى الدانوب الادنى فى جبهة عرفت باسم لفرنجة (Franks) ، بينما توحدت قبائل الراين فى جبهة الالمان Alemanni والماكرومانى (Macromanni) وبدأوا فى غزو بلاد الغال واسبانيا . وتدفقت قبائل الالمان والماكرومان من سهل الدانوب الأعلى على الولايات الرومانية والى شمال ايطاليا ، بينما راحت قبائل قوط الدانوب الادنى تهاجم مناطق البلقان واسيا الصغرى وسواحل بحر ايجيه .

وفى الشرق الاوسط غزت قوات الفرس بقيادة الملك شابور الاول Shapur ولاية ما بين النهرين وسوريا وكبادوكيا وقلما نجت ولاية من ولايات الامبراطورية من الخراب والقتل والحرائق والاسر .

لقد حاقت الكوراث بالامبراطورية من كل جانب فالقراصنة (٣) ولصوص البحار قطعوا طرق التجارة البحرية بينما ازدهر قطاع الطرق فى الاحراش الصحارى قاطعين طرق القوافل ، بالإضافة الى ذلك حدثت

ibid, p. 142.

(١)

F. Stark, op. cit., p. 264-265.

(٢)

Alfoeldi : Studien zur Geschichte der Weltkriege des 3

(٣)

Jahrhunderts nach christus, Darmstadt 1967. p. 125 ff.

سلسلة من الزلازل والبراكين في آسيا الصغرى وإيطاليا ، بل زادت المأساة عندما شب وباء قاتل في مصر وانتشر منها الى جميع انحاء الامبراطورية وظل يفتك بالناس طوال خمس عشرة عاما . ويقول بعض المؤرخين أن مدينة الاسكندرية وحدها فقدت ثلثى سكانها ، وبلغ معدل الوفيات يوميا في روما خمسة آلاف فرد ، وبالتالي خلق هذا الهلاك نقصا شديدا في الأيدي العاملة سواء في المزارع أو المصانع وانعدم الانتاج الزراعى ، وعانت الجيوش من النقص في الرجال المحاربين ، لقد سببت هذه لكوارث مجتمعة حالة من الانهيار الاقتصادى قصم ظهر الامبراطورية .

وبالإضافة الى ذلك تلوثت روح الجندية الرومانية بالمطالب الشخصية والجشع في طلب المزيد من الرواتب بعد التساهلات التى حصلوا عليها منذ سبتيميوس سيفيروس وولده كاراكالا ، فأهملوا واجباتهم وركزوا اهتمامهم على حماية مناطقهم المحلية التى اقاموا فيها وراحوا يزرعونها (١) . وسادت روح المحلية الانفعالية فضلا عن الممال حتى فى تحصين مناطقهم ، كما أن فادتهم لم يعودوا يحلمون بالنصر على العدو بل بالجلوس على العرش ، يقال انه خلال فترة حكم جالينوس وحده ظهر مالا يقل عن ثمان عشرة مطالب بالعرش .

تفاقم الأخطار الخارجية ضد ولايات امبراطورية :

بدأ الموقف المتفجر في الشرق الأوسط يقلق بال الامبراطور جالينوس وبدأت الازمة قبل توليه العرش بعام واحد عندما دبر شاه الفرس شابور الأول مقتل ملك ارمينيا العميل لروما واحلال ملك آخر عميل للفرس كخطوة أولى لطرد الرومان من آسيا الصغرى والشرق الأوسط .

بعد ذلك بدأت الخطة الفارسية بغزو بلاد ما بين النهرين Mesopotamia ثم سوريا (الشام الكبرى) . وفى عام ٢٥٣ م سحق جيشا رومانيا تعداده ستين ألفا ودمر الخطوط الدفاعية عند مدينة دورا يوروبوس Doura-Europus (الصالحية الواقعة قرب منتصف ضفاف الفرات واحدى قلاع الحضارة الهلينستية فى الشرق الأوسط) ثم دخل الملك الفارسى بقواته الى سوريا وولاية كابادوكيا فى شمال سوريا واستولى على انطاكية غير ست وثلاثين مدينة أخرى فى سوريا وآسيا الصغرى ، وفى اثر هذه الكارثة سارعت قوات القوط بنهب

Watson, op. cit., p. 91, ff, p. 148.

(١)

كل المدن الواقعة جنوب وشرق شواطئ البحر الأسود ، بل بدأت سفن القوط تهدد شواطئ آسيا الصغرى ذاتها .

وازاء هذا الموقف المتفجر غادر فاليريانوس روما الى الشرق الاوسط في غضون عام ٢٥٦ ميلادية ليقاوم الفرس ولكن عبثا وباستثناء بعض المناوشات المحدودة والتي صورها على النقود كانتصارات كبرى لم يكسب فاليريانوس نصرا واحدا يعيد الهيبة العسكرية المفقودة الى روما ، وتنفيذا عن فشله واسقاطا عن هزيمته النفسية بدأ الامبراطور يفتك بالمسيحيين فتكا بربريا ، واخيرا ارسل جيشه الذي فتكت به الاربطة ليواجه الجيش الفارسي الكبير قرب اديسا Edessa وكان هذا تهورا وانتحارا من جانب الامبراطور اليائس ، اذ هزم جيشه عام ٢٦٠ م والقي شابور القبض عليه وحمله معه حتى قضى بقية عمره اسيرا في فارس مشرا الاسي لما وصلت اليه الامبراطورية الرومانية (١) .

في نفس الوقت كان ابنه جالينوس غارقا منذ عام ٢٥٤ في تطهير بلاد الغال ووادي الراين من قبائل الفرنجة والالمان ، وتمكن من طردهم الى ما وراء نهر الراين ، ثم حصن الحدود بالقلاع ولكن قبائل الماكروماني والالمانى ، تسللت عبر القلاع عبر الدانوب جنوبا ومنها الى ايطاليا بل ووصلت قوات الماكروماني الى مدينة رافنا Ravenna عام ٢٥٤ واستولى الالمان على ميلانو Milan عام ٢٥٨ ميلادية ، وحاول جالينوس وقف تقدم الماكروماني بعقد اتفاق معهم اعترف فيه بتنازله عن الاراضى الواقعة جنوب الدانوب في منطقة بانونيا العليا حتى يتفرغ لسحق الالمان قرب ميلان عام ٢٥٨ - ٢٥٩ ميلادية ونجح بالفعل في ذلك . ولكن في العام التالى راح يواجه حركات التمرد بين قواته العسكرية في بانوبيا مستغلين غيابه عنهم وبقائه طيلة الوقت في منطقة الراين وراحت تمنى غيره من القادة بعرش الامبراطورية الذى اصبح رخيصة .

ووجد جالينوس نفسه بين شقى الرخى . لان قبائل الالمان عاودت الهجوم وعبرت الراين من ناحية الشمال وغزت سهل الرون حتى مدينة اوثيرن (Auvergne) . بينما غزت الفرنجة وادي الراين الادنى ومنه الى بلاد الغال ، اسانيا ووصلت جنوبا الى سراكش في شمال افريقيا ، وراحت قبائل الساكسون (Saxon) والجات Jutes - التى كانت

(١) F. Stark, op. cit., p. 261. also cf. G. Lopuszanski : La date de la capture de Valerian et la chronologie des empereurs gaulois (cahier de l'institut d'etudes polonaise en Belgique, 9) Bruxelles, 1965).



تقطن على طول سواحل ألمانيا والدنمارك - تستولي على المنافذ البحرية هناك وتنهب سواحل بريطانيا وبلاد الغال ، ووسط هذه المآسي تمردت القوات الرومانية في الراين وأعلنت مبايعتها لقائدها المقيم معها وكان اسمه بوستوموس Postumus ، وحذت حذوها القوات الموجودة في أسبانيا وبريطانيا . وفي أول الأمر اعترض جالينوس على هذا الانقلاب ولكنه وجد نفسه في موقف ضعيف لأن قبائل الجرمان والقوط باتت تهدد ولايات الدانوب في حين أن قواته كانت على وشك من الانقلاب عليه فأغض عيناه عن بوستوموس ، وتركه يطارد الفرنجة والألمان خارج بلاد الغال ويحمي حدود الامبراطورية ، بل وتركه يسك عملته ويقم ادارة قادرة . وكان تصرفا ذكيا وعاقلا من جانب جالينوس .

١ - هزيمة الفرس على يد المورا (تدمر) :

منذ هزيمة فاليريانوس وسحقه راحت الجيوش الفارسية تعربد في الشرق الأوسط وفي آسيا الصغرى ، وتعرضت انطاكية بالذات للسلب والنهب ، واحتلت ولاية ما بين النهرين وتسللت عبر كيليكيا وكابادوكيا ونفذت عبر آسيا الصغرى حتى شواطئ البحر الاسود وكان يمكن للفرس أن يحتلوا آسيا الصغرى كلها ويطهروها من جيوب الجيوش الرومانية لولا أن الفرس كان ينقصهم القيادة العسكرية التخطيطية ذات الأهداف الاستراتيجية الواضحة لانهم كانوا لا يعرفون ماذا يريدون ، لهذا تحولت قواتهم الى جماعات صغيرة متفرقة غايتها السلب والنهب ومنعزلة كل عن الأخرى .

وبينما كانت روما تستجمع قواها الخائرة ، راح قائد روماني اسمه ماكريانوس Macrianus يساعده قائد صغير اسمه كالليستوس Calistus يجمعان فلول جيوش فاليريانوس المتفرقة في الشرق الأوسط ثم حملا هذه القوات على سفن وأبحروا بها الى كيليكيا حيث فاجئوا الجيش الفارسي هناك وفتكوا بشطر كبير منه وأسرؤا عربة الملك شابور ومتاعه وبعضا من حريمه . وكان انتقاما محدودا ضد الفرس الذين اضطروا الى اخلاء آسيا الصغرى والتراجع الى طيسفون Ctesiphon . ولكن فجأة وجد الملك الفارسي عدوا عنيدا ينتظره عند ضفاف الفرات ذلك هو اوديناثوس (أوذينه) ملك المورا إحدى الدويلات التابعة لروما والتي ظلت على ولائها وعلى العهد باقية . وكانت الهزيمة التي الحقها اوديناثوس بالملك شابور كبيرة لدرجة أنه لم يعد صالحا للفتوحات والغزوات ف قضى بقية عمره في البناء والتعمير في بلاده تاركا مستقبل آسيا الصغرى في يد (٢٤ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

أوديثاثوس وجالينوس (١) .

كانت تدمر أو بالمورا Palmyra كما يتضح من اسمها واحة نخيل تقع في صحراء البادية بين سوريا وبابل ، ويعبر بها طريق القوافل التجارية من شرق البحر المتوسط الى قلب آسيا والى الخليج الفارسي ، ولذا فقد كانت سوقا دولية للتجارة في العالم القديم لمنتجات بلاد الصين والهند وفارس وبلاد العرب ومصر والنوبة وشمال افريقيا ، وكانت مركزا لبيع البضائع الهامة مثل المنسوجات والعطور والتوابل والاحجار الكريمة والمعادن الثمينة المصنعة للزينة . وازدهرت بالمورا ابان القرن الثاني الميلادي بالذات حتى اصبحت من اعظم وأهم مدن الشرق الأوسط ، اذ كانت مدينة ذات شوارع مرصوفة يزينها الأروقة المسقوفة على جانبيها (Porticos) والبواكي الجميلة وتعمر الشوارع عبر عدد من البوابات المقوسة المحلاة بأبداع الرسومات والزخارف . وكانت مدينة ذات ابنية اغريقية الطراز وشرقية الروح (١) ولذا يتفق بعض مفسري القرآن الكريم بأن تدمر هي المدينة المقصودة بقوله تعالى « ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد » .

لم تكن تدمر ترتبط بروما على انها دولة عميلة ، ولا من باب الصداقة التقليدية بين الرومان والعرب ، بل لأن عددا ليس باليسير من سكانها كانوا من اصول اغريقية ورومانية ، بل ان ملكتها زينوبيا Zenobia (الزباء عند العرب أو بات زاباي عند الاراميين) ادعت انها تنحدر من سلالة الملكة المقدونية المصرية كليوباترا وان مدينة الاسكندرية هي المدينة الام بالنسبة للأسرة المالكة في تدمر (٢) .

لقد توثقت أواصر الصلة بين بالمورا وروما منذ عهد تراجانوس عندما اصبحت هذه الواحة - الدولة مركزا لتجنيد الراغبين في الخدمة في الجيش الروماني ، بل ان وحدات بالمورا في الجيش الروماني من افرسان النبالة (archers) والفرسان المبارزين ادت خدمات جليلة للامبراطورية الرومانية ، وتقديرا لهذه الدولة الصحراوية انعم آل سبتيميوس سيفيروس وخلفاؤه بامتيازات عليها مثل جعلها مستعمرة رومانية الحقوق مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، وانتخاب بعض وجهائها لعضوية السنااتو

cf. Michaelowsky, Palmyra, Polish Archeological Centre Damascus. (١)
(1962).

cf. Zosimus XXI-XVIIII.

(٢)

الروماني ووضع نواة فرقة عسكرية من ابنائها تعمل في سوريا باسم الجيش الإمبراطوري ، وامت نواة هذا المشروع الأخير بالثمار عندما سحقت هذه الفرقة جيش الملك الفارسي شابور على ضفاف الفرات ، وداست كبرياءه لدرجة انه لم تعد لهذا الملك قائمة بعد ذلك التاريخ .

كان سبب العداء بين فارس وبالمورا هو احتلال الملك شابور لشرق الجزيرة العربية لأن ذلك الحق أضرارا تجارية جسيمة بتدمير وقطع عليها شريان الحياة التجارية وهو الخليج الفارسي ، وبذلك تأثرت طرق القوافل الآتية من الشرق بهذا الاحتلال . وحاول الملك أوديناثوس الكبير (أو أودينه كما سماه العرب) أن يفاوض شابور ويتفاهم معه ، ولكن الملك الفارسي رفض ذلك بكبرياء وانفه مما دعى الملك التدمري الى القاء الأمر على الفارب والدخول في معركة حياة أو موت مع شابور ، ونتج عنها هزيمة الملك الفارسي على ضفاف الفرات . ولم ينتظر أوديناثوس ولم يعط غريمه فرصة استعادة قواه فتابعه مطاردا حتى أبعد فارس تماما من أرمينيا وبلاد ما بين النهرين ، بل إنه عبر حدود فارس القديمة في عام ٢٦٣ و ٢٦٧ ميلادية وحاول احتلال طيسفون وحاصرها ولكنة ينجح في الاستيلاء عليها .

لم يصدق الإمبراطور الذكي جالينوس أن ملكا على محمية صحراوية صغيرة تابعة له يستطيع هزيمة عدو باغ هزم جيوش الإمبراطورية وأسر إمبراطورا رومانيا لأول مرة في التاريخ ، ولذا انهال عليه باللقاب الشرفية والتكريمية مثل لقب «مصلح كل الشرق» *Corrector totius Orientis* ، وأصدر مرسوما بتعيينه القائد الأعلى لجميع القوات التابعة لروما في الشرق الأوسط .

في هذه الأثناء ثار ماكريانوس على جالينوس وأوغر الى قواته بأن الإمبراطور الشرعي في انتظارهم بقيادة أوديولوس *Quintus* إمبراطورين ، وابتهج الشرق بعد أن زالت عنه غمة الفرس ، وكان يمكن للأب ماكريانوس أن يظهر الشرق الأوسط ويضمه جراحه ولكنه ترك فيه ولده الضعيف كويتوس وحده ، وسار هو وابنه الأكبر متجها صوب الدانوب وما كاد أن يصل الى هناك حتى كانت القوات الموالية لجالينوس الإمبراطور الشرعي في انتظارهم بقيادة أوريولوس (*Aureolous*) وفتك الأخير بالوالد والولد ، بينما قضى أوديناثوس على كويتوس في الشرق وعلى قائده كاليستوس قبل أن يعلن نفسه إمبراطورا .

ومن الطريف أن أوديناثوس ملك الصحاري قرر أن يجرب قواته في وديان آسيا الصغرى لطرده القنوط منها وتحرير مدن خلقيدونية

ونيقوميديا من شرورهم واستعادة خزائن معبد الربة ارتيميس . Artemis (ديانا عند الرومان) ، ولكنه لم ينجح في استعادة هذه الاسلاب لأن القوط نهبوا ووضعوها في سفن وأبحروا بها من ميناء هيراكليا البنيطية Heraklea Pontica عائدين الى بلادهم . .

ولم يمض على تلك المغامرة وقت طويل حتى تمكن أحد الجناة من (١) طعن الملك أوديناثوس بخنجر سام فقتله ، ويقال أن زوجته الساحرة الجسورة بات زاباي Bat Zabbai والمعروفة عند / الرومان بأسم سبتيميا زنوبيا (Septimia Zenobia) (وعند العرب باسم الزباء) هي التي دبرت مقتل زوجها قبل أن يعين ولدا له من زواج آخر خليفة له وقد قتله هو الآخر حتى تضمن عرش المملكة لولدها المدلل قابالاثوس Vaballathus (الذي يعرف عند العرب باسم وهب اللات) (٢) . ولكي تبقى زنوبيا وصية عايه وتحكم بالمورا بذكاء وكفاءة حتى هزيمتها على يد الامبراطور أوريليانوس .

الجمولة الأخيرة بين جالينوس والقوط (٢٦٨ م) :

انتهز القوط أحداث القلاقل في الشرق الأوسط ليقوموا بأكبر هجوم لهم على الامبراطورية الرومانية ، اذ أعدوا قوة بحرية قوامها خمسمائة سفينة (يبالغ البعض ويقولون أنها كانت ألفى سفينة) فضلا عن جيش برى بلغ حجمه ٣٢٠.٠٠٠ مقاتل ، واندفعوا نحو منطقة البلقان وحوض بحر ايجة وبلاد اليونان خاصة شبه جزيرة المورة ونهبوا مدن الأغريق الشهيرة مثل اثينا وأرجوس واسبرطة وكورنثا ثم اتجهوا شمالا عبر مقاطعة ابيروس Epirus الى مقدونيا الى أن وصلوا الى مدينة نابسوس (نيش) الحالية في ميسيا Moesia (بين البانيا وبلغارية) .

استعد جالينوس لاعتراض جيوش القوط الهائلة عام ٢٦٨ حيث دارت أبضع معركة عرفها القرن الثالث الميلادي فقد فيها القوط خمسين ألف قتيل . وكان يمكن أن يكون نصرا يحيى الروح القومية المفقودة للامبراطورية لولا أن جالينوس هرول الى ايطاليا لقمع حركة تمرد قام بهانابا أوربولوس في ايطاليا وبالفعل سحق جالينوس خصمه قرب

(١) من المراجع المفيدة عن الشخصيات الهامة في تلك الفترة :
A.H.M. Jones, J. Martindale and J. Morris The Prosopography of the
Later Roman Empire, Vol. I, A.D. 260-355, Cambridge University,
Press. 1971.

(٢) اللات هي الشمس في ديانة عرب اليمن القدماء وهي زوجة الرب الأكبر ود اي القمر وأم ابنته - العزى أو عشتار - (كوكب الزهرة أو فينوس) ، ومن ثم فانه اسم فالاثوس يعنى هبة الشمس وهو الترجمة الارامية للاسم الاغريقي الشائع هليودوروس .

ميلانوس : ولكنه سقط قتيلًا نتيجة لانقلاب قواده الاليريين عليه والذين أعلنوا غضبهم من الامبراطور لاهماله حماية موطنهم الاصلى فى الدانوب .

اصلاحات جالينوس :

والى جانب الانتصارات العسكرية المذهلة التى حققها جالينوس فقد قام بحركة اصلاح شاملة كانت النواة الكبرى لحركة اليقظة المتأخرة واصلاحات دقلديانوس وقسطنطين . وكان هدف هذه الاصلاحات استعادة سيطرة الجهاز السياسى للدولة على القوات الجامعة واعادتها الى النظام والالتزام للأوامر ، وقطع الطريق على الجنرالات الحاملة بالعرش ، كل هذا من أجل انقاذ الامبراطورية من اعدائها البرابرة .

ويجىء على رأس هذه الاصلاحات قرار الامبراطور بأعفاء أعضاء السناتو من وظائف الجيش القيادية لرعونتهم وأحل محلهم رجال طبقة الفرسان الأكثر حركة وخبرة بشئون الولايات ، وكان معظمهم عصاميين ترقوا من تحت السلاح الى هذه الطبقة المفتوحة لكل الكفاءات ، ويبدو أن الامبراطور لاحظ أن القيادات العسكرية السيناتورىة قيادات إنانية وطموحة تسعى للاستيلاء على العرش بأى ثمن بينما قيادات الفرسان قيادات محترفة للقتال فقط ، وقادرة على تحمل المشاق الحربية حتى فى اقاصى الولايات الرومانية ، كما أنها ملتزمة بالضبط والربط وقلما خرجت عليه ، كما أن الهدف المنشود لهذا القرار هو ابعاد الجيش عن السياسة ووضعه فى مكانه الحقيقى وهو خدمة وحماية الدولة وليس التحكم فيها .

وتدريجياً أصبح رجال طبقة الفرسان يتولون القيادة فى غالبية الولايات التابعة للامبراطورية وبعض الولايات التابعة للسناتو وحيثما وجدت القوات فى أى ولاية فإن القيادة فيها أصبحت فى يد الفرسان وحدهم دون أعضاء السناتو ، وبذلك ادمجت السلطة الادارية والعسكرية فى الولايات التى حكمها الفرسان ، بينما فى الولايات التى حكمها أعضاء السناتو فقد كان هناك مبدأ الفصل بين السلطة العسكرية والقيادة الادارية والمدنية ، وكانت سلطات الحكام السيناتوريين محددة فى الشرط الثانى .

كذلك اتى جالينوس بثورة كبيرة فى مجال الدفاع والتحصين عندما طور نظام الخط الدفاعى القديم الذى أوجده دوميتيانوس وزاد عليه نهادرىانوس والذى كان عبارة عن سلسلة من الحصون والقلاع المبعثرة التى يمكن التسلل من بينها ، فضلاً على أن امتدادها عبر مساحة طويلة يجعلها

واهية ، طور جالينوس هذا النظام الدفاعى الذى طبقته الامبراطورية ابان القرن الثانى الميلادى بان خلق خط الدفاع الثانى فى العمق ، حتى يمكن صد العدو اذا تسلل من الخط الدفاعى الاول ، وجعل نواته المدن ذات القلاع التى يقف العدو حيا لها عاجزا بعد ان يكون قد ارهقه التسلل عبر خط الدفاع الاول عندئذ يمكن القضاء عليه بسهولة .

اما التطوير الدفاعى الثانى فكان خلق قوة عسكرية متحركة (vexillationes) وخفيفة توضع بالقرب من مناطق الخطر بحيث تتحرك بسرعة رهن اشارة من الامبراطور ، ووضعت فى حالة الاستعداد الكامل بحيث تكون جاهزة للتحرك والعمل قبل ان يستفحل الخطر (١) ، وجعل ايطاليا هى مركز قيادة هذه القوات . ولكنه فى نفس الوقت نقل مركز الثقل من مدينة روما الى مراكز استراتيجية بعيدة عنها مثل مدن اكويليا Aquileia و فيرونا Verona وميلانو ، ونقل الى هذه المدن دور سك النقود ومصانع السلاح وقصور الأباطرة والقادة ، وفقدت روما أهميتها السياسية وكان هذا بداية لانزوائها وتنازلها عن عرشها .

وتحت تفهم الظروف التكتيكية الدفاعية الجديدة الفى جالينوس الاعتماد على نظام الفرق legiones والمشاة لانها بطيئة التحرك وعندما تصل الى منطقة الخطر يكون السيف قد سبق العزل ، ولهذا استبدلها بعناصر خفيفة متحركة فعالة تتحرك بالجياذ السريعة . وكانت وحدة الفرسان الجديدة تتكون من فصيلة الفرسان المور (المراكشييين) من رماة الحراب ، والفرسان الدلماتين Dalmatans السلافيين والفرسان النبالة الدين جندوا من بالمورا ، واخيرا انشا جالينوس سلاحا من الفرسان المدججين بالسلاح على الطريقة الفارسية وسماه باسم (Cataphractarii) على القوات المدرعة وقد بلغ اعجابه بهذه الفرقة ان وضعها فى عام ٢٦٣ ميلادية على قدم المساواة فى الاهمية مع فرقة الحرس البرايتورى ، بل سرعان ما فاقت هذه الفرقة الاخيرة واصبح قائد الفرسان المدرعين اهم منزلة من قائد الحرس البرايتورى ، بل اصبح الرجل الثانى فى الامبراطورية بعد الامبراطور رغم انه كان عادة من طبقة الفرسان من تحت السلاح . وعن طريق فرق الفرسان المدرعين يمكن لعدد من القيادة من امثال كلاوديوس القوطى واوريليانوس وبروبوس ودقلديانوس من الوصول الى عرش الامبراطورية .

(١) عن تطور فكرة هذه القوات الخاصة انظر :

R. Saxer : Untersuchungen zu den vexillationem des roemisch Kaiserheers von Augustus bis Diokletian (Epigraphische Studien, 1), Koeln, Boehlau 1967.

' لم يكن جالينوس عبقرية عسكريا فحسب ، بل كان فيلسوفا مثقفا محبا للثقافة الاغريقية متديما بفنونها . ولذا فانه يشبه الامبراطور هادريانوس في الذكاء وعمق الثقافة ، وسعة الادراك ، وبعد النظر ، وقوة الإرادة ، وحيوية الطاقة ، وسرعة اتخاذ القرار القاطع ، ولهذا واجه نفس المشاكل الذي واجهها هادريانوس وهي معاداة السناتو ، والتهكم التشاؤمي من نظمه البالية ، وضرورة القضاء عليها ، وبذلك وضع الاسس التجديدية لحركة الاصلاح الجديدة في اواخر عهد الامبراطورية .

لكن الشيء الجدير بالذكر هو عشق الامبراطور جالينوس للفلسفة الافلاطونية ومحاولة تحقيق المدينة الافلاطونية الفاضلة في منطقة سهل كمبانيا ، وكان بذلك ثاني سياسي بعد ديونيسيوس حاكم سيراكوز يحاول تحقيق الايدولوجية الافلاطونية ، ومن اجل ذلك استدعى صديقه المصري المتأغرق الاسيوطي المولد ، الفيلسوف افلوطين Plotinus (٢٠٥ - ٢٧٠ ميلادية) ليؤسس مدينة افلاطون (Platonopolis) وكان افلوطين منخرطاً في الفلسفة الوثنية في روما ومؤسس مذهب الافلاطونية الجديدة Neo-Platonism ، وخلاصة مذهبه ان العامل الحيوي والخلاق في الانسان والكون على السواء هو « الروح » ، وان اعظم وظيفة للروح هي الحق والعدل ، وشرح الحق بأنه هو القدرة على استخدام الافكار عن طريق الحس والتذكر (re-collection) والتخيل والتفكير من اجل تحقيق المعرفة ، واذا كان ان «الحق» فوق الروح الانسانية Psyche فان العقل الرباني الاكبر (Nous) فوق الوجود ذاته ، وفوق العقل الرباني الخالق الاوحد تأتي «ذاته» وهي لا يمكن ادراكها لا بالفكر او المنطق ، بل عن طريق التجربة الصوفية التي تفوق الوصف الوضعي . ومن الواضح ان فلسفة افلوطين هي اصل الجدل الوجداني الذي استخدمه المسيحيون فيما بعد ثم بنى عليه فلاسفة المسلمين نظرياتهم لاثبات وجود الله ، ومنه اشحن المتصوفة نظريتهم في البحث عن الذات (١) .

اليقظة المتأخرة على يدى الاباطرة الاليريين :

هكذا وضع جالينوس اساس الدعوة الى الانتفاضة من السبات

(١) ترى الباحثة هيلارى ارمسترونج ان افكار افلوطين لم تكن كلاسيكية اصلية بل

كلاسيكية مشوبة بالروح الشرقية :

A. Hilary Armstorong : Elements in the Thoghts of Plotinus at Variance with classical intellectualism J.H.S., Vol. XCIII (1973) pp. 13-22.

«Self exploration is the heart of plotinism, and it is in the analysis (٢).

of the self that plotinus made his most original discovery» (Dodds in J.R.S., (1960), p. 7).

«العميق» - باعادة النظر في النظام الرومانى من أساسه . وقد ألقى القدر بهذه المسؤولية على اكتاف مجموعة ماهرة من القادة العسكريين العظام . جاء معظمهم من الليريا (يوغوسلافيا) حيث قاموا بمجهود يفوق طاقة البشر ، ونجحوا . فى النهاية من جمع شمل الولايات المتفسخة وتحقيق الوحدة للامبراطورية ولكن فى النهاية وجدوا أنفسهم قد قضوا تماما على الوجود الفكرى والحضارى الرومانى واضعين بداية عالم جديد هو فجر العصور الوسطى ، وخلاصة القول ان هذه اليقظة أشبه باليقظة التى تسبق سكرة الموت ، والآن لنعالج هؤلاء الاباطرة الليريين العظام .

١ - كلاوديوس القوطى Claudius Gothicus (٢٦٨ - ٢٧٠م)

كان كلاوديوس القوطى احد مجموعة القادة الليريين الاكفاء الذين رفاقهم جالينوس من تحت السلاح ، وهو الاول بين هذه المجموعة الممتازة من اباطرة روما المتأخرين الذين لولاهم لانهارت الامبراطورية قبل ذلك بكثير ، وأول عمل قام به كلاوديوس هو طرد قبائل الالمانى الذين غزوا ايطاليا من الشمال وتوغلوا جنوبا فيها حتى بحيرة جاردا Garda .

ثم حاصر القوط الذين افلتوا من جالينوس ، كما طارد القبائل القوطية التى هبطت بالبلقان ، ولم يمانع فى أن يسالم بعضها ويجندوها فى خدمة الامبراطورية واسكن البعض الآخر فى الاراضى الزراعية المهجورة على حدود تراكيا وميسيا ومقدونيا ، وبهذه الاجراءات الذكية تخلص كلاوديوس من خطر القوط ولم يعودوا منذ ذلك التاريخ يهددون الامبراطورية بشكل خطير لمدة قرن من الزمان على الأقل ، ولهذا كرمه الرومان واعتبروه المؤسس الاول لحركة احياء الامبراطورية بل انعموا عليه بلقب القوطى Cothicus نظرا لنجاحه فى التخلص من خطر هذه القبائل .

٢ - اوريليانوس Aurelianus (٢٧٠ - ٢٧٥ ميلادية) :

مات كلاوديوس القوطى متأثرًا بوباء الطاعون - وخلفه كونشيلوس (Quintillus) ولكن القيادة الجديدة انتخبت لوكيوس دوميتيوس اوريليانوس Lucius Domitius Aurelianus امبراطورا ، وكان اوريليانوس يشغل منصب قائد الفرسان المدرعة Cataphractarii واشترك فى الحرب ضد القوط ، وكان ريفى المولد ، عملاق القامة ، قوى البنية ، تمرس فى الجندية حتى اصبح خبيراً بالحرب ، صارما مستعدا لها فى أى لحظة لدرجة ان أطلق عليه رفاقه كنية هى « السيد على السيف » . Manus ad Ferrum ، كما كان لا يرى سلاحا سوى المنف،

ولا يعرف التفاهم ، ولا الدبلوماسية ، وبهذا المنطق الضارم بدأ في استعادة ممتلكات الامبراطورية ، ولذا أطلق عليه لقب مستعيد العالم (الرومانى) restitutor urbis .

كانت المهام التى تنتظر أوريليانوس كثيرة ومعقدة . فكان عليه حماية جبهة الدانوب من العدوان ، وحدود ايطاليا الشمالية من الغزو ، وقبل كل هذا وذاك أن يستعيد للامبراطورية ولاياتها فى الشرق والغرب ، كما كان عليه أن يوجد حلولاً متعددة للمشاكل السياسية والاقتصادية وعلى رأسها اتقاذ النظام النقدي للامبراطورية من الفوضى .

بدأ أوريليانوس بتطهير ايطاليا - قلب الامبراطورية - من خطر البرابرة الشماليين . وبينما كان الامبراطور فى طريق عودته الى روما من منطقة الدانوب سمع عن غزو قبائل الوندال Vandals وقبائل الصرب Sarmatians لمنطقة بانونيا Panonia فسارع اليهم وحاصروهم ، وبعد مقاومة شرسة استسلم المهاجمون وطلبوا السماح لهم بالعودة من حيث أتوا ، ووافق أوريليانوس على ذلك بعد تجنيد عدد من فرسانهم فى الجيش الامبراطورى . وقبل أن يستريح من عناء هذه المعركة وصلت الانباء أن قبائل الجوثونجى (Juthungi) إحدى القبائل الالمانية هاجمت ايطاليا من الشمال وحاصرت ميلانو . وعند سهل البو لاقاهم أوريليانوس فى عدد من المعارك الصغيرة كسب بعضها وخسر الآخر منها ولكن فى النهاية نجح فى ردهم الى ما وراء الدانوب .

عندئذ اضطر أوريليانوس الى العودة الى روما ليقضى على الفتنة التى أحدثها بعض أعضاء السناتو والمشرِفون على دار سك النقود . وكان هؤلاء قد اعلنوا احتجاجهم على ما اصابهم من خسارة شخصية بسبب قرار أوريليانوس بوقف سك النقود ذات القيمة الفضية المخفضة ، وكان هؤلاء المسؤولون قد اثروا من وراء تزوير العملة ، وازاء ذلك اضطر أوريليانوس الى اغلاق دار سك النقود كخطوة أولى نحو اصلاح نظام النقد من اساسه .

وبقى روما لا تزال أوريليانوس - ان تحصينات روما القديمة منذ حروب هانيبال تداهمت ، وامتدت المدينة الى ما وراء هذه التحصينات ، ولذا أمر فى عام ٢٧١ م ببناء سور ضخيم حول المدينة طوله اثني عشرة ميلاً وارتفاعه عشرون قدماً . وبمساحة اثني عشرة قدماً . وبمخلفه شمالية عشرة بوابه ج . والتحصين تدفأع عته ضد اعداء روما فى المستقبل .

ونظرا لضخامة هذا المشروع فلم ينتهى العمل فيه الا بعد وفاء اوريليانوس .

الانسحاب من داكيا :

وبنظرة ذكية لاحظ اوريليانوس انه لافائدة من الاحتفاظ بولاية داكيا لضعف تحصيناتها ، ولبهاظة الحشود العسكرية على حدودها مما يفوق طاقة الامبراطورية ، فقرر الانسحاب من داكيا ، وهجر سكانها الرومان واوطنهم في ولايات بانوبيا وميسيا وثراكيا التى اصبحت شبه مهجورة بمد هجمات القوط ، وبذلك وفر شطرا كبيرا من قواته ليستخدمها في جبهات اخرى ، فضلا على ان تقصر الخط الدفاعى للامبراطورية خلق خطا جديدا اقصر ولكن اقوى .

الحرب ضد زنوبيا ملكة تدعى : ١٧٣ م

وبعد ان امن ايطاليا من خطر الوندال والجوثونجى ، وبعد ان امن ولايات " " ب ، بدأ اوريليانوس مشروعه الخاص باعادة غزو الشرق الاوسط واعادته الى حوزة الامبراطورية . ولم يكن العدو في هذه المرة الفرس بل الملكة سبتيميا زنوبيا ، تلك الملكة الفاتنة الذكية والطموحة وسيدة دويلة بالمورا ، وكانت زنوبيا لا تقل عن الملكة البطلمية كليوباترا ذكاء وارادة وطموحا . بل كانت تفوقها جمالا وجاذبية . واكثر من هذا ادعت انها من سلالتها . ولهذا نظرت الى مدينة الاسكندرية على انها المدينة الام (Metropolis) . وقد احاطت هذه الملكة نفسها ببلاط من الابهة وفخخة الشرق وبوهميته ، كما بسطت رعايتها على الفنانين والادباء والباحثين واتخذت من الاديب الشهير لونجينوس مستشارا خاصا لها ، واغاب الفن انه نفس الاديب الشهير صاحب المؤلف البلاغى الخالد « عن الرقاء (البلاغى) » on the Sublime . وان كان بعض العلماء يرجعون هذه المختارات البلاغية الى احد كتاب عصر المسيحية المغمورين .

انتهزت زنوبيا فرصة انشغال اوريليانوس في حماية ايطاليا والدانوب من خطر الدانوب فانفصلت بدويلتها الصحراوية عن الامبراطورية الرومانية ، وبدأت في خلق نواة لامبراطورية شرقية تملأ الفراغ الرومانى في الشرق الاوسط ، وبدأت توسعها غربا حيث استغلت فرصة نداء وجهه اليها احد المعجبين بها في الاسكندرية واسمه تيماجينيس Timagenes ، فسارعت بارسال وزيرها القوي زابداس Zabdas ، واحتلت مصر الوسطى ، وكانت قواتها في طريقها لاحتلال مدينة الاسكندرية بعد انتصارها على قوات

الوالى الرومانى بروبوس عند حصن بابلون . وقد اعيد حديثا نشر وثيقة بردية عثر عليها فى البهنسا (اوكسيرينخوس) فى مصر الوسطى ، يعتقد انها الخطاب الذى كان يزعم ابنها وابلاثوس وهباللات القاءه عند مدخل مدينة الاسكندرية مانحا اهلها الوعود والامتيازات والامانى التى كانت تجيش بها صدور شعب الاسكندرية ، ولكن لم يقدر لهذا الامير الشاب ان يحتل هذه المدينة . كما توسعت الملكة شرقا حتى شمال بابل ، وشمالا فى آسيا الصغرى .

وازاء تهديد سقوط مصر كلف الامبراطور اوريليانوس بروبوس واليه على مصر للدفاع عنها ، بينما تقدم هو بقواته صوب آسيا الصغرى ودخل سوريا حيث رحب به السكان الاغريق هناك . وقرب انطاكية (Antioch) على نهر العاصى (Orontes) التحم بقوات الجيش التدمرى وفرسانه المسلحين ونبالته الراكبين ذوى المهارة العالية ، فهزمهم وتقدم صوب حمص (Emesa) حيث التحم مع جيش تدمرى آخر تعداده سبعين الف مقاتل ، وحقق اوريليانوس انتصاره الثانى رغم ظروف الصحراء الصعبة والغريبة ، فضلا عن خطر البدو ، وتقدم ليحاصر مدينة بالمورا ذاتها ، والتى كانت تقع على بعد ثمانية عشر ميلا من حمص ، وقاومت المدينة الحصار الرومانى بعناد شديد ، وأخيرا حاولت زنوبيا الهرب الى بلاد الفرس ، ولكنها وقعت أسيرة فى ايدى قوات اوريليانوس ، واستسلمت المدينة عام ٢٧٢ ميلادية والقى القبض على وابلاثوس ووجهاء قومه وارسلوا جميعا مع زنوبيا الى روما ، وقد نجحت زنوبيا فى تبرئة نفسها بالقاء اللوم على مستشارها لونجينوس ورفاقه بأنهم هم الذين أوحوا اليها فكرة تحدى الامبراطورية ، فاقنع الامبراطور بذلك ، وانتحر لونجينوس ، وعامل الملكة وابنها معاملة رقيقة كريمة ، كما حرص على العفر عن شعب المدينة ، وتركهم لشأنهم بعد ان وضع حامية صغيرة فيها ثم غادر سوريا عائدا الى اوروبا .

بينما كان اوريليانوس منهمكا فى معركة شرسة مع قبائل الكابى فى الدانوب فى نفس العام ، جاءت اليه الانباء بأن اهل بالمورا قد ثاروا وذبحوا الحامية الرومانية ، وبسرعة خاطفة عاد اوريليانوس الى سوريا عام ٢٧٣ م وبطش بالمتربين بدماء رهيبا ، اذ لم ينج من غضبه حتى النساء والاطفال ، وأمر بنهب كل ثروات المدينة ونقلها الى روما ، وهدم اسوارها وحصونها ، وسكنت أهلها ، وحولها من مدينة عريقة الى قرية صحراوية منهجورة لا تزال آثارها باقية حتى اليوم ، وفى نفس الوقت قام انتصار الملكة التدمرية بشورة فى مدينة الاسكندرية عام ٢٧٣ وقطعوا القمح المصرى

عن روما ، وبسرعة ، قمع أوريليانوس هذه الثورة بمنصف ودمر أجزاء كبيرة من مدينة الاسكندرية (١) .

استعادة بلاد الغال ٢٧٣ - ٢٧٤ م :

أعاد أوريليانوس بلاد الغال إلى الامبراطورية الرومانية بمجهود يسير لأنه هاجمها في الوقت المناسب ، فبعد اغتيال الثائر بوستوموس Postumus تولى عرش الغال ملك اسمه فكتورينوس Victorinus ومن بعده تيتريكوس Tetricus ، وكان هذا الأخير شخصا طيبا ضعيفا ، فشل في طرد القبائل الألمانية المتسللة ، كما فشل في السيطرة على قواته الثائرة ، وكان غير راض في قلبه على انفصال بلاد الغال عن الامبراطورية ، ولهذا استقبل تحريض المتطرفين الغاليين باعلان الحرب على الامبراطورية برود شديد ، ويقول البعض انه كان على صلة بأوريليانوس نفسه ، وربما هو الذي دعاه عام ٢٧٣ أو ٢٧٤ إلى اعاده غزو بلاد الغال وعبور الالب إليها من ايطاليا ، وعند مدينة « شالون » (Chalons) أرغمته قواته على دخول اول مواجهة مع أوريليانوس ، وسرعان ما هجر هذه القوات واستسلم إلى الامبراطور الروماني ، وتحقق بذلك النصر الكامل للامبراطور أوريليانوس ، وعادت بلاد الغال وبريطانيا إلى حوزة الامبراطورية الرومانية ، وتحققت الوحدة والاستعادة الكاملة لروما على ولايتها في الغرب والشرق .

وعاد أوريليانوس ليحتفل بنصره الكبير ، ولكي يعرض على الناس اثنتين من كبار اعداء الامبراطورية هما زنوبيا ملكة تدمر وتيتريكوس امبراطور الغال ، ولكنه عامل أسيراه بكرم وعطف ، اذ عين تيتريكوس مفتشا على منطقة لوكانيا بجنوب ايطاليا Corrector Lucaniae ، بينما منح زنوبيا فيلا جميلة في منطقة تيفولي (Tivoli) وضمن لها اعاشة راقية حيث تزوجت في النهاية من احد شيوخ السناتو ، واعترافا بمجهود

(١) كانت زنوبيا اول من اعترفت بالامبراطور كونتلوس Quintillus كخليفة الامبراطور الراحل كلاوديوس القوطي كما انها عارضت استيلاء أوريليانوس للعرش وربما كان ذلك سبب الخلاف . .

cf, Stark, op. cit., pp. 295-300.

(٢) وقد دمر حي Bruchaeon اغنى وارقى احياء الاسكندرية خلال سحق هذه الثورة . . Milne, op. cit p. 76.

أوريليانوس في إعادة الوحدة إلى الامبراطورية فقد منح لقب مستعيد العالم (لروما) Restitutor Orbis وسك الامبراطور هذا اللقب على العملة التي حملت اسمه وصورته (١) .

الاصلاح الاقتصادي :

وفي عام ٢٤٧ م شمر أوريليانوس عن ساعديه للعمل من أجل اصلاح الاقتصاد المنهار ، وكانت رأس الازمة هو إعادة نظام النقد إلى وضعه الطبيعي ، فقد كانت العملة الرومانية قد مرت بسلسلة من الانكماش والتخفيض في القيمة منذ عام ٢٦٧ م لدرجة أن استخدم الدينار الروماني كعملة نقدية كان قد توقف تماما ، وأصبح الناس يستخدمون الدينار الروماني القديم والدينار الانطونيوني بالوزن أو الوزن الاجمالي (كيس واحد لكل ١٣٢٥ وحده نقدية من فئة الدينارين) . ولكي يوقف تضخم الدينار امر أوريليانوس بتخفيض قيمة الدينار الانطونيوني (Antoninianus) من ثمانية ستركيس (sesterces) إلى ستركيس واحد ، حتى يجعل قيمة الدينار يتناسب وارتفاع الاسعار التي بلغت تسعة اضعاف ما كانت على عام ٢٦٧ م . ويشك علماء الاقتصاد عما إذا كان هذا الاجراء قد نجح في وقف التضخم النقدي بالفعل .

ولكى يمنع التلاعب في تزييف العملة امر بإغلاق دور سك النقود المحلية وألقى دار السك المركزية التي كان يشرف عليها السناتو في روما ، وكان هذا الاجراء ضربة قاصمة للاستقلال الذاتي للمقاطعات الرومانية وإلى امتيازات واشراف هيئة السناتو التقليدية على المالية العامة .

ولكى يخفف من وطأة الفلاء على الناس امم أوريليانوس المخازن وجعلها تحت الاشراف المباشر للدولة ، حتى يوقف التلاعب في رغيف العيش وجعل الدولة تبيع القمح المسعر لنقابة المطاحن والمخازن العامة . تحت شروط معينة ، وحدد ثمن الرغيف ، وتحت الحاجة الماسة والنقص في كميات القمح ألقى نظام توزيع القمح المسعر وأحل محله توزيع رغيفين من الخبز يوميا لكل مواطن بالغ ، إلى جانب كميات أخرى من التموين مثل الزيت والملح واللحم والنبيد .

E.W. Merten : zwei Herrscherfeste in der Historia Augusta . (١)
Untersuchungen zu den pompae der Kaiser Valerianus und G. U. arclianus,
Antiquitas, Reihe 4 Band 5, Bonn. R. Habelt, 1963.

كما سار أوريليانوس على نهج الكسندر سيفيروس وحمل في نقابات المهنيين والعمال التي لها علاقة بنقل أو تخزين أو صناعة أو توزيع الطعام والمواد التموينية الأخرى - تحت الإشراف المباشر للدولة . وبذلك حولها من نقابات ذات تأثير على حياة الناس إلى وكالات حكومية للخدمات العامة ، ويجب أن نضع في الحسبان أن الاتجاه نحو السيطرة البيروقراطية للدولة على مصادر الحياة الانتاجية والاقتصادية فيها ليس ضربا من ضروب الاشتراكية لأن المفهوم لكلمة اشتراكي لم يكن معروفا في العصور القديمة ، بل أن الكلمة ذاتها ونظامها من خلق العصر الحديث ، ولأن الاقتصاد القديم لن يكن لاراسماليا ولا اشتراكيا بالمفهوم الحديث ولأن لكل عصر أسلوبه الاقتصادي والسياسي الخاص به .

أوريليانوس وعبادة رب الشمس الواحد الذي لا يقهر :

وكما اقتنع أغسطس بأن ابوالمر هو الذي حارب بجواره في اکتيوم اقتنع أوريليانوس بأن رب الشمس الذي لا يقهر Sol Invictus هو الذي نصره على تدمر . ولهذا بنى له معبدا كبيرا وأوحى إلى الناس أنه الرب الحي للامبراطورية . وكان رب الشمس هو رب سوري . وبالتحديد رب مدينة حمص Emesa القديمة ، وهو ايلاجابالوس Elagabalus (١) ومن الواضح أن أوريليانوس لم ينقل العبادة السورية في شكلها الكهنوتي الآرامي نصا وروحا كما فعل الامبراطور (١) المعروف باسم ايلاجابالوس ، بل قدمها في شكل روماني وجعل لها هيئة من الكهنة السيناتوريين للإشراف على عبادة الرب الجديد للامبراطورية الرومانية ، وصورة على أنه الرب الاسمي الذي يمكن أن يتحد مع أي رب آخر ويدخل في عبادة واحدة .

أن اهتمام الإمبراطور بعبادة الرب الواحد قرص الشمس الذي لا يقهر يعكس الاتجاه نحو السلطة المطلقة والمؤلهة للامبراطور الذي سك عملته تحمل لفظ « المولود سيدا وربا » Dominus et Deus natus ، وهي عبادة يرجع جذورها إلى مصر منذ أيام الفرعون اخناتون ، بل أن بطليموس الخامس حاول تطبيق عبادة واحدة على الناس متأثرا بفكرة الفراعنة ، ثم هجرت عبادة آتون قرص الشمس في مصر ، ولكنها انتقلت إلى الشرق الأوسط القديم ، ومنها طور العبرانيون صورة يهوه ، وطور السوريون القدماء والفينيقيون صورة رب الشمس الذي لا يقهر Sol Invictus ،

(١) Theodore Optendrenk : Die Religionpolitik des Kaisers Elgabal in Spiegel der Historia Augusta, diss. Bonn 1968.

وظل هناك حتى تلقفته الامبراطورية الرومانية في اتجاهها الجديد نحو تركيز السلطة المطلقة والسلطة الدينية في شخص الامبراطور ، ولكي تسير الاتجاه العام نحو وحدانية الارباب المختلفة ، وكذلك نحو اتجاه العصر نحو العالمية Cosmopolitanism ، ولقد ادى نجاح هذه العبادة الى اندثار الالهة القومية الرومانية القديمة ، واكتساح عبادات الشرق وشعائره للولايات الغربية وخاصة ايطاليا ، وبداية قبول الوحدانية monotheism بدلا من تعدد الارباب والرباب (Polytheism) اذا ان الاتجاه نحو الوحدانية الربانية ظهر مع ظهور الاتجاه نحو السلطة المطلقة للاباطرة المتأخرين بصورة تذكرنا بسلطة فرعون مصر القدامى ، اول من وضعوا بذور التوحيد في شكل قرص الشمس الذي يسطع على الكون بأسرة ولا يدانيه في القوة احد ، وهو في نفس الوقت الواحد الذي لا مثيل له (Solus et non Similis est).

اغتيال اوريليانوس ونهايته :

وبالرغم من هذه الاعمال العظيمة التي قام بها اوريليانوس الا انه لم ينج من المصير المحتوم الذي آل اليه جميع اباطرة القرن الثالث الميلادي ، اذ اغتيل على يد كبار الضباط بعد ان ظلمهم احد المقربين اليه بان الامبراطور ينوي اعدامهم ، وسارع كبار الضباط بالاجهاد على الامبراطور قبل ان يتخلص منهم وذلك في مدينة كاينوفوروريوم (Caenophrurium) بين بيزنطة وبيرنثوس وذلك في خريف عام ٢٧٥ م ، ولما علم هؤلاء الضباط بالحقيقة سادهم الحزن والحزن وحاولوا التكفير عن جريمتهم ولكن الوقت كان متأخرا .

الامبراطور تاكيتوس (٢٧٥ - ٢٧٦) :

وتكفيرا عن ذنبهم واسفهم ترك قادة الجيش للسناتو حرية اختيار الامبراطور الجديد ، وبعد تردد ومراوغة اختار السناتو رئيسه الكهل ماركوس كلاوديوس تاكيتوس Marcus Claudius Tacitus ، وكان في منتصف الحلقة الثامنة من عمره ، ولم يكن هذا الشيخ الكهل مستعدا لقيادة الجيوش ، فقضى فترة حكمه التي لم تتجاوز ستة أشهر مركزا على عوده مجد السابق القديم الذي انشق وراءه من جديد ، ولكن سرعان ما حدث المكس وانتهت فترة مجد السناتو كشباب ضاء وهنا وخمد عندما سلك تاكيتوس صريعا نتيجة لؤا لأم لها بعض الضباط .

الامبراطور بروبيوس . Probus (٢٧٦ - ٢٧٢ م) :

وبعد اغتيال اخيه تاكيتوش أعلن فلوريانوس Florianus نفسه امبراطور واستولى على العرش وعلى الامبريوم دون ان يأخذ لا رأى القوات ولا رأى السناتو .

ولكن قوات الشرق الاوسط سارعت واختارت قائدا معروفا في مصر وسوريا . وهو ماركوس اوريليوس بروبيوس Marcus Aurelius Probus وكان بروبيوس جنديا قديرا من اصل الليرى مثل اوريليانوس ، بل كان يفوقه ذكاء وثقافة ورغبة في اصلاح لامبراطورية واكمال المشوار الذى بداه اوريليانوس وهو جمع شتات الولايات وتوحيدها في حوزة الامبراطورية ، وحماية السلام باعادة النظام والامن الى جميع الولايات ، بما ان شاع خبر اختيار قوات مصر وسوريا لهذا القائد حتى تمردت قوات فلوريانوس وفتكت بسيدها قبل ان تمر ثلاثة شهور على حكمه ، وبدأ بروبيوس في تنفيذ مخطط الاصلاحى الكبير من اجل السلام والوحدة بعد ان تخلص من منافسه فلوريانوس .

بدأ بروبيوس بتحرير بلاد الغال من عدوان الفرنجة والالمان الذين استغلوا مقتل اوريليانوس فهاجموا الولاية بأعداد غفيرة واستولوا على سبعين مدينة وخربوا مساحات شاسعة من الحقول الخضراء ، ولم يمض عام على توليه حتى سار بروبيوس ليسحق هؤلاء المغيرين ويقضى عليهم بالآلاف ، ويطردهم الباقين الى ما وراء الراين شمالا .

ثم أقام سلسلة من الحصون على ضفاف الراين الشرقية في مواجهة المدن الرومانية الواقعة على الضفة الغربية لهذا النهر ، كما انه نجح في تجنيد ست عشرة الفا من الجرمان للخدمة في جيش الامبراطورية ومنذ ذلك التاريخ بقيت بلاد الغال ولاية مسالمة هادئة فيما عدا حركتا تمرد سحقها بروبيوس بقسوة منقطعة النظر .

وفي عام ٢٧٨ ميلادية طهر آسيا الصغرى من قطاع الطرق ، كما طهر بانونيا (النمسا والمجر) من خطر الوندال واوطن على حدود ثراكياء القبائل السكيثية Scythians وقبائل الباستارناى Bastarnae التى طردها القسوط من موطنها الاصلى في جنوب روسيا ، وأقام عددا من مستوطنات الجنود المسرحين في آسيا الصغرى ، وجعلها مناطق تجنيد يجند منها الشباب للخدمة في الجيش الرومانى ، كما قام بطرد قبائل البشاربة Blemmyes التى هاجمت مصر من السودان وتوغلت حتى

قوتهم وبطلمية (المنشأة) شمالا (١) .

وعلى النقيض من أوامر الامبراطور دوميتيانوس بالحد من زراعة الكروم والافساح لزراعة القمح سواء في ايطاليا أو الولايات امر بروبوس بالاهتمام بزراعة الكروم خاصة في مناطق الدانوب وبلاد الغال وحتى في بريطانيا . واستغل جنوده في أوقات السلام للعمل في تجفيف البرك والمستنقعات وزراعتها بالكروم ، وفي تطهير الترع ، وشق قنوات الري والصرف ، وبناء الطرق ، مما اثار عليه حنق رجاله الذين ارهقوا من كثرة العمل ومن النظام الحازم . وسرعان ما انتشر خبر بأن القوات في رايتيا Rhaetia قد ثارت ، وهتفت بقائد الحرس البرايتورى ماركوس اوريليوس كاروس امبراطورا ، و لم تمض أيام حتى ثارت القوات على بروبوس واغتالته وهي لا تدري انها اغتالت واحدا من اعظم القادة كفاءة واخلاصا للامبراطورية وفي وقت هي في اشد الحاجة اليه .

الامبراطور كاروس ووالده كارينوس ونومريانوس (٢٨٢ - ٢٨٥ م) :

كان الامبراطور الجديد كاروس Carus جنديا محترفا من اصل الليرى ، ونظرا لكفاءته وشجاعته فقد ارغمته قواته على قبول منصب الامبراطور رغم انفه ابان حياة سيدة الامبراطور بروبوس ، وقبل كاروس ذلك مضطرا ، ولكنه اصدر عشية تولية قرارا بتعيين ولديه كارينوس Carinus ونومريانوس Numerianus نوابا له بدرجة قيصر ، وعين كارينوس لحكم وحماية ايطاليا وبلاد الغال ، أما نومريانوس فقد اصطحبه معه في حملة نحو الشرق التي بداها عام ٢٨٣ بعد هزيمة قبائل القادي Quadi ، وقبائل الصرب Sarmatians ، وكان الهدف من حملته نحو الشرق هو سحق الفرس . وبالفعل تمكن من عبور الفرات ، واستولى على سليوكيا Seleucia ، ثم عبر دجلة واستولى على كتي سيفيون (طيسفون) ، ولكن نجاح هذه الحملة توقف لموت الامبراطور الفامض والمفاجيء ، وقد اشيع ان صاعقة هبطت عليه فقتلته ، ولكن من المؤكد ان يكون مقتله قد دبر على يد قائد الحرس البرايتورى أبر Arrius Aper وهو نفس الرجل الذى دبر مقتل ابنه نومريانوس فيما بعد .

وعلى اثر ذلك اجتمع مجلس القادة لاختيار امبراطور جديد متجاهلين اعلان الابن الاكبر كارينوس لنفسه امبراطورا ، لانه كان شريرا . ولم

J.G. Milne, op. cit., p. 76.

(١)

يختار المجلس أريوس أبر ، بل اختار قائد الحرس الخاص للامبراطور الراحل ، وكان اسمه ديوكليس Diocles المعروف باسم ديوقليديانوس Diocletianus . واول عمل قام به ديوقليديانوس كان اعدام قائد الحرس البرائتورى أريوس أبر بنفسه .

لكن كارينوس لم يعترف بدقلديانوس امبراطورا ، وقاد قواته ضد قوات الشرق ، وعند سهل مارجوس (مورافيا) التقى الجيشان ، ودارت معركة رهيبة كاد كارينوس ان ينتصر فيها لولا طعنه خنجر مسموم صنعه احد الترابنة الذين اغتصب كارينوس زوجته ، عندئذ اضطرت قواته الى قبول ديوقليديانوس امبراطورا عام ٢٨٥ م . ولم تدر هذه القوات انها اختارت اعظم الاباطرة جميعا لاكمال العمل الكبير الذى بداه الاباطرة الأليريون العظام .

نظرة شاملة على أوضاع الامبراطورية قبل تولى ديوقليديانوس :

(١) بداية الصراع بين المسيحية والدولة :

ما ان اقترب منتصف القرن الثالث الميلادى حتى كانت الكنيسة الرومانية قد ازدهرت ، واصبح لها شعب يشمل كل الطبقات وكل الحرف ، ووجدت الديانة الجديدة صدى اقوى بين الطبقات الدنيا والوسطى في المدن الرومانية ، وكانت ديانة شرقية اكثر منها غربية ، كما ان قادة العقيدة الجديدة كانوا من رجالات الفكر والادب ، ونلاحظ ان الكنيسة في القرن الثالث غيرت سياستها المبكرة الخاصة بمملكة الله المعزولة عن الواقع ، وبدأت تشارك وتلعب دورا في المجتمع . كما ان اعداد المسيحيين تزايدت لدرجة راحت تقلق بال الدولة ، لان المسيحيين في نظرهم كانوا خونة وسليبين ، وخارجين على عبادة الدولة ورافضين لحرق البخور امام تماثيل الامبراطور رمز الامبراطورية ، وتشكلت الجماعات المسيحية تحت قيادة الاساقفة ، مكونة كيانا مستقلا داخل الدولة ، وبالرغم من ان قادة المسيحية كانوا على استعداد لدعم الامبراطورية معنويا الا انهم حرّموا على ابناء عقيدتهم المشاركة في الخدمات المدنية والعسكرية للامبراطورية ، رغم ان هذا الحظر لم يطبق بجدية بين المسيحيين ، وازاء هذا الموقف نظرت الدولة الى المسيحيين على انهم اعداء الدولة ، وألقوا عليهم مسئولية التدهور والفشل التى فسيروها على انها غضب من آلهة روما القديمة بسبب أعمال عبادتها (١) والسماح للديانات الجديدة بغزو الامبراطورية .

cf. Le Declin du monde antique 284-310 A.D. traduit par A. Savandoni

Duparcq (Histoire de l'Europe, t. 1). Paris, Sirey 1970, p. 12 ff.

١٠ آرل اضطهاد للمسيحيين على يد ماكسيمينوس "رأى" ، عندما سب مجرمه على القيادة الكهنوتية وألقى عليها مسئولية انتشار هذه العقيدة الجديدة ، ولكنه لم يضطهد أتباعها ، بل حصر اضطهاده في دائرة معينة سواء في روما أم في فلسطين . وبعد موته عام ٢٣٨ م أعيدت سياسة تراجان وهى حرية العقيدة للجميع ، وتمتعت الكنيسة بأزهى عصورها أبان حكم فيليب العربى ، ولكن هذا الازدهار لم يكن سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ثم بدأ ديقىوس عام ٢٥٠ - ٢٥١ تطبيق سياسة الإبادة الجماعية للمسيحيين ، ففي عام ٢٥٠ م أصدر قراره الشهير للناس بتقديم القرابين الوثنية علنا لالهة الدولة وللإمبراطور ، والحصول على سك بذلك من الجهات المسئولة ، وجعل الموت عقوبة لمن يرفض ذلك . وكان هذا الاجراء على وشك من هدم وتشيت سلطة وشعب الكنيسة ، لأنه كان موجها ضد السلك الكهنوتى وضد الاتباع على السواء ، وكان الاضطهاد الثالث على يد فاليريانوس ٢٥٧ - ٢٥٩ م . الذى سار على نفس طريق ديقىوس حيث أصدر حظرا على تجمعات المسيحيين وأغلق مقابرهم وفرض عليهم تقديم الشعائر الوثنية ، وفي العام التالى لحكمه أصدر قرارا بمحاكمة الاساقفة والكهنة والشمامسة وجعل عقوبة معينة لكل واحد حسب موقعه الكهنوتى اذا ما أصر على التمسك بالعقيدة الجديدة . ولكن اضطهاد فاليريانوس كان محدودا وانتهى بمأساة هزيمته وأسرده على يد الفرس عام ٢٥٩ م وبالرغم من أن المسيحية فقدت بعضا من عبادها سواء بالعودة الى الوثنية خوفا من الموت ، أو بالموت بسبب الثبات على العقيدة ، إلا أنها نهضت من هذا الاضطهاد اقوى مركزا وتأثيرا وعلى حد القول « كان دماء الشهداء هو بزور العقيدة » .

وعندما ترى جاللينوس الحكم أننى كل ما فعله فاليريانوس وسمح للمسيحيين بالعودة الى اقامة الشمائر ودفن الموتى وأوقف عمليات الاضطهاد وتمتعت الكنيسة بالهدوء والسلام طوال الفترة من جاللينوس حتى ديوكلتيانوس .

(ب) توقف المؤسسسات وأجهزة الحكم أنتى وضع أساسها أغسطس :

مان النظام الذى وضعه أغسطس لحكم الامبراطورية وذلك فى الفترة ما بين ٢٣٥ - ٢٨٥ وكان آخر مسمار دق فى نعش هذا النظام هو الفاء

سلطة السناتو كعامل مؤثر في رسم سياسة البلاد ، و كهيئة تمنح الامبراطور السلطات التى يحكم بها ، و حرمان اعضاء السناتو من الوظائف العسكرية والى حد كبير من الوظائف الادارية الخاصة لحكم الولايات ، وكان هذا فى الحقيقة اتجاها تدريجيا نتج عن المواجهة الحتمية بين الاباطرة والسناتو ، وبالرغم من هذا فقد لعب السناتو ادوارا نشطة فى بعض الاحيان ، مثل اعترافه بجورديانوس الاول وابنه جورديانوس الثانى اباطرة بالرغم من وجود الامبراطور ماكسيمينوس حيا ، ولما قتل اعلن السناتو انهما مؤلهان (Divi) وعين مكانهما آخرين هما بالبينوس وبوبينوس ، ولكنه فشل فى حمايتهما من غدر ضباط الحرس البرائتورى الذين ارغموا السناتو على الاعتراف بجورديانوس الثالث الذى كان لا يزال طفلا . (٢٣٨ م) .

وبعد موت اوريليانوس طلب الجنود من السناتو اختيار الامبراطور الجديد ولكن السناتو تباطىء لولا اصرار الجنود على ذلك فاضطر السناتو الى ترشيح تاكيتوس اكبر اعضاءه سنا امبراطورا . وفى الحقيقة لم يكن للسناتو اى قوة للمطالبة برد الاعتبار اليه ووقف تعدى الامبراطور على سلطاته الا باعلان السخط مثلما فعل مع جالينوس واوريليانوس .

وبالرغم من ان تاكيتوس عمل على رد الاعتبار للسناتو الا ان ذلك لم يدم طويلا على يد الاباطرة الآخري .

ولكن من الجدير بالذكر انه حتى عصر كاروس كان الاباطرة يعترفون بحق السناتو فى الانعام عليهم بالسلطات اللازمة للحكم مثل الامبريوم والتربيونية وغيرها من القاب الشرف بصرف النظر عما اذا كان السناتو يفعل ذلك مختارا او مطاعا ، أما كاروس فقد أعلن حقه فى الامبريوم بمقتضى اعلان الجيش له امبراطورا ، واخبر السناتو بهذا القرار من باب العلم بالشيء فقط .

وعندما جاء ديوقليديانوس حذى حذو كاروس ، وبالتالى أصبح منح الامبريوم من اختصاص الجيش وسحب هذا الحق من السناتو ، وقد صاحب ظاهرة عجز السناتو عن منح الاباطرة السلطات الخاصة بالحكم ظاهرة اخرى وهى تضخم شخصية الاباطرة حتى أصبحوا آلهة ، ويحملون لقب اله Deus رسميا سواء على النقود أو النقوش ، وكان اوريليانوس اول من طبق هذا الاتجاه . حيث أعلن انه « رفيق هرقل » ، بل وارندى الاكليل المقدس رمز السلطة الالهية فى العالم القديم . ثم حذى خلفاؤه

حدوه . واصبح الامبراطور يحكم معتمدا على موظفيه البيروقراطيين وجنوده الاجانب وجواسيسه الفاسدين والمرتشين .

(ج) ازدهار طبقة الفرسان :

كان هدف جالينوس من حرمان اعضاء السناتو من الوظائف العسكرية والى حد كبير من حكم الولايات هو اتاحة الفرصة لعناصر اكثر كفاءة وقدرة من رجال طبقة الفرسان . فمنذ عصر هادريانوس وخلال عصر آل سيفيروس كان على رجال السناتو والفرسان ان يختاروا بين العمل في المجال العسكرى او المدنى ، ولكن ابان ازمة عام ٢٥٠ م اعطى الاولون لشغل المناصب العسكرية لمن كان مجالهم الاصلى عسكريا وبالتالي فحصل جالينوس الفرسان لانهم جميعا جاءوا من تحت السلاح . وكانت هذه الفكرة موجودة حتى منذ عصر اغسطس لانه نفسه اختار " زيادة الفرقة الرومانية فارسا وليس عضوا من السناتو وكان هذا وضعا جديدا (١) . وقلده سبتيميوس سيفيروس القيادة بالنسبة للفرق الجديدة الثلاث التى اوجدها . وفي عصر جالينوس اصبح جميع قادة الفرق من الفرسان . كما حل جالينوس رجال الفرسان محل مندوبيه من رجال السناتو legati لحكم الولايات السيناتورىة . ومنح هؤلاء الحكام الجدد لفظا جديدا هو الرؤساء (praesides) معتمدا على سابقة تسمح بأن يحل الفرسان مؤقتا محل اعضاء السناتو لحكم الولايات السيناتورىة .

وحذى خلفاء جالينوس حدوه بالرغم من بقاء عدد ضئيل من اعضاء السناتو ممن بقوا يحكمون الولايات عند مجيء ديوقلديانوس الى الحكم . كما صاحب ذلك تعيين أمناء Curators للاشراف الادارى على مقاطعات ايطاليا كبداية لتقسيمها الى مناطق ادارية . كما صاحب ذلك ايضا ازدياد سلطات قائد الحرس البرايتورى الى درجة وضع اللوائح والقوانين التى تتعلق بالعسكرية والجيش والضرائب الخاصة بها (annona) ولدرجة ان منصب قائد الحرس البرايتورى (praefectus praetorio) اصبح بمثابة الرجل التالى للامبراطور والخطوة قبل الاخيرة لاعتلاء العرش . وقد شغل الفرسان هذه الوظيفة دائما بالتالى كان معظم الاباطرة من رجال هذه الطبقة .

(١) ويتمثل ذلك فى واليه على مصر الذى كان عادة من طبقة الفرسان وكان يتوود الفرق

الرومانية الثلاث العسكرية فى مصر .

تطوير الجيش الروماني :

فشل نظام الاستحكامات الدفاعية الثابتة الذي طبق ابان القرن الثاني ولهذا لجأت الاباطرة الجدد الى ابتداع النظام الدفاعي المتحرك الذي كان متبعاً في عصر الامبراطورية المبكر . وبذلك اوجدت قوات متحركة Vexiliatones (١) وضعت على اهبة الاستعداد والتحرك قرب المناطق الاستراتيجية . كما تحولت قوات الحدود الى ميليشيا limilanei واقيم خط دفاعي ثان لصد العدو اذا ما نجح في اختراق الخط الدفاعي الاول .

كما شمل هذا التطور التسليح والتدريب . فمثلا ابطل نظام بناء المعسكرات المحصنة عند كل تحرك ، واستخدم الجلد السميك بدلا من الحديد بالنسبة لدرع الصدر ، واستخدم درع خفيف لليد ، واهملت الاسلحة القديمة الثقيلة مقابل حراش قصيرة وسيوف مثل التي كانت تستخدمها قوات الحلفاء (auxilarii) .

ومن التطور الذي شمل الجيش اختفاء العنصر الروماني الخالص او المتشبع بالروح الرومانية . واحلال محله عناصر من الولايات على قدر ضئيل من الثقافة والتعليم الروماني ، وبذلك هبط مستوى الجيش سواء من ناحية النظام او الحفاظ على التقاليد العسكرية ، او من ناحية التدريب او المهارة القتالية ، او من ناحية الولاء القومي نظرا لتزايد المرتزقة الاجانب . وفرض على الناس ضرائب جديدة مثل ضريبة التجنيد لمساعدة الاباطرة على دفع رواتب هؤلاء الجنود . aurum tirocinium

ظلت الفرقة الرومانية هي وحدة القتال ولكنه منذ عصر جالينوس بدأ الاتجاه نحو تفضيل الفرسان كقوة قادرة على العمل وبدون معاونة انفرقة ، وكان نواة « فرق الفرسان » الفرسان المور والفرسان الذين كانوا يعملون مع الفرق وبدأ تجنيد فرسان جدد من دلماتيا ، وقلدوا الجيوش الأجنبية مثل نبالة بالمورا وفرسان الفرس ، واصبحت ميلانو هي قاعدة قوة الفرسان ، واهتم أوريليانوس بالفرسان المسلحة (Cataphractarii) وزاد من عددهم لدرجة أنهم أصبحوا على قدم وساق مع قوات الحرس البرايتوري ، واصبح قائدها منافسا لقائد الحرس البرايتوري أن لم يكن قد تخطاه ، ويكفي أن نشير الى أن كلا من كلاوديوس القوطي وأوريليانوس صعدا الى العرش من موقع قائد الفرسان المسلحة .

وهناك عامل خطير طرأ على الجيش الروماني في القرن الثالث وهو الاكثار من تجنيد الجرمان ليس في القوات النظامية legiones أو في القوات المساعدة والمتحالفة (Foederati) بل في الوحدات النظامية للقوات المساعدة numeri ونحن نعرف أن أوريليانتوس جند وحدات كبيرة من الوندال والقوط والالمان . وفي ذلك الوقت أصبح لفظ دو كس (الدوق Dux) لقبا عسكريا يحمله كبار قادة الفرق والأسلحة والفرسان في النظام العسكري الجديد خاصة في المناطق العسكرية الجديدة في الولايات وعلى الحدود وخلاصة القول أصبح الإباطرة سجناء لقواتهم وأصبح هناك فجوة بين المواطنين المدنيين وقواتهم المسلحة ليس في الأمانى القومية بل في العنصر واللغة والتقاليد والأهداف والوضع الاجتماعى والقومى .

التدهور الاقتصادي :

كان من الطبيعى أن يؤدي خطر الغزو الاجنبى والصراع الداخلى على السلطة الى انكماش المدن بعد تدهور الزراعة والتجارة والصناعة ، فضلا عن الدمار ، والنهب وقطع طرق المواصلات ، التى يحدثها المهاجمون والغزاة . كما ظهر لأول مرة النقص الشديد فى الايدى العاملة سواء فى الزراعة ، أم فى الجيش بسبب الحروب والثورات الداخلية ، وبسبب تفشى الاوبئة التى اندلعت فى فترات مختلفة ، ولكن النقص الاكبر كان فى عدد العاملين بالزراعة التى هى المصدر الاساسى لضرائب الامبراطورية ودخولها ، لأن ما كان يتبقى لهم بعد دفع ايجار الارض وضرائب الدولة لا يشجع على الاطلاق على استمرارهم فى مهنة الزراعة ، كما أن الدولة لم تدرك أهمية الفلاحين كمصدر اساسى للدخل العام ، وان من الضرائب التى كانت تثقل كواهلهم كانت تعيش فئات عاطلة غير منتجة من أمثال الجنود وغوغاء العاصمة وكبار الموظفين البيروقراطيين ، وأصحاب الضياع التى يؤجرونها بأسعار باهظة للمزارعين أو يستخدمون العمال الأجراء للعمل فيها حيث ارتبط هؤلاء الأجراء بالأرض ارتباط الرقيق بأسيادهم .

وهذا هو نواة نظام الاقطاع الذى ساد فى القرن الرابع الميلادى وقد انعكس التدهور الاقتصادى فى فوضى نظام النقد الفضى . ففي أيام الامبراطور جالينوس لم يعد الدينار الانطونيى يحتوى الا على ٢٪ من نسبة الفضة والباقى كان برونزا . وأصبحت الدولة تسك الآلاف من العملات ذات القيمة الفضية المخفضة لتحل محل العملات القديمة بنفس النسبة الشرائية ومن ثم فقدت أهميتها فى التعامل التجارى مما أدى الى ارتفاع الاسعار ارتفاعا باهظا ، ففي مصر مثلا حيث تساعدنا المصادر

الوثائق على معرفة الدقائق من الأمور - ارتفعت الأسعار ما بين أربعة عشر وعشرين مرة عما كانت عليه في أول عصر الإمبراطورية وبالتالي ارتفعت معها رواتب الجند . والسبب هو النقص في معدن الفضة وتدهور التجارة الدولية وزيادة النفقات الحربية وكلما انخفض دخل الإمبراطور من الضرائب بسبب افلاس الناس وهجرتهم للأراضي كلما ازدادت الحكومة اصرارا على تعويض هذا النقص بالاصرار على جمع الضرائب العينية وفرض ضرائب جديدة ومجحفة ، كما استخدمت القوة في السيطرة على الولايات مما ساعد على تغفل البيروقراطية والقهر العسكري ، وهو شيء لم يكن معروفا في بداية عصر الإمبراطورية ، ولكن أصبح شيئا عاما إبان القرنين الثاني والثالث ، كما فرضت الدولة وصايتها على نقابات أصحاب الحرف وجمعيات التجار وحولتها إلى أجهزة لها ، بينما فرضت الخدسات المدنية بالامر على أبناء الطبقة المتوسطة في الأقاليم والولايات ، مما أدى إلى تحويلها إلى طبقة معدمة ، ولم تدرك الدولة مدى عواقب افلاس الطبقة المتوسطة ولكنها لم تكن تعرف ماذا تفعل للخروج من الورطة الاقتصادية والانهياء العام . صحيح أن أوريليانوس حاول إعادة نظام النقد إلى حالة شبه طبيعة ، وكذلك حاول الإمبراطور بروبوس إعادة تمليك الأراضي المهجورة إلى ملاك جدد كما تكشف حفائر جامعة القاهرة في كوم أوشيم ولكن وجدت الدولة نفسها تفرض تسلطها على أصحاب الملكيات الصغيرة وعلى نشاط المواطنين الاقتصادي مما أدى إلى شلل في النشاط التجاري والمهني الحر ولجأ بعضهم إلى صفوف الهاربين من الظلم من الموظفين والفلاحين والعمال وقطاع الطرق (١) . كما أن المصادرات المستمرة لأموال الأغنياء من أجل الإنفاق على المشروعات العسكرية أضعف رؤوس الأموال العاملة وقضى عليها كما قضى على طبقة الأعيان في الريف وحولها إلى طبقة معدمة .

اضمحلال الثقافة والفنون :

وقد انعكس الفقر الاقتصادي الذي ساد في الفترة ما بين ٢٢٥ حتى ٢٨٥ ميلادية على الثقافة والفنون . ولم يجد لا الفن ولا الأدب أحد يشجعه ، ولذا لم يظهر في هذه الفترة أي مواهب أدبية أو فنية إلا القليل

(١) وفي مصر سمحت التقاليد للفلاحين المصريين بالالتجاء إلى المعابد هربا من ديون الدولة وظلم الحياة anachoresis . ولكن في القرن الثالث حرم هذا التجاء ولم يجد الفلاحون الذين ضاقت بهم الحياة سوى التجاء إلى التلال والمستنقعات والأدغال يعيشون على قطع الطرق ونسب الأسلحة وحلق مشكلة جديدة وهي حماية الطرق ومحاربة قطاعها وهذا كلف الدولة نفقات باحثة فضلا عن فشل هذا النظام بمرارة لفساد الحراس المكثين بذلك .

النادر . وجدير بالذكر أن اللغة الاغريقية الركيكية (Koine) غطت على اللغة اللاتينية ، كما أن الكتاب الذين استخدموا اللغة الاغريقية فاقوا اولئك الذين كتبوا باللاتينية عددا وجودة ، حتى في الموضوعات التي تخص الرومان ، ومن بين مشاهير كتاب هذه الفترة المؤرخ هيروديانوس الذي سبق الاشارة اليه والمؤرخ ديكسيبوس Dexippus الاثيني مؤلف الكتاب المعروف «هزيمة الغزاة القوط» الذين نهبوا اثينا عام ٢٦٧ كما ألف ديكسيبوس كتابا آخرًا عن التاريخ العالمي ولكنه فقد ، ومؤلفا آخر من تاريخ أهل سكيثيا لم يصل إلينا سوى فقرات وشذرات منه .

ومن اعلام فلاسفة هذه الحقبة الفيلسوف المصري افلوطين الذي ولد في أسيوط Lycopolis وعاش في عصر جالينوس حيث راح يعلم الناس الفلسفة في روما ما بين ٢٥٣ و ٢٧٠ ميلادية .

وقد تحولت الفلسفة الاغريقية على يديه الى فلسفة دينية بعد أن مزجها بمعتقدات الشرق الروحانية ، ولم تعد فلسفة ميتا فيزيقية مجردة ، بل تقوم على العقيدة والالهام وليس على المنطق الرياضي . وفي هذا العصر أيضا لمع نجم اغريقي سوري اسمه كاسيوس لونجينوس Longinus وكان مثل افلوطين من نتاج مدرسة الاسكندرية ، ولكنه تخصص في مجال البلاغة والفلسفة والنقد الادبي ، وقد دعت زنوبيا الى بالمورا حيث أصبح من اقرب المستشارين اليها . ولكن الملكة ضحت به عندما غزى أوريليانوس بالمورا عام ٢٧٢ وألقت عليه اللوم فأخذ حياته بيده .

كما قدمت الكنيسة عددا من الادباء خاصة أن عددا كبيرا من الاساقفة كانوا ادباء ، أو رجال فكر ، وخطباء ، أو فلاسفة أخلاقيين ، وفقهاء في علم اللاهوت المسيحي ، ويجيء على رأسهم القديس قبريان St. Cyprian (القديس القبرصي) أسقف قرطاجة الذي لاقى حتفه كشهيد إبان حركة اضطهاد المسيحيين على يد قائلريانوس عام ٢٥٨ م (١) ، كما قدمت الوثنية أعمالا مشهورة مثل يامبليخوس (Iamblichus) الذي جمع مجموعات من السحر والخرافات وآلهة الشرق بهدف منافسة المسيحية . ومن أعظم أعمال ذلك العصر المؤلف الادبي الطريف « الحارس الساهر على قينوس » Per Virilium Veneris الذي يعتبره الادباء أصل الذوق في الحضارة الاوربية الحديثة . سجله من جمال وذوق عال فضلا عن روح اليأس التي خبئت على المصنوعة لذلك .

cf. J. Fontaine : La Littérature Latine chrétienne, Paris, Presses Universitaires de France, 1970. (1)

. كان الفن المعماري أكثر الفنون تأثراً بحالة الفقر والاملاق إبان القرن الثالث ، وبخلاف المباني الضخمة التي كان الأباطرة يقيمونها في روما والأقاليم كمرافق عامة ، مثل المسارح واقواس النصر والمعابد والحمامات العامة لا يوجد هناك مبان تذكر بناها الأفراد . . . وكان الأسلوب المعماري في المرافق العامة تقليدي إلا من بعض المحاولات التجديدية مثل 'التغلب على مشكلة إقامة قبة فوق مبنى دائري . كما كان هناك محاولات تجديدية في النحت خاصة في مجال التماثيل النصفية والنحت فوق التوابيت الحجرية Sarcophogi وهو العودة إلى الكلاسيكية القديمة الهادئة خلال عصر اليقظة إبان حكم جالينوس ، ولكن سرعان ما تطور اتجاه فني جديد قادم من الشرق الأوسط وهو أكثر ميلاً إلى التجريد منه إلى القواعد المقننة في الفن « لاغريغوروماني » .

وكان الفن المعماري أكثر الفنون تأثراً بحالة الفقر والاملاق إبان القرن هناك اهتمام بالمقابر الخفية Catace حيث كان المسيحيون يدفنون موتاهم سرا . وهو عبارة عن سراديب معقدة الوحدات يوجد بها تجاريف لدفر الموتى عبر ممرات تؤدي أحيانا إلى مقصورات جنازية للشخصيات البارزة أو للأسرة الجماعية . كما كانت المدافن مزينة بالرسومات وبلوحات الجص ويتخللها بعض النقوش الانجيلية . وان دل هذا الفن فأنما يدل على وجود فنانيين محترفين في ذلك العصر وفنانين قديرين . أما موضوعات الفن فلم تعد الأساطير الكلاسيكية بل موضوعات من التوراة ورموز المسيحية المبكرة (١) .

الفصل التاسع

ديوقلديانوس واصلاحاته الجفرية

المصادر :

بالرغم من أن مصادرنا عن القرن الرابع الميلادي تفوق مصادرنا عن القرن الثالث الا أن هذه المصادر لا تزال مهمة وفي حاجة الى الفحص والتحليل .

ويجىء على رأس هذه المصادر مؤلف زوسيموس Zosimus (١) المؤرخ الاغريقى الذى ألف موسوعة جديدة لتاريخ روما فى ستة اجزاء تغطى الفترة ما بين ٢٧٠ ميلادية حتى ٤١٠ م . ومن المعتقد أن زوسيموس انتهى من مؤلفه هذا حوالى ٦٠٠ ميلادية . وهذا المؤلف يكاد أن يكون استمرارا واستكمالا لمؤلف آخر هو موسوعة التاريخ الرومانى التى كتبها باللاتينية المؤرخ الرومانى اميانوس ماركيلينوس Ammianus Marcellinus (٢) فى القرن الرابع .

وقد سار اميانوس على نهج المؤرخ الكبير تاسيتوس بل وقلده لى ينجز تاريخا دقيقا للفترة من حكم الامبراطور نرقا حتى حكم الامبراطور فالينس (٣٧٨ م) فى واحد وثلاثين كتابا لم يتبق لذسف منيا سوى الثمانية عشر كتابا الاخيرة والتى تغطى الفترة ما بين ٣٥٢ الى ٣٧٨ م .

A. Cameron, «The date of Zosimus New History, Philologus CXIII, 1969, p. 100-110.

(٢) عن اميانوس ماركيللوس كمصدر تاريخى انظر الدراسات التالية :

P.M. Canus : Ammien Marcellin, témoin des courants cultures et religieux à la fin du quatrieme siecle, Paris, les belles 1967 ; Ronald Syme : Ammianus and the Historia Augusta. Oxford, The Clarendon Press 1963 ; A. Demandt : Zeitkritik und Geschichtsbild in work Ammianus, Bonn, R. Habelt 1965.

وعن زيارته لمصر انظر البحث التالى :

وهيب كمال : اميانوس ماركيللوس فى مصر - خبر فى القرن الرابع - مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٦٧ . ويذكر كمال فى مقاله بالرغم من نسخته فى مدينته انطاكية الاغريقية الا أنه كتب باللغة اللاتينية مثل كلاوديوس .

ولما كان ديوقلديانوس هو حجر الزاوية في تاريخ الامبراطورية في القرن الرابع الميلادي فان المصادر عنه بالذات تعتبر اساسية ، وسيجدها الباحث في الجزء الاخير من تاريخ الاباطرة *Historia Augusta* (١) فضلا عن عدد من الموجزات التاريخية *Brevaria* عن حياته ، وهذه الاخيرة هي مجموعة من الابحاث المتنوعة عنه مكتوبة باللاتينية والاجزاء الاخيرة منها ذات اهمية خاصة لان مؤلفيها عاصروا حياة هذا الامبراطور ورصدوا ظواهر عصره . فهم اقرب الى آراء شهود العيان .

ويجىء في مقدمة هذه المقالات سكستوس اوريليوس فكتور *Sextus Aurelius Victor* عن موجز لسير الاباطرة ابتداء من اغسطس حتى الامبراطور جوليانوس ابوستاتا *Julianus Apostata* ثم موجز يوتروبيوس *Eutropius* عن التاريخ الروماني الذي يتوقف عند عام ٢٦٤ ميلادية ، ثم موجز روفوس فستوس *Rufius Festus* (٢) الذي ينتهى عند عام ٢٧١ ميلادية ، وأخيرا ريس آخرى يأتى المؤلف الهام عن خلاصة حياة القياصرة *Epitomae Caesarum* الذي لا يعرف مؤلفه حتى الآن . ادى يتوقف عند موت ثيودوسيوس الاول في عام ٣٩٥ م .

واذا تركنا المصادر الوثنية واتجهنا الى المصادر الكنسية لوجدنا العديد من المصادر التي يجب ان نستخدمها بحرص وتحفظ ، لكنها بالرغم من ذلك فهي مصدر هام لا غنى عنه ، خاصة وانها تحوى نصوصا أصلية وثائقية منقولة بالحرف لواحدها مثل القرارات الامبراطورية واللوائح والقوانين والاوامر لعليا ، ومحاضر جلسات مجالس الكنائس والمراسلات بين الاباطرة وزعماء الكنيسة ، ورسائل الاساقفة وغيرهم من المسؤولين عن ادارة الكنيسة .

(١) عن الهستوريا اغسطا انظر الابحاث الاتية :

«*Historia Augusta Collquium*, Bonn (1963-1968 1970), Collection Antiquitas, Bonn, R. Habelt 1971 ; *Akti de Colloquio Patavino sulla Historia Augusta Roma*, l'Erma di Bretschneider, 1964 ; *Die Ausserpolitik in der Historia Augusta*, diss Bonn, R. Habelt 1970 ; R. Syme : *Emperors and bibliography-studies in the Historia Augusta*, Oxfod, The Clarendon Press 1971 ; (by the same author) *The Historia Augusta : a call of clarity*, Bonn, R. Habelt, 1971 (Antiquitas Reihe 4, Band 8).

(٢)

J.W. Eadie : *The Brevarium of Festus A critical edition with historical commentary*, University of London Athone Press, 1967.

وأروع أعمال ذلك الجانب مؤلفات شيشرون المسيحية الساعر
لاكتانتوس Lactantius خاصة مؤلفه العاطفي « عن موت الظالمين »
De mortibus persecutorum وفيه وعظ لاکتانتوس بني عقيدته كيف
ان الإباطرة الذين اضطهدوا المسيحيين لا قوا ميتة مؤلة جبراء وفاقا علي
ما فعلوا ، وكان لاکتانتوس راهبا شفاف الحساسية ، صوفي النظرة ،
ولكن مؤلفه جاء كالبحر يحوى في أحشائه دررا أصلية وأصيلة لأحداث
الفترة منذ أن توفي دقلديانوس الى موت الامبراطور ماكسيمينوس دايا
Maximinus Daia (١) عام ٣١٢ ميلادية .

كذلك لدينا مقالات القديس اثناسيوس اسقف الاسكندرية (٢٩٦ -
٣٧٣ م) النارية والمليئة بالوثائق المنقولة حرقيا والخاصة بالعراك
المقائدى ضد آريوس واتباع مذهبه .

ويعطى المؤرخون أهمية خاصة لمؤلفات يوسيبوس Eusebius
(٢٦٤ - ٣٤٠ م) أسقف مدينة قيصرية Caesarea في فلسطين لأنه
من أعظم آباء الكنيسة الاغريقية نفوذا وعلماء ، بل وأعظم العبقريات الادبية
في تاريخ الامبراطورية الرومانية في عصر أقولها . ويبدأ يوسيبوس
مؤلفاته بشروح متنوعة للكتاب المقدس ، ثم سرعان ما يجد نفسه مؤرخا
يمزج الدين بالدنيا فيكتب تاريخا شاملا للانسانية منذ ابراهيم الى
قسطنطين . وقد أشاد الامبراطور في الجزء الخاص بحياة قسطنطين
بتقوى هذا الامبراطور واخلاصه للكنيسة . ثم أصدر لأول مرة في تاريخ
الانسانية دورية Chronica تروى وسجل أمور العقيدة منذ ابراهيم
حتى مجلس الكنائس المنعقد في نيقيا Nicaea عام ٣٢٥ م . وقد ظلت هذه
الدورية من بعده حتى العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن نذكر أعظم أعماله
جميعا الا وهو موسوعة التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica والتي
تعتبر مصدرا وثائقيا لتاريخ الكنيسة منذ قيامها وحتى المجلس الكنسى
في نيقية Nicaea كما أنها مصدر صادر عن شاهد عيان لأعمال
الاضطهاد خاصة مذابح المسيحيين الكبرى في عصر دقلديانوس .

هذه هي المصادر المنقولة عن الآخرين ، لكن هناك جانب آخر من
المصادر وهي المصادر المباشرة التي نعتبرها الحقيقية الأصلية . وهي
المصادر التي نرغبها من الارض سواء كانت وثائق من أوراق البردى
او قطع العملة ثراذا كانت او مجموعات . الى جانب المصادر الانثوية

H. Castritius : Studien zur Maximinus Daia (bas. ٥) Katholienzuber .
Regensburg, M. Lassleben, 1969, p. 7 ff.

الآخري خاصة - هو مكتوب منها مثل الفرمانات: (١) الامبراطور
Constitutiones Principum التي كانت تسجل على النقوش ، أو
على أوراق البردى ، أو كانت تدون ضمن الموسوعات القانونية مثل
موسوعة ثيودوسيوس - Theodosius Code التي صدرت عام ٤٣٨ ميلادية
إبان عصر ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠ م) ، وموسوعة جستنيانوس
Justinian Code التي صدرت عام ٥٢٩ ميلادية إبان عصر جستنيانوس
الاول (٥٢٧ - ٥٦٥ م) .

ويعطى الباحثون أهمية خاصة الى اثنتين من الوثائق النقشية أولهما
وثيقة دقلديانوس الخاصة بالحد الأعلى للأسعار Edictum de maximis
Pretii وثيقة الملك الفارسي نرسيس الاول Narses (٢٩٣ - ٣٠٢)
التي عثر عليها في بايكولي Paikuli ، وفيها عدد الملك الفارسي
انتصاراته المختلفة والمناسبات التي أذل فيها الوفود الرومانية وملوك
دويلات آسيا الصغرى التي أعلنت أمام هذا الشاه العظيم مبايعتها وقدمت
كل واجبات الطاعة والولاء .

وأخيرا نشير الى وثيقة هامة عن شئون الإدارة في أواخر عصر
الامبراطورية - - - - - Notitia Dignitatum أي « قائمة الوجهاء »
وهي عبارة عن كتيف بالمناصب ترجع الى القرن الخامس وتحمل قائمة
المناصب العليا المدنية والعسكرية والهيئات التابعة لها .

ديوقلديانوس يفرض سيادته على الامبراطورية :

لقد رأينا كيف أنه بفضل الإباطرة الاليريين أمكن للامبراطورية
الرومانية من التماسك ومقاومة التصاعد ، وحماية حدودها ، لكن خطر
السيطرة على الجيوش الجامحة ظل قائما فاحتال الامبراطور كاروس
وابنه نومريانوس ثم انقلاب ديوكليس Diocles الذي أطاح بحكم وحياة
كارينوس أثبتت أن الدولة قد فقدت السيطرة على قواتها العسكرية

(١) لم أجد أصدق من هذا التعبير رغم أن كلمة « فرمان » تركية لكنها أقرب معنى
الى المفهوم العام . بالرغم من أن المصادر القانونية الرومانية لكلمة Constitutio
متعددة الجوانب ، فهي تشمل المراسلات edicta التي كان يصدرها الامبراطور بصفته
رئيسا للدولة ، أو القرارات decreta التي تصدرها محاكم القصر الامبراطوري وكان
لها قوة القانون ، أو انتشارا لشربه rescripta التي كان يرد بها الامبراطور على
الاداريين في حالة عدم انطباق القوانين على بعض القضايا . وبالنسبة الى الفرمانات
الرومانية فقد كانت باقية ومتبعة الا اذا ألغيت بفرمان لاحق من امبراطور آخر لان الامبراطور
كان عادة يلجأ الى رأى الفقهاء قبل اصدار رأى منها .

تماما . ونتيجة لانشغال الجيوش في تدبير الانقلابات ضد الإباطرة عاد أعداء الإمبراطورية الى مهاجمة حدودها والنيل من سيادتها .

وفي نفس الوقت تفاقمت المشكلة الاقتصادية وضاق الناس ذرعا بالإمبراطورية وبالإباطرة . وفي قلب هذه الأحداث برز ديوقليديانوس .

ولد ديوقليس (ديوقليديانوس) حوالى عام ٢٤٥ م في ولاية دالماتيا Dalmatia ، ويرجع المؤرخون أن مسقط رأسه كان في سالونا (حاليا قرب سبالاتو في يوغوسلافيا والمطلة على بحر الأرياتيكا) . على أى حال كان أبواه فقيرين ، وربما كان أبوه يشغل وظيفة صغيرة كغيره من طبقة المعتقدين ، ولكن ذلك لم يعق الابن الطموح عن التدرج في الوظائف العسكرية، فقد انضم الى قوة الفرسان تحت قيادة جالينوس Gallienus ووصل الى رتبة دوق dux (أى قائد الفرسان) في ولاية ميسيا Moesia ثم أصبح قائدا لقوات الحرس الإمبراطورى الخاص .

ولكن شهرة ديوقليس كمنظم ومخطط ورجل دولة فاقت شهرته كمسكرى فد ، فضلا عن حصافته التى جعلته يمد يده لكل الكفاءات سواء مستشارين كانوا أم جنرالات من أجل انقاذ الإمبراطورية .

من الواضح ان ديوقليس فكر وخطط لمستقبل الإمبراطورية قبل ان يقوم بانقلابه ضد الإمبراطور كارينوس ، لأنه اندفع في تنفيذ خطوات اصلاحية جذرية لا يمكن أن تكون تلقائية أو عشوائية بل نتاج تفكير طويل ودراسة دقيقة ومتفهمة لمشاكل الإمبراطورية . هذه الخطوات التصحيحية جعلت منه مؤسسا لعهد جديد . لقد كان وضعه مشابها لوضع الإمبراطور أغسطس نفسه ، لأنه كان عليه ان يقيم حكما جديدا في أعقاب فترة من الفوضى . انتهكت خلالها القوانين والحقوق . وكما وفق أغسطس نفسه مع الجمهورية بخلق سلطة جديدة هى سلطة المواطن الاول أو الرئيس (Principes) أوجد ديوقليس نظام السيادة (Dominatus) (١) بأن عين نفسه سيدا مؤلها على الإمبراطورية ، بيده القوانين والسلطات ، ومبعوثا ورؤيدا من قبل الآلهة ، بهدف مواجهة الفوضى العسكرية التى اجتاحت الإمبراطورية ، ثم غير اسمه الى ديوقليديانوس Diocletianus وهو ما عرف واشتهر به عبر كل العصور .

(١) Principatus النظام الامارة أو المواطن الاول الذى وضع أساسا اعظمى .

أولا - تقسيم السلطة واختيار ماكسيميانوس شريكا :

أدرك ديوقلديانوس أن الطاقة اللازمة لحماية الامبراطورية من العدوان الخارجى والاضمحلال الداخلى تفوق قدرة رجل واحد ، ومن ثم فكر فى البحث عن نائب يتولى مسئولية الدفاع عن الولايات الغربية حتى يتفرغ هو بنفسه لحماية منطقة الدانوب والجهة الشرقية ، وبالتالى يوزع مسئولية الحكم ، ويحل مشكلة البحث عن خليفة له ولنائبه . ولهذا وقع اختياره على رفيق سلاح قديم هو ماكسيميانوس Maximianus الذى رقيه الى رتبة قيصر Caesar أى نائب الامبراطور . وولى عهده ، ثم بعث به الى ولاية الغال حيث كانت هذه المنطقة مهددة من قبل قبائل الفرنجة (Franks) وقبائل بوجونديا Burgundia والاماني Alemanni ، التى لم تتوقف عن النهب والسلب التدهيب سبب مجاعات محلية متعددة . وبالتالى ثارت بعض فساد العال خاصة بين الباجوداي Bagoudae والتف حولها الفلاحون اليائسون من العدوان الخارجى ، ومن الضرائب الباهظة التى استأبب اصحاب الاقطاعيات .

كان ماكسيميانوس الرجل المناسب الذى وضع فى مكان مناسب ، فقد كان فلاحا الليريا صلبا ، قاسيا وعنيفا ، ترقى من تحت السلاح بعد خبرة طويلة فى فنون الحرب والقتال ، كما كان شديد الولاء لسيده ديوقلديانوس ، ولهذا اندفع الى بلاد الغال ف سحق الثورة وطارد الالمان الى غابات شرق الراين بعد حملتين متتاليتين ، واعترافا بهذا الفضل امر ديوقلديانوس بترقيته الى مستوى « الاغسطس » فى عام ٢٨٦ م . وبذلك اصبح شريكا فى حكم الامبراطورية ولكن بدرجة تقل فى النفوذ عن وضع ديوقلديانوس رجل الامبراطورية القوى والاول .

وبالرغم من نجاحه الباهر فى بلاد الغال فقد فشل ماكسيميانوس فى السيطرة على بحر الشمال والقنال الانجليزى وتطهيره من القراصنة السكسونيين والفرنجة التى كانت تهاجم سواحل بريطانيا وبلاد الغال من آن لآخر ، وكان ماكسيميانوس قد اقام قاعدة بحرية فى بولونيا اوكل قيادتها الى قائد بحرى المانى الاصل اسمه ماوسايوس كاراوسيوس Mausaius Carausius ، الذى تمكن بفضل معرفته بالبيئة وبالشعوب



ديوقلديانوس وشريكه ماكسيميانوس يظهران وكل منهما
يحتضن الآخر . لاحظ التدهور الذي طرا على الفن الروماني
فاضحى اقرب الى الفن البربري البدائي

هناك من القضاء على خطر القراصنة في وقت قصير . وسرعان ما دفعه هذا الى الفرور فكون لنفسه اسطولا بعد اضافة السفن التي استولى عليها الى اسطوله الاصلى ، ثم وسع من نفوذه فاستولى على بولونيا وبريطانيا وأعلن نفسه امبراطورا «اي اغسطس» ، ولم يفعل ديوقلديانوس شيئا لأنه كان مشغولا بمشاكل الشرق ، ولما حاول ماكسيميانوس مواجهة كاراوسيوس دمر اسوله تماما ، وظل هذا الأخير امبراطورا لا ينافس على بحر الشمال لمدة سبع سنوات .

ولم يكن امام ديوقلديانوس سوى الاحتجاج والتهديد . فقد كان يقاتل من ولاية الى ولاية ، يؤمن الحدود ويطرده المتسللين والغزاة ، ليعيد السيادة الرومانية على منطقة الدانوب وبلاد العرب والقوط ، والقبائل العربية التي هاجمت سوريا وقبائل البشارية Blemmyes التي غزت مصر من السودان . كما نجح في عام ٢٩٠ م في جعل ارمينيا مملكة تابعة لروما وعين عليها ملكا عميلا هو تيريداتيس الثالث Tiridatis III . كما نجح في ارغام الفرس على التنازل عن مطالبتهم بولاية بلاد ما بين النهرين .

اقامة السلطة الرباعية Tetrarchia (٢٩٢ - ٣١٢ م) :

وعندما أدرك ديوقلديانوس مدى النتائج الايجابية سواء في المجال السياسى او العسكرى التي عاد بها نظام توزيع المسئولية على أكثر من فرد . قرر في عام ٢٩٣ م توزيع السلطة الامبراطورية على اربعة ، وبذلك خلق النظام المسمى بالسلطة الرباعية او التترارخيا Tetrarchia وذلك بتعيين نائب له . ونائب لشريكه ماكسيميانوس ، وهذان النائبان كانا بدرجة قيصر او ولى العهد . وفي الحقيقة لم يكن هذا النظام غريبا بل كان نظاما فارسيا طبقه ديوقلديانوس ، كما أن فكرة التبنى كانت فكرة معروفة مارسها الاباطرة الصالحون ابان القرن الثانى . وتنفيذا لهذا النظام الجديد اختار ديوقلديانوس ولى عهده او نائبه (قيصر) وكان فلاحا الليريا أيضا جاء من تحت السلاح وهو جايوس جاليريوس Gaius Galerius ، وكان جايوس جاليريوس على دراية كبيرة بالشئون العسكرية والاستراتيجية بالرغم من تغلب الطابع البربرى على سلوكه وتفكيره ، وبالطبع أوكل ديوقلديانوس حكم الشرق الى النائب الجديد .

اما ماكسيميانوس الامبراطور الشريك لديوقلديانوس فقد اختار نائبه وولى عهده ، وكان أيضا فلاحا الليريا ترقى من تحت السلاح وهو كونستانتىوس (قسطنطيوس) Constantius المشهور باسم خلروروس Chlorus اى دو « الوجه الساحب » . وذلك لمساعدة الامبراطور



اعضاء الحكومة الرباعية او الاوتوقراطيين الاربعة
يظهرون متحدين كدعاية سياسية للعهد الجديد

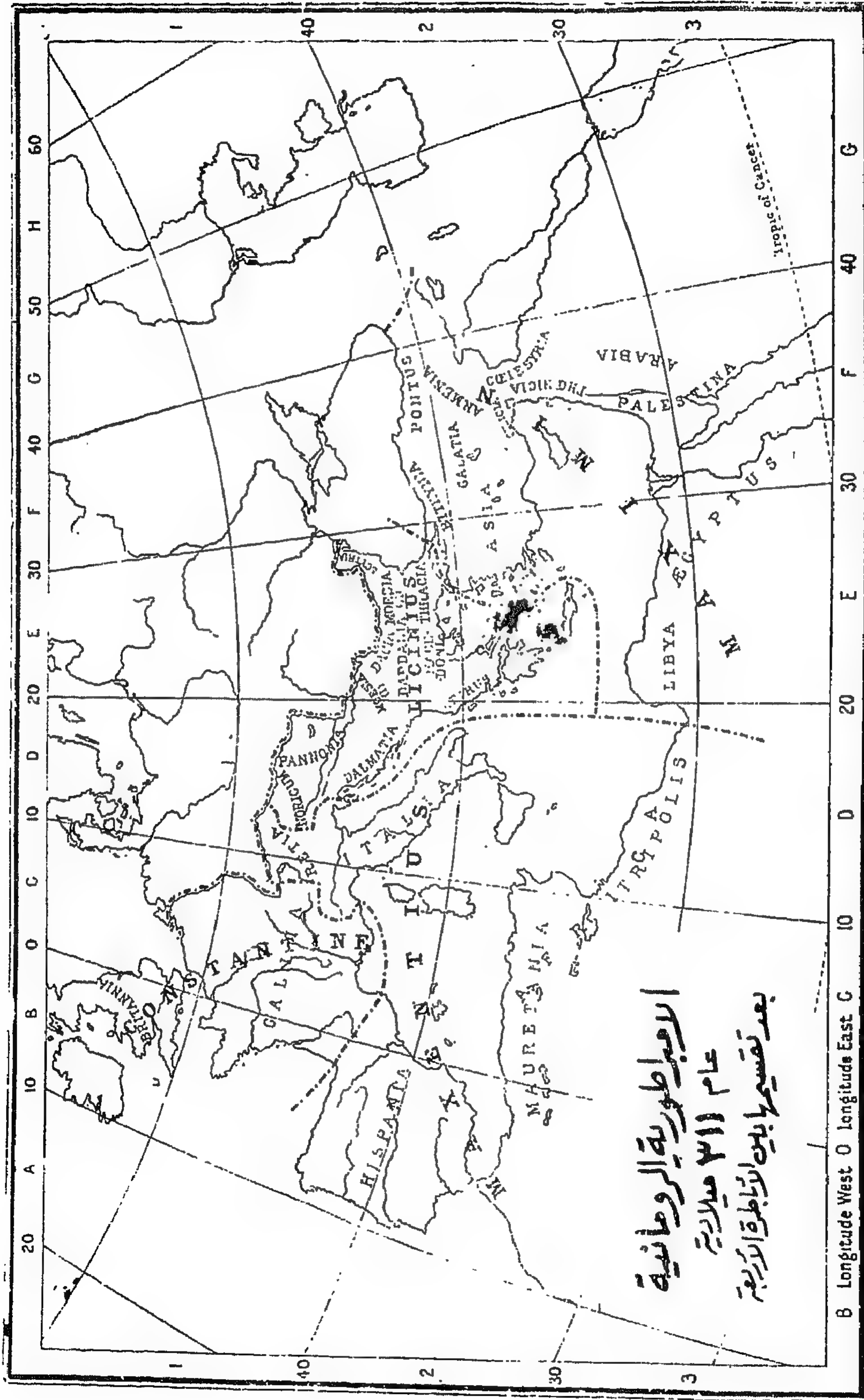
الشريك في حكم ولايات الغرب . وقد أثبت النائب الجديد مقدرة فائقة في مجال العسكرية والادارة ، جعلته جديرا بأن يكون والدنا لأعظم أباطرة روما المتأخرين ألا وهو الامبراطور قسطنطين الأكبر .

وتدعيما للأمر والروابط بين الأباطرة (Augusti) وبين نوابهما فقد تزوج كل نائب من ابنة سيده الامبراطور ليكون زوج ابنته ونائبه وخليفته من بعده . وبدأ النائبان (Caesares) في التعلم بسرعة والتمرن على أصول الحكم والادارة تحت اشراف الاباطرة ، وسرعان ما عوملوا على قدم المساواة معهم وأصبح الحكم جماعيا بين الاربعة ، وان كان ديوقلديانوس ظل يلعب دور الزعيم فيه . فبالقوانين والقرارات كانت تصدر باسم الاربعة وأي انتصار يحرزه أحدهم كان الاربعة يحتفلون به ، وكان من حق أي امبراطور أن يمر بقواته داخل حدود الامبراطور الآخر دون اعتراض أو استئذان منه . وفي نفس الوقت كان لكل واحد شخصيته المستقلة ، مثل سك النقود باسمه وعليها صورته واقتناء حرس خاص لحمايته ، أو البلاط الخاص بقصره .

وقد قسمت الامبراطورية بين الاربعة ، وأوكل لكل واحد منهم جزءا يحميه ، ويديره من عاصمة له ، فمثلا أوكل الى ماكسيميانوس حماية المناطق الشمالية من الراين والدانوب وجعل عاصمته مدينة « ميلانو » في شمال ايطاليا . أما كونستانتينوس الأشعب (Chlorus) فقد أوكل اليه ولاية بلاد الغال وبريطانيا وجعل مركزه هو مدينة تريفييس Augusta Treves (Treverorum) جنوب بلجيكا الشرقي . أما جاليريوس فقد أشرف على حماية منطقة البلقان وجزءا كبيرا من آسيا الصغرى ، وجعل مقره مدينة صيرميوم Sirmium (عاصمة الصرم) على الحدود بين بانونيا ودالماتيا ، أما ديوقلديانوس فقد تولى حماية المقاطعات الشرقية وجعل مقره مدينة نيقوميديا Nicomedia المواجهة لمدينة بيزنطة على الناحية الاخرى لبحر مرمرية .

ولكن بالرغم من هذا التقسيم كانت الامبراطورية وحدة سياسية متحدة لان الادارة فيها كانت جماعية والقيادة واحدة .

لقد كانت فكرة السلطة الرباعية عملا ناجحا بفضل حكمة ديوقلديانوس وحسن اختياره للرجال الذين تفاسم معهم المسئولية . كما أن هذا النظام أمس العرس لسلسلة من الاباطرة المدربين ، وأصبح يموت الامبراطور ينتقل العرش الى نائبه وسهره . ثم يختار الامبراطور الجديد نائبا له وهم



جرا . وكانت فكرة اختيار كل امبراطور لنائبه واقتسام العرش معه فكرة ليست غريبة على الرومان لان ماركوس اوريليوس حاول تطبيقها في القرن الثانى الميلادى عندما اختار لوكيوس فيروس شريكا معه . ولكن الاختيار لم يكن موفقا .

السلطة الرباعية وتأمين الامبراطورية :

وما ان تم قيام السلطة الرباعية ووزع الحكم على الاباطرة والقيصرة النائبين لهم حتى بدا كل واحد فى اثبات قدرته على تأمين حدوده . فمثلا بدا كونستانتىوس على الفور بعملياته ضد كاراوسيوس فى بحر الشمال وهزمه واستولى على بولونيا قاعدته ، وطرد الفرنجة وحلفاءهم الجرمان القاطنين قرب شواطئ بحر الشمال ونقل الاسرى الى مناطق تعمير فى شرق بلاد الغال لزراعتها واستيطانها . واخيرا اغتيل كاراوسيوس عام ٢٩٣ م وانتهت مشاكل الامبراطورية معه .

وفى عام ٢٩٦ م غزى كونستانتىوس بريطانيا واعاد السيطرة الرومانية عليها من اقصى الجنوب حتى حائط هادريان شمالا ، وامن شواطئها المطلة على بحر الشمال وعلى المحيط الاطلنطى ضد القراصنة الساكسونيين ثم كلف مسئولا من الساكسونيين بالاشراف على الدفاع عنها عرف باسم « كونت الشاطئ الساكسونى » . ثم عاد الى مقر قيادته فى مدينة تريشيس وشرع يوسع فيها ويجمل من مبانيها حتى اصبحت واحدة من اكبر المدن الجميلة فى الامبراطورية الغربية .

اما جاليريوس فقد قضى الفترة ما بين ٢٩٤ الى ٢٩٧ م فى حملات دفاعية فى منطقة الدانوب ضد القوط والصرماتين ، ثم امن جنوب الدانوب باقامة عدد من القلاع الدفاعية ثم اصلح الاراضى الواقعة فى جنوب حوض الدانوب ، ووزعها على المستوطنين الجدد .

اما ديوقلديانوس فبعد ان انتهى من مساعدة جاليريوس ، سارع الى مصر ليسحق ثورة اندلعت عام ٢٩٦ م وقادها زعيمان هما اخيليوس Achilles و لوكيوس دوميتيوس دوميتياتوس Lucius Domitius Domitianus بسبب الفلاء الباهظ واجحاف الضرائب . ولكن صمود الثوار لم يبق طويلا فى وجه حيوش الامبراطورية . وتمكن ديوقلديانوس من دخول الاسكندرية بعد حصار دام ثمانية اشهر وكان ذاك فى مارس عام ٢٩٧ م واعدم الثوار ودعى على الثورة الاجتماعيه التى عرفت باسم

الثورة المانيخية Manchaean (١) . وأعدم كل من انضم إليها . ثم ألغى ديوقلديانوس دار سك النقود المحلية في مدينة الاسكندرية وتوقفت دار سك النقود الخاصة بمصر لأول مرة منذ ضم مصر إلى حوزة الامبراطورية (وكان ذلك لاعطائها وضعاً فريداً يبقيا مستقلة نظراً لظروفها السكانية والثقافية الفريدة في نوعها) ثم أعاد ديوقلديانوس تنظيم مصر إدارياً . ومن الواضح أن ديوقلديانوس عامل السكندريين معاملة طيبة ووزع القمح على الناس بعد الحصار ، واعترافاً بفضل بني والي مصر الجديد بوستيموس ، نصبا تذكاريًا له رمزا لاعتراف المدينة بجميله عليها وعلى شعبها ، فأقام عموداً داخل السيرابيوم المقدس في منطقة الحي الوطني بكم الشقافة (١) والذي لا يزال من أهم معالم مدينة الاسكندرية حتى الآن ويعرف عند المصريين بعمود السواري وعند الأوربيين بعمود بومبي Pompey's pillar ولكي يوقف هجوم قبائل البشارية Blemmyes على حدود مصر الجنوب تنازل ديوقلديانوس عن بعض الأراضي الواقعة جنوب الشلال الأول ليوطن فيها إحدى القبائل المتعاونة مع الرومان .

ديوقلديانوس والفرس :

استغل الملك الفارسي نرسيس انشغال ديوقلديانوس بسحق الثورة الاجتماعية في مدينة الاسكندرية فهاجم ممتلكات الامبراطورية في الشرق الاوسط عام ٢٩٧ م اذ غزى أرمينيا وسوريا . ولما استدعى ديوقلديانوس مساعده جاليريوس لرد الخطر لاقى هذا الاخير هزيمة ساحقة في كالنيوم Calhnicium قرب كارهاي (Carrhae) عام ٢٩٧ م وضاعت ولاية بلاد ما بين النهرين . ولكن جاليريوس استعاد قوته في العام التالي ٢٩٨ م فهاجم أرمينيا وهزم نرسيس ودخل كتيشفون حيث أسر زوجات وابناء

cf. A.E.R. Boak, and Ch. Youtie, The Archive of Aurelius Isidorus, 1960, no 62.

وسميت بهذا الاسم نسبة الى النبي « ماني » الذي ظهر في بارتيا وبشر بالصرخة الدموية ضد الحكم الظالم ويرجع العلماء أن دعوته وصلت الى مصر كما يعتقد العلماء أن اخيليوس رجل آخر غير دوميتيانوس .

(١) العمود قطعة واحدة من حجر الجرانيت المجلوب من أسوان يبلغ ارتفاعه التاج والقاعدة ٢٦ر٨٥ مترا ويقال أن تمثالا للامبراطور ديوقلديانوس كان موجودا فوق التاج ودمره المسيحيون بعد ذلك ، ويطلق الأوربيون خطأ على العمود اسم عمود بومبي أما العرب فقد سموه بعمود « السواري » اشتقاقا من « سارية » أي سارية السفينة التي كان يشبهها . وعن الجديد في زيارة ديوقلديانوس للاسكندرية بعد الثورة أنظر :

La révolte de Domitius Domitianus et le voyage en Egypte de Diocletian d'après le témoignage des papyrus et des Ostraka, Revue des Études Grecques, 97, (1966), p. IX-X.

الملك . واضطر الفرس الى التصالح ، واستردت روما ولاية ما بين النهرين كاملة ، بل انها اقتطعت بعض الاراضى الواقعة شرق دجلة و اضافتها الى مملكة أرمينيا التى وضعتها تحت نفوذها . كما ضمنت روما لنفسها الطريق البرى من سوريا حتى الخليج الفارسى ، ووافق الملك الفارسى بأن يدفع التجار الذين ينتقلون بين فارس وممتلكات الامبراطورية الضرائب والمكوس الى روما عند قلعة نيسيبيس قرب نهر دجلة ، كل هذه التنازلات المهينة من جانب الفرس كانت من أجل استرداد زوجة الشاه وأولاده من الاسر الرومانى .

لقد كان انتصار الرومان ساحقا ومذهلا لدرجة أن الفرس لم يجراوا على تحدى الرومان لأكثر من خمسين عاما . كما أضفى هذا النصر على جاليريوس أهمية معينة فى السلطة الرباعية وأصبح يتمتع فيها بنفوذ كبير .

هكذا اثبتت السلطة الرباعية وجودها بالانتصارات الكبرى التى حققها كونستانتينوس فى الغرب وجاليريوس فى الشرق . ودعم مركز الامبراطورية فى بريطانيا وعلى طول الراين والدانوب والفرات والنيل . كما ان توطين الاسرى على حدود الامبراطورية لزراعة الاراضى هناك والدفاع عن حدود الامبراطورية كانت فكرة صائبة حقا .

ولقد كان هؤلاء الحكام الاربعة نموذجا اعلى للحكم الجماعى بالرغم من احتفاظ كل منهم بشخصيته الفردية ، وبقيت الامبراطورية متحدة بالرغم من تطبيق سياسة اللامركزية decentralization كل هذا حما الامبراطورية وجعلها قادرة على ان تستعيد قوتها وثباتها ، بل انهم وضعوا الدعائم الدستورية لامبراطورية جديدة قدر لها ان تترث روما لمدة تزيد على الالف عام ، الا وهى الامبراطورية البيزنطية .

اصلاحات ديوقلديانوس :

بالاضافة الى المجهودات العسكرية التى بذلها ديوقلديانوس من اجل دعم الامبراطورية وتماسكها ، فقد قام بعدد من الاصلاحات التى شملت كل جوانب الادارة والقيادة . ومن الجدير بالذكر ان ديوقلديانوس لم يأت بجديد وانما استفاد من تجارب من سبقوه او طور تجارب، واصلاحات لى يحصل على نتائج يبدو كما لو كانت جديدة بعد ان طورها بطريقة دقيقة تخدم اغراضه . ولهذا استفاد من اعمال القادة العظام الذين سبقوه من امثال الاسكندر الأكبر وأنتيوخس وكلاوديوس ، هادريانوس وسيمبوس

سيقيروس وجالينوس وأوريليانوس . لقد كانت اصلاحاته ذكية وهادفة مثلا قضت فكرة السلطة الرباعية على الانقلابات العسكرية التي كان يقوم بها بعض العسكريين الطموحين . وفي نفس الوقت فكرة ليست جديدة بل مطورة من التراث الفارسي والروماني القديم .

١ - اعادة المهابة والقداسة الى منصب الامبراطور :

قضى ديوقلديانوس وقتا طويلا في الشرق لدرجة جعلته يتأثر بأفكاره وتقاليده ، ولذا لم يكن غريبا عليه ان يختار الشرق ليقضى فيه معظم حكمه . لقد أعجب ديوقلديانوس كما أعجب الاسكندر الاكبر يوما ما . بملوك الشرق وحياة الابهة والترف والتعالى والتأله ، لان ذلك يحيطهم بهالة مقدسة تحول دون ثورات جنودهم عليهم ومن ثم احاط ديوقلديانوس نفسه بكل مظاهر قصور الشرق الخرافية من بلاط ووصيفات وخدم وحشم وياورانات ومستشارين عسكريين وحرس واصبح القصر ادارة وقلعة قائمة بذاتها . واحاط نفسه بقداسة وانعزالية (seclusion) واصبح نادر الظهور بين الرعية والجنود ، واذا حدث وظهر فانه كان يرتدى الاكليل الملكى diadem ويمسك بالصولجان ويستقبل الناس وهو جالس على العرش مرتديا العباءة الملكية الحمراء المزركشة بالذهب والمعروفة باسم Paragauda واللبذة الملكية (regalia) . واصبح كل ما يمت له بصلة يوصف بأنه مقدس Sacer حتى الامبراطورية اصبحت مقدسة . وقلد ديوقلديانوس الاسكندر عندما اصدر اوامره بوجوب السجود امامه (proskynesis) عند المثول بين يديه . ثم يقبلون اطراف ثيابه ويعرف ذلك بعبادة adoratio paragaudae العباءة بل انه فرض على اعضاء مجلس الدولة الوفوف عند دخوله القاعة لهذا السبب اسمى بمجلس الواقفين المقدس sacrum consistorium .

وزيادة في التالية اضاف دقلديانوس الى اسمه لقب جوثيوس Jovius اى ممثل الرب جوبتر كبير الارباب على الارض من اجل اعادة احياء مجد الامبراطورية ، كما اضاف الى شريكه ماكسيميانوس لقب هرقليوس Herculus اى تجسيد هرقل البطل الاسطوري الذى كان الساعد الايمن لجوبتر ، ولهذا طالب ديوقلديانوس وشريكه بكل مظاهر التالية مثل مخاطبة الامبراطور بكلمة dominus noster اى يا ربنا . واصبح كل شيء يخصهم مقدس ومبارك ، واصبح الرسامين يحيطون صورهم بالهالة القدسية التي تسمى النور الرباني كما يرى في الفن البيزنطي . وبهذا فرضوا على الشعب ان يقدسهم ويحترمهم ويحسبهم نجود

بالرغبة والخوف ، وكان هذا كفيلا بوقف عمليات اغتيال وقتل الاباطرة واستمر تقديس الاباطرة متبعا طوال القرن التالى وخلال العصر البيزنطى .

٢ — اعادة تنظيم وادارة الولايات :

وحتى يتفادى الثورات المحلية التى قد يقوم بها الجنرالات الطموحين فى اجزاء الامبراطورية الشاسعة ، قرر ديوقلديانوس اعادة تنظيم الولايات واجراء المزيد من التقسيمات عملا بسياسة قسم واحكم (Divide et impera) ونتيجة لهذه السياسة الجديدة زاد عدد الولايات الرومانية من حوالى الخمسين ولاية فأصبح يتجاوز المئة . وكان سبتيميوس سيفيروس قد فعل ذلك بالنسبة لبعض الولايات التى رأى ، فى اتساعها تهديدا له ، كما الفى ديوقلديانوس التقسيم الذى وضعه اغسطس بين ولايات السناتو وولايات الامبراطور ، وأصبح الامبراطور هو الذى يتحكم فى كافة الولايات ويعين حكامها وأن احتفظ لبعض الولايات بحكام من رجال السناتو ، والبعض الآخر برجال من طبقة الفرسان .

وعلى أى حال ساء، ديوقلديانوس حكام الولايات من السلطات العسكرية ومن التحكم فى قيادة الجيوش العسكرية داخل ولاياتهم مما زاد من سلطة الحكومة المركزية وقضى على خطر التمرد ورفع السلاح فى وجه الدولة ، كما اتبع ديوقلديانوس سياسة سبتيميوس فى الفاء وضع ايطاليا المتميز القديم وسواها تماما بوضع الولايات الاخرى واصبح سكانها يدفعون الضرائب ، بل انه قسم اراضيها الى ست عشرة مقاطعة مثلها مثل بقية ولايات الامبراطورية فى الشرق والغرب .

ولكى يعطى الحكومة المركزية فرصة فى التحكم فى سير العمل فى الولايات قسم ديوقلديانوس الولايات الجديدة الى اثنى عشرة دوقية Dioceses او تقسيم ادارى كبير ، وجعل على رأس كل دوقية نائب حاكم (Vicarius) يدير الدوقية نيابة عن احد قواد الحرس البرائتورى الاربعة — نواب الاباطرة الاربعة ، واصبح حكام المقاطعات يعرفون بأسماء جديدة مثل الرؤسا (praesides) او القضاة (iudices) (١) وهذا دليل على

(١) وأحيانا كانوا يسمون بالفتسين Correctores او الحكام القنصلين Consulares وكان لكل واحد من هؤلاء هيئة مكتب officium ملئ بموظفين officiales وتكون ادارة مستقلة ويرأسه رئيس المكتب princeps عادة ما يكون رجل القصر الملكى ، وكان موظفو المكاتب يتمتعون بنفس مزايا الجنود مثل الاعفاء من الضرائب وعدم المشول امام المحاكم . وذلك تخلقت البيروقراطية برعونتها وبهاظة تكاليفها وجشعها وتعقيدها للأمور ، وميلها للفساد والرشوة والمحسوبية . وهى عامل من عوامل سقوط الامبراطورية

ان مناصبهم كانت مدنية او قضائية بحتة ، وانطبق ذلك على حكام الولايات الثلاث التى جرت العادة على تعيين حكام عليها من طبقة السناتو بدرجة بروقنصل وهى افريقيا وآسيا واخيا فى بلاد اليونان .

كان معظم حكام الدوقيات (Vicarii) من رجال طبقة الفرسان الذين لا سلطة لهم ولا علاقة لهم بقوات الجيش وذلك لان ديوقلديانوس او كل قيادة القوات الموجودة فى المقاطعات او الدوقيات الى قيادة عسكرية منفصلة ومحترفة عرفت كل منهما باسم الدوق Dux وانخضع سلطات الدوق العسكرية الى سلطة الحاكم المدنى فى المقاطعات خاصة ازاء مطالب الامداد والتزويد والدعم المالى ، بل اخضع القادة العسكريين فى بعض الدوقيات الى سلطات عسكرية عليا عرفت باسم الكونت (Comes)

وهكذا بفصل السلطة العسكرية عن المدنية فى الولايات وجعل كل منها يعتمد على الآخر فى نفس الوقت ، قضى ديوقلديانوس بتاتا على خطر المؤامرات والانقلابات ضد السلطة المركزية . كما ان التفتيت الادارى الجديد جعل الحكام قادرين على السيطرة على مقاطعاتهم والاشراف عليها بدقة مباشرة لم يسبق لها مثيل .

ولكن بعض المؤرخين وان كانوا يعترفون بنجاح هذا التقسيم فى دعم ورسوخ سلطة الامبراطورية فى الولايات الا انهم يرون ان هذا التقسيم المعقد ادخل البلاد فى دوامة الطبقات البيروقراطية وزاد من اعداد الموظفين الكبار ذوى الرواتب الكبيرة (١) مما ارهق الدولة . فمثلا كان هناك قائدا الحرس البرائيتورى praefecti praetoriani اللذان كانا يتراسان الجهاز المدنى ، ثم يليهما الاثنى عشرة نائبا Vicarii الذين كانوا يلون فى الدرجة قائدا الحرس البرائيتورى وينوبون عنهم فى حكم الدوقيات الاثنى عشر ، ثم يلى ذلك حكام المقاطعات التى تجاوزت المائة ، فضلا عن الجهاز العسكرى باداراته المنفصلة كل هذا فرض على الدولة نفقات باهظة وخلق جهازا بيروقراطيا عديم الجدوى (١) ، ولما شعر الامبراطور بخطر البيروقراطية وقياسها كحاجز بين الامبراطور والشعب واخفاء شكاوى الناس عنه اعاد جهاز المخابرات السريين القديم الى العمل والذي كان يتخفى تحت اسم وكلاء القمح Frumentarii فغير اسمه الى وكلاء الانباء agentes-in-rebus لنقل كل ما يهم الحكومة من اخبار الولايات .

(١) كما ظهرت الامايب التركيبية المتعددة التى كانت : الوضع الوظيفى ابتداء من الامايب الاولى والاعضاء الشخصى المبلغين ومن الملاحظ ان صيغة المبالغة استخدمت دائما دلتا عن الصيغة العادية .

٣ - الاصلاحات العسكرية :

وفي مجال الاصلاح العسكرى سار ديوقلديانوس على نهج جاللينوس وأوريليانوس ، فضاعف عدد القوات العسكرية حتى وصل الى ٥٠٠.٠٠٠ جندي ومعنى ذلك ان النفقات العسكرية ضوعفت بالنسبة الى الدولة والدولة حملت الناس هذه الزيادة . كما قوى ديوقلديانوس من نظام حرس الحدود (limitanei) الذين كانوا يستوطنون الاراضى الواقعة على حدود الامبراطورية ويزرعونها ، ويدافعون فى نفس الوقت عنها ، أما القوة الرئيسية للجيش فقد كانت الفرقة المتحركة الخفيفة ، والتي كانت تعسكر فى المدن الاستراتيجية المتقدمة ، ومنها نقل بسرعة الى مناطق العمليات ولم يعد للفرقة القديمة الثقيلة legiones ذات الستة آلاف رجل اى قيمة . بل أصبحت القوات المتحركة Vexillationes التى كانت نحوى ما بين ألف وألف وخمسمائة جندي خفيف السليح هى القوة الاساسية . ويمكن ان يقال ان الظروف ومتطلبات الدفاع هى التى خلقت هذه الوحدة الدفاعية الجديدة . كما زادت اهمية قوات الفرسان الثقيلة التسليح كئبرا عن ذى قبل . ولاول مرة نسمع عن فرقة جديدة هى قوات رفاق الامبراطور Comitatuses او بمعنى آخر قوات الحرس الخاص . وكان افرادها ينتقون من الرجال الشداء ويعاملون معاملة راقية سواء من ناحية التسليح او الرواتب او الغذاء . فضلا عن انهم كانوا يخدمون عشرين عاما فقط بدلا من الخمس والعشرين فى الفرق الاخرى . ان خلق هذه القوات الجديدة كان بداية اعلان انتهاء دور الحرس البرائتورى من التاريخ الرومانى الذى لم يعد يحمى الامبراطور كما كان قديما ، بل تركت قواته كحامية لحراسة روما وتقطعت علاقة هذه القوات بالامبراطورية تماما .

بالرغم من كل هذا فقد ظهرت لاول مرة مشكلة النقص فى التجنيد كجزء لا يتجزأ من مشكلة النقص فى القوى البشرية العاملة فى مجالات الانتاج ، ولكى يتغلب ديوقلديانوس على هذه المشكلة لجأ الى اساليب مختلفة مثل الاستدعاء للتجنيد عند سن معينة ، وفرض التجنيد الاجبارى بالمراث بمعنى ان ابن الجندي يجند ، والاعتماد على المرتزقة وعلى نظام التطوع الاختيارى .

لقد فرض ديوقلديانوس التجنيد الاجبارى على الذكور الذين لا يشغلون مناصب رسمية وابناء الفقراء العاطلين والخارجين على القانون ، كما ألزم ابناء المستوطنين الجرمان على الحدود بدخول الخدمة العسكرية عند سن التجنيد ، وكذلك ابناء الجنود المسرحين وابناء الجنود الذين لا يزالون

تحت السلاح . كما ألزم أصحاب الاقطاعيات بامداده بنسبة معينة من المتطوعين الذين يعملون كمزارعين او اجراء عندهم واذا عجزوا عن ذلك سددوا مبالغ معينة تعادل رواتب العدد المقرر عليهم من المرتزقة .

أما بالنسبة لنظام التطوع فلم يكن يقبل عليه احد الا الهاربون من المشاكل الاجتماعية او الاقتصادية او الباحثون عن الامتيازات العسكرية مثل الاعفاء من الضرائب ومن السخرة ومن الالتزام الوظيفي : وهم قليلون . كذلك كان اسرى الحرب يتطوعون في الجيش الروماني هربا من حكم الاعدام او البيع في سوق الرقيق . وبدخول البرابرة في الجيش الروماني الامبراطوري . طويت صفحة من تاريخ العسكرية الرومانية التي اذهلت العالم القديم بمهارتها وجسارتها وانكبابها الدائم على التمرين وحبها الشديد للانضباط والنظام . واصبح كفاءة الجيش منذ ذلك الوقت ليس في اللياقة والتمرين والنظام بل في اقامة الحصون والقلاع الدفاعية وسرعة الامداد والتموين . وقد تمتع الجنود المسرحون بمزايا الاعفاء من الضرائب وتسلم قطع من الارض لزراعتها بعد التسريح كما تمتع الضابط بمكانة اجتماعية عالية وكثيرا ما اقاموا انفسهم حماة للاقطاعيين ضد جامعي الضرائب . اما الجند الساخطة فكانت تنضم الى عصابات قطاع الطرق .

٤ - الاصلاح المالى والضرائب :

من المعروف ان ديوقلديانوس شرع في تنفيذ خطة كبرى للانشاء والتعمير وحذى حذوه شركاؤه ، ومن هذه المشروعات الكبرى مشروع بناء الحمامات داخل مدينة روما والمعروفة باسم حمامات ديوقلديانوس الكبرى ، ومن اهم مشروعاته ايضا بناء قصر كبير في مدينة سبالاتو Spalato المطلة على بحر الادرياتيک في اقليم دلماتيا ليستقر فيه بعد اعتزاله الحكم ؛ وكذلك بناء الطريق الصحراوي الكبير بين دمشق ونهر الفرات لتسهيل نقل الجيوش وتشجيع التجارة بين روما والشرق الاوسط ، ومن الطبيعي ان تحتاج هذه المشروعات الى زيادة في الاعتمادات المالية في ظروف كانت فيها الامبراطورية مرهقة بسبب النفقات الدفاعية ومضاعفة عدد قوات الجيش ، فضلا عن نفقات الادارة التي تضاعف حجمها ، ونفقات القصور الاربعة التي كان يشغلها اعضاء السلطة الرباعية .

وكان الحل الوحيد لزيادة مصادر الانفاق هو اعادة النظر في نظام الضرائب الغير مباشر ، والاتاوات العشوائية التي اوهت الناس وسببت فوضى في المصارف الرسمية بان اقرن ذلك ، بعد قرر ديوقلديانوس اعادة تنظيم الضرائب على اساس علمي ووضع جدول حسابي ثابت لا يتغير

وعادل في نفس الوقت . فجعل الضرائب عينية (generatim) أى تجبى في شكل محصولات زراعية أو حيوانية أو مصنعات زراعية مثل زيت الزيتون أو النبيذ ، وبالتالي أصبحت ضريبة القمح (annona) التى كانت تجبى من وقت لآخر حسب الحاجة أصبحت في عصر ديوقلديانوس ضريبة أساسية ودائمة . وكان هدف ديوقلديانوس هو ضبط الدخل العام في شكل عادل وثابت في كافة أنحاء الامبراطورية ، وإن تقدر هذه الضرائب في ميزانية سنوية وعلى ضوء قرار امبراطورى (indictio) يحدد كمية الضرائب التى يجب أن تجبى من كل ولاية أو دوقية كل عام .

كان هذا القرار الامبراطورى يعتبر بمثابة الاحصاء الدورى الذى يجرى كل خمس سنوات خاصة في الفترة ما بين ٢٩٧ - ٣١٢ ميلادية ثم أصبح بعد ذلك يجرى كل خمس سنوات ، وعلى طريقة المصريين القدماء أصبحت هذه الدورة الاحصائية iugatio تستخدم كمال لتأريخ الاحداث .

لقد : ، تقرير النظام السرايى عام ٢٨٧ ميلادية تم ظهرت ملامحه عام ٢٩٧ م ووصل الى قمة اكتماله في عام ٣١٢ ميلادية ، وبالرغم من دراسات العلماء والمتخصصين الا ان هذا التطوير لا يزال محتيما وغير مفهوم في بعض جوانبه ، لأنه يبدو ان ديوملديانوس تردد اول الامر في فرض نظام ضرائبى واحد على ولايات الامبراطورية ذات الظروف السياسية والاقتصادية والاقتصادية البائسة . ثم وضع التنازلات الضرائبى على أساس وحدة انتاج للاراضى iugatio أو حسب وحدة انتاج بشرى Capitatio

وكلمة Capitatio الى هي وحدة الانتاج البشرى للفرد ، مشتقة كما هو واضح من الكلمة اللاتينية Caput ومعناها « الرأس » أى أنها اقرب الى ضريبة الرأس لكنها لم تكن ضريبة ، بل وحدة تقدير الضريبة لأنها وحدة قياس الانتاج الفردى سواء بالنسبة للمزارع الصغير أو الاجير الزراعى Colonus أو للمؤجر ارضه عن طريق مشاركة المحصول مع مزارعيه ، وقد تبينت هذه الوحدة الانتاجية حسب ظروف البيئة والمناخ والخصوبة والمحاصيل المناسبة فكانت المرأة مثلا تعتبر نصف وحدة (demi caput) والماشية اقل من ذلك بقليل .

وقد ذكرت المخطوطات السوربانية في العصر الرومانى ان وحدة التقدير الضرائبى في سوريا مثلا لم تكن الرأس Caput بل انتاج مساحة معينة من الارض بالقمح وتعرف باسم iugatio وكانت مساحة هذه الوحدة تختلف حسب نوعية الارض فهي تعادل انتاج عشرين

فدانا (١) من الأرض الجيدة أو أنتاج أربعين فدانا رومانيا من الأرض المتوسطة الجودة ، أو ستين فدانا من الأراضي الرديئة الانتاج ، وكانت هذه الوحدة الانتاجية الزراعية تعادل أيضا محصول انتاج خمس أفدنة مزروعة بالكروم أو انتاج مساحة من الأرض السوداء مزروع عليها ٢٢٥ شجرة زيتون أو أرض رملية مزروع عليها ١٥٠ شجرة زيتون . وباختصار كان « اليوجوم » iugum هو المساحة من الأرض المنتجة والمعادلة في انتاجها للراس Caput .

ومن الملاحظ أن وحدتى الحساب الضرائب متداخلتان ، وعن طريق ذلك استطاع المسؤولون عن الضرائب اجراء الحساب الدقيق لتحديد القيمة الضريبية المطلوبة على الانسان أو ما يملك من عقار أو ماشية وحسب ظروف مقاطعته أو دوقيته (٢) . ويقرر الامبراطور بالتشاور مع قائدى الحرس البرائتورى كل عام القيمة التى يجب أن تفرض على كل راس أو عقار .

هكذا جعل ديوقلديانوس معظم الضرائب عينية ، لكن سمح أبان القرن الرابع والخامس بتحويل هذه الكمية العينية الى مبالغ من المال ، ويرى الاقتصاديون أن دفع الضرائب عينا كان في صالح الناس لان التجارة في ذلك الوقت كانت في تدهور والمعرض أكثر من المطلوب لدرجة أن الفلاح كان يجد صعوبة في تسويق ما لديه من محاصيل زراعية من أجل الحصول على المال المطلوب منه كضرائب .

وكانت الهيئة المسئولة عن جمع الضرائب تختار من هيئة أعضاء المجالس والبلدية curiales في الولايات المختلفة (٣) والذين كانوا عادة أعضاء بارزين في مجالس الشورى في بلادهم . وكثيرا ما عرضوا باسم

(١) وحدة الفدان (iugum) هنا رومانية والفدان الرومانى أكثر قليلا من نصف الفدان المصرى . ولكن في شمال أفريقيا كان وحدة الانتاج هي millena أو ما يعادل مائتين فدان روماني أما في جنوب إيطاليا فكانت الوحدة هي centuria التى لا نعرف عنها شيئا ، وفي مصر وصفه الوالى عام ٢١٧ بأنه حصة من كل أودا مع وضع الاعتبار لنوعية الأرض وحصة كل فرد من الفلاحين

cf. A Boak and W. Sinnigen, op. cit., p. 462.

(٢) طبق هذا النظام بحدافيره في ولايات آسيا الصغرى وبنطوس وذلك لقربهما من نيقوميديا حيث كان يقسم ديوقلديانوس ، وطبق الى حد كبير في ولايات تراكيا والليريا وبلاد العال وطبق جزئيا في مصر وفي شمال أفريقيا ووسط جرب إيطاليا .

(٣) مشتق كلمة Curialis من الكلمة curia أى المجلس ويعنى مجلس الشورى أو المجالس المحلية التى كانت تقوم بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وشعوبها .

هيئة العشرة decem Viri . ولم تكن هذه الهيئة سوى ضحية من ضحايا
الأجحاف الروماني لأنها كانت تدفع من أموالها الخاصة أى عجز فى المبالغ
المقررة على المناطق المسئولين عنها نتيجة لسوء الأحوال الانتاجية
أو لهروب المزارعين من الريف عند عجزهم عن دفع الضرائب .

ولاول مرة طبق ديوقلديانوس على ايطاليا ما كان يطبق على الولايات
اذ قسمها الى عدد من المقاطعات وفرض على كل منها نوعية معينة من
الضرائب شأنها فى ذلك شأن أى مقاطعة فى الامبراطورية . وهكذا اختفى
الخط الوهمى الذى كان الامبراطور اغسطس يحرص على وجوده ليفصل
بين ايطاليا وبين تابعها من بقية الولايات .

تقييم النظام الضرائبى الجديد :

لقد كان لهذا النظام الضرائبى مزاياه وعيوبه ، فمن ناحية أصبح
للامبراطورية ميزانين ثابتين "رررت" بنسبها بحسب حساب نفقاتها
مستقبلا . تصحح ميزن مدنوعاتها مما اعاد الى الافئدة بعض الاستقرار
والى النقد شيئا من "تقيمة" ، كما ساعد هذا النظام دافعى الضرائب
انفسهم . و بعد هناك ظلم او استجاف لولاية دون اخرى ، كما انه عرف
الناس مقدما بما يدفعون من حيازة او مال . كما ان نظام الضريبة
العينية شجع على زيادة الانتاج الزراعى وتسويقه (١) وبالتالى ساعد
الزراع على التوسع فى الانتاج ، وفى فترة الركود التسويقى عندما عجز
الفلاحون عن بيع الفائض من انتاجهم حسموا من زراعة مساحات كبيرة
من الأرض الا بما يكفى حاجاتهم وما يقايضون به جيرانهم مقابل منتجات
استهلاكية اخرى .

ومن ناحية ثانية ، كان هذا النظام بداية لتصفية الطبقة المتوسطة
فى المقاطعات والولايات المختلفة وتحويلها الى طبقة دنيا او الى اجراء
زراعيين تحولوا الى العمل فى اقطاعيات الاغنياء وهو بداية عصر الاقطاع
الذى عرفته العصور الوسطى . ولهذا يعتبر بعض المؤرخين عصر
ديوقلديانوس كنقطة التحول من العصر القديم الى العصر الوسيط بالنسبة
لتاريخ اوروبا .

لم يعلم دقلديانوس - عندما قلد سبتيميوس سيفيروس وحمل اعضاء
المجالس المحلية فى اجزاء الامبراطورية مهمة جمع الضرائب - ان عمله
هذا سوف يدمر الطبقة البرجوازية ويحولها الى اجراء عند الاقطاعيين

(١) كما كان يسمح بتحويل الضريبة العينية الى ضريبة نقدية (adaeratio)

وكانت الدولة تصدر تباعا قائمة بالقيم الشرائية لنقودها لتيسر ذلك على موظفى الضرائب.

القلائل ويدمر بذلك بهجة الحياة في مدن الامبراطورية الغربية ، والتي كان مصدرها تلك الطبقة التي لعبت دورا حيويا في المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية في عصر الامبراطورية المبكر ، لانهم كانوا ينفقون من اموالهم الخاصة على تجميل مدنهم بآيات الفن والمعمار ، وانشاء مرافق الخدمات العامة ، والانفاق على وسائل التثقيف والتسلية ، واطعام المعوزين ، بل كانوا يزودون قوات الامبراطورية العابرة بالمؤن واماكن الراحة (hospitium) بل وكانوا يتولون تبديل خيول عاملى البريد الامبراطورى عند وصولهم الى مدنهم ، فضلا عن القيام بدور وكلاء الحكومة المركزية للامبراطورية كل هذا كانوا يقومون به طواعية ومن اموالهم الخاصة ، ولم يعباوا بذلك ما داموا ميسورى الحال ، وقد صدق الامبراطور مايوريانوس *Maorianus*

(٤٥٧ - ٤٦١ م) عندما وصفهم بأنهم عصب الامبراطورية بالرغم من ان عددهم في ذلك الوقت كاد أن يكون قد انقرض بفعل نظام ديوقليتيانوس الذى جلب عليهم الافلاس والدمار الاقتصادى ، لانه فرض عليهم دفع الجز في النسب المقررة على مقاطعاتهم من اموال الخاصة ، ولما كان هؤلاء المسؤولون عاجزين عن جباية الضرائب من ذوى النفوذ من اصحاب الاقطاعات ، فقد شددوا قبضتهم على ذوى الملكيات الصغيرة والطبقات الدنيا واستخدموا معها ابشع الطرق فى سلبها وتحصيل الضرائب والمتأخرات منها (١) . ولما ضاقت هذه الدليقة ذرعا تهربت من مسئولية الالتزام الوظيفى بالعدل اما كجنود او كاجراء فى الاقطاعات الكبرى او الهروب الى سلك الكهنة والرهبان ، ولهذا حاول الاباطرة تقييد هروب هذه الطبقة من مسئولية جمع الضرائب بالزامهم بمناصبهم فى مقاطعاتهم ، وجعل هذا المنصب وراثيا ولاميا .

وكما جلب نظام ديوقليتيانوس الخراب على الطبقة البرجوازية فقد جلب البؤس والفقر على اصحاب الملكيات الصغيرة من الناحيين وادمنراء (coloni) لانهم هربوا من الارض عندما أصبحت الزراعة لا تعود عليهم بفائدة بعد تسديد الضرائب المطلوبة ، ووجدوا أنه من الايسر لهم أن يرهنوا ارضهم ، وأن يديروا كعمال زراعيين فى الاقطاعات الكبرى ، أو يلجأوا الى عصابات قلماع الطرق . ولهذا اضطرت حكومة الامبراطورية فى عصر قسطنطين الاكبر الى اصدار قرار فى عام ٣٢٢ ميلادية يفرض على الاجراء الاستمرار فى الزراعة وبذلك أصبحت طبقة عبيد الارض طبقة دائمة . واصبح الاقلامى لا يملك الارض فحسب بل الارض والعبيد العاملين فيها واذا باع الارض انتقلت ملكية العبيد الزراعيين coloni الى المالك الجديد .

(١) يقول احد كتاب القرن الرابع *tot curiales, tot tyranni* كل أعضاء

المجالس البلدية طفاة .

ومن الجدير بالذكر ان الامبراطورية البيزنطية ورثت هذا الاقطاع الذى استمر قائما فى بعض الولايات الاوربية الغربية حتى مطلع القرن العشرين .

د - اصلاح نظام النقد :

سبق ان ذكرنا ان الحروب ونفقات الدفاع دفعت اباطرة القرن الثالث الميلادى الى سك عملات كثيرة تزيد كثيرا عن الرصيد الموازى لها من المعادن الثمينة وذلك من اجل دفع رواتب الجنود الخاصة المرتزقة وللانفاق على الحملات الحربية والاستحكامات الدفاعية وكانت النتيجة هو تدهور قيمة العملة الرومانية ، لأن مناجم الفضة لم تعد تنتج وبالتالي تضاءلت نسبتها فى العملة بشكل ملحوظ لدرجة انه لم يعد يفصل بين العملة البرونزية والفضية شىء يذكر كما يظهر من النقود السكندرية التى عثرنا عليها فى الفيوم من ذلك العصر . ونتيجة لذلك رفضت الناس قبول التعامل بهذه العملات ولجأوا الى تفضيل نظام المقايضة ، مما عاد بالاقتصاد الرومانى الى البدائية .

وانقاذا لنظام النقد المنهار لجأ ديوقلديانوس الى حركة الاصلاح النقدي فى نهاية القرن الثالث ، فأصدر قرارا باغلاق دور سك النقود المحلية فى ولايات الامبراطورية المختلفة (١) وركز عملية اصدار وسك العملة الموحدة لكل ولايات الامبراطورية فى دور سك النقود المركزية . وسك عملتين رسميتين واحدة من الذهب والاخرى من الفضة الخالصة الى جانب ثلاثة فئات من الوحدات والكسور الصفرى التى سكت من خليط الفضة بالبرونز او من البرونز الخالص . وفى عام ٢٨٦ بدأ اصلاح النقد بأن الفى الجنيه الذهبى الرومانى القديم والذى كان يعرف باسم aureus وأحل محله جنيه ذهبى جديد وجعل وزنه ١/٦٠ من رطل الذهب الرومانى (والذى كان وزن ٣٢٧ جرام تقريبا من الذهب الخالص) ثم سك الجنيه الفضى argenteus وجعل وزنه ١/٩٦ من رطل الفضة الرومانى وبذلك أصبح مساويا للدينار الرومانى فى مصر فى عصر نيرون تقريبا . اما الكسور الصفرى فأكبرها هو (Follis) وأصغرها هو الدينار ذوالقشرة الفضية وكانت « الفولليس » تساوى عشرين من هذه الدنانير القشرية .

(١) ومنذ ذلك التاريخ تنهى نقود الاسكندرية التى بدأت مع بداية الحكم الرومانى لمصر أنظر :

Louis. C. West & Alan Chester Johnes : Currency in Roman and Byzantine Egypt Princeton, 1944, p. 2.

وفي عام ٣٢٤ خفض قسطنطين من وزن جنيه ديوقلديانوس aureus وغير اسمه الى السوليدوس Solidus ونجحت هذه الفكرة لان السوليدوس اصبح عملة مقبولة في كل انحاء الامبراطورية . حتى في العصر البيزنطي وخلال العصور الوسطى حيث عرف باسم البيزانت (byzant) ، ويقول علماء النقود ان السوليدوس وصل الى فارس شرقا ، كما عثر على قطع النقد الجديد في مناطق مختلفة بالولايات الغربية مثل المانيا وأيرلندا واسكوتلندا واسكاندناويا وفي الشرق عثر عليه في مصر والشرق الأوسط بل وفي الهند وسيلان شرقا ، وهذا دليل على نجاح حركة الاصلاح النقدي التي قام بها ديوقلديانوس والتي اعاد بها الاستقرار الى نظام النقد ، بينما يرى بعض علماء الاقتصاد ان هذا الاصلاح ادى الى تدهور في قيمة العملة الثرائية ويرجعون ذلك الى ان الناس عندما علموا مقد الفاء النقود القديمة لجأوا الى التكالب على التخلص مما لديهم من عملة قديمة واستبدلوها بسلع ومواد مختلفة وقد ادت حمى التكالب على شراء الى ارتفاع باهظ في الأسعار ، وارتفاع في مستوى المعيشة بشكل مخيف .

لائحة الحد الأقصى للأسعار :

انزعج الامبراطور لهذا الارتفاع المجنون في الأسعار وانعكاس ذلك على مستوى المعيشة لجنوده وموظفيه الذين لم تزد رواتبهم ، ومن ثم اصدر في عام ٣٠١ م لائحة تتضمن الحد الأقصى لأسعار السلع الاستهلاكية Edictum de maximis pretiis وهي تعتبر اعظم وثيقة اقتصادية يفخر بها علماء التاريخ الاقتصادي بعد تجميع اجزائها من النقوش في الولايات الشرقية . شملت اللائحة أسعار السلع المختلفة مثل القمح والشعير والدجاج واللحوم والخضروات المتنوعة (حتى البصل والفجل) والفواكه المختلفة والسماك والنبيد بكل انواعه ومواطن انتاجه ، كما شملت هذه اللائحة كل انواع المنسوجات ابتداء من الثياب الصوفية الفليضة الىحرير الصين الفاخر ، بل وشملت ادوات الكتابة مثل الحبر والورق وجلد الكتابة parchment ، حتى اجور الحرف المهنية حددت اجورها (حتى قص الشعر حدد أجره) وجعل ديوقلديانوس عقوبة المخالفة لهذه التسعيرة سواء كان البائع أم المشتري - هي الموت . وان كان من المحتمل ان يكون هذا الاجراء قد نجح مؤقتا ولكنه يقض مطلقا على صانعي الازمات التموينية وتجار السوق السوداء الجشعين لأن الدولة لم تكن هي المنتجة للسلع وبالتالي لم نستطع التحكم في أسعارها ومصادر انتاجها ولهذا يعتقد علماء التاريخ الاقتصادي ان التجار اجبروا الحكومة

على أن تعلق هذه اللائحة خاصة بعد اندحار العملة القديمة وانتشار العملة الجديدة . لكن بالرغم من هذا ظلت هذه اللائحة هي مقياس تحديد الأسعار بالنسبة للحكومة خاصة عند تحويل الضريبة العينية الى ضريبة نقدية (adaeratio) وبالتالي عند تحديد الضرائب العينية .

أن دراسة هذه الوثيقة الهامة تضع بين أيدينا صورة « تقديرية » لاثمان السلع والمهن والخدمات ، والتي عن طريقها تستطيع تبين مدى التغير الذى طرأ على الاقتصاد الرومانى منذ أواخر عصر الجمهورية وأوائل عصر الامبراطورية . مثلاً نلاحظ أن القمح زاد ثمنه كثيراً بينما هبطت أسعار اللحوم وارتفعت أسعار المنسوجات والمصنوعات المعدنية والأجور ويشرح علماء الاقتصاد أسباب هبوط أسعار اللحوم الى زيادة مساحات المراعى على حساب الأراضى المزروعة كما يفسرون ارتفاع الأجور الى اختفاء العبيد كمنافس للعامل الرومانى ويعلمون ارتفاع اثمان المصنعات المعدنية الى تدهور الإنتاج فى المناجم .

الاضطهاد الظالم للمسيحيين :

شعر الرومان أن المسيحيين يقفون موقف المتطويين على انفسهم والرافضين فى التعاون من أجل حماية الامبراطورية من الأخطار المحدقة بها ، كما هاجمهم بشدة المتطرفون الوثنيون الذين أحاطوا فكرة التقديس والحق أن يبنى فى الحكيم التى بنى عليها ديوقلايانوس حكمه - أحاطوها بالحماس والإيمان لانهم كانوا يدركون أهمية توحيد العقيدة الوثنية فى شخص الامبراطور كعامل من عوامل الوحدة الوطنية فى رحاب التراث الدينى القديم الذى بنى عليه الاسلاف الامبراطورية . وبالتالى نظر هؤلاء الى المسيحيين نظرة الدخارجين على الاجماع الوطنى والمنشقين عن التراث القومى القديم فى سبيل عقيدة جديدة وافدة من الشرق .

لكن ما الذى جعل ديوقلايانوس ينهى فجأة اربعين عاما من التسامح الدينى الذى ساد منذ قرار الامبراطور جالينوس عام ٢٦٠ م الخاص بالتسامح مع أصحاب الديانات المختلفة وينهى حكمه المسالم الانسانى ويقوم بأكبر عمليات التحصينة الجسدية التى عرفها التاريخ لدرجة ان الكنيسة المرقسية القبطية فى الاسكندرية قررت فيما بعد جعل تاريخ تولى ديوقلايانوس بداية للتقويم القبطى .

يرى بعض المحللين ان هذا التصرف الذى قام به ديوقلايانوس لا يتنافى ومنطقة وطبيعته الميالة الى الحفاظ على التمايل والنيران وان

هذا النمط من البشر يصبح أكثر تعصبا كلما تقدمت به السن ، ونحن نعرف كيف أن ديوقلديانوس أعلن أنه جوبتر في صورة البشر Jovius وأنه فعل ذلك لأنه لا يمكن أحياء الامبراطورية عسكريا بدون أحياء العقائد الوثنية التي قامت عليها . ولهذا لا بد وأنه قرر تصفية المسيحيين بناء على ذلك خاصة وأن المسيحية تسلت داخل الجيش الامبراطورى وداخل أجهزة الدولة الادارية بل وتسلت داخل القصر الامبراطورى نفسه ، كما أن التنظيم الدقيق الذى قامت عليه الكنيسة جعل من الشعب المسيحى دولة داخل الدولة . وقد نظر الرومان الوثنيون الى خلايا المسيحية على انها عناصر هدامة مخربة تريد هدم التراث الدينى والمجد الرومانى العريق لتقيم على حطامه ديانة غريبة ولهذا يعتقد بعض المؤرخين أن ديوقلديانوس أجل عملية تصفية المسيحية الى بعد الانتهاء من باقى اصلاحاته وبعد الانتصار على الفرس وهى جزء مكمل لمخطط العام بأحياء المجد الرومانى المترنج .

ومن ناحية اخرى يدافع بعض المؤرخين عن ديوقلديانوس ويبرؤونه من تهمة الاضطهاد العالقة به ، ويقولون انه كان رجلا متحررا من أى تطرف دبنى أو فكرى بل انه فتح الأبواب على مصاريعها لكل جديد ، وأنه من النمط الهادىء المفكر ، صاحب الرؤيا الواضحة ، وأنه كان مشغولا بشئ واحد فقط وهو عودة السلام وحماية الامبراطورية من أعدائها فى الخارج ؛ وأنه كان يعرف مدى فشل فكرة الاستئصال وكيف ان المسيحيين نهضوا اشد قوة وبأسا بعد تصفيات دقيوس وجاليريانوس فكيف يقوم الامبراطور الذكى بمحاولة اخرى فاشلة ؟ ولماذا يحول الهدوء والسلام الذى حققته الى نوضى ورعب وقتل ضد طائفة من شعبه وبشكل وحجم مرعب لدرجة انه اعتبر اطول واقسى عملية تصفية ضد المسيحيين على طول تاريخ الامبراطورية الرومانية ؟

لقد وجه لاکتانتىوس Lactantius المفكر المسيحى - الذى كان يقيم فى قصر ديوقلديانوس فى نيقوميديا ليشرف على تربية الأمير قسطنطين (Constantinos) ابن قسطنطينوس نائب الامبراطور فى الغرب - وجه اصبع الاتهام الى جاليريانوس Galerianus نائب ديوقلديانوس فى الشرق والى هيروقليس Hierocles حاكم ولاية بيشينيا وصاحب الرسالة المشهورة والقائمة على منطق الافلاطونية الجديدة والتي بعث بها الى ديوقلديانوس طالبا منه الشروع فى الحال فى تصفية المسيحيين . وكان القيصر جاليريانوس قد كسب سمعة وشعبية كبيرة بين الرومان منذ انتصاره على الفرس وكان بالفعل من الد أعداء المسيحية .

بدأت عملية الاضطهاد عام ٢٩٩م أثناء تقديم الاضاحى وفحص العرافين لامعاء الحيوانات المنحورة لقراءة المستقبل ، حيث أعلن العرافون فجأة أن وجود عناصر غير مؤمنة ابطال القداسة المطلوبة للقيام بهذا العمل ، عندئذ غضب ديوقلديانوس واصدر أمرا بأن يقوم كل من فى قصره بتقديم القرابين للالهة الامبراطورية القديمة ابتداء من زوجته حتى اصفر حراسه ومن يخالف امره يجلد .

وقد استغل جاليريوس هذا الحادث وراح يضغط على الامبراطور المسن بضرورة تصفية المسيحية من الامبراطورية ، ومن ثم سمح له بأن يعلق الأوامر الامبراطورية فى كل مكان تلزم جنود وضباط الجيش الامبراطورى بتقديم الاضاحى والقرابين لالهة الامبراطورية القديمة وجعل الطرد من الخدمة هو عقوبة من يرفض ذلك ، ثم تلى ذلك باصدار قرار امبراطورى (Edict) بتدمير الكنائس المسيحية وحرق الاناجيل او جمعها من الناس ، وتحريم القيام بأى صلوات او شعائر مسيحية والفى قرارا سابقا كان يسمح للمسيحيين بالدفاع عن انفسهم فى المحاكم والالتجاء الى القضاء الرومانى . لكن حتى هذه اللحظة لم يسمح دقلديانوس . . . بأى سفك للدماء بل حرص على ان تتم اوامره سلميا .

ولكن فجأة وفى ليلة من لىالى شتاء عام ٣٠٣ ميلادية وقبل ان يصدر القرار الامبراطورى هاجمت قوات الحرس الامبراطورى الكنيسة الصغيرة التى كانت تقف فى مواجهة القصر الامبراطورى فى نيقوميديا وهى لاتزال قائمة حتى الآن فى سبالاتو فى يوغوسلافيا وخربوها . ثم اذيع القرار فى اليوم التالى وحدث أن ثار احد المسيحيين على هذا القرار ومزق إحدى الملصقات الخاصة به فقبض عليه الحرس وأشعلوا فيه النيران حتى الموت .

وزاد الأمر سوءا اشتعال النيران مرتين على مدى اسبوعين فى قصر الامبراطور ديوقلديانوس فى نيقوميديا بفعل حريق غامض ، وبالطبع وجهت اصابع الاتهام الى عدد كبير من المسيحيين ، لأن الحرائق نشبت فى أعقاب القرار الاول الخاص بهدم الكنائس وسحب الاناجيل وتحريم الشعائر المسيحية خاصة ان المسيحيين ارتبطوا بفكر اشعال الحرائق منذ بداية المسيحية وبالتحديد منذ حريق روما الكبير عام ٦٤ فى عهد نيرون ، وذلك لأن بعض المتطرفين منهم باتوا يتحدثون عن النيران التى سوف تأكل العالم بمن فيه من آثار تقوم بعدها القيامة . وعلى أى حال فقد تم القبض على عدد كبير من المسيحيين وسجنهم وتعذيبهم وموت عدد

بهم . ثم اندلعت ثورات صغيرة قيل أن المسيحيين هم الذين قاموا بها في ولايات سوريا وكابا دوكيا ولم يستغرق القضاء عليها سوى وقت قليل ، ولكن رد فعل ديوقلديانوس عليها جاء عنيفا ، إذ أصدر قرار الاضطهاد الثاني بالقبض على القسس والكهنة وايداعهم السجون ، ولما امتلأت السجون بهم ولم يعد هناك مكان لهم أصدر قراره الثالث والآخر في مطلع عام ٣٠٤ وكان ذلك أثناء مرضه وهو يقضى بالعفو عن المسجونين المسيحيين إذا ما قبلوا تقديم الاضاحى الى الالهة الرومانية ، أما الذين يرفضون فينفذ فيهم حكم الاعدام . ويدعى المسيحيون أن حقد جاليريانوس هو الذى كان وراء هذا القرار الأخير لأن الامبراطور كان مريضا لا يقدر على الحكم آنذاك .

ومن الجدير بالذكر أن القرارات الثلاثة التى صدرت ضد المسيحيين طبقت في أقاليم الامبراطورية بدرجات متفاوتة ، فمثلا طبقها جاليريانوس بدقة وقسوة في الشرق أما في الغرب فان قسطنطينوس لم ينفذ سوى القرار الأول وتباطىء في القرارين الثانى والثالث لأنه لاحظ أن فريقا من الوثنيين خاصة في مصر والشرق بداوا يتعاطفون مع المسيحيين ويخفونهم حتى لا يقعوا في أيدي جنود الامبراطور .

مرض ديوقلديانوس واعتزاله :

أخيرا قرر ديوقلديانوس أن يحتفل بمرور عشرين عام على توليه العرش في روما ، وبعد أن تم له ذلك حدث أن اشتدت عليه وطأة المرض لدرجة أن أقعدته حبسا في قصره في نيقوميديا ، ولم يعد قادرا على الظهور في المناسبات العامة . ويقول يوسيبوس Eusebius أن جاليريوس انتهز الفرصة ليصدر قرارا رابعا يفرض على كل المسيحيين تقديم القرابين للالهة الوثنية والا أعدموا أو قضا حياتهم في عمل شاق في مناجم الدولة . وعندما تنازل ديوقلديانوس عن الحكم كانت عملية تصفية المسيحية قائمة على أشدها .

وفي الفاتح من شهر مايو عام ٣٠٥ ميلادية وفي حضور قوائمه مجتمعة في نيقوميديا أعلن ديوقلديانوس رسميا اعتزاله الحكم وخاطب جنوده والدموع تسيل على وجنتيه قائلا لهم أنه لم يعد قادرا على الحكم لمرضه وتقدم السن به . وفي اليوم ذاته أعلن ماكسيميانوس في ميلان اعتزاله الحكم أيضا وفاءا لعهد قطعه على نفسه أمام ديوقلديانوس أن يفادر الحكم معه في وقت واحد . حتى يعطيا الفرصة للنظام الذى إقاماه ليثبت نفسه بدونهما .

وعين ديوقلديانوس قسطنطيوس ذا الوجه الشاحب Chlorus ليشغل منصب ماكسيميانوس في الغرب ، كما عين جاليريوس ليشغل منصبه في الشرق . واعطيت الزعامة في الغرب لقسطنطيوس الاشحب اذ منح حق الاشراف على ولايات بلاد الغال ، وبريطانيا واسبانيا وموريتانيا ، بينما تولى جاليريوس على منطقة البلقان ومعظم اجزاء آسيا الصغرى . كما اختار جاليريوس ابن شقيقه ويدعى ماكسيمينوس Maximinus Daia نائبا له بدرجة قيصر لحكم الشرق وان يوكل اليه ولايات آسيا الصغرى وسوريا ومصر . واضطر قسطنطيوس ان يتخطى ابنه ويختار رجلا آخر هو فلافيوس فاليريوس سيفيروس Flavius Valerius Severus ليشغل منصب نائبه في الغرب وان يوكل اليه حكم ايطاليا وأفريقيا وبانونيا . وبذلك اهتم ماكسينتيوس Maxentius ابن ماكسيميانوس كما اهتم قسطنطين ابن قسطنطيوس .

ويبدو ان ماكسيميانوس غلب لاهمال ابنه كما كان غير راض عن تنازله عن العرش مبكرا فسافر الى لوكانيا لانتهاز اول فرصة للعودة الى العرش ، اما ديوقلديانوس فقد اعتزل الحياة وعاش في قصره في سيلاتو يزرع حدائقه الخاصة وينعم بالهدوء والراحة الى ان وافته منيته في عام ٣١٢ ميلادية .

تقييم لحياة وأعمال ديوقلديانوس :

مات ديوقلديانوس في قصره المطال على بحر الادرياتيک في سيلاتو عام ٣١٦ بعد ان طال به العمر ليشاهد نظامه ينهار والصراع حول العرش يعود من جديد . ويبدو انه احس بأنه فشل في النهاية ، ولكن اصلاحاته قدر لها ان تشكل الحكم والسلطة للقرن التالي كله بعد ان اصقلها وطبقها قسطنطين الكبير .

كان مبدا ديوقلديانوس ان السلطة لا تصلح بالانفراد بل يجب ان تكون بالمشاركة واحترم خلفاؤه هذا المبدأ . كذلك بقى من معالم نظامه النزعة السلطوية للحكم والابهة الشرقية للقصر . وفي القرن التالي لم يجد الاباطرة بدا من اعادة تطبيق سياسة ديوقلديانوس العسكرية والادارية والمالية والنقدية بعد ان طوروها .

لم يدر ديوقلديانوس عندما جعل للامبراطورية اربعة قواعد للحكم هي : نيقوميديا وسرميوم في الشرق وميلان وتريفيز في الغرب ، انه بدأ الاتجاه نحو تقسيم الامبراطورية اداريا وبذلك سلب روما مركزها القسادي

القديم وأصبحت عظمتها ماضيا بعيدا عن الواقع . ولم تعد سوى مدينة كبيرة بين مدن الامبراطورية الكبرى في الشرق والغرب .

ويمكن أن نقول أن نقطة الضعف الوحيدة في اصلاحات ديوقليانوس هي نظام الضرائب الذى ترك انطباعات كبيرة على مجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرون التالية ، مثلا أدى الزام المسؤولين عن جمع الضرائب من أعضاء المجالس المحلية (Curiales) بدفع النقص الناجم عن تاخر الفلاحين أو عجزهم أو هروبهم ، من أموالهم الخاصة وأن توضع ممتلكاتهم كرهينة عند الدولة مقابل ذلك اذ أدى ذلك الى تهرب الطبقة الميسورة الحال في مختلف اجزاء الامبراطورية من تولى مثل هذه المناصب الشرفية واضطر قسطنطين الى اصدار قرار يجعل تولى هذه المناصب اجبارية ووراثية . وكان ذلك يعنى عملية افقار للطبقة الوسطى أدى الى القضاء عليها .

ايضا وجد مستأجرو الأرض أن انتاجهم لا يكفى القدر المطلوب منهم لتسديد الضرائب فلجأوا الى تغيير محال اقامتهم من قرية الى أخرى أو ترك مهنة الزراعة الى مهنة أخرى . ولكن الدولة لم ترهق بذلك وذلك لانها كانت تبني سياستها على تقدير ضرائبها كل عام وتطالب بكل ملزم قرضه حتى لا تحدث فوضى لمشروعاتها التى تحددها بناء على التقدير الضرائبى؛ ولبذا قررت الدولة ربط مصر النلاح بالأرض والانتاج وجعل هذه الحرفة وراثية وربط الفلاحين بقراهم . ولم يسمح بالتغيير أو التبديل ، كما طبق ذلك على أصحاب الضياع وبذلك ظهرت طبقة أقنان الأرض Serfdom وسادتها الذين أصبحوا يملكون ويتوارثون الاقطاعيات ومن عليها .

ولم يكن أصحاب الملكيات الصغيرة أو أصحاب المهن والتجار وكبار الموظفين والجنود أسعد حالا من الفلاحين لان الدولة قيدتهم بأوضاعهم التى جعلتها وراثية واجبارية وتحولت نقابات أصحاب المهن الى هيئات (Corporati) وأصبح أعضاؤها يعرفون باسم أعضاء الهيئة Corporati وذلك لى تضمن الامبراطورية مطالبها وتسيير شؤونها .

وهكذا تحولت فلسفة العمل من التعاقد الحر (Free Contract) الذى ساد أبان عصر الجمهورية وأوائل عصر الامبراطورية الى فلسفة الوضع الثابت (petrification) . هذه الفلسفة هى المسؤلة عن تحجر (petrification)

(١) أى أن عصر المجالس الشسية Curia أصبح مقددا بالمجلس Colonus كما أصبح التحجر C. petrification يمتد إلى الجندى بالعيش والقتال Curialis بالعمل فى الأرض ، وتحويل ذلك الى وراثة وأصبح الأصل Origo المهنى وظيفته .

الامبراطورية وانهيارها ، لان وكلاء الدولة Curiales وأعضاء الهيئات الحرفية Corporati لجأوا الى الهروب من مهتهم بدخول الجيوش أو الانضمام الى هيئات المكاتب البيروقراطية (officiales) أو التحول الى أقنان للأرض Coloni يعملون عند أصحاب الاقطاعيات .

عودة الصراع حول العرش ٣٠٦ - ٣٢٤ م :

عصفت الاحداث بعد اعتزال ديوقلديانوس بنظام السلطة الرباعية فهزته من جذوره ، وعاد الصراع والحروب الأهلية بين المتصارعين على العرش وكأن ذلك صراع قدرى لابد أن يحدث طبقا لفلسفة البقاء للأصلح .

بدأت بشائر الصراع عندما مات قسطنطيوس خلوروس فجأة عام ٣٠٦ ، وهتفت قواته بابنه قسطنطينوس وريثا له دون أن تستشير جاليريانوس الامبراطور الشريك ، ولم يجا. هذا الأخير ١١٠ من أن يقبل الأمر الواقع fait accompli ويعين قسطنطينوس بدرجة قيصر مثله مثل ماكسيمينوس دايا بينما رقى سيفيروس الى درجة الامبراطور Augustus الشريك . ان هنا كان الأمر مقبولا . ولكن ماكسنتيوس ابن ماكسيميانوس الامبراطور المعتزل أعلن أن له هو الآخر حق في تولى العرش مثل قسطنطينوس تماما .

وأعلن انه سوف يقاتل من أجل ذلك الحق ، ثم دعى أباه من تقاعده ليساعده في تحقيق هذا المطلب ، ونجح ماكسيميانوس وأبنه مكسينتيوس في إثارة ايطاليا وكسب تأييدها بوعده اياها باعادة المركز المتميز بها على باقى ولايات الامبراطورية ، كما كسبا الى جانبهما ولاية افريقيا ، وغرقت الامبراطورية في حروب وانقلابات ومؤمرات ومؤتمرات ومعااهدات وتحالفات عديدة ، ورفع القياصرة (النواب) السلاح في وجه الاباطرة . لقد حدث ذلك وديوقلديانوس لا يزال حيا . وفي خلال الفترة ما بين ٣٠٧ - ٣١١ م تصارع على العرش خمسة رجال هي : جاليريوس وماكسنتيوس وماكسيمينوس دايا ، وليكينيوس Licinius (الذى حل محل سيفيروس) وقسطنطين .

ففى عام ٣١١ مات جاليريوس من مرض خبيث وسقط ماكسنتيوس صريعا (١) أبان القتال ضد قسطنطين عند جسر ميلفيا على نهر التيبر

(١) وصف « دى ديكر » ماكسنتيوس بأنه كان مسيحيا فى الأصل ثم ارتد للوثنية .
De Decker : «La politique religieuse de Maxence», Byzantion, XXX AIII, 1968.

وأن السبب هو السياسة ذات الهدف وهو احياء عبادة الربة روما ارضاءا لشعبها

عام ٣١٢ ، وسقط ماكسيمينوس دايا بعد هزيمة قواته على يد ليكينيوس ولم يتبقى في ساحة الصراع سوى اثنان هما قسطنطينوس وليكينيوس . وقد تزوج الأخير من شقيقة الأول دعما لاواصر المصاهرة . وكان ذلك في عام ٣٢٤ م .

وهكذا انحصر الصراع على عرش الامبراطورية بين سائين المائدين . وراح كل منهما يتربص بالآخر . وكان قسطنطين ذكيا طموحا لأنه حرص على لياقة قواته بالمران والقتال في حملات مشتركة مع ليكينيوس ضد الجرمان ولكي يكسب التأييد المعنوي للمسيحيين أعلن أنه شاهد علامة الصليب تظهر في سماء روما عام ٣١٢ أثناء معركة جسر ميلفيا وحولها عبارة « بهذا الرمز سوف تنتصر » : in hoc Signo Vincas .

وفي عام ٣٢٣ حدث ما كان متوقعا عندما اتهم ليكينيوس شريكه قسطنطينوس بانتهاك لمراضيه اثناء معاركه ضد القوط وتبادلا الاتهامات ثم حدثت الحرب بينهما وطارد قسطنطينوس غريمه حتى قبض عليه وقتله وأصبح مصير الامبراطورية في قبضة رجل واحد هو قسطنطينوس الأكبر او كما يعرفه الاوربيون قسطنطين الكبير .

الفصل العاشر

حكم قسطنطينوس (قسطنطين) وخلفاؤه

نشأته :

كان قسطنطين ابنا غير شرعى للامبراطور قسطنطيوس خلودوس Contantius Chlorus (١) من عشيقته هيلينا (والمعروفة باسم هيلانة في المصادر العربية) التى قد التتى بها فى بيثينيا Bithynia واقام معها لمدة سنوات ثم حبره عام ٢٨٩ ليتزوج من ثيودورا Theodos ابنه زوجة الامبراطور ماكسيانوس Maximianus . وتربى الطفل قسطنطين فى القصر الملكى فى نيقوميديا حيث الم بأحداث الامبراطورية واسرار القصر الامبراطورى نشأ منفيهما لاسرار السياسة .

وعندما تنازل ديوقلديانوس وماكسيديانوس عن العرش تولى مكانهما جاليريوس وقسطنطيوس وأعطيت المكانة الاولى لهذا الأخير لكن جاليريوس كان صاحب النفوذ الحقيقى منذ هزيمته للفرس عام ٢٩٨ . كما كانت له اليد الطولى فى اختيار النائبين (القيصرين) وهما فلافيوس سيفيروس فى الغرب وماكسيمينوس دايا فى الشرق . ولهذا كان الاثنان تحت نفوذه وعن طريقهما كان جاليريوس يسيطر على معظم اجزاء الامبراطورية . كما استغل جاليريوس وجود ابن قسطنطيوس الصغير فى قصره ليلوح به كرهينة فى وجه ابيه وليجعل منه مساعدا له فى تحقيق مخططه .

ظهور نجم قسطنطينوس فى سماء الاحداث ٣٠٦ م :

فى عام ٣٠٦ م غزت القبائل الاسكتلندية جنوب بريطانيا عندئذ طلب قسطنطيوس من جاليريوس ان يبعث له بولده ليساعده فى هذه الحرب . وحاول جاليريوس المماطلة خوفا مما قد يفعله الامير الشاب ولكنه رنخ

(١) R. MacMullen, Constantine, London, Weidenfield and Nicholson, 1970 ; also Herman Doerries, Constantine, The Great (trans. by R.H. Bainton) London, Harper and Row 1972.

في النهاية ووافق على سفر قسطنطينوس الى ابيه ، وعندما احس الامير الذي ان جاليريوس قد يغير من رايه تسلل هاربا ليلا في طريقه الى ابيه الذي التقى به عند بولونيا ومنها ابحرا الى بريطانيا معا .

وبعد عدة معارك قاذها الاب والابن ، مات قسطنطيوس الاب في يورك في نفس البلد الذي قضى فيه الامبراطور سبتيميوس سيفيروس نحبه وتجمعت القوات حول الامير اللامع وهتفت به امبراطورا « اغسطا » مكان ابيه .

وفي الحال بعث قسطنطين برسالة الى جاليريوس يطلب منه الموافقة والاعتراف به امبراطورا شريكا مكان ابيه . . ورشح جاليريوس تفديا لنشوب الحرب الاهلية ولكنه بعث موافقا على تعيين قسطنطينوس نائبا للامبراطور بدرجة قيصر (Caesar) ورد الامير بالموافقة بدوره تفديا للصراع وحرصا على بقاء السلطة الرباعية . وازاء ذلك صدر جاليريوس قرارا بترقية سيثيروس اغسطس وتعيينه امبراطورا شريكا له لانه كان من انصاره

ماكسينتيوس يتحدى السلطة الرباعية :

وما ان علم ماكسينتيوس ابن الامبراطور المعتزل ماكسيميانوس بتولي قسطنطينوس حتى أعلن احقيته في وراثة منصب ابيه اسوة بقسطنطينوس . بل أعلن انه ابن شرعي للامبراطور وليس ابنا غير شرعي مثل القيصر قسطنطينوس . ولكن جاليريوس اعترض على طلبه بشدة ، لأنه لم ير فيه الشخص المناسب الكفاء والقادر . ومن ثم استدعى ماكسينتيوس اياه لمساعدته وتسال الى ايطاليا حيث استغل سخط روما من تصرفات سيثيروس الذي كان قد ألغى الحرس البرائتوري بعد محاولة انقلاب فاسلة ضده كما ان فرض انضرائب ، بجسول الجديد جرح كبرياء الرومان . ومن ثم تمكن ماكسينتيوس من تدبير انقلاب هادي تولى به الحكم في ايطاليا تحت وعده بعودة المكازة المتميزة للرومان على سائر شعوب ولايات الامبراطورية (١) ، وانضمت اليه ولاية افريقيا التي كان سكانها يشكلون عنصرا رومانيا خالص المولد والثانة . ووجه ماكسيميانوس نداء لثيوفديانوس بالعودة الى الحكم من اجل حماية نظامه ولكن ديفدتيانوس رفض التدخل واثّر الاعتكاف في قصره ومراسية انجاسات من بعيد .

وبمرور ايام بدأ التشقاق يلب بين ماكسيميانوس ، ولده ماكسينتيوس

B. Staknecht : Untersuchungen zur roemischen Aussenpolitik in der (1) Späetantike (306-395. A.D.), Bonn, R. Habelt, 1962, p. 102.

لان الاب والابن كانا يتنافسان على لقب اغسطس . ومن اجل ذلك سافر الاب الى تريفيز حيث يقيم قسطنطين وقدم له ابنته الصغرى فاوستا Fausta كخطيبة له - وعرض عليه مساعدته للدخول في معارك ضد كل من ماكسنتيوس والامبراطور جاليريوس وان يعلن نفسه اغسطس . ولكن قسطنطين الذكى اعتذر عن هذه الصفقة المشبوهة مفضلا الانتظار والتريث . فعاد ماكسيميانوس الى روما محاولا اثارة القوات ضد ابنه ولكن القوات رفضت ذلك فانسحب الى تريفيز ليقوم في بلاط قسطنطين . تاركا ابنه سيدا على ايطاليا وحده .

مؤتمر كارنونتوم Carnuntum .

ولما ادرك جاليريانوس ان كل ما فعله ديوقلديانوس على وشك من الانهيار وجه دعوة الى جميع الاعراف والقبائل الى السلطنة بالحضور الى مدينة كارنونتوم الواقعة على نهر الدانوب (في منطقة النمسا حاليا) كما وجه الدعوة الى كل من ديوقلديانوس وماكسيميانوس وتخلف عن الحضور كلا من قسطنطين وماكسيمينوس دايا . واسفر الجدل في هذا المؤتمر عن وجهات نظر مختلفة . فمثلا رفض ماكسيميانوس العودة الى الاعتزال وحل ليكينيوس Licinius محل سيفيروس الذى سقط قتيلا في المعارك ضد ماكسنتيوس . واعلن المجتمعون ان ماكسنتيوس عدوا للدولة يجب محاربته ، ووافقوا على تعيين كل من قسطنطينوس وماكسيمينوس دايانوابا للباطرة . بينما وافقوا على تعيين كلا من جاليريانوس وصديقه ليكينيوس اباطرة شركاء . اى ان المستفيد من هذا المؤتمر كان جاليريانوس وصديقه ليكينيوس الامبراطور الجديد الذى احتج على تعيين كل من قسطنطينوس وماكسيمينوس دايانوابا له ولشريكه في الحكم .

مؤامرة ماكسيميانوس ضد قسطنطينوس :

وبعد انتهاء مؤتمر كارنونتوم سافر ماكسيميانوس الى بلاط قسطنطينوس الذى استقبله بفتور شديد . وعندما غادر قسطنطينوس مقره في تريفيز ليقوم بحملة رادعة ضد الفرنجة في عام ٣١٠ انتهز ماكسيميانوس الفرصة واعلن نفسه امبراطورا في مدينة ارليس Arles ولما سمع قسطنطينوس بما حدث عاد وهو غاضب لمثل هذه الخيانة من رجل فتح له قصره . وضرب الحصار حول قواته وراح يطارده حتى استسلم في مارسيليا . ولما وجد ماكسيميانوس ان الطريق امامه مسدود ، شنق نفسه في حجرته وبذلك خرج من الصراع واحد من اكبر اقطابه .

بداية الصراع بين ماكسنتيوس وقسطنطينوس :

وردا على مؤامرة ماكسيميانوس أعلن قسطنطينوس إلغاء عبادة هرقل الذى كان رمزا لعرش ماكسيميانوس وأحل محله رب الشمس الذى لا يقهر (Sol Invictus) والذى كانت عبادته منتشرة في بلاد الغال حيث كانوا يعتبرونه صورة لابولون .

وقد صاحب ذلك إعلان قسطنطينوس بأنه يحكم بحق نسبه الى كلاوديوس القوطى الذى أدخل عبادة هذا الرب السامى وبذلك وجد قسطنطينوس سندا يقيم عليه ادعاءه بأحقية فى تولي عرش الامبراطورية كلها كما كان الحال ايام كلاوديوس القوطى . ثم أعلن معارسته على ما يفعله ماكسينتيوس بل واعتبره طاغيا يجب خلعه .

ورد ماكسينتيوس متبما قسطنطينوس بأنه هو الذى قتل اباه ماكسيميانوس ويجب أن يدفع ثمن هذه الجريمة .

في عام ٣١٠ بدأ الصراع باستيلاء قسطنطينوس على اسبانيا التى كانت المصدر الوحيد لاطعام الايطاليين بعد انفصال افريقيا عن ايطاليا عام ٣٠٨ ، وقد أحدث ذلك مجاعة كبرى فى روما صاحبها قلاقل وأعمال العنف سقط فيها ستة آلاف رجل . ولم يجد ماكسينتيوس طريقا آخر سوى مهاجمة افريقيا والاستيلاء عليها واعادتها الى ممتلكاته . وقد حسن عودة افريقيا الوضع الاقتصادى فى ايطاليا واختفت أزمة القمح . كما أن ضمها أعطى ماكسنتيوس قاعدة متقدمة ووضعها عسكريا أفضل ومن ثم راح يخطط للافاة وهزيمة قسطنطينوس .

جاليريانوس يصدر قرار التسامح الدينى :

ظل الاضطهاد الوثنى للمسيحية قائما حتى بعد اعتزال ديوقليديانوس واستمر يمارس بعنف فى الدوقيات التابعة لجاليريوس وهى الليريكوم وتراقيا وآسيا الصغرى ، كما طبقها بقسوة مشابهة ماكسيمينوس دايا فى الدوقيات التابعة له وهى مصر وسوريا . وكان ماكسيمينوس يصدر احكامه ضد المسيحيين ابتداء من التشويه والتمثيل بهم الى الاعمال الشاقة فى المناجم والمحاجر . ووصلت به الشراسة حدًا انه كان يقتل النساء والاطفال والشيوخ الذين يرفضون تقديم الاضاحى للالهة الوثنية ويتخلون عن العقيدة الجديدة . بل حاول انشاء كنيسة وثنية على نفس التنظيم الكهنوتى الذى قامت عليه المسيحية وعن طريق احياء المعابد القديمة وبناء معابد كبرى جديدة للالهة الوثنية .

والواقع أن ماكسيمينوس كان ينفذ تعاليم عدو المسيحية، الإمبراطور جاليريانوس .

وفي عام ٣١١ سقط جاليريانوس فريسة لمرض خبيث ، وصفه بعض الكتاب المسيحيين بأنه انتقام من الله للظلم الذي أوقعه بالمسيحيين .

وفي أثناء مرضه أدرك جاليريانوس عدم جدوى عمليات الاضطهاد بل أنها انت بالنتيجة العكسية ، إذ ازدادت الكنيسة قوة وسرت في المسيحيين « شهوة الاستشهاد » والاصرار لمى العقيدة . فقرر وقف المذابح البشرية ضدهم لعدم جدواها ولأنها خلقت عوامل خراب في اجزاء الامبراطورية وأدت الى تعطيل مصادر الإيراد من زراعة وصناعة وتدهورت الحالة الاجتماعية وانتشرت المجاعة (١) . فأصدر في عام ٣١١ قرار التسامح الديني Edict of toleration والذي بمقتضاه سمح للمسيحيين بممارسة شعائهم وفتح كنائسهم في كل أرجاء الامبراطورية بشرط أن يذكر الامبراطور والامبراطورية في الصلوات بالخير وبالدماء بالنجاح . وشرح الامبراطور قراره بأنه وجد من الخير لشعب الامبراطورية أن يمارس عقيدة باخداً بدلاً من الفراغ الروحي في النفوس ولم تمض أيام على اصدار هذا القرار حتى مات جاليريانوس .

وبموت جاليريانوس انحصر الصراع في أربعة متنازعين على العرش ويتربص كل منهم بالآخر . وبدأت القلاقل عندما سارع ماكسيمينوس دايا بالاستيلاء على الولايات الآسيوية التابعة لجاليريانوس الراحل وبذلك أصبح يهدد ليكنيوس وولاياته في البلقان . ومن ناحية أخرى أسرع قسطنطينوس بالتحالف مع ليكنيوس ضد ماكسينتيوس ودعم هذا التحالف بتقديم اخته كونستانتيا Constantia زوجة للحليف الجديد ، ورد ماكسيمينوس دايا على ذلك بالتحالف مع ماكسينتيوس .

قسطنطينوس يغزو إيطاليا (٣١٢ م) :

بدأ قسطنطينوس حملته الكبرى في ربيع عام ٣١١ عندما انطلق من قاعدته في بلاد الغال بجيش جرار بلغ تعداده أربعون ألف رجل ، في طريقه لغزو إيطاليا وتحريرها من قبضة ماكسينتيوس ، وعبر الألب وقرب تورين التقى بقوة من الفرسان التي أرسلها ماكسينتيوس لصدده وحماية شمال

(١) د. مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي . مطبعة دار العالم العربي - القاهرة ص ٣٢ - ٣٣ .

أيديها فسحقها واستولى على مدن إيطاليا الشمالية مثل تورين وميلان واكويلايا Aquileia ومودينا Modena ثم تقدم جنوبا الى روما . وكان ماكسنتيوس يتوقع هذا الغزو فحصد المدينة من قمة رأسها الى اخمص قدمها مستغلا الحوائط الضخمة التي كان أوريليانوس قد بناها وما كان للغزى أن يقدر على دخول المدينة غير أن ماكسنتيوس غير من خطته - ربما خوفا من اندلاع الثورة ضده - وخرج من تحصيناته ليقابل قوات قسطنطينوس وعبر نهر التيبر على جسر من القوارب بعد أن كان قد دمر جسر ميلقيا (١) القديم الذى كان قائما على نهر التيبر ضمن خطة التحصينات الدفاعية ثم تقدم عبر طريق فلامينيوس مسافة عشرة أميال من شمال روما حتى وصل الى منطقة الصخور الحمراء Saxa Rubra وهناك وجد قسطنطين فى انتظاره بقواته الكبيرة .

ويروى لنا لاكتانتىوس كيف أن قسطنطينوس أتاه هائف فى ليلة المعركة يطلب منه أن يأمر جنوده بأن يكتبوا على دروعهم الحرفين الخاء والراء وهما الحرفان الأولان من اسم خريستوس Christos وهو اسم السيد المسيح بالآغريقية ، بينما يروى يوسيبوس أن قسطنطينوس روى له أنه شاهد قبل المعركة علامة الصليب ترسم عبر الشمس ومن تحتها برقت عبارة !! en touto nika وتعنى بالآغريقية بهذا سوف تنهر (By this sign thou shalt conquer !)

وذهب الى المعركة باسم الصليب واندفعت قوات فرسانه وفى أثرها المشاة لتحاصر قوات ماكسنتيوس أمام التيبر الذى كان وقتئذ ممتلئا بمياه امطار قشتت شملهم ، وفى اليوم التالى دخل قسطنطينوس روما منتصرا ليستعرض قواته وسار فى مقدمتها ضابط كبير يحمل رأس ماكسنتيوس معلقة على طرف عربة طويلة وهتفت الجماهير بحياة قسطنطين المحرر . واجتمع السناتو على الفور ليزال قسطنطين ويصب اللعنات على ماكسنتيوس وليسحب شرعيته كل ما قام به من أعمال وليعلن مبايعته لقسطنطين كإمبراطور أعلى على كافة ولايات الامبراطورية .

كان المنتصر الحقيقى هو المسيحية التى صورت قسطنطين منتصرا بفضل الصليب الذى ظهر يحمله وادعى المسيحيون أن قسطنطين انتصر بفضل قوة عقليته (mentis magnitudine) التى هى نتاج قوى ربانية

(١) ومكانه الآن جسر موللى Ponte Molle .

(٢) ونقلت باللاتينية الى ! in hoc Signo Vincas ! او ! in hoc Vincas!

ومعناها بهذه الشارة سوف تنتصر أو بهذا ستتتصر .

(٢٨ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

(*Instinctus divinitatis*) ، أما قسطنطينوس نفسه فقد أعلن أن انتصاره تم بفضل تدخل المسيح الى جانبه . على الرغم من أنه استمر في احترام العقائد الوثنية ، اذ انه كان الكاهن الاعظم لها ، بل وبنى قوس نصره لرب الشمس الذى لا يقهر وظهرت صورة الالهة الوثنية القديمة على النقود التى سكها . اذا كان حكم قسطنطينوس نقطة الالتقاء بين الوثنية الداهية والمسيحية الصاعدة . ومن الواضح أن هدفه كان تجديد كافة المذاهب والعقائد الدينية لتقف من خلفه وتدعم من مركزه (١) .

لقد كان فتح روما اشباعا عاطفيا وانتصارا نفسانيا لقسطنطينوس على اعدائه ولكنه لم يفكر فى جعل هذه المدينة مقرا لامبراطوريته . وضاعت عبثا احلام الرومان فى أن تستعيد المدينة مجدها ووضعها القديم الذى وعد به ماكسينتيوس ، وعلى عكس ما توقع الرومان الفى قسطنطينوس الحرس البرايتورى وهدم ثكناته وبذلك انتهى تاريخ هذا الحرس الذى كان يعين الإباطرة ويتخلص منهم ، كما كان ذلك نهاية تحكم الاليريين فى هذا الحرس .

ثم أصدر قسطنطينوس بصفته الاوغسطس الاعلى اوامره الى ماكسيمينوس دايا بوقف اضطهاد المسيحيين فى الشرق الاوسط واذعن هذا الاخير لذلك المطلب . ثم تلى ذلك اصداره امرا فى ٣١٣ الى حاكم ولاية أفريقيا باصلاح الكنائس التى هدمت وتسهيل تقديم الاموال التى يحتاجها اسقف قرطاجة كايكليانوس *Caecilianus* من أجل توزيعها على كهنة الكنيسة الارثوذكسية فى شمال أفريقيا (نوميديا وموريتانيا) ، واعفاء الكهنة من الضرائب وكافة الاعمال والمناصب الالزامية . بعد ذلك غادر قسطنطينوس روما فى طريقه الى ميلان للاجتماع بحليفة ليكينيوس .

مؤتمر ميلان ٣١٣ ميلادية :

عقد المؤتمر بين الحليفين فى ميلان حيث اسفر عن اتفاق تام بينهما واصدرا قرار ميلان الشهير الخاص بحرية العبادة والاعتراف بالكنيسة وسلطانها فى كل اقليم من اقاليم الامبراطورية . بما فى ذلك اعادة حقوقها وممتلكاتها واعفاء الكهنة من الالزامات الاجبارية وتطبيق ذلك على كافة

J.W. Eadie : The Conversion of Constantine (European Problem (1) Studies), New York, Holt, Rinhart and Winston, 1971, p. 35 ff.

الكنايس سواء في الغرب ام في الشرق الاوسط حيث عانت الكنيسة فيه طويلا من وطاة اضطهاد ماكسيمينوس دايا .

نهاية ماكسيمينوس دايا ٣١٣ ميلادية :

بالرغم من أن الكتاب المسيحيين بالفوا في تحقيرهم لهذا الرجل ووصفوه بأنه « عبد الرذيلة » إلا أنه كان رجلا له وزن في السياسة والعسكرية . حاول أن يثبت نفسه أمام جاليريانوس بالمفالة في تطبيق قرارات الاضطهاد ضد المسيحيين . وعندما اصدر قسطنطينوس امره اليه بالكف عن ذلك قبل على مضض هذا القرار .

كان ماكسيمينوس يعاني من الفشل وعدم الثقة فيه من جانب اطراف القيادة فمن ناحية عامله ديوقلديانوس باحتقار ولذا لم توجه اليه الدعوة حتى لحضور مؤتمر كارنونتوم لان جاليريانوس رفض الاعتراف بترقيته الى منصب الاوغسطس (أى الامبراطور الشريك) ، كما كان عدوا لدودا لليكينوس لان ماكسيمينوس تسرع واستولى على الولايات الآسيوية بعد موت جاليريانوس ، كما أن موقفه أصبح ضعيفا بعد هزيمة حليفة ماكسينتيوس ومقتله ، لانه أصبح وحيدا أمام تحالف قسطنطينوس وليكينوس . رغم هذا لم يياس ، اذ انتهز فرصة انشغال قسطنطينوس في غزو الراين وقرر الانقضاض على ليكينوس . وفي شتاء عام ٣١٣ انقض بجيش تعداده سبعمائة ألفا على منطقة البسفور حيث حاصر بيزنطة التي استسلمت له بعد أحد عشر يوما فقط . ولم يسكت ليكينوس على هذا العدوان فسار اليه من قاعدته في ميلان وعند مدينة هادريانوبوليس تقابل الجيشان وهزم ليكينوس غريمه ماكسيمينوس الذي ولى هاربا متخفيا في زى عبد وراح ليكينوس يطارده عبر آسيا الصغرى حتى قبض عليه مريضا وأسرته حتى مات .

وبموت ماكسيمينوس دايا أصبح الشرق كله في يد ليكينوس . وصادر ليكينوس قرارا بتطبيق اعلان ميلان الذى يقضى بمنح الحرية للكنايس المسيحية ورد الاعتبار اليها واعادة ممتلكاتها المصادرة اليها واعفاء رجالها من الخدمات الالزامية .

تقسيم الامبراطورية بين قسطنطينوس وليكينوس ٣١٣ - ٣٢٤ م :

هكذا اسفر الصراع عن فوز من كانا قد تحالفا ابان الصراع . وأصبح من المحتم أن يدخل هذان الحليفان بدورهما في صراع لينفرد واحد منهما

بحكم الامبراطورية . هذه الظاهرة تعيد الى الازهان تحالف اوكتافىوس وانطونيوس ضد قتله يوليوس قيصر حتى اذا ما نجحوا في تصفيتهم دخلا في صراع فاصل .

فبالرغم من تحالفهما معا الا ان قسطنطينوس لم يثق ابدا يوما ما في حليفه ليكنيوس كما كان هذا الاخير يكره الاول ويحقد عليه ويخاف من مخططاته .

بدأت المناوشة عندما حاول قسطنطينوس تعيين شريك يحكم منطقة فاصلة بين ممتلكاته في الغرب وممتلكات ليكنيوس في الشرق واختار قسطنطينوس باسيانوس زوج اناستاسيا Anastasia اخته من ابيه ليشغل منصب حاكم ايطاليا وبانونيا وافريقيا . ومما شجع قسطنطينوس على ذلك وجود شقيق لباسيانوس يقيم في بلاط ليكنيوس ويحظى باحتراسه وهو سينيكيو Senecio ولكن ليكنيوس رفض تصرف قسطنطينوس وتحول الخلاف الى رفع السلاح وكان قسطنطينوس سريعا في هجومه عام ٣١٦ وهزيمته لقوات غريمه في بانونيا . ولكن الجيشين المتقاتلين تعادلا في تراكيا مما تجمعهما على عقد هدنة بينهما . بمقتضاها تنازل ليكنيوس عن حقوقه في ولايات الامبراطورية في أوروبا فيما عدا تراكيا . ووافق قسطنطين على الاعتراف بليكنيوس امبراطور شريكا ، ذا وضع مساو لوضعه تماما وان يسحب اعلانه بأنه الاغسطس الاعلى .

ولكن هذا السلام كان مؤقتا لان العلاقات سرعان ما بدأت في التدهور وكان المسؤل عن ذلك هو قسطنطينوس الذى كان يشعر بوجوب التخلص من ليكنيوس في الوقت المناسب حتى يجلس بمفرده على عرش الامبراطورية المتحدة . الذى كان يؤكد ذلك تمسكه بأنه سليل كلاوديوس القوطى موحد الامبراطورية . وان هذا هو قدره الذى لا يستطيع التخلي عنه .

في اثناء ذلك كان قسطنطين قد اعتنق المسيحية رسميا واصبح من اخلص مريديها وقد بدأ قلبه يهفو الى هذه الديانة الجديدة منذ انتصاره في موقعة جسر ميلفيا . وتعبيرا عن شكره للمسيح الذى آذره في هذه المعركة اعترف بحق الكنيسة في البقاء وكشريك مسؤل معه في حكم الامبراطورية . لكن من الملاحظ أنه لم يعلن رسميا أن ديانة الامبراطورية .

(١) من الملاحظ ان اختيار الامبراطورية ليوم الأحد (dies solis) الذى هو يوم رب الشمس يمكن أن يكون حلا وسطا لارضاء عباد رب الشمس من ناحية وارضاء المسيحيين من ناحية أخرى حيث أن الأمر يمكن تفسيره بكلتا الحالتين . وعن الآراء الوثنية للاعداء المسيحية خاصة ورأس السه انظر : .

هى المسيحية حتى لا يفضب الوثنيون الذين كانوا يمثلون السواد الاعظم من شعب الامبراطورية ومن جنودها وموظفيها وسائر اجهزتها البيروقراطية. لكنه استعاض عن ذلك بمنح المسيحيين المزيد من الامتيازات والحصانات والاعفاءات ، بل انه شجع زعماء كنيسة روما وكنيسة الشرق بتحديد معنى الايمان المسيحى وتشريعات الكنيسة التى يطلبون من الدولة اقرارها وفرضها كقانون اجبارى . وفى عام ٣١٨ اعترف بشرعية الاحكام التى تصدرها محاكم الاساقفة وعلى الدولة تنفيذها . وفى عام ٣٢١ اصدر قرارا باقرار الاوقاف التى يهبها الرومان للكنيسة وحق الكنيسة فى وراثة ممتلكات الشهداء بشرط الا يكونوا قد كتبوا وصاياهم بغير الكنيسة . وفى نفس العام اعلن ان يوم الاحد (١) هو يوم الرب ويجب ان يكون عطلة للمحاكم وللعاملين فى مصانع الدولة واجهزتها . كما ان اختار شعب الجديد Labarum وهو الصليب الذى يحمل اعلاه حرفى النخاء والراء وهما الحرفان الاولان لكلمة خريستوس Christus اى المسيح .

قسطنطينوس وموقفه من الصراعات الكنسية :

بزوال الاضطهاد بدأت الكنيسة تشهد صراع عقائديا كاد ان يهدد وجودها بل وحدث انقساما شاسعا بين مريديها قضى على فكرة الكنيسة المسكونية الواحدة لكل المسيحيين .

ولكننا نلاحظ ان قسطنطينوس آثر الابتعاد عن هذه الصراعات المذهبية والتفسيرية وحاول التوفيق بقدر الامكان بين العقائدين المتصارعين .

ظهر اول انشقاق بعد اعتناقه المسيحية بقليل وفى افريقيا وقادة احد رجال الكنيسة المتطرفون واسمه دوناتوس Donatius الذى اعلن انشقاقه عن كنيسة افريقيا احتجاجا على تعيين كايكيليانوس Caeclianus اسقفا على قرطاجة لانه هذا الاسقف اعلن عن نيته العفو عن كل الكهنة الذين خانوا العقيدة اثناء اضطهاد ديوقلديانوس وسلموا الاناجيل لسلطانه لكى

M. Mestin : La fête des Kalends de Janvier dans l'Empire romain études d'un rituel de nouvel an (Coll. Latomus vol. 115), Bruxelles, 1970.

كما يرى الفولدى أن مجيد الشكر الذى يقام فى الثالث من يناير هو بعينه عيد تقديم البحارة لقرايين الشكر لايزيس Navigium Isidis حيث تقدم القرايين على مستوى الدولة Vota publica فى يوم ه مارس الذى كان اول شهر فى السنة الرومانية وهو موعد بداية ابحار السفن الرومانية الى مصر لشحن القمح المصرى الذى كانت ايزيس ربه انظر : A. Alfoeldi : Di Alexandrinischen Goetter und die «Vota publica am Jahresbeginn, (Jahrbuch für Antike und Christentums, vol. VIII-IX), 1965-1966, p. 53-87.

تحرق . وتجمع حول دوناتوس بعض من مريديه الذين انتخبوه أسقفا بديلا للأسقف الذى عينه بابا الكنيسة فى روما نظرا للالام التى تحملها دوناتوس فى سبيل تمسكه بعقيدته إبان عهد ديوقلديانوس . واتسمت هوة الخلاف عندما رفض قسطنطينوس تطبيق امتيازات المسيحيين لتشمل اتباع دوناتوس . ولكن فى عام ٣١٣ تقدم انصار الاخير يطلبون بالحاح شديد من الامبراطور تعيين قاض محايد من بلاد الفال ليحكم بالعدل فى قضيتهم . وبالفعل اختار الامبراطور ثلاثة أساقفة غاليين كقضاة وليس قاضيا واحدا ، بل أنه طلب من بابا الكنيسة فى روما أن يترأس جلسات المحكمة . ولكن بابا روما ادخل الى المحكمة خمس عشر أسقفا ايطاليا من انصاره واستصدر حكما بادانة اتباع دوناتوس . ولكن الاخرين اتجهوا الى الامبراطور للتحكيم فى قضيتهم . وبالفعل دعى الامبراطور أساقفة ممثلين عن كل المناطق التى تقع تحت حكمه واجتمعوا فى مدينة أريلى وجاء قرارهم يؤيد الاحكام الصادرة ضد دوناتوس واتباعه . وكان من الطبيعى أن يعلن الدوناتيون (donatists) رفضهم لهذا القرار . وطالبوا الامبراطور نفسه بأن يقبل مهمة التحكيم فى الخلاف . وقبل الامبراطور هذه المهمة . ولكنه بعد أن استعرض القضية أصدر قراره بادانة دوناتوس وانصاره وكلف السلطات العسكرية بسحق هذه الحركة . وفى عام ٣٢١ أدرك قسطنطينوس عدم جدوى هذا الاضطهاد لانه يزيد المنشقين عناده على عنادهم فأصدر قرار بوقفه « تاركا الحكم لله » لينتقم بنفسه من دوناتوس واتباعه (١) . وبذلك فشل فى القضاء على الانشقاق الدينى وتوحيد الكنيسة . ولكنه خرج أقوى مركزا لانه بمحاولاته وضع تقليدا سياسيا وهو اخضاع الكنيسة للدولة ولسلطته شخصيا حيث أصبح له حق التحكيم فيما ينشأ من منازعات لاهوتية وأصبح يتمتع بحق دعوة مجالس الكنائس الى الانعقاد وحق طرد وابعاد الاساقفة وممتلكات الكنائس المنشقة واضفاء مكانه مقدسة على نفسه . اذ أصبح خادم الكنيسة المختار من عند الله والشبية بالرسل Isapostolos والقديسين .

ظهور المذهب الارىوسى (١) :

وبينما كان يحدث هذا فى الغرب ، واجه ليكنيوس هو الآخر ظهور الصراعات الكنسية رغم أنه التزم بقرار ميلان الخاص بالتسامح الدينى .

(١) انظر أحدث ما كتب عن هذا الموضوع :

M. Meslin, Les ariens d'occident (335-430). Paris Edition du Seuil, 1967.
p. 8 c.

وكان ليكيوريوس اقل ايمانا بالمسيحية من قسطنطينوس المتدين فلم يسمح بالانشقاقات كما لم يترث مع الاطراف المنشقة . فلما قامت مثلا حركة اريوس وهددت السلام في مصر عاد ليكيوريوس الى استئصال المسيحيين بلا رحمة او تمييز .

يرجع جذور انشقاق اريوس وهرطقته الى مخلفات عصر اضطهاد ديوقليانوس للمسيحيين . فقد أعلن ميليتوس Melitius اسقف اسوط Lycopolis اعتراضه على التسامح الذي قام به القديس بطرس اسقف الاسكندرية وخاتم شهداء الكنيسة نحو المسيحيين الذين كفروا ابان اضطهاد ديوقليانوس وعادوا الى التوبة . وانشق ميليتيوس مكونا جماعه له كان احد اعضائها ناسك ذكى اسمه اريوس .

كان اريوس صوفيا نقى الصريرة وناسكا طاهرا ، يحيا حياته في تعفف من كل مذلة او خطأ ، كما كان واعظا مؤثرا يجيد الاقناع الهادي كما أن مظهره الشاحب الهزيل ونفسيته المنكسرة اكسبته عطف مريدين كثيرين من حوله . لقد اطلق اريوس نارا سرت في العالم المسيحي كله وفجر بركانا هز الكنيسة ورجها رجا من قرطاجة الى البلقان عندما عبر عن آرائه في طبيعة المسيح وهدد وحدتها بل وكان بداية انفصال أبدى .

وقد عبر اريوس عن آرائه اثناء وعظه للناس بأنه ليس من المعقول ان يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الله homousios لانه من صنيعته وبالتالي فهو اقل منه مرتبة ، وبالرغم من تسليمه بان المسيح خلق قبل خلق الخليقة الا أنه لا بد ان يكون هناك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقا ، وكان فيه الله الخالق وحده . ولهذا أعلن ان المسيح له طبيعة مشابهة لطبيعة الله homoiousios . لكنه ليس الله في صورة البشر .

ذعر الانبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسه اثناسيوس من هول المفاجأة بالرغم من أن هذا الرأي لم يكن جديدا على المسيحية ، اذ قال به الآباء الثلاثة الأول للكنيسة في القرن الثالث وهم اوريجين والقديس ديونيسيوس السكندري وترتوليانوس في آخر حياته (١) . ورد الانبا الكسندروس بأن الابن من نفس طبيعة الأب (homoûsios) وأن الاب والابن والروح القدس مادة وقوة واحدة تمثل الصفات الثلاثة لقوة الله على الكون Filius atque pater et sanctus spiritus لهذا لا يمكن فصلها عن بعضها او تقديم أحدها زمنيا عن الآخر ثم أصدر الكسندروس قرارا بحرمان اريوس من الكنيسة وبطرده من دوقية مصر . وسافر

أريوس الى فلسطين ليعرض رأيه على يوسيبوس أسقف قيصرية وأحد أقطاب الكنيسة ومؤرخيها ، ثم سافر الى نيقوميديا ليعرض القضية على أسقفها الذي كان اسمه أيضا يوسيبوس فسخرها بمنطقة بل أنه سحر الامبراطورة كونستانتيا كما سحر عددا من رجال البلاط والكنيسة هناك وبعض كبار رجال الدولة الذين تحت تأثيرهم عملوا على إصدار مرسوما Synodes (١) في بيشنيا وآخر في فلسطين أدانا قرار أسقف الاسكندرية الكسندروس بطرد أريوس من الكنيسة ، كما نصا على أن آراء أريوس تتفق وروح الاناجيل وتعاليم المسيح ولذا يأمر الكسندروس بنقض قراره واعادة أريوس الى وضعه الكهنوتي . فما كان من الكسندروس الا انه أعلن رفضه لقرارات المجمع المقدس وامعانا في الرفض جمع مؤتمرا من مائة من الاساقفة المصريين والليبيين ليؤكد طرد أريوس واطاف الى قائمة الطرد اثنين من الاساقفة الليبيين تعاطفا مع أريوس . واشتغل الموقف بين مصر والشرق . وصدرت رسائل نارية وابحاث تناقلت بين الدوقيات المختلفة . دافع أريوس عن نفسه دفاعا مستميتا بل وألف أناشيد واهازيج شعبية تدعو الى نصرته والايمان بمبدئه .

أما ليكنيوس فقد نفذ صبره من الصراع الكنسى وهو الذى لا يخفى في نفسه سوى غيظا من المسيحية التى يقوم عليها سلطان غريمه قسطنطينوس خاصة وأن الاخير ادعى انه لولا الصليب الذى ظهر في السماء ولولا أن المسيح شد ازره لما انتصر في موقعة جسر ميليثيا ضد ماكسينتيوس . كما ان ليكنيوس كان ينظر الى المسيحيين على أنهم عملاء قسطنطينوس ومن ثم اعداءه ، وعلى أى حال انتهز هذه الفرصة فأصدر في عام ٣٢٠ قرارا بالغاء القرارات الكنسية وحرم اقامة الشعائر المسيحية من وراء الجدران بل أصر على أن تقام الشعائر في الهواء الطلق وخارج أسوار المدينة . كما حرم على النساء حضور الصلوات مع الرجال ثم قام بطرد رجال البلاط في قصره ممن اعتنقوا المسيحية وطبق نفس الشيء على الجيش واجهزة الدولة المدنية وهدمت بعض الكنائس . ولم يميز ليكنيوس في قمعة بين أى من المذهبين المتصارعين بل أمر بالقبض على زعماء الانشقاق وسجنهم وتعذيبهم .

نهاية ليكنيوس ٣٢٤ م :

— أغلب الظن أن سياسة ليكنيوس وتصرفاته العدوانية ازاء المسيحيين

(١) قرار من مجمع رؤساء الكنائس .

اغضبت قسطنطينوس فراح يتحين الفرصة للتخلص منه وجاءته الفرصة عندما هاجمت قبائل القوط منطقتى ميسيا وتراقيا عام ٣٢٣ م . ولم يجد قسطنطينوس بدا من رد هذا الهجوم واضطر الى المرور عبر الولايات التابعة لغريمه ليكيانيوس الذى استج على هذا التصرف . وتطور الموقف الى رفع السلاح . وكان قسطنطينوس كان ينتظر هذه الحرب لانه سرعان ما حشد لها مائة وعشرين الفا من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان الى جانب اسطول بحرى يتكون من مائتى سفينة ، أما ليكيانيوس فقد أعد فى مواجهة ذلك جيشا قواميه مائة وخمسين الفا من المشاة وخمس عشرة الفا من الفرسان ، وثلاثمائة وخمسين سفينة حربية .

بدأت المناوشات فى صيف عام ٣٢٤ عندما هزم قسطنطينوس قوات ليكيانيوس قرب هادريا نوبوليس كما الحق ابنه الامير كرسبوس Crispus الذى كان لا يزال فتى هزيمة ساحقة بأسطول ليكيانيوس قرب البسفور والدردينيل واصبح له السيطرة على البخار .

بعد ذلك عبر قسطنطينوس البسفور من الغرب فى اتجاه الشرق وعند خريسوبوليس Chrysopolis قضى على البقية الباقية من جيوش ليكيانيوس الذى استسلم وكاد قسطنطينوس ان يقتله لولا تدخل زوجته كونستانتيا شقيقة الامبراطور فعفى عنه ونفاه الى سالونيك . ولكن لم يكد يمض ستة اشهر حتى أصدر قرارا باعدامه بحجة انه مازال يتآمر ضده .

هكذا أصبح قسطنطينوس الامبراطور الاوحد على كافة ولايات الامبراطورية ، وتوحدت تحت امرته الامبراطورية الرومانية لأول مرة منذ اربعين عاما واصبح شعاره الجديد « حاكم واحد وعالم واحد وعقيدة واحدة » .

مجمع نيقية ٣٠٥ :

لقد نجح انتصار قسطنطينوس العسكرى فى توحيد الامبراطورية سياسيا ولكن هذا الانتصار لم يؤثر ايجابيا على حالة الصراع المذهبى والانشقاق العقائدى الذى أحدثه آريوس . وفى الحقيقة لم يكن قسطنطينوس مهتما بفحوى الصراع المذهبى ولم يكن يهتم بما اذا كان الثالوث جوهر واحد ام ثلاثة عناصر منفصلة ومنفاوثة فى الاهمية ، انما كان يهتم وحده الكنيسة وانسحابها مع الدولة فى زواج ابدى موفق . ومن ثم كتب رسالة الى آريوس واخرى الى الانبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية يطالبهما بترك الصراع والمهاترات واللجوء الى التناهم للوصول الى وفاق مذهبى ولكن للأسف لم تنجح محاولته فى وقف الصراع المذهبى .



راس قسطنطين الاكبر وقد عبر الفنان عن قسوته بنظرات
عينيه النافذة كما ان المبالغة في حجم الرأس يوحي
بخلوده في نظر أتباعه حيث أصبح قديسا

وفي نهاية عام ٣٢٤ دخل الصراع ضد الأريوسية مرحلة حاسمة ومهقدة عندما أصدر مجلس الكنيسة في أنطاكية قرارا بطرد أريوس ونصيره يوسيبوس أسقف قيصرية في فلسطين واثنيين آخرين من الاساقفة المؤيدين لأريوس . وقد تم هذا الهجوم بعد ان استولى الكهنة الاورثوذكسيون على مجلس الكنيسة واصبحوا غالبية فيه . كما انهم نجحوا في تنظيم اجتماع مماثل في كنيسة انقره باقليم جلاتيا حيث يقوم حصن الارثوذكسية المنيع في آسيا الصغرى . ولكن قسطنطينوس تدخل وأوقف هذا الاجتماع المعادي لأريوس حتى لا يزيد الصراع حدة ودعى الى اجتماع مسكوني اكبر يعقد في نيقية Nicaea ودعى اليه كافة الاساقفة المثلين لدنائس الامبراطورية على ان تتحمل الامبراطورية نفقات السفر والتجهيز لهذا المؤتمر التاريخي . وأعلن قسطنطينوس انه سوف يحضر ويتراس اجتماعاته .

وفي العشرين من مايو عام ٣٢٥ اجتمع ثلاثماية وثمانية عشر اسقفا من اساقفة العالم المسيحي وكان من أبرزهم الانبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشمامسة النابية اثناسيوس الذي لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره . كما حضر اساقفة روما وقرطاجة وأنطاكية وقيصرية وأرليس وقرطبة Cordova وانقرة ونيقوميديا . وقد تضمن هؤلاء الزعماء الدينيين مشاهير في علم اللاهوت والفضيلة ، وآخرون كسبوا شهرتهم من قوة التحمل ومواجهة الآلام في سبيل العقيدة وفريق اشتهر بحبه للفضيلة والمثل الرواقية التي امتزجت بالمسيحية .

افتتح الامبراطور المؤتمر بكلمة عبر فيها عن ايمانه الشديد بقوة الرب ثم رجا المجتمعين الى العمل متعاونين معا من أجل اعادة وحدة الكنيسة والقضاء على الانشقاق الذي يهدد وجودها ورجاهم ان يضعوا هذه القضية في الدرجة الاولى وان كل ماعدا ذلك ثانوي لا يهم ، ثم فتح باب النقاش معلنا انه لن يتدخل الا لضبط الجلسات حتى لا يتحول اعمال المؤتمر الى موضوعات خارجة عن الهدف الاساسي .

وتقدم الشماس اثناسيوس ليتحدث بمنطق لا يقل عن منطق أريوس واستطاع هذا الشماس السكندري ان يشرح لمثلي كنائس العالم الثلاثماية وثمانين عشر سببا للإيمان ، ثم فند آراء أريوس في براعة واقناع وقدم للمجتمعين اجتهاداته في تصوره لمعنى قانون الايمان وادهش الحاضرين باعتداله حين اتهم اخاوا بكثير من آرائه واتفقوا على عزل أريوس من عضوية الكنيسة وأقر الامبراطور هذا الحكم . ومن هذا الاجتماع اكتسب



قسطنطين
نفس الرأس في زاوية أخرى حيث تعكس
الأنف الشامخ المعبر عن التصميم

اثناسيوس الشماس شهرة عالمية رفعتها الى مكانة الزعامة الفكرية للكنيسة بل واهلته لان يخلف الانبا الكسندروس ويصير بطريركا لكنيسة الاسكندرية فيما بعد رغم معارضة الارويسيين .

ومن المناقشات الحيوية تبلورت الكنيسة الكاثوليكية (١) وحددت نظريتها في قانون الايمان المسيحى لانها شملت مشاكل ابعدهم الصراع الاربوسى ووضحت في هذا المجمع العقيدة المسيحية التى يؤمن بها جميع المسيحيين الى يومنا هذا . واتفق المجمع على أن الثالث واحد لا ينقسم ومن ثم أمروا بحرق الابحاث والمؤلفات اللاهوتية التى نشرها آريوس بعد طرده من الكنيسة المسكونية .

ومن أهم القرارات التى أصدرها هذا المجمع تحديد يوم عيد الفصح (Pasca) فى أول يوم احد يجرى بعد اكتمال القمر بعد حدوث تساو الليل والنهار فى فصل الربيع (اى بعد ٢٣ مارس) . وانشى المجمع بعد ان نظر فى أمور اخرى وأصدر عشرين قانونا كنسيا (Canons) من أجل تنظيم الكنيسة العالمية وتحديد علاقتها بالدولة . وباختصار يرى البعض ان مجمع نيقية يمثل بداية احلال المسيحية تدريجيا محل الوثنية كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية وفى رأى البعض أن ذلك يمثل نقطة التحول من تاريخ الامبراطورية الرومانية القديمة الى الامبراطورية الرومانية المسيحية التى نعرفها فى العصور الوسطى .

اصلاحات قسطنطينوس الدنيوية :

١ - تنظيم الجهاز الادارى والتنفيذى :

قام قسطنطينوس بعدد من الاصلاحات والتغييرات فى مجال الجيش والادارة وفى المجالين السياسى والاجتماعى يرى بعض المؤرخين انها تشكل وجه التحول الجديد الذى نسميه بالعصور الوسطى .

نبغصوص الجيش اكمل الاصلاحات التى بداها ديوقلديانوس . نمثلا خفف من كثافة قوات الحدود المستوطنة (limitanei) بأن نقل الكثير منها الى القوات المتحركة الخفيفة Comitatuses والتى اضاف ليها قوة خفيفة اخرى منتقاة من خبرة فرسانها وبعضها من مشاتها وسميت باسم حرس البلاد (palatini)

(١) أى العالمية وحتى القرن الخامس لم يكن هناك فرق بين هذا الاسم وبين لفظ أورثوذكسى (أى المستقيمة) بل كان كلاهما يطلق على الكنيسة باعتبارها كنيسة جامعة ومنتحلة .

كما شجع قسطنطينوس ادخال الجرمان في الجيش الروماني و
لهم الترقى في الرتب العليا حتى وصل بعضهم الى اعلاها . وصاروا على
رأس قائمة المتحكمين في الامبراطورية . ولما كان قسطنطينوس قد الفى
الحرس البرائتورى عام ٣١٢ فقد قرر انتاء حرس خاص لحمايته بدلا
منه وانتقى هذه القوة من خيرة المقاتلين الجرمان وأطلق عليها اسما غريبا
هو *Scholae Palatinae* (١) .

نما شملت اصلاحات قسطنطينوس العسكرية تنظيم قيادة القوات
العليا وفصل السلطة العسكرية عن السلطة السياسية فصلا تاما . كما
استبدل قائد الحرس البرائتورى *Praeteci Praetoriani* بقائدى
الفرسان *Magister equitum* نظرا لاهمية هذا السلاح الجديد .

كما شملت الاصلاحات الفاء سيطرة حكام المقاطعات على المسئولين
العسكريين عن حماة الحدود كانتا يحملون لقب دون او
كونت (*Count*)

غير ان قائد الحرس البرائتورى اصبحا يشغلان وظائف اخرى غير
عسكرية . اذ كان كل منهما يقوم مقام الامبراطور في احدى الولايات الأربعة
وهى بلاد الغال وايطاليا واليريكوم والشرق . وزادت سلطاتهم بمد عام
٣٣١ م واصبحت احكامهم القضائية فاصلة ونهائية ولا يجوز الطعن فيها
حتى ولو امام الامبراطور .

كذلك شملت اصلاحات قسطنطينوس العسكرية تنظيم قيادة القوات
مثل الاشراف على البريد الامبراطورى وادارته . والاشراف على مشروعات
التعمير وبناء المرافق ، والاشراف على جمع وتشوين الضرائب العينية
التي تجمع من الفلاحين خاصة اذا كانت غلالا . كذلك شملت اختصاصاتهم
مراقبة اصحاب النقابات والحرف المهنية والتجارية ومراقبة الاسعار
وحفظها او تثبيتها . وكذلك الاشراف على التعليم وعلى الاساتذة الفلاسفة
الذين يدرسون لتلاميذهم ومريديهم . ولعل اهم شئ في نفوذهم هو
الاشراف على عملية التجنيد والخدمة العسكرية واقامة الاستحكامات
العسكرية وتموين الجنود في الخطوط الامامية هذه السلطة العسكرية
بالذات كانت مانعا ضد طموح القوادى في السيطرة على الجيش واستخدامه
لأغراضهم السياسية .

(١) كانت كلمة *Schola* تطلق في الاصل على مريدى المدارس الفلسفية انظر :

K.L. Frank, *Scholae Palatinae. The palace guards of Later Roman Empire*
(Papers and monographs of the American Academy in Rome, vol. 23),
Rome 1969, p. 16 ff.

ومن المراكز القوية الجديدة التي ظهرت منصب رئيس الموظفين *magister officiorum* الذي زادت مسؤولياته بعد عام ٣٢٠ ليصبح مشرفا عاما على جميع اقسام الشؤون الادارية والتنفيذية وتضوا دائما في الهيئة التنفيذية العليا او ما يعرف بالمجلس المقدس *Sacrum consistorium*. أى أن مهامه كانت متنوعة ، فهو مفوض الحكومة الذي يدير سياسة الدولة وعلاقاتها الخارجية والمسئول الأول عن مراسيم الدولة ومسئول التشريعات ، والمتصرف العام على ادارة المراسلات والبريد والمسئول عن مصانع السلاح وترساناته والرئيس الاعلى لقوات حرس الفرسان الامبراطورية ورئيس مكتب التقصى والتحقيق ورئيس هيئة البوليس السرى *agentes-in-rebus* الذى ينقل كافة المعلومات من الاجهزة وعن شكاوى الناس ومطالبهم كما كان رجال هذا الجهاز يدلون برأيهم فى الاماكن التى تحتاج الى دعم عسكرى ويشتركون فى التخطيط العسكرى وتوزيع القوات .

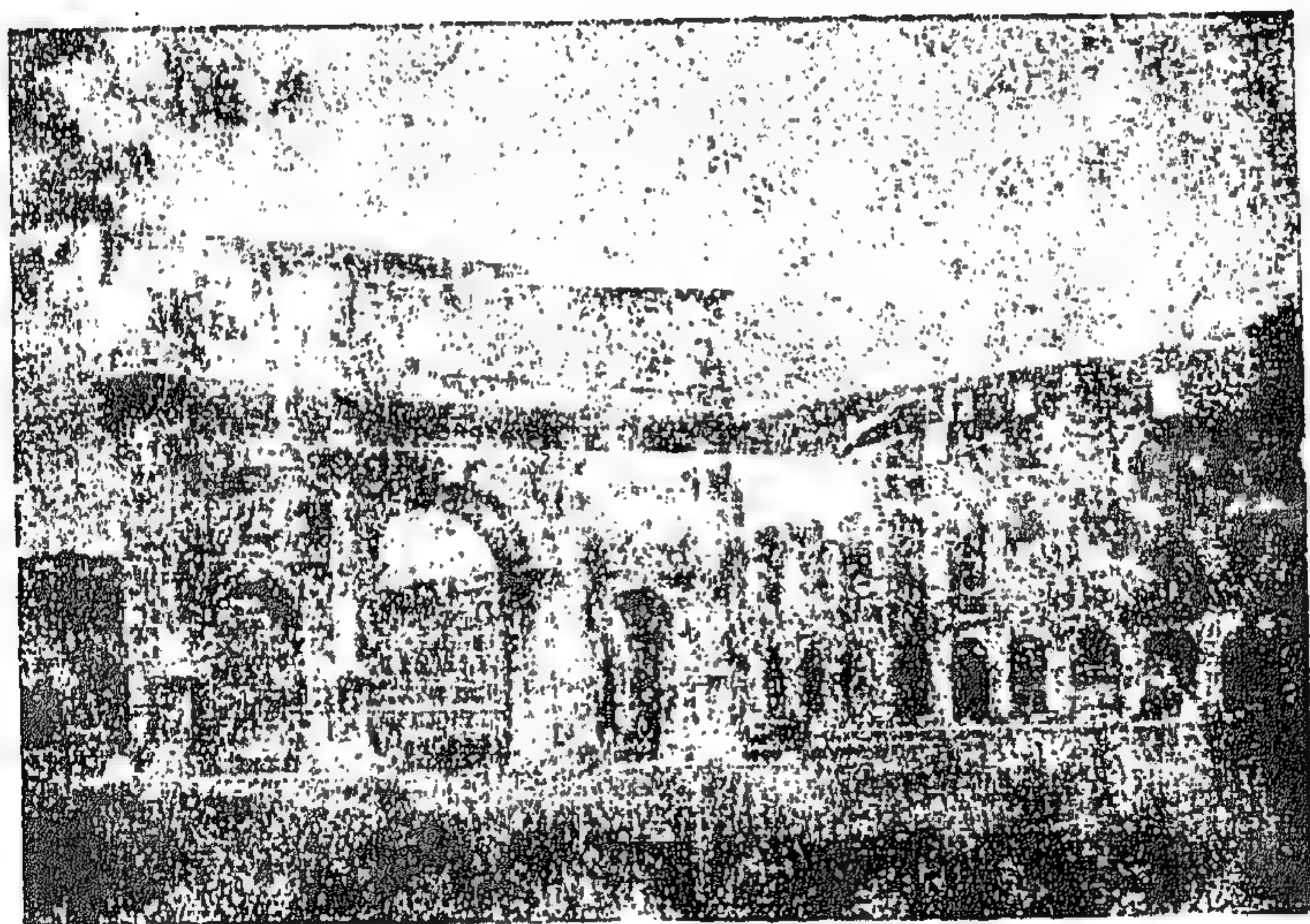
ب - تنظيم جهاز النقد :

كان تنظيم قسطنطينوس لنظام النقد لا يقل أهمية عن تنظيمه لأجهزة الدولة الادارية والتنفيذية ففي عام ٣١٢ ثبت قيمة السوليدوس الذى أصدره ديوقلديانوس وجعل وزنه $\frac{1}{72}$ من رطل الذهب (وكانت قيمته النقدية حوالى ثلاث عشر شلنا انجليزيا الا قليلا) وبفضل هذا التعديل ثبتت قيمة السوليدوس بل وظل وحده التعامل فى الامبراطورية حتى فى العصر البيزنطى .

كما أصدر عملة فضية سماها الميلياري (Miliarensis) أى أنها جزء من الألف من رطل الذهب الرومانى ، وبهاتين العملاتين استقام نظام التعامل الرومانى ودبت فيه الحياة وساعدت الحكومة على جمع قيمة الضرائب العينية نقديا ، بل انها ساعدت على نهضة التعامل والتجارة ليس فى داخل الامبراطورية بل على الصعيد العالمى مما خلف للدولة البيزنطية نظاما نقديا قويا ساعدها على الوقوف فى وجه التحديات التى حاقت بها .

ج - تبلور نظم الأقطاع واقتان الأرض والنقابات المهنية :

غير أن الباحثين يركزون على نتائج إصلاحات قسطنطينوس والاثـر التى تركها على ملامح المجتمع الاوروبى فى السـمـور الوسطى وهى ثلاثة ظواهر . الامتاع بـمـتـلـكـه الاوروبى (Feudalism) ، ونظام عبودية الفلاحين



قوس قسطنطينوس - روما

للأرض ومالكها (Serfdom) (١) ، ونظام النقابات الحرفية والمهنية (guild system)

لقد استغلت طبقة من طبقات المجتمع الكوارث الاقتصادية الناتجة عن الحروب الأهلية والغزو البربري لحدود الإمبراطورية والنقص البشري بسبب الأوبئة الفتاكة وبسبب المجاعات التي مات بسببها ملايين من الناس ، وكانت النتيجة أن توسع نفوذ بعض أعضاء الطبقة السيناتورية وكبار الموظفين البيروقراطيين وأصبحوا يمتلكون الاقطاعيات الشاسعة بعد أن انخفض ثمن الأرض كثيرا . ثم تلى ذلك اقبال أصحاب رؤوس الاموال على شراء الأرض لأنها الضمان الوحيد لاموالهم ، وكثيرا ما افتنوا ضياعا شاسعة واقطاعات بثمان زهيد . وهكذا نشأ نظام الاقطاع واختفت طبقة الفلاحين المالكة للأرض لأنها لم تجد فائدة تجنيها من الزراعة بسب ندرة الأيدي العاملة وضعف الإنتاج وبهاضة ضرائب الدولة .

ويرجع بعض الدارسين السبب الى نظام الضرائب الحديد الذي وضعه ديوقلديانوس ودعمه قسطنطينوس ، لأن هذا النظام القاسي جعل الأمور صعبة بالنسبة لصغار الزراع والمستأجرين فهجروا الأرض ، وفي كثير من الأحيان سلموها بتراضي نام الى الاقطاعي ليزرعها مقابل أن يحميهم بنفوذه من القلاقل وغزوات البرابرة وظلم الحكام وجباة الضرائب، وكثيرا ما كان هؤلاء الاقطاعيون بارونات عسكريين يقيمون في منازل جميلة محصنة كالقلاع وتتمتع زوجاتهم بنفوذ مماثل . وسمى هذا النظام باسم Patrocinium والذي تحول الى فيودالية عصر الاقطاع في حضارة أوروبا في العصور الوسطى . ولقد حاول بعض الإباطرة ابتداء من قسطنطينوس وحتى جستنيانوس وقف انتشار هذه الظاهرة التي يسلم فيها الفلاحون اراضيهم طواعية للاقطاعي مقابل الحماية والرعاية وحاول بعضهم اتخاذ خطوات تشريعية ضد ذلك . ولكن تشريعاتهم تدهورت من بعدهم لأن الإباطرة كانوا في حاجة الى الاموال ولم يكن يضمن ذلك سواء البارونات وأصحاب الاقطاعيات

لقد ظلم قسطنطين صغار الزراع والمستأجرين (Coloni) عندما أصدر عام ٣٣٢ قرارا يربط مصيرهم وذريتهم من بعدهم بالأرض التي يزرعونها ، وفرض عليهم دفع الضرائب المستحقة عليها وتجنيد ابنائهم في الجيش وفرض عليهم أبشع العقوبات اذا ما خالفوا هذا القرار . ونتيجة لذلك تحول المزارع Colonus الى درجة أدنى الى عبد زراعي مملوك لمن يملك الأرض وهو كما قلت جوهر نظام الاقطاع الأوروبي في

(١) واحيانا يعرف هذا النظام في اللغة العربية باسم الانان ومفردها قن .

(م ٢٩ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

العصر الوسيط . ولم يكد يمض قرن ان على هذا التاريخ حتى اصبح اصحاب الاقطاعيات من بارونات ودوقيات يحكمون اشلاء من الامبراطورية المنهارة ويرثونها كما لو كانوا ملوكا عليها . وكانت مساحة بعض الاقطاعيات شاسعة لدرجة لا تقل عن مساحة مملكة صغيرة . واصبحت هذه « الممالك » مستقلة سياسيا واقتصاديا دفاعيا ولا علاقة لها بالامبراطورية ولا تعتمد عليها في شىء ، ويصور لنا أعمال الفسيفساء التى كانت تزين فيلات الاقطاعيين والتى عثر عليها فى ايطاليا وبلاد الفال وفى شمال افريقيا حياة صاحب الاقطاعية فى اقطاعيته يستمتع بخيرات الأرض وجمال لريف وسط عبيده واقنانه واتباعه وكأنه ملك على مملكة .

اما سكان المدن فكان معظمهم من التجار والحرفين واصحاب الحرف والمهن ، وقد نساءت حالتهم أيضا ولم يكونوا فى وضع احسن من وضع الفلاحين . فقد كان عليهم دفع ضريبة مهنية باهظة كل خمسة أعوام (وربما فيما بعد كل عام) سواء نقدا أو عينا هذا فضلا عن بعض الضرائب الاضطرارية والمفاجئة التى كانوا يدفعونها من انتاجهم أو اعمالهم . ولما حاول هؤلاء الحرفيون التجار من شرور المهنة اصدر قسطنطينوس قراره عام ٣١٤ الذى يفرض عضوية النقابة على ابناء الطائفة الحرفية الواحدة ، واصبحت الحكومة تتحكم فيهم عن طريق هذه الجمعيات أو الهيئات أو النقابات . بل انه جعل المهن والحرف وراثية يتوارثها الابن عن الاب . وقد طبق ذلك عام ٣١٤ على العاملين فى بناء السفن ، ثم تعداه فيما بعد الى اصحاب المهن الأخرى مثل اصحاب المطاحن والخبازين والنجارين والاسكافية وصناع الطوب والبنائين وسائر الطوائف الحرفية . وقد ورثت الامبراطورية البيزنطية هذه النظم .

قسطنطينوس يؤسس القسطنطينية : ٣٢٤ - ٣٣٠

يقول المؤرخون ان اهم حدث قام به قسطنطينوس بعد اعلان المسيحية ديانة معترف بها ورسمية ، هو تأسيس عاصمة جديدة سماها على اسمه اى القسطنطينية ، واقامها فوق مستوطنة بيزنطة Byzantium تلك المستعمرة الاغريقية القديمة التى تقع عند مدخل البسفور والدردنيل (١) . وكانت هذه المدينة تتمتع بمزايا استراتيجية هامة فهى تقع على شريط غائر فى البحر تحدها المياه من ضلعها . وعند شمالها القربى يمتد ميناء طويل اسماء الاغريق قديما بالقرن الذهبى ،

(١) انظر كتابى : الاغريق تاريخهم وحضارتهم الطبعة الثانية - دار النهضة العربية ١٩٧٧ ، ص ١٦٦ الى ١٧١ .

أما في الجنوب منها فيقع بحر مرمرة Propontis وبين هذين البحرين يقع بوغاز البسفور الذي عنده تلتقى أوربا بآسيا وفيه يجد البحر الأسود منفذا له إلى البحر المتوسط . كما كان يتفرع من هذه المدينة طرق التجارة الرئيسية سواء إلى الشرق الأوسط أو إلى آسيا الصغرى وإلى البلقان وأوروبا الغربية . كما كانت هذه المدينة الإغريقية تربط بين وادي الدانوب الأدنى وشمال نهر الفرات وهما من أهم جهات الإمبراطورية الدفاعية .

كانت المدينة محصنة دفاعيا فهي تقع على شبه الجزيرة الفائض في البحر Promontory . ويحميها البحر من ضلعينها ، كما تكون الصخور الداخلية من حولها قلعة ثالثة . كما ميزتها الطبيعة بميناء طبيعي ممتاز يمكن أغلاقه بسهولة ساعة الخطر فلا يقدر على دخوله أحد . كما كان يحميها بحر مرمرة من أي هجمات بحرية .

ونبت الطبيعة هذه المدينة موقعا ممتازا فكانت ملتقى التجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، فكانت أسواقها عامرة بكل ما يخطر على بال من فراء الشمال البارد ، وتوابل الهند الاستوائية ، وعطور الشرق الساحرة ، وخمور البحر المتوسط الشهيرة ، ومما جعل الحياة فيها راغدة ومحبة مناخها المعتدل فما هو شديد الحرارة صيفا ولا شديد البرودة شتاء . كما كانت مثل مدينة روما تحيط بها تلال سبع .

كانت الدوافع التي جعلت قسطنطينوس يختار هذه المدينة كمكان لمدينته روما الجديدة أبعد من المميزات الاستراتيجية والعسكرية والبحرية والتجارية . لقد انتشرت المسيحية في هذه المدينة بسرعة وأصبحت كنيسة رائدة بين كنائس المجمع المسكوني . ومن كنائسها كنيسة السلام المقدس Pax Sacra والحكمة المقدسة Hagia Sophia وكنيسة الرسل الاثنا عشرة . وهذا جعلها تبدو في عين الإمبراطور المكان الأمثل لروما المسيحية المنافسة لروما الوثنية . وبداية تاريخ جديد للإمبراطورية من عاصمة جديدة (١) .

وهكذا اختار قسطنطينوس موقع بيزنطة ليقم عليه مدينته التي قدر لها أن تظل عاصمة للإمبراطورية البيزنطية ، وحصنا للحضارة الرومانية المسيحية طيلة قرون عشرة . ولقد حاول الإمبراطور منذ عام ٢٢٤ تعميرها بالإنبيئة الفخمة محاولا جعلها صورة طبق الأصل من مدينة روما القديمة أيام مجدها وعمرها . كما جعل لها سناقو على غرار السناقو

E. Kzeigi : Byzantium and the Decline of Rome, Princeton University (1) Press, 1968.

الرومانى وأقام له مبنى فى قلب المدينة . كما كان قسطنطينوس يدعو الى اجتماعاته فيها عليه وكبار الاسر ووجهاء وزعماء الولايات الشرقية .

ولما رأى ان روما الجديدة يجب ان يكون لها شعب رومانى Populus Romanus راق يتمتع بامتيازات خاصة تميزه عن غيره من الشعوب حتى يحس الناس انهم يعيشون فى مجتمع عظيم لبلد عظيم ولهذا قرر أعفاء الناس من الضرائب . بل انه قرر تقليد روما القديمة بضممان الخبز والتسليية للفوغاء (Plebs) ، ومن ثم أصبح من حق كل فرد من الفوغاء ان يتسلم من مخبز الدولة خبزا طازجا كما كان يتسلم معه مخصصات غذائية مجانية مثل اللحوم والزيت والنبيد خالقا مجتمع الترف الخرافى .

لقد بدأ قسطنطينوس العمل فى أعداد مدينته عام ٣٢٤ حيث بنى سورها وظل يداوم عمليات البناء والتشييد حتى دشن المدينة فى الحادى عشر من شهر مايو عام ٣٣٠ . ومن أجل تجميل هذه المدينة لم يتردد الامبراطور فى نهب المعابد الوثنية القديمة من آيات الفن الجميل والاتيان بها الى عاصمته . حتى مدينة دلفى القديمة نقل الامبراطور منها تمثال ابولو الشهير والمقعد الذهبى ذا الثلاثة قواعد الذى كانت تجلس عليه كاهنة ابولون بيثيا قديما ، ومن هذه الأموال والكنوز التى استولى عليها استطاع ان يبنى لنفسه قصرا خرافيا وملاعب لسباق الخيل hippodrome وكنائس رائعة لاتزال شاهدا على آيات المعمار ، ومدارس ومكتبات ومعهدا للعلوم والفنون يمكن ان نسميه جامعة .

ولكى يجذب انظار العالم الى مدينته احتفل بتدشينها طوال اربعين يوما ، امتزجت فيها الطقوس الوثنية بالطقوس المسيحية . وأقام الامبراطور ورجال بلاطه ومجلس دولته وهيئة كبار موظفيه البيروقراطيين فى العاصمة الجديدة بعد تدشينها ، وبتشجيع من الامبراطور هاجر اليها الاغنياء وارباب الثراء من كافة انحاء الامبراطورية ، بل وهاجر شطر كبير من سكان روما الى المدينة الموعودة تاركين الماضى بترائه وباحثين عن المستقبل الجديد ، واخذت الثروات تتدفق عليها من جميع مدن الامبراطورية مع جموع المهاجرين الذين أغرتهم المشروعات الخيالية التى قام الامبراطور او وعد بتنفيذها . وعلى مرور الزمن اتسعت المدينة بسبب التدفق المضطرد عليها من المهاجرين الجدد ويقال ان عدد القصور التى شيدت بها فيما بعد بلغ الاربعمئة ، كما بلغ عدد الحمامات العامة ما يقرب من مائة وخمسين حماما . وبقيت القسطنطينية مركزا للحضارة الرومانية

الآغريقية المسيحية وخالقة لفن وفكر جديد عرف بالحضارة البيزنطية الى أن سقطت تحت أقدام جحافل الامبراطور العثماني محمد الفاتح في ربيع عام ١٤٥٣ (١) .

نهاية قسطنطينوس الأول : ٣٣٧

رغم النجاح الكبير الذي حققه هذا الامبراطور الا ان النكبات حلت بأسرته ، محدثة نهاية تيسة وحزينة لبيته . اذ كان الامبراطور متزوجا من سيدة لعوب هي الامبراطورة فاوستا Fausta ويبدو ان هذه السيدة نجحت في اغواء ابن الامبراطور الاكبر من زوجته السابقة وهو الأمير كرسبوس الذي لعب دورا كبيرا في انتصارات أبيه على أعدائه : ولما شعرت أن أباه قد يختاره وريثا له وكان ذلك يعني حرمان أبناءها الثلاثة : قسطنطينوس الثاني وقسطنطيوس الثاني وكونستانس ، قررت الوقعة بينه وبين أبيه ولم تجد صعوبة في إثارة غيرة الامبراطور الاب فيأمر بقتل كرسبوس بتهمة محاولة اغتصاب الامبراطورية ، والقريب ان الامبراطورة لاقت حتفها باغراقها في حوض الماء الساخن وذلك بعد ان أثارت هيلانة لامبراطورة الأم قصة خيانة جديدة لتلك السيدة مع أحمد عبيد القصر فدبرت مقتله .

وفي عام ٣٣٧ ، وبينما كان يستعد لقيادة جيشه لتأديب الفرس لتعديهم على مملكة أرمينيا العميلة للامبراطورية ، سقط الامبراطور قسطنطينوس فريسة لمرض غامض . ولما أحسن بأن نهايته تقترب وان لا أمل في شفائه ، أمر باحضار الاسقف يوسيبوس اسقف نيقوميديا ، وكان أريوسيا ، ولكن الامبراطور لم يكن يعنيه الصراع العقائدي ، وطلب من الاسقف أن يقوم بتعميده بالشعائر الخاصة حتى يصبح مسيحيا كاملا ، وبعد أن تمت شعائر التعميد ارتدى الارواب البيضاء التي كان يرتديها المسيحيون الجدد ثم أسلم الروح في شهر مايو عام ٣٣٧ . وقد دفن الامبراطور في ضريح مقدس داخل كنيسة الحواريين الاثنى عشر .

وهكذا تنتهي سيرة قسطنطينوس العظيم بعد أن خلق عصرا جديدا . وبالرغم من أنه لم يتدرب على فنون الحكم والادارة الا أنه كان يتمتع بطاقة وقوة شخصية جعلت منه القائد الاوحد على الامبراطورية الموحدة .

(١) انظر البحث، القيم : فتح القسطنطينية - دكتور عبد العزيز عبد السلام بهمي سلسلة المكتبة الثقافية - العدد ٢٢٨ . وهو بحث مبسط ولكنه شامل ومفيد .

كان أعظم أعمال قسطنطينوس هو تحويل الامبراطورية من الوثنية القديمة الى المسيحية ولهذا كرمه المؤرخون المسيحيون بلقب العظيم ، وقد قدسته الكنيسة الشرقية الارثوذكسية التي اعتبرته قديسنا ورفعته الى منزلة الرسل (Leopostoles) كما يفهم من احد النقوش الكنسية (١) .

لقد اكمل قسطنطينوس ما بدأه ديوقلديانوس في اعادة صياغ الأجهزة الادارية والعسكرية خالقا الملامح العامة للامبراطورية في أيامها الأخيرة مثل سلطوية الحاكم ونظام البيروقراطية ووضع الجيش وجعل الطبقات الاجتماعية وراثية وينتقد بعض المؤرخين هذه التغيرات بأنها ساعدت على انهيار الامبراطورية ولم تعالج المشاكل بل زادت تفاقمًا وخطرا .

خلفاء قسطنطينوس ٣٣٧ - ٣٦٣ :

ترك قسطنطينوس ثلاثة أبناء هم قسطنطينوس الثاني وقسطنطيوس وكونستانس ، هتف بهم القوات خلفاء لابيهم بعد أن قتلت كل اقرباء الامبراطور الراحل ممن قد يدعون احقية في الوراثة ، ولم ينج من هذه المذبحة سوى اثنين من أبناء شقيقة هما جالوس Gallus وجوليانيوس Julianus ويقال أن قسطنطينوس هو الذي أوعز قبل موته الى القوات بهذه المذبحة .

قسم الأخوة الثلاثة الامبراطورية وحمل كل واحد منهم لقب اغسطس وجعل قسطنطينوس الثاني - بصفته أكبر الأخوة - الاغسطس الأكبر . وقد اختار حكم الولايات الغربية بينما حكم اخوه قسطنطيوس الشرق بعد أن اضاف اليه تراكيا . أما الاخ الثالث كونستانس فقد حكم الليريا وافريقيا والليكوم . على أن يشرف عليه أخوه الأكبر ، ولما ضاق الاخ الأصغر ذرعا من وصاية أخيه عليه أعلن العصيان والتمرد مما أدى الى غزو أخيه لاطاليا ولكن الأمير الصغير تمكن من هزيمة أخيه الأكبر في معركة ضارية وهكذا سقط قسطنطينوس الثاني وخرج من حلبة الصراع على العرش . وتولى كونستانس حكم الولايات الغربية كلها . وأصبح حكم الامبراطورية مقسما بين قسطنطيوس وكونستانس .

(١) Quod duce te mundus surrexit in astra trrimphans Hanc Constantius
Victor tibi condidit aulam.

» لانك كنت القائد عندما نهض العالم الى السماء منتصرا فقد أقام لك قسطنطيوس
هذا البهر « .

cf. Vogt : op. cit., p. 107.

ولكن سرعان ما واجه كونستانس حركة تمرد كبيرة قادها أحد الجرمان واسمه ماجننتيوس *Magnentius* وأيدته قوات الجيش بسبب حزم كونستانس وتشدده أبان معاركه ضد البرابرة في وادي الراين فضلا عن سوء سلوكه وجرائمه البشعة ، وأعلن ماجننتيوس نفسه أغسطس على الولايات الغربية فيما عدا الليريكوم التي أعلن فترانيو *Vitranio* نفسه عليها أغسطس . حدث ذلك أبان انشغال قسطنطيوس في حروبه ضد شاپور الثاني ملك الفرس ، فلما علم بذلك سارع بسحق المفتصبين ودخل الليريكوم حيث سلم له فترانيو المقاطعة مقابل أن يترك ليحيا وأن يمنح معاشا من الدولة . ولما طلب ماجننتيوس من الامبراطور قسطنطيوس أن يعترف به أغسطس شريكا رفض الأول ، عندئذ حاول ماجننتيوس غزو الليريكوم ولكنه هزم عند مورسا *Mursa* عام ٣٥١ وهرب ماجننتيوس الى شمال إيطاليا وتبعه قسطنطيوس حتى لحقه في بلاد الغال وهزمه مرة أخرى وانتحر ماجننتيوس وهكذا وجد قسطنطيوس نفسه الأغسطس الاوحد على الامبراطورية .

قسطنطيوس الأغسطس الأوحد : ٣٥٣ - ٣٦٠ :

كان قسطنطيوس قد عين جالوس *Gallus* ابن عمه قيصرا ونائبا له أثناء قتاله ضد ماجننتيوس ، كما زوجه من أخته كونستانتيا ، ثم بعث به للدفاع عن حدود الامبراطورية في الشرق عام ٣٥١ ولكن جالوس اساء التصرف ودخل في صراع مع قواد الجيش ، واعدم رسل الامبراطور الذين جاءوا ليدعوه للمثول بين يديه ، كما أن مركزه ساء بعد موت كونستانتيا . ولهذا تخلص منه قسطنطيوس عام ٣٥٤ بعد أن دعاه اليه ثم قبض عليه واعدمه .

وبينما كان قسطنطيوس منهمكا في رد الغزاة عن الدانوب والراين حدثت ثورة في بلاد الغال قادها أحد زعماء قبائل الفرنجة واسمه سيلفانوس *Silvanus* ، ثم هاجمت قبائل الفرنجة والألماني وادي الراين هذه الاخطار جعلت الامبراطور يشعر انه في حاجة الى مساعد لدعم السلطة الامبراطورية ومن ثم وبناء على نصيحة من الامبراطورة يودوكسيا *Eudoxia* استدعى ابن عمه جوليانوس الذي كان يدرس الفلسفة في اثينا - الى ميلان وعينه قيصرا (اي نائبا للامبراطور) وزوجه بابنته هيلينا . ثم ارسله الى بلاد الغال في عام ٣٥٥ وعينه قائدا في عام ٣٥٧ ، ونجح جوليانوس بالفعل في صد موجة غزو قامت بها قبائل الألمان قرب ستراسبورج الحالية وما أن أتى عام ٣٥٩ حتى كان قد نجح في أن يعيد

الى روما قلاع الراين التى كانت قد سقطت ، ثم ثبت قبائل الفرنجة التى استوطنت جنوب وادى الراين الادنى وحولهم الى حلفاء للامبراطورية Foederati

موت قسطنطيوس وتولى جوليانوس ٣٦٠ - ٣٦١ :

وفى عام ٣٥٩ غزا الملك الفارسى شابور الثانى ولاية ما بين النهرين ودمر مدينة اميدا Amida اهم المدن فيها ، واندفع قسطنطيوس لصد هذا الغزو عام ٣٦٠ . وقبل ان يصل جاءته الانباء ان القوات العسكرية التى يقودها جوليانوس فى بلاد الغال هتفت به امبراطورا ، ولكنه لم يعبأ وسار فى طريقه لملاقاة سابور . ويقال ان السبب فى هذا الانقلاب هو اصداره امرا الى جوليانوس بارسال تعزيزات من قواته لتشارك معه فى الحرب ضد الفرس ، ولم يكن الامبراطور فى حاجة الى تعزيزات ولكنه اراد ان يضعف من مركز جوليانوس العسكرى خاصة وانه بات يتشكك فيه ، ويتجسس عليه ، بينما اثبت جوليانوس انه قدير بالقيادة ، وكان على استعداد لتلبية طلب قسطنطيوس ولكن قواته التى كانت ترفض الذهاب الى الشرق هتفت به امبراطورا وارغمته على قبول هذا القرار وذلك فى عام ٣٥٠ . ولما اعترض قسطنطيوس على ذلك وسار لخلعه ووجد جوليانوس نفسه فى موقف التحدى وسار لاحتلال القسطنطينية ولكن القدر وضع حدا لبدأ الصراع عندما مات قسطنطيوس فى طرسوس . ورغم ذلك اوصى قبل موته بان يكون جوليانوس خليفته . وهكذا وجد جوليانوس نفسه امبراطورا بمفرده .

قسطنطيوس وسياسته :

نشأ قسطنطيوس مثل اخويه مسيحيا ، ولكنه اعتنق المذهب الاريوسى . وحاول جمع شمل الكنيسة . وبالرغم من ان قدراته ومواهبه محدودة ، وكفاءته العسكرية قليلة ، وشخصيته واهية ، حيث ترك رجال البلاط يتحكمون فيه ويسيطرون عليه ، الا انه حاول بقدر الامكان ان يعمل جاهدا لانقاذ الامبراطورية . فوسع من دائرة الحكومة ، ودعم رجال البوليس السرى ، وزاد من ترف حاشيته ، وبالف فى ترف قصره . وهو بالرغم من هذا كان يدرك خطر البيروقراطية وفسادها فحاول فى نهاية حكمه الحد من سيطرتها عن طريق تشريعات خاصة . كما حاول حماية السلطة المدنية من النفوذ العسكرى لبعض القواد ، وحاول كسر حدة التضخم فى نظام النقد ، ولكن كل محاولاته ذهبت معه الى القبر .

حكم جوليانوس المرتد عن المسيحية :

بالرغم من أن جوليانوس تلقى تربية مسيحية إلا أنه درس الأدب والبلاغة والفلسفة الاغريقية الوثنية ، حيث درس في أثينا وبرجامون على يد معلمين وثنيين . ولهذا عاد سرا للديانة الوثنية كنوع من الاحتجاج على ما فعله اسلافه من الاباطرة المسيحيين من حمامات الدم وما جلبوه على الامبراطورية من دمار ، وبعد موت قسطنطيوس أعلن ارتداده عن المسيحية علنا ، ثم اتبع ذلك بقرار قصد بها تضيق الخناق على المسيحية مثل القرار الخاص باعادة خزائن المعابد الوثنية والتي كانت الكنيسة قد استولت عليها وسخرتها لخدمتها ، ومثل القرار الخاص بوقف دعم الدولة للمسيحية ، كما حرم على المسيحيين التعرض للآداب والفلسفات الوثنية في مدارسهم . كما حاول غرس الصراع بين الطوائف المسيحية وذلك بدعوة الاباء والاساقفة المطرودين من الكنيسة الى العودة لممارسة دورهم الدينى ، ثم قاد حملة أدبية ضد الكنيسة وضد المسيحية ، وفي نفس الوقت حاول إعادة الهيبة والوقار الى الديانة الوثنية ، واعتبرها ديانة وحدانية لكافة العقائد الدينية وكافة المثل الاخلاقية . كما حاول انشاء كنيسة وثنية مناهضة للكنيسة المسيحية مثلما فعل ماكسيمينوس دايا من قبل .

وبالرغم من التأييد العاطفى الشديد للوثنية إلا أن مجهودات وخطط الامبراطورية باءت بالفشل بعد موته لأن المسيحية كانت قد تغلغلت في نفوس الناس ، وابتعدت الوثنية عن وجدان الاجيال وانحسرت في دائرة محدودة من الارستقراطيين والمثقفين ، أما الذين فلدوه وارتدوا الى الوثنية فكانوا هم طائفة المتملقين الذين كانوا يبفون كسبا ماديا ومنافع شخصية ، ولكن الحق يقال احييت حركته الثقافية الاغريقية ودعمت من مركز الحضارة الوثنية وتراثها العريق .

اعمال جوليانوس واصلاحاته :

تمتع جوليانوس بعدة فضائل اخلاقية ، اذا كان رجلا متعقفا ، عادلا شجاعا بالرغم من انه كان ينقصه الحكمة في بعض المواقف وعند اتخاذ بعض القرارات . كما اتخذ من اباطرة القرن العظيم من أمثال اغسطس وتراجانوس ومادونوس اوريليوس مثلا اعلى لسلوكه . ولهذا كان يسيطر عليه الحنين لافكار الجمهورية القديمة وديمقراطيتها . بالرغم من أن ذلك قد جعله يميل الى الانفرادية الذي يقوم عليه نظامه . كما حاول الحد من نفوذ الامم وقراطية وسيطرتها على الإدارة ولكن اصلاحاته لم

تلمس وجود البيروقراطية ذاته بل نفوذها فقط . كما حاول وقف التضخم الاقصادى بالحد من النفقات ومن التبذير ، كما حدد عدد رجال البوليس السرى واصلح نظام البريد ، وحاول اعادة الحياة الى المجالس البلدية (Curiae) كما اهتم جوليانوس بتثبيت القيمة المعدنية للنقود الرومانية خاصة نسبة الفضة بحيث لا يدع البرونز يطفئ عليها . وقد اولى جوليانوس اهتماما كبيرا لتطبيق العدالة بين الرعية واحيا بعض القوانين القضائية الوثنية التى كان اسلافه المسيحيون قد الفوها . وحفاظا على بسط العدالة وضمان سيرها حرص جوليانوس على اختيار موظفيه من الشباب الذين درسوا فنون البلاغة والخطابة فى المدارس الوثنية .

حملة جوليانوس ضد بلاد الفرس وموته ٣٦٣ :

لقد اثرت الافكار الوثنية فى شخصية جوليانوس لدرجة انه حاول تقليد الاسكندر الاكبر بمحاولة القيام بغزو بلاد الفرس وتعيين ملك موال للرومان عليها ، وبهذا يضع نهاية لاعتداءات الفرس على مملكة ارمينيا وبلاد ما بين النهرين . وفى عام ٣٦٣ قاد جوليانوس جيشا قوامه خمس وستين الف رجل عبر بهم نهر الفرات ومستعينا بحليفته ملك ارمينيا . ثم سار مخترقا ولاية بابل ثم عبر دجلة حيث احرز انتصارا على الفرس تحت حوائط كتي سيفون ولكن سرعان ما ظهر جيش سابور الذى جعل مهمة الجيش الرومانى شاقة . وقد تفهقر الجيش الرومانى بعد ان تلقى جوليانوس جرحا اودى بحياته فى يونيو سنة ٣٦٣ وليس من المستبعد ان يكون قد امتيل على يد احد رجاله الذين كانوا يسخطون من تحيز الامبراطور للوثنية ضد المسيحية وبموته انتهت اسرة قسطنطينوس الاكبر .

جوفيانوس يتولى الحكم : (٣٦٣ - ٣٦٤)

كان على القوات الرومانية ان تختار زعيما يقودها واجمع الجنود على اختيار قائد الحرس الخاص للامبراطور القليل وهو جوفيانوس . وقد تسرع جوفيانوس فعقد صلحا مهينا لكرامة الرومان مع الفرس من اجل ان يسرع الى الاراضى الرومانية ليدعم من مركزه الجديد فتنازل للملك سابور عن كافة الاراضى الواقعة شرق دجلة بما فى ذلك قلعة نيسيبس Nisibis (الحصن الشرقى لحدود الامبراطورية عند بلاد ما بين النهرين) ، كما تنازل عن ارمينيا الشرقية التى كانت محمية

رومانية كما تعهدت روما بدفع اعانة سنوية لمساعدة الفرس في حماية القوقاز من خطر هجوم القبائل البربرية .

وعلى النقيض من جوليانوس كان جوفيانوس مسيحيا ولهذا الفى كل القوانين المضادة للمسيحية التى كان سلفه قد أصدرها ولكن اكد على حرية العبادة للجميع وكان حكمه حكما مسالما فى عمومه . وبعد تسعة شهور مات جوفيانوس فى بيشينيا وبموته انتهت صفحة من الحكم وبدأ حكم اسرة جديدة .

الفصل الحادي عشر

حكم أسرة فالنتيانوس وثيودوسوس الكبير

٣٦٤ - ٣٩٥ ميلادية

حكم الأخوين فالنتيانوس الأول وفالنس :

بعد موت جوفيانوس اتفق قواد الجيش وكبار الموظفين على اختيار فلاقيوس فالنتيانوس وكان محاربا قديما يرجع اصله الى بانونيا ولم يتول من قبل مناصب عليا في الجيش وتحت الحاج الجيش بموجب اختيار شريك له بدرجة اغسطس أعلن فالنتيانوس عن اختيار أخيه الأصغر فالنس اغسطس . وبالعكس ديوقليديانوس وقسطنطينوس الكبير اختار فالنتيانوس الغرب ليجمعه مقر حكمه وجعل عاصمته ميلان .

ولم يمض وقت طويل حتى وجدت هذه الأسرة نفسها محاصرة بالعداء فالقوات الغالبة كانت لا تزال على ولائها لجوليانيوس كما كان هناك الانصار المعجبون بقسطنطينوس الأكبر وبيته ، والوثنيون كانوا لا يزالون يذكرون جوليانيوس وانصافه لهم ، ولهذا تجمعت هذه العناصر حول بريكوبيوس Pricopius احد كبار الشخصيات في عهد قسطنطينوس الأول واحد اصدقاء جوليانيوس في نفس الوقت ، بل يقال ان هذا الأخير كان ينوي اختياره خليفة وذلك قبل موته ، ومن ثم أعلن بريكوبيوس نفسه امبراطورا من القسطنطينية وذلك في نهاية عام ٣٦٥ ولم يلبث أن غزا تراقيا وبيثينيا وضمهما اليه . لكن جيشه هجره فجأة وانضم الى فالنس في عام ٣٦٦ ، بعد أن أعدم بريكوبيوس ، لكن حركته لم تمت لان أحد اصدقائه وهو ماركيلينوس Marcellinus حل محله وتجمع حوله انصار بريكوبيوس . لكن هذه الحركة الجديدة سرعان ما سحقت وقضى عليها فالنس .

فالنتيانوس الأول وحروبه ٣٦٥ - ٣٧٥ :

أولى فالنتيانوس الأول اهتمامه الأكبر لحماية الجبهة الغربية للامبراطورية خاصة بلاد الغال التي ساء وضعها بسبب غزوات الألمانى

والفرنجة والسكسونيين . ولذا قضى الامبراطور عشر سنوات في بلاد الغال ٣٦٥ - ٣٧٥ حيث استطاع بمساعدة قائده الشهير ثيودوسيوس ان يجعل بلاد الغال تستمتع بهدوء واستقرار لم يعرف لهما مثيل . كما قام ثيودوسيوس بتأمين ولاية بريطانيا من خطر القبائل الاسكتلندية . كما سحق ثورة اخرى قامت في بانونيا بزعامة رجل اسمه فالنتينوس .

وفي عام ٣٦٧ سقط فالنتيانوس فريسة لمرض طويل وشفى منه بعد مشقة ، ولهذا قرر تعيين ابنه الصبي جراتيانوس Gratian الذي كان لا يزال في التاسعة من عمره كأغسطس ثالث حتى يقطع خط الرجعة على الطامعين في العرش بعد موته . ثم شرع في تحصين جبهة الدانوب محصنا رايتيا وبانيا بالذات التي زارها بعد قيام ثورة قبائل الكادي Quadi في عام ٣٧٥ . وفي اثناء اجتماع مع زعماء الكادي انتاب الامبراطور غضب شديد اودى الى اصابته بأزمة قلبية قضت عليه .

وما ان اشيع نبأ موته حتى ثارت افريقيا التي كان الامبراطور قد اهملها فعانت من الغزو وسوء الادارة وانعدام الأمن حيث قاد فيرموس Firmus المراكشي ثورة في نوميديا وموريتانيا ضد الحكم الروماني ، ومن العجيب ان المستوطنين الرومان انضموا اليه تعبيرا عن سخطهم على ما يجري في الامبراطورية . ولكن القائد ثيودوسيوس سحق الثورة وقضى على فيرموس عام ٣٧٤ الذي اخذ حياته بيده ، ثم كشف ثيودوسيوس عن فساد الادارة الرومانية في افريقيا ولكن اصدقاء هؤلاء الذين فضحهم ثيودوسيوس تأمروا ضده ودرسوا بينه وبين القصر الامبراطوري فالصقت به تهمة وأعدم عام ٣٦٧ ولا نعرف من الذي دبر ذلك أهو فالنتيانوس أم جراتيانوس ؟

الامبراطور فالنس وحكم الشرق : ٣٦٥ - ٣٧٨ :

واجه فالنس منذ اول ايام حكمه غزوات القوط لاقليم تراكيا وقاومهم حتى هزمهم عام ٣٦٩ وأملى عليهم شروطه ، كما واجه سابوز الثاني ومحاولاته لاحتلال أرمينيا وصد محاولة الفرس لاحتلال بلاد ما بين النهرين . ولكن انتصارات فالنس في الشرق لم تكن حاسمة واضطر الى العودة عام ٣٧٧ الى اوربا لمواجهة خطر القوط المغيرين على ولايات الامبراطورية العربية .

القوط بهاجموا الامبراطورية ويحتلون الجبال :

يرجع سبب اندفاع القوط نحو حدود الامبراطورية الى تحرك قبائل

الهون Huns المونفولية من سيبيريا مندفعين نحو آسيا الصغرى وأوروبا وخاصة المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود دافعين أمامهم القبائل الجرمانية سواء في شرق أو وسط أوروبا . وفي عام ٣٧٣ غزا الهون مملكة القوط الشرقية (Ostrogoth) في أوكرانيا واستولوا عليها ثم هاجموا مملكة القوط الغربية (Visigoth) وعجزت الحكومة الرومانية عن صد القوط الهاريين من الهون فلجأت الى التفاهم معهم وفشلت ، فحاولت اغتيال زعماء القوط مما أدى الى اشتعال الحرب عام ٣٧٧ . وسار فالنس لصد القوط ولم ينتظر قوات جراتيانوس ابن أخيه التي كانت في طريقها لمساعدته وكانت النتيجة أن هزم جيش فالنس هزيمة ساحقة ولاقى الامبراطور حتفه بعد أن اتحد قوط الشرق وقوط الغرب ضده واحتلوا منطقة البلقان بأكملها .

فلسفة حكم فالنس وثالثتيانوس :

كان ثالثتيانوس الأوغسطس الأول بالنسبة لأخيه فالنس وابنه جراتيانوس بالرغم من أن القرارات كانت تصدر بأسماء ثلاثة تعبيراً عن وحدة الامبراطورية . ولكن ثالثتيانوس كان شخصاً بربرى السلوك عديم الثقافة ولذا عادى الطبقات المثقفة ونظر اليهم بعين الشك . كما كان يختار مساعديه من الاجلاف القساة الذين تركوا انطباعاً سيئاً بين الناس . وقد تأمل الامبراطور الارستقراطيين من طبقة رجال السناتو في روما بمنتهى القسوة لأن هذه الطبقة كانت تمارس شعائر السحر سرا وكان الامبراطور يخاف من السحرة والسحر ولذا اتهم هؤلاء الناس بالتآمر عليه وعذب وقتل عدداً كبيراً كما صادر اموال الكثيرين منهم ونفى آخرين .

واذا كان ثالثتيانوس قد اتبع سياسة العنف والجبروت ضد المثقفين والارستقراطيين فقد حاول ان يعين الفقراء من الفلاحين ورعاة المدن على مواجهة مشقة الحياة برفع ظلم جباة الضرائب عنهم وتأمين تطبيق العدالة عليهم بالرغم من انه اضطر تحت الحاح الحاجة الماسة لزيادة الضرائب حتى يتمكن من تدعيم خطوط الدفاع وحماية المدن واصلاحها واعادة تعميرها . ولم يفعل ثالثتيانوس ذلك الا بعد ان وجد ان الاموال التي صادرها من اعضاء السناتو والارستقراطيين لا تكفى لهذا الغرض حتى بعد ان طبق سياسة التقشف على قصره وبلاطه .

كما انه اعاد الانضباط الى الجيش بالعنف وجعل القوات تلتزم بالنظام التقليدي ، كما انه انعم بأسمى المناصب على كبار مساعديه من

الجرمان كما منحهم الالقاب الشرفية والامتيازات الخاصة . كما استمر في سياسة توطين البرابرة في المناطق المهجورة على الحدود .

اما فالنس فقد كان اقل بأسا من فالنتيانوس ، اذ كان ينقصه الشجاعة والارادة فعوض هذا النقص بالانغماس في الجرائم البشعة ، وكان عديم الخبرة بالعسكرية فضلا عن جهله التام بالثقافة وسعة الادراك لانه كان مثل اخيه لم يتلق تعليما قط في حياته . لم يكن لفالنس سياسة معينة فحذى حذو اخيه . وفي عهده تفلقت البيروقراطية في كل نواحي الادارة وتدعم نظام الطبقات المتوارثة . ومثل اخيه حاول الاخذ بيد الفقراء وتخفيف الضرائب عن كاهلهم بمراقبة جباة الضرائب للحد من جشعهم وفسادهم . كما نجح في اعادة الانضباط الى قواته بالحزم وادخل الكثير من قبائل القوط في الخدمة العسكرية .

ولما هدم الزلزال عام ٣٦٥ مدن شرق البحر المتوسط سارع بتقديم المعونات من اجل اعادة تعمير هذه المدن التي خربت . وبالرغم من ان النصف الشرقي الذي حكمه فالنس كان اغنى موارد من الشطر الغربي للامبراطورية الا ان النفقات العسكرية الباهظة ارهقت الخزانة وحرمت المواطنين من مزايا اقتصاد الامبراطورية القوي مثل تخفيف الضرائب وتقديم الخدمات المجانية للجمهور .

وبالرغم من ان فالنتيانوس كان مسيحيا اروثوذكسيا الا انه سلك سياسة التسامح الديني مع باقي الديانات الاخرى . ولم يعر الخلافات العقائدية اى اهتمام ، ولكنه اهتم باستخدام الكهنة في المحافظة على الروح المعنوية العامة وتطبيق العدالة . وقد تمتع الوثنيون بحرية العبادة الا انه حرم عليهم بعض الشعائر التي اعتبرها سحرا ودجلا ، اما فالنس فقد ورط نفسه في الصراع الكنسي لانه كان اريوسيا وحاول فرض هذا المذهب على الكنيسة الارثوذكسية واضطهد اعداء الاريوسية . اما سلوكه نحو الوثنيين فكان يتسم بالتسامح والحرية الا من بعض الشعائر الفاضحة مثل السحر والروحانية التي وقفت منها موقف العداء .

ثيودوسيوس الاول وصراعه ضد القوط : ٣٧٩ - ٣٨٢ :

كان فالنتيانوس قد عين ابنه جراتيانوس عام ٣٦٧ اغسطس شريكا له ، ولهذا عندما مات الاول تولى الثاني بلا منازع وحكم ولايات ابيه في اوربا الغربية . ولكن جراتيانوس كان صبيا في الابعة عشرة من عمره قبل الدراية بفنون الحكم وعديم الخبرة بالاستراتيجية وقيادة الجيوش

ولهذا تان العرب . في أيدي مستشاريه الذين أشاروا عليه بتعيين
الطفل فالنتيانوس الثاني وكان في الرابعة من عمره كأغسطس شريك له على
أن يتولى ولاية الليريكوم فقط ويحكمها بمساعدة أمه الوصية عليه وبمساعدة
قائد من الفرنجة اسمه ميروباوديس Merobaudes .

ولما مات فالنس عام ٣٧٨ استدعى جراتيانوس من أسبانيا ابن
الجنرال ثيودوسيوس الذي أعظم منذ ثلاث سنين وكان الابن معتكفا في
أسبانيا ، ومن الطريف أنه كان يحمل نفس اسم أبيه ، وعينه قائدا
للفرسان magister equitum ثم رقيه إلى درجة أغسطس عام ٣٧٩ ،
وكان ثيودوسيوس في الرابعة والثلاثين من عمره ولكنه كان متمرسا في
شئون الجيش والاستراتيجية . وكانت أول مهمة أوكلها جراتيانوس
إليه هو حكم ولايات الشرق وحل مشكلة القوط . وقد تغلب ثيودوسيوس
على هذه المشكلة بذكاء إذ أنه تجنب الدخول في مواجهة شاملة مع القوط
متعظا من الماضي ، ثم شجع القوط على أن يبقوا في بلادهم حتى يصفوا
أنفسهم بأنفسهم ، ثم لم يلبس إلى أن انتشر القوط على الدخول في خدمة
القوات الرومانية (١) ولما ضعف القوط عرض عليهم عام ٣٨٢ صلحا
يقضي بمنحهم الأراضي الواقعة بين الدانوب والبلقان ليحكموها كدولة
مستقلة ذات سيادة بشرط أن ترتبط بالامبراطورية عن طريق المعاهدات
وأن تمنحهم روما معونة سنوية من الفداء مقابل أن تجند منهم قواتها ،
وكان تصرفا غاية في الذكاء لأن ثيودوسيوس أدرك أنه من العبث بل من
المحال طرد القوط فلماذا لا يحتويهم في كيان الامبراطورية ويجندهم للدفاع
عنها ؟

ثيودوسيوس ينتقم لقتل جراتيانوس :

كان حكم جراتيانوس لولايات الغرب حكما فاشلا لأنه لم يكن مؤهلا
لهذا العمل مما شجع الثورة ضده ، وتمكن حاكم ولاية بريطانيا ماجنوس
ماكسيموس Magnus Maximus من تحريض قواته على الهتاف به امبراطورا
وظهرت رعونة جراتيانوس الذي أسقط في يده فهجرته قواته فهرب
وطاردته قواته حتى قتله . وأصبح ماكسيموس امبراطورا على بريطانيا
وبلاد الغال واسبانيا . وبعث إلى ثيودوسيوس يطلب منه الاعتراف بأنه
أغسطس شريك . ولما كان ثيودوسيوس في وضع لا يمكنه من تحدى

(١) E.A. Thompson : The Visigoth in the time of Ulfila Oxford, The
Clarendon Press, P. 78 ff.

ماكسيموس فقد تباطأ في الرد . ولكن ماكسيموس أعلن في عام ٣٨٨ تعيين ابنه فكتور قيصرًا ثم استولى على إيطاليا. وهرب فالنتيانوس الصغير إلى سالونيك .

وكان ثيودوسيوس في ذلك الوقت قد تزوج من شقيقة جراتيانوس واسمها جاللا Galla ومن ثم صمم على الانتقام لمقتل جراتيانوس من ماكسيموس . ولكي يتفرغ لذلك عقد صلحا مع الملك الفارسي سابور الثاني وهو ان تقتسم ولاية أرمينيا بين روما وملك الفرس . في هذه الأثناء كان الفرور قد ركب ماكسيموس فعين ابنه فكتور أغسطس وتلى ذلك هجومه على الليريكوم ووصل أسطول ثيودوسيوس إلى ميناء أوستيا بحمل فالنتيانوس في حمى قواته مما اضطر ماكسيموس إلى لتراجع عن إيطاليا وفي الليريكوم سحق ثيودوسيوس جيوش ماكسيموس وقضى عليه عند أكيلايا قرب بحر الأدرياتيك عم ٣٨٨ . ثم تقدم جنرال ثيودوسيوس واسمه أبروجاستوس Arbogastus إلى بلاد الغال . وأعدم فكتور ابن ماكسيموس . وهكذا انتهى ماكسيموس الذي حاول أن يقلد أباطرة الرومان في طريقة حكمه ولكن حاجته الشديدة إلى الأموال جعلته يلقى التهم إلى الأغنياء ويصادر أموالهم بعد قتلهم . كما أن سجنه للقوات التي كانت في بريطانيا أدى إلى هجر التحصينات الشمالية وأصبح بريطانيا غير محمية وبلا قوات .

ثيودوسيوس والقديس أمبروزيوس St Ambrose :

جعل ثيودوسيوس مقر حكمه في ميلان وأرسل فالنتيانوس الثاني إلى بلاد الغال ليحكمها في حماية قائده أبروجاستوس Arbogastus بينما جعل مقر ابنه أركاديوس الذي عينه أغسطس في عام ٢٨٣ - في مدينة القسطنطينية .

ولكن حدثت مواجهة بين ثيودوسيوس والكنيسة التي كان يتزعمها وقتئذ القديس أمبروزيوس Ambrosius عام ٣٨٨ وسبب الازمة أن رهبان كالنكيوم Callincium في بلاد ما بين النهرين حرضوا جمهورا من المسيحيين على مهاجمة المعبد اليهودي وحرقه انتقاما لصلب المسيح . ولما بلغ ثيودوسيوس الخبر غضب وأصدر أمرا إلى الأسقف سانت أمبروزيوس بأن يصلح المعبد اليهودي . وكان سانت أمبروزيوس أسقفا على ميلان . وغضب وأبى أن يصدر الامبراطور أمرا مهينا مثل هذا ورد بأن أنذر ثيودوسيوس بأن يسحب أمره والا سحبت الكنيسة القداسة من الامبراطور ورضخ ثيودوسيوس للأسف بالرغم من أنه أعلن أنه لا يريد

مستشارا له . ومرة أخرى حدث ان ثارت الفوضى في سالونيك وقتلت القائد الروماني بوثيريك Butheric لانه رفض اطلاق سراح أحد أبطال سباق الخيول وفقد ثيودوسيوس وعبه من الغضب ولهول الكارثة أصدر امره الى الحامية الرومانية بذبح السكان في سالونيك وقامت مجزرة قتل فيها ثلاثة آلاف نسمة . ولم يشعر الامبراطور بالندم الا بعد أن سبق السيف العزل . وجاءه انذار القديس امبروزيوس بأن الكنيسة سوف تطرد الامبراطور ما لم يعلن توبته وندمه على ما فعل ، ومضت ثمانية شهور والامبراطور يعاند ويكابر ثم أعلن اسفه وندمه تحت تأنيب ضميره واحساسه بعقدة الذنب وبهذا كسب الكنيسة سابقة بحقها في السيطرة على الامبراطور اى أن تخضع الدولة لقانون الكنيسة ، وأصبح من حق الاسقف ان يدين الامبراطور اذ ما خرج على القوانين الاخلاقية للكنيسة . وهذه بداية احدى ظواهر انعصور الوسطى .

انقلاب اربوجاستوس ويوجينيوس ٣٩٢ - ٣٩٤ :

كما سبق ان ذكرنا ، عين ثيودوسيوس الامير فالنتينيانوس حاكما على بلاد الغال تحت اشراف قائده اربوجاستوس ولكن عندما حاول فالنتينيانوس التحرر من سيطرة اربوجاستوس حدث صراع بينهما أدى الى طرد الامبراطور لهذا القائد الغالى الاصل ، ورفض اربوجاستوس اخلاء منصبه وتجمع الغاليون حوله . وفي أحد ايام شهر مايو عام ٣٩٢ عثر على فالنتينيانوس الثانى قتيلا فى قصر ، وأغلب الظن ان ذلك كان من تدبير اربوجاستوس الذى أعلن نفسه امبراطورا واختار احدى الشخصيات الرومانية وهو يوجينيوس شريكا له . وحاول يوجينيوس الحصول على اعتراف من ثيودوسيوس ورفض الاخير ، وامعانا فى رفضه أصدر قرارا بتعيين ابنه هونوريوس Honorius امبراطورا مكان فالنتينيانوس وذلك فى عام ٣٩٣ . وادى ذلك الى صراع . اذ سارع يوجينيوس واحتل ايطاليا حيث رحبت به بقايا الارستقراطية الوثنية فى روما وأعلنت اسبانيا تأييدها له وحذت افريقيا حذوها . وسارع ثيودوسيوس على رأس قواته وعند نهر فريجيدوس Frigidus فى شمال ايطاليا تقابلت القوات واحرز نيودوسيوس نصرا اذ سقط يوجينيوس صريعا وهرب اربوجاستوس يائسا الى ان اخذ حياته بيده (١) وتوحدت الامبراطورية اخيرا تحت قيادة نيودوسيوس ولكن لم يعيش طويلا ليستمتع بذلك النصر اذ وافته منيته فى ميلان فى مطلع عام ٣٩٥ .

A. Cameron, Harvard Studies in Classical Philology, LXXIII, 1968, (١)
p. 251.

تقييم ثيودوسيوس الكبير وسياسته :

لقد نجح ثيودوسيوس في تحقيق سيادة الامبراطورية على كافة ممتلكاتها (١) بفضل الذكاء مثل الواقعة بين قيادة القوط وبفضل اعتماده على خبرة رجال محنكين مثل قائد الحرس البرايتورى روفينوس Rufinus والجنرال ستيليكو Stilicho ، لكن بالرغم من هذا لم يستطع ثيودوسيوس بكل ذكائه وحنكته لامن وقف تدهور الامبراطورية . ولامن معالجة المشاكل التى كانت تعصف بها مثل النقص فى القوى البشرية وانتشار الفقر والفساد والرشوة وتغلغل البيروقراطية وانتشار نفوذ الاقطاع وتدهور المدن وهجرة الناس منها . لقد نجح هذا الامبراطور فى قبول الامر الواقع وانتسليم بحق القوط فى انشاء دويلة مستقلة داخل الامبراطورية ، وبذلك خلف تركة مثقلة من المشاكل لمن يأتى بعده . وكان القوط يسكنون المنطقة الواقعة شمال الدانوب فى المنطقة المعروفة باسم داكيا Dacia (رومانيا حاليا) وبدأوا يتعودون على حياة الاستقرار والتحضر هناك حتى أصبحوا فى حوالى عام ٢٧٠ شعبا متحضرا وانتشرت المسيحية بينهم . لكن سرعان ما بدأت قبائل الهون التى تقطن فى سيبيريا والتى نشرت الرعب فى قلوب اهل الصين القدماء وهى قبائل منغولية الاصل . هذه القبائل بدأت تزحف غربا وعبرت نهر الفولجا واستولت على الشواطىء الشمالية للبحر الاسود دافعين القوط امامهم مما دفع القوط الى عبور الدانوب ليجدوا لانفسهم مكانا داخل الامبراطورية الرومانية وعلى حسابها .

ويعاب على ثيودوسيوس انه تملق القوات العسكرية نظرا لحاجته الشديدة اليها بسبب النقص فى القوى البشرية وهذه السياسة اضرّت بالامبراطورية مستقبلا وساهمت فى اسقاطها . كما ان ثيودوسيوس اعتنى بعاصمته القسطنطينية وبالغ فى تجميلها واعتنى بقصره واغرق نفسه وبلاطه فى البذخ والترف اشرقى دون مراعاة للأزمة الاقتصادية .

لقد كان ثيودوسيوس مسيحيا وعمد وهو طفل ولهذا الفى الديانة الوثنية وحول المعابد القديمة الى كنائس . وكان مسيحيا ارثوذكسيا متطرفا مؤمنا بأن واجبه هو وحدة الدولة تحت قداسة العقيدة ولهذا حاول ضرب الوثنية والطوائف المسيحية الاخرى التى تثير الفرقة والهرطقة ، بالرغم من انه كفل لليهود حرية العبادة - ووقف الى صفهم عندما تعرض لهم الرهبان المتطرفون فى بلاد ما بين النهرين . كما وضع تقليدا جديدا بأن من حق الامبراطور ان يرعى العقيدة وأن يتدخل فى شئون الكنيسة بالرغم من انه يخضع لها . ولهذا قدره المسيحيون الارثوذكس ولقبوه بالكبير .

A. Lippold : Theodosius der Grosse und Seine zeit (Urbanbueche, (1) 107), Stuttgart, Kohlhammer, 1968, p. 80 ff.

الفصل الثاني عشر

سقوط الامبراطورية في الغرب

واستمرارها في القسطنطينية ٣٩٥ - ٤٧٦

تقسيم الامبراطورية الى شطرين منفصلين :

كان ثيودوسيوس قد عين ولداه هونوريوس البالغ من العمر احدى عشر سنة امبراطورا على الولايات في الغرب ، واركاديوس البالغ من العمر ثمانية عشر سنة امبراطورا على الشرق ، ولكنه بعد موت ثيودوسيوس ثبت ان هذين الاميرين لم يكونا على مستوى المسؤولية والقدرة على الحكم ولهذا وقعا تحت سيطرة وتأثير وزرائهما الجرمان . فهيمن على الشطر الشرقى للامبراطورية روفينوس القائد البرايتورى ولاية الليريكوم بينما هيمن على الغرب ستيلكو القائد الواندالى للجيش والذي كان ثيودوسيوس قد اختاره وصيا على ابنه هونوريوس .

ولما حاول ستيلكو الواندالى استعادة ولاية الليريكوم للغرب نشب صراع بينه وبين روفينوس وزير اركاديوس ادى الى انقسام الامبراطورية الى شطرين منفصلين ومستقلين ومتنافسين . ولم يبق من وحدة الامبراطورية سوى موضوعات اسمية مثل تنصيب تماثيل الامبراطورين معا في كافة انحاء الامبراطورية ، أو الاتفاق على تعيين قنصلين احدهما يحكم في روما والآخر في القسطنطينية ، لكن فيما عدا ذلك اصبح لكل شطر وضعه المستقل وسيادته وادارته المستقلة ، فمثلا قبل عام ٣٩٥ كان بتوجب على الامبراطور ان يأخذ موافقة الامبراطور الآخر قبل تولى الحكم - اى ما يعرف بالاعتراف المتبادل ، لكن اهمل ذلك التقليد منذ ذلك التاريخ واصبح كل شطر يصدر تشريعاته بما يتناسب وظروفه ، ولم يعد مقيدا بنشر هذه التشريعات في الشطر الآخر للامبراطورية . كما لم يعد الاغسطس الآخر في عرش الامبراطورية كما كان قديما بل اصبح لكل شطر وريث لا علاقة له بالشطر الآخر ، وخلاصة القول اصبحت الامبراطورية

فعليا منقسمة الى شطرين مستقلين ويمكن ان نسميهما دولتين لكل منهما سيادة مستقلة .

كما شهدت هذه الفترة انهيار الامبراطورية في الغرب وعجزها عن صد ومقاومة الغزاة الجرمان الذين استولوا على ايطاليا ، واصبح العنصر الجرمانى هو الذى يحكم بينما انزوى العنصر الرومانى ، وانقلبت الآية واصبح الحكام والملوك جرمان وتحول الرومان الى رعايا من الدرجة الثانية ونشأت مملكة جرمانية في ايطاليا ونصب قائد جرمانى نفسه ملكا عليها (١) .

وقد صاحب هذا كله ظاهرة الطغاة العسكريين البرابرة الذين كانوا يتحكمون في مصير الولايات الغربية عن طريق القوات التى يملكون زمام قيادتها ، بل اصبح مصير الاباطرة في يد هؤلاء القادة العسكريين الجرمان الذين تحولوا الى صانعى الملوك والاباطرة ، وقتلتهم في نفس الوقت ، واصبحوا يحكم منصبتهم يتمتعون بالقب الشرف العليا وكان هؤلاء القوات هم المتحكمون الفعليون في الامبراطورية واضحت سلطة الاباطرة اسمية فقط . ولما كان معظم هؤلاء القواد العسكريون اما برابرة او العوبة في يد البرابرة الجرمان فقد وجدوا معارضة من الشعب ومن كبار الموظفين الاداريين في الدولة ، واصبح هناك صراع دائم بين السلطة المدنية والعسكرية ، ولم تنجح السلطة المدنية الرومانية في وقف سيطرة السلطة العسكرية الجرمانية والحد من سلطات قواد اجيوش لانه كلما تخلصوا من قائد عسكري ظهر آخر ، فضلا عن حاجة المدنيين الى هؤلاء القواد الجرمان لصد الغزوات الجرمانية عن حدود الامبراطورية .

نجاح الامبراطورية الرومانية في الشرق :

وبينما كانت الامبراطورية الغربية تفرق تحت سيطرة العنصر الجرمانى نجحت الامبراطورية الشرقية من خطر الغزاة ونجحت في فرض سيطرتها ونفوذها على مقاطعاتها ، والقضاء على حركات الانفصال المحلية التى كان يشيرها كبار الاقطاعيين وكبار القواد العسكريين الاجانب . ويرجع ذلك الى كفاءة الحكومة الشرقية في تنظيم الحكم الداخلى بصورة افضل بكثير من الوضع الذى كان يسود في الشطر الغربى للامبراطورية . ففي الغرب كانت ادارة الهيئات ومناصب كبار الموظفين وقفا على دائرة ضيقة ومحدودة بين ذوى النفوذ ممن ينتمون الى الطبقة الاوليجارخية السيناتورية

M. Waas, Germanen in roemischen Dienst (in 4 Jahr.) 2nd edition, (١)
Bonn. R. Habelt, 1971.



الدينية ، وكان رجال هذه الطبقة يهتمون قبل أى شىء آخر بمصلحتهم الشخصية مثل استثمار أموالهم وتشجيع قيام الاقطاعيات بصورة اساءت الى اقتصاد البلاد . اما فى الشطر الشرقى فقد حدث عكس ذلك تماما فالوزراء وكبار هيئة الموظفين كانوا من اصول اجتماعية متواضعة كما كانوا مرتبطين بالجهاز البيروقراطى الذين انى بهم الى الحكم وليس لاغراضهم الشخصية وان كان بعضهم مرتشين وفسدة .

كذلك نجحت الامبراطورية فى الشرق فى فرض الانضباط على الجيش بوضع القيادة العليا فى يد أكثر من قائد وعدم تركيزها فى يد شخص واحد كما نجحت الامبراطورية الشرقية فى تصفية الجيش من العناصر البربرية والحفاظ على نقائه بحركات الطرد والتطهير الدائمة ، ثم بالاهتمام بتجنيد ابناء المناطق المتحضرة مثل مناطق البلقان وآسيا الصغرى وارمينيا .

وكان من حصيلة هذا كله ان برزت الامبراطورية الرومانية فى الشرق قوية مدعمة ، واصبح اباطرة الغرب يتلفون على رضاها وحمايتها، بل وصل الامر ان امبراطور الشرق اصبح هو الذى يعين امبراطور الغرب ولا يجوز لاي امبراطور فى الغرب ان يحكم بدون موافقة القسطنطينية .

آلاريك يحتل روما : ٤١٠ :

يقول جييون أن حكم اركاديوس وهونوريوس ابناء ثيودوسيوس الحق اعظم الاذى بالامبراطورية لانهما تركا الكنيسة للرهبان والدولة للأوليجارخيين والولايات للبرابرة الجرمان (١) .

وقد حاول ستيلكو جاهدا وقف زحف القوط بقيادة الاريك ونجح فى ذلك ، ولكن نجد الامبراطور هونوريوس يأمر فجأة بقتل ستيلكو عام ٤٠٨ مع الكثير من اعوانه وذلك بتحريض من الوزير اوليمبيوس الذى وشى به عند الامبراطور بأنه يتآمر على العرش وذلك بالتواطىء مع القوط الغربيين ؛ ولاذ بالفرار عدد من انصار ستيلكو ولجأوا الى زعيم القوط الغربية آلاريك Alaric ، وقد انتهز هذا الزعيم القوطى الفرصة فطالب هونوريوس بالاسراع فى دفع الاتاوات التى كانت تقدر بحوالى أربعة آلاف

Gibbon (Abridgement of Low, Middlesex 1966), p. 40.

(١)

P. Rich, «Grandes invasions et empires», Larousse Paris, 1968 Universitaires de France, 4 ème edition 1968 ; P. Courcèlle : Histoire Littéraire des grandes invasions germanique, 3 ed. Paris, Etudes, Augustiniennes, 1964.

دينار ، كما طلب الآريك ان يعين حاكما على ولايات الادرياتيک الشمالية ، ولما رفض هونوريوس طلبه زحف على روما وحاصرها حصارا شديدا حتى المجاعة ، ووصل الحال ان قتل الناس بعضهم البعض من اجل كسرة من الخبز (١) عندئذ قام سكان روما بالتفاوض مع الآريك من اجل الصلح . واشترط الآريك ان يسلموه كافة ثرواتهم المنقولة . ويروى ان الوفد المفوض تساءل ماذا يتبقى لنا ؟ فأجاب الآريك « يتبقى لكم ارواحكم » . واخيرا تم الاتفاق على عقد هدنة مقابل حصول الآريك على خمسة آلاف رطل من الذهب والالف رطل من الفضة واربعة آلاف ثوب حريري وثلاثة آلاف رطل من التوابل (٢) . غير ان الهدنة لم تستمر طويلا عندما قبل الرومان احد اعدائه القارين راسمه ساروس Sarius وضموه الى صفوفهم املا في ان يقودهم ضد جيش الآريك . فاعتبر الآريك ذلك التصرف خرقا لنصوص الاتفاقية فاقترح روما عام ٤١٠ وابعاح اموال سكانها على مدى ثلاثة ايام فيما عدا حرية الكنائس ، والقي القبض على آلاف الاسرى ومن بينهم الأميرة جالا بلاكيديا (٣) Gala Placidia شقيقة الامبراطور ثم غادر روما في اليوم السادس متوجها الى جزيرة صقلية لفتحها وللمبور الى افريقيا ولكن منيته وافته هناك فدفن في مكان يقال له كوزانزا وسط شعائر دينية تليق بمكانته بين القوط .

كان وقع سقوط روما عنيفا ومؤثرا على نفوس الرومان لان هذه المدينة لم تسقط قط حتى عندما غزا هانيبال ايطاليا واعتبروها كارثة معنوية وعسكرية ودينية وفوق كل شيء سياسية اذ علت اصوات الاحتجاج من الوثنيين بأن اللوم يجب ان يوجه الى اولئك الابطارة الذين ضحوا بالمعتقدات الرومانية والتراث الروماني الذي صنع الامبراطورية في سبيل ديانة غريبة وافدة من الشرق الاوسط وقالوا اين ذهب رب المسيحية ولماذا عجز عن حماية المدينة من البرابرة ؟ ومن ثم ظهرت موجة نقد شديدة ضد المسيحية واتهمت بأنها السبب في تشييط روح الامة وقتل الطموح السياسى والقومى في نفوس الرومان وتحويلهم الى اناس سلبين اذا صفهم احد على خدمهم الايمن اعطوه الايسر ومن ثم وجد انصار الوثنية في المسيحية كبش الفداء واتهموا تعاليمها بأنها سبب الكارثة، ولذا نجد القديس اغسطين ينبرى للدفاع ويرد على هذه الاتهامات ويفند

(١) A. Piagnoni, «Le sac de Rome (memorial des Siecles), Paris, Albin Michel, 1964, p. 398.

E. Gibbon, op. cit., p. 445.

(٢)

S.I. Oost, «Galla Placidia Augusta, A Bibliographical essay, Chicago University Press, 1968.

(٣)

مزاعمه في كتابه الخالد مدينة الله Civitas Dei .

القوط يحتلون بلاد الغال واسبانيا :

خلف الاريك شقيق زوجته اتولف Ataulf كأمير على اتحاد إمارات القوط الغربية ، وقاد اتولف قوات القوط صوب بلاد الغال عام ٤١٢ ، ويبدو أنه لم يكن في نية القوط الغربية إسقاط الامبراطورية ولكن وراثتها واقتطاع اجزاء من اراضيها وامتصاص خيراتها ، وقد تمكن اتولف ان يحقق ما يريد ، وعندما حاول التفاهم مع الرومان رفض قسطنطينوس قائد الفرسان والدي راح يقاوم القوط ، واخيرا وافق اتولف على الانسحاب من ايطاليا مقابل ان يتزوج بلاكيديا Placidia شقيقة الامبراطور هونوريوس وان يحتل مناطق الغال الجنوبية بشرط ان يصبح تابعا للامبراطورية ووافق هونوريوس على زواج جاللا بلاكيديا لأنها كانت في يد القوط منذ ان دخلوا روما ، ولأن الأميرة نفسها وافقت على الزواج من اتولف كما وافق هونوريوس على اقتطاع الاجزاء الجنوبية من بلاد الغال لحكم اتولف وبالفعل اقام هذا الاخير عاصمته في تولوز عام ٤١٤ .

ثم انسحب اتولف وقواته من بلاد الغال عبر البرانس الى اسبانيا وهناك وافته منيته عام ٤١٥ وخلفه واليها Vallia الذي فشل في غزو ايطاليا بسبب المجاعة التي تعرضت لها قواته فقبل الصلح مع الرومان وبمقتضى هذا الصلح أعاد جاللا بلاكيديا الى أخيها الامبراطور هونوريوس حيث تزوجت من قسطنطينوس قائد الفرسان وانجبت منم طفلا هو فالينتيانوس الثالث والذي أصبح امبراطورا فيما بعد . وكان من شرط الصلح ايضا ان يعمل واليها لصالح الرومان ، ويطارد قبائل الوندال التي كانت قد اقتطعت لنفسها بعض اجزاء اسبانيا ، ونجح واليها في ذلك مما اثار عليه حقد قسطنطينوس قائد الفرسان فاستدعاه الى بلاد الغال حيث وافق على توطينهم في منطقة اكويتانيا وهي المنطقة الواقعة جنوب غرب بلاد الغال .

قيام مملكة القوط في بلاد الغال :

حكم القوط بلاد الغال على النسق الخاص بهم ، وهو اقامة ممالك صغيرة ولكن متحدة فيدراليا Foederati فيما بينها ومرتبطة مع روما بمعاهدات وبشرط الا يكون للملك القوط اى سلطة على المواطنين الرومان المقيمين داخل المناطق التي احتلها القوط من بلاد الغال . ولم يعجب هذا الشرط القوط وطالبوا بأن يكون لهم مملكة مستقلة ذات سيادة .

ولما جاء ثيودوريك الأول Theodoric ابهر الرومان على الامبراطور الاموري بمملكة القوط في اكويتانيا . وحاول احتلال بلاد الغال النربونية ولكنه فشل ، ولما وجد روما تستعد لمواجهة اتيلا Attila ملك قبائل الهون السيبيرية انضم الى روما وكان من نتيجته ذلك ان وقف ضد اتيلا وصده في معركة سهل موريك عام ٤٥١ . وفيها سقط ثيودوريك صريعا . وقد احس الرومان باخلاص ثيودوريك ولهذا سادت علاقة من الوثام بينهم وبين القوط لفترة وجيزة .

ولما تولى يوريك Euric الملك عام ٤٦٦ عاد العداء القديم ضد الرومان وبدا القوط يتوسعون وتمكن يوريك عام ٤٧٥ من احتلال المنطقة الواقعة من المحيط الاطلنطي غربا الى سهل الرون واللوار والبرانس شرقا فضلا عن بعض مناطق اسبانيا لشمالية واعترف الامبراطور الروماني بهذا الحق . وبعد مرور عامين من هذا الاحتلال توسع القوط الغربيون Visigothic فاضافوا اليهم المنطقة الواقعة بين وادي الرون والالب .

قبائل الوندال تهاجم ايطاليا وتحتل اسبانيا :

كانت حكومة الامبراطورية قد سحبت حاميتها من مناطق الحدود النائية لتقليص حدود دفاعاتها والتركيز على حماية روما وذلك اثناء تهديد القوط لها . وقد انتهزت بعض القبائل الجرمانية هذه الفرصة واندفعت الى داخل حدود الامبراطورية . ومما ساعدهم ان بعض المتنافسين على السلطة من الرومان استعانوا في بعض الاحيان بهذه القبائل من اجل الوصول الى (١) اطماعهم السياسية .

وكان الونداليون من اوائل تلك القبائل التي نفذت الى بلاد الغال ثم اسبانيا ومنها الى افريقيا .

كان اول هجوم شنه الونداليون على ايطاليا عام ٤٠٥ ولكن ستيلكو صدهم ، وفي العام التالي هاجمت موجة اخرى من الونداليين بالتعاون مع قبائل السويفي Suevi منطقة الراين وعبرت النهر بالقرب من ماينز Mainz وتوغلت في بلاد الغال حتى البرانس ، وفي عام ٤٠٩ تسللوا من بلاد الغال الى اسبانيا التي سرعان ما سيطروا على شبه جزيرة ايبيريا كلها . وتحت وطأة نقص العتاد والمؤن اضطروا الى التصالح مع الامبراطورية الرومانية في الغرب الاوروبي واصبحوا حلفاء تعاهدين Foederati معها

(١) Procopius, History of the Wars, III, (Loeb Classical library, London)

عام ٤١١ ، ومنحوا حق الاستيطان ، وبناء على هذا التصالح اجتلس الوانداليون وقبائل السويفى المنطقة الشمالية الغربية من شبه جزيرة ايريا بينما استوطنت قبائل السلنجان Silingian منطقة الوسط . ولكن الحكومة الرومانية اعتبرت الوانداليين ضيوفا غير مرغوب فيهم وراحت تنحين الفرصة لطردهم . ففى عام ٤١٦ كلف الامبراطور قسطنطينوس الزعيم القوطى واليا Wallia بمهاجمة الوانداليين وكاد واليا ان يقض على الواندال لولا استدعاء قسطنطينوس لهذا الزعيم قبل ان يتم مهمته . ولم يمض وقت طويل حتى استرد الوانداليون قوتهم وهاجموا قبائل السويفى التى كانت تتعاون مع الرومان واحتلوا اسبانيا كلها .

مملكة الوانداليين فى افريقيا :

وفى عام ٤٢٩ غادر الوانداليون اسبانيا تحت قيادة جايسيرك Gaisaric وعبروا مضيق جبل طارق الى افريقيا التى كانت احدى المصادر الحيوية للقمح الذى تعيش عليه الامبراطورية الرومانية ، ومن الواضح ان غنى هذه المنطقة بالقمح والكروم وزيت الزيتون هو الذى اغرى الوانداليين لفزوها . ولم يجد هؤلاء الفزاة مقاومة تذكر بسبب تدخلهم فى الصراع الذى كان قائما بين الكونت بونيفاكوس Bonifacius الحاكم العسكرى لولاية افريقيا والامبراطور فالنتينوس الثالث . ويقدر عدد القوات الوندالية التى غزت افريقيا بثمانين الفا ولا يقل عدد القتلى منهم عن مائة وخمسين الفا . وبالرغم من تصالح الكونت بونيفاكوس مع الامبراطور فالنتينوس الا ان الوانداليين رفضوا الانسحاب بل على العكس قادهم جايسيرك محاولا احتلال المدن الحيوية فى شمال افريقيا ولكنه فشل واخيرا عقد الصالح بين الامبراطورية والونداليين عام ٤٣٥ وسمحت الامبراطورية للونداليين باحتلال نوميديا بشرط ان يصبحوا -لغناء تعاهدين Foederati للامبراطورية . ولكن جايسيرك نقض الاتفاق واحتل قرطاجنة عام ٤٣٦ ، بل انه كون قوة بحرية وراح يهاجم شواطئ صقلية . ومرة اخرى اذعن الامبراطور فالنتينوس الثالث واعترف بمملكة الوانداليين فى شمال افريقيا . وساد السلام مؤقتا حتى عام ٤٥٥ .

ولما اغتيل الامبراطور فالنتينوس الثالث عام ٤٥٥ واستنجدت ارملة الامبراطور بالونداليين ضد خصومها ، انتهز جايسيرك القائد الوندالى الفرصة وهاجم ايطاليا واحتل روما ومكث فيها احدى عشر يوما ونهب معابدها وكنوزها ودمر شطرا كبيرا من مبانيها ومرافقها واسر عددا من وجهائها من بينهم يودوكسيا Eudoxia ارملة فالنتينوس الثالث وبناته

واخذهم معه كرهائن يملئ بهن شروطه : ولولا جهود البابا ليو الاول لتضاعفت أعمال جايسيرك الاجرامية (١) .

لقد ساعد التباعد وعدم التعاون بين الامبراطورية الشرقية والغربية الوانداليين على التوسع . واصبح اسطولهم يسيطر على البحر المتوسط ويهاجم وينهب موانيه الشرقية والغربية . ولما حاول الامبراطور الشرقى ليو الاول Leo, استعادة افريقيا لاقى هزيمة بشعة واجبر خليفته زينون Zeno على الاعتراف بحق الوانداليين فى احتلال المناطق الواقعة تحت سيطرتهم . وعندما مات جايسيرك عام ٤٧٧ ترك مملكة شاسعة للونداليين تشمل كل ولاية افريقيا الرومانية وجزر الباليار Baleares الواقعة فى البحر المتوسط بين موريتانيا واسبانيا وكذلك جزر كورسيكا وسردينيا الواقعة الى الشرق من جزر الباليار وكذلك قلعة ليليبايوم Lilybaeum الواقعة فى الركن الشمالى من جزيرة صقلية .

ولكن بعد موت جايسيرك تفرقت الوحدة الوندالية وقامت الفتن بين ورثته مما اضعف الدولة الوندالية فى شمال افريقيا . كما ان سياسة الاضطهاد الدينى التى اتبعوها ضد اتباع كنيسة روما وتعسفهم فى جباية الضرائب زادت السخط عليهم حتى تمكن الامبراطور جستنيانوس بمساعدة قائده بليساريوس من تقويض حكم الوندال وذلك عام ٥٤٣ (٢) .

ممالك البورجونديين والفرنجة والسكسون :

تلى هجمة الوندال على بلاد الغال عام ٤٠٦ هجمات برية اخرى قادها قبائل البرورجونديين Burgundians والفرنجة الساحليين والامان Alamanni وسيطر الالمان والفرنجة على الجانب الغربى لنهر الراين بينما توغل البورجونديون جنوبا ولكنهم هزموا على يد ايتيوس Aetius القائد الرومانى على بلاد الغال وارغموا على الدخول فى تحالف تمهدى مع الامبراطورية وذلك فى عام ٤٣٣ وسمح لهم باستيطان منطقة ساقوى Savoy وحول بحيرة جنيف . ولكنهم راحوا يتوسعون منذ عام ٤٥٧ حتى احتلوا وادى الرون كله حيث شكلوا مملكة عرفت باسمهم .

ولكن على العموم بقى البورجونديون حلفاء مخلصين للرومان . ففى

(١) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe, 476-911, A.D. (1) (London 1960), p. 28.

(٢) انظر دكتور عبد القادر احمد اليوسف - العصور الوسطى الاوروبية - سلسلة دراسات تاريخية ٢ - المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٩٦٨ ص ٤٦ - ٤٧ .

عام ٤٥١ انضموا للحرب ضد اتيلا Attila تحت قيادة ايتيوس وابلوا بلاء حسنا . وكان ملوك البورجونديين يحملون لقب سيد الجند *magister militum* حتى عهد جندوباد Gundobad (٤٧٣ - ٥١٦) الذي منحه الامبراطور اولبيريوس Olybrius لقباً نبيلاً .

أما قبائل الفرنجة الساليانية (الذين كانوا يسكنون الاراضى الواطئة حول نهر سالا) فقد عبروا الراين قبل عام ٣٥٠ ، واحتلوا منطقة توكساندريا Toxandria ، وبقوا فيها كحلفاء تعاهديين مع الرومان وكانوا مخلصين لهم لانهم حاربوا معهم ضد الهون عام ٤٥١ . وظل ملكهم تشنلديريك وفيما لروما حتى موته عام ٤٨١ . ولكن خليفته كلوفيس Clovis توسع في وادى اللوار وبذلك أصبحت بلاد الغال كلها تحت سيطرة قبائل الفرنجة الجرمانية .

أما بريطانيا فقد تركها الرومان عندما انسحبوا منها في نهاية القرن الرابع ذلك عندما اضطر ستيلكو الى استدعاء القوات من بريطانيا لحماية ايطاليا وذلك في عام ٤٠٢ ، ولما أعلن قسطنطينوس نفسه امبراطورا اصطحب معه البقية الباقية من القوات الى بلاد الغال ليفرض نفسه ويحصل على اعتراف رسمى بمركزه . ولما انشغلت روما بالصراع مع القبائل المهاجمة لبلاد الغال أهملت بريطانيا ، ومن ثم كان على سكانها ان يعتمدوا على انفسهم في حماية انفسهم . واخيرا تنبعت الامبراطورية الى هذا الخطر فأعادوا الحماية الرومانية في بريطانيا تحت قيادة ضابط كبير Comes Britanniarum ولكنها لم تصمد في مواجهة القبائل الانجليزية والسكسونية وقبائل الجوت Jutes الذين بدأوا يستوطنون الجزيرة منذ عام ٤٢٨ واضطرت الحماية الرومانية الى التقهقر والانسحاب من الجزيرة حوالى عام ٤٤٢ ، ولم تعد اليها روما ابدا منذ ذلك التاريخ . حتى عندما استنجد السكان بالامبراطورية ، من زحف القبائل عليهم . واستمرت عمليات تدفق القبائل الانجليزية والسكسونية والجوتية على الجزيرة خلال قرن ونصف قرن ، وادى القتال خلالها الى اختفاء ملامح الحضارة الرومانية فيها واختفت اللغة اللاتينية تدريجيا منها ومعها كل التراث الذى حاول الرومان تسميته عبر اربعة قرون من الاحتلال .

آخر الاباطرة الذين حكموا روما في الغرب :

١ - الامبراطور هونوريوس : ٣٩٥ - ٤٢٣

كما سبق ان ذكرنا خلف ثيودوسيوس ابنه الامبراطور هونوريوس

منفصلة الى ان اتحدت فيما بينهم عام ٤٤٤ تحت قيادة ملك قوى اسمه
آتيلا . ويزعمه هذا الملك القوى دفع الهون القبائل الجرمانية الى الورا
عبر الدانوب واحتل اراضيهم كما فرض سيطرته على اهل سكيثيا .
ويعتبر آتيلا من اقوى الحكام في اوربا آنذاك ، فكانت تدفع له الاتاوات
من شطرى الامبراطورية الشرقى والغربى وقدر جيشه بنصف مليون
مقاتل وعاث خرابا في منطقة البلقان (١) .

لم تستمر الصداقة بين آتيلا واتيوس طويلا لأن ملك الهون كان
ذا طموح لا يحده حدود ، ويتطلع لاحتلال بلاد الفال كلها ، ويروى عن
السبب المباشر لتحركه نحو الغرب ان هونوريا Honoria شقيقة الامبراطور
فالنتينيانوس الثالث كانت قد نفيت من روما الى القسطنطينية بسبب
فضيحة اخلاقية ، ومن القسطنطينية ارسلت هونوريا « خاتمها » الى
آتيلا طالبة منه التدخل لانقاذها ، فظن الملك البربرى ان ذلك يعنى انها
تقترح ان يتزوجها لذا طالب اخاها ان يوافق على زواجه منها وان يدفع
له دوة قدرها نصف الامبراطورية الغربى ولما رفض الامبراطور هذا
الطلب قاد آتيلا قواته وعبر الراين مندفعاً الى بلاد الفال التى توغل
فيها عام ٤٥١ . عندئذ شعرت القبائل الجرمانية ان مصيرها هو مصير
الرومان ولذا تكونت جبهة من الرومان والفرنجة والقوط الغربيين بقيادة
آتيوس وتمكنت من هزيمة آتيلا في موقعة شالون Chalon عام ٤٥٢ ،
غير ان هذه الهزيمة لم تكن قاضية بالنسبة للهون ، اذ انه اجتاح ايطاليا
مدمرا العديد من مدنها الشمالية ثم زحف على روما عام ٤٥٢ . وتتحدث
المصادر الكنسية عن المعجزة السماوية التى حققها البابا ليو الثالث عندما
انزل الرهبة بصليبة وردائه الابيض في قلب آتيلا فقبل الانسحاب ،
ولكن الحقيقة هى ان آتيلا انسحب تحت وطأة المجاعة والطاعون ، وتحت
ضغط قوات آتيوس وخوفا من وصول امدادات من القسطنطينية
للرومان . ولهذا استمع الى الوفد الرومانى بقيادة البابا ليو الثالث
وانسحب دون ان يحتل روما .

ومات آتيلا عام ٤٥٣ وسرعان ما دب الخلاف بين اولاده ادى الى
حروب اهلية بين قبائل الهون ، كما ثارت عليهم القبائل الجرمانية التى
كانوا قد اخضعوها خاصة قبائل القوط الشرقية والتى استعادت قوتها
عام ٤٥٤ ومن ثم انهارت امبراطورية آتيلا من بعده وذبلت قوة الهون .

W. Durant, The Age of Faith, 325-1800, A.D. (New York, 1950), (١)
p. 33 f.

لكنه قبل اخيرا تسريح هذه القوات مقابل أن يمنح لقب كونت على بلاد الغال . وحصلت بلاكيديا لأول مرة على لقب امبراطورة Augusta وظلت تحكم حتى موتها .

٣ - ايتيوس :

يلعب ايتيوس الدور الاساسى ابان حكم ثانتينوس الثالث ويعرف ايتيوس بأنه آخر الشخصيات الرومانية اللامعة . وقد أصبح ايتيوس نجما على مسرح الاحداث بعد عام ٤١٩ عندما نخلص من منافسه فيلكس Felix الذى حاول أن يرث مكانه كاستينوس قائد الجيش ، وسرعان ما تولى ايتيوس هذا المنصب وأصبح الامبراطور الفعلى على ولايات الغرب . ولما خشيت بلاكيديا اغسطا . نفذته دبرت مؤامرة للقضاء عليه فاستدعت الكونت بونيفاكوس حاكم افريقيا العسكرية الى روما وعينته قائدا للجيش بعد عزل ايتيوس . واضطر الاخير لرفع السلاح في وجه الامبراطورة وقائدها الجديد ولكنه هزم قرب اريمينيوم وفر للاحتباء بأصدقائه الهون . ولكن بونيفاكوس لم يعش طويلا بعد ذلك الانتصار ، ومن ثم راح ايتيوس يضغط على الامبراطورة بمساعدة الهون حتى قبلت تعيينه فى منصبه القديم عام ٤٣٣ ، وراح يصرف شئون الامبراطورية الخارجية فى الغرب حتى موته عام ٤٥٤ .

اتيلا يفزو بلاد الغال : ٤٥١

اكانت سياسة ايتيوس تتركز فى احتفاظ الامبراطورية بوسط بلاد الغال وجنوبها الشرقى بأى ثمن وقد نجح فى ذلك بعد أن أوقف تقدم الفرنجة فى الشمال والبورجونديين فى الشرق والقوط فى الجنوب الغربى وبذلك أنقذ بلاد الغال للامبراطورية ، ولكن افريقيا ذهبت الى الونداليين ، كما ذهبت بريطانيا لقبائل الساكسون ، واستولت قبائل السويثى على معظم أجزاء اسبانيا . ويمزى نجاح ايتيوس فى بلاد الغال الى اعتماده على قبائل الهون السيبيرية مستخدما صداقته بقوادهم الذين كان يعرفهم منذ أن كان اسيرا عندهم .

وفى ذلك الوقت كانت قبائل الهون الشرسة والتي ظلت لقرون طويلة تلتنى الرعب فى قلوب الصينيين بدأت تتحرك غربا بعد أن عبرت نهر الشولجا واجتاحت المناطق الشمالية من البحر الأسود (محتلة فيما يعرف الآن برومانيا والمجر وجنوب روسيا) . واقامت القبائل الهونية فى تجمعات

منفصلة الى ان اتحدت فيما بينهم عام ٤٤٤ تحت قيادة ملك قوى اسمه
آتيلا ، وبزعامة هذا الملك القوى دفع الهون القبائل الجرمانية الى الورا
عبر الدانوب واحتل اراضيهم كما فرض سيطرته على اهل سكيثيا .
ويعتبر آتيلا من اقوى الحكام فى اوربا آنذاك ، فكانت تدفع له الاتاوات
من شطرى الامبراطورية الشرقى والغربى وقدر جيشه بنصف مليون
مقاتل وعاش خرابا فى منطقة البلقان (١) .

لم تستمر الصداقة بين آتيلا وأتيوس طويلا لأن ملك الهون كان
ذا طموح لا يحده حدود ، ويتطلع لاحتلال بلاد الفال كلها ، ويروى عن
السبب المباشر لتحركه نحو الغرب ان هونوريا Honoria شقيقة الامبراطور
فالنتينيانوس الثالث كانت قد نفيت من روما الى القسطنطينية بسبب
فضيحة اخلاقية ، ومن القسطنطينية ارسلت هونوريا « خاتمها » الى
آتيلا طالبة منه التدخل لانقاذها ، فظن الملك البربرى ان ذلك يعنى انها
تقترح ان يتزوجها لذا طالب اخاها ان يوافق على زواجه منها وان يدفع
له دوة قدرها نصف الامبراطورية الغربى ولما رفض الامبراطور هذا
الطلب قاد آتيلا قواته وعبر الراين مندفعاً الى بلاد الفال التى توغل
فيها عام ٤٥١ . عندئذ شعرت القبائل الجرمانية ان مصيرها هو مصير
الرومان ولذا تكونت جبهة من الرومان والفرنجة والقوط الغربيين بقيادة
أتيوس وتمكنت من هزيمة آتيلا فى موقعة شالون Chalon عام ٤٥٢ ،
غير ان هذه الهزيمة لم تكن قاضية بالنسبة للهون ، اذ انه اجتاح ايطاليا
مدمرا العديد من مدنها الشمالية ثم زحف على روما عام ٤٥٢ . وتحدث
المصادر الكنسية عن المعجزة السماوية التى حققها البابا ليو الثالث عندما
انزل الرهبة بصلبية وردائه الابيض فى قلب آتيلا فقبل الانسحاب ،
ولكن الحقيقة هى ان آتيلا انسحب تحت وطأة المجاعة والطاعون ، وتحت
ضغط قوات اتيوس وخوفا من وصول امدادات من القسطنطينية
للرومان . ولهذا استمع الى الوفد الرومانى بقيادة البابا ليو الثالث
وانسحب دون ان يحتل روما .

ومات آتيلا عام ٤٥٣ وسرعان ما دب الخلاف بين اولاده ادى الى
حروب اهلية بين قبائل الهون ، كما ثارت عليهم القبائل الجرمانية التى
كانوا قد اخضعوها خاصة قبائل القوط الشرقية والتى استعادت قوتها
عام ٤٥٤ ومن ثم انهارت امبراطورية آتيلا من بعده وذبلت قوة الهون .

W. Durant, The Age of Faith, 325-1800, A.D. (New York, 1950), (1)
p. 38 f.

زوال الامبراطورية في الغرب :

دفع الحقد ووشاية هيراكليوس وزير الامبراطور فالنتينيانوس الثالث ان قتل هذا الاخير الجنرال آتيوس ، ويقال أن السبب الحقيقي هو ان آتيوس Aetius طلب الزواج من يودوكيا Eudocia ابنة فالنتينيانوس الثالث ، وذعر الحاضرون لهذه الجريمة لدرجة أن احد الحاشية الذين شاهدوا الجريمة خاطب الامبراطور متحسرا وهو يقول « سيدى » لقد قطعت يمينك بيسراك ! (١) .

وبعد اشهر قليلة اغتال اتباع آتيوس الامبراطور فالنتينيانوس الثالث وبذلك اسدل الستار عن أسرة ثيودوسيوس الكبير في الغرب .

كان الامبراطور الجديد هو بترونيوس ماكسيموس عضو مجلس السناتو وصديق هيراكليوس مدير المؤامرات . واول ما فعله بترونيوس هو انه اجبر ارملة الامبراطور يودوكسيا Eudoxia على الزواج منه وزوج ابنتها يودوكيا من ابنه بالاديوس ، ويروى بزيكوبيوس أن يودوكسيا استغاثت بجائسيريك ملك الواندال وسرعان ما عبر هذا الاخير البحر الأبيض وليظهر على ابواب روما عام ٤٥٥ واستسلم ماكسيموس بترونيوس وسلم الاميرتين فاصطحبهما جائسيريك عائدا الى قرطاجة حيث زوج الابنة الى ابنه وارسل الام الى القسطنطينية بناء على طلب الامبراطور ليو الاول (٢) .

وبعد سقوط بترونيوس ماكسيموس تولى افيتوس Avitus احد انصار ايتيوس ولكنه لم يمكث في الحكم سوى بضعة اشهر لأن قائد قواته البربرى ريكيمر الذى ينحدر من سلالة جرمانية قوطية . تمكن من احتلال منصب قائد القوات وبذلك اصبح صانع الباطرة والمحرك الفعلى للامبراطور من الفترة ٤٥٦ وحتى وفاته عام ٤٧٢ . لم يكن ريكيمر يسمح لمن يعينهم اباطرة ان يبقوا اكثر من بضعة سنوات على الاكثر ، فمثلا عين مايوريانوس Majorianus امبراطورا عام ٤٥٧ ولكن ريكيمر اضطره الى التنازل عام ٤٦١ ليعين مكانه احد عملائه وهو سيفيروس Severus الذى اتهم بالوثنية . وبعد موت سيفيروس عام ٤٦٥ بقى منصب الامبراطور شاغرا لمدة عامين ، كان الامبراطور الشرقى ليو خلالها يشرف سوريا على الشطر الغربى بينما كان المتصرف الفعلى هو ريكيمر . ولما

cf. E. Gibbon, op. cit., p. 495.

(١)

Procopius, op. cit., A, 4.

(٢)

حاول ليو تعيين احد اعيان بلاطه واسمه انثيميرس Anthemius بعد ان زوجة ابنة ريكيمر ليضمن بقاءه لكنه فشل لان ريكيمر اكتشف ان انثيميرس يحاول الاتصال من وراء ظهره بمجلس السناتو الروماني وحاصر ريكيمر مدينة روما وشنق انثيموس علنا ، ثم عين مكانه او ليبريوس Olybrius زوج ابنة فالنتينانوس الثالث ولكنه لم يبق في الحكم سوى شهران فقط لانه مات عام ٤٧٢ . وفي نفس السنة مات ريكيمر الرجل القوي .

وفي عام ٤٧٣ عين جندوباد Gundobad (ابن شقيق ريكيمر) جليكريوس Glycerius لكنه خلع في نفس العام نظرا لمعارضة ليو امبراطور القسطنطينية الذي عين نبوس Nepos وبقي نبوس على العرش عامين فقط ، اذ تمكن الجنرال اورستيس Orestes من خلع وتعيين ولده رومونوس Romulus مكانه وذلك في عام ٤٧٥ .

هكذا اصبح الجنرالات الجرمان هم المتحكمون الفعليون في العرش الامبراطوري في الغرب ولم يعد الابطارة سوى اشباحا هزيلة لا تملك من الحكم غير الاسم . وسرعان ما تسقط دور اسف عليها (١) . ثم انهالت على الامبراطورية غزوات القبائل البربرية محدثة الفوضى ومطالبة الامبراطور الهزيل اورستيس ان يمنحها ثلث الاراضي الايطالية . مثلهم في ذلك مثل ابناء عمومتهم الفرنجة . ولما رفض اورستيس قتله زعيمهم اودوفاكار Odovacar عام ٤٧٦ وكان اودوفاكار ابن احد وزراء آتिला ويدعى اديكون وعين نفسه امبراطورا عام ٤٧٦ ثم وطن قواته في ايطاليا وبذلك سقطت الامبراطورية الغربية رسميا وفعليا في يد القبائل الجرمانية .

وهكذا اصبح اودوفاكار ملكا وحصل على الاعتراف الرسمي من الامبراطور زينون في القسطنطينية ومن خلال بقايا مجلس الشيوخ في روما (٢) تحت حجة حكم الامبراطورية الغربية نيابة عن امبراطور الشرق وبذلك انتهى حكم الابطارة في الغرب نهائيا (٣) وازدهرت الممالك الجرمانية والفرنجية والسكسونية والقوطية على اشلائها واختفت ايطاليا الرومانية من على مسرح الاحداث بعد ان تشربت بالفنصر والفكر والثقافة الجرمانية . هكذا سقطت الامبراطورية الرومانية في الغرب بينما استمرت بيزنطة تمثلها في الشرق .

(١) S. Katz, The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (Conell University, 1963), p. 87.

A. Chastagnol, Le Sénat romain sous le règne d'Odoacre, Recherches (٢) sur l'épigraphie du colisee au cinquième siècle (Antiquitas, Reihe 3, Band 3,), Bonn. R. Habelt, 1966.

M.A. Wes : Das Ende des Kaisertums in Westen des roemischen Reiches, La Haye, Staatsdruckerei, 1967, p. 216 f.

الفصل الثالث عشر

تحليل للمجتمع الرومانى أبان القرنين الرابع والخامس ولاسباب سقوط الامبراطورية

كان المجتمع الرومانى أبان القرنين الرابع والخامس صورة معبرة للتحلل والانهيـار ، مجتمع الفوضى الفكرية ، واليأس السياسى ، والفقر الاقتصادى ، والظلم الاجتماعى ، والتسلط البيروقراطى ، النظم المتحجرة التى لم تتطور ، لقد اختفت فى هذا المجتمع الطبقة الوسطى وهى فى أى مجتمع أو فى أى حضارة القوة الديناميكية الحقيقية وأسفر الموقف عن طبقتين هما : البروليتاريا الجائعة اليائسة التى باتت تبحث عن الخلاص أو الهروب من مشاكل العالم المادية الى التخدير الفيبى وإلى السحر والخزعبلات . مما أدى الى انحطاط الفكر الثقافى وتفشى البربرية حتى فى التعبير الفنى والجمالى ، أما الطبقة الثانية فهى الطبقة الارستقراطية الحاكمة والمتحكمة عن طريق السيطرة على الأجهزة البيروقراطية وعن طريق اقتناء الاقطاعيات الشاسعة بمن عليها من فلاحين وعبيد .

ثم دخلت المسيحية وتلهفها الفقراء الكادحون فى الريف أو بروليتاريا المدن بحثا عن الخلاص ، بينما تمسكت الارستقراطية بالتراث الوثنى الذى راحت تطوره بالافكار التى تجمع بين الفلسفة والدين ، تجمع بين الرواقية والفيثاغورية والافلاطونية الجديدة من اجل منافسة المسيحية التى اعتبروها حركة هدامة وخطرا على التراث القومى العريق ، ومن ثم هم الذين اوعزوا الى الاباطرة بحركات التصفية والاستئصال بصورة بشعة تختلف عن حركات القمع البسيطة والمحدودة التى حدثت أيام نيرون بعد حريق روما الكبير عام ٦٤ وفى عهد دوميتيانوس عام ٩٦ وفى عهد تراجانوس وماركوس أوريليوس ، وذلك لأن الارستقراطية الوثنية كانت تقاتل دفاعا عن وجودها ومكاسبها ضد الفقراء أبناء الله أى أن الأمر تحول من صراع بين الوثنية والمسيحية الى صراع اجتماعى وطبقى . وتعرض المسيحيون لأقسى انواع الاضطهاد ولكن الكنيسة قاومت ببطولة منطقة النظر حتى استسلم الاباطرة بمهادنتها أولا ثم تزعم قيادتها ثانيا وذلك على يد قسطنطينوس الأكبر .

وما ان كسبت الكنيسة وانتصرت حتى نبت ان الخطر كان يوجود بين عناصرها وما ان زال الخطر حتى بدا التفسخ والصراع العنائدي الذي هو نتيجة لتناقضات اجتماعية واقليمية وفكرية وعنصرية بين مسيحي العالم وفشلت فكرة الكنيسة المسكونية الواحدة .

لكن هذه الفترة تمثل مرحلة اكتمال قانون الايمان المسيحي ووضع القواعد واللوائح العملية مثل تحديد يوم الأحد كيوم الرب ، وتحديد عيد ميلاد المسيح (Natalis Domini) وهو السابع من يناير في الشرق والخامس والعشرين من شهر ديسمبر (١) في الغرب وتحديد عيد القيامة .. الخ . وقبل هذا وذاك ظهر في مصر أو انطاكية للرهبنة على يد القديس انطونيوس المولود في بلدة كومى بمصر الوسطى حيث لجأ عام ٣١١ الى الصحراء الشرقية في وادي عرابة قرب البحر الأحمر وتبعه مريدوه للتأمل وتطهير الروح ، ثم تلى ذلك امونيوس الذي اوجد اول الاديرة في صحراء وادي النطرون ومعه مريدوه يسكنون الكهوف أو يقيمون في الخلوات الضيقة (cells) يتعبدون ويتسننون ويقرأون الانجيل يعيشون على الكفاف . وفي القرن الرابع ايضا أنشأ القديس باخوم Pachomius عام ٣٢٠ دير في صحراء الأقصر الشرقية ، ويتميز القديس باخوم عن غيره بأنه اول من وضع اللوائح والنظم التي سارت عليها الاديرة في باقى انحاء العالم المسيحي واكمل ذلك شنوت الاثريبي عندما وضع نظاماً جديداً للرهبنة في ديرة الذي اقامه قرب نهاية القرن الرابع في صحراء الاقصر (٢) . كما يرجع الى هذه الفترة ايضا بناء الكنائس الخالدة التي لاتزال قطعاً من آيات الفن بروحه الجديدة .

ولنعالج الآن بشيء من التفصيل اهم الملامح التي شكلت المجتمع الرومانى ابان القرنين الرابع والخامس .

اولاً - الصراع الطبقي أو الصراع الاجتماعي :

يتمثل هذا الصراع في اختفاء الطبقة الوسطى وتحول المجتمع الى طبقتين متناقضتين بينهما هوة سحيقة ، وهما الطبقة الارستقراطية والنبيلة والطبقة الكادحة المستغلة بأشجع درجات الاستغلال . وكان افراد الطبقة الاولى يكونون الأعيان الذين كثيراً ما نسبوا انفسهم الى

(١) يعتقد بعض المتخصصين في الدراسات المصرية القديمة ان اختيار يوم ٢٥ ديسمبر كتاريخ للاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح هو استمرار للعيد المصري القديم يوم ميلاد رع حيث ان هذا اليوم كان نهاية السنة المصرية القديمة انظر :

Jaroslav Cerny, Ancient Egyptian Religion, 1952, pp. 148-149.

cf. Vogt, op. cit., p. 124-125.

الطبقة السيناتوروية ورغم تدهور السناتو إلا أنه بقي أسما ولقبا طبقيا يحمله الاستقراطيون والاقطاعيون والنبلاء وأصحاب السلطة البيروقراطية ، بل أنهم حرصوا على حمل هذا اللقب ولو بشرائه بالثمن لما كان يعطيه لحامله من نفوذ وامتيازات مثل الاعفاء من دفع الضرائب وإداء الخدمات الإلزامية والخدمات في الجيش بل أنه كان يعطيهم وحدهم أحقية تولي المناصب العليا .

كان معظم رجال الطبقة السيناتوروية اقطاعيين وذلك لأن السياسة الإمبراطورية في القرنين الثالث والرابع وضعت قانونا غريبا يحرم على النبلاء العمل في التجارة والصناعة وقصر هذه المهن على الحرفيين وصغار التجار ولأن التجارة والصناعة لعبتا دورا هزليا في اقتصاد الإمبراطورية لأنها كانت تختص بالكماليات التي لا يطلبها سوى قلة من القادرين (١) ، ومن ثم لم يكن أمام النبلاء سوى استثمار أموالهم في شراء الأراضي الزراعية وكونوا اقطاعيات شاسعة (Latifundia) يتوسطها بيت الإقطاعي الحصين (Villa) وقد عرفت الفيلا كوحدة سكانية واجتماعية وإنتاجية بل وإدارية مستقلة يتحكم فيها صاحبها بكل ما فيها من اجراء زراعيين (Coloni) وعبيد (Servi) وأرباب حرف . وهو صاحب الأمر والنهي فيما يملك من الأرض ومن يعيشون عليها ويتوارث أبناؤهم من بعدهم هذا الالتزام .

كان الرقيق هم أدنى الطبقات الاجتماعية في مجتمع الفيلا . وكانت كلمة الرقيق Servi تشمل الخدم سواء في قصر الإقطاعي أو في أرض الإقطاعية التي كانوا يزرعها لصاحبها وقد تحسن وضع الرقيق في القرن الثالث وما تلاه نظرا لنضوب المصادر التي كان الرومان يأتون منها بالرقيق وبذلك اضطر سيادهم إلى المحافظة عليهم ، كما سنت الحكومة عدة قوانين لتحسين وضعهم كطاقة استراتيجية هامة فاختلفت المعاملة غير الإنسانية التي كنا نسمع عنها أيام الجمهورية . ووصل الحال أن منح بعض الاقطاعيين عبيدهم قطعة صغيرة من الأرض يتوسطها كوخ يقيم فيه العبد ويشرف منه على زراعة هذه القطعة وكان هذا البيت صورة مصغرة من بيت الإقطاعي واقطاعيته وبذلك ظهرت طبقة عبيد الأكوانخ . وارتبط العبيد بالأرض ارتباطا ابديا يورث حتى للأبناء وأصبحوا يسجلون مع الأرض وتنتقل ملكيتهم إلى من تؤول إليه ولا يجوز بيع الأرض بدونهم أو بيعهم بدون الأرض . وبالرغم من أن أحوال الاجراء الأحرار (Coloni) لم تكن

A.H.M. Jones. Thoughts on the Decline of the Roman Empire Bulletin (١)
of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XXIII, Part I, May 1961.
decuriones

احسن حالا من هؤلاء الا انه حظر على العبيد جمع الثروات لانفسهم او الخروج عن الحدود الطبقية التى رسمتها القوانين والعرف لطبقته .

كان الاجراء الزراعيون (Coloni) فى الحقيقة بمثابة عبيد للمالك ولكن فى نظر القانون كانوا احرارا بالمولد . وكانوا يكونون غالبية سكان الاقطاعية ، فهم كالعبيد يملكون مع الأرض . وكان يحق لهم زراعة قطعة من ارض الاقطاعية نظير نصف (١) المحصول وامتلاك مبلغ معين من المال ولم يكن القانون يسمح للاجير بترك الأرض التى يزرعها او هجرة الاقطاعية او تغيير مهنته واذا حدث وهرب فان السلطات ترجعه بالقوة الى حيث كان يعمل . وبالرغم من ان الاجراء كانوا احرارا بالمولد الا انه كان يحق لصاحب الثيلا ان ينزلهم الى طبقة العبيد عقابا لهم . وكان وضعهم الاجتماعى ينتقل الى ابنائهم بالمراث فابن الاجير يجب ان يكون اجيرا لكن الفارق البسيط الذى كان يميز الاجير عن العبد هو انه كان من حق الاجير امتلاك المال وتوريثه لابنائه ، كما كان من حقه ان يلتجأ الى القضاء ويقيم الدعوى بيتما حرم العبد من هذه الحقوق . ويجىء الاجراء اما من الفلاحين الذين لم يكن فى حيازتهم اى اراضى زراعية ، او ممن نسميهم بالعمال الزراعيين ، او من اسرى الجرمان ، او من البرابرة الذين وطنهم الرومان فى المناطق

المهجورة او فى داخل الامبراطورية ، او من العبيد الذين اعتقوا واصبحوا احرارا ، لكن غالبية الاجراء الزراعيين كانوا فى الاصل من صفار الملاك الذين ساءت احوالهم بسبب بهائنة الضرائب وقلة المحصول وارتفاع التكاليف الزراعية ، فعجزوا عن زراعة الأرض ، كما كان محرما عليهم الهروب منها ومن ثم لجأوا الى تسليم اراضيهم طواعية للاقطاعى نظير حمايتهم بنفوذه من ظلم جباة الضرائب ومن جشع الموظفين ، وهذا النظام يعرف بنظام « الوصاية » Commendatio وقد حاول بعض الابطرة وقف هذه العملية اللااخلاقية بسن تشريعات ضد نظام الوصاية الا انهم عادوا واغرضوا عيونهم نظرا لانهم كانوا فى حاجة الى الاقطاعيين كمصدر تمويل للامبراطورية . وقد تطور هذا النظام فى العصور الوسطى ليصبح نواة للمجتمع الفيدرالى Feudalist (٢) .

(١) هذا بالاضافة الى الضريبة التى كانت تقدر فى مصر بثلث المحصول اى ان مايتبقى للاجير هو سدس المحصول ومن العجيب ان هذا النظام كان موجودا فى مصر الى عصر قريب مما يعرف بعطقة السداسة .

(٢) استخدمت كلمة فيودالى لاختلاف وضع الاقطاع الأوروبى فى العصر الوسيط من ونسبه فى مصر فى العصور الوسطى والحديثة .

كانت المدينة هي الوجه المقابل للريف ، وكان يسكن المدينة عادة طبقة كبار الموظفين . خاصة الذين كانوا يتولون نيابة عن الاقطاعيين تنفيذ اعمالهم وجمع الضرائب للامبراطورية . وكانوا هؤلاء وكلاء الامبراطورية وعادة يمثلون الطبقة التي تملك قدرا من المال ودون الاعيان . ومن ثم فرضت عليهم الحكومة تولى عضوية المجالس البلدية municipia أو مجالس الشورى الإقليمية في بلادهم وقد عرفوا باسم Curiales (١) نسبة الى عضوية المجلس Curia وفي اوائل عصر الامبراطورية كان هذا المنصب مرغوبا فيه بالرغم من ثقل الالتزام على من يتولاه . لانه كان لايزال براقا ويعطى لحامله امتيازا طبقيًا محدودا ، ودليلا على سعة حال حاملة كما كان بمثابة البوابة التي يعبر منها صاحبها الى المناصب الأعلى .

غير ان اصلاحات ديوقلديانوس وقسطنطينوس قصمت ظهر هذه الطبقة واصبحت اعباؤها لا تطاق ، اذ أصبحوا ينفقون على منصبهم من اموالهم الخاصة ، بالإضافة الى دفع العجز في الضرائب من اموالهم الخاصة التي اعتبرتها الدولة ضمانا مرهونا لديها مما ادى الى افقارهم وبالتالي حاولوا الهروب بتغيير مواطنهم أو الالتحاق بالجيش أو الانخراط في سلك الكهنة المسيحيين . واضطرت الحكومة الامبراطورية من جانبها الى اصدار تشريعات تربطهم بمناصبهم وتضيف آخرين الى قائمة الشرف وفرضت عقوبات صارمة على المتهربين من هذه الوظائف الشرفية . وكما كان هؤلاء الموظفون ضحية لظلم النظام الحاكم فقد وجدوا في المزارعين الفقراء ضحية وكبش فداء فاستخدموا معهم أبشع الطرق من أجل تحصيل الضرائب المطلوب لدرجة ان كلمة Curialis أصبحت مرادفة لكلمة « المتعسف » وجرى مثل يقول كل موظف شرفي ، طاغية tot curialis, tot Tyranni .

وبالرغم من قوانين الدولة الصارمة بشأن الحفاظ على طبقة الموظفين الشرفيين الا انها انقرضت ابان القرن الخامس عندئذ ادركت الحكومة مدى اهمية هذه الطبقة وحاولت اعادة الحياة لها ولكن فان الوقت كان متأخرا .

ثانيا - الفوضى الفكرية :

طحن الفقر السواد الاعظم من الناس ، وشغلهم الحرمان عما يدور من حولهم من تقلبات سياسية ، بل أصبحوا في واد والدولة في واد آخر .

وكما يحدث عادة في مجتمعات التخلف والحرمان الاقتصادي يلجأ الفرد الكادح اليأس الى الخرافات والسحر والشعوذة والفيبيات هروبا من الواقع المر وبعثا عن البلمس الشافي لآدميته المهانة وكبريائه المجروح . ويزدهر عادة في هذا المجتمع ، ديانة الزهد والتقشف والتبشير بيوم الآخرة والدعوة الى خلاص النفوس وانتظار ظهور المخلص واحيانا يلجأ الفرد الكادح الى عقائد دينية ايجابية النظرة تدعو للثورة الاجتماعية وقلب المجتمع رأسا على عقب ، ولكن هذا الاتجاه الأخير بقى محدودا في حركات اقليمية وفي المناطق النائية من أجزاء الامبراطورية .

هذا الهروب (escapism) للنفوس الحائرة جعل الناس تقبل على بضاعة المبشرين الملوحين بنعيم يوم الآخرة ، أما بالنسبة للمثقفين فقد ازدهرت حركة الصوفية المتسامية عن اللذة المادية والتي هي فوق ما يعيه الجمهور الساذج ، لأن حركة الصوفية سى التفلسف في جوهر الخلق والمخلوق والخالق ، وفي البحث عن القابور الأزلى الذى يحكم الوجود . أو في تحقيق السعادة القصوى Summum bonum عن طريق ضبط النفس . والالتزام المطلق بقوانين الفضيلة ، كالحق المطلق والبعد عن الخطيئة وهى مفاهيم فلسفية تحتاج الى استعداد عقلاى راق . ولقد تركت الرواقية تأثيرا عميقا على فكر المثقفين بمبادئها بالاخوة العالمية والمساواة بين البشر وايمانها بقانون الطبيعة الأزلى الذى ينطبق على كافة البشر وما دام الموت يساوى بين جميع الكائنات mors omnia aequat فلا فائدة اذا من الفروق الطبقيّة الاجتماعية لأنها من صنع العالم المادى الوضعى وهو عالم محدود ومؤقت (١) .

هكذا تبلورت فلسفة جديدة تجمع بين الفكر الرواقى الصارم والروحانية الافلاطونية والرياضية الفيتاغورثية في قالب جديد يمزجها بالدين والتراث الوثنى فيما يعرف بالافلاطونية الجديدة Neo. Platonism ووجدت لها عشاقا ومريدين وتبناها الاباطرة لحركة مناوئة للمسيحية ، ولكن لم تنجح هذه الفلسفة لأنها عسيرة في الفهم ، عالية في التفلسف ، صعب ادراكها على الفوغاء الساذجة ، ومن ثم اتجهوا الى ديانات الشرق بروحانياتها ودعوتها بالعالم الآخر متمثلة في عبادة ميثرا Mithra ورب الشمس الذى لا يقهر Sol Invictus .

cf. G. Sabine, A History of Political Thought (New York, 1964), pp. (1) 149-150.

أنظر : عثمان أمين - الفلسفة الرواقية - مكتبة الانجلو - القاهرة ١٩٧١ - ص ٢٥٧ وما بعدها .

(أ) العقيدة المثرائية :

كما سبق أن ذكرنا عند معالجتنا لمظاهر الحياة الفكرية إبان القرن الثانى الميلادى أن عبادة مثرأ رب الشمس والنور الفارسى الاصل والذي يتمثل فيه الحق وتسوده الفضيلة ، ضد الظلام والظلم والرهبة وهو رب مقاتل ايجابى النظرة ، اعتقد عبده بأنه الوسيط بين الرب الابدى الاسمى والانسان الضال (١) ولهذا جاء مثرأ ليهديهم سواء السبيل ، كما بشرت المثرائية بقدرة الانسان فى أن يتصل بالرب الاسمى عن طريق التنسك والتصوف والطهارة والعبادة حتى يرفع عنه الحجاب ، كما مارست التعميد baptism والتثبيت على العقيدة (confirmation) والمستيرية او الشعائر والعبادة السرية . ولما انتظمت العقيدة الجديدة أصبح لها تقويم يحدد الايام المباركة وايام الاعياد . فمثلا اختارت يوم الشمس (الذى أصبح يوم الاحد فيما بعد) عطلة اسبوعية مقدسة ، واختاروا الخامس والعشرين من ديسمبر كعيد لقيامة مثرأ وصعوده الى السماء ، وهذان العيدان بقيا تراثا خالدا فى المسيحية حتى عصرنا هذا (٢) .

ولما كان مثرأ ربا نشيطا يحارب الشر ويتمتع بروح قتالية عالية على الدوام فقد انتشرت عبادته بين صفوف الجنود جنبا الى جنب مع جوبتر دوليخنوس الفولاذى والذي قيل انه ولد حيث ولد الفولاذ Nato ubi ferrum nascitur (٣) .

(ب) الافلاطونية الجديدة :

كان على الفلاسفات القديمة أن تنزل من عليائها لتنافس الديانات الشرقية وتخطب الجماهير بشيء من البساطة حتى يقبلون عليها ، ومن ثم اتحدت الفيتاغورثية والافلاطونية والرواقية فى قالب دينى روحانى من أجل انقاذ تراث الوثنية الاغريقى الرومانى . وكان الفيلسوف الروحانى افلوطين الاسيوطى اول من ارسى قواعد هذا الاتجاه الجديد فى كتابه « التاسوعات » (Enneads) والذي حاول فيه أن يوفق بين تناقض العالم الميتافيزيقى المجرد والعالم الارضى المحسوس ، مستخدما منطق الافلاطونية فى أن الحقيقة هى الفضيلة والفضيلة هى الروح ، والروح هى

Joseph Vogt, op. cit., p. 132.

(١)

Burgh, Legacy of the Ancient world, Vol. II, (Middlesex 1953), pp. (٢)

339-341 ; also cf. John Ferguson, The Religions of the Roman Empire (Thames and Hudson 1970), p. 54 ff., also Joseph Vogt, op. cit., p. 36. f. cf. G.R. Watson, The Roman Soldier, Burgh, op. cit., 245 f. p. 132 f. (٣)

الخلود لانها ازلية ، اما الجسد فهو انعكاس للروح أى أنه صورة ونيس اصلا . وكل ما يصدر عن الروح التى هى الاصل هو بمثابة البداية والنهاية للكون الذى يعيش فيه (١) .

وعلى أى حال نجح افلوطين الفيلسوف المصرى القادم من قلب الصعيد فى أن يعرض فلسفته على الامبراطورية الرومانية . ولذا استدعاه الامبراطور ليبشر ويعظ على مدى ربع قرن فى قلب العاصمة روما ويقوم بدور الراعى الصالح لاتباعه ، حتى نجح فى انشاء كنيسة تحت رعاية الامبراطور الذى تحول الى مرید له وهو حالينوس . وكانت هذه الكنيسة الافلاطونية وثنية بالطبع ، لكنها متدنية تدعو الى وحدانية كل الالهة فى جوهر واحد ديناميكى Dynamic Pantheism .

ومات افلوطين الفيلسوف الروحانى عام ٢٧٠ م من جراء مرض اصاب فمه يرجح العلماء بأنه سرطان الفم ، واستقبل الموت بكلمات فلسفية رقيقة مرحبا به وهو يقول « اننى فى انتظارك قبل ان اتحدث روحى المقدسة بروح الوجود المقدس (٢) . ومات تاركاً فلسفة دينية قوية لها عبادها ومریدوها بفضلهم ظلت مزدهرة حتى قرر الامبراطور الشرقى جستنيانوس اغلاقها مع سائر المدارس الوثنية عام ٥٢٩ م (٢) .

(ج) المسيحية ايدولوجيتها وطوائفها :

باءت كل المحاولات الوثنية والفلسفية بالفشل فى محاولتها القضاء على المسيحية التى برزت فى تحد كمنافس خطير للافلاطونية الحديثة فحسب بل لكل التراث الوثنى الذى هو محصلة الحضارة الاغريقية الرومانية على مدى آلاف السنين .

لقد انتشرت المسيحية فى الوقت المناسب واطلقت ثورتها الانسانية ذات المبادئ البسيطة فهزت الامبراطورية الرومانية هذا وقوضت مجتمع الارستقراطية والبيروقراطية والاقطاع . ولهذا حاولت الوثنية وانصارها

(١) انظر : عثمان امين - المرجع السابق - ص ١٢٩ .

(٢) cf. Ferguson, op. cit., p. 206-207. Buregh, op. cit., p. 339-346.

(٣) أنظر : فؤاد حسن زكريا - التسوعة الرابعة لافلوطين - الدار القومية ١٩٧١

القاهرة ، كذلك انظر :

Hilary Armstrong, J.H.S. vol. XCIII (1973), p. 15-22 ; J. Dodds, J.R.S., (1960), p. 1-7.

الارستقراطيين سحق هذه الحركة وتحمل المسيحيون الاول اشع انواع التعذيب والاضطهاد ولكنها تحملت في صبر واصرار وسارت في طريق الآلام حتى النصر . ويرجع المؤرخون الاسباب التي أدت الى انتصار المسيحية وانتشارها الى عدة أسباب ، فمن ناحية رأى رجال اللاهوت والكنيسة انها ارادة الله وازادة الله كان لابد وان تنتصر بعد التضحية من أجل خلاص النفوس ، أما العقلانيون الذين يمثلهم ادوارد جيبون Gibbon فيورد خمسة تفسيرات أولهما غير المسيحيين الاول واصرارهم على التمسك بالعقيدة ، وثانيهما انجذاب الناس بفكرة الجنة والحياة الآخرة حيث يعيشون حياة مثلى ، وثالثهما بطولة الكنيسة وصمودها والمعجزات التي حققتها ، ورابعهما حياة الزهد والتقشف التي ضرب بها المسيحيون الاوائل المثل الاعلى في البعد عن متاع الدنيا مما جذب الناس اليهم ، وخامسهما دقة لتنظيم والخلايا (١) في السلك الكنيسى ابتداء من الشعب الى الخدام والشمامسة والكهنة الى المجلس والقس ثم الاسقف .

وتتلخص المسيحية في الايمان بالاب الذى هو الله والابن المسيح والروح القدس Spiritus Sanctus الذى عن طريقه انجب الله المسيح من مريم العذراء . وأن الهدف من قدوم المسيح الى العالم هو خلاصه . وقد جاء لخاصته ولكن خاصته (أى بنى اسرائيل) لم تقبله ، فصلبوه ولكنه قام في اليوم الثالث وخرج من القبر وصعد الى السماء عند أبيه حيث يجلس عن يمينه ولن يعود المسيح الى الارض الا قبل قيام الساعة حيث يقود انفقراء والمظلومين الى المملكة السماوية التي سوف يحققها لهم . ووضعت المسيحية شروطا للدخول فيها مثل التعميد والففران أو التوبة ثم الايمان بقيامة المسيح وبيوم القيامة .

هذا من ناحية العقيدة ، أما من ناحية الواقع فان المسيحية تقوم على التراث اليهودى والشريعة الموسوية . فالمسيح ولد في فلسطين وختن في اليوم الثانى من مولده كان يهودى ، وتربى على الثقافة العبرانية ، بل واصبح احد حاخامات اليهود وقام بالوعظ في المعبد الكبير بالناصرة Nazareth وانه جاء لخاصته ليكمل رسالة موسى حسبما قالت نبوءة التوراة .

لكن دعوة المسيح خرجت من نطاق التخصص الضيق التى نسم به

اليهودية الى العالمية. وفي ذلك تأثر بالرواقية ما من شك (١) . ولم يستدفعه اليهود لانه قال ان المملكة اليهودية التي بشرت بها التوراة بالنسبة له مملكة سماوية عليا ومن ثم ناصب اليهود المسيح العداء وظلوا يطاردونه ويحرضون الرومان عليه حتى تم صلبه . لهذا ناصب المسيحيون اليهود العداء لانهم قتلوا المسيح .

ولم تكن الافكار العالمية هي وحدها التي ساعدت على انتشار المسيحية وسط ربوع العالم المسكون ، بل لان المسيحية تشربت بالافكار الاغريقية واستخدمت اللغة الاغريقية العامية (Koine) لغة العالم المسكون ولم تستخدم الارامية اللغة التي وعظ بها السيد المسيح نفسه . وفي نفس الوقت اعتنقها كثير من اليهود المتأخرين لانها توافق نفسياتهم اذ انها مزيج من الافكار الاغريقية والسامية .

كانت بروليتاريا المدن وعبيد الريف، الأجراء أسرع طبقات الامبراطورية الرومانية الى الايمان بالعقيدة الجديدة لانها كنت طبقات ساخطة على الظلم الذي حاق بها . وكانت المسيحية متطرفة في تعاملها مع الامبراطور الذي انكرت الوهيته علنا ، وعلى الوثنية (١) التي ناصبتها العداء . ولهذا اتهمت السلطات الرومانية المسيحيين بأنهم هدامون يتآمرون على قلب الامبراطورية وكان ذلك منذ ايام نيرون ، وساعد على ذلك ان نظرة المسيحية الى المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت مختلفة تماما مع نظرة الوثنيين . ولهذا بينما تعصب الارستقراطيون للوثنية تعصبت الطبقات الدنيا الكادحة للمسيحية ، وتحول الصراع بين الكنيسة والدولة الى صراع طبقي واجتماعي قبل ان يكون صراعا عقائديا . ودفعت الكنيسة ثمن عقيدتها بالدم وقاومت الاضطهاد والاستئصال المنظم . ومن اشهر الاضطهادات التي مرت بالمسيحية اضطهاد تراجانوس عام ٩٨ م واضطهاد سبتيميوس سيفيروس عام ١٩٣ م واضطهاد ديققيوس عام ٢٤٩ م ثم اضطهاد فاليريان عام ٢٥٤ م . وكان اعنفها جميعا اضطهاد ديوقلديانوس . كانت المذابح التي انزلها ديوقلديانوس بالمسيحيين خاصة في مصر رهيبة حتى ان الكنيسة القبطية المرقسية في مصر جعلت بدء تقويمها عام ٢٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها ديوقلديانوس حكم الامبراطورية الرومانية ويسمى هذا

(١) انظر: عثمان امين - المرجع السابق - ص ٢٧٣ وما بعدها . ويقول الرسول بولس في رسالته الى اهل حالانيا « لا يهودى ولا اغريقى ، لا عبد ولا حر ، لا ذكر ولا انثى ، كلكم واحد في يسوع المسيح » (الاصحاح الرابع س ٢٨) .

(٢) Aldo Momighano, The Conflict between Paganism and Christianity.

التقويم بتقويم الشهداء (١) . ولكن الاضطهاد زاد المسيحيين اصرارا وقابل
شهادتهم الموت بشهوة الحياة :

وقدمت الكنيسة عددا من بطاركتها واساقفها ورهبانها وعلمائها
شهداء ، واغلقت مدارسها اللاهوتية واحرقت الكنائس والكتب المقدسة ،
ومع ذلك صمد المسيحيون بل على العكس كان عدد المؤمنين يزداد باضطراد
لان الوثنيين كانوا ينضمون الى المسيحية متأثرين ببطولات شهدائها من
اجل العقيدة . واخيرا يئس الاباطرة من حلم استئصال المسيحية واضطروا
الى وقف المذابح البشرية لعدم جدواها ولانها خلقت الخراب وادت الى
اضعاف الانتاج الزراعي وتقص اليد العاملة وتدهور الاقتصاد في كثير من
اجزاء الامبراطورية (٢) . واعترفوا بالامر الواقع واعادوا للمسيحيين حرية
العبادة . ثم رأى قسطنطين انه من الافضل ان يكسب المسيحيين الى جانبه
لانهم بمرور الزمن اصبحوا نسبة لا يستهان بها فاعتنق المسيحية وانتهى
على يديه عهد الاضطهاد (٣) .

ولما وجد البيروقراطيون والاقطاعيون واصحاب المصالح ان الاباطرة
اصبحوا مسيحيين تحولوا من الوثنية الى المسيحية حفاظا على استمرار
مراكزهم وثرواتهم ووضعهم المميز مما ادى الى سخط طائفة من المسيحيين
على قبول هذا النوع من العباد الجدد ويتمثل ذلك في تمرد الكنيسة
الدونائية في شمال افريقيا .

بداية الصراع الفكري والعقائدي بين طوائف المسيحية :

غير ان وصول الكنيسة الى شاطئ الامان كان بداية لانفجار الصراع
اللاهوتي بين طوائف المسيحية المختلفة . وطفقت على السطح المتناقضات
المنصرية والاجتماعية والفكرية التي اختفت في الفاع وقتها . وكانت
الكنيسة تتعرض لخطر الاضطهاد . وتفكك عرى الكنيسة المسكونية الواحدة
الى طوائف وفرق متصارعة فظهرت الدونائية والاريوسية والمونوفستية
والبلاجيوسية واتباع ماني « المانيخية » .

ولد ماني Mani مؤسس الطائفة المانيخية في بابل عام ٢١٧ م من
اسرة نبيلة ومن سلالة بارثية مسيحية لانه عمده وثبت في طفولته .

(١) مراد كامل - المرجع السابق - ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) مراد كامل - المرجع السابق - ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق - ص ٣٤ .

كمسيحي . ولكنه لما شب وكبر أعلن أن وحيد سماءيا أبلغه رسالة من
السماء لينشرها بين البرية ، وأنه مبعوث جاء ليكمل رسالة بوذا وزرادشت
والمسيح ، وسافر الى الهند لينشر دعوته انتهى نجح في نشرها بين البارثيين
والفرس بل ووصلت دعوته الى مصر .

كانت دعوة مانى فى الحقيقة توفيقا بين المسيحية والمثرائية ومحورها الذى هو
الصراع الابدى بين الرب الذى هو النور والمعرفة ، وبين الشيطان الذى هو
الظلم والظلام (١) . ووصف العهد القديم بأنه من صنع رب الظلام اهريمان Ahriman
بينما العهد الجديد من صنع رب الشمس وانور اهورا مازدا Ahura
Mazda ، اى ان جوهر الفكرة يقوم على الغنوسية « وهى الايمان بالخلاص
الذى يجىء عن طريق المعرفة دون لا الايمان » . وتدعو المانية « أو المانيحية »
الى وجوب محاربة الشر والظلم بمساعدة هداية رب النور والخير . ودعت
الى الامتناع عن اكل اللحوم وشرب النبيذ ومجانبة النساء لانها تساعد
الناسك على اجتياز الامتحان الصعب الذى سئل فى نهايته اى مرتبه
القديسين وسرعان ما يتبعه كل « يريد » من ظلم النفس .

ولما كانت هذه الدعوة يذاب عليها الطابع والفكر الايرانى فقد انتشرت
بسرعة قرب هذه المنطقة بل ، سالت برعاية الملك الفارسي شابور ، ومن
بلاد الفرس خرجت الدعوة المانيخية شرقا الى الهند والصين « لان مترا
جاء من الهند أصلا واستوطن بلاد الفرس » ، واتجهت غربا الى بلاد ما بين
النهرين وسوريا ودخلت مصر . وتشير الادلة ان المسيحية المانيخية وجدت
لها فريقا كبيرا من المريدين فى مصر . اذ عشر حديثا فى نجع حمادى على
نصوص قبطية بلهجة صعيدية تتحدث عن الفكر المانى المسيحي نشرها
بويش Puech وودنجرن Widengren (٢) . وكان انصارها يمثلون دعاة
الثورة الاجتماعية ضد الظلم الرومانى او ما يعرف بالثورة المانيخية .

لقد لقيت المانية هوى فى نفوس شعوب مصر والشرق الاوسط حيث
ترك الظلم والاستغلال الرومانى بصماته ، وكانت هذه الشعوب فى حاجة
الى عقيدة تدعو للثورة والاصلاح الاجتماعى ضد الظلام والظلم المتمثل
فى صراع اهورا مازدا لخير ضد اهريمان الشرير . ففى مصر لم تكن اسطورة
الصراع بين الخير والشر غريبة لان الاساطير الفرعونية سبق وان تحدثت
عن اسطورة مشابهة وهى الصراع بين اوزوريس وزوجته ايزيس اللذان

(١) John, Ferguson, op. cit., p. 47. also, cf. Eusebius, The History of
the church From Christ to Constantine, translated by Williamson
(Middlesex 1965), pp. 319-320.

cf. Vogt, op. cit., p. 54.

(٢) كذلك انظر ٦٥

يمثلان الخير ضد ست وزوجته نفتيس اللذان يمثلان الشر ، ويضيف
فوجت أن نجاح الكنيسة المانية يرجع الى دقة تنظيمها وبراعة الشعائر
والطقوس التي تجند الاتباع وتجمع شمل المريدين . فأصبح لها كنيسة
منظمة يترأسها كاهن يعمل تحته رسل مبشرين ، وأساقفة وكهنة ووعاظ .
فضلا عن شعائرها وقواعد عبادتها مثل الصيام والعزوف عن أكل اللحوم
وشرب النبيذ ، والترانيم الصوفية التي ألقت باللغة السوربانية والى لغات
عديدة حيث سحرت عبقرية « ماني » الأدبية وصفاء أفكاره كثيرا من
شعوب الشرق الاوسط . بل وتسقلت الى الكنيسة الرومانية ذاتها عن
طريق شمال افريقيا ثم الى اسبانيا لاننا نجد القديس أوغسطين « أسقف
مدينة هيبو Hippo في شمال افريقيا والمبشر بالمسيحية في جنوب بريطانيا
ومؤلف مدينة الله » (١) يتحدث عن صراع الكنيسة الغربية ضد الطائفة
الماناخية والتي اعتبرها مؤامرة أجنبية مدبرة ضد الكنيسة الرومانية .

وليس هناك أدنى شك في أن الثورة الماناخية التي اندلعت في مدينة
الاسكندرية عام ٢٩٧ م وانتهى قادها زعيمان هما : أخيليوس ورفيقه
دوميتيوس دوميتيانوس والتي بذل ديوقلديانوس جهدا كبيرا في سحقها
أدى الى حصار الاسكندرية حتى المجاعة ، ثم دخلها وأعدم كل من
اشترك فيها . كانت اول محاولة لتطبيق فكر العقيدة المقاتلة ضد الظلم الاجتماعي ،
وكانت ثورة موجهة ضد الامبراطورية الرومانية لاننا نجد ديوقلديانوس
يبعث في عام ٢٩٧ م برسالة صارمة الى حاكم شمال افريقيا الروماني ضد
الماناخيين وصفهم فيها بأنهم عملاء دولة معادية ، وبأنهم شياطين يثيرون
الفوضى ويعكرون صفو السلام الروماني أو يدعون الشعب للثورة ويسمون
أفكار الناس ، ثم أصدر قراره بوجوب تصفية هذه الحركة وحرق زعمائها
أحياء مع كتبهم المقدسة وقطع رقاب أتباعهم ، أما الرومان الذين دخلوا
في هذه العقيدة فقد أصدر أمره بأن يسجنوا مدى الحياة ويقومون
بالاعمال الشاقة في المناجم والمحاجر (٢) .

ومن ناحية أخرى نجح المجوس في الكيد لزعيم الطائفة ماني عند
ملك الفرس وأقنعوه بأنها مؤامرة لتلويث التراث المجوسي فحكم على ماني
بالسجن الذي بقى فيه حتى موته عام ٢٧٦ م . لكن موته لم يمنع عقيدته
من الانتشار شرقا وغربا . ولم يمنع الاضطهاد الوثني ثم المسيحي الغربي
هذه الحركة من الانتشار حتى داخل الكنيسة الغربية ذاتها . ففي

P. Brown : Augustine of Hippo — A bibliography, London Faber & (١)
Faber 1967, Passim.

cf. Mosaicarum et Romanorum legum collutio 153, I, ff = Vogt. Ibid, (٢)
p. 54.

عام ٣٨٥م اعدم الاسقف الاسباني بريتسيليانوس بتهمة الانتماء الى الطائفة المانية واحرق اتباعه احياء . ورغم ذلك تركت تراثها في الطوائف المسيحية المتأخرة والتي ظهرت في العصور الوسطى (١) .

ومن المذاهب المسيحية التي دعت الى الثورة ايضا مذهب الدونانية التي قادها دوناتوس ضد مسلك اسقف قرطاجة في اوائل القرن الرابع وتطورت الى الثورة على نزاهة لاساقفة والمندسين على لعقيدة من الارستقراطيين والبيروقراطيين الذين دخلوا الكنيسة لحاجة في نفوسهم وللحفاظ على مكاسبهم ومراكزهم ، ثم تطورت اكثر واكثر الى اختلاف عقائدى متخذا طابع الثورة الاجتماعية ضد الارستقراطية المسيحية والسلطات الرومانية ودعت الى وجوب تحرير العبيد واجبار الاسياد على القيام بدور العبيد كشرط للقبول في الكنيسة . وبالرغم من أن ادانة الكنيسة الرومانية للدونانية الا أنها بقيت قوة مؤثرة في شمال افريقيا منذ عهد قسطنطين حتى الفتح الوندالي لشمال افريقيا عام ٤٢٩ . وقد استقبل الدوناتيون الفزاة الونداليين بارحاب واعتبروهم محررين لهم من بطش الرومان وكنيستهم (٢) حيث ثبت ان الصراع ليس مرجعه الخلاف على بعض تفسيرات العقيدة المسيحية وانما مرجعه الى الشخصية السامية للكنيسة الافريقية ولافكارها ولرغبتها في الثورة على ظلم الاستعمار الروماني المتمثل في الكنيسة الكاثوليكية ، ولهذا السبب وكيدا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية رحبوا بالوندال الذين ينتمون الى المذهب الاريوسي (٣) .

كانت الاريوسية أشد الطوائف المسيحية خطرا على كنيسة روما . لتجاوب منطقتها مع المنطق العقلاني للشعوب الجرمانية التي اغارت على روما ، بل ان الامبراطور قسطنطينوس نفسه آمن بها وتعاطف معها بالرغم من ترأسه لمؤتمر نيقية عام ٣٢٥م والذي حرم الاريوسية وطرده الاريوسيين من الكنيسة الا ان الراهب الذي عمده وهو على فراش الموت عام ٣٣٧م هو يوسيبوس الاريوسي . وقد خرجت الاريوسية من الاسكندرية . ويقوم منطقتها على ان الابن رغم انه وجد قبل الخليقة الا انه يأتى بعد الاب ولا يجب ان يسمو الى منزلته جوهرها وقدسيتها وأزلية ، ومن الغريب أن معارضتها الشديدة خرجت من الاسكندرية ايضا على يد الكسندروس وشماسة اثاناسيوس . واصبح المسيحيون منقسمين (٤) . أما مع أريوس او مع مؤتمر نيقية . وفي ذلك الوقت تبنت كنيسة الاسكندرية مذهب

ef. W. Durant. The Age of Faith, 325-1300, p. 47. (١)

S. Neil, A History of Christian Missions (1964) p. 38. (٢)

cf. Vogt, op. cit., p. 92 and p. 227 ; Gibbon, ibid, vol. II, p. ٢٩٠. (٣)

Vogt, op. cit p. 114. (٤)

المونوفيزية الذين قالوا فيه بالطبيعة الواحدة الالهية للمسيح ويؤمنون انه هو الله ظهر في صورة البشر وينكرون وجود اى طبيعة بشرية له . وبالرغم من أن مؤتمر خلقدونية عام ٤٥١ ادان المونوفيزية الا انه أصبح دعامة الكنيسة القبطية وفروعها في الحبشة وسوريا .

وعلى النقيض من المونوفيزية جاءت النسطورية نسبة الى نسطور Nestor كبير اساقفة القسطنطينية عام ٤٢٨ . وقد قادته دراساته اللاهوتية الى أن الطبيعة البشرية هي التى تطفى على المسيح حيث أن مريم العذراء أم المسيح من البشر . ولكن مؤتمر افسسوس الكنسى دحض هذه المزاعم وحرّمها عام ٤٣١ ولكن هذه الدعوة استمرت وانتشرت في سوريا وبلاد ما بين النهرين وايران واواسط آسيا الصغرى والى كهنة النساطرة يرجع الفضل في ترجمة وحفظ التراث الهليني ونقله الى الاماكن التى ذهبوا اليها .

اما الطائفة البيلاجوسية التى أوجدها الراهب البريطانى المولد بيلاجيوس Pelagius عندما ذهب الى روما عام ٤٠٠ ، ثا هاجر الى قرطاجة ثم اقام في فلسطين مهد المسيح . وذهب بيلاجيوس وأن الانسان مخير وليس مسيرا ، وبالتالي شك في قدرة الانسان أن يحرر نفسه من الشر والخطيئة بمشيئته الذاتية وبناء على ذلك أنكر فكرة توارث الخطيئة منذ ايام آدم ابي البشر (١) . وقد تصدى القديس اغسطين للرد على البيلاجوسية . وبالرغم من أن المجمع الكنسى الافريقى ادانها عام ٤٢٠ م واعتبرها هرطقة . ثم ايد ذلك مؤتمر افسسوس عام ٤٣١ الا أن البيلاجيوسية وجدت لها عشاقا بين رهبان بلاد الفال . ومن هناك انتشرت الى بريطانيا حيث عجزت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن تملى شروطها في هذه الولاية التى لم يعد للامبرطور الرومانى اى سلطان عليها .

هذه صورة موجزة للصراع التفكك الفكرى الذى ساد ولايات الامبراطورية فاضعف وحدتها في وقت راحت القبائل الجرمانية تهاجم الامبراطورية وتفتطع منها اجزاء تستقل بها الى ان استقلت تماما بالشرط القربى للامبراطورية مكونة دويلات لها شخصية مستقلة وهى اصل بعض دول أوروبا الحديثة .

J. Vogt. op. cit p. 278.

(١)

(د) تفسيرات المؤرخين القدامى والمحدثين لسقوط الامبراطورية :

منذ ان سقطت الامبراطورية الرومانية والمؤرخون لا يكفون عن البحث والتقصي عن الاسباب التي ادت الى سقوط الامبراطورية الرومانية . واختلفت الآراء حسب نظرة المؤرخ من زاوية محددة وحسب المناخ الفكري والسياسي الذي سيطر على العصر الذي عاش فيه . ومن ثم لدينا تفسيرات مختلفة ومتباينة ونظريات متنافرة عالجت موضوع سقوط الامبراطورية من زوايا متعددة دينية وعقلانية واقتصادية وطبيعية . وكما يقول جونز « كان لكل عصر تفسيره لاضمحلال وسقوط الامبراطورية » (١) .

ففي جو 'لتوتر الديني بين الوثنية والمسيحية تبادل مؤرخو كل من الفريقين التهم فقال زوسيموس Zosimus أحد كبار مؤرخي القرن الخامس ومؤلف موسوعة التاريخ الجديد ان المسيحية هي المسؤولة عن تردى الاحوال الاقتصادية في الامبراطورية . وان سقوط روما على يد الاريك هو رد فعل لغضب الآلهة الوثنية التي صنعت روما وبنت عظمتها ثم ألقي اللوم على الامبراطور قسطنطينوس بأنه المسئول الاول عن هذا السقوط لانه دحر الوثنية واحل المسيحية محلها .

ويرد أروسيوس أن الرومان اهان عصورهم الوثنية لاقوا من انهزائم ما هو أقسى مما لافاد الرومان في العصر المسيحي اذا فلا ذنب للمسيحية في ذلك . ولكنه يتنبأ بأن الله لن يترك البرابرة في غيهم بل سرعان ما سيهديهم ويتحولون الى خدام للامبراطورية .

ويتلقف الاخلاقيون المسيحيون الموضوع فيعلن سالفيانوس في كتابه De gubernatione Dei «عن حكومة الله» ان حكمة الله وحكومته ضد اي انواع خاصة الانعواج الاخلاقي ويفسر سقوط الامبراطورية بأنه عقاب من الله بسبب الخطايا والضلال والانحراف الذي يعيش فيه الرومان . اما القديس اوغسطين مؤلف كتاب مدينة الله فقد ذهب بأن سقوط روما - التي شبهها بسقوط بابل كما جاء في النوراة - هو نتيجة الإرادة الالهية التي تدير الكون وتوجه مصائر البشر حتى تنتصر مملكة الله الابدية وهذا مصير كل الدول والبشر (٢) . أما المؤرخ الوثني المتسامح اميانوس

A.H.M Jones, Thoughts on the Decline of the Roman Empire, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XXIII, pat I, May 1961, p. 9 f.

St. Augustine, The City of God, translated and abridged by G. Walsh (٢) and Others, New York 1958, pp. 16-31.

لقد استفدت كثيرا من التعليقات الذي قدمه الدكتور عبد الفادر أحمد اليوسف في كتابه المسور الرسطى الارمنية : الفصل الاول من ١٣ الى ٢٧ (مع البحث على طريقة عرض بعضها والتي هي في الواقع تلخيصا لما عرضه موميليانو في كتابه .

The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century pp. 1-12.

مارسيلينوس Ammianus Marcellinus المولود عام ٣٣٠ في انطاكية ولدى امتدحه جيبون كثيرا لتحريره من الانجاز والتطرف الذى ساد فى عصره ، فقد نسب المصائب التى حلت بالرومان الى انعدام الوازع الاخلاقى عندهم (١) . واخيرا يتناول يوحنا اسقف نيقية نفس الفكرة الاخلاقية فى العصر البيزنطى ليشرح سبب انتصار العرب على الرومان بعد فتح عمرو بن العاص لمصر بأن ذلك تم عقابا على ما اقترفه جستينانوس وهراقليوس اباطرة بيزنطة « من اضطهاد ضد الاقباط الاوزثوذركسين فى مصر » .

وفى عصر الثورة الصناعية وانتشار العقلانية الالحادية خاصة بعد الثورة الفرنسية نجد تفسيرات مؤرخى هذه الفترة لسقوط الامبراطورية تتخذ الطابع الالحادى العقلانى الذى يهاجم المسيحية لعدم مسايرة الكثير من جوانبها للتحليل العقلانى والتى تعتبر تراث العصور الوسطى المسيحية نكرة انتكاس فى تاريخ الحضارة الاوربية . ويجيء على رأس هذه المدرسة المؤرخ اذوارد جيبون مؤلف العمل الكبير والخالد « اضحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » . وخلاصة رأى جيبون ان التسكك العسكرى والدكتاتورى قتل الفضائل التى كان يتخلى بها الرومانى القديم وجاءت المسيحية واسبغت روحه المعنوية . وحولت هذا الشعب الرومانى الى شعب سلبى انهزامى ، وان الرهينة والكنيسة جذبت اليهما الآلاف من أبناء الرومان القادرين على العمل فى وقت كانت فيه الدولة فى حاجة الى طاقاتهم ، ثم اُضيف ان الصراعات الطائفية المسيحية هى المسؤولة عن تفكيك عرى الوحدة الوطنية وهى التى أدت الى انقسام الامبراطورية وتفككها .

وهناك فريق من الأساتذة من يعزون تدهور الامبراطورية الى تقلبات مناخية تولد عنها نكبات أصابت المحاصيل الزراعية بسبب الجفاف . ويشير هنتنجتون Huntigton الى ان الاحصائيات تبين ان العالم تعرض (٢) فى الفترة ما بين ٢٠٠ - ٤٠٠ ميلادية الى فترة جفاف مريرة نتج عنها مجاعات وهذه المجاعات أدت الى الثورات ، وقبل كل شئ الى تحرك القبائل البربرية من الجرمان والقوط بحثا عن الطعام وهى القبائل التى

(١) Ammianus Marcellinus, translated by J. Rolfe (Cambridge 1935), XVI.

(٢) Ellsworth Huntigton «Climatic change and Agricultural Exhaustion as Elements in the Fall of Rome» Quarterly Journal of Economics, 1916.

هاجمت الامبراطورية في الغرب ووضعت نهاية لها (١) ولكن جونز يرد على هذا الرأي بأنه لا يقوم على أدلة ثابتة .

ويمزى سيمكوفتش Simkhovitch سقوط الامبراطورية الى الافلاس الزراعى الناتج من انهالك التربة واهمال الحكومة فى أى مشروعات لتحسين الزراعة مثل الري والصرف ، وقلة الانتاج وزيادة التكاليف وبهاظة الضرائب مما شجع الناس على ترك المزارع . فتحوّلت الى مراعى ، وقد لوحظ ذلك من قائمة الاسعار التى أصدرها ديوقلدنانوس حيث لوحظ هبوط سعر اللحوم بينما ارتفعت اثمان المحاصيل الزراعية ويضيف سيمكوفتش الى تفاقم خطر الأوبئة التى راح ضحيتها الآلاف من سكان الريف مما نتج عنه النقص الشديد فى الايدى العاملة خاصة فى مجال الزراعة (٢) . ويرد الاستاذ جونز على اصحاب هذا الرأي بأنه يحوى بعض الحقيقة وليس كل الحقيقة لأنه بالفعل حدث هذا فى بعض الحالات ولكن حكومة الامبراطورية اتخذت اجراءات لمعالجة ذلك مثل الاعفاء الضريبى للمعمرين الجدد للاراضى المهجورة اما فيما عدا ذلك فالارض كانت جيدة والانتاج وفير بدليل ان الايجارات ارتفعت عن ذى قبل وبدليل ان الرحالة العرب يتحدثون عن رخاء بعض الولايات الرومانية مثل مصر وشمال افريقيا عندما انتشروا ابان القرن السابع . ويضيف جونز ان هذا الرأي ربما قد ينطبق على العصور الوسطى (٣) . كما يعترض على هذا الرأي باينز مبينا ان الدمار الزراعى لم يلحق بكل ولايات الامبراطورية وانما ببعضها فقط ، ويضرب المثل ببلاد الغال حيث بقيت زراعتها مزدهرة حتى القرن الخامس الميلادى ولكنه يلقي اللوم على نظام ادارة الاراضى الزراعية . وذلك ان اصحاب الاقطاعيات الكبرى Latifundia تركوا زمام الادارة الى وكلائهم وبقوا هم فى المدن (absent landlords) يعيشون من دخلها فنتج عن ذلك اهمال هؤلاء الوكلاء وعند حرصهم على رفع الانتاج او المستوى الزراعى للضياع (٤) .

Jones. Loc. cit., p. 11.

(١)

G. Simkhovitch "Rome's Fall, Re-considered", Journal of political science, 1916.

(٢)

Jones, loc. cit., p. 11.

(٣)

N. Baynes, The Decline of the Roman Empire in Western Europe, Journal of Roman Studies, 1943; also of The transformation of the ancient world. Gibon's problem after two centuries (Ucla center for Medieval and Renaissance Studies, Contribution 111), published by White, Jr., Berkeley Los Angeles, University of California, Press 1966.

أما الذين ذهبوا الى أن دمار الاقتصاد في الامبراطورية أدى الى تدهورها وسقوطها فهم كثيرون . نورد منهم أندريه بيغانول André Piganiol الذى لخص السبب في نقص الايدى العاملة خاصة العبيد - الطاقة الاساسية لعمال الانتاج الزراعى ، ثم الحروب الاهلية واعمال التسرد المتعددة التى قام بها الجنرالات ومحاولتهم الانفصال والاكتفاء ذاتيا بمقاطعاتهم مما أدى الى عودة النظام الاقتصادى البدائى وتدمير رأس المال بالطاقة المنتجة . ثم تدهور مركز روما التجارى الدولى بسبب فقدانها السيطرة على الطرق الدولية للتجارة نتيجة لظهور الفرس كقوة جديدة فى منطقة الخليج والشرق الأوسط ، ونتيجة لنجاح طريق الراين - الدانوب ومنافسته لطريق الخليج - البحر المتوسط وذلك بعد حكم تراجان وأخيرا ، أورد بيغانول رعوثة الدولة فى إدارة اقتصادها عندما حاولت التدخل فى المشروعات وقامت بدور الراسمالى المستغل الذى يجند العمال اجباريا ويستعملهم شر استغلال ويفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين مما أدى الى الهروب الجماعى او تسليم أراضيهم الى الاقطاعيين الذين كان معظمهم لا يدفعون الضرائب نظرا لمراكزهم الاجتماعية العالية . وبالرغم من الامبراطورية حاولت فى أيامها الأخيرة التخفيف من قبضتها على الاقتصاد ووقف زحف الاقطاع الا أن عدم الاستقرار المتمثل فى هجوم البرابرة الحرمان والقوط على حدود الامبراطورية فى الغرب وفى البلقان .

كما أن بعث الامبراطورية الفارسية فى الشرق أغرق الامبراطورية فى حروب باهظة ومكلفة واضطرت الى رفع الضرائب لتعويض نفقات الحرب فتدهور الاقتصاد بينما فشلت الامبراطورية فى مقاومة الغزاة (١) . ويؤكد دولبانك على مسئولية الاقطاع الذى كان مرجعه الى نقص الايدى العاملة خاصة العبيد ، فضلا عن الاعتماد على بدائية الوسائل المستعملة فى الانتاج مما جعل العمل مرهقا والمحصول ضئيلا بينما الضرائب باهظة . أما الصناعة فكانت لا تكاد تذكر فالصوف كان يعزل بالمفازل اليدوية والنسيج ينسج بنولات ايضا يدوية لدرجة أن نسيج ثوب واحد كان يستغرق مجهود شهر من العمل الشاق أما الاسلحة والمطروقات عن طريق الكير فبدائية طرق الانتاج هو الذى أدى الى خراب اقتصاد الامبراطورية ومن ثم الى سقوطها (٢) .

(١) André Piganiol : L'Empire Chrétien, Paris 1947 1947, pp. 411-422.

(٢) F. Walbank, The Decline of the Roman Empire in the West New York 1935, p. 3-7.

وقد أعاد نشر كتابه حديثا قبل وفاته وبعد أن غير قليلا من آرائه القديمة أنظر :

أما وسترمان Westerman فلا يرى في تدهور طبقة العبيد المنتجة سبباً في تدهور الإقتصاد ، بل يرى أن قتل الإقتصاد الحر والقضاء على المشروعات التي يقوم بها الافراد هو الذي قضى على الإقتصاد فعلى مجال الزراعة ساعدت سياسة الدولة على ظهور ونمو نظام الإقطاع وذلك على حساب اصحاب الملاكيات المتوسطة والصغيرة الذين تحولوا إلى أدوات إنتاجية يستغلون لصالح الإقطاع بل حلت هذه الطبقة محل العبيد . مما قوض دعامة الطاقة المنتجة (١) .

ويذهب فريق آخر من الإقتصاديين إلى أن السبب هو أن التجارة الدولية لم تكن في صالح الإقتصاد الروماني (٢) لأنها كانت تجارة كماليات مثل العاج والحريز والتوابل والعطور وبالتالي لم تكن روما تصدر أشياء مقابلة لأن صناعاتها كانت بدائية وللاستهلاك الداخلي فقط فضلاً على أن الحكومة لم تشجع على الصناعة التي كان الرومان يحتقرونها كما أن السلطات حرمت على الرومان توظيف أموالهم في التجارة التي اعتبروها من شيمة العبيد وليست من شيمة الأحرار . ومن ثم كان عليها أن تدفع ثمن هذه الكماليات ذهباً . ولما كانت المناجم قد هجرت أو نفذت فقد كان من الصعب على الرومان تعويض هذا المعدن أو حتى وقف استنزافه فكانت النتيجة تقلب العملة بتخفيض نسبة الفضة والذهب فيها لدرجة مفرغة وبالتالي انخفضت قيمتها مقابل ارتفاع في الأسعار بل ورفض الناس في كثير من الحالات قبول هذه العملة المخفضة وفضلوا العودة إلى نظام التعامل البدائي وهو نظام المقايضة وفي كثير من الأحيان عجز المنتج عن تسويق بضاعته مما أدى إلى انكماش الإنتاج بحيث أصبح الفلاح مثلاً لا يزرع إلا ما يكفيه وبعضاً يقايض عليه نظير المستهلكات الأخرى . والحق يقال أن هذه نظرية متقدمة جداً في الفكر الإقتصادي . وبالفعل في حجم تجارة الكماليات التي لم يكن يطلبها سوى أقلية ضئيلة من الأنبياء في بلد يعج بالفقراء .

F.W. Walbank, The awful Revolution. The Decline of the Roman Empire in the West, Liverpool University Press, 1969, p. 2 ff.

W. Westerman «The Decline of Ancient Cultures, The American (١) Historical Review, 1915.

cf. J. Strayer and D. Munro, The Middle Ages, 395-1500, New York (٢) 1943, p. 5-7, also cf. James Miller : The Spice Trade of the Roman Empire 29 BC to 642 AD, Oxford, The Clarendon Press 1969, p. 227-241.

بما يرفض وسترمان هذه الفكرة مدلا على ان التجارة مع الهند وبلاد العرب التي تحدث عنها بليني في كتابه « التاريخ الطبيعي » *Historia Naturalis* . (١) كانت في صالح زوما بقدر ما كانت في صالح الطرف الآخر خاصة ان بلاد الغرب كانت تحت النفوذ الروماني ، ولكنه يأتي برأى غريب وهو ان ندرة المعادن الثمينة هو الذي ادى الى تقلص العملة وضعف قيمتها الشرائية ناتج من الاتجاه نحو اكتناز الاثرياء الرومان (٢) للذهب والفضة وعدم تشجيعها في نواحي الاستثمارات المختلفة وهو رأى غير مقنع بالنسبة لتفسير الاستاذين ستروير ومونرو اللذان يضربان المثل باضطراب قسطنطينوس الى تخفيض وزن الذهب في السوليدوس الروماني عما كان عليه أيام ديوفلدريانوس والذي كان قد خفض وزن السوليدوس الذهبي الى ١/٦٠ من الرطل الروماني ثم جاء قسطنطينوس وجعل وزنه ١/٧٢ من الرطل الروماني . بينما كان في استطاعة كل من الامبراطورين السابقين مصادرة الذهب او الفضة المكنوزة في وقت كانوا يملكون كل شيء عن الناس عن طريق جواسيسهم . agents-in-rebus

اما جونز فيرى ان سبب سقوط الامبراطورية هو هجمات الشعوب المعادية مثل الجرمان والهون والفرس ولا يرى ان الاقتصاد هو السبب الرئيسي او حتى الأكثر اهمية في سقوط الامبراطورية . ويشرح جونز نظريته بأن السبب المباشر لسقوط الامبراطورية الغربية هو هزيمتها على يد القبائل البربرية الجرمانية ، فضلا على ان هؤلاء البرابرة قد فرضوا على الامبراطورية حملا ثقيلًا في تكبد نفقات باهظة والاحتفاظ بجيوش كبيرة طوال القرنين السابقين على تاريخ السقوط ، مما نزل اقتصاد الامبراطورية حتى الموت . ولما كان دخل الامبراطورية الاساسي يجرى من الضرائب التي تجبى من الاراضي الزراعية فقد تكبد الفلاحون هذه النفقات التي قضت ظهورهم فتخلصوا من اراضيهم سواء بالبيع او الرهن او تسليمها للاقطاعي نظير الحماية منه *Commendatio* مما ادى اختفاء الملكيات الصغيرة والمتوسطة التي هي الطاقة الخيرة بفنون الزراعة واستغلال الرض وحل محلها الاقطاعيون الذين يتعيشون من تأجير اراضيهم وهم غائبون عنها (*absent landlordism*) او مقيمون في المدينة ، او كانوا يعهدون ادارتها الى وكلاء قلوبهم ليست على زيادة انتاج الارض ، بل على استغلال العاملين عليها . ويدافع جونز عن نظريته القائلة بأن تدهور القوة العسكرية هو السبب الاساسي بأن الجزء الغربي

Piiny, *Historia Naturalis*, vol, VI, 101

(١)

Westerman. op. cit., p. 370.

(٢)

من الامبراطورية سقط اولاً لانه كان أكثر معرضاً للخطر من ساحرة
الراين والدانوب من النصف الشرقى ، ولأن مصادره الاقتصادية ارهقت
بسرعة . ولم تعد قادرة على العطاء بالقدر الذى تحتاجه الامبراطورية
للحفاظ على وجودها ولكن جونز يؤكد أن الانهيار فى القوة العسكرية
ليس راجعاً الى الازهاق الاقتصادية أبداً ولكن الى فقدان القدرة على
الدفاع عن ولايات الامبراطورية . ويقول أن الاستعمار الرومانى ونظامه
قتل احساس سكان الولايات بالانتماء الوطنى لتراب بلادهم وبوجوب
 حمايته والدفاع عنه واستسلموا لحكم الرومان ، تاركين مهمة الدفاع
عنهم لجيش الامبراطورية . ولهذا لم تكن هناك مقاومة شعبية ضد
المغربين الاجانب لان الاحساس بالاعتماد على الجيش الامبراطورى أصبح
متغلغلا فى نفسية هذه الشعوب ، بل أن روما حرمت على سكان هذه
الولايات حمل الاسلحة خوفاً من أن ترفع ضدها .

ويلقى جونز بعض اللوم على المسيحية لانها ساعدت على تزايد هذا
الاحساس السلبي أما بارجاع كل ما يحدث الى ارادة الله التى يريد بها
امتحان عباده المؤمنين فى التحمل والصبر ، أو الى دعوتها لرجالها
بالابتعاد عن تولى الوظائف الحكومية تفادياً للخطيئة وحتى لا يقع الاذى
بأخوته الآخرين مما حرم الادارة من عنصر نظيف وفى وقت ساد فيه
الفساد والرشوة والابتزاز كل قطاعات الادارة البيروقراطية (١) .

ومن الجدير بالذكر أن رأى جونز يكاد يتفق فى جوهره مع الراى
القديم الذى فسره جيبون تدهور وسقوط الامبراطورية والذى يجىء
فى الجزء الرابع من كتابه حيث يشير الى أن الانحلال الذى اخذ يدب فى
الامبراطورية بعد موت ماركوس أوريليوس عام ١٨٠ ميلادية مرجعه
تفاقم خطر الهجمات البربرية التى انقضت على الامبراطورية فى الجزء الغربى
وتسبب عنه تحول المجتمعات الرومانية فى هذه الولايات نحو الطابع
البربرى واستنزاف للقوى البشرية الرومانية والاقتصاد الرومانى . كما
أن انتصارات هذه القبائل البربرية زعزعت الايمان بالامبراطورية فى الداخل
وكسرت هيبتها فى الخارج مما شجع المعتدين والطامعين فى التمدادى فى
العدوان . وأخيراً يحمل جيبون المسيحية وزر كل ما حدث اذ اعتبرها

Jones, loc. cit. pp. 9-18.

(١)

مثلاً ينفى المؤرخ النموى دوبيش Doppech أن الجرمان كانوا سبباً فى انهيار
الامبراطورية وأن ما حدث لا يعدر أن يكون عملية إعادة توزيع للأرض على نطاق واسع
عسب التقليد الرومانى ، رينيه ، أن استيطان الجرمان أدى الى انتقال التجارة ومودة
لاقتصاد البدائى .

cf. Momigliano op. cit., p. 6.

بأنها هداما لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، فمن الناحية السياسية وقفت المسيحية موقفا سلبيا من نظام الامبراطورية القديم ولم تعترف بالوهية الامبراطور كرمز للسيادة الرومانية بوحدة كل شعوبها المتباينة عنصرا ودينا ، ومن الناحية الاقتصادية ثبطت المسيحية الهمم وقتلت الطموح بدعوتها لاتباعها في صلاتهم الا يطلبوا من الرب سوى كفاف يومهم وفي نشر الزهد والتعفف عن العالم المادي الذي في نظرها سوف ينتهى أجلا ام عاجلا لتبقى مملكة الرب الخالدة ، ومن الناحية العسكرية فان دعوتها الى المسالمة والاستسلام السلبى قتل روح الزهو الايجابى وقضى على الكبرياء القومى الذى هو المحرك الاول لطاقة الجنود وقدراتهم القتالية . كما يتهم جيبون المسيحية بأنها المسئولة عن تفكك عرى الوحدة الفكرية بعد انتشارها وذلك بسبب التطاحن بين المذاهب والفرق والطوائف مما ادى الى فوضى فكرية وبليلة ايديولوجية شغلت الامبراطورية عن ميدان القتال في وقت هو ذروة المحنة ، بل ان الطوائف المضطهدة دفعها سخطها الى التعاون مع العدو كما حدث عندما استغنى الدوناتيون في شمال افريقيا الغزاة الونداليين بالترحاب واعتبروهم محررين لهم من بطش الرومان وكما حدث عندما استقبل الاقباط العرب بالترحاب انقاذا لهم من البطش الدينى البيزنطى (١) . ولكن جيبون يعترف للمسيحية بشيء واحد هو انها خففت من حدة سقوط الامبراطورية لانها كانت قد هذبت من بربرية وسلوك الجرمان والقوط (٢) .

والشئ الوحيد الذى يختلف فيه جونز مع جيبون هو ان الاول ايد وجهة نظر انصار المدرسة التاريخية ابان القرن التاسع عشر القائلة بعدم مسئولية الجرمان ولا القبائل الجرمانية عن سقوط الامبراطورية ، بل على العكس كان الجرمان اداة قوة في قيادة وجيوش الامبراطورية . ويصف جونز كيف ان القادة الجرمان كانوا مخلصين في خدمة الامبراطورية وان الجنود الجرمان كانوا المصدر الاول للتجنيد بعد ان نضبت العناصر اللاتينية بل يذهب جونز الى حد امتداح القدرة القتالية عند الجرمان (٣) .

(١) بلغ حقد اللاتينيين الرومان ضد الاقباط المصريين انهم لم يعاوا بجيوش عمرو بن العاص عندما انتحمت حصن بابليون في السادس من ابريل عام ٦٤١ ، وضيما يوما كاملا من ايام المهلة الثلاث التى منحها لهم عمرو في تعذيب الاقباط المسجونين في الحصن ولما اخلوا الحصن ودخل العرب وجدوا هؤلاء المخلصين لعقيدتهم وقد انقطعت ايديهم وارجلهم وشوهت جثث قتلاهم .

E. Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV. (London (٢) 1901), pp. 160-163.

Jones, loc. cit., pp. 16-17.

ومن ناحية أخرى ينتقد المؤرخون الألمان آراء خيبون ويبيّنون كيف أن القبائل الجرمانية التي هاجمت الإمبراطورية دفعوا إلى ذلك دفعا بسبب اجتياح قبائل الهون السيبيرية وأن هدف الجرمان كان هو الاختلاء داخل حدود الإمبراطورية وليس العدوان عليها . وبين أنصار المدرسة التاريخية الجرمانية أن الإمبراطورية كانت تعرف الجرمان منذ وقت طويل ولها تاريخ في التعامل معهم سواء في السلم والحرب وأنهم كانوا عنصرا مفيدا منتجا سواء في زراعة الأرض أو في الدفاع عن الإمبراطورية ، وأنهم كانوا يحظون باحترام وتقدير الرومان لدرجة أن المؤرخ تاكيتوس أشاد بالجرمان ووصفهم بالشجاعة والأقدام وامتدح فضائل تسائهم بل وفضلين على نساء الرومان فضلا عن تقدير الجرمان للخضارة الرومانية (١) .

أما آلدو موميليانو فينبري للرد على هجوم خيبون على المسيحية واتهامه لها بأنها كانت السبب وراء تدهور وسقوط الإمبراطورية مشيرا إلى أن المسيحية رسالة خيرة إصلاحية قصد بها صالح الإنسانية، ومبادئها تقوم على التضحية والمساواة والسلام وقبل كل شيء المحبة حتى تجاه العدو ، كما أن المسيحية أصبحت لها ثقافة إنسانية حضارية هي التي حولت الجرمان من أجلاف برابرة إلى أناس متحضرين ملتزمين بأخلاق ومبادئ إنسانية كسرت شرastهم وحدثت من بربريتهم كما أن الكنيسة لم تقف موقف المتفرج أو المنسحب من مشاكل الإمبراطورية ، بل على العكس إذ كثيرا ما وقفت إلى جانب الإباطرة ساعة الخطر وتوسطت بينهم وبين الجموع الفائزة . ومن ينكر فضل الكنيسة الكاثوليكية في الحفاظ على نقل التراث الروماني واللغة اللاتينية عبر ظلام العصور الوسطى إلى العصر الحديث . كما أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن سوى دعوة الكنيسة المسيحية (٢) .

ومن المدارس التاريخية التي تناولت بتحليل أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية مدرسة الصراع الاجتماعي أي المدرسة التي تفسر مسار التاريخ على أنه صراع طبقي واجتماعي ويتزعم هذه المدرسة ميخائيل روستوفتزف Rostovtzeff وأن كان تفسيره في الحقيقة معتدلا إلى حد ما بالنسبة إلى غيره من المتطرفين لهذا التفسير .

يرجع رستوفتزف تدهور الإمبراطورية إلى الصراع الطبقي العفوى الذي نشأ بين البروليتاريا من سكان الريف والتي كان يؤازرها ويؤيدها

(1) Strayer and Munero, op. cit., pp. 25-8. Ig. Momigliano, op. cit., p. 12.

(2) cf A. Momigliano, op. cit., p. 12.

الجيش وزعماءه ، وبين الارستقراطية الرومانية صاحبة الاقطاعيات الزراعة والتي كانت عادة تعيش في المدن وتعيش على ما تجنيه من اراضيها دون الاشراف الصالح عليها ، ويؤيدها طبقة كبار الموظفين البيروقراطيين والذين كانوا يعيشون من رواتبهم الكبيرة التي كان يدفعها الفلاح المسكين من حرقه ودمائه . ويعزى روستوفتزف سقوط الامبراطور الى حركات الانقلابات العسكرية التي سادت ابان القرن الثالث الميلادي حيث اخذ قادة الجيش يقفزون على العرش وسط هتاف جنودهم لمدة قصيرة . ولما كان هذا النوع من الابطارية غير روماني الاصل ولا يعتمد على اي تأييد سوى انبطش العسكري فقد ابدلوا كافة المؤسسات الديمقراطية وجعلوا العرش وراثيا .

وقد ايد الجيش هذا التطوير لان البروليتاريا عادة يهيمن عليها التفكير الديماجوجي ، او لان هذه العناصر التي جاءت من الطبقات غير الرومانية المجرومة لم يكن عندها الحفاظ على موازين الديمقراطية الارستقراطية الرومانية ، واقول الرومانية اي التي كانت وقفا على العنصر الروماني وليس لرعايا الامبراطورية فيها اي دور خاصة اولئك الذين كانوا من ولايات غير لاتينية .

يعتبر عهد سبتيميوس سيفيروس الامبراطور الفينيقي السوري نقطة التحول الحقيقية نحو فقدان العنصر الروماني والايطالي السيطرة على زمام الامبراطورية ، خاصة في الجيش الذي لم يعد في القرن الثالث رومانيا ، وكذلك منصب الامبراطور الذي كان يتولاه عادة قائد الجيش ، ونحن نعلم انه تولى بعد أسرة سيفيروس أسرة سورية أخرى دام حكمها حتى حكم الكسندر سيفيروس عام ٢٣٥ ميلادية ، ثم تولى اباطرة متنوعو العنصر (احدهم كان عربيا وهو فليب ٢٤٤ - ٢٤٩) حكموا حتى مجيء الابطارة الاليريين من كلاوديوس القوطي (٢٦٩ م) حتى حكم قسطنطين ، ثم سيطر بعد ذلك قادة الجيوش الجرمان والقوط . اي انه منذ حكم سبتيميوس سيفيروس وحتى حكم قسطنطين لم يعد لا الابطارة ولا الجيش ملكا للعنصر الروماني والايطالي ، بل سيطرت عليه بروليتاريا الريف التي هي في الاصل عناصر ساخطة تركت الارض مرغمة ، هربا من ظلم جباة الضرائب وخسارة الزراعة ولهذا كانت تحس بالمرارة والحقد ازاء الطبقة الارستقراطية صاحبة النفوذ الاقطاعي في الزراعة ، وضد طبقة كبار الموظفين البيروقراطيين الذين كانوا يتسلمون رواتبهم الكبيرة من عرق الفلاحين الكادحين الممولين لضرائب الامبراطورية مقابل لا شيء سوى الظلم والتعسف . كما اصبحت المدينة في نظر الريفيين ليس مركزا للنور والمعرفة والترفيه ، بل

مركز السلطة والظلم ، ومعقل الارستقراطية وجامعى الضرائب من وراء الامبراطورية الممثلين فى اعضاء المجالس البلدية Curiales والذين سلكوا سلوكا تعسفيا ضد الفلاحين فى جمع الضرائب التى تطلبها الامبراطورية كاملة .

ويرفض روستوفتزف بشدة رأى اصحاب فكرة الصراع السياسى اى الصراع بين السناتو ذو الاتجاه الديمقراطى الجمهورى ، وبين الامبراطور الذى اراد ان يسير السناتو فى ركابه وحسب ارادته ، بينما كان السناتو يرى العكس . ونشب هذا الصراع السياسى بالفعل ابان الفترة المبكرة من تاريخ الامبراطورية والتى تنتهى عام ٢٣٥ م ، ثم ذبل السناتو . واصبح اعضاؤه على حد قول القائل « عبيد فى ارواب اسيا » . وخلاصة القول ان السناتو مات فى نفس الوقت الذى لم يعد فيه الجيش ممثلا للعنصر الايطالى ، ثم تحول الصراع الى مجال آخر بين الجيش ممثل الكادحين لكافة الاجناس غير الرومانية ، وبين الارستقراطية الاقطاعية الممثلة للجهاز الظالم الذى يمتص دماء الفلاحين . ودار هذا الصراع مريرا وقاسيا وانتهى بتدمير المدينة وانتشار الريف بفكره البسيط وحضارته الباهتة ، والتى شوهدتها الاتجاهات البربرية الدخيلة ، ومن ثم صاحب هذه الظاهرة تدهور الحضارة الاغريقية الرومانية والتى كانت منذ وقت سابق قد بدا يصيبها الهزال والوهن بسبب غياب الخيال الراقى والتجديد والابداع الفنى ، وبسبب التقليد الاعمى للقديم ، والركود والتحجر ، ثم الهبوط الى مستوى الاسفاف البربرى .

وبالرغم من هذا ينتهى روستوفتزف من نظريته بان هذا الصراع الطبقي المرير والذى نزلت منه الامبراطورية طويلا لم يأت بفائدة واحدة على اى من الطرفين المتصارعين . فمن ناحية دمرت المدن وفقدت رونقها ومركزها القائد ، وتدمر بعدها الاقتصاد الذى كان مركزه المدينة ، بينما لم تحقق البروليتاريا اى مكسب طبقي حسن من وضعها ، اذ بقوا على اوضاعهم الاجتماعية البائسة والمزرية (١) والتى نجس بها من الوثائق البردية ابان القرنين الرابع والخامس ، والتى تعكس صدى المأساة الحقيقية . ويبدو ان وضع البروليتاريا الريفية ازداد سوءا عندما تولى الاباطرة الاليريون الذين فتحوا الجيش امام ابناء عنصرهم ، ولم يكن الاليريون الاجلاف لا يهتمون بشئ بقدر تحقيق الانتصارات العسكرية وحماية وحدة الامبراطورية تحت سيادتهم . ولما جاء قسطنطينوس

M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Roman (1) Empire, (4th. edition Revised by P.M. Frazer, New York, Oxford University Press 1959), Volume 1, pp. 491-501.

بدأت العناصر الجرمانية تسيطر على القيادة والحكم الفعلى للامبراطورية وخسرت البروليتاريا الريفية نفوذها .

وهناك فريق من المحللين الذى اعطو تفسيرات بيولوجية تعرف بالنظريات العضوية Organic Theories التى تشبه حياة الحضارات بدورة الحياة التى يمر بها النبات والحيوان والانسان والمتمثلة فى قانون الطبيعة الابدى الذى يسير بها من الولادة الى الطفولة ، ومن الشباب الى المشيب ، وينتهى كل شىء بالموت ويتزعم هذه المدرسة المؤرخ الالماني المعاصر اوزوالد شبنجلر Oswald Spengler ، التى عبر عنها فى كتابه الشهير 'Untergang des Abendlandes' ، كما يأخذ بها ايضا الاستاذ اسكويث Asquith والذى يعلنها صراحة وبالحرف الواحد « أن خلايا الامبراطورية الرومانية وانسجتها قد بلغت نهايتها المحتمة كأي شىء حى (١) .

أما أرفولد توينبى فالبرغم من أنه يدين بالكثير الى شبنجلر فى بلورة نظريته الا أنه لم يرفض فكر شبنجلر الفلسفى الذى يعتبر المجتمع الحضارى كائنا حيا مثل باقى المخلوقات ، ويرفض الاخذ بفكر الاستمرار التوارثى بين الحضارات الآفلة والحضارات الوليدة ، وان الحضارات الوليدة ترث كل ما سبقها من الحضارات وليس سابقتها فقط ، وسمى ذلك بنظرية تلاقى الحضارات . وسئل اعتراض توينبى على شبنجلر ان هذا الاخير فيلسوف وليس مؤرخ (وهذه قضية قديمة قائمة بين الفلاسفة والمؤرخين حول فلسفة التاريخ) ومن ثم ركز توينبى بتخطيط المؤرخ القدير على المنهج التجريبي حيث بين ان المجتمعات ليس فى نظره سوى الدورات التى تكون فى مجموعها التاريخ . وأن تطور ونمو هذه المجتمعات الحضارية يقرر مصير الارادة الانسانية والزعامة المبدعة وليس الى القانون العضوى الازلى كما يقول شبنجلر واسكويث ، ويزيد توينبى على ذلك نظريته القائلة بأن هناك تحدى دائم challenge بين الطبيعة لابد وأن يقابله استجابة response يتوقف على أساسها طبيعة البنيان الحضارى للمجتمع فاذا كان التحدى ايجابيا ازدهرت الحضارة اما اذا كان التحدى سلبيا فانها تضمحل وتنهار (٢) .

وبناء على هذه النظرية يحلل توينبى سقوط الامبراطورية الرومانية بقوله ان

(١) H. Asquith, The legacy of Rome (Oxford 192). chapter 1.

(٢) قدم الاستاذ فؤاد شبل عرض موجز لنظريات توينبى يمكن الاستفادة منه انظر فؤاد محمد شبل - منهج توينبى التاريخي - سلسلة المكتبة اليرقانية العدد ٢٠٩ (نوفمبر ١٩٦٨) .

الامبراطورية عندما وصلت الى اوج قمتها واجبت تحدى من البروليتاريا الداخلية وهى الجماهير الحاشدة التى يحكمها الاقلية المسيطرة بالعنف ، وكان رد البروليتاريا هو انها اولت ظهورها للدولة محاولة التنقيث من آلامها باعتناق ديانات غيبية وآلهة جديدة مثل الالهة الترقية ، وكانت النتيجة ان فشلت الحضارة الرومانية فى ترويض هذه البروليتاريا التى لم تجد فى الحضارة الرومانية الرقابة أى مصلحة نفعية او واقعية . اما التحدى الثانى فمصدره الشعوب المحيطة بالامبراطورية مثل الثراكين واهل سكيثيا والفرس وانعرب والجرمان وقد سماهم توينبى بالبروليتاريا الخارجية التى بالرغم من اعجابها وتقديرها للحضارة الرومانية الا انها باتت تنربص بالامبراطورية المريضة وتسعى للانقراض عليها وتقويض مجتمعها لتقيم عليه مجتمعات جديدة . وقد أدى عجز الحكومة الرومانية فى الاستجابة للتحديات من الداخل والخارج الى انهيار الامبراطورية . وسد فوات الاوان ظهرت الاستجابة ممثلة فى المسيحية كديانة عالمية لكل الاجناس . والمسيحية لم تأت من خارج الفضاء بل ولدت من رحم الحضارات القائمة ، وظهر نجاح الاستجابة فى خلق المسيحية لمجتمعات جديدة اولها الحضارة المسيحية الغربية الحضارة الام لاسميه الآن بالحضارة الأوروبية ، وثانيها الحضارة الارثوذكسية الشرقية من بيزنطة والتى كونت فيما بعد روسيا وجيرانها (١) .

وهناك فريق من المؤرخين يعزى انهيار الامبراطورية الى عوامل عنصرية . ومن هؤلاء الاساتذة فرانكس الذى يفسر سقوط الامبراطورية بأنه نتيجة لطفيان اندماء الترقية على الدماء الرومانية وهى فكرة مرفوضة تماما لان الحضارة الرومانية ذاتها ليس الا مزيجا من التراث الغربى وخلاصة تجارب الحضارات الشرقية القديمة وأن يوليوس قيصر تحدث عن عالمية الحضارة الرومانية وبالتالي عالمية الامبراطورية الرومانية، ناهيك عن قول توينبى فانه لا توجد حضارة الا وساهمت اجناس اخرى فيها ، وأن الحضارة ليست من خلق الجنس وحده ، بل نتيجة لتفاعله مع البيئة . ويبدو رأى فرانكس اكثر ضالة عندما نبحث عن الطريقة او التجربة التى توصل بها الى مثل هذا الرأى ، فيقول انه أجرى دراسته على اسماء الموتى على شواهد القبور الرومانية ، توصل فيها الى أن نسبة المواليد فى الفترة الاخيرة من الامبراطورية كانت عشرة فى المائة رومان وتسعين فى المائة من غير الرومان ، ونتيجة لفقدان الصفات المميزة والموروثة للعنصر

A. Toynbee A Study of History (Abridgement) by E. Somervell (1)
(Oxford 1926), p. 402-412.

الرومانى وطفيان العنصر لشرقى عليهم فقد سادت القيم والمفاهيم الشرقية التى تظهر فى الاتجاهات الدينية وظهور التسلط والاستبداد على الطريقة الشرقية وتدهور التراث واللغة اللاتينية واختفاء القيادة الموهوبة الخلاقة (١) .

وقد ردت باحثة أثرية على المنهج الذى اتبعه فرانكس بأن دراسة الاسماء مضللة تاريخيا ، فالناس يطلقون على أبنائهم ما يشتهون من أسماء ، ولم يحدث قط أن تقيد الاسم بالعنصر الوراثى الا فى حالات نادرة ، وتضرب مارى جوردون الامثلة بأن الاسياد كانوا يسمون عبيدهم أحيانا بأسماء رومانية ، بل أن العبيد المحررين كانوا يتخذون رسميا أسماء رومانية ، حتى وان قبلنا افتراض وجود علاقة بين الاسم والعنصر فان النموذج الدراسى المحدود (وهو ثلاثة قرون ممثلة فى ١٣٩٠٠ شاهد قبر) لا يمثل القطاع الحقيقى للمجتمع الرومانى بشكل علمى قاطع (٢) .

وقد هاجم كاتز . Katz اصحاب التفسير العنصرى لسقوط الامبراطورية وهو أن التدهور كان نتيجة لاستنزاف العنصر الرومانى اترافى بسبب "حروب المتعاقبة وبسبب الانخفاض المتلاحق فى معدل المواليد بين الرومان الخالصين ، وينساءل من قال أن الحروب المتلاحقة أهلكت العنصر الرومانى وحده ؟ خاصة أننا نعرف أن الرومان بدأوا يعزفون عن دخول الجيش منذ عصر أغسطس نفسه ، كما أن الحضارة الرومانية والثراء الرومانى لم يكن من خلق العنصر الرومانى وحده بل لقد ثبت أن الاباطرة الذين انخرطوا من عناصر غير رومانية كانوا أصدق وأخلص بكثير من غيرهم الذين ينخرطون من عرق رومانى خالص ، كما أن الافتراض القائل بأن الرومان الخالصين كانوا يضربون عن الانجاب او عن الاكثار فى الانجاب هراء اذ ليس هناك من دليل على أنهم كانوا يريدون لعنصرهم أن ينقرض (٣) . وقد هاجم « بيورى » هذا الزعم مؤكدا انه لا يوجد أى دليل على أن تعداد سكان ايطاليا فى القرنين الثالث والرابع كان اقل تعداد ابان القرنين الاول والثانى الميلادى ، ويردد ما رده كاتز فيما بعد بأن موجات الاوبئة التى

(١) T. Franks «Race Mixture in the Roman Empire», American Historical Review, XXI (1916), pp. 140 ff.

(٢) Mary Gordon «Nationality of Slaves Under the Early Roman Empire». J.R.S., XIV (1924).

كذلك انظر رد Baynes على نظرية Nilson العنصرية

المسألة : انظر J.R.S. 1943.

(٣) S. Katz, The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe, (Cornell 1963). p. 77 f.

عصفت بسكان الامبراطورية لم تكن بالخطيرة لدرجة ان نمزى اليها تدهور واضمحلال الامبراطورية (١) .

أما الاستاذ دى بوج فيخالف مدارس المحللين فى تحليله السياسى لسقوط الامبراطورية ، وذلك انه اتبع المنهج المباشر الذى لا يبحث عن جذور التحلل العميقة بل يعتبر اصلاحات ديوقلديانوس هى نقطة التحول نحو الانحدار والسقوط وهى نقطة يأخذ بها كثير من المؤرخين من غير اصحاب النظريات . وفحوى نظريته ان اصلاحات ديوقلديانوس جاءت بعكس المطلوب . فهو مثلاً فصل بين السلطتين العسكرية والمدنية ولكن ذلك ادى الى ارباك الوضع الداخلى وخلق ثغرة فى الجهاز اتسعت لتصبح هوة قوضت الكيان الامبراطورى ، كما ان تقسيم الامبراطورية الى اربعة اقاليم وتقسيم كل اقليم منها الى عدد من الوحدات الادارية خلق ارتباكاً فى الادارة وعرقل المصالح والاعمال وساعد البيروقراطية على التضخم لتصبح آفة قاتلة متغلغلة فى ادارت الامبراطورية وفى اعداد الموظفين التى ملئت الاجهزة الجديدة المعقدة ، فضلاً عما تكلفته الامبراطورية من نفقات باهظة فى الاجور والمرتبات . ويلقى دى بوج على ديوقلديانوس مسؤولية الانهيار الاقتصادى لانه جعل الصناعات والحرف التجارية تحت الاشراف الحكومى والمباشر ، بل جعل هذه المهن وراثية محولا نقابات الحرفيين وجمعياتهم الى اجهزة خدمات تابعة للدولة فقتل الابداع والخلق ، وتحولت طاقة الامبراطورية من الديناميكية الدافعة الى الجمود والتحجر ، كما انه لم يحاول تخفيف عبء الضرائب عن الطبقات الكادحة المنتجة مصدر السخط والثورة . اذا فجوهر اصلاحات ديوقلديانوس دفاعية وليست احيائية طموحة . عاد معظمها بالنتائج العكسية تماماً والمثل على ذلك واضح فى فكرته الخاصة بتقسيم الامبراطورية الى شطرين شطر شرقى وشرط غربى وتعيين امبراطور على كل شطر يساعده نائب ، كان هدفه من ذلك هو منع قيام الصراع حول العرش وغرس مبدأ السلطة الجماعية ، ولكن الاحداث التى عصفت بالامبراطورية بعد اعتزاله عام ٣٠٥ وحتى تولى قسطنطينوس عام ٣٢٤ كانت كلها حول الاستئثار بالعرش والنزاع على السلطة ، بل واستمر ذلك حتى بعد وفاة قسطنطين عام ٣٣٧ عندما تولى العرش ثيودوسيوس عام ٣٥١ ثم اندلع بعد وفاة ثيودوسيوس واستمر حتى سقطت الامبراطورية نهائياً عام ٤٧٦ ميلادية (٢) .

تم بعون الله

J. Bury, History of the late Roman Empire 395-565 A.D., vol. I (1) (London 1923), pp. 308-318. = Katz, op. cit., p. 78.

W. De Burgh, The Legacy of the Ancient World, vol. II, (Middlesex (2) 1953), p. 390. f.

مراجع وبحوث اضافية لتاريخ الامبراطورية الرومانية *

* استثنينا من هذه القائمة المصادر والبحوث والمراجع التي أشرنا إليها في هوامش الكتاب وخصصناها للمراجع والبحوث التي لم نذكر في الهوامش إما لعدم وجود المناسبة أو لأن بعضها وصل إلى علم المؤلف بعد أن مثل الكتاب للطبع .
(م ٣٣ - تاريخ الامبراطورية الرومانية)

أولا - دراسات عن المصادر الأدبية لتاريخ الإمبراطورية :

- * M. Grant, «The Ancient Historians, London, Weidenfeld & Nicolson 1970, paperback reprint 1974.
- * وهو مجموعة مقالات عن المؤرخين القدماء هيرودوت حتى أميانوس
* H. Millar : A Study of Cassius Dio, Oxford, The Clarendon Press, 1964.
- * K. Buechner: Studien zur roemischen literatur, vol. IV, Tacitus und Ausklang, Wiesbaden, F. Steiner 1964.
- * J. Tresch, Die Nerobuecher in der Annalen des Tacitus Tradition und Leistung. Heidelberg, Winter 1965.
- * R. Hauessler, Tacitus und das historische Bewusstsein, Heidelberg. Winter 1965.
- * A. Michel, Tacite et le destin de l'Empire, (Coll. Signes des temps), Paris, Arthaud 1966.
- * J. Laugier, Tacite, (Coll. Ecrivains de toujours) Paris, ed., du Seuil 1969.
- * M. Streng : Agricola, Das Vorbild roemischer Statthalter nach dem Urteil des Tacitus, Bonn. R. Habelt, 1970.
- * R. Urban, Historische Untersuchungen zum Domitianbild des Tacitus, diss Muenich 1971.
- * W. Den Boer, Rome a travers trois auteurs du IV Siedes, Mnemo Syne, XXI, 1968, p. 254-282.
- * J. Matthews, Olympiodorus of Thebes and the history of the West (A.D. 407-425), Journal of Roman Studies, LX, 1970, p. 79-97.
- * G. Clement, la Notitia Dignitatum. Cagliari. Ed., Sarda, Fossataro 1968.
- * R. C. Blockley, Ammianus Marcellinus-A Study of his historiography and Political Thought, Collection Latomus 141, Brussels, Latomus 1975.
- * T. D. Barnes, Tertullian-A. Historical literary study. Oxford, The Clarendon Press. 1971.

ثانيا مصادر النقوش والبردى والنقود :

- * R. G. Collingwood and R. P. Wright, The Roman Inscriptions of Britain, vol. I Inscriptions of stone. Oxford University Press, 1965.
- * Alan Bowman, «Papiri and Roman Imperial History 1960-1975». *Journal of Roman Studies*, LXVI (1976) pp. 153-173

وهو مقال دقيق يبين من أسماء المؤلفين التاريخيين في العصور الرومانية وأسماء الإباطرة وتحديد العوانين وقد استوفى المؤلف في ذلك ما كان عليه الحال في ذلك

- * Ch. Ternes. les Inscriptions antiques du Luxembourg, Luxembourg, 1965.
- * L. Maretti, Inscriptiones Graecae Urbis Romae, t. I, Rome Istituto Italiano per la storia antica 1968.
- * C.H.V. Sutherland and R.A. Carson : The Roman Imperial Coinage, vol. VI, From Diocletianus reform (A.D. 294) to the Death of Maximinus Daia (A.D. 313), London Spink 1967 ; vol. VIII, by P. Brunn : Constantine and Licinius A.D. 313-337, (1966).

ثالثا : المصادر التشريعية والقانونية :

- * R.F. Girard et F. Senn : Textes de droit romain, t. I, 7th edition, Pais, Dalloz, 1967.
- * J. Gaudement, Institutions de l'Antiquite, Paris Sirey, 1967.
- * F. De Martino, Storia della Costituzione romana, Roma 1965-1967.
- * R. A. Bauman, Impietas in principem (Muenchen Beitrage 67) Munich, C. H. Beck, 1974.

وهو يناقش العلاقة القانونية بين الخروج عن التقوى ومخالفة القانون وذلك في ضوء بعض القضايا الهامة خاصة المتعلقة بالخيانة العظمى .

- * J. Rougé, Les Institutions romaines (Coll. V. 2, no. 73), Paris, A Colin 1969.
- * Hugh. Mason, Greek terms, for Roman Institutions, a Lexicon and Analysis (American studies in Papyrology, Vol. 13), Toronto, 1974.

مراجع عامة عن الامبراطورية والاباطرة

- E.A. Albertini, l'Empire romain, deuxieme edition, Paris Presses Universitaires de France, 1970.
- J. Cagé, Les Classes Sociales dans l'Empire romain Paris, Payot 1964.
- M.I. Finley (editor) Studies in Ancient Society (Past and Present Series) Routledge and Kegan Paul 1974.
- P. Petite, La Paix romain (Coll. Nouvelle Clio no 9). Paris Presses Universitaires de France, 1967.
- P. Levêque, Empires et barbaries, troisieme Siecle av. J.C. au premier Siecle apres J.C. Paris, Larousse de poche 1968.

- A. H. M. Jones, Augustus (Coll Ancient Culture and Society), London, Chatto and Windus 1970.
- * R. Etienne, Le Siecle d'Augustus (Coll. V. 2, no. 139), Paris, A. Colin 1970.
- * D. Earl: The Age of Augustus, New York, Crown 1968.
- W. Schmitthener (Editor), Augustus, Darmstadt Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1968.
- Theodor W. Africa: Rome of the Caesars (Coll. New dimensions in history: Historical Cities, New York, John Wiley & Fils, 1965.
- E. Meise: Untersuchungen zur Geschichte der Julisch-Claudisch Dynastie (Col. Vestigia, Band 10), Munich 1968.
- D. L. Henning, D. L. Aelius Seianus, Untersuchungen Zur Regierung des Tiberius (Vestigia Beitrage Zur alten Geschichte. 21) Munich, Beck 1975.
- P. A. L. Greenhalgh. The Year of The Four Emperors, London Weidenfeld & Nicolson 1975.
- * De Timpe: Der Triumph des Germanicus, Bonn. R. Habelt, 1968.
- * D.G. Weingaertner, Die Aegyptenreise des Germanicus, Bonn. R. Habelt 1968.
- * E. Meissner: Sejan, Tiberius und die Nachfolge in Prinzipat, Erlangen J. Hogel 1968.
- * W. Oth, Die Provinzialpolitik des Tiberius, diss Muenchen, 1970.
- * Robia Seager: Tiberius, Eyre Methuen 1972.
- * B. H. Warmington, Nero: reality and legend (Coll Ancient Culture and Society), London Chatto and Windus 1969.
- E. Cizek, l'Epoque de Neron et ses Controverses idealogiques. (Roma aeterna, 4) Leiden, E. J. Brill 1972.
- J. Rs. LXVI, 1976, p. 229.

وهو كتاب شيق لكنه لم يأت بجديد

- M. Grant Nero: London, Weidenfield and Nicolson 1970.
- P. Petite: Le premier siecle de notre ere (Coll. V. 2, no. 47), Paris A. Collin 1968.
- M. Speidel: The Captor of Decebalus: a New Inscription from Philipp, J.B.S., 10, 1970 p. 142-153.
- Alcock: Studien zur Geschichte der Weltkrise des 3 Jahrhunderts nach Christus, Darmstadt 1967.

- * P. Petit, Histoire generale de l'Empire romaine (l'Univers historique) Paris, edition du Seuil 1974.
- * G. Lopuszanski, la date de la Capture de Valerian et la Chronologie des empereurs gaulois (Cahier de l'instiut d'etudes polonaise en Belgique 9), Bruxelles 1951.
- * J. Goudy : La Chute de l'Empire Romain (Coll. il ya toujours un reporter) Paris Julliard 1967.

أبحاث وكتب لبعض جوانب خاصة في الامبراطورية الرومانية

عن صور وتشعارات والقباب القياصرة :

- * Alloeldi: Die monarchische Representation in romischen Kaiserveiche, Darmstadt, Wissenschaftliche, Buchgesellschaft 1970.
- * P. Kneissel: Die Siegesetitular der roemischen Kaiser, Untersuchungs, Goettingen, Vandenhoeck und Ruprecht, 1969.

عن نظام حكم المواطن الاول وأصوله :

- * P. Herrmann, Der roemische. Kaisereid. Untersuchungen zu seiner Herkunft und Entwicklung, Goettingen, Vandenhoeck and prinzipatideologie (Koelner historische Abhandlung 18) Koeln-vienna, Boehlau 1970.
- * Kleit, Liberalitas principis: Herkunft und Bedeutung. Studien zu Ruprecht, 1968.

عن مجلس السناتو ووضع شخصياته البارزة في صدر الامبراطورية .

- * A. Bergerer: Die Fuehrende Senatorenschicht in Fruehen pinzipat (14-68 nach. Christ), Bonn Habelt 1965.

عن الترشيحات والتركيبات الامبراطورية لبعض الشخصيات ومشروعات (Commendatio Imperiale)

- * R. Frei-Stoll: Untersuchungen zu den Wahlen in der roemischen Kaiserzeit. diss Zurich, Juris Verlag 1967.

عن تأثيرات في صدر الامبراطورية في النظر :

- * Le culte des Semones dans l'Empire romain et son influence sur l'antiquite Classique. *T.S. *Vandenhoeck and Ruprecht, Göttingen, 1970.

عن الشخصيات البارزة وكبار الموظفين في الفترة ما بين ثيسبسيانوس،
وحتى حكم هادريان :

- * W. Eck, Senatoren von Vespasian bis Hadrian, Prosopographische Untersuchungen mit Einschluss der Jahres und Provinzialfasten der Statthalter (Vestigia 13), Munich, C.H. Beck 1970.

عن الاجراءات المتبعة من اجل الحصول على مقعد في السنااتو في عصر
افسطس وحتى عام ٧٣ م .

- * A Chastagnol, Recherches sur l'histoire Auguste Eann 1970.

عن العلاقة بين الوضع الاجتماعى والمراكز السياسية وتطور ذلك
بالنسبة للسنااتو حتى القرن الرابع الميلادى .

- * Recherches sur les structures sociales dans l'Antiquite Classique, Paris, C.N.R.S. 1970.

عن الادارة والحكم المحلى فى المقاطعات والولايات والتطور فى
منح الجنسية الرومانية :

- * Essais Critiques (Publication de l'Institut de Droit romain de Ch. Saumogne, Le droit Latin et les cites romaines sous l'Empire. de l'Universite de Paris XXIII), Paris Sirev 1965.

عن الدستور الانطونينياتى انظر :

- * Ch. Saumagne : Quelques observations sur la constitutio Antoniniani, Melanges. J. Carcopino, Paris Hachette, 1966.

وفيه يعيد تفسير القانون بأنه كان يعنى منح الاجانب الحقوق اللاتينية
الرومانية وهذا تفسير اعترض عليه العلماء . وعن الجنسية الرومانية
وقضيتها :

- * W. Seston, La Citoyennete romaine, Actes du XIIIème Congres international des Sciences historiques, Moscow 1970.

وعن المجالس المحلية فى الولايات الرومانية خاصة فى افريقيا فى القرن
الثالث الميلادى وما بعد انظر :

- * T. Kotula, Les assemblees provinciales dans l'Afrique, société des sciences et des lettres de Worclaw no. 108, Worclaw, 1966.

وهو بحث مكتوب بالبولندية لكنه مشفوع بملخص بالفرنسية .

- * J. Deimager, Der Provinziallandtage der roemischen Kaiserzeit. Von Augustus Bis zum Ende des dritten Jahrhunderr nach Christ (Vestigia 6), C.H. Beck, Munich 1965.

عن الإدارة الدينية لولايات الامبراطورية الغربية :

- * D. Ladage, Stadtische Priester und Kultaemer im Lateinischen Westen des Imperium romanum zur Kaiserzeit diss, cologne, 1971. 1971.

العتقاء والعبيد ووضعهم الاجتماعي، ودورهم المهني والاقتصادي في الامبراطورية الرومانية :

- * G. Boulvert. Esclaves et affranchis Imperiaux sous el Haut Empire romain : rôle politique et administratif, Naples, Jovene 1970.
- * H. Chantaine : Freigelassene und Sklaven in Dienst der roemischen Kaiser, Studien zur ihrer Nomenklature (Forschngen zur antiken Sklaverei I) Wiesbaden, F. Steiner 1967.

وعن دراسة سكانية للعبيد من خلال شواهد القبور الخاصة بهم
انظر :

- * G. Fabre : La démographie des esclaves et affranchis imperiaux (Thèse de 3 ème Cycle) Bordeaux, 1970.
- * R. Etienne et G Fabre : Demograhie et classe sociale l'exemple du cimetiere des officielles de Carthage, Recherches sur les Structures Sociales dans l'Antiquite classique, Paris C.N.R.S. (1970)

وعن الدراسة الديموجرافية لسكان الامبراطورية انظر :

- * P. Salmon : Population et depopulation dans l'empire romaine, Collection Latomus 137, Bruxelles, 1974.

الاقتصاد في المجتمع الروماني : الزراعة والتجارة والتكنولوجيا

المهنية :

- * G. Charles Picard et J. Rougé : Textes et documents relatifs à la vie économique et sociale dans l'Empire romaine 31 av. J.C.- 225 apres J.C.), (Coll. Regards sur l'histoire), Paris 1969.

M.I. Finley : The Ancient Economy, Chatto and Windus, London
1973. [= cf J.R.S, LXV, 1975 pp 164-171 (M.W. Fredericksen)]

وهو دراسة دقيقة للاقتصاد الاغريقي والروماني عامة من ناحية
رأس المال ، والعمل والعمال والاستثمارات والتسويق واحتياطي النقد
فضلا عن الطبقات الاجتماعية بصورة مقارنة مثل السادة والعبيد ، ملاك
الاراضي والاجراء الزراعيون . المدن والقرى . الخ وعن الاتجاه الحديث
في دراسة اقتصاد الامبراطورية انظر :

Duncan-Jones : The Economy of the Roman Empire, University
of Cambridge Press 1974.

A.H.M Jones, The Roman Economy : Studies in ancient economic and
administrative history, edited by B. Brunt, Oxford Blackwell 1974.

وهو آخر كتاب صدر للعالم الراحل وهو تجميع لبعض مقالاته
التي سبق ان نشرها عن الاقتصاد الروماني خاصة في فترة التدهور وقد
اعتمد على مصر كثيرا وقد قام الاستاذ برنت باضافة كثير من الملاحظات
والحواشي .

وعن فن الزراعة واقتصادها في الامبراطورية انظر :

K.D. Whiter, A bibliography of Roman agriculture, University of
Reading, Institute of Agricultural History 1970.

K.D. White, Agricultural implements of the Roman World, Cam-
bridge University Press 1967.

عن الصناعة وتنظيم العمل المهني وفلسفة الاقتصاد :

N. Brockmeyer, Arbeitsorganisation und ökonomisches Denken in
der Gutswirtschaft des römischen Reiches, Bochum Broch-
meyer 1968.

R. Martin, Recherches sur les agronomes Latins et leur concep-
tions économique et sociales, Paris, Les Belles Lettres, 1971.

J.P. Wild, Textile manufacture in Northern Roman Provinces,
Cambridge University Press 1970.

عن العبيد كطبقة مهنية وحرفية تقوم عليها الصناعة الرومانية انظر :

F. Kiechle : Sklavenarbeit und teknischer Fortschritt in römischen
Reich (Forschungen zur antiken sklavery, III) Wiesbaden.
F. Steiner 1969.

R.J. Forbes, Studies in Ancient Technology, vol I à IX, Lyben, Brill 1965.
Brill 1965.

عن دور التجار في الصناعة والنقل انظر :

P. Vigneron, Le cheval dans l'Antiquité greco-romaine, des guerres médiques aux grandes invasions, Contribution à l'histoire des techniques (Annales de l'Est Nancy, Faculté des lettres, 1968).

عن السياسة النقدية للإمبراطورية منذ التدهور حتى إصلاحات ديوقليانوس وقسطنطينوس :

J.P. Callu, La politique monétaire des empereurs romains de 238 à 311 A.D (Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Fasc. 214), Paris E. de Boccard 1969.

عن النقود البرونزية والفضية التي سكّت في ولايات آسيا الصغرى الرومانية :

Robert, Monnaies grecques : types, Legends, magistrats : monétaires et géographie, Genève, Paris, Droz et Minard 1967.

عن التجارة في البحر الأبيض المتوسط وتنظيمها في عصر الإمبراطورية :

B.J. Rougé : Recherches sur l'organisation du Commerce maritime en Méditerranée sous l'Empire romain. Paris, 1966.

عن طريق التجارة في عصر الإمبراطورية الرومانية :

M.P. Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge 1926.

عن تجارة التوابل بين الشرق والإمبراطورية واستنزاف الشرق للذهب الإمبراطورية :

Innes Miller : The Spice trade of the Roman Empire : 29 B.C. to 641. A.D., Oxford, The Clarendon Press 1968.

عن البحرية الرومانية :

L. Casson, Ships and Seamanship in the ancient world. Princeton, University Press 1971.

: الجيش والعسكرية الرومانية :

H.G. Pflaum, Forces et faiblesses de l'armée romaine du Haut-Empire (Problèmes de la guerre à Rome), Paris Mouton 1969.

E. Gabba, Per La Storia del esercito romano in età imperiale (il mondo antico 3) Bologna 1974.

Robert. O. Fink : Roman Military Records on Papyrus [The American Philological Association, Monograph 26], 1971.

G. Webster. The Imperial army of the first and Second centuries A.D. London, Charles Black 1969.

عن الجيش في الفترة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية ونوعية الضباط والجنود :

D. Hoffmann, Das Spätromische Bewegungsheer und die Notitia Dignitatum, 2 vols, (Epigraphische studies 7) Dusseldorf, Rheinland, Verlag 1969.

عن المزايا الاجتماعية لدخول الجيش للفرد ولابنائه من بعده :

B. Dobson : The Centuriate and Social mobility during the principate, Recherches sur les structures sociales dans l'Antiquité classique, p. 99-116.

عن تطور فكرة القوات الخاصة :

R. Saxer : Untersuchungen zu den vexillationen des römischen Kaiserheeres Von Augustus bis Diokletian (Epigraphische Studien 1), Koeln, Böhlau 1967.

E.W. Marsden., Greek and Roman artillery, Historical development Oxford, The Clarendon Press, 1969.

وهو كتاب شامل لتطور الجيوش في بلاد اليونان خلال العصر الكلاسيكي وخلال العصر الهلينيستي ويعالج الجيش الروماني في عصر الجمهورية ولكن الفصل الثامن من هذا الكتاب (حواي ٢٥ صفحة) يعالج الجيش الروماني في عصر الامبراطورية : وحتى القرن الرابع الميلادي :

M. Dury : Les cohortes prétorienes, 2 édition, Paris 1968.

A. Fries, Die Cohortes urbanae (Epigraphische Studien 2), Coeln-Graz, Böhlau, 1967.

M. Spiedel : Die Equites Singulares Augusti, Begleittruppe der römischen Kaiser der Zweiten, und dritten Jahrhundert (Antiquitas, Reihe I, Band II), Bonn, R. Habelt 1965.

عن البحرية الحربية الرومانية ولمعارك القليلة التي خاضتها انظر :

D. Kienst, Untersuchungen zu den Kriegsflotten der römischen Kaiserzeit, (Antiquitas Reihe I, Band 13), Bonn R. Habelt, 1966.

الديانات والعبادات المختلفة في ولايات الامبراطورية :

J. Beaujeu et J. Defradas et H. Le Bonniec : Les Grecs et les Romaines (Trésor Spirituel de l'humanité) Paris Ed. Planete 1967.

M. Le Clay, La religion romaine (Coll. V. 2, no. 168), Paris A. Colin 1971.

عن انتشار عبادة ايزيس وسيرابيس وهاربوكراتيس (الثالث السكندري) في أرجاء الامبراطورية أنظر دراسات فيدمان وأهمها :

L. Vidman : Sylloge Inscriptionum religionis Isiaca et Sarapiacae Religionsgeschichtliche versuche und vorarbeiten, Band 28), Berlin. W. de Gruyte, 1969.

Isis und Sarapis bei den Griechen und Romern (Epigraphische Studien zur Vebreitung und zu den Trägern des aegyptischen Kultes, Band 29), Berlin 1970.

J. Leclant, Bibliographique des Isiaca. Repertoire analytique d' travaux relatifs à la diffusion des cultes isiaques, Leyden, Brill 1972.

M. Muenster : Untersuchungen zur Goettin Isis, Berlin 1938.

وكذلك مقالة C.B. Welles Historia, II (1962) من ص ٢٧١ — ٢٩٨ التي فيها يخرج برای جديد وهو ان سيرابيس من خلق الاسكندر نفسه وليس من خلق البطالة وقد رد العلماء بشدة على هذا الادعاء بالرفض :

H.W. Mueller : Der Isiskult in antiken Beneuent und Katalog der Skulpturen aus den aegyptischen Heigtuemern in Musco del Sannio zu Bevévent (Muenchener Aegyptologische Studien, 16). Berlin 1969 ; I Becher : Der Isiskult in Romee. Ein Kult der Habwelt ? (Zeitschrift für Aegyptische Sprache und Altertumskunde, 96 (1970), p. 18-90 ; Theodor Kraus : Alexandrinischen Triaden der roemischen Kaiserzeit. Mitteilungen des Deutschen Archaeologischen Instituts. Abteilung Kairo 19, 1963.

A. Bernard : Influence de l'Egypte et innovation d'Eschyle dans la representation d' Io. Annals of the Faculty of Arts Ein Shams University, III, Cairo, 1955, p. 77-103. ; G. Grimm : Die Zeugnisse aegyptischen Religion und Kunstelmente in roemischen Deutschland, Lyden, 1960.

وعن زيارة فسباسيانوس الى معبد سيرابيس بالاسكندرية انظر :

Derchain et J. Hubeaux, Latomus, XII, 1953, p. 38 52.

أما عن زيارة هادريانوس الى معبد سيرابيس انظر :

S. Follet, Hadrien en Egypte et en Judea, Revue de Philologie, XLII, 1968, p. 54-77.

وعن تأثير عبادة ايزيس على الديانة المسيحية انظر :

Maltrusaitis, «Essai sur la legende d'un mythe. La Conquete d'Isis. (Introduction à l'egyptomanie edit. O. Perrin), Paris 1967

عن عبادات الشرق الاخرى وتسلسلها الى شعوب الامبراطورية انظر

المراجع الآتية :

في سلسلة كتب :

«Etudes preliminaires aux religions orientales dans l'Empire romain»

وأهمها :

M.J. Vermasern : The Legends of Attis in Greek and Roman art (1966) ; A. Leroy Campbell : Mithraic iconography and ideology (1968) ; R. du Mensil Du Buisson, Etudes sur les dieux phéniciens herités par l'Empire romain (1970) ; M. Floriani Squarcapino : i culti orientali ad Ostia (1962) ; E and J Harris : The Oriental cult in Roman Britain (1965) ; L. zotovie : Les cultes orientaux sur territoire de la Mésie supetieure (1966) ; W. Blawatsky et G. Kochelenko : Le culte de Mithra sur la côte septentrionale de la mer Noire (1966) ; R. Turcan, Mithras Platonius, recherches sur l'hellenisation Philosophique de Mithras Etudes Preliminaires aux religions orientales dans l'Empire romaine, 47 | Leiden Brill 1975.

A. Garoia Y. Bellido, les religions orientales dans l'Espagne romaine (1967) ; R. Salditt-Trappmann : Tempel der aegyptischen Goetter in Griechenland und in der Westkueste Kleinasiens (1970).

عن تاريخ الديانة اليهودية والمسيحية في الامبراطورية الرومانية :

M. Meslin, Le Christianisme dans l'Empire romain, Paris Presses Universitaires de France 1970 ; M. Meslin et J. Polanque, Le Christianisme antique, Paris, A. Colin 1967 ; M. Simon et A. Benoit, Le Judaïsme et le christianisme antique, Paris, Presses Universitaires de France (1968), A. Hamman, La vie quotidienne des premiers chrétiens (95-197) Paris, Hachette, 1971.

عن سياسة القمع والاستئصال والاضطهاد الروماني للمسيحية انظر :

R. Freudenberger, Das Verhalten der roemischen Behoerden gegen die christen im 2 Jahrhundert, (Muenchner no. 52) Munich, C.H. Geck 1967 ; W.H.C. Frend, Martyrdom and persecution in the early church. A study of a conflict from the Maccabees to Donatus, Oxford Blakwell, 1965.

وعن انتشار المذهب الاريفوسي في الغرب الروماني انظر :

M. Meslin, les ariens, d'occident, (335-430 A.D.), Paris, Ed. du Seuil 1967.

وعد قيام مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) انظر :

W.H.C. Frend, The Rise of The Monophysite Movement, Cambridge University Press, 1972.

واخيرا عن سياسة الاضطهاد المسيحي التي قام بها الاباطرة المسيحيون ضد المهرطقين واليهود والوثنيين في القرن الرابع انظر :

K.L. Noethlichs, Die gesetzgeberischen Massnahmen der christlichen Kaiser des vierten Jahrhunderts gegen Haeretiker, Heiden und Juden, diss. Koeln, 1971.

الفكر التاريخي والسياسي والقانوني في عصر الامبراطورية :

S. Mazzarino : il pensiero storico classico, III : l'età romana imperiale, Bari Laterza, 1966 ; A. Momigliano : Studies in historiography, London. Weidenfeld and Nicolson 1966 ; A. Michel.

la philosophie politique à Rome d'Auguste à Marc-Aurele (Coll. V) Paris Collin 1969 ; J. Briddet, Les idées politiques des Lucain, Paris Belles Lettres 1964 ; D. Gliardi, Lucano Poeta della Liberta. Naples, Loffredo 1968 ; R. Turean Sénèque et les religions orientales (Coll. Latomus, vol. 91). Bruxelles 1967 ; Sherwin-White : The letters of Pliny : a historical and social commentary, Oxford, The Clarendon Press, 1966 ; J. Schwartz, Biographie de Lucien de Samosate (Coll. Latomus, vol. 83) Bruxelles 1965 ; T.D. Barnes, Tertulian : A. historical and literary study, Oxford University Press 1971 ; R. Klein : Tertulian und das roemische Reich, Heidelberg, Winter 1968 ; C. Dragon l'Empire romain d'orient au quartrieme siècle et les tradition politiques de l.hellenisme, Le temoignage de Themistos (Travaux et Memoires du centre de Recherch d'histoire et civilization byzantines III) Paris E. de Boccard 1968.

عن القانون الروماني ونصوصه في عصر الامبراطورية انظر :

J.A. Grook, Law and life in Rome (Aspects of Greek and Roman Life), London, Thames and Hudson, 1967.

عن العقود وشروطها انظر :

S.E. Winner : Contractus. Sein wortegebrauch und Willensgehalt im Klassischen roemischen Recht, 19) Koeln-Graz Boehlaue 1964.

وعن التعويضات وتقديرها حسب ظروف الحادثة انظر :

H. Honsell : Quod interest in bonae — Fidei — iudicium (Muenchener Beitrage zur Papyrusforschung und antiken Rechtsgeschichte, 55) Munich C.H. Beck 1969.

وعن شروط المقاضاة والخصومة في القانون انظر :

F de Marini Aronzo, I limiti alla disponibilita della «res litigiosa

وعن طبيعة التحكيم الدولي في صدر الامبراطورية انظر :

M. Iémosse Le, regime des relations internationales dans Le Haut Empire romain (Publications de l'institut de Droit romain de l'Univ. de Paris. 23) Paris, Sirey 1967.

عن تعاقد الدولة على استئجار عقارات من الافراد عن طريق وكلائها
انظر :

C. Alzon, Problème relatifs à la location des entrepôts en droit romaine, Paris. Ed. Cyja 1965.

وقد يساعد على فهم هذه القضية استئجار الصوامع والمخازن انظر :

G. Rickman : Roman granaries and store buildings, Cambridge University Press 1971.

وعن المواصفات والشروط الخاصة باقامة المباني والمنشآت العامة
انظر :

Y. Jannier : La législation du Bas-Empire romain sur les edifices publics (Publications des Annales de la Faculté des lettres d'Aix Aix-en Provence, la pensée Universitaire 1969.

وعن قانون واجراءات رفع الدعوى في المحاكم الرومانية انظر :

J.M. Kelly : Roman litigation, Oxford The Clarendon. Press 1966.

وعن تطور ذلك في عصر جستينيان انظر :

D. Simon : Untersuchungen zum Justinianischen zivilprozess (Papyrusforschung und antiken Rechtsgeschichte, 54) Munich. C.H. Beck, 1969.

الفنون والآثار :

وللمهتمين بطبيعة الفن الروماني واثره وطبيعته في عصر الامبراطورية
يمكن الرجوع الى الدراسات التالية :

G. Picard, Empire romain (Architecture Universelle, Freiburg 1964, W.L. MacDonald ; The Architecture of the Rome

Empire — A introductory Study, New Haven, Yale University Press, 1965 ; R. Bianchini, Rome Le Centre du Pouvoir, Paris Gallimard 1969 ; also his : Rome, la fin de l'art antique : H. Kaehler Der römische Tempel, Berlin 1970.

وعن الدراسات التفصيلية لبعض الآثار الكبرى في روما انظر :

- U. Brilliant : The Arch of Septimius Severus in the Roman Forum, Rome, The American Academy in Rome 1967 ; Wataghin-Cantino, La Domus Augustana, personalità problemi dell'architettura Flavia, Turin, Giacomelli, 1966 ; P. Zanker Forum Augustum. Tübingen 1968 ; K. de Fine Licht : The Rotunda in Rome : A Study of Hadrian's Pantheon, Selkirk, 1968 ; P. Fidenzoni, il teatro di Marcello, Roma, 1970 ; G. Cozzo, Il Colosseo, Roma. Palombi, 1971 ; Scott Ryberg : Panel reliefs of Marcus Aurelius, New York : Archaeological Institute of America 1967 ; H. Stern : La mosaïque grecque-romaine, Paris, 1965.

أما عن العمران الروماني في الولايات خاصة أفريقيا وولايات الشرق الأوسط انظر :

- L. Homo : Rome Imperiale et l'urbanisme dans l'Antiquité, 2^e édition Albin Michel 1971 ; M. Wheeler : Roman Africa, London Thames and Hudson, 1966 ; M. Racht, Rome et les Berbères. Un problème militaire d'Auguste à Dioclétien (Coll. Latomus, vol. 110), Bruxelles 1970 ; cf. Actes du congrès d'Halle, Africa und Rom in der Antike, edited by H.J. Dierck, H. Bath and H.D. Zimmermann, Halle Wittenberg, Martin Luther Universität, 1968-9.

أما عن شمال أفريقيا انظر :

- H.G. Pflaum : La romanisation de l'ancien territoire de Carthage punique à la Africaines, IV, 1970 ; A. Beschtaousch : Mustitana, Recueil des nouvelles inscriptions de Mustis, citd. Squarciapino : Leptis Magna. Bâle Raggi 1966 ; P.A. Février, romaine de Tunisie, Carthago, XIII, Paris 1968 ; Oaks Center for Byzantine Studies, Washington, 1973-1974. Tunis Institut national d'Archéologie et d'Art and Dumbarton Corpus des Mosaïques de Tunisie, Edit. M.A. Alexandre & Ennaifer,

M. Floriani Art d'Algerie antique, Paris de Boccard 1971 ;
M. Le Clay. Saturne Africain : monuments, 2 vols, Paris 1961-
1966, also cf. his Saturne africain, histoire (Bibliothèque des
Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome, Fasc. : 205) Paris
de Boccard 1966.

وعن تدهور الحضارة الرومانية في شمال إفريقيا مع تدهور
الامبراطورية انظر :

H.J. Diesner : Der untergang der römischen Herrschaft in Nord-
afica, Weimar, Boehlau 1964. also G. Charles Picard : La
Carthage de Saint Augustin (Coll. Résurrection du passé)
Paris,

وعن المسلات المصرية في روما انظر :

G. Panimolle, Gli obelisci di Rome antica, Stedini 1965.

أما عن جسور المياه في روما القديمة انظر لنفس المؤلف :

Gli acquedotti di Roma antica, Milano 1970.

وعن الحياة اليومية في مدينة بومبي القديمة على ضوء آثارها انظر :

R. Etienne, la vie quotidienne a Pompei, Paris, Hachette 1966.

دراسات حديثة عن ولاية الامبراطورية الغربية والشرقية :

(١) بلاد الغال :

P.M. Duval, La Gaule Jusqu'au milieu du cinquième Siecle (Les
Sources de l'histoire de France, t. 1) Paris, Gaule romaine
de 120 av. christ au 451 apres christ — Colonisation ou Colo-
nialism ? Paris, Payot, 2 edition 1966 ; M. Bordet, La Gaule
romaine Paris, Bordas 1971; M. Audin, Levon, miroir de Rome
dans les Gaules (Coll. Resurrection du passé Paris, Fayard
1965 ; E.M. Wightmann : Roman Trier and the Treveri,
London, Rupert Hart-Davis 1970.

(٢) ألمانيا :

B. Ruger : Germania Inferior: Untersu-chungen zur Territo ial und
Verwaltungs gethichte Niedergermaniens in der prinzipatszeit.

(٣٤ — تاريخ الامبراطورية الرومانية)

Cologne, Böhlau 1968 : G. Alföldy : Die Legionslegaten der römischen Rheinarmeen (Epigraphische Studien, 3) Köln-Böhlau 1967, also by the same author : Die Hilfstruppen der römischen Provinz Germania inferior (Epigr. Studien, 6) Düsseldorf Rheinland-Verlag 1968. P. La Baum : Die Römer am Rhein : Bonn W. Stollfuss 1970.

(٣) بريطانيا :

G. Simpson : Britons and the Roman army — A Study of Wales and the Southern Pennines in the 1st-IIIrd. Centuries. London The Cresset Press 1964 ; P. Salway : The Frontier People of Roman Britain, Cambridge Univ. Press 1965 ; D.R. Wilson : Roman Frontier of Britain, London, Heinemann 1967 ; I.D. Margary Roman roads in Britain, New York, Humanities Press 1967 ; A.L.F. Rivet : Town and Country in Roman Britain, London Hutchinson University Library 1968 ; also by the same author : Roman Villa in Britain, London Routledge and Kegan Paul 1969.

(٤) إسبانيا :

G. Alföldy : Fasti Hispanienses — Senatorische Reichsbeamte und Offiziere in den spanischen Provinzen des römischen Reiches, Von Augustus bis Diokletian. Wiesbaden, F. Steiner 1969. also. Madrid's Colloquium on the Roman Emperors of Spain, 31 Mars — 6th April, 1964). Paris 1965. ; J.M. Blázquez : Estructura económica y social de Hispania durante La Anarquía militar y el Bajo Imperio, Madrid, Facultad de Filosofía y Letras de la Universidad Madrid 1964. also cf., Estructura económica de la Bética al Final de la República romana y a comienzos del imperio (años 72 a.c. — 100) Hispania XXVII, 1967, p. 7-62.

(٥) البلقان والمانوب وبلاد اليونان :

G.J. Wikler : Die Reichsbeamten Von Noricum und ihr Personal bis zum Ende der römischen Herrschaft, Vienna Böhlau,

1969, J.J. Wilkes : *Dalmatia (History of the provinces of the Roman Empire)*, London, Routledge and Kegan Paul 1969; A. Dobo, *Die verwaltung der römischen Provinz Pannonien Von Augustus bis Diocletianus*, Amsterdam, Hakkert 1968.; S. Mrozek, *Les mines d'or de la Dacie au deuxième siècle : aspects sociaux et administratifs* (in polish but with a French résumé) Torun 1966.; Ph. Bruneau, *Recherches sur les cultes de Delos à l'époque hellénistique et à l'époque impériale* (Bibliothèque des Ecoles Française d'Athènes et de Rome, Fasc. 217) Paris. E. de Boccard, 1970.

(٦) آسيا الصغرى وسوريا ومصر :

- P.R. Frank, *Kleinasien zur Römerzeit. Griechisches Leben in Spiegel der Muenzen*, Munich, C.H. Beck 1968.; B. Levick, *Roman Colonies in Southern Asia Minor*, Oxford, The Clarendon Press 1967; Clark Hopkins, (Ed.) *Topography and Architecture of Seleucia on the Tigris*, Ann Arbor, University of Michigan, 1977.
- J. Ch. et M. Sournia, *L'Orient des premiers chrétiens Histoire et archéologie de la Syrie byzantine (Résurrection du passé)* Paris, Fayard 1966.; J.H.W.G. Libeneschuetz : *Antioch. City imperial administration in the Later Roman Empire*, Oxford. The Clarendon Press 1972.; A. Bernard : *Alexandrie la Grande (Signes des temps, 19)* Paris Arthaud 1966.; P.H. Wazer *Alexandria Ptolemaica*, Oxford 1972.; E. Bernard : *Inscriptions égyptiennes de l'Egypte gréco-romaine, Recherches sur la poésie épigraphique des Grecs en Egypte (Annales litter, de l'Univ. de Besancon, vol 98)* Paris, Les Belles-lettres 1969. H.C.Youtie, *Between literacy and illiteracy as aspect of Greek Society in Egypt*, Akten Des XIII Internationalen Papyrologen Kongress, Munchen 1974; J. Lindsay, *Leisure and Pleasure in Roman Egypt*, New York, Barnes & Noble, 1966. E. Wipszycka : *l'industrie textile dans l'Egypte romaine* worclaw Ossilinium. P.R. Swarnev : *The Ptolemaic and Roman iudios logos* : (American Studies in Papyrology vol 13) Toronto

1970 = cf. J.E.A, 58 (1970), pp 329-330 (by J. David Thomas), N. Lewis, An Inventory of Compulsory services in Ptolemaic & Roman Egypt, Toronto 1968; D. Crawford «Garlic growing in Graeco-Roman Egypt, Chronique d'Egypte no 96 (1973) pp 350-363; A. Straus, Le statut Fiscal des esclaves dans l'Egypte romaine, Chronique d'Egypte, no. 96. pp 361-369; Biezunska-Malwist, l'esclavage dans l'Egypte greco-romaine (Archiwum Filologiczne 30) Warsaw 1974; Alan K. Bowman: The Town-Councils of Roman Egypt [American Studies in Papyrology] Toronto 1971; J.D. Thomas, The Epistrategos in Ptolemaic and Roman Egypt, Papyrologicae Coloniensis, 6, Opladen Westdeutscher Verlag 1975; Bernard, Recueil des inscriptions grecques du Fayûm, 1. La Meris d'Herakleides, Leiden, Brill, 1975. Erwin Seidl, [Unter Mitarbeit von Dr. Lothar Müller] Rechtsgeschichte Aegyptens als roemischer Provinz (Die Behauptung des aegyptischen Rechts neben dem roemischen) sankt Augustin 1973.; G. Chalon : l'edit de Tibere Julius Alexander, Paris 1964; M. Humbert, La Juridiction du prefet d'Egypte d'Auguste à Diocletien» Aspects de l'Empire romaine, Paris 1964. ; O.W. Rheinmuth, The prefect of Egypt From Augustus to Diocletian, Klio, Beiheft XXXIV, (1935): A. Stein, Die Praefekten von Aegypten in der roemischen Kaiserzeit (1950); S. Wallace Taxation in Egypt From Augustus to Diocletian, 1938.

وعن مشاكل الادارة الرومانية لمصر وعدم كفاءة الولاة لنقص الخبرة الكافية ولان الاباطرة اعتمدوا على رجال الثقة الضعفاء خوفا من استقلال مصر ، فضلا عن صعوبة ادارة ولاية مزدحمة بالسكان مثل مصر ومصدرا يمد الامبراطورية بثاث ما تستهلك من القمح ، وضرورة ان يلم واليها بالخبرة العسكرية والقضائية والادارة المالية ولقصر مدة توليهم التي لم تتجاوز ثلاث سنوات ، مما ادى الى اعتمادهم على موظفين بيروقراطيين مستغلين انظر المقال الطريف :

P A. Brunt, «The Administrators of Roman Egypt, J.R.S, LXV (1975) pp 124-147.

فضلا عن قائمته بأسماء وتواريخ توالى الولاة من ٣٠ ق.م وحتى عام ٢٣٦ م .

وعن الفنون في مصر الرومانية : انظر :

Harden : Roman glass from Karanis, An Arbor, 1963.

Parlasca. «Reportorio d'arte dell, egipto greco-romana, vol. I, (Palermo 1969).

H.W. Peck. Mummy Portraits From Roman Egypt (Detroit 1967).

H. Zalusker, Portraits aus den Wüstensand, (Vienna — Munich 1961).

Kater-Sibbs (G) and M.F. Vermaseren : Apis, I The monuments From Hellenistic and Roman period, From Egypt; II monuments outside Egypt (etudes preliminaires aux religions orientales dans l'empire romain, 48) Leiden, Brill, 1975.

وعن الحمامات الرومانية في اقليم الفيوم والضرائب المفروضة عليها خاصة حمام مدينة كرانيس (كوم اوشيم) انظر الدراسة الاثرية اوثناقية :

S. EL-Nassery et G. Wagner et G. Castel, Un Grand Bain Greco-Romaine à Karanis, B.I.F.A.O, Tome LXXVI (1976) pp, 231-275,

وعن القبور وهندستها في مصر الرومانية وبالذات في مقبرة كوم أبو بللو مع انواع واشكال شواهد القبور والنقوش التي عليها انظر :

S. EL-Nassery, G. Wagner, et Abdul Hafeez Abdul-Al, «Nouvelle Stelae d' Abou Belhou,» B.I.F.A.O, LXXVIII, 1978.

وعن النقود في مصر الرومانية انظر :

West and Johnson, Currency in Roman Egypt. London 1952. ; J.G. Milne, Roman Coinage in Egypt in relation to native economy, Aegyptus vol 32, (1952) pp 143 ff.

فهرست الكتاب

رقم الصفحة	تقديم
٥	
١٣	الفصل الأول : المصادر الأدبية والتاريخية
١٨	الفصل الثاني : قيصر أكتافوس يقيم دشائم النظام الامبراطوري اكتيوم والتحول العظيم ١٨ ، اكتافوس يرسى دعائم الحكم الامبراطوري ٢٢ ، اكتافوس يتنازل عن سلطانه الاستثنائية ٢٣ ، السلطات التي حكم بمقتضاها اكتافوس ٢٥ ، اصلاحات أغسطس في المجال السياسي ٣٤ ، الإصلاح العسكري ٤٣ ، اصلاح الادارة وتحقيق الأمن في العاصمة والولايات ٤٩ ، الولايات الامبراطورية والولايات السيناتورية ٥٣ ، اصلاح حكم الولايات ٥٥ ، مصر ٥٧ ، شمال افريقيا ٦٧ ، الشرق الأوسط ٧١ ، سوريا وشبه الجزيرة العربية ٧١ ، مملكة يهودية في فلسطين ٧٧ ، بلاد الرافدين وآسيا الصغرى ٨٢ ، أوروبا الغربية ٨٤ ، أسبانيا ٨٤ ، الألب والبلقان ٨٥ ، بلاد الغال وألمانيا ٨٦ ، اخفاء الثورات في الليريا وألمانيا ٨٩ ، اصلاحات أغسطس في المجال الاجتماعي والأخلاقي والديني ٩٢ ، حركة البحث القومي والأحياء الديني ٩٢ ، نشر الأفكار السياسية عن طريق الادب والفن والمهرجانات العامة ١٠٧ ، فرجيل ١٠٨ ، هوراتيوس ١١٠ ، أوفيدوس ١١١ ، كتاب النثر ١١٢ ، قضية الخلافة على العرش ١١٣ ، تعليق على شخصية أغسطس ١١٩ ،
١٢٧	الفصل الثالث : اباطرة الأسرة اليوليو كلاودية تيريوس ١٢٩ تمرد القوات ١٣٤ ، علاقته بأبن أخيه جرمانيكوس ١٣٥ ، رحلة جرمانيكوس الى الشرق ١٣٦ ، مؤامرة سيانوس ، تحليل لشخصية تيريوس ١٤٠ ، جايوس كاليغولا امبراطورا ١٤٤ ، صدامه مع اليهود ١٤٧ ، كلاوديوس ١٥٠ ، سياسته واصلاحاته ١٥٢ ، محاكم القصر ١٥٧ ، نيرون ١٥٩ ، حريق روما وبداية اضطهاد المسيحيين ١٦٢ ، الولايات الامبراطورية وسياسة نيرون ١٦٥ ، مؤامرة بيسو ١٦٨ ، ثورة فندكس وسقوط نيرون ١٦٩ ، نظرة شاملة على الأحوال السياسية والثقافية والدينية في عصر اباطرة الأسرة اليوليو كلاودية ١٧٠ ،

الفصل الرابع : عوام ثورات الجيوش وتولى الأباطرة الأربعة

ثورة اليهود في فلسطين ١٧٨ ، ثورة الفالين بقيادة
يوليوس فندكس ١٨٠ ، الجنرال جالبا يتولى الإمبراطورية
١٨١ ، الإمبراطور اوتو ١٨٣ ، الإمبراطور فيتلوس ١٨٤ ،
الجنرال فسباسيانوس يتولى الحكم ١٨٥ ، ثورة أهل
بتافيا والفال ١٨٧ ، تيتوس يضع نهاية لثورة اليهود في
فلسطين ١٨٨ ، صراع القوات الرومانية ومستقبل
الإمبراطورية ١٩٣ ،

الفصل الخامس : حكم الأسرة الفلافية

١٩٦

فسباسيانوس ١٩٦ ، اتجاهاته واصلاحياته ١٩٨ ،
الإصلاح العسكري ١٩٩ ، الإصلاح المالي ٢٠٠ ، البناء
والتعمير ٢٠٠ ، سياسته ازاء ولايات الإمبراطورية ٢٠٣ ،
فسباسيانوس والشرق الأوسط ٢٠٤ ، العناية بالتعليم
والخدمات ٢٠٦ ، الخلافة والإدارة ٢٠٧ ،
فسباسيانوس والسناق ٢١٠ ، تحليل لشخصية
فسباسيانوس ٢١٢ ، خلفاء فسباسيانوس ٢١٣ ، تيتوس
٢١٣ ، دوميتيانوس ٢١٥ ، الاتجاد الأوقراطي في حكمه
٢١٥ ، سياسته واصلاحياته ٢١٦ ، سياسته الدفاعية
والعسكرية ٢١٩ ، الممارسة والمقاومة لحكمه ٢٢١ ، اغتيال
دوميتيانوس ٢٢٣ ، تقييم للأسرة الفلافية وعندها ٢٢٤
نظام حكم المواطن الأول بين النظرية والتطبيق ٢٢٨ .

الفصل السادس : عصر الأباطرة الصالحين

٢٣١

المصادر التاريخية ٢٣١ ، نرفا ٢٣٣ ، تراجانوس ٢٣٥ ،
الإمبراطور وحياته ٢٣٧ ، سياسته تجاه السناق ٢٣٨ ،
أعماله ٢٣٩ ، الإدارة الإنسانية الحازمة ٢٣٩ ، توسيع
حدود الإمبراطورية ونشر الحضارة والعمران ٢٤٣ ،
حروبه في الشرق ٢٤٤ ، القضاء على ثورة اليهود الثانية
٢٤٥ ، موت تراجانوس ٢٤٥ ، تقييم تاريخي لحياة
الإمبراطور وأعماله ٢٤٦ ، هادريانوس ٢٤٧ ، سياسته
الخارجية ٢٤٩ ، رحلاته الطويلة في الولايات ٢٥٣ ،
هادريانوس يزور الشرق الأوسط ومصر ٢٥٤ ،
هادريانوس يسحق ثورة أخرى لليهود ويشتتهم نهائيا
من فلسطين ٢٥٧ ، تدعيم حدود الإمبراطورية ٢٥٨ ،
اصلاحياته العسكرية ٢٥٨ ، تنظيم الإدارة في الولايات
٢٦٠ ، إعادة تنظيم جهاز الحكم ٢٦٢ ، اصلاحياته
القانونية والتشريعية ٢٦٤ ، علاقته بالستانو ٢٦٥ ،
الرعاية الاجتماعية للفقراء والمعوزين ٢٦٦ ، حركة
النشاط العمراني في روما وإيطاليا ٢٦٧ ، هادريانوس في
أيامه الأخيرة ٢٦٨ ، هادريانوس يختار خليفته ٢٦٩ ،
أنطونينوس بيوس ٢٧٠ ، علاقته بالسناق ٢٧١ سياسته

وأعماله ٢٧٢ ، تطوير التشريع الانساني ٢٧٣ ، سياسته الداخلية والخارجية ٢٧٤ ، موت الامبراطور انطونيوس بيوس ٢٧٥ ، ماركوس اوريليوس ولوكيوس فيروس ٢٧٦ ، الحرب ضد البارثيين ٢٧٩ ، حرب الدانوب ٢٨١ ، تمرد افيديوس كاسيوس ٢٨١ ، سياسة ماركوس اوريليوس الداخلية ٢٨٤ ، ماركوس اوريليوس والخلافة ٢٨٥ ، كومودوس ٢٨٦ ، الأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عهد الاباطرة الصالحين ٢٨٨ ، ازدهار الثقافة والعلوم ٢٩٢ ، ملامح التقدم الحضارى في المجتمع الرومانى ٢٩٨ ، تطور فن الادارة والتوسع في وضع اللوائح والتشريعات التنظيمية ٣٠٠ ، تطور الفكر الدينى ٣٠٢ .

٣٠٦ الفصل السابع : اندلاع الصراع بين قادة الجيوش وقيام حكم

سيثيروس
الامبراطور بيرتيناكس ٣٠٧ ، الفوضى تسود الامبراطورية ٣٠٨ ، سبتيميوس سيفيروس امبراطورا ٣١٠ ، تخلصه من منافسيه ٣١٠ ، اخضاع البارثيين ٣١٢ ، أعماله واصلاحاته ٣١٣ ، دعم الجهاز الادارى والتنظيمى لمواجهة بوادى الانهيار ٣٢١ ، كاراكالا ٣٢٥ ، سياسته ٢٣٥ ، الدستور الانطونينى ٣٢٦ ، مغامراته العسكرية ونهايته ٣٣٣ ، ماكريوس وابنه ٣٣٤ ، دور نساء آل سيفيروس فى استعادته العرش ٣٣٥ ، الجابالوس ٣٣٥ ، الكسندر سيفيروس ٣٣٦ ، نظرة شاملة على الامبراطورية فى عصر سبتيميوس سيفيروس وخلفائه ٣٣٩ .

٣٤٤ الفصل الثامن : الامبراطورية بين التصدد والانهيار (من الاسكندر سيفيروس حتى تولى ديوقليديانوس)

المصادر التاريخية لهذه الفترة ٣٥٧ ، اندلاع الصراع حول العرش ٣٥٨ ، ماكسيمينوس التراقى ٣٥٨ ، جورديانوس الثالث ٣٦١ ، فيليب العربى ٣٦٣ ، دقيوس ٣٦٣ ، فاليريانوس وابنه جالينوس ٣٦٥ ، تفاقم الاخطار الخارجية ٣٦٦ ، هزيمة الفرس على يد دويلة بلورا ٣٦٩ ، جالينوس والقوط ٣٧٢ اصلاحات جالينوس ٣٧٣ ، اليقظة المتأخرة على ايدى الاباطرة الاليريين ٣٧٥ ، كلاوديوس القوطى ٣٧٦ ، اوريليانوس ٣٧٦ ، حروبه ضد زنوبيا ملكة تدمر ٣٧٨ ، استعادته لبلاد الغال ٣٨٠ ، اصلاحاته الاقتصادية ٣٨١ ، عبادة رب الشمس الذى لا يقهر ٣٨٢ ، نهاية اوريليانوس ٣٨٣ ، الامبراطور تاكيتوس ٣٨٣ ، بروبوس ٣٨٤ ، كاروس وكارينوس ونومريانوس ٣٨٥ ، الامبراطورية قبل تولى ديوقليديانوس ٣٨٦ ، بداية الصراع بين

المسيحية والدولة ٣٨٦ ، ازدهار طبقة الفرسان
٣٨٩ ، تطوير الجيش الروماني ٣٩٠ ، التدهور
الاقتصادي ٣٩١ ، اضمحلال الثقافة والفنون ٣٩٢ .

٣٩٥ . الفصل التاسع : ديوقليانوس واصلاحياته الجذرية .

المصادر ٣٩٥ ، ديوقليانوس يفرض سيادته ٣٩٨ ،
منجزاته ٤٠٠ ، تقسيم السلطة واختيار ماكسيميانوس
شريكين ٤٠٠ ، اقامة السلطة الرباعية ٤٠٢ ،
ديوقليانوس والفرس ٤٠٧ ، اصلاحاته ٤٠٨ ، إعادة
المهابة والقداسة الى منصب الامبراطور ٤٠٩ ، تنظيم
الولايات ٤١٠ ، اصلاحاته العسكرية ٤١٢ ، اصلاحاته
المالية ٤١٣ ، وضع لوائح للضرائب ٤١٦ ، اصلاح نظام
النقد ٤١٨ ، لائحة الحد الأدنى للأسعار ٤١٩ ، اضطهاد
المسيحيين ٤٢٠ ، مرضه واعتزاله ٤٢٣ ، تقييم لحياته
واعماله ٤١٧ ، عودة الصراع حول العرش ٤٢٦ .

٤٢٨ . الفصل العاشر : حكم قسطنطينوس وخلفاؤه .

ظهور نجم قسطنطينوس في سماء الأحداث ٤٢٨ ،
ماكسيميانوس يتحدى السلطة الرباعية ٤٢٩ ، بداية
الصراع بين ماكسيميانوس وقسطنطينوس ٤٣١ ،
جاليريانوس يسدر قرار الصفو الديني ٤٣١ ، قسطنطينوس
ينزو ايطاليا ٤٣٢ ، مؤتمر ميلان ٤٣٤ ، نهاية
ماكسيميانوس دايا ٤٣٥ ، تفسيرهم الامبراطورية بين
قسطنطينوس واينيكسوس ٤٣٥ ، قسطنطينوس وموقفه
من الصراعات الدينية ٤٣٧ ، ظهور المذهب الأريوسي
٤٣٣ ، نهاية نيانوس ٤٤٠ ، مجمع نيقية ٤٤١ ،
اصلاحات قسطنطينوس الدينية ٤٥٤ ، تنظيم الجهاز
الاداري والشملي ٤٤٥ ، تنظيم المدن ٤٤٧ ، تبلور
نظام الاقطاع وافنان الارض والهبات المبنية ٤٤٧ ،
تأسيس المسيحية ٤٥٠ ، نهاية قسطنطينوس الأول
٤٥٣ ، خلفاؤه ٤٥٤ ، قسطنطينوس الانسحاب الى
٤٥٥ ، موته وتعليق على شخصيته ٤٥٦ ، حكم جوليانوس
المرتد عن المسيحية ٤٥٧ ، اعماله واصلاحياته ٤٥٧ ،
موته ٤٥٨ ، جوثيانوس يتولى العرش ٤٥٨ .

٤٦٠ . الفصل الحادي عشر : حكم فالنتيانوس ونيودوسيوس الكبير .

حكم الاخوين فالنتيانوس الأول وفالنس ٤٦٠ ، القوط
يهاجمون الامبراطورية ويحتلون البلقان ٤٦١ ، فلسفة
حكم فالنس وفالنتيانوس ٤٦٢ ، نيودوسيوس الأول
وصراعه ضد القوط ٤٦٣ ، نيودوسيوس ينتقم لمقتل
جراتيانوس ٤٦٤ ، نيودوسيوس والقديس امبروزيوس
٤٦٥ ، انقلاب اريوجانسوس ويوجينوس ٤٦٦ ،
تقييم لنيودوسيوس الكبير وسياساته ٤٦٧ .

٤٦٨ فصل اثنى عشر : سقوط الامبراطورية في الغرب .

تقسيم الامبراطورية الى شطرين ٤٦٨ ، نجاح الشطر
الشرقى ٤٦٩ ، الاريك يحتل روما ٤٧١ ، القوط
يحتلون بلاد العال واسبانيا ٤٧٣ ، قيام مملكة القوط
في بلاد الغال ٤٧٣ ، قبائل الوندال تهاجم ايطاليا وتحتل
اسبانيا ٤٧٤ ، مملكة الوندال في افريقيا ٤٧٥ ، مملكة
البورجونديين والفرنجة والسكسون ٤٧٦ ، آخر الاباطرة
الذين حكموا في الغرب - هونوريوس ٤٧٧ ، فالنتيانوس
الثالث ٤٧٨ ، ايتيوس ٤٧٩ ، اتيلا يغزو بلاد الغال
٤٧٩ ، زوال الامبراطورية في الغرب ٤٨١ .

٤٨٣ الفصل الثالث عشر : تحليل للمجتمع الرومانى ولاسباب سقوط
الامبراطورية

الصراع الطبقي ٤٨٤ ، الفوضى الفكرية ٤٨٧ ، العقيدة
المثرائية ٤٨٩ ، الافلاطونية الجديدة ٤٨٩ . المسيحية
وطوائفها ٤٩٠ ، الصراع الفكرى والعقائدى بين طوائف
المسيحية ٤٩٣ ، تفسيرات المؤرخين القدامى والمحدثين
لسقوط الامبراطورية ٤٩٧ .

٥١٢ راجع وبعوث اضافية لتاريخ الامبراطورية

٥٣٥ فهرست المحتويات الكتاب

رقم الايداع ٣٥٤٥ سنة ١٩٧٧
الترقيم الدولى ٢ - ١٦٦ - ٢٥٦ - ٩٧٧

